نبوية موسى





تاريخي بقلمي

تاريخي بقلمي

نبوية موسى

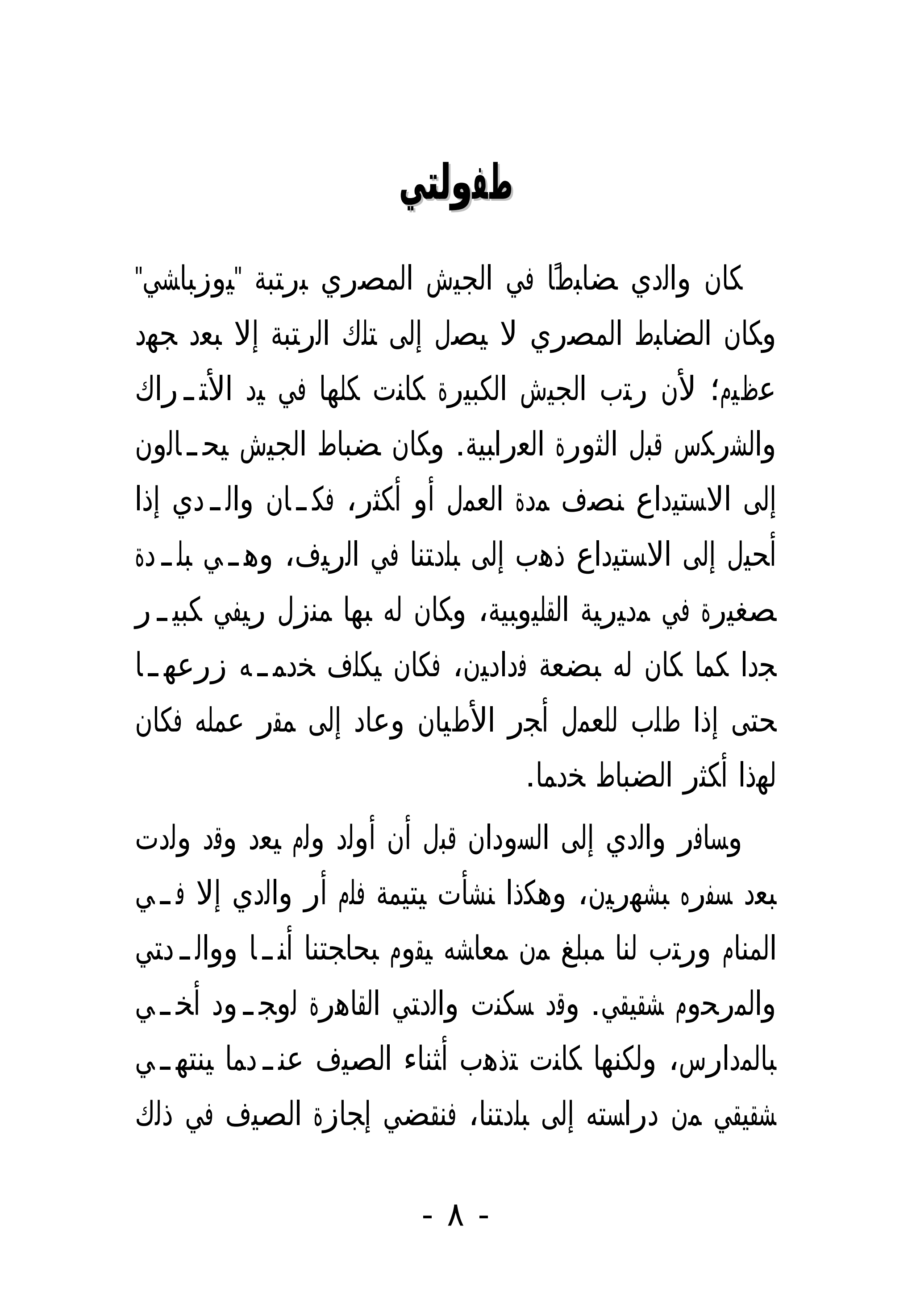


مُقَدِّمة

أنشأت مجلتي "الفتاة" في أكتوبر سـنة ١٩٧٣، وأخـذت أكتب فيها بعض ذكرياتي فأقبل الناس عليها، وطلـب منـي كثيرون أن أدونها في كتاب، وتلبية لهذا الطلب قمت بسـرد ذكرياتي حسب تاريخ حدوثها في حياتي، فأصـبحت بـذلك تاريخًا مفصلاً لما تكبدته من مشاق، وما شعرت به أحيانًـا من اغتباط، إن كان في ذلك التاريخ معنى للاغتباط.

وهو تحليل نفسي لفتاة قضت عمرها في جهـاد مسـتمر وهي نفسها لا تعرف إلى الآن أكـان سـبب هـذا الجهـاد والنضال المستمر خطأ صدر منها أم هو خطأ المقادير. لهذا أروي تاريخي بالتفصيل وأترك للقارئ الكريم بعد هذا الحكم لي أو علي. وسأتحرى الصدق فيما أكتبه ليبني القارئ رأيه على حقيقة واضحة لديه.

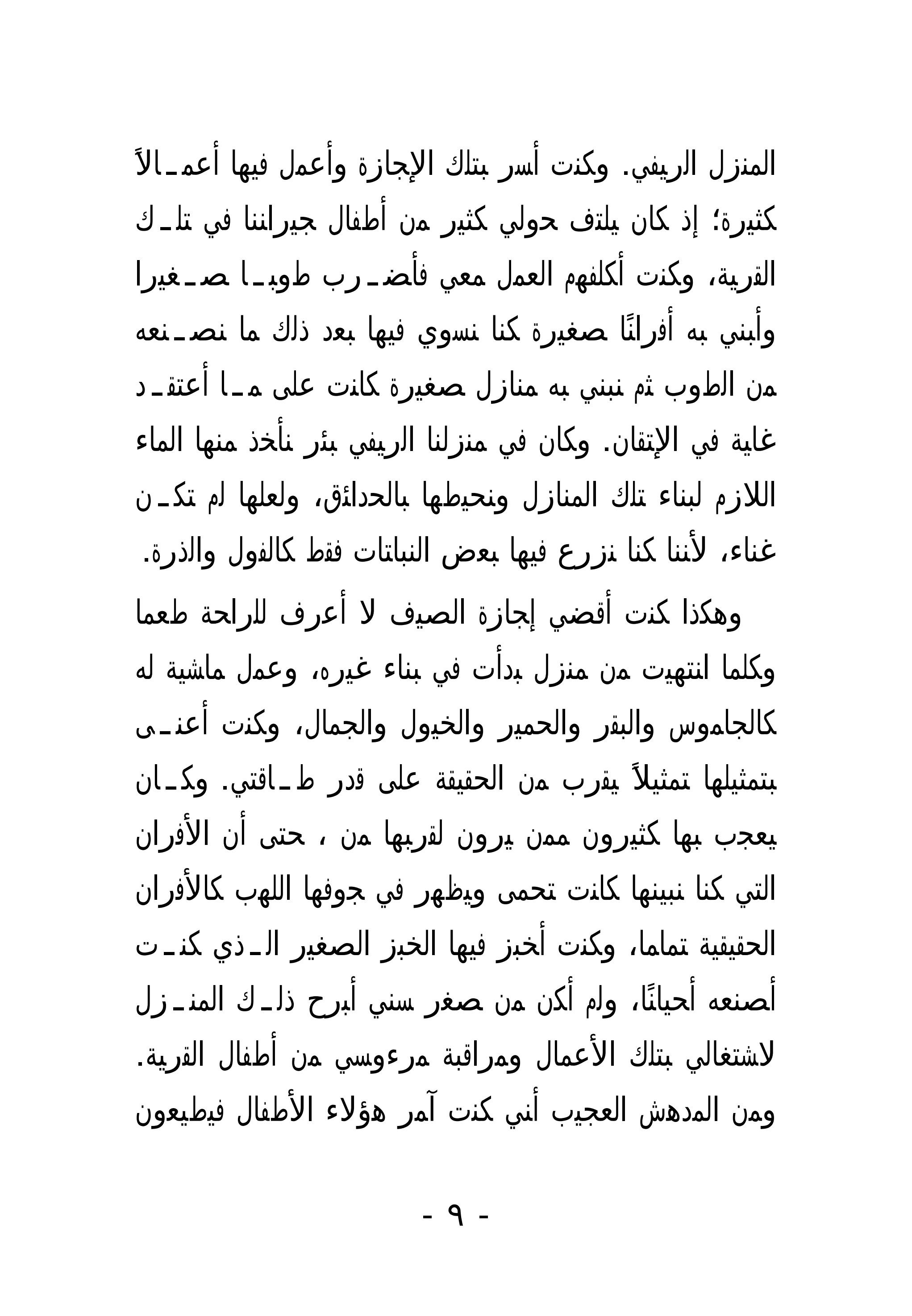
نبوية موسى



طفولتي

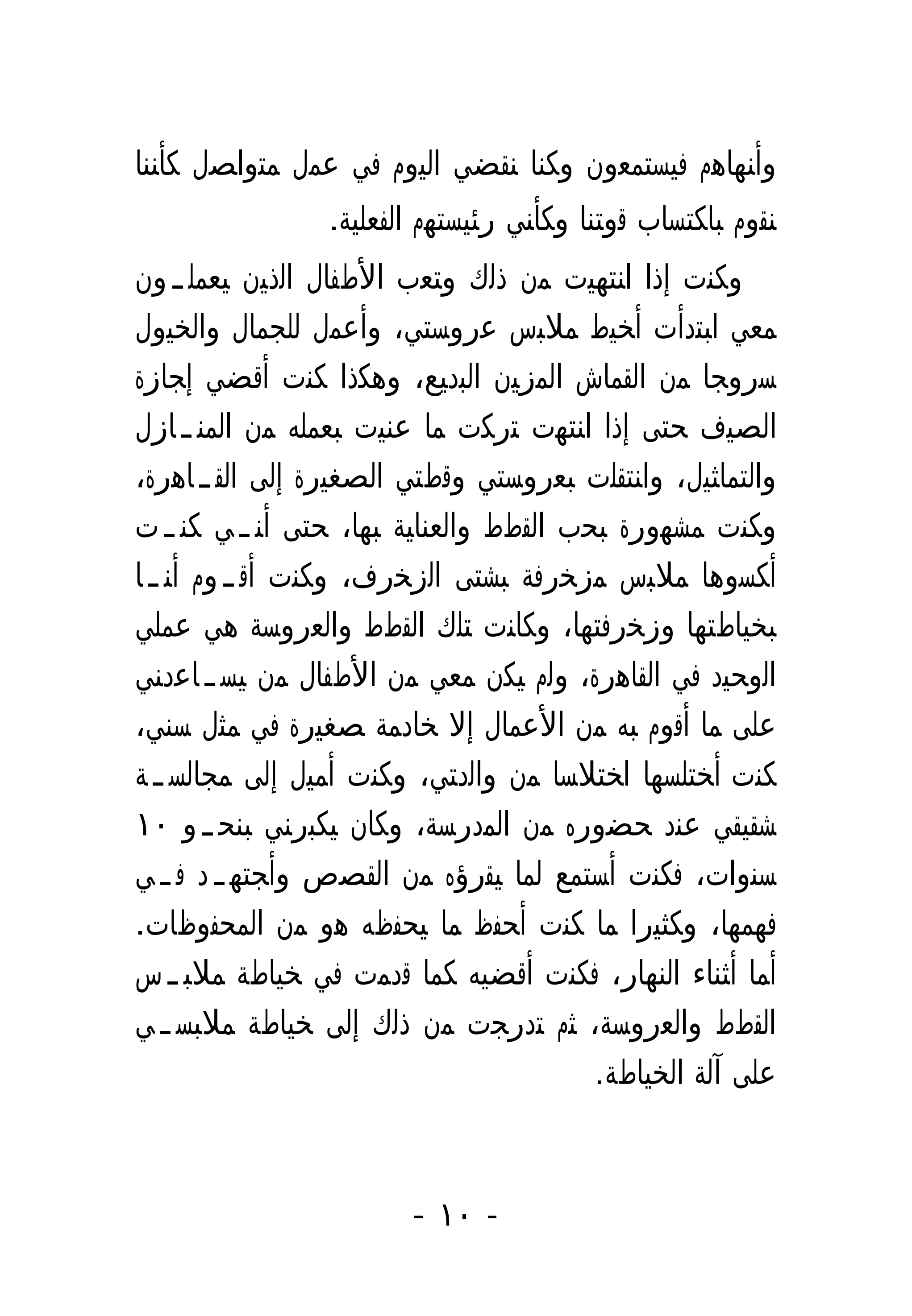
كان والدي ضابطًا في الجيش المصري برتبة "يوزباشي" وكان الضابط المصري لا يصل إلى تلك الرتبة إلا بعد جهد عظيم؛ لأن رتب الجيش الكبيرة كانت كلها في يد الأتراك والشركس قبل الثورة العرابية. وكان ضباط الجيش يحالون إلى الاستيداع نصف مدة العمل أو أكثر، فكان والدي إذا أحيل إلى الاستيداع ذهب إلى بلدتنا في الريف، وهي بلدة صغيرة في مديرية القليوبية، وكان له بها منزل ريفي كبير جدا كما كان له بضعة فدادين، فكان يكلف خدمه زرعها حتى إذا طلب للعمل أجر الأطيان وعاد إلى مقر عمله فكان لهذا أكثر الضباط خدما.

وسافر والدي إلى السودان قبل أن أولد ولم يعد وقد ولدت بعد سفره بشهرين، وهكذا نشأت يتيمة فلم أر والدي إلا في المنام ورتب لنا مبلغ من معاشه يقوم بحاجتنا أنا ووالدتي والمرحوم شقيقي. وقد سكنت والدتي القاهرة لوجود أخي بالمدارس، ولكنها كانت تذهب أثناء الصيف عندما ينتهي شقيقي من دراسته إلى بلدتنا، فنقضي إجازة الصيف في ذلك



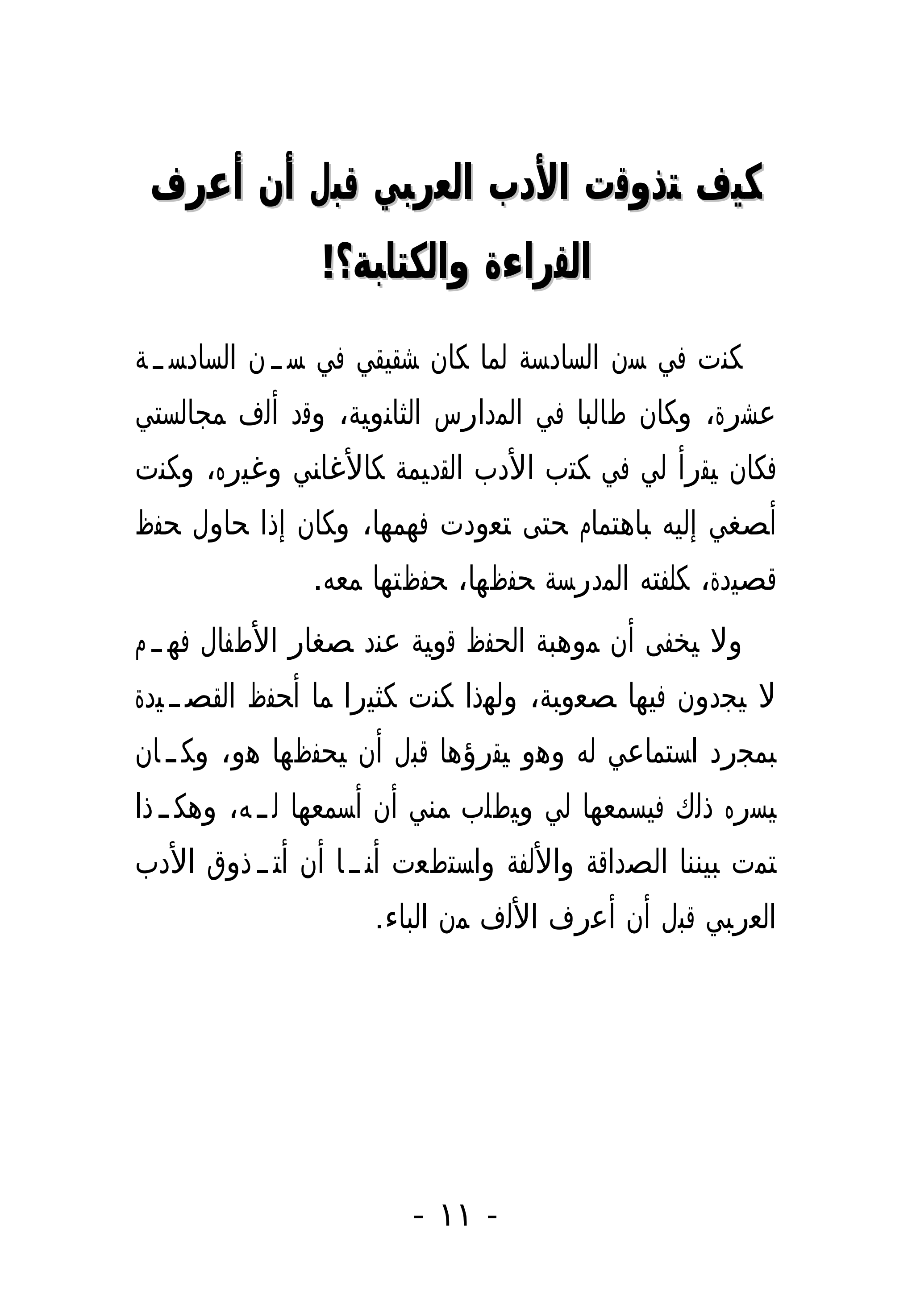
المنزل الريفي. وكنت أسر بتلك الإجازة وأعمل فيها أعمـالاً كثيرة؛ إذ كان يلتف حولي كثير من أطفال جيراننا في تلـك القرية، وكنت أكلفهم العمل معي فأضـرب طوبـا صـغيرا وأبني به أفرانًا صغيرة كنا نسوي فيها بعد ذلك ما نصـنعه من الطوب ثم نبني به منازل صغيرة كانت على مـا أعتقـد غاية في الإتقان. وكان في منزلنا الريفي بئر نأخذ منها الماء اللازم لبناء تلك المنازل ونحيطها بالحدائق، ولعلها لم تكـن غناء، لأننا كنا نزرع فيها بعض النباتات فقط كالفول والذرة.

وهكذا كنت أقضي إجازة الصيف لا أعرف للراحة طعما وكلما انتهيت من منزل بدأت في بناء غيره، وعمل ماشية له كالجاموس والبقر والحمير والخيول والجمال، وكنت أعنـى بتمثيلها تمثيلاً يقرب من الحقيقة على قدر طـاقتي. وكـان يعجب بها كثيرون ممن يرون لقربها من ، حتى أن الأفران التي كنا نبينها كانت تحمى ويظهر في جوفها اللهب كالأفران الحقيقية تماما، وكنت أخبز فيها الخبز الصغير الـذي كنـت أصنعه أحيانًا، ولم أكن من صغر سني أبرح ذلـك المنـزل لاشتغالي بتلك الأعمال ومراقبة مرءوسي من أطفال القرية. ومن المدهش العجيب أني كنت آمر هؤلاء الأطفال فيطيعون



وأنهاهم فيستمعون وكنا نقضي اليوم في عمل متواصل كأننا نقوم باكتساب قوتنا وكأني رئيستهم الفعلية.

وكنت إذا انتهيت من ذلك وتعب الأطفال الذين يعملـون معي ابتدأت أخيط ملابس عروستي، وأعمل للجمال والخيول سروجا من القماش المزين البديع، وهكذا كنت أقضي إجازة الصيف حتى إذا انتهت تركت ما عنيت بعمله من المنـازل والتماثيل، وانتقلت بعروستي وقطتي الصغيرة إلى القـاهرة، وكنت مشهورة بحب القطط والعناية بها، حتى أنـي كنـت أكسوها ملابس مزخرفة بشتى الزخرف، وكنت أقـوم أنـا بخياطتها وزخرفتها، وكانت تلك القطط والعروسة هي عملي الوحيد في القاهرة، ولم يكن معي من الأطفال من يسـاعدني على ما أقوم به من الأعمال إلا خادمة صغيرة في مثل سني، كنت أختلسها اختلاسا من والدتي، وكنت أميل إلى مجالسـة شقيقي عند حضوره من المدرسة، وكان يكبرني بنحـو ١٠ سنوات، فكنت أستمع لما يقرؤه من القصص وأجتهـد فـي فهمها، وكثيرا ما كنت أحفظ ما يحفظه هو من المحفوظات. أما أثناء النهار، فكنت أقضيه كما قدمت في خياطة ملابـس القطط والعروسة، ثم تدرجت من ذلك إلى خياطة ملابسـي على آلة الخياطة.



كيف تذوقت الأدب العربي قبل أن أعرف القراءة والكتابة؟!

كنت في سن السادسة لما كان شقيقي في سن السادسة عشرة، وكان طالبا في المدارس الثانوية، وقد ألف مجالستي فكان يقرأ لي في كتب الأدب القديمة كالأغاني وغيره، وكنت أصغي إليه باهتمام حتى تعودت فهمها، وكان إذا حاول حفظ قصيدة، كلفته المدرسة حفظها، حفظتها معه.

ولا يخفى أن موهبة الحفظ قوية عند صغار الأطفال فهم لا يجدون فيها صعوبة، ولهذا كنت كثيرا ما أحفظ القصيدة بمجرد استماعي له وهو يقرؤها قبل أن يحفظها هو، وكان يسره ذلك فيسمعها لي ويطلب مني أن أسمعها له، وهكذا تمت بيننا الصداقة والألفة واستطعت أنا أن أتذوق الأدب العربي قبل أن أعرف الألف من الباء.

كيف تعلمت القراءة؟

انتهى شقيقي من دراسة الثانوية ودخل المدرسة الحربية الداخلية. فبعد عني وعز علي الأمر، وشعرت بالوحدة بعده، وتشوقت للقراءة حتى إذا عاد يوم الخميس من مدرسته توسلت إليه أن يعلمني مبادئ القراءة ففعل. ولم أكد أتعلم الحروف الهجائية وحركاتها حتى بدأت أعالج القراءة بنفسي، وكنت قد حفظت مع شقيقي بعض قصائد من كتاب "مجاني الأدب"، فلما عاد أخي أحد أيام الخميس رجوته أن يدلني على مكان إحدى تلك القصائد من كتاب "مجاني الأدب"، ثم أخذت أقرؤها في بحر ذلك الأسبوع، حتى إذا عاد في الأسبوع التالي أطلعته على مبلغ قراءتي لتلك القصيدة، ولما كنت قد حفظتها عن ظهر قلب قبل أن أقرأها فقد كنت أتعلم منها القراءة، وهكذا قضيت تلك السنة الدراسية في قراءة القصائد التي سبق أن حفظتها، وكنت أعتقد أنني لا أستطيع أن أقرأ غيرها.

وحدث في ذات يوم أني ذهبت لزيارة إحدى قريباتي فوجدت في منزلها كتابا صغيرا كتب عليه (قصة حسن

الصائغ البصري)؛ وكم كان سروري عظيما عندما استطعت قراءة ذلك العنوان، وقد اكتشفت في تلك اللحظة أني أستطيع أن أقرأ الكلمات التي لم تشكل، والتي لم أحفظها مـن قبـل. فسررت بذلك وطلبت من قريبتي أن تعيرني ذلك الكتاب فلم تمانع، وكانت قراءة ذلك الكتاب عملي مدة الأسبوع، حتى إذا عاد أخي من مدرسته أطلعته على مـا اسـتطعت قراءتـه. وأخذت من ذلك اليوم أقرأ كثيرا مـن الكتـب والروايـات، فقرأت كتاب ألف ليلة وليلة جميعه، وقصة عنترة بن شـداد بأكملها، كما قرأت كثيرا من الروايات الأخرى، لا أطلب من ذلك سوى التسلية، ومع هذا كنت أصل الليل بالنهـار فـي قراءتها، ثم ملت بعد هذا إلى الكتابة محاكية ما قرأته.

لقد قرأت أشعار عمر بن أبـي ربيعـة، وأبـي نـواس، ومجنون ليلى، وغيرهم، وكلهم يتغزلون ويتشببون بالنسـاء، وأخيرا، قرأت ديوان المرحومة عائشة هانم التيمورية، وكان فيه كثير من الغزل. واعتقدت لسـذاجتي إذ ذاك أن الغـزل سهل، وأن الإنسان يستطيع أن يقول في الغزل ما لا يستطيع أن يقوله في أي موضوع آخر، إذن يجب أن أقول الشعر في الغزل، وما دمت لا أشعر بالحب فكيف أتغزل أو أتشـبب؟

وأخيرا اهتديت إلى حل، وهو أن أكتب قصصا لأقول فيهـا الشعر الغزلي على لسان غيري، وكتبـت أول قصـة فـي كراسة صغيرة، وكان فيها الأبيات الآتية:

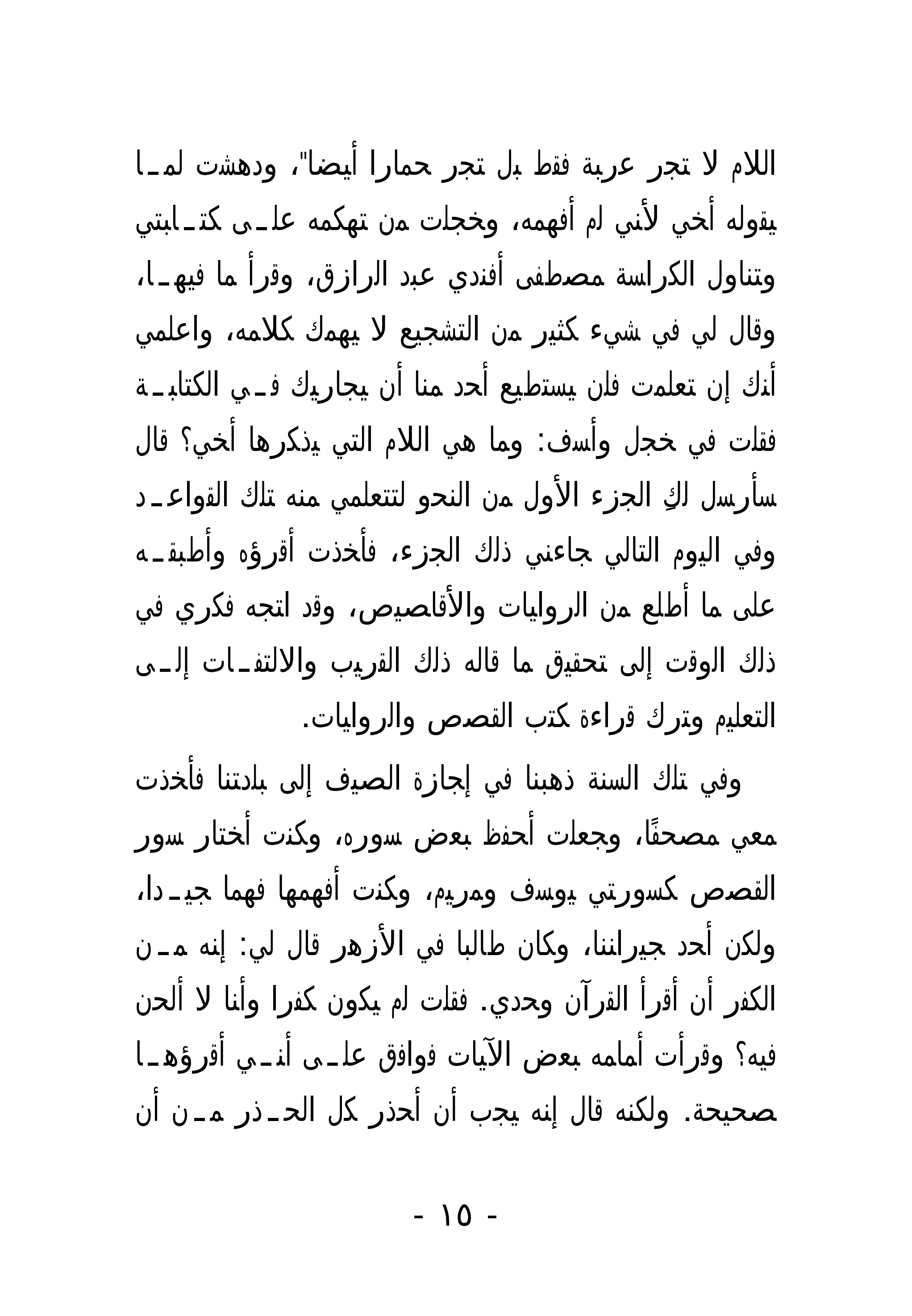
أحالت عن العهد الذي كنـت أعهـده
وموعدنا بالأمس خابـت مقاصـده

حبيبـــة قلبـــي لا تميـــل لعـــاذل
فإن عـذولي قـد دهتنـي مكايـده

وزوري فتـــى فـــي هـــواك متيمـــا
عليلاً ليشـكو مـا يلاقـي لعائـده

ولا أدري لم نصبت متيما وعليلاً، وأنا في ذلـك الوقـت لا أعرف شيئا من أصول النحو؟ كما يرى القارئ الكريم من ذلك البيت الأخير أني لم أكن أعرف حروف الجـر، ولهـذا رفعت عائدا تبعا لقافية الأبيات مع أنه مجرور.

وحدث أن دخل علي شـقيقي ومعـه مصـطفى أفنـدي عبد الرازق ابن عم والدتي، وفي يدي تلك الكراسة فأخـذها وقرأ الأبيات، ثم ألقى بها إلى الأرض مرسلاً ضحكة حلـوة عالية وهو يقول في دعابة وسخرية: "مالك والكتابة؟! إن هذه



اللام لا تجر عربة فقط بل تجر حمارا أيضا"، ودهشت لما يقوله أخي لأني لم أفهمه، وخجلت من تهكمه على كتابتي وتناول الكراسة مصطفى أفندي عبد الرازق، وقرأ ما فيها، وقال لي في شيء كثير من التشجيع لا يهمك كلامه، واعلمي أنك إن تعلمت فلن يستطيع أحد منا أن يجاريك في الكتابة فقلت في خجل وأسف: وما هي اللام التي يذكرها أخي؟ قال سأرسل لكِ الجزء الأول من النحو لتتعلمي منه تلك القواعد وفي اليوم التالي جاءني ذلك الجزء، فأخذت أقرؤه وأطبقه على ما أطلع من الروايات والأقاصيص، وقد اتجه فكري في ذلك الوقت إلى تحقيق ما قاله ذلك القريب والالتفات إلى التعليم وترك قراءة كتب القصص والروايات.

وفي تلك السنة ذهبنا في إجازة الصيف إلى بلدتنا فأخذت معي مصحفًا، وجعلت أحفظ بعض سوره، وكنت أختار سور القصص كسورتي يوسف ومريم، وكنت أفهمها فهما جيدا، ولكن أحد جيراننا، وكان طالبا في الأزهر قال لي: إنه من الكفر أن أقرأ القرآن وحدي. فقلت لم يكون كفرا وأنا لا ألحن فيه؟ وقرأت أمامه بعض الآيات فوافق على أني أقرؤها صحيحة. ولكنه قال إنه يجب أن أحذر كل الحذر من أن

أحاول فهم معناها، وإلا عد ذلك كفرا لأنه هو نفسه لا يحاول فهم سورة إلا إذا تلقى تفسيرها على أستاذه في الأزهر. فقلت له: ولكني أفهمها جيدا حسب ما أعتقد، قال: إن ما تعتقدينـه شيء والحقيقة شيء آخر. وأردت أن أعرف المعنى الـذي تعلمه هو في الأزهر. وأقسمت لـه إن أفـادني أن أمدحـه بقصيدة. وإن لم يفعل فلابد من ذمه بقصيدة أخرى. وسـألته عن معنى الآية **يا أَبانَا مُنِعَ مِنا الْكَيلُ فَأَرسِلْ معنَـا أَخَانَـا نَكْتَلْ وإِنا له لَحافِظُون** وقد كنت أفهم معنى تلك الآية على حقيقتها فقال لي هو إن أخاهم اسمه نكتل. وهنا سخرت منـه وقلت له: إن الكفر هو ما تعلمته أنت عن أستاذك. وكتبت له قصيدة الذم كما أوعدته، وكان اسمه محمدا أبا نصرة. ولست أتذكر شيئًا من تلك القصيدة إلا البيتين الآتيين:

أمحمــد ســموك خابــت ظنــونهم

لو أنصـفوك لكنـت تـدعى باقـل

لقبــت بالنصــرة وفعلــك ضــدها

فلــتعلم الأقــوام أنــك متخــاذل

خرافات وأوهام

تأثير السرور في الصحة

مرضت بعد هذا، وكان المرض غريبا حقًا لأنـي كنـت أستيقظ من النوم صارخة دون أن أشعر بذلك الصراخ، حتى إذا شعرت بحالتي أحسست كأن إبرا تغرس في كفي، وكـان هذا ولا شك هو سبب الصراخ. وكنت لا أبقي طعامـا فـي جوفي، وحاول الأطباء علاجي في غير جدوى، وعز علـى والدتي الأمر، وهالها بـالطبع مرضـي لأنـي أولاً ابنتهـا الوحيدة، وثانيا ستفقد بفقدي المعاش المقرر لي لهذا هلعـت كل الهلع، وأشارت عليها بعض صديقاتها بأن تعمل لي حفلة زار، فصممت على ذلك، وكانت قد باعت منزلاً صغيرا لنـا بمبلغ مائتي جنيه، وأرادت أن تشتري بها منزلاً آخـر فلمـا مرضت لم تبخل علي بالمبلغ، واستعدت لعمل حفلة الـزار، وأحضرت كثيرا من (مصاغ) الزار المعروف كخلخال مـن الفضة وأحجبة، وغير ذلك، إلا أني لم أسر لـذلك المصـاغ الغريب، ولم أعره أي التفات. وزارتنا في ذلك الوقت إحدى الدلالات ومعها قرط ثمين من الماس تبلغ قيمته مائة جنيـه،

ولكنها كانت تعرضه بخمسين جنيها، فتشبثت بشـراء ذلـك القرط، ولم تر والدتي بدا من إرضائي فاشترته لي، وكـان ذلك في اليوم الذي تمت فيه معدات الـزار. وقـد سـررت بالقرط سرورا عظيما، أعاد إلي صحتي، وقامت شيخة الزار بإعداد الكرسي ووضعت عليه صينية ملئت برءوس السـكر والمكسرات وزبادي اللبن وغير ذلك من المأكولات. سررت بكل هذا، وكان أخي ومصطفى أفندي عبد الرازق يحـذران من أن أعمل ما تعمله السيدات من ذلك الرقص المسـتهجن، فلم أفعل، ولكني بعد تلك الحفلة شفيت تماما، ولعل مرضـي كان عصبيا فشفاه السرور والابتهاج.

وسرت والدتي بشفائي بعد اليأس ورأت أن ما بقي معهـا من ثمن المنزل لا يكفي لشراء أي عقار فاشترت لي به حليا مختلفا من الذهب، كأساور وقلادات وغيرها.

دفعني السرور بذلك الحلي الجديد أن ألبسه وأذهب لأزور إحدى قريباتي، وقد كنت في ذلك الوقت لا أتجاوز الثامنة من العمر، وكان منظري لا شك مضحكًا لأني ألبس من المصاغ ما تلبسه الآنسات الرشيدات، وأنا لا أزال طفلة. وقابلتني في الطريق امرأتان من الرعاع فأقبلتا علي، وقالت لي إحداهما:

ألست ابنة السيدة فلانة؟ فقلت: نعم أنا هي. قالت: لقد كلفتني أمك أن أصنع لكِ عروسة كبيـرة بحجمـك فتعـالي معـي لأعطيها لكِ، ورابني كلامها، فقلت لها: وكيف أستطيع حمل عروسة في حجمي أنا؟

فدهشت المرأة، وقالت تعالي معي لأحضرها لكِ وأحملها أنا وأذهب بها إلى والدتك. قلت لا داعي إلى ذهابي معـك. وما دامت والدتي هي التي كلفتك صنع تلك العروسة فعليـك أن تذهبي إليها بها، وستحتفظ بها والـدتي لـي. ودهشـت المرأتان لهذا الجواب العجيب من طفلة، ومالت إحداهما على الأخرى، هامسة في أذنها "تكونش دي ست وانسخطت".

أتممت زيارتي، ثم عدت إلى والدتي فأخبرتهـا الخبـر، وقلت لها على مقدار شكي في المرأتين، فقالت لقـد صـدق ظنك لأني لم أكلف أحدا عمل عروسة، ولعلهمـا أرادتـا أن تسلباك حليك.

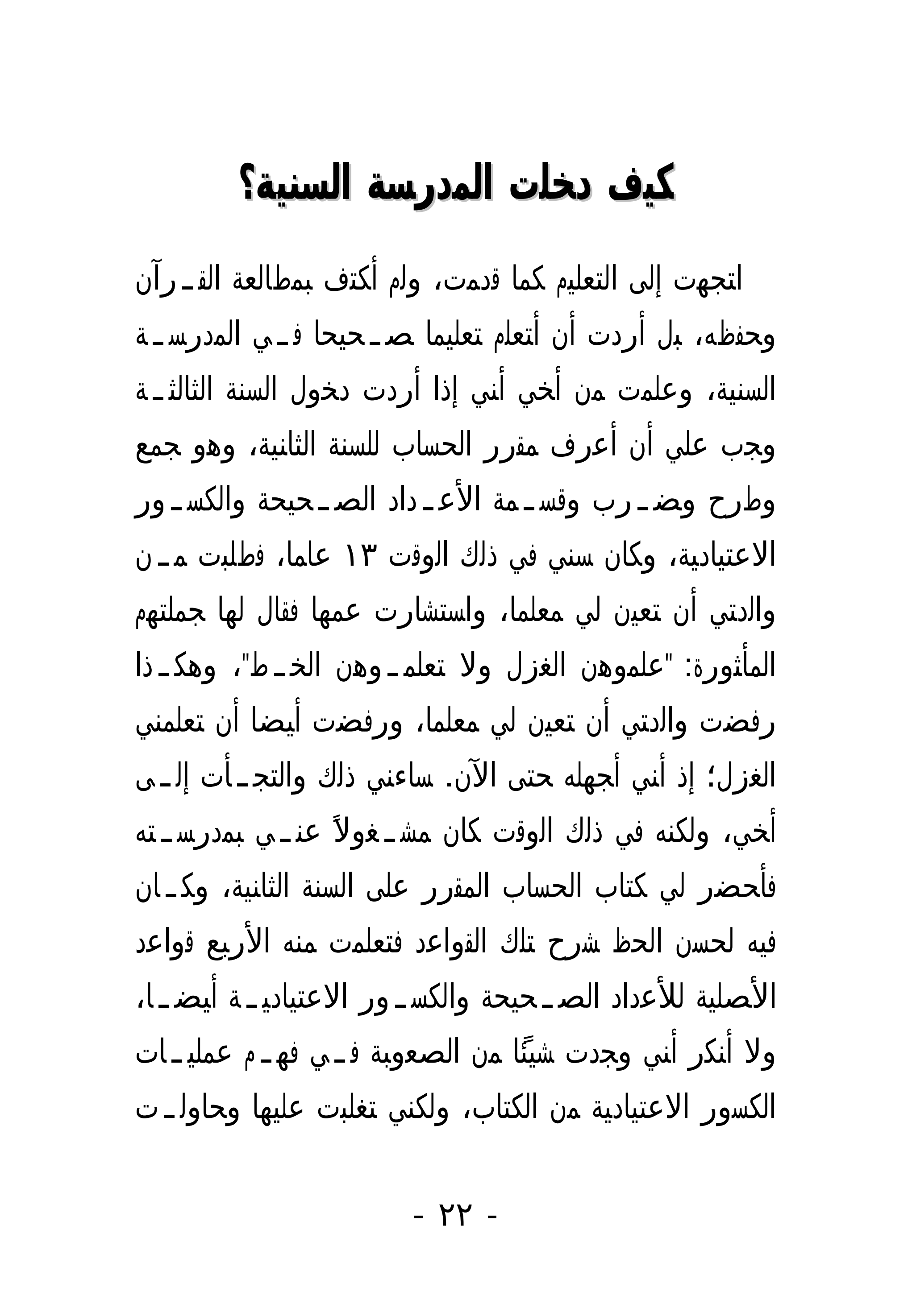
كان هذا الحلي موضع غرابة في الأسرة بأكملها فقال عم والدتي، إن والدتي لا تعرف التربية، وإن ابنها هذا الوحيـد سيتلف من تلك التربية، وينشأ ممن يجمعون أعقاب السجاير، أما البنت فلن تفلح بعد ذلك الحلي "والدلع" وستنشأ على أسوأ

سلوك، قال ذلك عم والدتي وأنا في الثامنة من عمري. وقد أثبتت الأيام خطأه، فقد كد أخي وعمل مع هذا الترف الذي كان يعيش فيه وملاينة والدتي له ولي. كد ودأب حتى كان من الأوائل في امتحان شهادة الحقوق. لأنه ترك المدرسة الحربية والتحق بالحقوق لأسباب صحية، وعين مساعدا للنيابة في شهر نجاحه. إذا كانت الحكومة تعين الأوائل بالترتيب. أما أنا فلم أكد أبلغ الثالثة عشرة من عمري حتى ازدريت لبس الحلي. فوضعته في علبة، ولم ألبسه حتى الآن. إذ دخلت في تلك السن المدرسة السنية، ولم أر من اللياقة أن ألبس شيئًا من هذا، والظاهر أنني اكتفيت بما تمتعت به من اللبس والدلع من نشأتي إلى سن الثالثة عشرة، ولم أعد بعد ذلك أشتاق لشيء منه.

ولعل حريتنا في صغرنا هي التي قوت من إرادتنا وجعلتنا، أي أنا وأخي، نبتعد عن اللهو ونكد ونعمل فيما نريد، وهذه على ما أعتقد هي التربية الاستقلالية التي نص عليها علماء التربية، ولم تقم بها والدتي لعلم بما ستجنيه منها، ولكن دفعها الجهل والخوف علينا إلى معاملتنا تلك المعاملة اللينة.

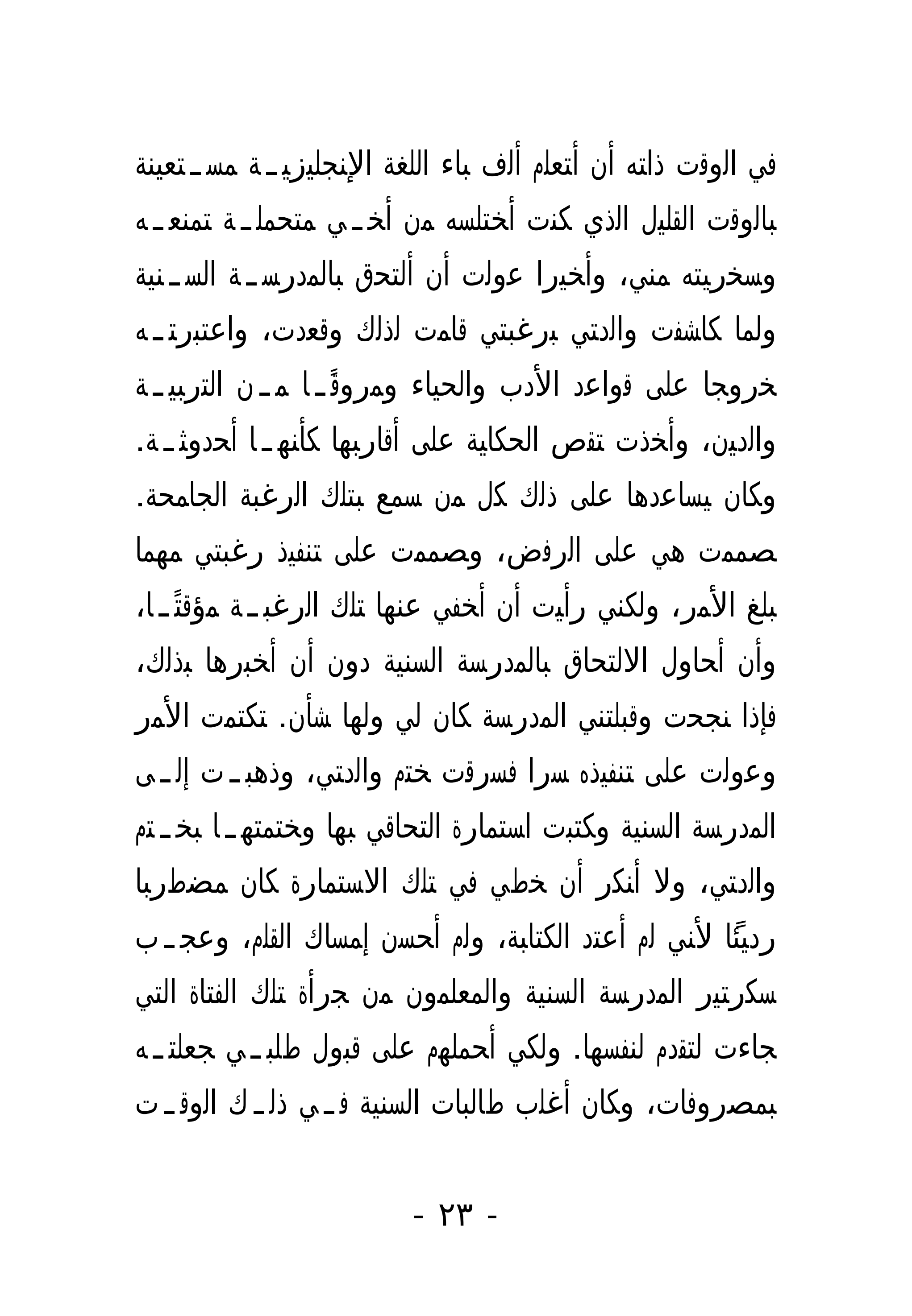
وبهذا نشأنا على الصدق وقوة الإرادة، ولكن هذه التربية لا تصلح في البلاد المستعمرة التي اعتاد أهلها الاستعباد فأصبح الرئيس يحتقر مرءوسه، ويهينه لسبب وبلا سبب. فإذا رفض هذه الإهانة كان عليه أن يحتمل الذل والفقر والطرد، وهذا هو نفس ما صادفني في حياتي. فقد فشلت فشلاً تاما وسبب ذلك الفشل هو تلك التربية التي اعتدت منها ألا أحتمل الضيم مما كان ضئيلاً.

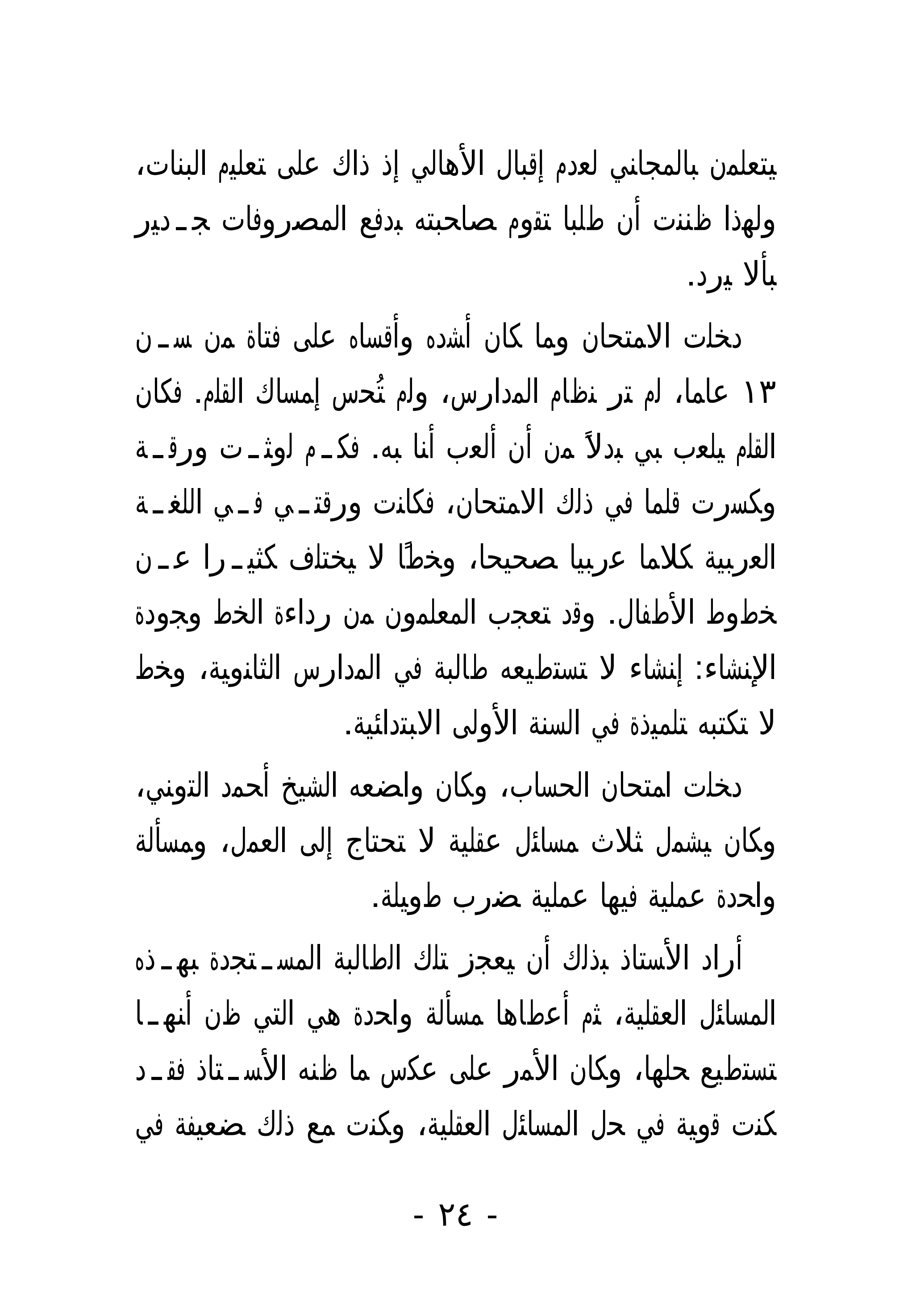
وكانت والدتي بعدها إذا مرضت ألحت علي في أن أعمل الزار لأنه تأكد لديها أن لي صاحبا من الجن، وأنني عندما أرضيته وعملت الزار شفيت، وهي تجهل أنني شفيت من تأثير السرور بما اشترت لي من الحلي، وأني بعد أن كبرت أصبحت لا أسر بتلك السخافات بل إن أسباب مرضي كانت في الغالب لكدري من أشياء أهمها قلة المال، ولو أني أطعتها وعملت حفلة زار لخسرت من النقود ما يضاعف مرضي، وهكذا استمرت هي على اعتقادها، وظللت أنا على نكراني وجحودي لجميل ذلك الزار.



كيف دخلت المدرسة السنية؟

اتجهت إلى التعليم كما قدمت، ولم أكتف بمطالعة القـرآن وحفظه، بل أردت أن أتعلم تعليما صـحيحا فـي المدرسـة السنية، وعلمت من أخي أني إذا أردت دخول السنة الثالثـة وجب علي أن أعرف مقرر الحساب للسنة الثانية، وهو جمع وطرح وضـرب وقسـمة الأعـداد الصـحيحة والكسـور الاعتيادية، وكان سني في ذلك الوقت ١٣ عاما، فطلبت مـن والدتي أن تعين لي معلما، واستشارت عمها فقال لها جملتهم المأثورة: "علموهن الغزل ولا تعلمـوهن الخـط"، وهكـذا رفضت والدتي أن تعين لي معلما، ورفضت أيضا أن تعلمني الغزل؛ إذ أني أجهله حتى الآن. ساءني ذلك والتجـأت إلـى أخي، ولكنه في ذلك الوقت كان مشـغولاً عنـي بمدرسـته فأحضر لي كتاب الحساب المقرر على السنة الثانية، وكـان فيه لحسن الحظ شرح تلك القواعد فتعلمت منه الأربع قواعد الأصلية للأعداد الصـحيحة والكسـور الاعتياديـة أيضـا، ولا أنكر أني وجدت شيئًا من الصعوبة فـي فهـم عمليـات الكسور الاعتيادية من الكتاب، ولكني تغلبت عليها وحاولـت


في الوقت ذاته أن أتعلم ألف باء اللغة الإنجليزيـة مسـتعينة بالوقت القليل الذي كنت أختلسه من أخـي متحملـة تمنعـه وسخريته مني، وأخيرا عولت أن ألتحق بالمدرسـة السـنية ولما كاشفت والدتي برغبتي قامت لذلك وقعدت، واعتبرتـه خروجا على قواعد الأدب والحياء ومروقًـا مـن التربيـة والدين، وأخذت تقص الحكاية على أقاربها كأنهـا أحدوثـة. وكان يساعدها على ذلك كل من سمع بتلك الرغبة الجامحة. صممت هي على الرفض، وصممت على تنفيذ رغبتي مهما بلغ الأمر، ولكني رأيت أن أخفي عنها تلك الرغبـة مؤقتًـا، وأن أحاول الالتحاق بالمدرسة السنية دون أن أخبرها بذلك، فإذا نجحت وقبلتني المدرسة كان لي ولها شأن. تكتمت الأمر وعولت على تنفيذه سرا فسرقت ختم والدتي، وذهبـت إلـى المدرسة السنية وكتبت استمارة التحاقي بها وختمتهـا بخـتم والدتي، ولا أنكر أن خطي في تلك الاستمارة كان مضطربا رديئًا لأني لم أعتد الكتابة، ولم أحسن إمساك القلم، وعجـب سكرتير المدرسة السنية والمعلمون من جرأة تلك الفتاة التي جاءت لتقدم لنفسها. ولكي أحملهم على قبول طلبـي جعلتـه بمصروفات، وكان أغلب طالبات السنية فـي ذلـك الوقـت

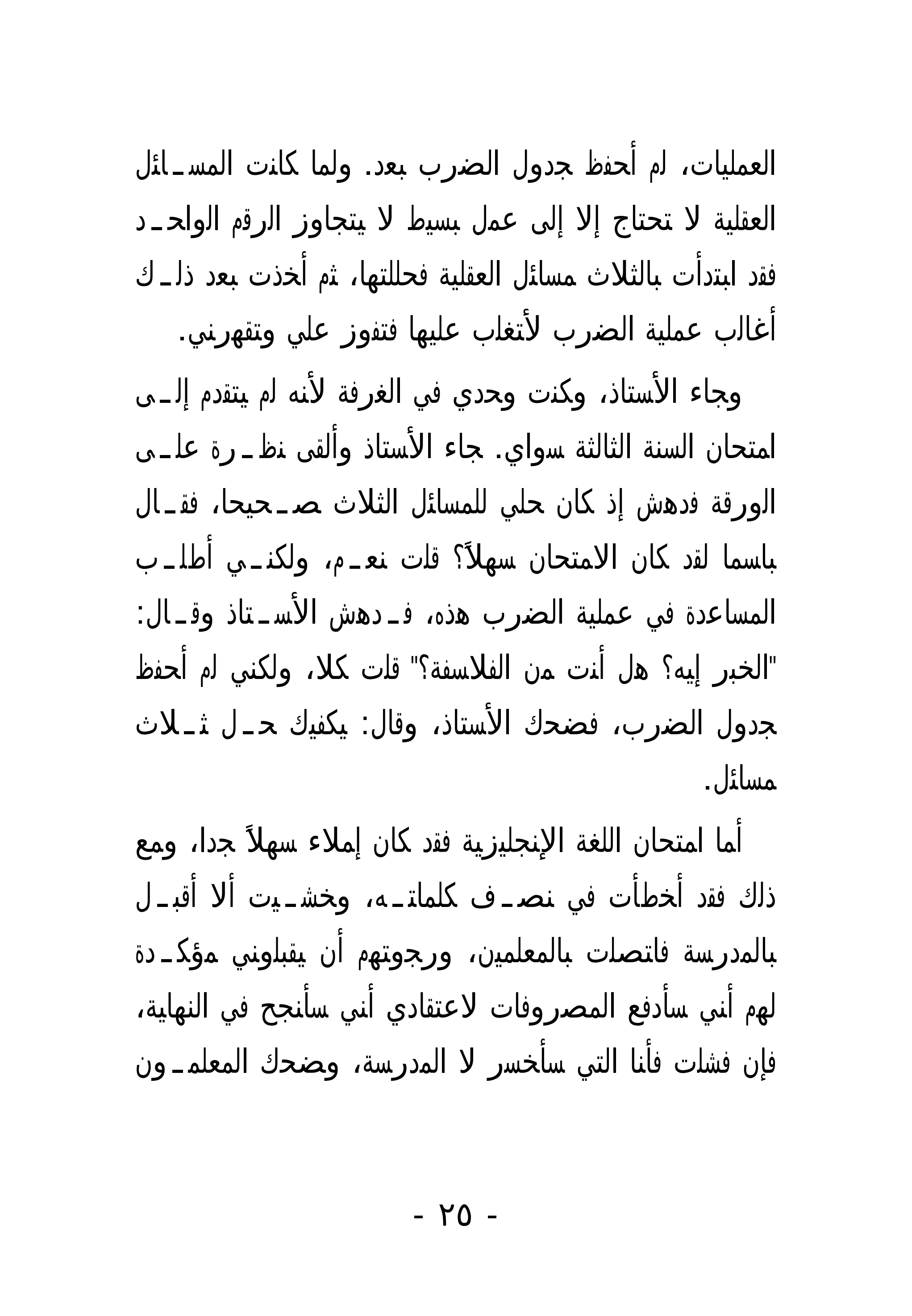


يتعلمن بالمجاني لعدم إقبال الأهالي إذ ذاك على تعليم البنات، ولهذا ظننت أن طلبا تقوم صاحبته بدفع المصروفات جـدير بألا يرد.

دخلت الامتحان وما كان أشده وأقساه على فتاة من سـن ١٣ عاما، لم تر نظام المدارس، ولم تُحس إمساك القلم. فكان القلم يلعب بي بدلاً من أن ألعب أنا به. فكـم لوثـت ورقـة وكسرت قلما في ذلك الامتحان، فكانت ورقتـي فـي اللغـة العربية كلاما عربيا صحيحا، وخطًا لا يختلف كثيـرا عـن خطوط الأطفال. وقد تعجب المعلمون من رداءة الخط وجودة الإنشاء: إنشاء لا تستطيعه طالبة في المدارس الثانوية، وخط لا تكتبه تلميذة في السنة الأولى الابتدائية.

دخلت امتحان الحساب، وكان واضعه الشيخ أحمد التوني، وكان يشمل ثلاث مسائل عقلية لا تحتاج إلى العمل، ومسألة واحدة عملية فيها عملية ضرب طويلة.

أراد الأستاذ بذلك أن يعجز تلك الطالبة المسـتجدة بهـذه المسائل العقلية، ثم أعطاها مسألة واحدة هي التي ظن أنهـا تستطيع حلها، وكان الأمر على عكس ما ظنه الأسـتاذ فقـد كنت قوية في حل المسائل العقلية، وكنت مع ذلك ضعيفة في



العمليات، لم أحفظ جدول الضرب بعد. ولما كانت المسـائل العقلية لا تحتاج إلا إلى عمل بسيط لا يتجاوز الرقم الواحـد فقد ابتدأت بالثلاث مسائل العقلية فحللتها، ثم أخذت بعد ذلـك أغالب عملية الضرب لأتغلب عليها فتفوز علي وتقهرني.

وجاء الأستاذ، وكنت وحدي في الغرفة لأنه لم يتقدم إلـى امتحان السنة الثالثة سواي. جاء الأستاذ وألقى نظـرة علـى الورقة فدهش إذ كان حلي للمسائل الثلاث صـحيحا، فقـال باسما لقد كان الامتحان سهلاً؟ قلت نعـم، ولكنـي أطلـب المساعدة في عملية الضرب هذه، فـدهش الأسـتاذ وقـال: "الخبر إيه؟ هل أنت من الفلاسفة؟" قلت كلا، ولكني لم أحفظ جدول الضرب، فضحك الأستاذ، وقال: يكفيك حـل ثـلاث مسائل.

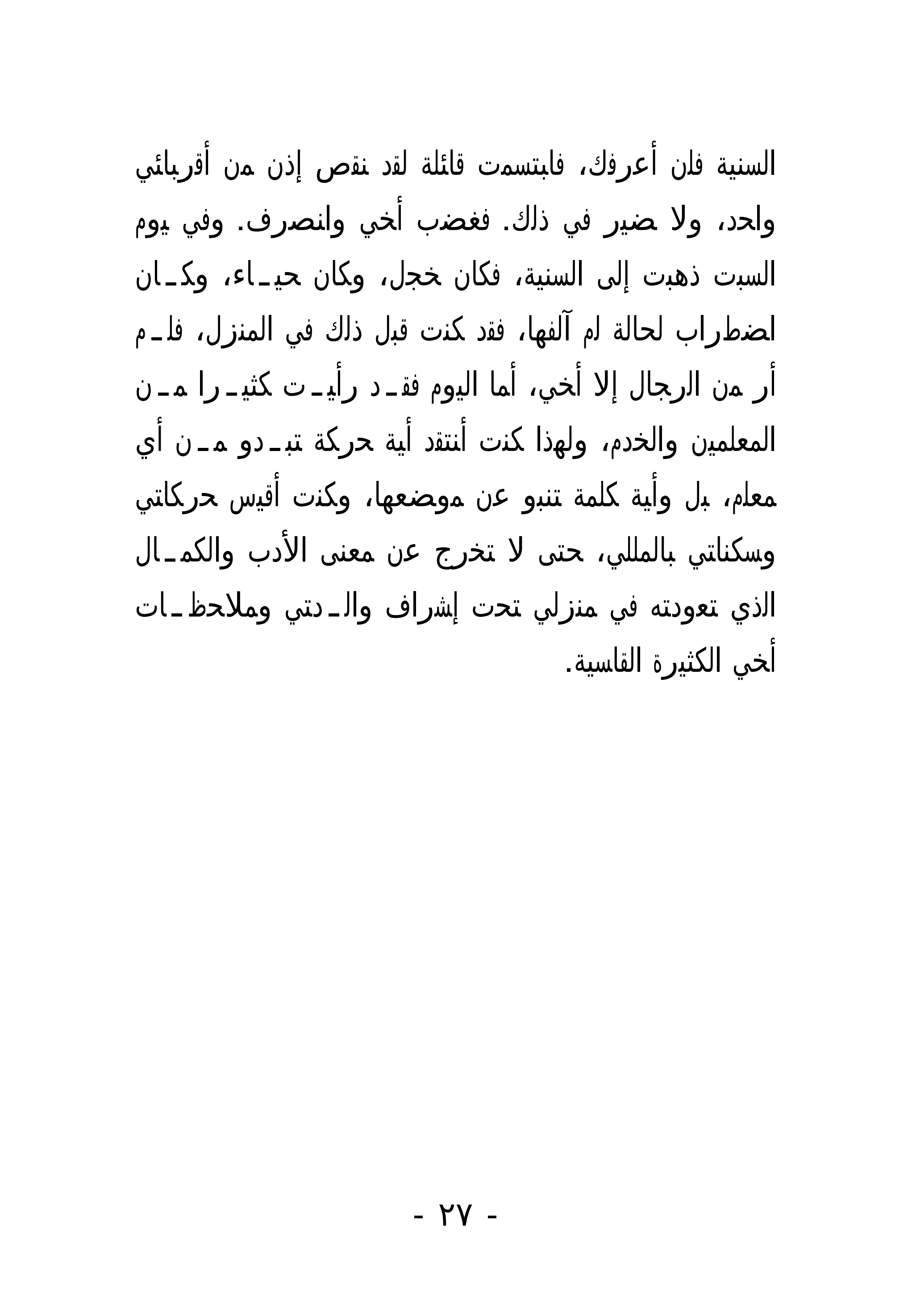
أما امتحان اللغة الإنجليزية فقد كان إملاء سهلاً جدا، ومع ذلك فقد أخطأت في نصـف كلماتـه، وخشـيت ألا أقبـل بالمدرسة فاتصلت بالمعلمين، ورجوتهم أن يقبلوني مؤكـدة لهم أني سأدفع المصروفات لاعتقادي أني سأنجح في النهاية، فإن فشلت فأنا التي سأخسر لا المدرسة، وضحك المعلمـون

من التماسي هذا وصمموا على قبولي بالرغم من ضعفي في اللغة الإنجليزية ورداءة خطي.

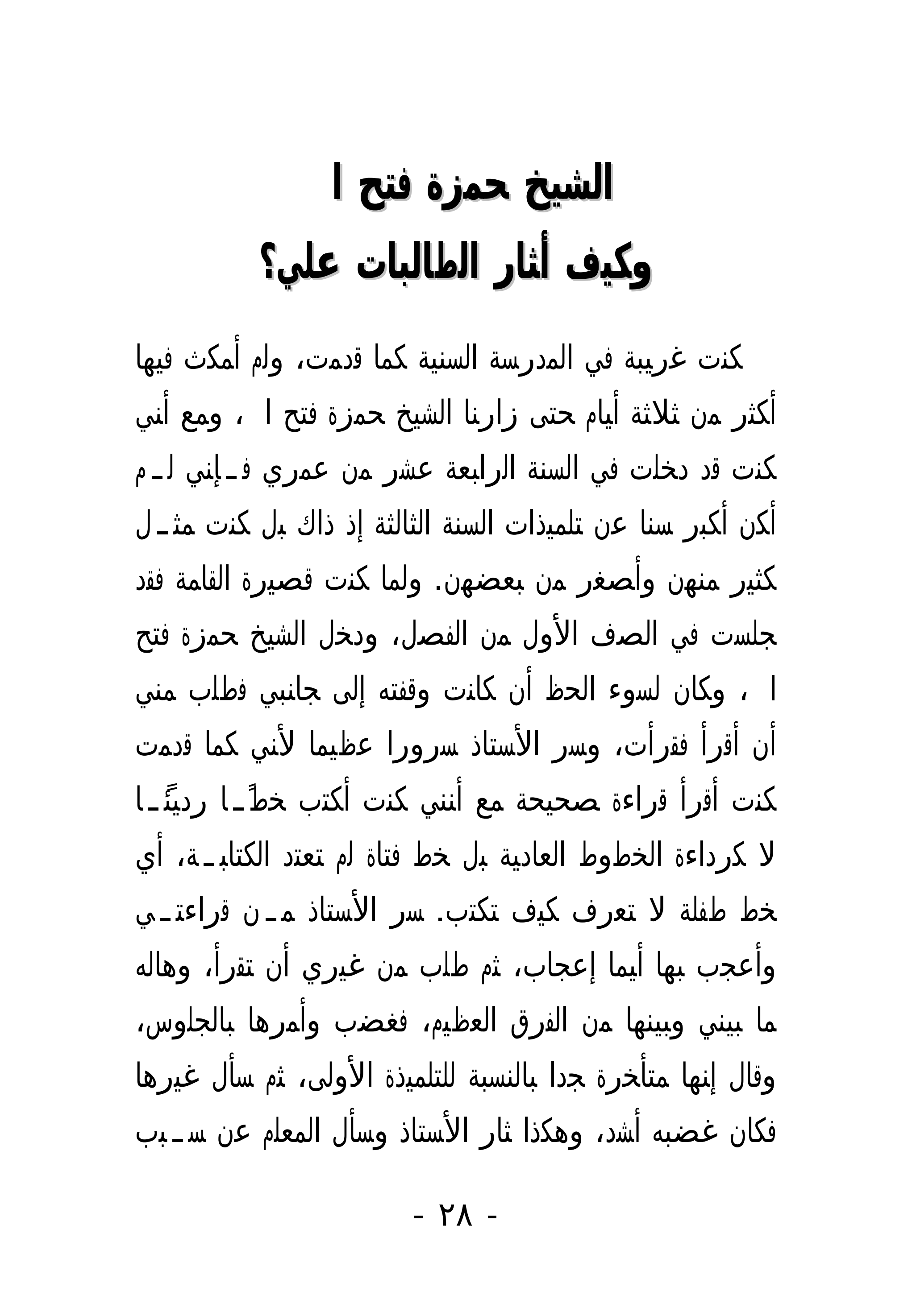
سررت سرورا عظيما عندما علمت بقبولي في المدرسة السنية، وكنت أحتفظ بالقسط الأول من المصروفات في جيبي فدفعتها وهي ٢٥٠ قرشًا؛ لأن التلميذة الخارجية كانت تدفع ٧٥٠ قرشًا سنويا، وتتناول الغداء بالمدرسة، والداخلية ١٥ جنيها.

ولعل القارئ يسأل: من أين جئت بالنقود؟ والواقع أني بعت سوارا من الذهب بخمسة جنيهات؛ إذ أصبحت في ذلك الوقت أحتقر الحلي.

ذهبت إلى المنزل وأنا أكاد أطير من الفرح، فأخبرت والدتي بالتحاقي بالمدرسة السنية، قالت: إذ فعلت فلا علاقة لي بك. قلت: لقد فعلت ولا شك في ذلك، وأنا ذاهبة لا محالة، فإن تشبثت بالرفض وعدم القبول فسأدخل المدرسة الداخلية، وفي معاشي ما يقوم بذلك، قالت: أحق ما تقولين؟ قلت: نعم حق لا ريب فيه، وسأذهب إليها يوم السبت. قالت: إذن فلا تدخليها داخلية وكوني خارجية، قلت: حسنًا. وفي يوم الجمعة زارني شقيقي، فقال لي: تأكدي إن دخلت

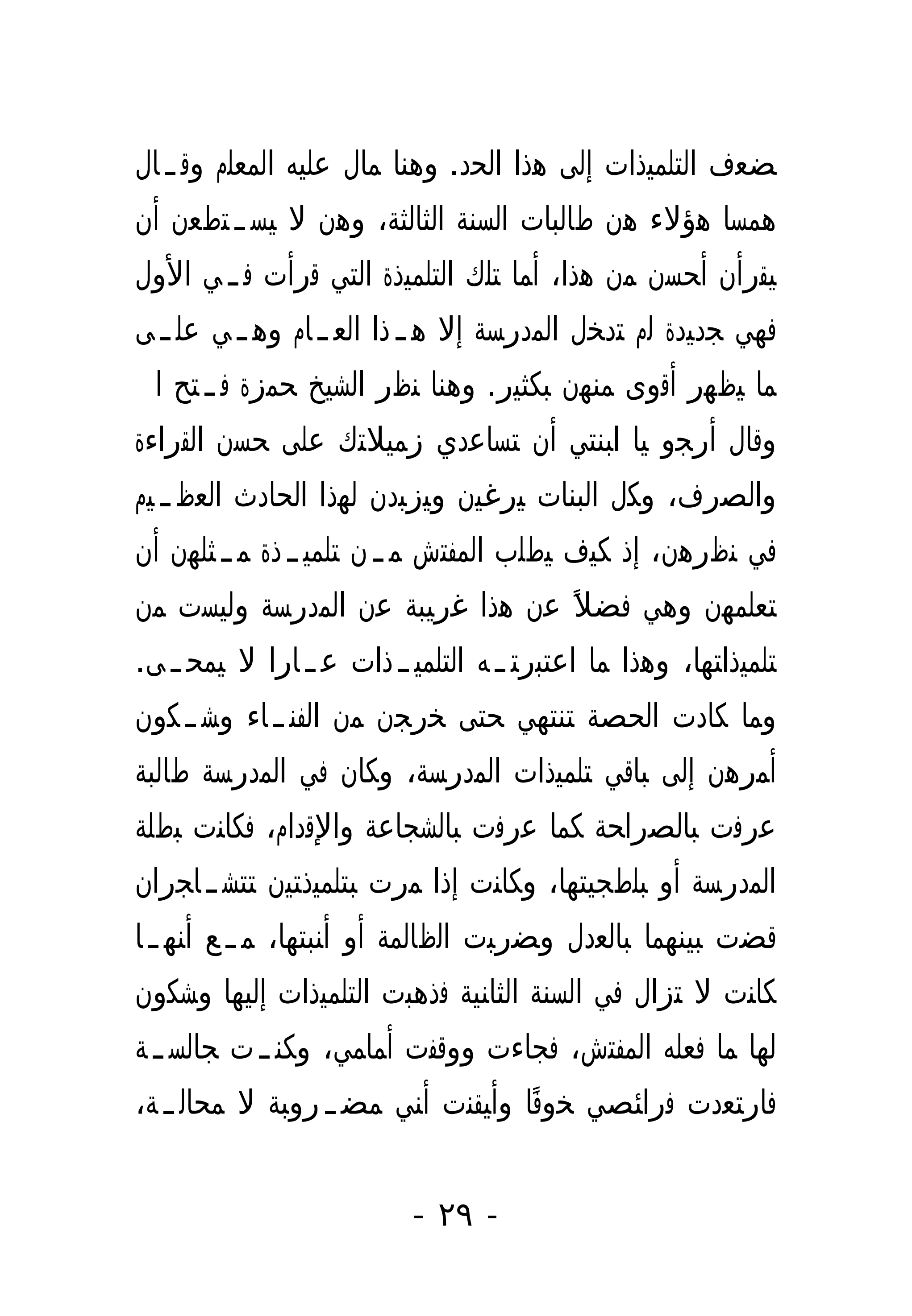


السنية فلن أعرفك، فابتسمت قائلة لقد نقص إذن من أقربائي واحد، ولا ضير في ذلك. فغضب أخي وانصرف. وفي يوم السبت ذهبت إلى السنية، فكان خجل، وكان حيـاء، وكـان اضطراب لحالة لم آلفها، فقد كنت قبل ذلك في المنزل، فلـم أر من الرجال إلا أخي، أما اليوم فقـد رأيـت كثيـرا مـن المعلمين والخدم، ولهذا كنت أنتقد أية حركة تبـدو مـن أي معلم، بل وأية كلمة تنبو عن موضعها، وكنت أقيس حركاتي وسكناتي بالمللي، حتى لا تخرج عن معنى الأدب والكمـال الذي تعودته في منزلي تحت إشراف والـدتي وملاحظـات أخي الكثيرة القاسية.

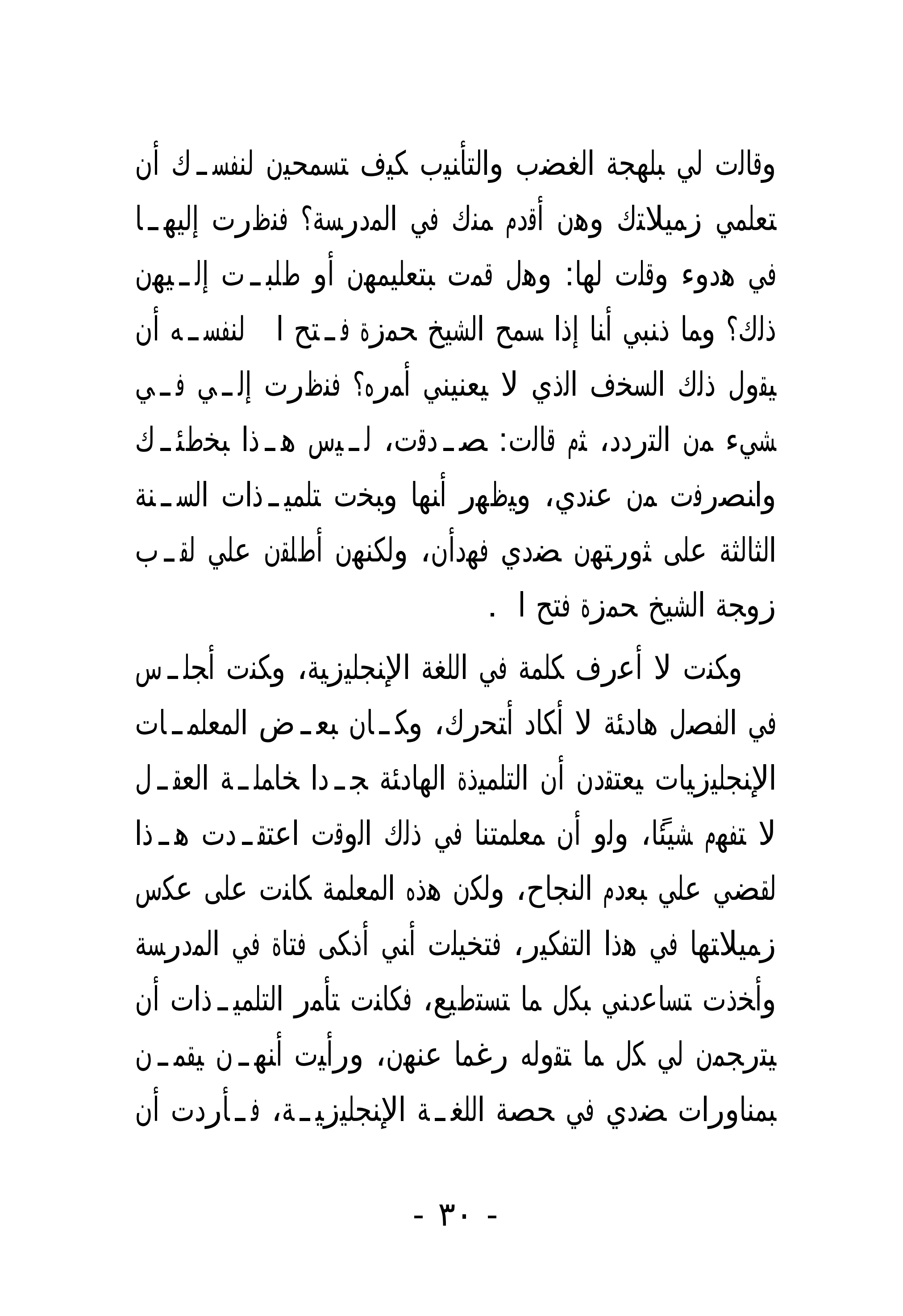


الشيخ حمزة فتح ا
وكيف أثار الطالبات علي؟

كنت غريبة في المدرسة السنية كما قدمت، ولم أمكث فيها أكثر من ثلاثة أيام حتى زارنا الشيخ حمزة فتح ا ، ومع أني كنت قد دخلت في السنة الرابعة عشر من عمري فـإنني لـم أكن أكبر سنا عن تلميذات السنة الثالثة إذ ذاك بل كنت مثـل كثير منهن وأصغر من بعضهن. ولما كنت قصيرة القامة فقد جلست في الصف الأول من الفصل، ودخل الشيخ حمزة فتح ا ، وكان لسوء الحظ أن كانت وقفته إلى جانبي فطلب مني أن أقرأ فقرأت، وسر الأستاذ سرورا عظيما لأني كما قدمت كنت أقرأ قراءة صحيحة مع أنني كنت أكتب خطًـا رديئًـا لا كرداءة الخطوط العادية بل خط فتاة لم تعتد الكتابـة، أي خط طفلة لا تعرف كيف تكتب. سر الأستاذ مـن قراءتـي وأعجب بها أيما إعجاب، ثم طلب من غيري أن تقرأ، وهاله ما بيني وبينها من الفرق العظيم، فغضب وأمرها بالجلوس، وقال إنها متأخرة جدا بالنسبة للتلميذة الأولى، ثم سأل غيرها فكان غضبه أشد، وهكذا ثار الأستاذ وسأل المعلم عن سـبب

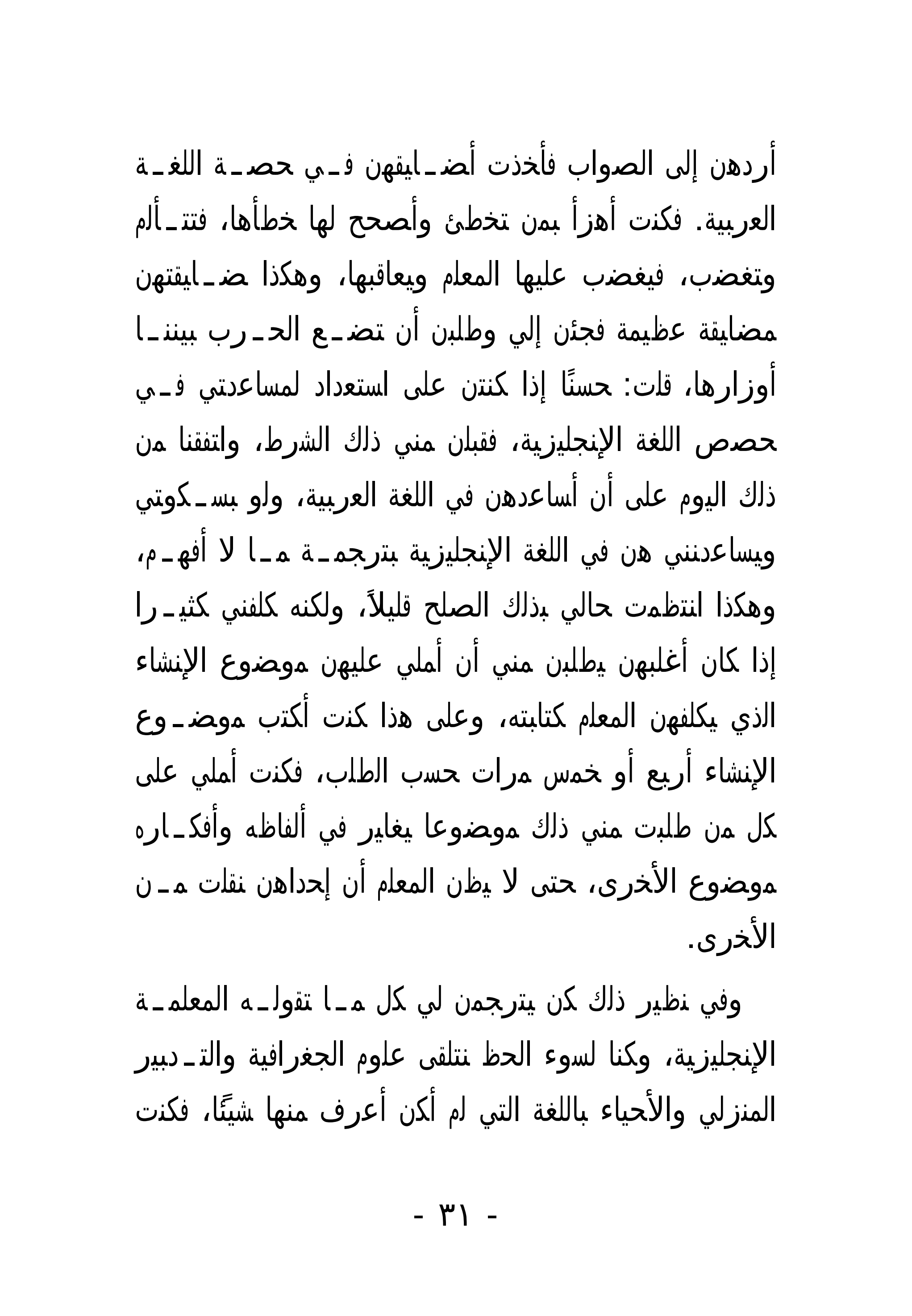


ضعف التلميذات إلى هذا الحد. وهنا مال عليه المعلم وقـال همسا هؤلاء هن طالبات السنة الثالثة، وهن لا يسـتطعن أن يقرأن أحسن من هذا، أما تلك التلميذة التي قرأت فـي الأول فهي جديدة لم تدخل المدرسة إلا هـذا العـام وهـي علـى ما يظهر أقوى منهن بكثير. وهنا نظر الشيخ حمزة فـتح ا وقال أرجو يا ابنتي أن تساعدي زميلاتك على حسن القراءة والصرف، وكل البنات يرغين ويزبدن لهذا الحادث العظـيم في نظرهن، إذ كيف يطلب المفتش مـن تلميـذة مـثلهن أن تعلمهن وهي فضلاً عن هذا غريبة عن المدرسة وليست من تلميذاتها، وهذا ما اعتبرتـه التلميـذات عـارا لا يمحـى. وما كادت الحصة تنتهي حتى خرجن من الفنـاء وشـكون أمرهن إلى باقي تلميذات المدرسة، وكان في المدرسة طالبة عرفت بالصراحة كما عرفت بالشجاعة والإقدام، فكانت بطلة المدرسة أو بلطجيتها، وكانت إذا مرت بتلميذتين تتشـاجران قضت بينهما بالعدل وضربت الظالمة أو أنبتها، مـع أنهـا كانت لا تزال في السنة الثانية فذهبت التلميذات إليها وشكون لها ما فعله المفتش، فجاءت ووقفت أمامي، وكنـت جالسـة فارتعدت فرائصي خوفًا وأيقنت أني مضـروبة لا محالـة،

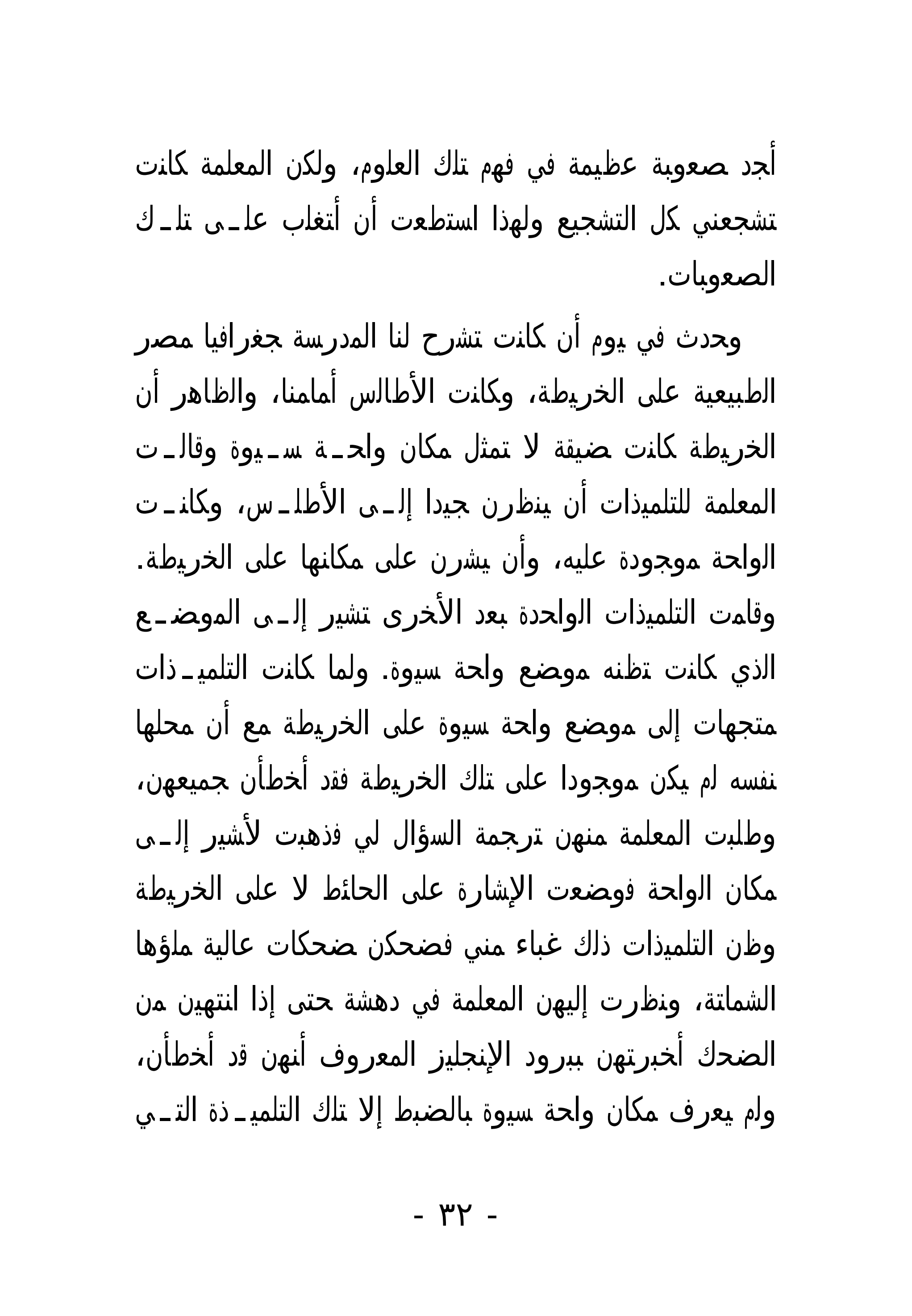


وقالت لي بلهجة الغضب والتأنيب كيف تسمحين لنفسك أن تعلمي زميلاتك وهن أقدم منك في المدرسة؟ فنظرت إليها في هدوء وقلت لها: وهل قمت بتعليمهن أو طلبت إليهن ذلك؟ وما ذنبي أنا إذا سمح الشيخ حمزة فتح ا لنفسه أن يقول ذلك السخف الذي لا يعنيني أمره؟ فنظرت إلي في شيء من التردد، ثم قالت: صدقت، ليس هذا بخطئك وانصرفت من عندي، ويظهر أنها وبخت تلميذات السنة الثالثة على ثورتهن ضدي فهدأن، ولكنهن أطلقن علي لقب زوجة الشيخ حمزة فتح ا .

وكنت لا أعرف كلمة في اللغة الإنجليزية، وكنت أجلس في الفصل هادئة لا أكاد أتحرك، وكان بعض المعلمات الإنجليزيات يعتقدن أن التلميذة الهادئة جدا خاملة العقل لا تفهم شيئًا، ولو أن معلمتنا في ذلك الوقت اعتقدت هذا لقضي علي بعدم النجاح، ولكن هذه المعلمة كانت على عكس زميلاتها في هذا التفكير، فتخيلت أني أذكى فتاة في المدرسة وأخذت تساعدني بكل ما تستطيع، فكانت تأمر التلميذات أن يترجمن لي كل ما تقوله رغما عنهن، ورأيت أنهن يقمن بمناورات ضدي في حصة اللغة الإنجليزية، فأردت أن


أردهن إلى الصواب فأخذت أضـايقهن فـي حصـة اللغـة العربية. فكنت أهزأ بمن تخطئ وأصحح لها خطأها، فتتـألم وتغضب، فيغضب عليها المعلم ويعاقبها، وهكذا ضـايقتهن مضايقة عظيمة فجئن إلي وطلبن أن تضـع الحـرب بيننـا أوزارها، قلت: حسنًا إذا كنتن على استعداد لمساعدتي فـي حصص اللغة الإنجليزية، فقبلن مني ذلك الشرط، واتفقنا من ذلك اليوم على أن أساعدهن في اللغة العربية، ولو بسـكوتي ويساعدنني هن في اللغة الإنجليزية بترجمـة مـا لا أفهـم، وهكذا انتظمت حالي بذلك الصلح قليلاً، ولكنه كلفني كثيـرا إذا كان أغلبهن يطلبن مني أن أملي عليهن موضوع الإنشاء الذي يكلفهن المعلم كتابته، وعلى هذا كنت أكتب موضـوع الإنشاء أربع أو خمس مرات حسب الطلب، فكنت أملي على كل من طلبت مني ذلك موضوعا يغاير في ألفاظه وأفكـاره موضوع الأخرى، حتى لا يظن المعلم أن إحداهن نقلت مـن الأخرى.

وفي نظير ذلك كن يترجمن لي كل مـا تقولـه المعلمـة الإنجليزية، وكنا لسوء الحظ نتلقى علوم الجغرافية والتـدبير المنزلي والأحياء باللغة التي لم أكن أعرف منها شيئًا، فكنت



أجد صعوبة عظيمة في فهم تلك العلوم، ولكن المعلمة كانت تشجعني كل التشجيع ولهذا استطعت أن أتغلب علـى تلـك الصعوبات.

وحدث في يوم أن كانت تشرح لنا المدرسة جغرافيا مصر الطبيعية على الخريطة، وكانت الأطالس أمامنا، والظاهر أن الخريطة كانت ضيقة لا تمثل مكان واحـة سـيوة وقالـت المعلمة للتلميذات أن ينظرن جيدا إلـى الأطلـس، وكانـت الواحة موجودة عليه، وأن يشرن على مكانها على الخريطة. وقامت التلميذات الواحدة بعد الأخرى تشير إلـى الموضـع الذي كانت تظنه موضع واحة سيوة. ولما كانت التلميـذات متجهات إلى موضع واحة سيوة على الخريطة مع أن محلها نفسه لم يكن موجودا على تلك الخريطة فقد أخطأن جميعهن، وطلبت المعلمة منهن ترجمة السؤال لي فذهبت لأشير إلـى مكان الواحة فوضعت الإشارة على الحائط لا على الخريطة وظن التلميذات ذلك غباء مني فضحكن ضحكات عالية ملؤها الشماتة، ونظرت إليهن المعلمة في دهشة حتى إذا انتهين من الضحك أخبرتهن ببرود الإنجليز المعروف أنهن قد أخطأن، ولم يعرف مكان واحة سيوة بالضبط إلا تلك التلميـذة التـي

سخرن منها، وكانت دهشتهن عظيمة لذلك وابتدأن من ذلـك اليوم يملن لي ويحترمنني.

كنت غريبة عن المدرسة السنية، بعيدة عن كل نظمهـا، وكنت أنتقد ما يلقى علينا وأحتقره إذا كان لا فائدة منه، لهذا لم تعجبني قواعد الصرف، فكنت أسخر منها ولا أرى أيـة فائدة في أن أعرف أن (سار) أصلها (سـير)، وأن (كـان) أصلها (كون)، وغير ذلك من العلل الصرفية لأني كنت أرى أني أعرف أن أفهم وأقرأ وأن أكتب ما يفهم قبل أن أتعلم تلك القواعد التي لا معنى لها، وأعطانا المعلم يوما امتحانًا فـي الصرف وبدلاً من أن أجيب عليه كتبت لـه فـي الكراسـة الأبيات التالية:

دهتني صـروف الصـرف لا در دره

ولا خير في فعل إذا رمت صـرفه

كما أنـه يخشـى الزمـان وصـرفه

أرى الفعل موهوبا لـدي وصـرفه

فـإن تكسـروا للفعـل عينـا فـإنني

كسرت ذراع الفعـل عمـدا وأنفـه

وإن كـــان معـــتلاً فلســـت طبيبـــة

دعـــوه دعـــوه يلقـــى حتفـــه

وبالطبع قد منحني ذلك الأستاذ ذلـك الامتحـان صـفرا بأكمله دون أن يبخل علي بشيء منه.

وأمرنا الأستاذ يوما أن نحفظ حروف المعاني المكتوبة في كتاب النحو بترتيبها عن ظهر قلب، فلم يعجبنـي أن أتعـب نفسي في هذا السخف الذي لا معنى له، وعندما طلب منـي المعلم في اليوم التالي أن أسمع ما حفظت، قلـت لـه: إنـي نظمتها شعرا، قال: هاتي، فقلت الأبيات الآتية:

أشـــكو إليـــك حروفـــا فـــي تعلمهـــا

حلت بقلبي مـن تكرارهـا العلـل

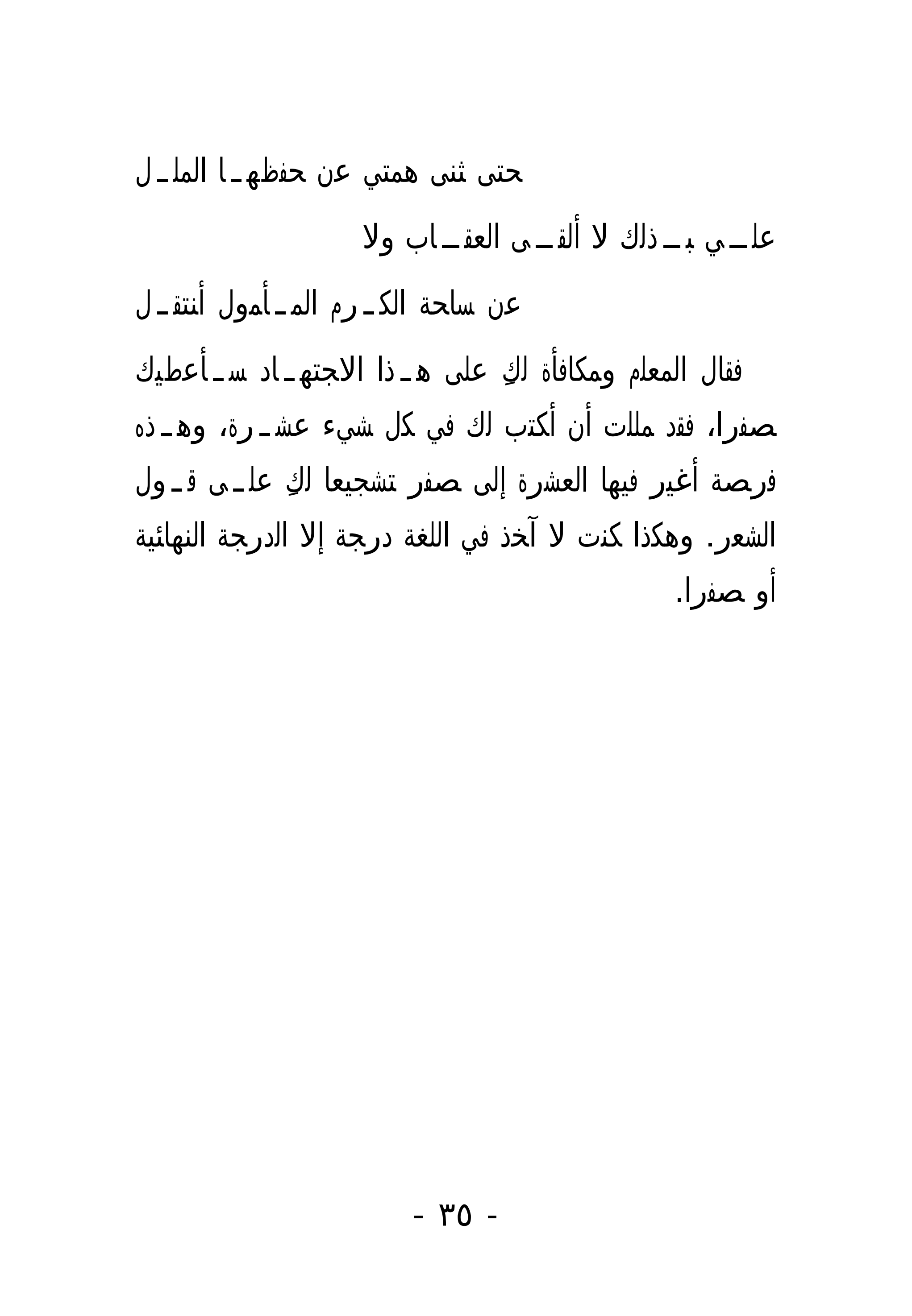
(إذن وإذ مـــا) فمـــا كررتهـــا أبـــدا

إلا بدت أدمعـي كالسـيل تنهمـل

ولا ذكرت (بلى، والكاف، ثـم جلـل)

إلا وخاب لـدى تـذكارها الأمـل

(جيري وحتى وحاشا) بـت أقرؤهـا



حتى ثنى همتي عن حفظهـا الملـل

علــي بــذلك لا ألقــى العقــاب ولا

عن ساحة الكـرم المـأمول أنتقـل

فقال المعلم ومكافأة لكِ على هـذا الاجتهـاد سـأعطيك صفرا، فقد مللت أن أكتب لك في كل شيء عشـرة، وهـذه فرصة أغير فيها العشرة إلى صفر تشجيعا لكِ علـى قـول الشعر. وهكذا كنت لا آخذ في اللغة درجة إلا الدرجة النهائية أو صفرا.

الشيخة رمانة

كانت السنة الثالثة أصعب سني دراستي لأني كنت غريبة عن نظام المدارس وترتيباتها ومع هذا فقد نجحت، وكنت الأولى في امتحان النقل إلى السنة الرابعة، وكان عدد طالبات السنة الرابعة على ما أتذكر ٦ طالبات، وامتحنا امتحان الشهادة الابتدائية في مدرسة عباس، لأن المدرسة السنية كانت في بناء قديم غير بنائها الحالي، وكان على مقربة من بنائها المعروف الآن، فقد كان في حارة صغيرة في شارع المبتديان.

وتشاء القدرة الإلهية أن يكون امتحان الحساب في ذلك العام وهو عام ١٩٠٣ أصعب امتحانات الحساب التي رأيتها حتى الآن، ولهذا رسب في الحساب فقط ٦٠% من عدد المتقدمين لذاك الامتحان، خرجنا من امتحان الحساب وكل الطالبات يبكين، وكان من بين طالبات المدرسة السنية طالبة عرفت بالطيش وعدم تقدير الأمور فخرجت تضحك وتتظاهر بالنجاح، فكانت جميع الطالبات باكيات وهذه الطالبة ضاحكة ساخرة، أما أنا فكنت على الحياد لا بكاء ولا سرور،

فدنت مني ضابطة مدرسة عباس، وقالت: أراكِ لست كزميلاتك في البكاء ولا تشاطرين تلك الزميلة الأخرى سرورها واغتباطها فما شأنكِ؟ قلت: أظن أني ناجحة فلا معنى للبكاء، أما السرور والابتهاج فليس من المروءة أن أضحك وزميلاتي باكيات. قالت: وهل أنتِ واثقة من نجاحك؟ قلت: نعم. قالت: لا تغتري فقد رسبت أولى طالبتنا في العام الماضي. قلت: لا بد يا سيدتي أنها كانت ضعيفة في الحساب. قالت: نعم، هي كذلك، قلت: الحساب لا صاحب له فقد تكون التلميذة مجتهدة في كل شيء تذاكره مذاكرة جيدة فتتقدم على زميلاتها، ولكنها ينقصها الذكاء فلا تستطيع النجاح في الحساب، أما أنا فمحال أن أرسب وأنا أولى الفصل في أغلب المواد وفي الحساب أيضا. قالت: إذن سنرى.

انتهى الامتحان وخرجت التلميذات وأغلبهن واثقات من عدم النجاح ولا أدري كيف تأثرت بآرائهن فساورتني الشكوك في نجاحي بعد أن كنت متأكدة منه، وكانت والدتي شديدة الثقة في منجمة تدعى الشيخة رمانة، وكانت تقول إن كلامها لا ينزل الأرض حسب تعبيرها هي، وكان أخي –

رحمه ا – على عكس رأيها وهو الذي كنـت أسـير مـع آرائه، فأردت أن أشرح لوالدتي بطريقـة عمليـة أن هـذه المنجمة لا تستطيع معرفة الماضي ولا المستقبل، فطلبت أن أذهب معها إلى تلك المنجمة لأعرف منها الغيب في مستقبلي القريب وهو النجاح في امتحان الشهادة الابتدائيـة فغيـرت ملابسي ولبست ملاءة وبرقعا أسود، وذهبت إليها مع والدتي فوجدت حولها عددا كبيرا من النساء يغلب على ظني أنهـن يساعدنها على كشف مستقبل الزبائن، وإن كـن يتظـاهرن بأنهن جميعهن زائرات جئن للكشف عن مستقبلهن.

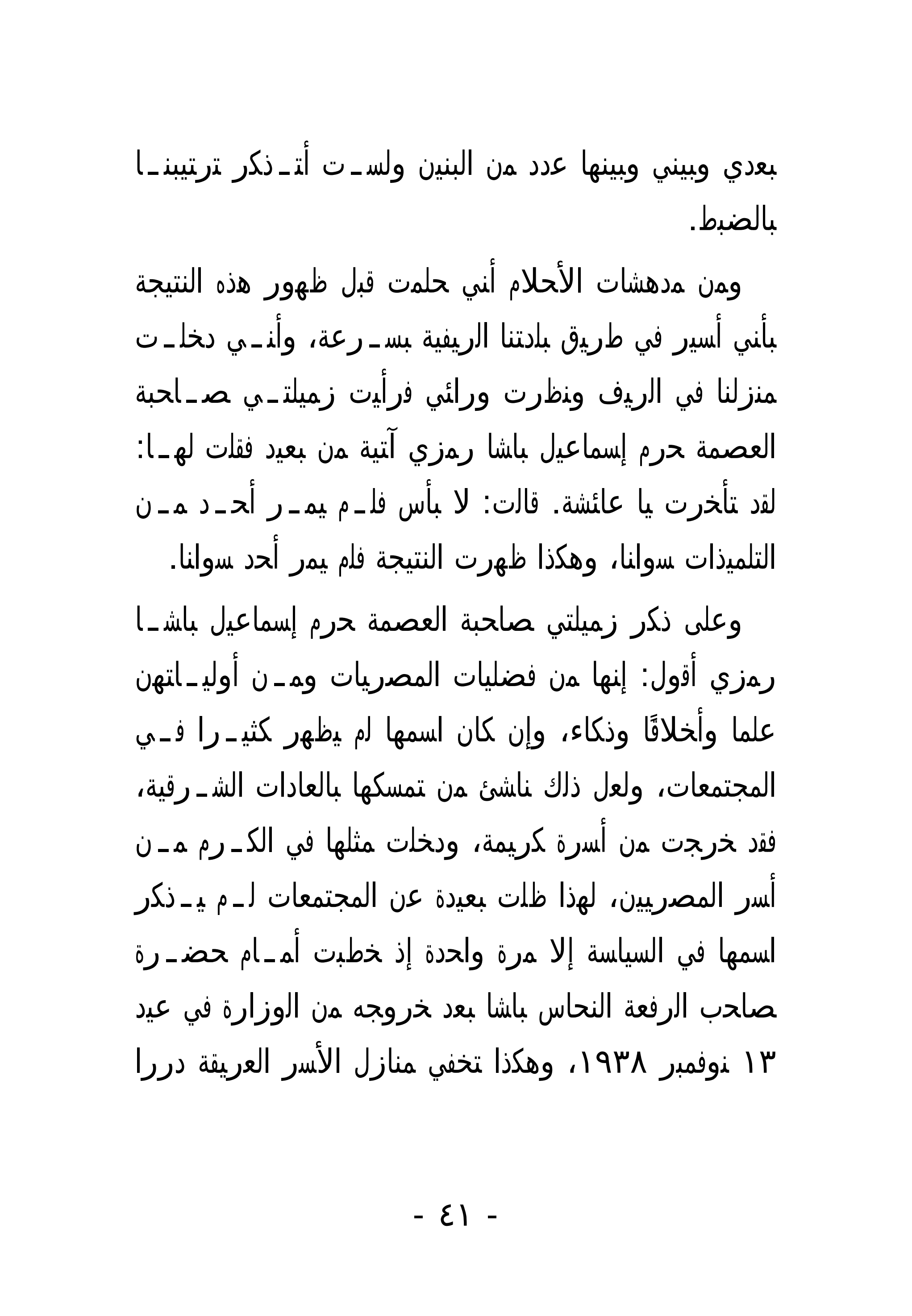
جلست على مقربة من الشيخة وتقدمت منهـا امرأتـان، وأعطت الشيخة إحداهما منديلها لتكشف عن مستقبلها، فقالت لها في لهجة الطفلة العابثة المترددة: (مش واوه؟) وهي جملة ترسلها بين التأكيد والاستفهام. فقالت الزائرة: لا يا سـيدتي مش واوه، فقالت الشيخة (أنا أقول مش واوه) قالـت ذلـك بلهجة التأكيد. ثم قالت بلهجتها الأولى (مش حاجة ضايعة؟) فقالت الزائرة: نعم يا سيدتي شيء مسروق. قالت الشـيخة: (أنا أقول حاجة ضايعة)، ثم عادت إلى ترددها تقول: (مـش ذهب؟) قالت الزائرة: يا ليتها كانت ذهبا. ومعلوم أن الماس

أغلى من الذهب ولهذا قالت الشيخة بلهجة التأكيد: (أنا أقول الماظة) فنظرت المرأة إلى زميلتها وقالت في سـذاجة لقـد عرفت الشيء المسروق، وتشجعت المنجمة وقالت: سـرقها شخص يأكل معك، وبالطبع لا يخلو الحال من أن يكون مـع كل سيدة بعض أشخاص يأكلون معها إما من الخدم أو مـن الأقارب، ولكن المرأة لسذاجتها تأكدت أن الشيخة قد عرفت ذلك بعلمها، فقالت لزميلتها بصوت مسموع: لا يأكل معـي إلا نفيسة، وزادت جرأة الشـيخة فقالـت: إن نفيسـة هـي السارقة، وهنا قالت المرأة: في دهشة لقد عرفـت المنجمـة حتى اسم السارقة، فتركت المكان وهي تعتقد أن المنجمة قـد عرفت كل شيء حتى اسم السارقة، ونسيت أنها هـي التـي ذكرت اسم نفيسة بصوت سمعته المنجمة كما سمعته أنا، وقد كنت أكثر بعدا منها عن المنجمة، وهنا علمت كيـف تعمـل السذاجة والجهل لصالح هؤلاء المنجمات.

تقدمت إلى الشيخة بعد هذه الزائرة فقالـت لـي جملتهـا المعروفة (مش واوه؟ مش حاجة ضـايعة؟) وأنـا أجيبهـا بالنفي، ثم قالت لي بعد هذا: (مش زواج؟) وخشيت إن أنـا وافقتها على هذا لأظهر لوالدتي جهلها أن تظن والدتي أنـي

قد أضمرت في نفسي أن أسأل الشيخة عن الزواج، وقد كنت أود أن تعلم والدتي بجلاء كذب تلك المنجمـة فالتفـت إلـى والدتي، وقلت لها في شيء من الدهشة: زواج؟ طيب ما أنـا متزوجة، وانتهزت المنجمة تلك الفرصة وأسرعت قائلة: أنا أعرف أنك متزوجة وسأرد لك زوجك. فنظرت إلى والـدتي قائلة: هيا بنا إلى المنزل ننتظر الزوج عند قدومه إلينا، قالت ذلك وانتصبت واقفة، وقامت والدتي معي، فتعالت أصـوات النساء اللائي يحطن بالمنجمة، قائلات: حذار أيتها الفتاة من أن تسخري بالشيخة وإلا أصابك ضرر بليغ. قلـت: ومـاذا فعلت؟ إني سأذهب مسرعة إلى المنـزل لأنتظـر زوجـي ما دامت الشيخة سترده إلي كمـا وعـدت، وخرجـت أنـا ووالدتي بعد أن تغير اعتقادها في الشيخة لأنها رأت كيـف ظنتني متزوجة وأنا لا أزال فتاة.

ظهرت نتيجة الامتحان، ولم ينجح من المدرسـة السـنية إلا أنا وطالبة أخرى اسمها عائشة صبحي، تنتمي إلى أسرة مجيدة، وهي الآن حرم حضرة صاحب السـعادة إسـماعيل باشا رمزي، وكنت أنا الأولى بالنسبة للبنات، وكانـت هـي



بعدي وبيني وبينها عدد من البنين ولست أتذكر ترتيبنا بالضبط.

ومن مدهشات الأحلام أني حلمت قبل ظهور هذه النتيجة بأني أسير في طريق بلدتنا الريفية بسرعة، وأني دخلت منزلنا في الريف ونظرت ورائي فرأيت زميلتي صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزي آتية من بعيد فقلت لها: لقد تأخرت يا عائشة. قالت: لا بأس فلم يمر أحد من التلميذات سوانا، وهكذا ظهرت النتيجة فلم يمر أحد سوانا.

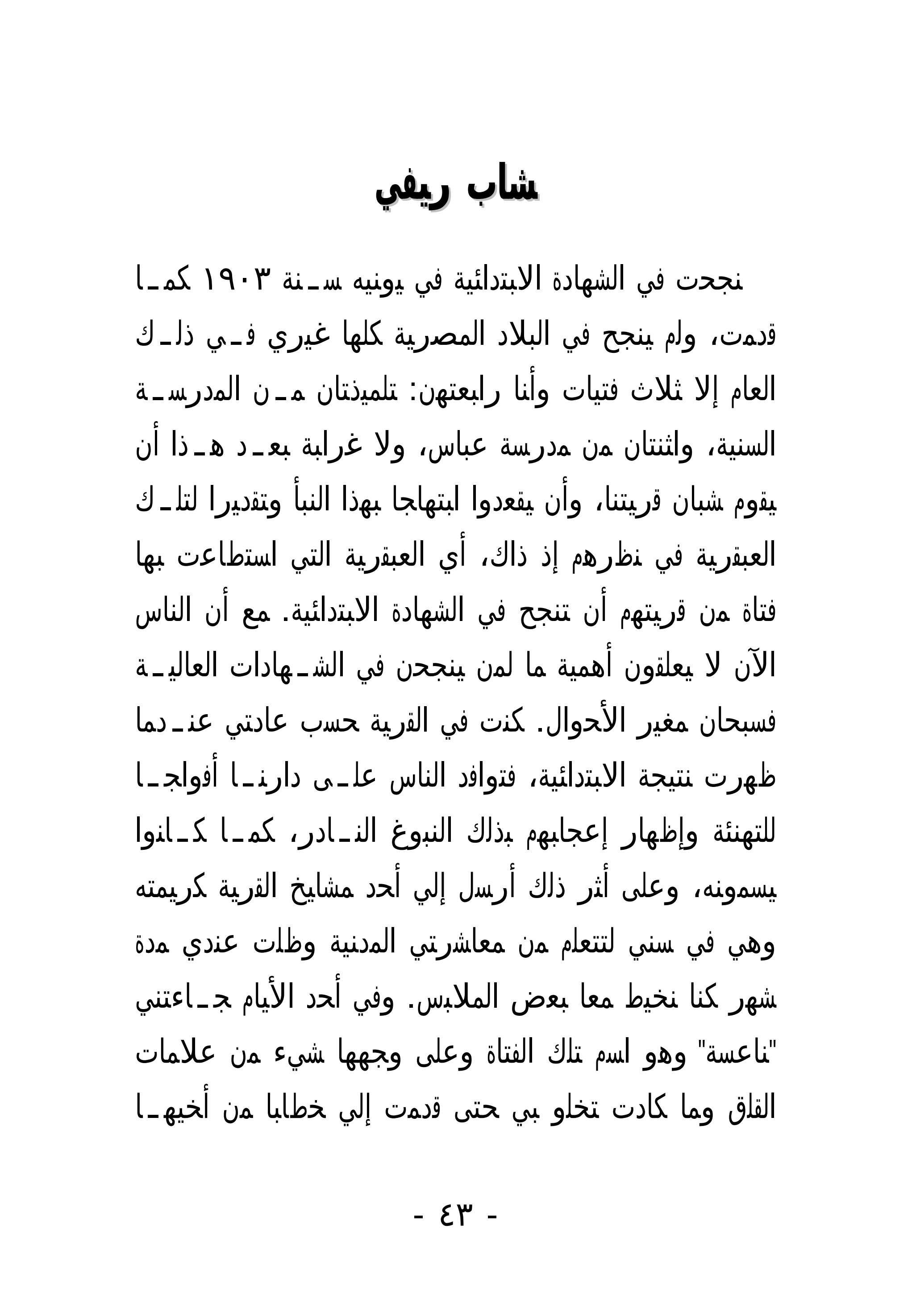
وعلى ذكر زميلتي صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزي أقول: إنها من فضليات المصريات ومن أولياتهن علما وأخلاقًا وذكاء، وإن كان اسمها لم يظهر كثيرا في المجتمعات، ولعل ذلك ناشئ من تمسكها بالعادات الشرقية، فقد خرجت من أسرة كريمة، ودخلت مثلها في الكرم من أسر المصريين، لهذا ظلت بعيدة عن المجتمعات لم يذكر اسمها في السياسة إلا مرة واحدة إذ خطبت أمام حضرة صاحب الرفعة النحاس باشا بعد خروجه من الوزارة في عيد ١٣ نوفمبر ١٩٣٨، وهكذا تخفي منازل الأسر العريقة دررا

لو ظهرت في المجتمعات لأضاءته بذكائها الحـاد المتوقـد وأكسبته بهاء وروعة.



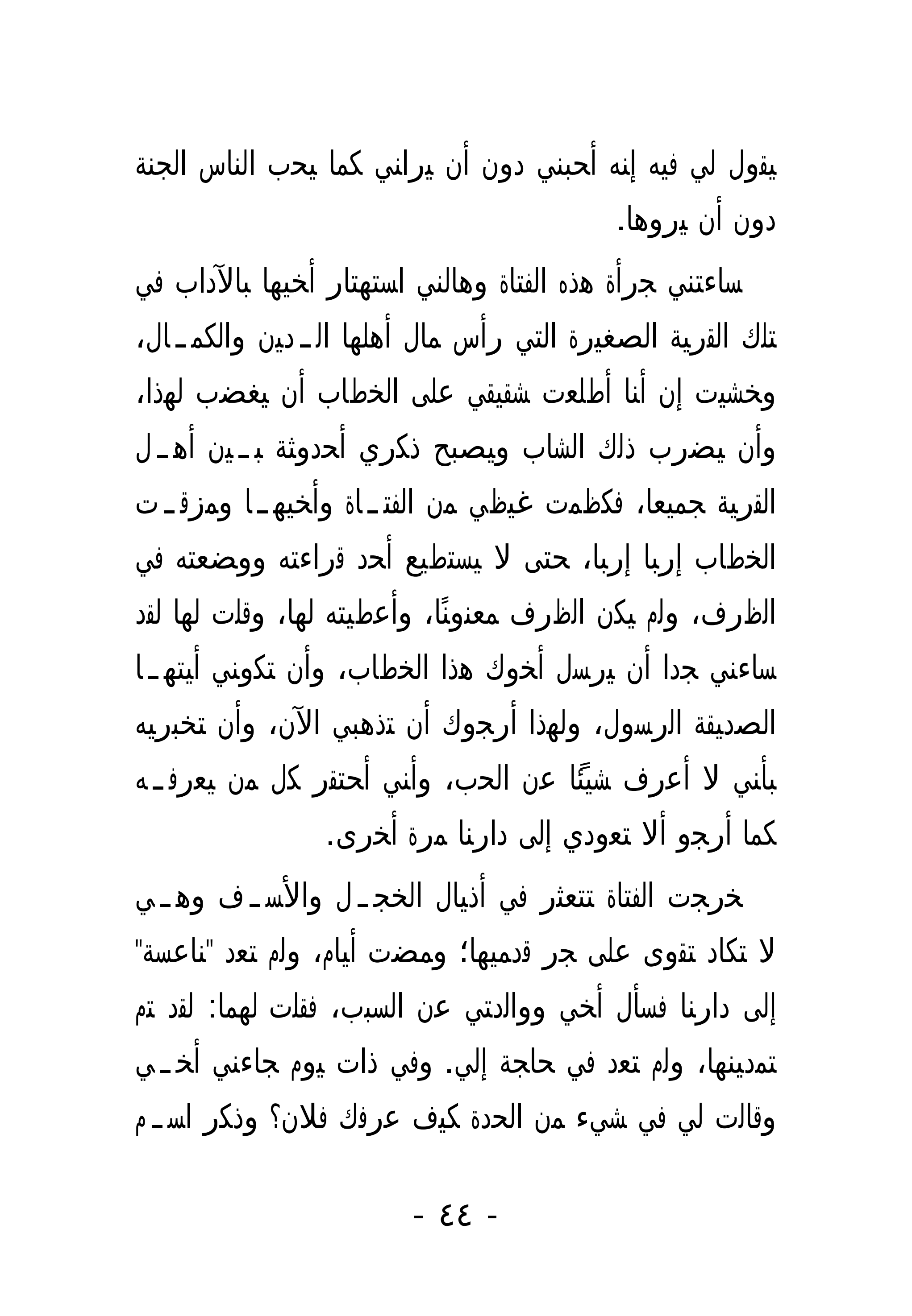
" المرحوم موسى محمد بك قاضي محكمة دسوق سابقا"

(وهو شقيقي)



شاب ريفي

نجحت في الشهادة الابتدائية في يونيه سـنة ١٩٠٣ كمـا قدمت، ولم ينجح في البلاد المصرية كلها غيري فـي ذلـك العام إلا ثلاث فتيات وأنا رابعتهن: تلميذتان مـن المدرسـة السنية، واثنتان من مدرسة عباس، ولا غرابة بعـد هـذا أن يقوم شبان قريتنا، وأن يقعدوا ابتهاجا بهذا النبأ وتقديرا لتلـك العبقرية في نظرهم إذ ذاك، أي العبقرية التي استطاعت بها فتاة من قريتهم أن تنجح في الشهادة الابتدائية. مع أن الناس الآن لا يعلقون أهمية ما لمن ينجحن في الشـهادات العاليـة فسبحان مغير الأحوال. كنت في القرية حسب عادتي عنـدما ظهرت نتيجة الابتدائية، فتوافد الناس علـى دارنـا أفواجـا للتهنئة وإظهار إعجابهم بذلك النبوغ النـادر، كمـا كـانوا يسمونه، وعلى أثر ذلك أرسل إلي أحد مشايخ القرية كريمته وهي في سني لتتعلم من معاشرتي المدنية وظلت عندي مدة شهر كنا نخيط معا بعض الملابس. وفي أحد الأيام جـاءتني "ناعسة" وهو اسم تلك الفتاة وعلى وجهها شيء من علامات القلق وما كادت تخلو بي حتى قدمت إلي خطابا من أخيهـا

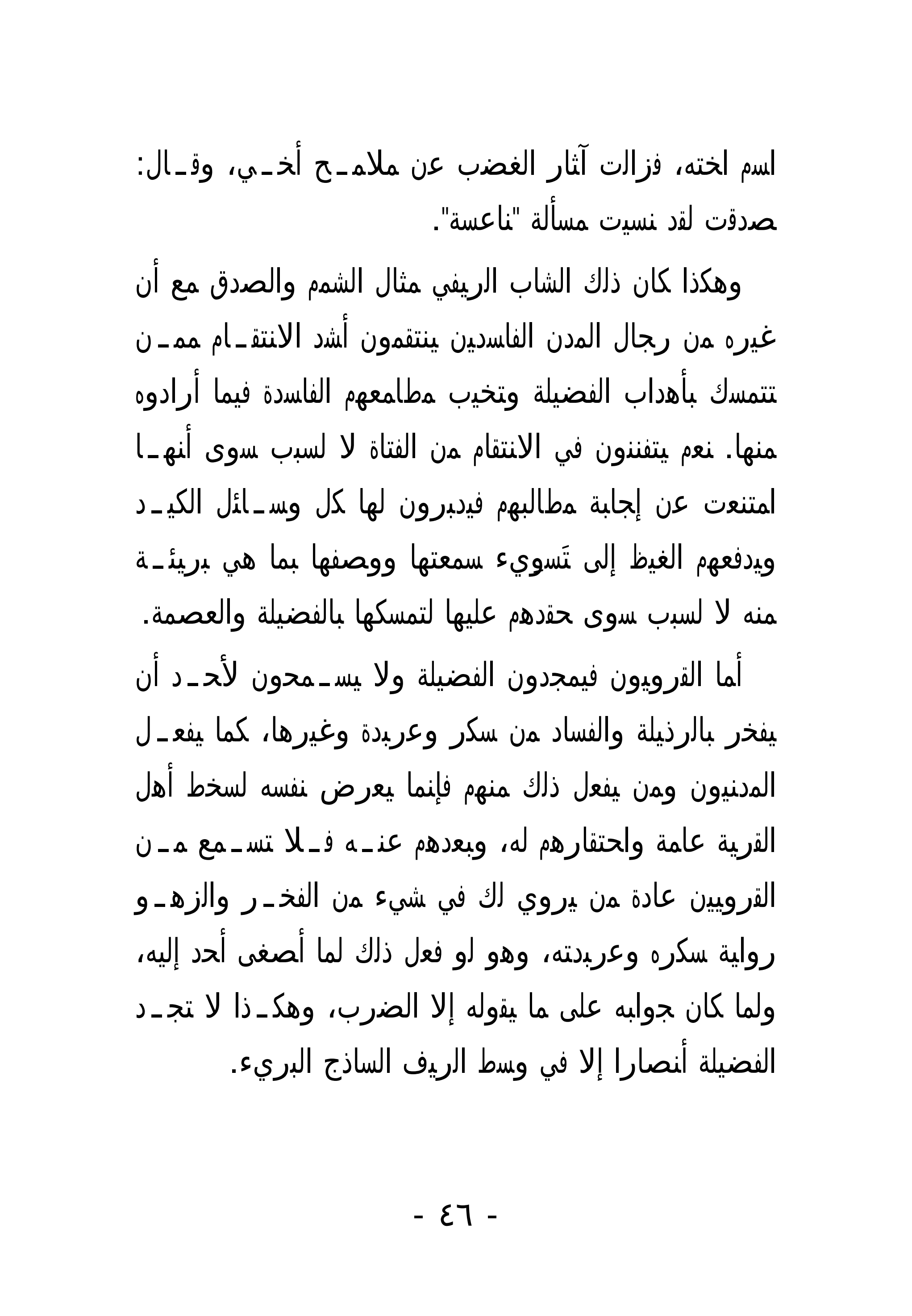


يقول لي فيه إنه أحبني دون أن يراني كما يحب الناس الجنة دون أن يروها.

ساءتني جرأة هذه الفتاة وهالني استهتار أخيها بالآداب في تلك القرية الصغيرة التي رأس مال أهلها الـدين والكمـال، وخشيت إن أنا أطلعت شقيقي على الخطاب أن يغضب لهذا، وأن يضرب ذلك الشاب ويصبح ذكري أحدوثة بـين أهـل القرية جميعا، فكظمت غيظي من الفتـاة وأخيهـا ومزقـت الخطاب إربا إربا، حتى لا يستطيع أحد قراءته ووضعته في الظرف، ولم يكن الظرف معنونًا، وأعطيته لها، وقلت لها لقد ساءني جدا أن يرسل أخوك هذا الخطاب، وأن تكوني أيتهـا الصديقة الرسول، ولهذا أرجوك أن تذهبي الآن، وأن تخبريه بأني لا أعرف شيئًا عن الحب، وأني أحتقر كل من يعرفـه كما أرجو ألا تعودي إلى دارنا مرة أخرى.

خرجت الفتاة تتعثر في أذيال الخجـل والأسـف وهـي لا تكاد تقوى على جر قدميها؛ ومضت أيام، ولم تعد "ناعسة" إلى دارنا فسأل أخي ووالدتي عن السبب، فقلت لهما: لقد تم تمدينها، ولم تعد في حاجة إلي. وفي ذات يوم جاءني أخـي وقال لي في شيء من الحدة كيف عرفك فلان؟ وذكر اسـم

ذلك الشاب وخشيت في تلك اللحظة أن يكون ذلك الشاب قد أغضبه رفضي لصداقته فاختلق علي من الأكاذيب ما يغضب أخي، ولكني تمهلت وقلت لأخي: ومن أيـن عرفـت أنـه يعرفني؟ قال لقد كنت أمس في فرح فلان، وكان هذا الشاب يجلس أمامي، ولكنه لم يشعر بوجودي وسمعته يتحدث مـع بعض شبان القرية، فقال أحدهم إن فتيات المـدن فاسـدات الأخلاق ماجنات، وهنا انبرى له ذلك الشاب يكذبه، ويقـول: إن كريمة موسى أفندي محمد وهي من فتيات المـدن ومـن أولى الناجحات في الابتدائية هذا العام على جانب عظيم من الأخلاق والكمال، فقال له ذلك الشاب المنتقد: وما يدريك فقد تكون كباقي فتيات المدن ماجنة فاسدة، ولكنا لا نعرف مـن أمرها شيئًا؟ فقال أخو ناعسة: لقد خبرتها بنفسي، وأعلم أنها أكثر النساء عصمة واستقامة. وهنا تبسمت وقلـت لأخـي: وهل كلامه هذا يدل على أنه يعرفني؟ قال: لقد قال إنه خبر ذلك بنفسه. قلت: هذا تعبير يدل على تأكده مما يقول، وهـل نسيت أن ناعسة أخته بقيت معي مدة تخـالطني وأخالطهـا وعرفت من أخلاقي ما لا يعرفه غيرهـا، وأظـن أن هـذا ما أراده أخوها بقوله إنه خبر ذلك بنفسه، ولم يشأ أن يـذكر



اسم اخته، فزالت آثار الغضب عن ملامـح أخـي، وقـال: صدقت لقد نسيت مسألة "ناعسة".

وهكذا كان ذلك الشاب الريفي مثال الشمم والصدق مع أن غيره من رجال المدن الفاسدين ينتقمون أشد الانتقـام ممـن تتمسك بأهداب الفضيلة وتخيب مطامعهم الفاسدة فيما أرادوه منها. نعم يتفننون في الانتقام من الفتاة لا لسبب سوى أنهـا امتنعت عن إجابة مطالبهم فيدبرون لها كل وسـائل الكيـد ويدفعهم الغيظ إلى تَسويء سمعتها ووصفها بما هي بريئـة منه لا لسبب سوى حقدهم عليها لتمسكها بالفضيلة والعصمة.

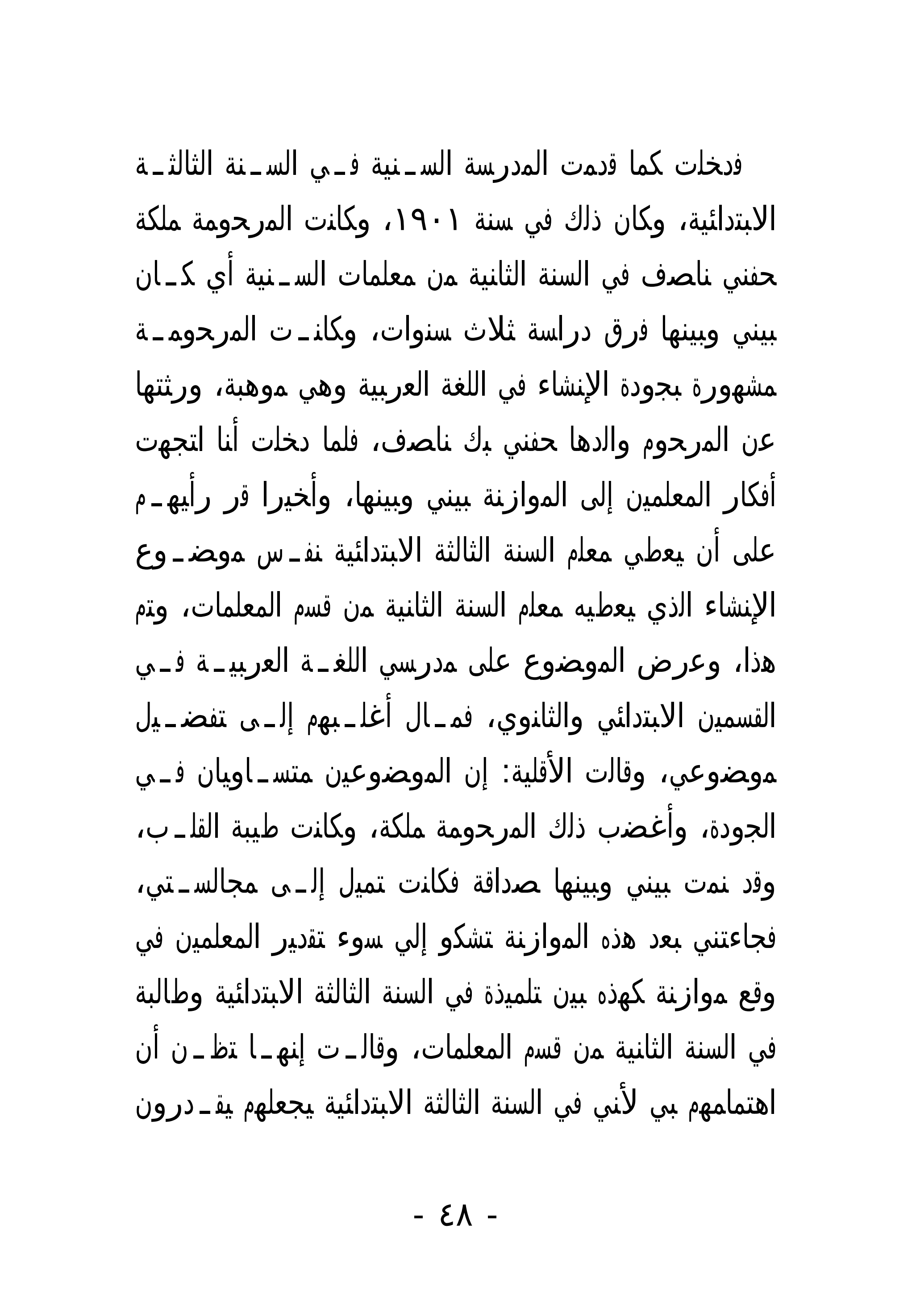
أما القرويون فيمجدون الفضيلة ولا يسـمحون لأحـد أن يفخر بالرذيلة والفساد من سكر وعربدة وغيرها، كما يفعـل المدنيون ومن يفعل ذلك منهم فإنما يعرض نفسه لسخط أهل القرية عامة واحتقارهم له، وبعدهم عنـه فـلا تسـمع مـن القرويين عادة من يروي لك في شيء من الفخـر والزهـو رواية سكره وعربدته، وهو لو فعل ذلك لما أصغى أحد إليه، ولما كان جوابه على ما يقوله إلا الضرب، وهكـذا لا تجـد الفضيلة أنصارا إلا في وسط الريف الساذج البريء.

طرائف

قبل أن أترك مرحلة تعليمـي الابتـدائي أذكـر بعـض المفارقات الكثيرة التي كانت تحصل في تلك المرحلة.



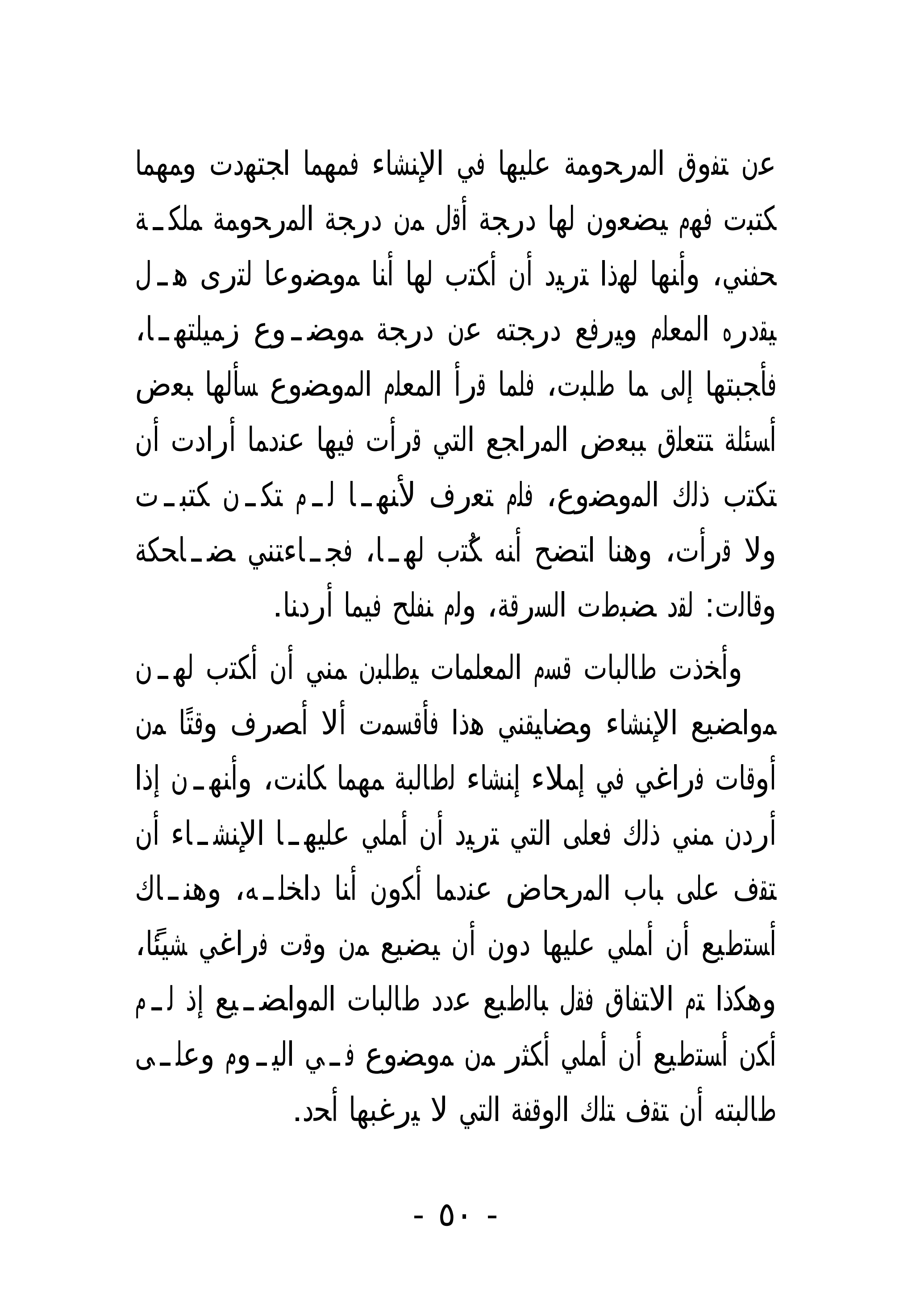
" المرحومة ملك حفني ناصف"



فدخلت كما قدمت المدرسة السـنية فـي السـنة الثالثـة الابتدائية، وكان ذلك في سنة ١٩٠١، وكانت المرحومة ملكة حفني ناصف في السنة الثانية من معلمات السـنية أي كـان بيني وبينها فرق دراسة ثلاث سنوات، وكانـت المرحومـة مشهورة بجودة الإنشاء في اللغة العربية وهي موهبة، ورثتها عن المرحوم والدها حفني بك ناصف، فلما دخلت أنا اتجهت أفكار المعلمين إلى الموازنة بيني وبينها، وأخيرا قر رأيهـم على أن يعطي معلم السنة الثالثة الابتدائية نفـس موضـوع الإنشاء الذي يعطيه معلم السنة الثانية من قسم المعلمات، وتم هذا، وعرض الموضوع على مدرسي اللغـة العربيـة فـي القسمين الابتدائي والثانوي، فمـال أغلـبهم إلـى تفضـيل موضوعي، وقالت الأقلية: إن الموضوعين متسـاويان فـي الجودة، وأغضب ذلك المرحومة ملكة، وكانت طيبة القلـب، وقد نمت بيني وبينها صداقة فكانت تميل إلـى مجالسـتي، فجاءتني بعد هذه الموازنة تشكو إلي سوء تقدير المعلمين في وقع موازنة كهذه بين تلميذة في السنة الثالثة الابتدائية وطالبة في السنة الثانية من قسم المعلمات، وقالـت إنهـا تظـن أن اهتمامهم بي لأنني في السنة الثالثة الابتدائية يجعلهم يقـدرون

إنشائي فوق ما يستحق، وأنها تريد أن تعرض الأمر علـى والدها، وطلبت مني أن أكتب قصيدة في مدح الخديوي، وأن تكتب هي أخرى، وأن تعرض القصيدتين على والدها ففعلت وفعلت، ثم جاءتني بعد ذلك وعلى وجهها علامة عدم الرضا وقالت: لقد انضم والدي إلى رأيهم ويظهر أنك محظوظـة، فقلت لها مازحة، ولكني عرضت القصـيدتين علـى أخـي ففضل قصيدتك، وبهذا أصبحنا خالصتين واحدة بواحدة. وفي السنة الرابعة قالت هي قصيدة مدح في الخديوي، وقلت أنـا أخرى، ولكنها لم تعرض قصيدتها علي بل فوجئت بها على صفحات المؤيد، وأعجبني بيت فيها أيما إعجـاب، وكنـت خارجية، وكانت المرحومة داخلية فلما رأيتها فـي الصـباح قرأت لها البيت فقالت لمن هذا؟ قلت: عجبـا ألا تعـرفين؟ قالت: لا، قلت: إنه من قصيدتك المنشورة اليوم في المؤيـد، قالت: لعل والدي وضعها، ومن هـذا علمـت أن المرحـوم حفني بك كان يساعدها فيما تكتب أثناء دراستها.

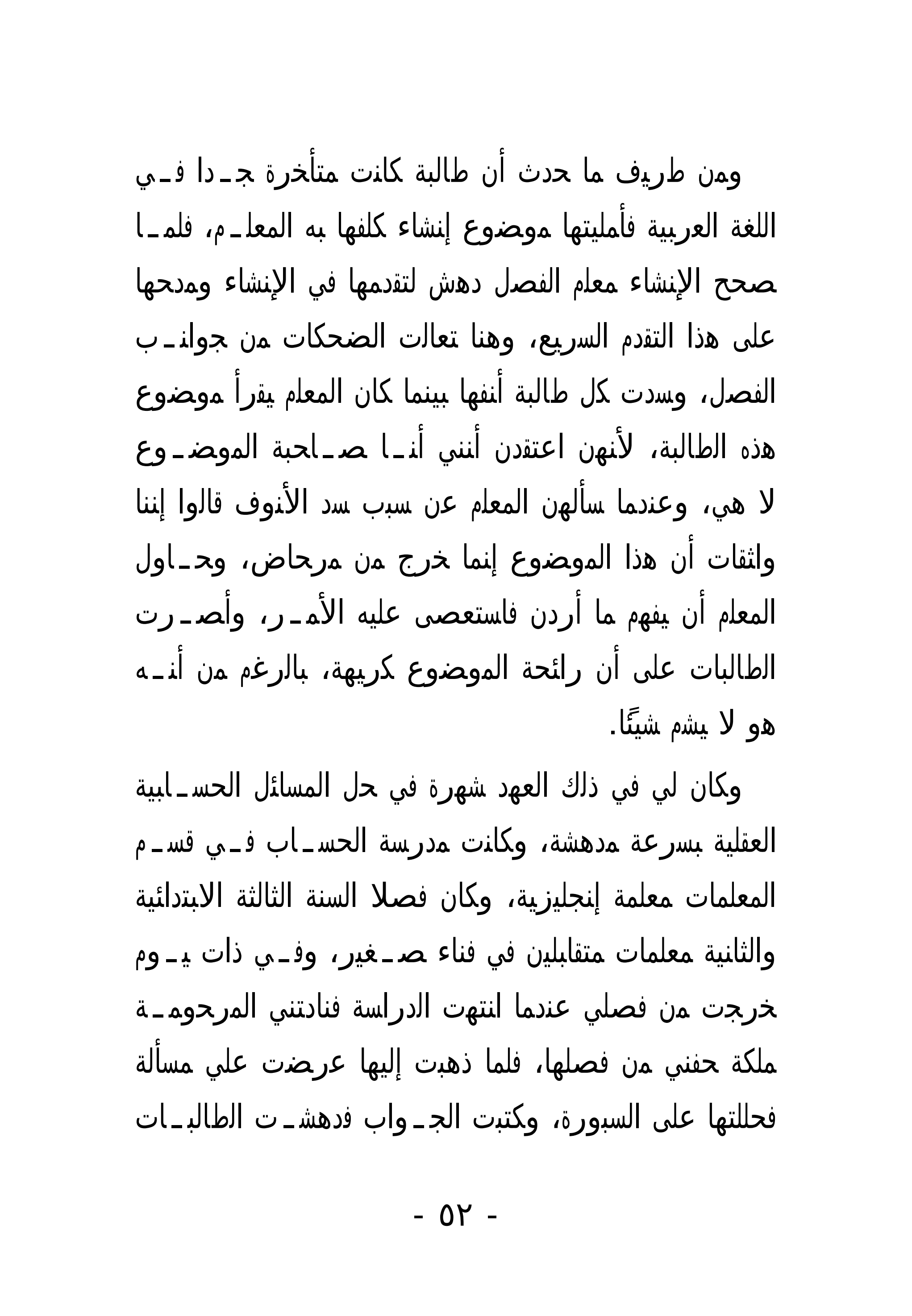
وحدث مرة أن السيدة فيكتوريا عوض (الآن مدام هنـري بك بدير مدير مخـازن وزارة الصـحة)، وكانـت زميلـة المرحومة ملكة شكت إلي من أن المعلمين أخذوا فكرة ثابتـة


عن تفوق المرحومة عليها في الإنشاء فمهما اجتهدت ومهما كتبت فهم يضعون لها درجة أقل من درجة المرحومة ملكة حفني، وأنها لهذا تريد أن أكتب لها أنا موضوعا لترى هل يقدره المعلم ويرفع درجته عن درجة موضوع زميلتها، فأجبتها إلى ما طلبت، فلما قرأ المعلم الموضوع سألها بعض أسئلة تتعلق ببعض المراجع التي قرأت فيها عندما أرادت أن تكتب ذلك الموضوع، فلم تعرف لأنها لم تكن كتبت ولا قرأت، وهنا اتضح أنه كُتب لها، فجاءتني ضاحكة وقالت: لقد ضبطت السرقة، ولم نفلح فيما أردنا.

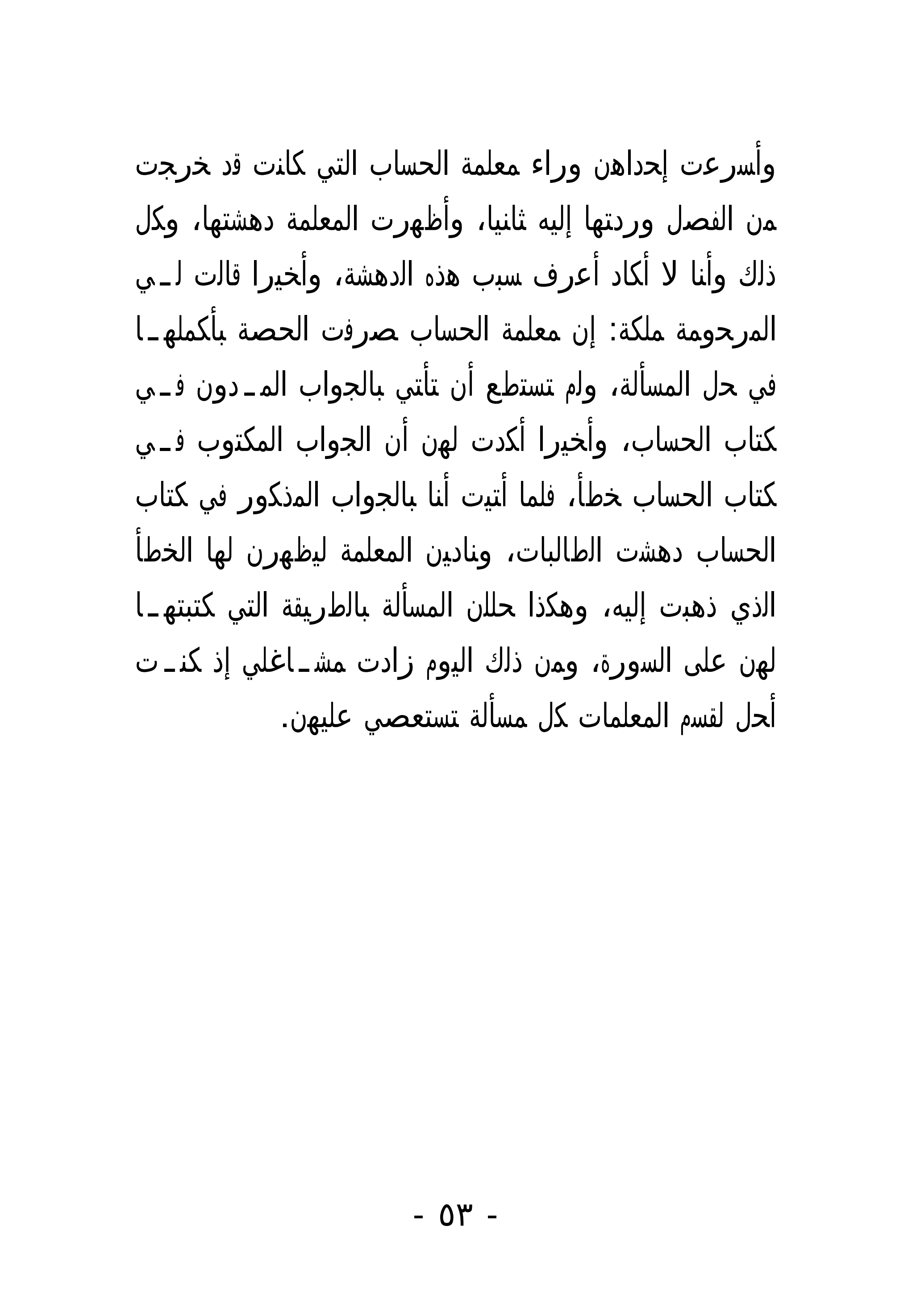
وأخذت طالبات قسم المعلمات يطلبن مني أن أكتب لهن مواضيع الإنشاء وضايقني هذا فأقسمت ألا أصرف وقتًا من أوقات فراغي في إملاء إنشاء لطالبة مهما كانت، وأنهن إذا أردن مني ذلك فعلى التي تريد أن أملي عليها الإنشاء أن تقف على باب المرحاض عندما أكون أنا داخله، وهناك أستطيع أن أملي عليها دون أن يضيع من وقت فراغي شيئًا، وهكذا تم الاتفاق فقل بالطبع عدد طالبات المواضيع إذ لم أكن أستطيع أن أملي أكثر من موضوع في اليوم وعلى طالبته أن تقف تلك الوقفة التي لا يرغبها أحد.



" السيدة فيكتوريا عوض "


ومن طريف ما حدث أن طالبة كانت متأخرة جـدا فـي اللغة العربية فأمليتها موضوع إنشاء كلفها به المعلـم، فلمـا صحح الإنشاء معلم الفصل دهش لتقدمها في الإنشاء ومدحها على هذا التقدم السريع، وهنا تعالت الضحكات من جوانـب الفصل، وسدت كل طالبة أنفها بينما كان المعلم يقرأ موضوع هذه الطالبة، لأنهن اعتقدن أنني أنـا صـاحبة الموضـوع لا هي، وعندما سألهن المعلم عن سبب سد الأنوف قالوا إننا واثقات أن هذا الموضوع إنما خرج من مرحاض، وحـاول المعلم أن يفهم ما أردن فاستعصى عليه الأمـر، وأصـرت الطالبات على أن رائحة الموضوع كريهة، بالرغم من أنـه هو لا يشم شيئًا.

وكان لي في ذلك العهد شهرة في حل المسائل الحسـابية العقلية بسرعة مدهشة، وكانت مدرسة الحسـاب فـي قسـم المعلمات معلمة إنجليزية، وكان فصلا السنة الثالثة الابتدائية والثانية معلمات متقابلين في فناء صـغير، وفـي ذات يـوم خرجت من فصلي عندما انتهت الدراسة فنادتني المرحومـة ملكة حفني من فصلها، فلما ذهبت إليها عرضت علي مسألة فحللتها على السبورة، وكتبت الجـواب فدهشـت الطالبـات



وأسرعت إحداهن وراء معلمة الحساب التي كانت قد خرجت من الفصل وردتها إليه ثانيا، وأظهرت المعلمة دهشتها، وكل ذلك وأنا لا أكاد أعرف سبب هذه الدهشة، وأخيرا قالت لـي المرحومة ملكة: إن معلمة الحساب صرفت الحصة بأكملهـا في حل المسألة، ولم تستطع أن تأتي بالجواب المـدون فـي كتاب الحساب، وأخيرا أكدت لهن أن الجواب المكتوب فـي كتاب الحساب خطأ، فلما أتيت أنا بالجواب المذكور في كتاب الحساب دهشت الطالبات، ونادين المعلمة ليظهرن لها الخطأ الذي ذهبت إليه، وهكذا حللن المسألة بالطريقة التي كتبتهـا لهن على السورة، ومن ذلك اليوم زادت مشـاغلي إذ كنـت أحل لقسم المعلمات كل مسألة تستعصي عليهن.

نهضة تعليم البنات في مصر

في يونيه سنة ١٩٠١ نجح في الشهادة الابتدائية لأول مرة ثلاث تلميذات هن السيدات: المرحومة ملكة حفني ناصف، وفيكتوريا عوض، الآن (مدام هنري بك بدير مدير مخازن وزارة الصحة) والجرابلنتر. وفي أكتوبر سنة ١٩٠١ فتح قسم المعلمات في السنية، ودخل فيه هؤلاء الثلاث في السنة الأولى. وفي يونيه سنة ١٩٠٣ نجح في امتحان دبلوم معلمات السنية لأول مرة أيضا طالبتان هما المرحومة السيدة ملكة حفني ناصف والسيدة الفاضلة فيكتوريا عوض. أما الثالثة فرسبت في الامتحان وفي أكتوبر سنة ١٩٠٣ عينت كل من المرحومة السيدة ملكة حفني ناصف، والسيدة فيكتوريا عوض معلمة بالمدرسة السنية.

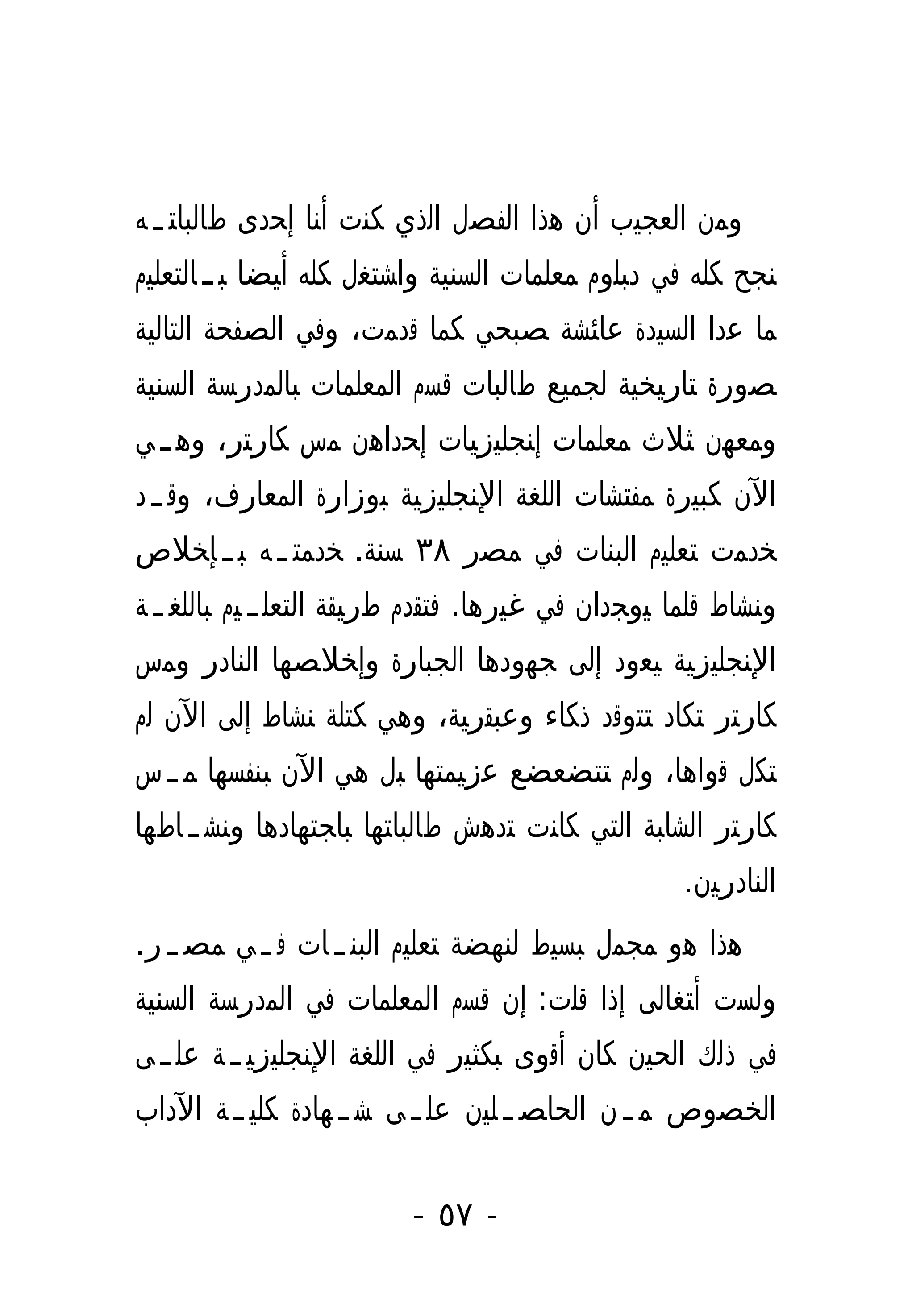
وفي نفس هذا التاريخ دخلت أنا السنة الأولى من قسم معلمات السنية أي في أكتوبر سنة ١٩٠٣، وكان قسم المعلمات يشمل ثلاث سنوات الأولى والثانية والثالثة ومجموع تلميذات هذه السنوات الثلاث كان بالتحديد ١٤ طالبة. بالسنة الثالثة أربع طالبات هن السيدات الجرابلنتر

التي رسبت في أول امتحان لدبلوم معلمات السنية، وآسيا عبد الفتاح (الآن حرم محمد بك حمدي مرتضى وكيل مديرية المنوفية)، وتوحيدة صبحي (الآن حرم حضرة صاحب العزة محمد بك شفيع)، وعائشة الشيمي. وبالسنة الثانية خمس طالبات هن المرحومتان السيدة فاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمي، وحرم عبد المجيد باشا عمر، والمرحومة السيدة نور الهدى عبد ا ، والسيدات زينب بهجت، وزينب فؤاد، وهانم صالح. أما السنة الأولى فكان بها خمس طالبات أيضا هن السيدات عائشة صبحي (الآن حرم إسماعيل باشا رمزي) وبهية حسونة، ونور حسن، وأديل دياب، ونبوية موسى. على أنه لم ينجح في دبلوم معلمات السنية من هؤلاء الطالبات الأربع عشرة إلا ثمان فقط. اثنتان نجحتا في سنة ١٩٠٤، وهما السيدتان آسيا عبد الفتاح وتوحيدة صبحي، على أن الأخيرة منهما لم تعمل في التعليم، واثنتان في سنة ١٩٠٥ هما السيدتان نور الهدى عبد ا وزينب بهجت، والأخيرة منهما لم تعمل في التعليم أيضا، وفي سنة ١٩٠٦ نجح جميع طالبات السنة الأولى اللائي ذكرتهن الآن ما عدا السيدة عائشة صبحي، مع أنها كانت من

المتقدمات إذ كانت الثانية دائما، ولكنها تركت المدرسة فـي نهاية السنة الثانية، وقد كانت أمهر طالبات السنية في اللغـة الإنجليزية، حتى أنها كانت تكتب في الإنشـاء الإنجليـزي ما يزيد عن أربع صفحات فلا تخطئ فيها مرة واحدة.

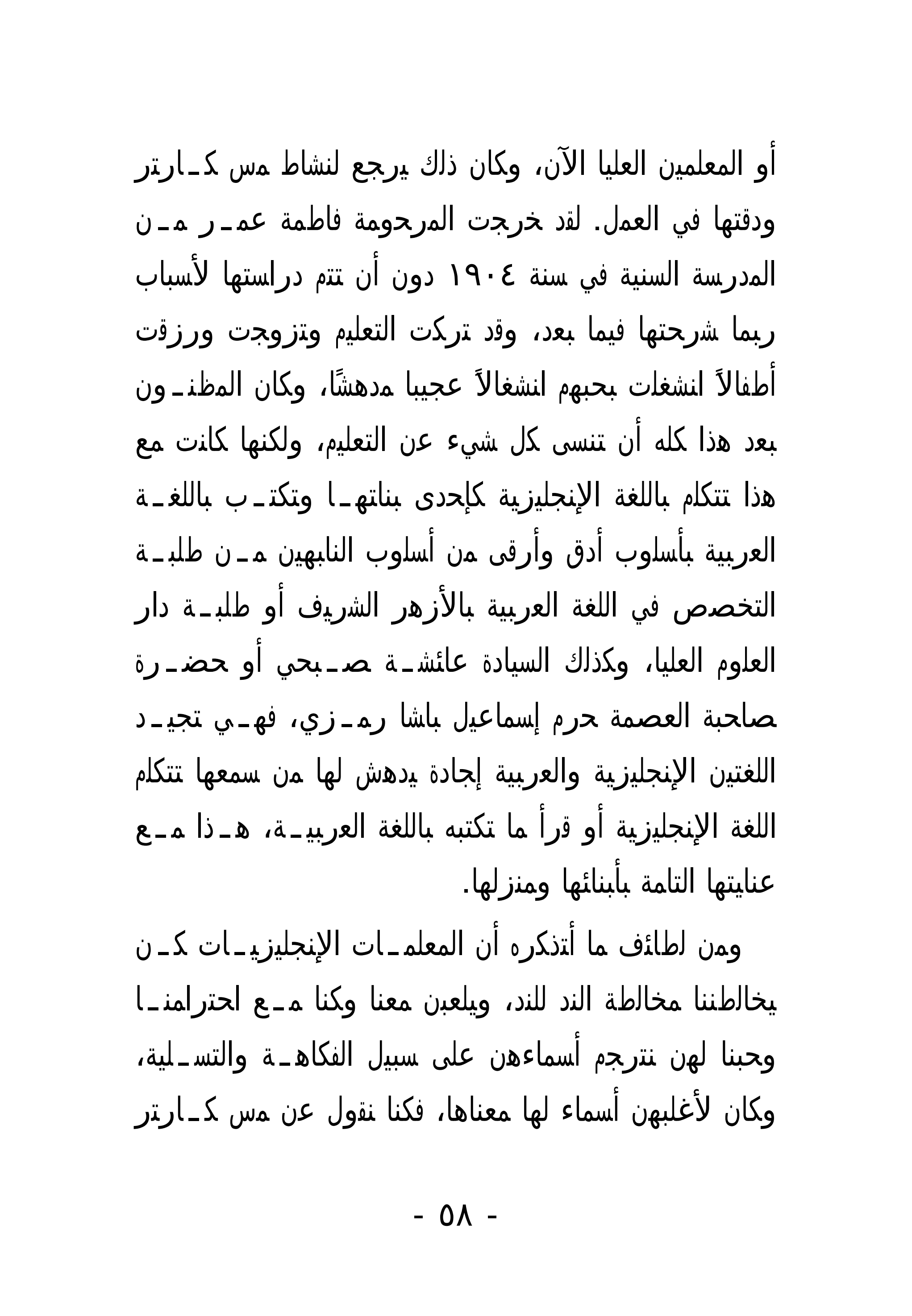


" المرحومة الآنسة نور الهدى عبد ا "



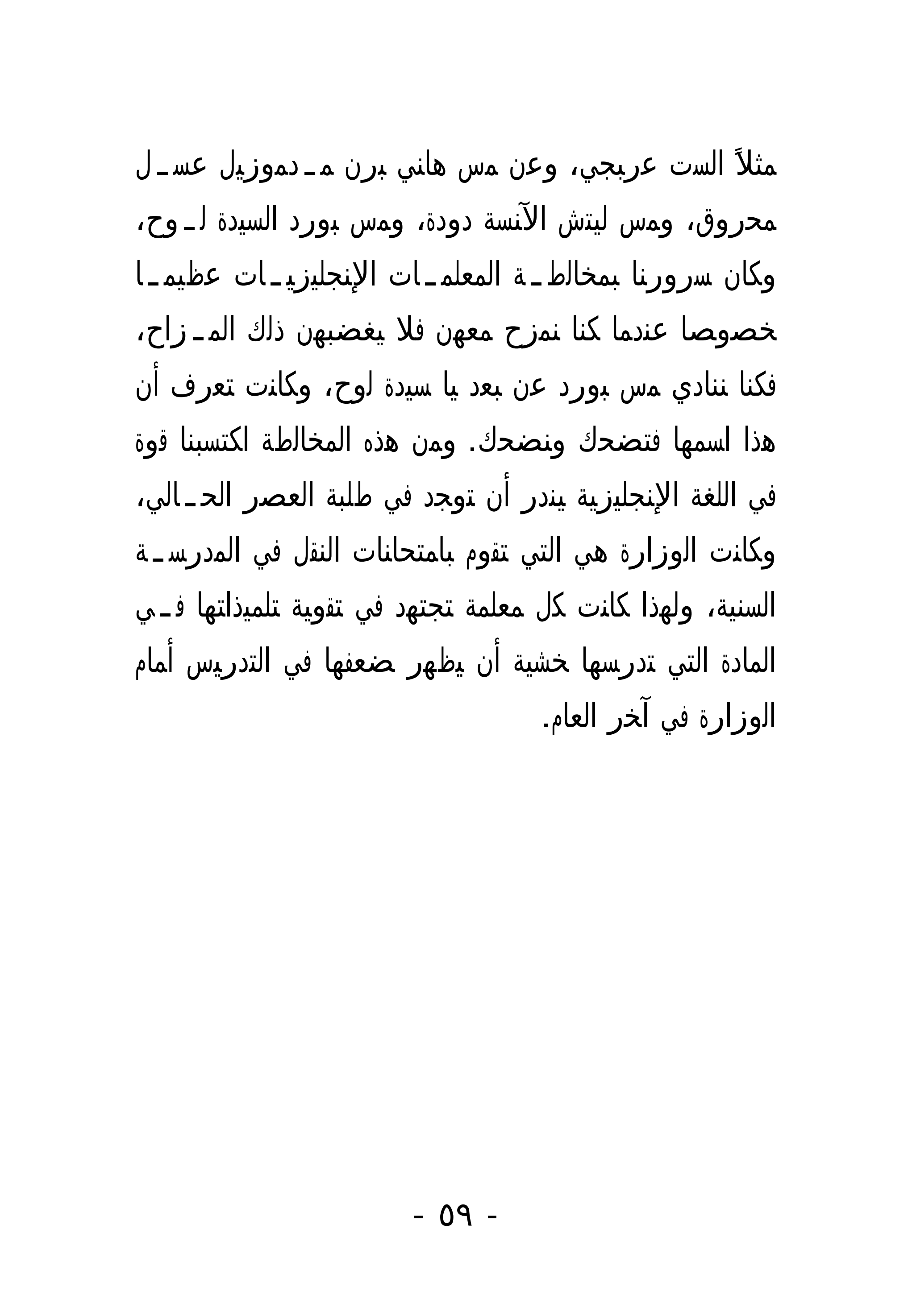
ومن العجيب أن هذا الفصل الذي كنت أنا إحدى طالباتـه نجح كله في دبلوم معلمات السنية واشتغل كله أيضا بـالتعليم ما عدا السيدة عائشة صبحي كما قدمت، وفي الصفحة التالية صورة تاريخية لجميع طالبات قسم المعلمات بالمدرسة السنية ومعهن ثلاث معلمات إنجليزيات إحداهن مس كارتر، وهـي الآن كبيرة مفتشات اللغة الإنجليزية بوزارة المعارف، وقـد خدمت تعليم البنات في مصر ٣٨ سنة. خدمتـه بـإخلاص ونشاط قلما يوجدان في غيرها. فتقدم طريقة التعلـيم باللغـة الإنجليزية يعود إلى جهودها الجبارة وإخلاصها النادر ومس كارتر تكاد تتوقد ذكاء وعبقرية، وهي كتلة نشاط إلى الآن لم تكل قواها، ولم تتضعضع عزيمتها بل هي الآن بنفسها مـس كارتر الشابة التي كانت تدهش طالباتها باجتهادها ونشـاطها النادرين.

هذا هو مجمل بسيط لنهضة تعليم البنـات فـي مصـر. ولست أتغالى إذا قلت: إن قسم المعلمات في المدرسة السنية في ذلك الحين كان أقوى بكثير في اللغة الإنجليزيـة علـى الخصوص مـن الحاصـلين علـى شـهادة كليـة الآداب



أو المعلمين العليا الآن، وكان ذلك يرجع لنشاط مس كـارتر ودقتها في العمل. لقد خرجت المرحومة فاطمة عمـر مـن المدرسة السنية في سنة ١٩٠٤ دون أن تتم دراستها لأسباب ربما شرحتها فيما بعد، وقد تركت التعليم وتزوجت ورزقت أطفالاً انشغلت بحبهم انشغالاً عجيبا مدهشًا، وكان المظنـون بعد هذا كله أن تنسى كل شيء عن التعليم، ولكنها كانت مع هذا تتكلم باللغة الإنجليزية كإحدى بناتهـا وتكتـب باللغـة العربية بأسلوب أدق وأرقى من أسلوب النابهين مـن طلبـة التخصص في اللغة العربية بالأزهر الشريف أو طلبـة دار العلوم العليا، وكذلك السيادة عائشـة صـبحي أو حضـرة صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمـزي، فهـي تجيـد اللغتين الإنجليزية والعربية إجادة يدهش لها من سمعها تتكلم اللغة الإنجليزية أو قرأ ما تكتبه باللغة العربيـة، هـذا مـع عنايتها التامة بأبنائها ومنزلها.

ومن لطائف ما أتذكره أن المعلمـات الإنجليزيـات كـن يخالطننا مخالطة الند للند، ويلعبن معنا وكنا مـع احترامنـا وحبنا لهن نترجم أسماءهن على سبيل الفكاهـة والتسـلية، وكان لأغلبهن أسماء لها معناها، فكنا نقول عن مس كـارتر



مثلاً الست عربجي، وعن مس هاني برن مـدموزيل عسـل محروق، ومس ليتش الآنسة دودة، ومس بورد السيدة لـوح، وكان سرورنا بمخالطـة المعلمـات الإنجليزيـات عظيمـا خصوصا عندما كنا نمزح معهن فلا يغضبهن ذلك المـزاح، فكنا ننادي مس بورد عن بعد يا سيدة لوح، وكانت تعرف أن هذا اسمها فتضحك ونضحك. ومن هذه المخالطة اكتسبنا قوة في اللغة الإنجليزية يندر أن توجد في طلبة العصر الحـالي، وكانت الوزارة هي التي تقوم بامتحانات النقل في المدرسـة السنية، ولهذا كانت كل معلمة تجتهد في تقوية تلميذاتها فـي المادة التي تدرسها خشية أن يظهر ضعفها في التدريس أمام الوزارة في آخر العام.



صورة طالبات قسم "معلمات السنية في أكتوبر سنة ١٩٠٣"

الجالسات من اليمين إلى اليسار: مس كارتر، والسيدات توحيدة صبحي، نبوية موسى، الجرابلنتر، بهية حسونة، زينب بهجت – الصف الثاني من اليمين إلى اليسار: مس هاني برن، السيدات: المرحومة نور الهدى عبد ا ، عائشة الشيمي، زينب فؤاد، فاطمة عمر، نور حسن، مس ليتش. الصف الثالث من اليمين إلى اليسار: السيدات: عائشة صبحي، آسيا عبد الفتاح، هانم صالح، أديل دياب.

وكانت الوزارة تعنى بامتحاننـا عنايـة تامـة فتمتحننـا تحريريا وشفويا ويقوم بذلك الامتحان أكبر رجال الـوزارة مقاما وسنا.

وكان من مفتشي وزارة المعارف المستر بويد كـاربنتر، فجاء ليمتحننا في اللغة الإنجليزية شفويا، وكنت قد سـمعت باسمه فأخذ يناقشني في أفكار المصريين، فقال إنهم يهتمـون بالتعليم ويهملون الصناعة، وأردت أن أنتصر لبلادي، فقلـت: إنهم على حق يا سيدي، فإنه لا صناعة بلا تعليم، والعلم هو الذي يرقى بالصناعات، أما صناعة الجهلاء فلا قيمة لهـا. قال: ولكن المصريين يحتقرون الصناعة وأربابها، قلت: إنهم على حق ما دام أرباب الصناعة الآن جهلاء، ألسـت تـرى يا سيدي أنه من العار أن تكون الفتاة ابنة نجار مثلاً؟ قلـت: ذلك وضغطت على كلمة نجار، ومعناها باللغـة الإنجليزيـة كاربنتر، وهو اسم المفتش. ضغطت على الكلمة في شـيء من الدعابة، وفهم المفتش أني أريد التلميح باسـمه فضـحك وقال: أشكرك، ثم أعطاني الدرجة النهائية.

وكان الشيخ شريف وهو من أكبر مفتشي اللغة العربية في ذلك الوقت يمتحننا في اللغة العربية شـفويا، وكـان رجـلاً

شديدا في امتحانه، لا يكف عن الأسئلة إلا إذا عجزت الطالبة عن الإجابة، ولما كان أول اسمي نونًا فقد كان يوضـع فـي آخر كشف الامتحانات، وأخذ الأستاذ يناقش زميلاتي الواحدة بعد الأخرى ولا ينتهي من امتحان إحداهن إلا إذا عجـزت وأجابته بجملة "لا أعرف"، وجاء دوري فأخذ يناقشني وأجيبه ويظهر أنه ضايقه هذا، وأراد أن يحملني علـى الاعتـراف بعدم المعرفة، وكانت في يده صحيفة المؤيد لصاحبها السـيد علي يوسف باشا، وبها أربعة أبيات للمرحوم إسماعيل باشـا صبري، ولم أكن قرأت تلك الصحيفة، وكانت الأبيات حديثة لم تدون في كتب الأدب، ومع هذا فقد قرأها لي الأستاذ، ثـم سألني عن قائلها، وكانت أسئلته ببطء وبنغمـة مخصوصـة فقال ما نصه (أنت. تعرفي. مين. اللي. قال. هذه الأبيـات) وعرفت غرضه فتحاملت عليه وأجبته بنفس نغمته وترتيبـه فقلت: (أنا. مش. ضروري. أعرف مين. اللي. قـال. هـذه الأبيات).

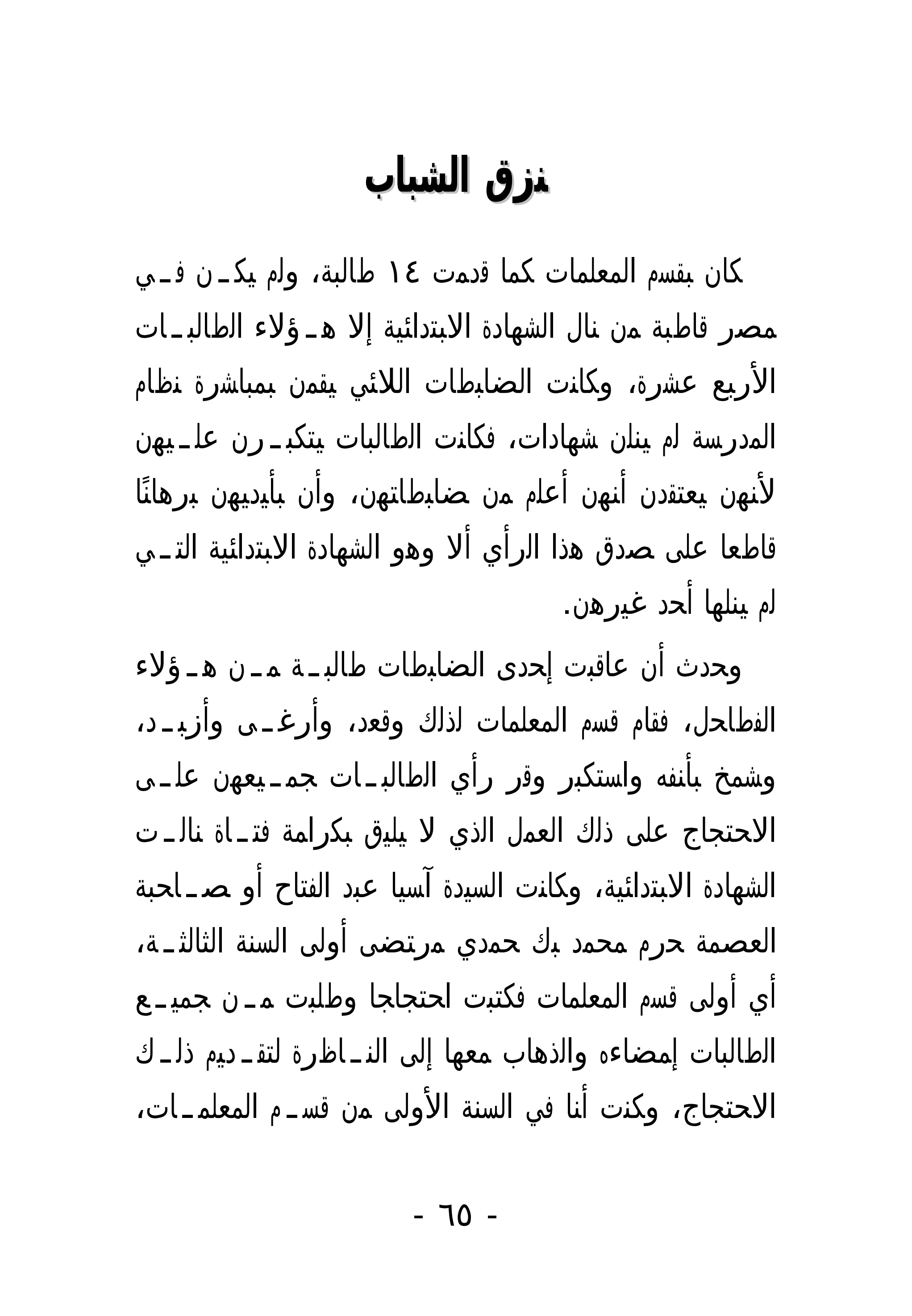
وما كاد الأستاذ يسمع هذا التهكم حتى رفع رأسه وشـعر بخطئه في السؤال، فنظر إلي وقال: متشكر، ثم وضـع لـي الدرجة النهائية.

وعلى ذكر هذا الامتحان أقول: إننا كنا في الشهادة الابتدائية نحسن التخاطب باللغة الإنجليزية أكثر من طلبة البكالوريا الآن، وأذكر أنه في امتحان الابتدائية كـان يمتحننـي فـي اللغـة الإنجليزية رجل وسيدة، فقال لي الرجل: ما اسم السـيدة التـي تخيط ملابسك؟ ولم أتذكر كلمة خياطة في ذلك الوقت، وأردت أن أشغله بإجابة أخرى حتى أتذكر الكلمة، فقلت له: إنـي أنـا التي أخيط ملابسي، قال: وماذا نسميك إذن؟ قلت: وهل تستطيع أن تسميني إلا تلميذة سواء في ذلك أخِطـت ملابسـي أم لـم أخطها؟ قال: افرضي أنك ترسلين ملابسك لسيدة لخياطتها فما اسمها؟ قلت: إن هذا الفرض يحتاج إلى المال الذي ليس معـي شيء منه ولهذا لا أستطيع أن أفرضه، واغتاظت السيدة مـن تلاعبي هذا، وقالت لي بحدة إنها هي ترسل ملابسها إلى سيدة لخياطتها فما اسم هذه السيدة؟ وهنا تذكرت الكلمـة فضـحكت ضحكة الظافر، وقلتها لها، على أن كلام السيدة كان فيـه مـا ذكرني بالكلمة المطلوبة، وأراد الرجل أن يداعبني أو يضايقني بعض الشيء فقال أتحسنين الغناء؟ قلت: كلا. قال هل تعرفين الرقص؟ قلت: لا. قال فهل تلعبين على البيـانو؟ وسـاءني أن تكون إجابتي كلها بالنفي، وهي كلمة لا تدل على مقدرة الطالبة

في اللغة الإنجليزية، فقلت له لا تسألني هذه الأسئلة فـإني لـم أخلق لمثل هذه الحياة، قال فبماذا تتسلين إذن؟ قلت: أحل بعض المسائل الحسابية، فضحك الرجل، وقال: مخلوق عجيب! وفي اليوم التالي كان امتحان الحساب، وكان فيه مسألة عقلية صعبة لم تحلها تلميذة واحدة في اللجنة فجاءني المفتش، وكان مراقبـا في الحساب، وطلب مني أن أريه نتيجة تلك المسألة، فلما رآها قال: صدقت فيما قلته أمس من حبك للحساب.



" المرحومة السيدة فاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمي



نزق الشباب

كان بقسم المعلمات كما قدمت ١٤ طالبة، ولم يكـن فـي مصر قاطبة من نال الشهادة الابتدائية إلا هـؤلاء الطالبـات الأربع عشرة، وكانت الضابطات اللائي يقمن بمباشرة نظام المدرسة لم ينلن شهادات، فكانت الطالبات يتكبـرن علـيهن لأنهن يعتقدن أنهن أعلم من ضابطاتهن، وأن بأيديهن برهانًا قاطعا على صدق هذا الرأي ألا وهو الشهادة الابتدائية التـي لم ينلها أحد غيرهن.

وحدث أن عاقبت إحدى الضابطات طالبـة مـن هـؤلاء الفطاحل، فقام قسم المعلمات لذلك وقعد، وأرغـى وأزبـد، وشمخ بأنفه واستكبر وقر رأي الطالبـات جمـيعهن علـى الاحتجاج على ذلك العمل الذي لا يليق بكرامة فتـاة نالـت الشهادة الابتدائية، وكانت السيدة آسيا عبد الفتاح أو صـاحبة العصمة حرم محمد بك حمدي مرتضى أولى السنة الثالثـة، أي أولى قسم المعلمات فكتبت احتجاجا وطلبت مـن جميـع الطالبات إمضاءه والذهاب معها إلى النـاظرة لتقـديم ذلـك الاحتجاج، وكنت أنا في السنة الأولى من قسـم المعلمـات،

ولكني سخرت من ذلك العمل ورفضت أن أنضم إليهن فـي مثل هذا الاحتجاج السخيف، وقلت: إنه لابد للمدرسـة مـن ضابطات يحافظن على النظام، وما دام ليس في مصر مـن يحمل الابتدائية فلابد من وجود ضابطات لا يحملنها، ولابـد من وجوب احترامهن ليستطعن القيام بعملهن، وعارضـتني الطالبات في آرائي هذه، وقلن إنهن لا يحتجن إلى من يشرف على نظامهن لأنهن حاصلات على الشهادة، ولأن المشرفات جاهلات، وصممت على رأيي وأخيرا ذهبت الطالبات إلـى السيدة ملكة حفني، وشكون إليها عصياني وعـدم تضـامني معهن في احتجاجهن، فطلبت مني ألا أخالف الإجمـاع، وأن أنزل على رأي الأكثرية من زميلاتي، فقلت لها إنـي أقبـل ذلك على شرط أن يتعهد هؤلاء الزميلات بالوقوف في وجه الناظرة إن هي غضبت من ذلك الاحتجاج، وعاقبتنا جميعـا فقبلت هذا الشرط، وتعهدت الطالبات بأنهن يتركن المدرسـة إن أوقعت الناظرة بهن عقابا لهذا الاحتجاج.

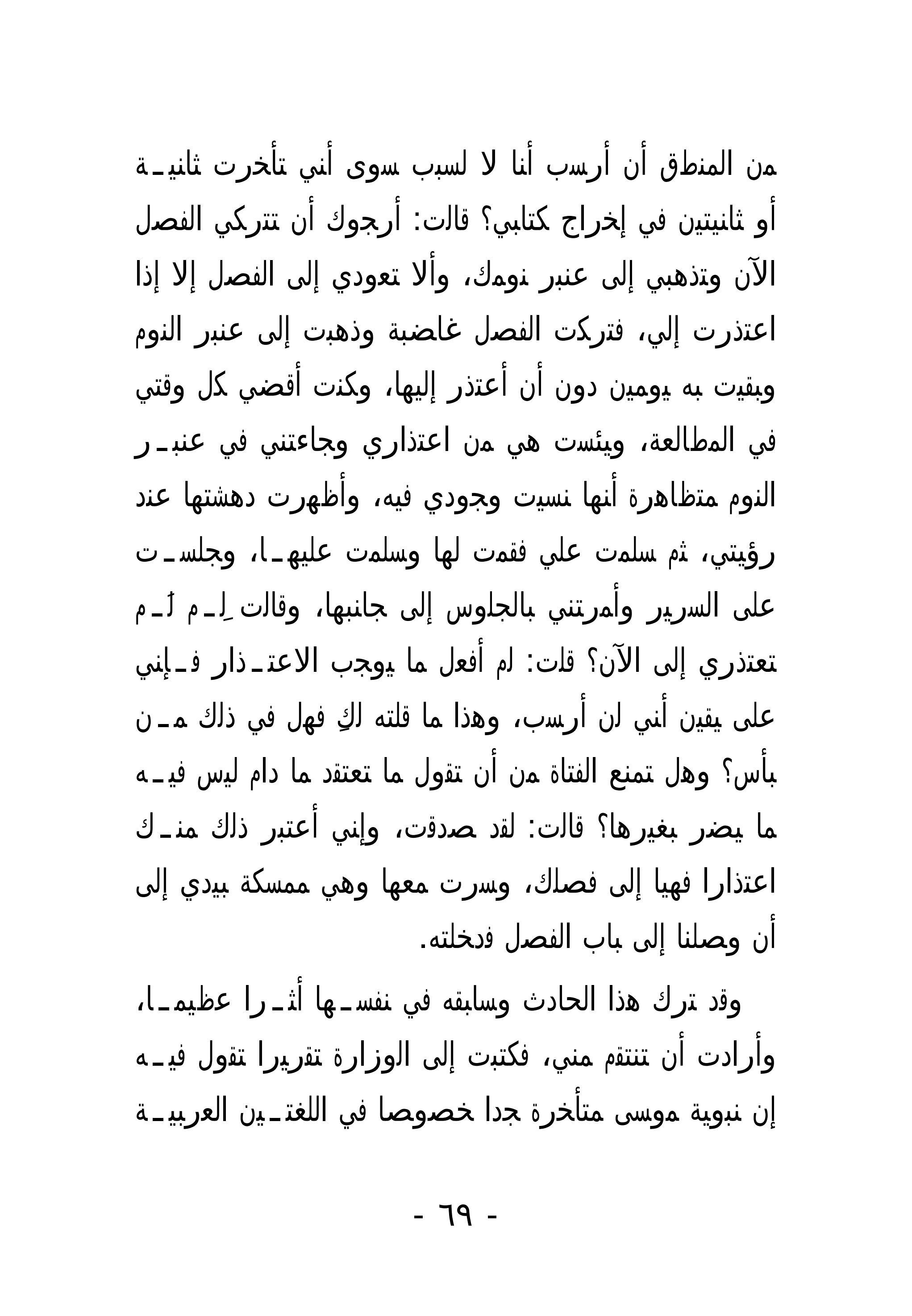
وهكذا ذهبنا جميعا نقدم الاحتجاج إلى حضرة النـاظرة، وكان اسمها مس جون ستون أو (حنـا حجـر) كمـا كنـا نترجمه، وما كاد يقع نظرها علينا حتى غضـبت وأمرتنـا

بالانصراف فانصرفنا، واستدعت الأولى وهي السيدة آسـيا عبد الفتاح وأخبرتها أننا جميعا معاقبات، وأنه يجب علينا أن نلازم حجرة النوم من الساعة الرابعة بعد الظهر، وأن تكتـب كل منا الجملة الآتية، وتعلقها على سريرها وهي (يجب على الطالبات إطاعة الضابطات) وجاءتنا السيدة آسـيا بـالورق والدواة، تطلب منا الكتابة وتبلغنا العقـاب وثـارت ثـائرتي ورفضت أن أكتب، وطلبت من السيدة ملكة حفنـي أن تبـر بوعدها لي، فأرغمت الطالبات على مخالفـة ذلـك الأمـر والذهاب إلى الناظرة للاحتجاج عليه، وارتـدت كـل منـا ملابسها وذهبنا إلى الناظرة لنخبرها بأننا لا نستطيع تنفيذ هذا العقاب وأننا مصممات على ترك المدرسة إذا هي صـممت على عقابها هذا.

دخلنا مكتب الناظرة فاستقبلتنا بشدتها، وسألتنا ماذا نريد؟ فلم يستطيع أحد أن يجيبها وكررت السؤال مـرارا، وقابلنـا ذلك السؤال بالصمت مرارا أيضا، وخشيت أنـا أن تأمرنـا بالخروج وتضاعف لنا العقاب، فقلت لها لقد جئنا نخبرك أننا لا نستحق هذا العقاب لأننا لم نفعل شيئا، وإن كنا قد احتججنا على عقاب زميلة لنا فما كان يستوجب ذلك عقابنا بل كـان

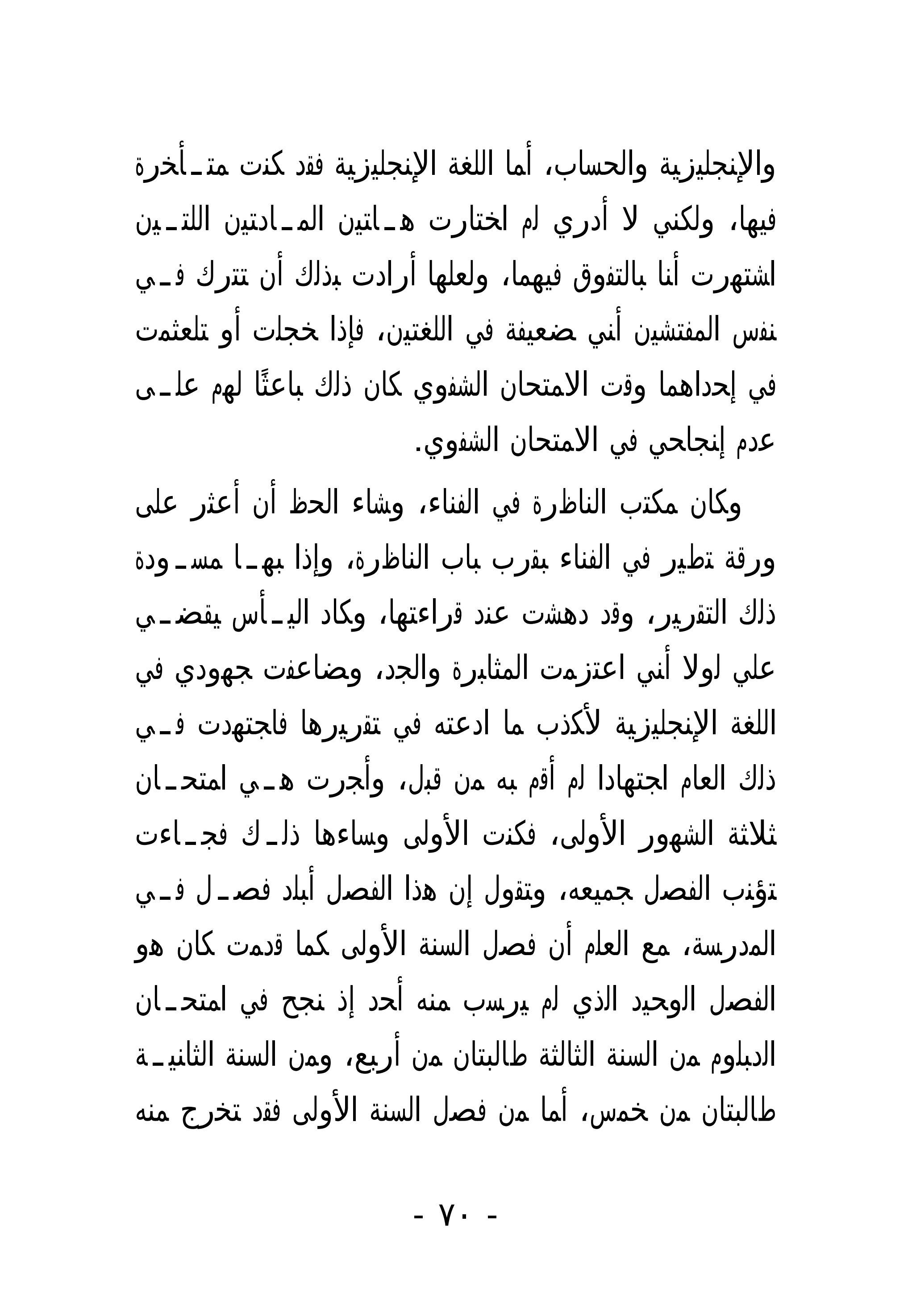
عليك أن تشرحي لنا أننا مخطئات، وأن للضـابطات حـق عقاب تلك الزميلة، ولو أنك فعلت هذا لخرجنا مـن عنـدك راضيات، أما الآن فنحن لا نقبل البقاء في مدرسة نعاقب فيها بلا ذنب ولا جريرة، وساء الناظرة أن أتكلم أنا مع أني مـن السنة الأولى، وما كان لمثلي أن يتكلم ومعه طالبات السـنة الثالثة اللائي هن أحق مني بالكلام، ولهذا ظنت أني أنا التي دفعت الطالبات إلى هذا الاحتجاج، وأرادت أن تنهي المسألة، فقالت: وإذا عفوت عنكن فهل تعدنني أنكن لا تعدن إلى مثل هذا الطيش؟ قلت: لك ذلك، قالـت: لا بـأس فـاذهبن إلـى شأنكن.

تحملت الناظرة مني منذ ذلك اليوم، وأرادت أن تنتقم مني منفردة، وبعد ذلك الحادث بأسبوع مرضت معلمة الجغرافية، فحلت محلها الناظرة في إعطائنا حصة الجغرافيـة فـدخلت الفصل وأمرتنا بإخراج الأطالس وكتب الجغرافية، وكنت أنا آخر من أخرجت كتابها، فقالت لي بلهجة التأنيـب: أبشـرك بأنك سترسبين في آخر العام. فقلت: وأنا أؤكد لـك أن هـذه البشرى غير صحيحة، ومحال أن أرسب وأنـا أولـى هـذه الفرقة، قالت: أتعارضينني فيما أقول؟ قلت: ولم لا؟! وهـل



من المنطق أن أرسب أنا لا لسبب سوى أني تأخرت ثانيـة أو ثانيتين في إخراج كتابي؟ قالت: أرجوك أن تتركي الفصل الآن وتذهبي إلى عنبر نومك، وألا تعودي إلى الفصل إلا إذا اعتذرت إلي، فتركت الفصل غاضبة وذهبت إلى عنبر النوم وبقيت به يومين دون أن أعتذر إليها، وكنت أقضي كل وقتي في المطالعة، ويئست هي من اعتذاري وجاءتني في عنبـر النوم متظاهرة أنها نسيت وجودي فيه، وأظهرت دهشتها عند رؤيتي، ثم سلمت علي فقمت لها وسلمت عليهـا، وجلسـت على السرير وأمرتني بالجلوس إلى جانبها، وقالت لِـم لَـم تعتذري إلى الآن؟ قلت: لم أفعل ما يوجب الاعتـذار فـإنني على يقين أني لن أرسب، وهذا ما قلته لكِ فهل في ذلك مـن بأس؟ وهل تمنع الفتاة من أن تقول ما تعتقد ما دام ليس فيـه ما يضر بغيرها؟ قالت: لقد صدقت، وإني أعتبر ذلك منـك اعتذارا فهيا إلى فصلك، وسرت معها وهي ممسكة بيدي إلى أن وصلنا إلى باب الفصل فدخلته.

وقد ترك هذا الحادث وسابقه في نفسـها أثـرا عظيمـا، وأرادت أن تنتقم مني، فكتبت إلى الوزارة تقريرا تقول فيـه إن نبوية موسى متأخرة جدا خصوصا في اللغتـين العربيـة



والإنجليزية والحساب، أما اللغة الإنجليزية فقد كنت متـأخرة فيها، ولكني لا أدري لم اختارت هـاتين المـادتين اللتـين اشتهرت أنا بالتفوق فيهما، ولعلها أرادت بذلك أن تترك فـي نفس المفتشين أني ضعيفة في اللغتين، فإذا خجلت أو تلعثمت في إحداهما وقت الامتحان الشفوي كان ذلك باعثًا لهم علـى عدم إنجاحي في الامتحان الشفوي.

وكان مكتب الناظرة في الفناء، وشاء الحظ أن أعثر على ورقة تطير في الفناء بقرب باب الناظرة، وإذا بهـا مسـودة ذلك التقرير، وقد دهشت عند قراءتها، وكاد اليـأس يقضـي علي لولا أني اعتزمت المثابرة والجد، وضاعفت جهودي في اللغة الإنجليزية لأكذب ما ادعته في تقريرها فاجتهدت فـي ذلك العام اجتهادا لم أقم به من قبل، وأجرت هـي امتحـان ثلاثة الشهور الأولى، فكنت الأولى وساءها ذلـك فجـاءت تؤنب الفصل جميعه، وتقول إن هذا الفصل أبلد فصـل فـي المدرسة، مع العلم أن فصل السنة الأولى كما قدمت كان هو الفصل الوحيد الذي لم يرسب منه أحد إذ نجح في امتحـان الدبلوم من السنة الثالثة طالبتان من أربع، ومن السنة الثانيـة طالبتان من خمس، أما من فصل السنة الأولى فقد تخرج منه

أربع معلمات من خمس طالبات، أو بعبارة أخرى من أربـع طالبات لأن الطالبة الخامسة وهي من المتقدمات لم ترسـب، ولكنها تركت المدرسة، ومع هذا فقد زعمـت النـاظرة أن فصل السنة الأولى هو أبلد الفصول الثلاثة، بدليل أن الأولى فيه لم تتغير مع أن الأولى في باقي الفصـول تتغيـر مـن امتحان لآخر، وكانت تريد بذلك الكلام دفع زميلاتـي إلـى العمل حتى لا أكون أنا الأولى في امتحان ثلاثـة الشـهور الثانية.

وفي امتحان ثلاثة الشهور الثانيـة أرادت أن تزحزحنـي عن مكاني، وعلمت أنها لا تستطيع شيئًا في تغيير الدرجات التحريرية، فعمدت إلى الامتحان العملي للتربية أي فن التعليم فحضرته بنفسها ووضعت هي الدرجات فأعطتني ٤٠ درجة من ١٠٠، وأعطت لكل زميلاتي فـوق التسـعين، وبهـذا اعتقدت أن هذا الفرق العظيم في درجات التربيـة العمليـة سينزل بي عن مكانتي ودفعني اضطهادها هذا إلى مضاعفة جهودي في الامتحان التحريري، وظهرت النتيجة وجـاءت لتقرأها علينا وقبل أن تبتدئ في القراءة، قالت: إني آسفة أشد الأسف، فكملت لها جملتها بسرعة قائلة: (لأن نبوية موسـى

لا تزال الأولى)، فنظرت إلي، وقالت: نعم هو ذلك ما آسف له، وما أوبخ زميلاتك عليه لأنهن لو اجتهدن لما استطعت أنت المحافظة على مكانتك في كل امتحان.

دخلنا امتحان النقل بعد هذا، وقد قام به المفتشون، وكنت أولى فرقتي، وأرسلت الوزارة تقريرا إلى المدرسة تقول فيه لقد برهنت الطالبة نبوية موسى على أنها أولى قسم المعلمات جميعها في أغلب المواد، خصوصا في اللغتين العربية والإنجليزية والحساب، وكان هذا ردا خالصا على تقرير الناظرة.

عزة النفس

(تنقلب جبنًا)

ذكرت في ذكرياتي السابقة كيف كانت مظاهرة الطالبات ضد الضابطة التي عاقبت إحداهن سببا في خلق عداء بيني وبين الناظرة لم يكن لي ذنب فيه، وكأن هذا الدرس لم يفدني كثيرا فلم ألبث أن وقعت في خطأ غيره.

اعتاد معلم اللغة العربية أن يتركنا واقفات عند بدء حصته فلا يأمرنا بالجلوس إلا بعد خمس دقائق أو ست، وفي أثناء ذلك يكون هو مشغولاً بالكتابة في كراسة تحضيره ويظهر لي أن الرجل لم يكن يعد درسه في كراسة التحضير قبل دخوله الفصل، فهو يتركنا واقفات إلى أن ينتهي من إعداد درسه حتى إذا دخلت الناظرة عليه لا تلاحظ أننا جالسات بينما يكتب هو مذكرة الدرس أمامنا.

ساء ذلك زميلاتي لأنهن اعتبرنه إهانة لا مبرر لها خصوصا لطالبات حصلن على الشهادة الابتدائية في الوقت

الذي كانت فيه تلك الشهادة في نظـر النـاس أعلـى مـن الدبلومات.

ساءهن ذلك، وشكون إلي أمرهن وطلبن منـي أن أكلـم المعلم في ذلك لأنهن لا يستطعن أن يعاتبنه خشية أن يثـور عليهن. أما أنا فلي عنده مكانة خاصة أستطيع معها عتابـه. هذا ما قالته زميلاتي، وإن كنت أنا شخصيا لم أقرهن عليه، كما أني لم أكن متألمة من وقوفي ٥ دقائق، ولكنهن ألحفـن علي في الطلب فقبلت منهن ذلـك، وقلـت لهـن سـآمركن بالجلوس عند دخوله. فأطعنني وإذا أمركن بالوقوف فإيـاكن أن تفعلن ذلك.

دخلنا الفصل على هذا الاتفاق، ودخل المعلم فقمنا له، ثـم جلس ليكتب في كراسة تحضيره حسب عادته فـأمرت أنـا زميلاتي بالجلوس بصوت مسموع وجلست معهن، وتنبه هو لذلك فغضب وأمرنا في حدة بـالوقوف، فوقفـت الطالبـات وبقيت أنا جالسة، فأمرهن بالجلوس وأمرني بالوقوف، فلـم أقف. وقلت: إني لم أفعل ما يستحق العقاب وإن الطالبات لم يكن معاقبات، وليس للمعلم أن يعاقب الطالبـات بـلا ذنـب ولا جريرة، ولهذا اعتبرت أن مجرد انشغاله بالكتابـة هـو

الذي منعه من أن يأمرهن بالجلوس وبما أنني أولى هذه الفرقة فقد رأيت من واجبي أن آمر التلميذات بالجلوس بالنيابة عنه فلا داعي إذن للغضب مما فعلت. ولهذا لا أرى معنى لعقابي بالوقوف.

غضب المعلم لذلك، ولكنه كظم غيظه وسكت وتجنبني بعد ذلك فلم يكلمني إطلاقًا، ولم يسألني، ولم يكن ذلك مما يغضبني بل كنت أسر من أن أستمع إلى المعلم وهو يناقش الطالبات دون أن أدخل أنا في ذلك النقاش.

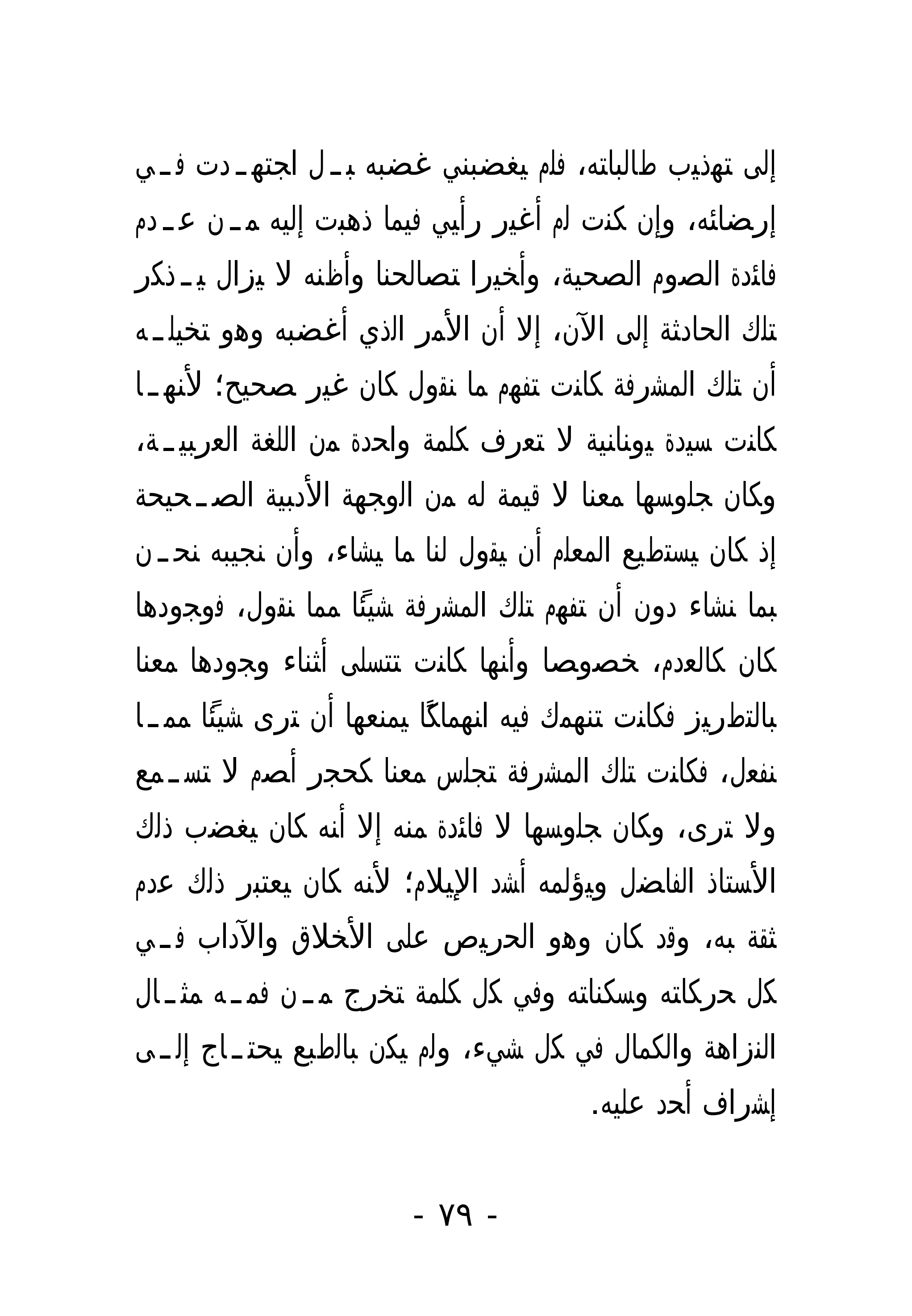
لهذا مضى علي بعض الوقت دون أن يكلمني، ودون أن أتألم من ذلك الحرمان، وكانت زميلتي عائشة صبحي تجلس إلى جانبي، وكانت مؤدبة خجولا على جانب عظيم من الآداب الشرقية، شديدة الحياء مع ذكائها وتوقد قريحتها، فكان إذا سألها نظر إليها فتخجلها نظراته إلى حد يجعلها ترتبك فتردد الكلمة (يا أختي) في شيء من الحيرة والتردد، وزاد ذلك منها مرة إلى حد ضايقني فقلت لها ما هذا؟ هل تريدين أن نحفظ منك هذه الكلمة؟ أرجوك إذا كنت تعرفين الجواب أن تدلي به وإلا فاجلسي.

وهنا قال المعلم لعائشة: - أرأيت أنك لم تعجبي نبويـة؟ وساءني ذلك منه فقلت له: كلا إنـي راضـية عنهـا كـل الرضاء، وأنت الذي لا تعجبني لا هي، وساءه ذلك، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئًا، واشتد الجفاء بينـي وبينـه، وسـأل زميلتي في يوم آخر عن وزن الفعل (آثر) وارتبكت كعادتها فهمست إليها قائلة: إنه على وزن (أفعل)، وقالت هي الكلمة بعدي فقال لها المعلم في شيء من الغضب: لقد كذبت أنـت ومن قالت لك هذا. فقلت له: وهل إذا كان ما قلته خطأ يعـد ذلك كذبا أم مجرد خطأ؟ قال: إن الكذب أن يقـول الإنسـان ما ليس بصحيح، فهو كذب، قلت: كلا إن الكـذب أن يقـول الإنسان شيئًا غير صحيح وهو يعلم عدم صحته، أما إذا كان لا يعلم ذلك فهو مخطئ، وأصر المعلم على رأيه، فقلت لـه: وهل إذا اتضح أن هذا الفعل ليس على وزن (فاعـل) كمـا تعتقد حضرتك يكون ذلك كذبا من جانبك؟ قال: نعم، قلـت: إذن هو ليس على وزن (فاعل)، بدليل أن مضارعه (يؤثر)، وقد جاء في القرآن **بَلْ تُؤْثِرون الْحياةَ الدنْيا** ولو أن ذلك الفعل على وزن فاعل لكان مضارعه (يؤاثر) فخجل المعلم، ولم يستطع جوابا.

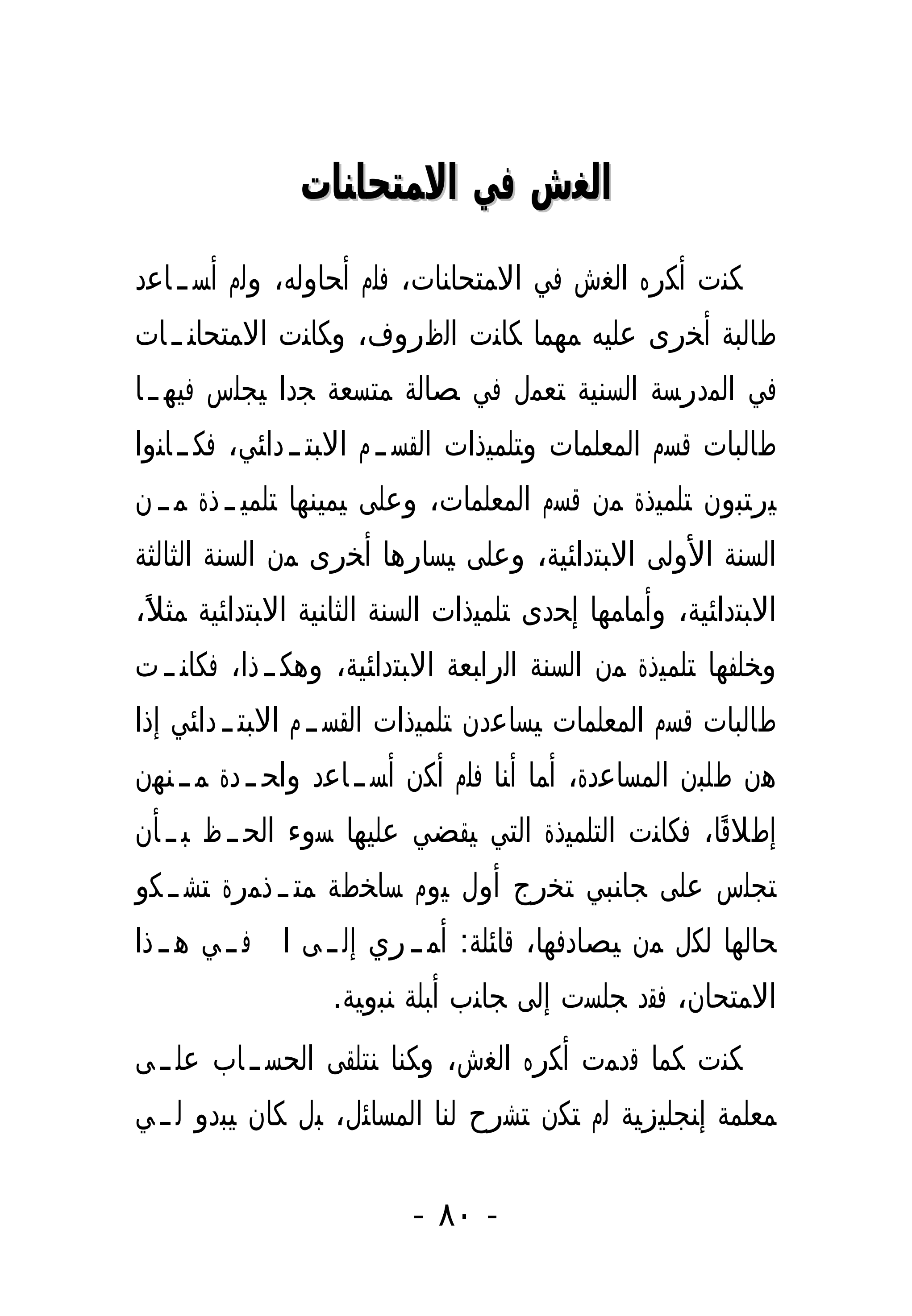
وتصادف أن زارنا في تلك المدة الشيخ حمزة فـتح ا ، وقرأ موضوعا إنشائيا لإحدى زميلاتي فوجد فيه كلمة (كون) بدلاً من كان، فأخذ يعنف الزميلة ويسألها من أين أتت بـذلك الفعل (كون)، وأخيرا تدخلت في الموضوع أنا، وقلـت لـه جاءت به من كلام معلمنا، فهو لا يزال طول الوقت يقول لنا إن (كان) أصلها (كون) ولا بأس أن تذكر هي الأصل وتترك الفرع ما دام المعلم لم يعلمنا شيئًا غير هذا. فضحك الشـيخ حمزة فتح ا وخجل المعلم ورأى أن خصامه لي لا يـنجم عنه إلا تلك المواقف الحرجة التي يقفها من وقت إلى آخـر، فأراد أن يصالحني، وكان بالمدرسة معلم آخر هـو الشـيخ أحمد إبراهيم بك، وكيل مدرسة الحقوق الآن، وكنت أحترمه لفضله ووقاره فطلب منه أن يصالحني ففعل، وانتهت تلـك المشكلة التي أوقعني فيها غدر زميلاتي وخـروجهن علـى العهود التي اتفقن عليها معي، ومن بعد هذه الحادثة لم أتفـق معهن على شيء مهما طلبن مني ذلك.

وعلى ذكر الشيخ أحمد إبراهيم بك أقول إنني كنت أحترمه احتراما يدفعني إلى طاعته مهما كانت الظروف، وقـد درس لنا اللغة العربية في السنتين الثانية والثالثة، فتصادف يوما أن

أعطانا موضوعا إنشائيا عن فوائد الصوم، وقال لنا إن مـن فوائده تحسين الصحة، فعارضته أنا في ذلك، وقلـت: إنـي أؤمن بكل فوائده الأدبية والدينية، أمـا أن نصـوم لتصـح أجسامنا فهو ما لا أستطيع أن أؤمن به، لأن الغربيين وهـم قوم مسيحيون لا يصومون رمضان، ومع ذلك فهـم أصـح أجساما منا، ولو أن الصيام كان للصحة لجاز لنا أن نمتنـع عن الطعام في أوقات معقولة أي نأكل في الصباح، ثم فـي المساء، أما أن نمتنع عن الأكل النهـار كلـه مهمـا طـال ولا نأكل إلا في الليل، فأمر لا أظنه يفيد الصحة في شـيء. وأصر الأستاذ على رأيه، وأصررت أنا على رأيي، وضايقه ذلك مني لأمرين: أولهما أنه كان رجـلاً فاضـلاً يريـد أن يغرس في نفوس طالباته أصول الدين وفضائله، وثانيهما: أن المدرسة كانت لا تسمح لنـا بتلقـي الـدرس علـى أسـتاذ إلا بحضور مشرفة، وكانت تلك المشـرفة أجنبيـة. وظـن الأستاذ أنها تفهم اللغة العربية فسـاءه أن تسـمع منـي أن المسيحيين أصح منا أجساما، وأن صيام رمضان قد يؤثر في صحتنا، فغضب وقال لي: الكلمة يقولهـا أجنبـي تزعـزع عقيدتك في دينك؟ ورأيت أن الرجل على حق في شدة ميلـه



إلى تهذيب طالباته، فلم يغضبني غضبه بـل اجتهـدت فـي إرضائه، وإن كنت لم أغير رأيي فيما ذهبت إليه مـن عـدم فائدة الصوم الصحية، وأخيرا تصالحنا وأظنه لا يـزال يـذكر تلك الحادثة إلى الآن، إلا أن الأمر الذي أغضبه وهو تخيلـه أن تلك المشرفة كانت تفهم ما نقول كان غير صحيح؛ لأنهـا كانت سيدة يونانية لا تعرف كلمة واحدة من اللغة العربيـة، وكان جلوسها معنا لا قيمة له من الوجهة الأدبية الصـحيحة إذ كان يستطيع المعلم أن يقول لنا ما يشاء، وأن نجيبه نحـن بما نشاء دون أن تفهم تلك المشرفة شيئًا مما نقول، فوجودها كان كالعدم، خصوصا وأنها كانت تتسلى أثناء وجودها معنا بالتطريز فكانت تنهمك فيه انهماكًا يمنعها أن ترى شيئًا ممـا نفعل، فكانت تلك المشرفة تجلس معنا كحجر أصم لا تسـمع ولا ترى، وكان جلوسها لا فائدة منه إلا أنه كان يغضب ذلك الأستاذ الفاضل ويؤلمه أشد الإيلام؛ لأنه كان يعتبر ذلك عدم ثقة به، وقد كان وهو الحريص على الأخلاق والآداب فـي كل حركاته وسكناته وفي كل كلمة تخرج مـن فمـه مثـال النزاهة والكمال في كل شيء، ولم يكن بالطبع يحتـاج إلـى إشراف أحد عليه.



الغش في الامتحانات

كنت أكره الغش في الامتحانات، فلم أحاوله، ولم أساعد طالبة أخرى عليه مهما كانت الظروف، وكانت الامتحانات في المدرسة السنية تعمل في صالة متسعة جدا يجلس فيها طالبات قسم المعلمات وتلميذات القسم الابتدائي، فكانوا يرتبون تلميذة من قسم المعلمات، وعلى يمينها تلميذة من السنة الأولى الابتدائية، وعلى يسارها أخرى من السنة الثالثة الابتدائية، وأمامها إحدى تلميذات السنة الثانية الابتدائية مثلاً، وخلفها تلميذة من السنة الرابعة الابتدائية، وهكذا، فكانت طالبات قسم المعلمات يساعدن تلميذات القسم الابتدائي إذا هن طلبن المساعدة، أما أنا فلم أكن أساعد واحدة منهن إطلاقًا، فكانت التلميذة التي يقضي عليها سوء الحظ بأن تجلس على جانبي تخرج أول يوم ساخطة متذمرة تشكو حالها لكل من يصادفها، قائلة: أمري إلى ا في هذا الامتحان، فقد جلست إلى جانب أبلة نبوية.

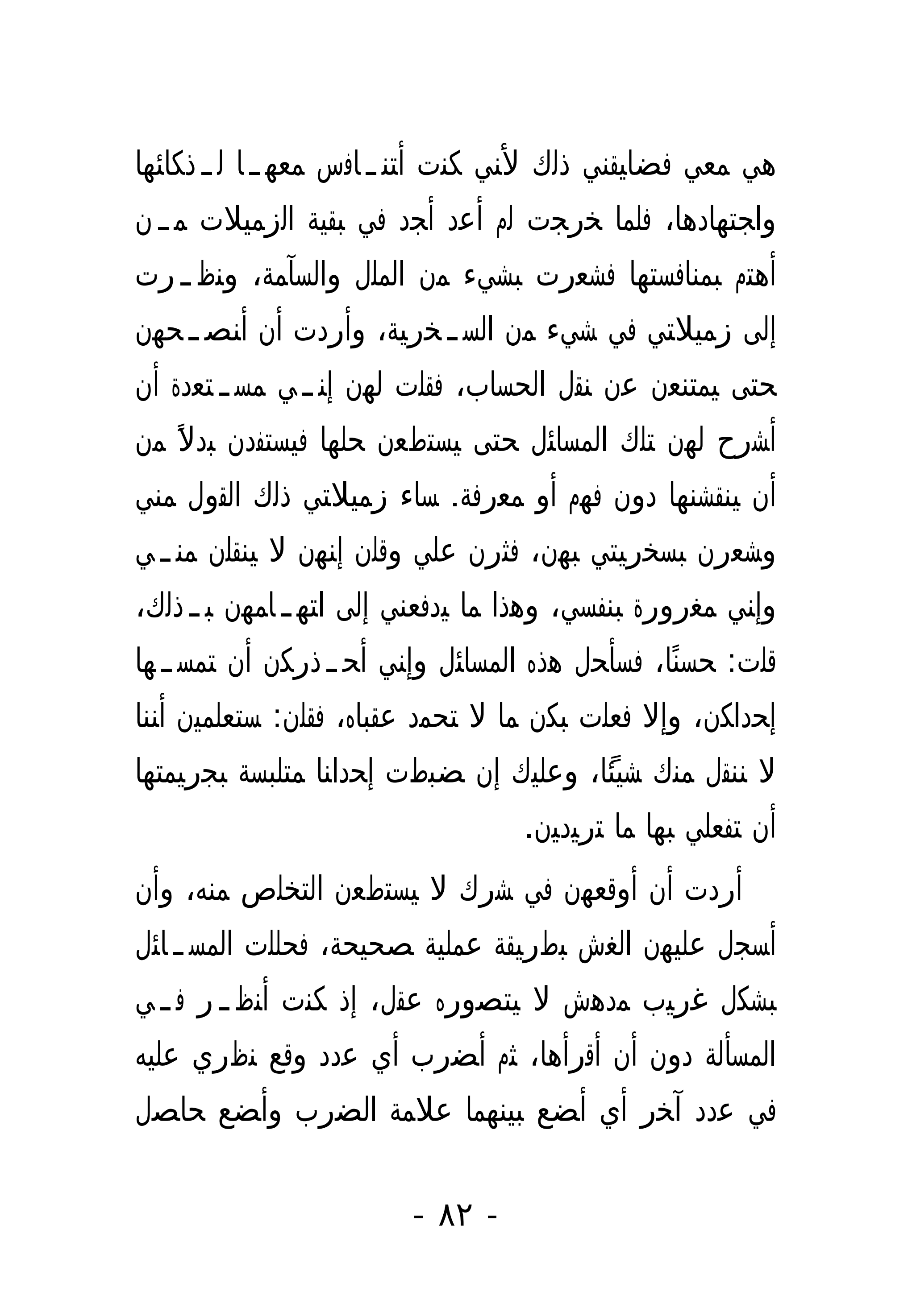
كنت كما قدمت أكره الغش، وكنا نتلقى الحساب على معلمة إنجليزية لم تكن تشرح لنا المسائل، بل كان يبدو لي

أنها هي نفسها لا تفهمها، فكانت تكتب المسألة على السبورة، ثم تطلب منا حلا، فإذا عجزت الطالبات عن ذلك قامت هـي بكتابة الحل على السـبورة دون شـرح أو مناقشـة فتنقلـه الطالبات حرفًا بحرف دون أن يفهمن منه شيئًا. ومن الغريب أنها لم تكن تختار إلا المسائل العقلية الصعبة جدا وعلى ذلك لم تستفد الطالبات منها شيئًا في ذلك العام.

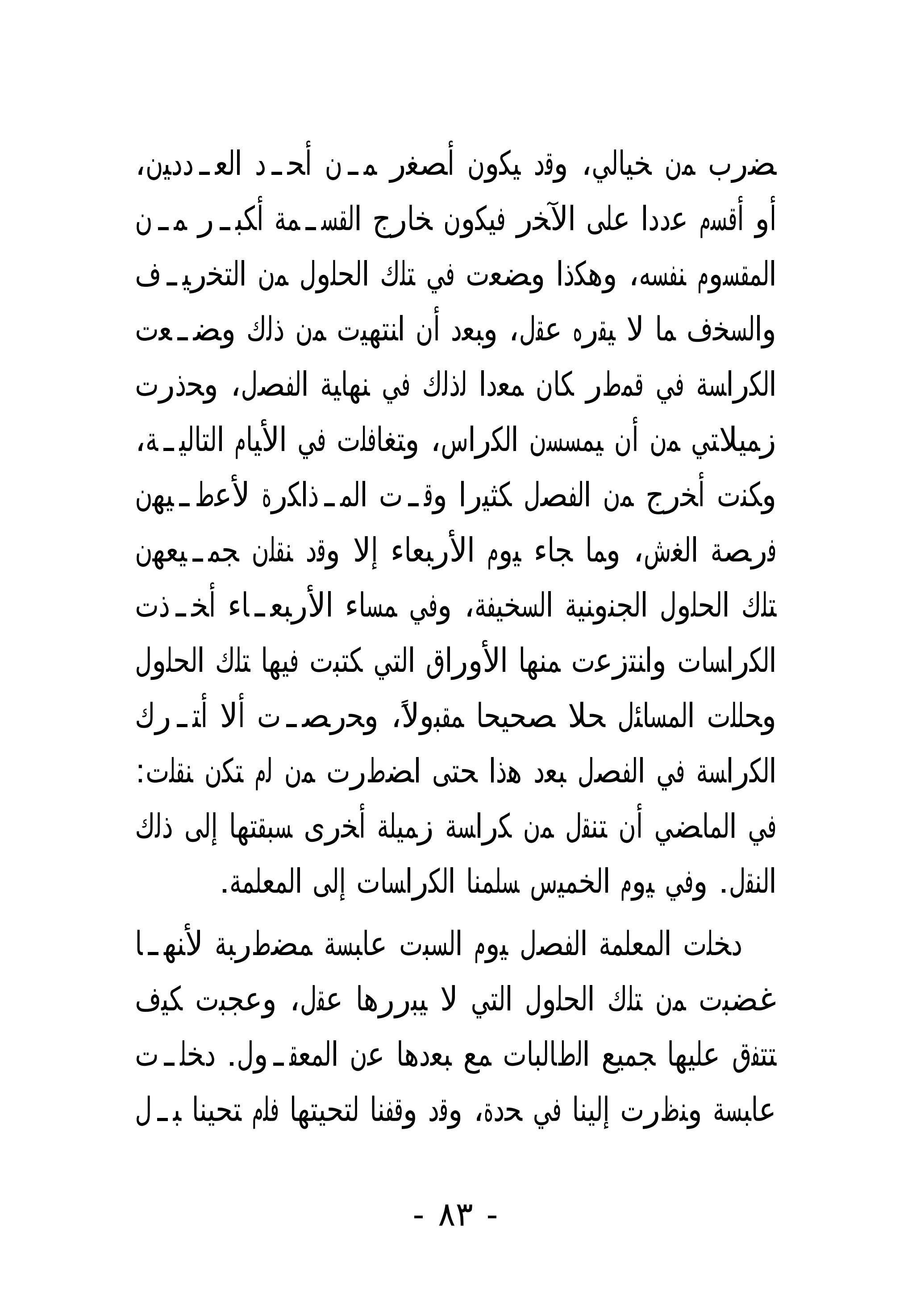
واعتادت المعلمة أن تعطينا يوم السبت من كل أسبوع ١٠ مسائل في كراسة خاصة تحوي حوالي ٩٦ صـحفة لنحلهـا كواجب منزلي، ثم تأخذ منا هذه الكراسـة يـوم الخمـيس وتردها إلينا مصححة يوم السبت وهكذا.

ولما كانت الطالبات لا يفهمن في تلك المادة شيئًا، وكنـت أنا ميالة إلى ذلك النوع من المسائل فقد كن ينتظـرن حتـى أنتهي أنا من حلها، ثم ينقلن ذلك الحل مني دون أن يعـرفن عنه شيئًا، وكنت في العادة أنتهي من حل تلك المسائل فـي مساء السبت نفسه لشدة ميلي إليها فكان لديهن مـن الوقـت ما يكفي لنقلها على مهل.

كانت زميلتي السيدة عائشة صبحي قد تركـت المدرسـة السنية في نهاية السنة الثانية ونقلنا إلى السنة الثالثة، ولم تكن


هي معي فضايقني ذلك لأني كنت أتنـافس معهـا لـ ذكائها واجتهادها، فلما خرجت لم أعد أجد في بقية الزميلات مـن أهتم بمنافستها فشعرت بشيء من الملل والسآمة، ونظـرت إلى زميلاتي في شيء من السـخرية، وأردت أن أنصـحهن حتى يمتنعن عن نقل الحساب، فقلت لهن إنـي مسـتعدة أن أشرح لهن تلك المسائل حتى يستطعن حلها فيستفدن بدلاً من أن ينقشنها دون فهم أو معرفة. ساء زميلاتي ذلك القول مني وشعرن بسخريتي بهن، فثرن علي وقلن إنهن لا ينقلن منـي وإني مغرورة بنفسي، وهذا ما يدفعني إلى اتهـامهن بـذلك، قلت: حسنًا، فسأحل هذه المسائل وإني أحـذركن أن تمسـها إحداكن، وإلا فعلت بكن ما لا تحمد عقباه، فقلن: ستعلمين أننا لا ننقل منك شيئًا، وعليك إن ضبطت إحدانا متلبسة بجريمتها أن تفعلي بها ما تريدين.

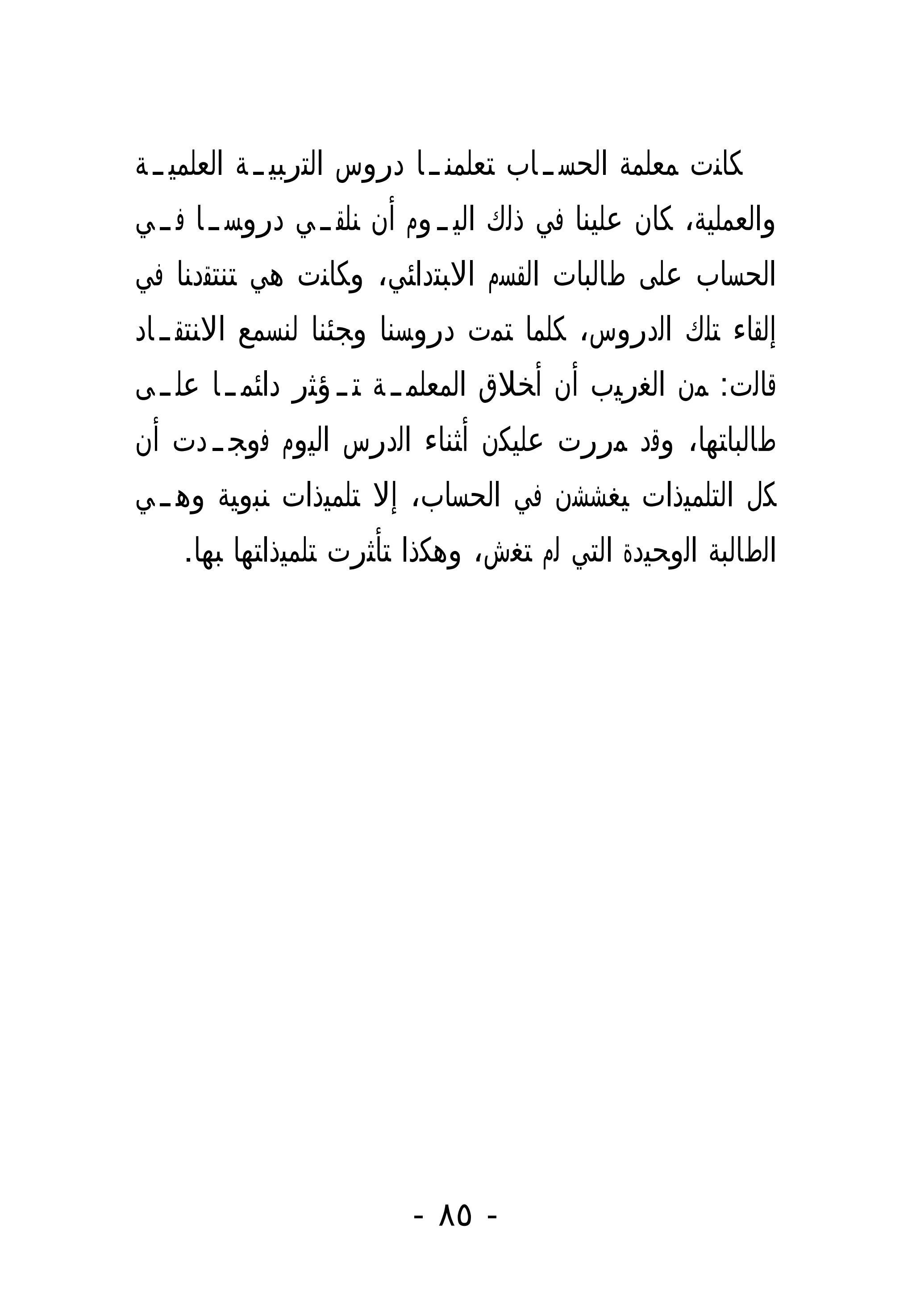
أردت أن أوقعهن في شرك لا يستطعن التخلص منه، وأن أسجل عليهن الغش بطريقة عملية صحيحة، فحللت المسـائل بشكل غريب مدهش لا يتصوره عقل، إذ كنت أنظـر فـي المسألة دون أن أقرأها، ثم أضرب أي عدد وقع نظري عليه في عدد آخر أي أضع بينهما علامة الضرب وأضع حاصل



ضرب من خيالي، وقد يكون أصغر مـن أحـد العـددين، أو أقسم عددا على الآخر فيكون خارج القسـمة أكبـر مـن المقسوم نفسه، وهكذا وضعت في تلك الحلول من التخريـف والسخف ما لا يقره عقل، وبعد أن انتهيت من ذلك وضـعت الكراسة في قمطر كان معدا لذلك في نهاية الفصل، وحذرت زميلاتي من أن يمسسن الكراس، وتغافلت في الأيام التاليـة، وكنت أخرج من الفصل كثيرا وقـت المـذاكرة لأعطـيهن فرصة الغش، وما جاء يوم الأربعاء إلا وقد نقلن جمـيعهن تلك الحلول الجنونية السخيفة، وفي مساء الأربعـاء أخـذت الكراسات وانتزعت منها الأوراق التي كتبت فيها تلك الحلول وحللت المسائل حلا صحيحا مقبولاً، وحرصـت ألا أتـرك الكراسة في الفصل بعد هذا حتى اضطرت من لم تكن نقلت: في الماضي أن تنقل من كراسة زميلة أخرى سبقتها إلى ذلك النقل. وفي يوم الخميس سلمنا الكراسات إلى المعلمة.

دخلت المعلمة الفصل يوم السبت عابسة مضطربة لأنهـا غضبت من تلك الحلول التي لا يبررها عقل، وعجبت كيف تتفق عليها جميع الطالبات مع بعدها عن المعقـول. دخلـت عابسة ونظرت إلينا في حدة، وقد وقفنا لتحيتها فلم تحينا بـل

أشارت إلي بالجلوس وأمرت باقي الزميلات بالاستمرار في الوقوف، وأخذت تسألهن عن معنى هذا السخف الذي اتفقـن عليه في كراساتهن، ودهشت الزميلات لجلوسـي وتعجـبن كيف لا تلومني مثلهن، وقد نقلن ذلك السخف الـذي تسـميه المعلمة من كراستي؟ فكان المنظر مضحكًا غريبا إذ تسألهن المعلمة فلا يجبنها، بل ينظرن إلي ويقلن لي باللغة العربيـة ما معنى هذا، وقد نقلنا ذلك الحل من كراستك أنـت؟ قالـت: كيف ذلك، وقد ادعيتن أنكن لا تـنقلن منـي؟ زاد غضـب المعلمة وعجبت كيف لا يجيبها أحد وكيف ينصـرفن عنهـا إلي؟ وكلما سألتهن كلمنني باللغة العربية. كانت هي في واد والطالبات في واد آخر فلم ينظرن إليها، ولم يعبأن بغضـبها بل كان كل اهتمامهن أن يطلبن مني شرح ذلك اللغز، وأخيرا سألتني المعلمة عن السبب في التفاتهن إلي وتكلمهن معـي، فشرحت لها القصة فعاقبت جميع الزميلات، ولعـل القـارئ يظن أن كلمة جميع هذه تدل حقيقة على جمـع، مـع أنهـا لا تفيد إلا ثلاث طالبات لأنه لم يكن بفصلنا إلا أربع طالبات فقط وأنا رابعتهن (ليس ذلك من سورة الكهف).



كانت معلمة الحسـاب تعلمنـا دروس التربيـة العلميـة والعملية، كان علينا في ذلك اليـوم أن نلقـي دروسـا فـي الحساب على طالبات القسم الابتدائي، وكانت هي تنتقدنا في إلقاء تلك الدروس، كلما تمت دروسنا وجئنا لنسمع الانتقـاد قالت: من الغريب أن أخلاق المعلمـة تـؤثر دائمـا علـى طالباتها، وقد مررت عليكن أثناء الدرس اليوم فوجـدت أن كل التلميذات يغششن في الحساب، إلا تلميذات نبوية وهـي الطالبة الوحيدة التي لم تغش، وهكذا تأثرت تلميذاتها بها.

دروس التربية العملية

كنا نتعلم التربية العلمية والعملية على معلمـة إنجليزيـة فكانت تشرف حتى على دروسنا باللغة العربية، وكنا نحضر تلك الدروس باللغة الإنجليزية نفسها، فكنا إذا أردنا أن نلقـي درسا عن (كان وأخواتها) مثلاً كتبنا Can & sisters هكذا كنا نترجم الاصطلاحات اللغوية ترجمة حرفية مضحكة، وكانت المعلمة في الغالب لا تقدر الدرس إلا بما تراه مـن نشـاط التلميذات وطاعتهن لأوامرنا. ولهذا كانت زميلاتي إذا أردن إلقاء درس في فصل من الفصول أطلعن تلميذات ذلك الفصل على الدرس المراد إلقاؤه واتفقن معهن على كيفية الإجابـة ورجونهن أن يتظاهرن في مبدأ الدرس بعدم الفهم حتـى إذا شرحته لهن المعلمة تظاهرن بفهمه.

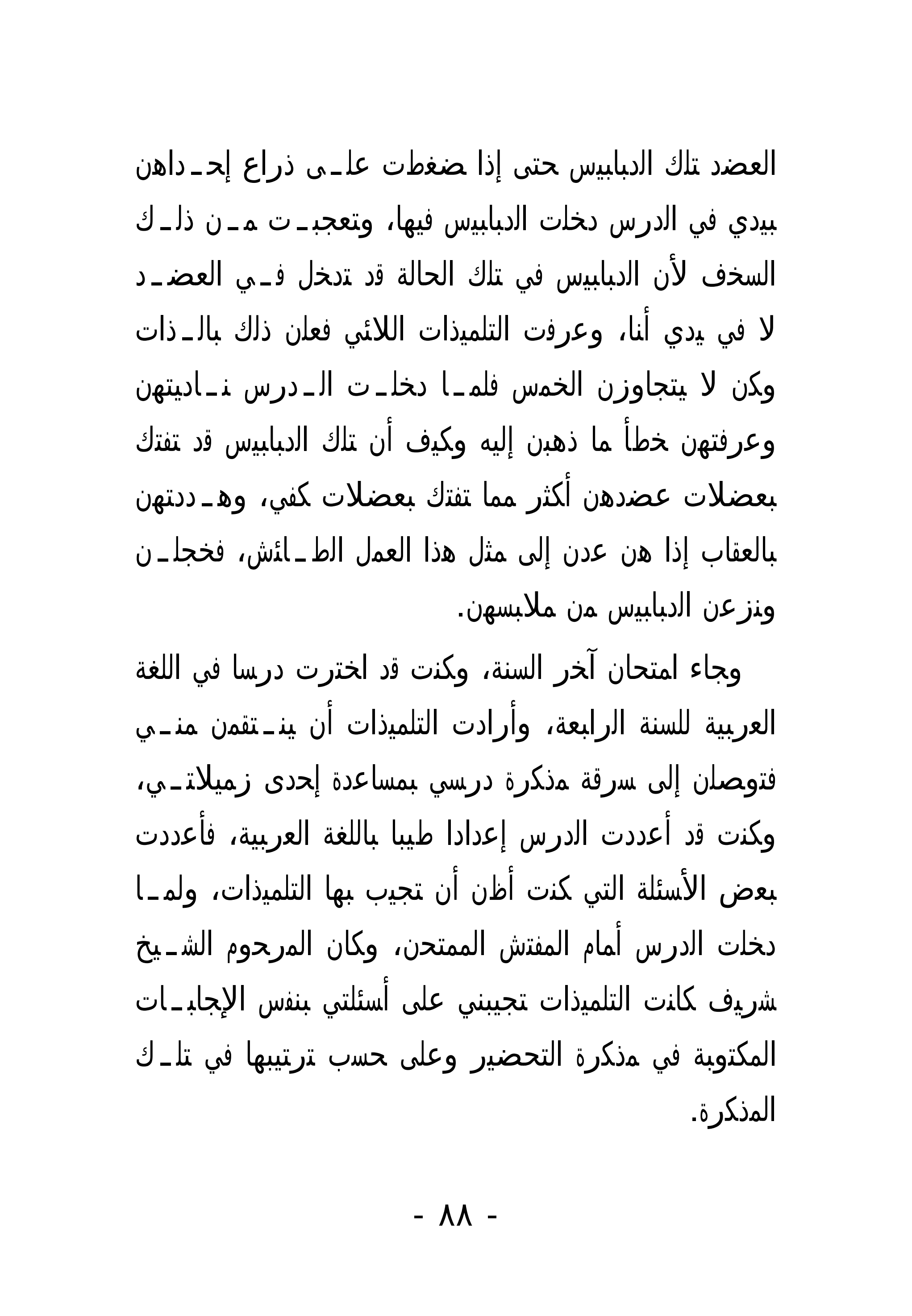
أما أنا فقد كنت أعد ذلك الاتفاق غشا وتدليسـا لا يجـوز لطالبة تتدرب على طرق التعليم، أي تعد نفسـها أن تكـون معلمة أن تأتيه، ولهذا لم أكن أطلع تلميذات المدرسة الابتدائية على أي درس أريد إلقاءه عليهن.

وقد أغضبت تلك الخطة تلميـذات المدرسـة الابتدائيـة خصوصا السنة الرابعة، وقد كان الفرق بيننا وبيـنهن فـي العمر لا يتجاوز السنتين أو الثلاث على الأكثر فكن يعتبـرن خروجي عن المألوف مع زميلاتي تكبرا عليهن، فيقـابلنني بكل عناد وعداء. ومع هذا فقد كنت أستطيع حفظ النظام في التدريس أكثر مما تستطيعه زميلاتي.

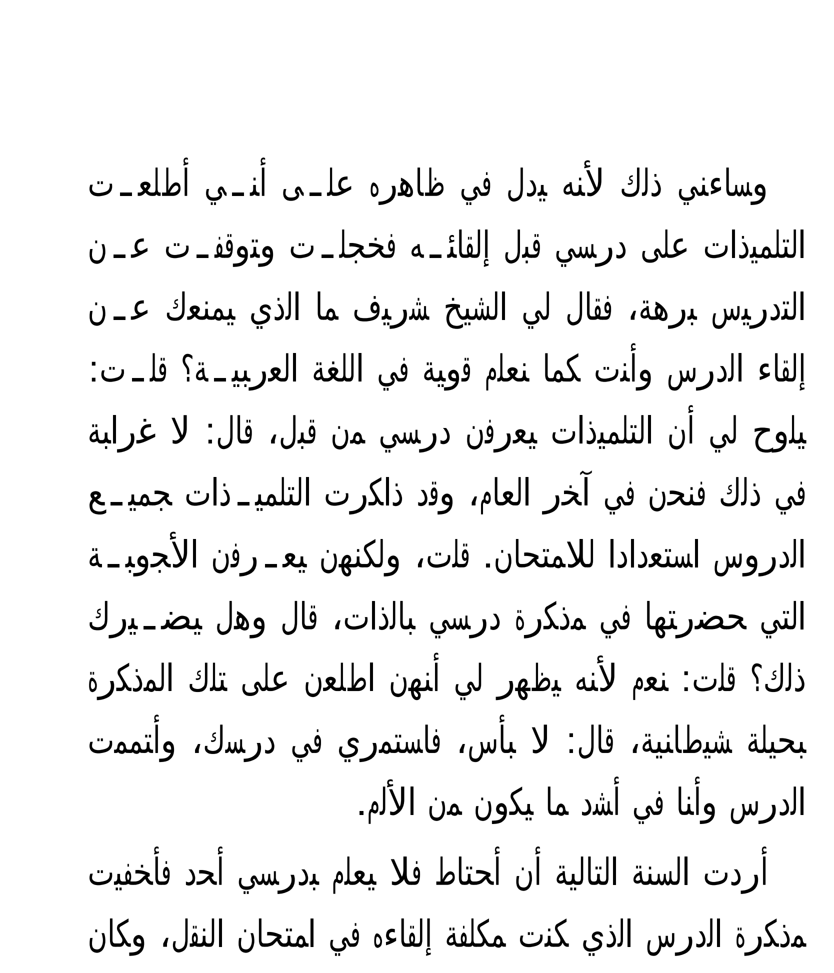
كان الضرب ممنوعا ولهذا كنت إذا تغيظت من تلميذة في فصلي أضغط على ذراعها ضغطًا يؤلمها، وبينما كنت واقفة في طابور الساعة العاشرة، وكان علي في ذلـك الوقـت أن ألقي درس حساب على السنة الثالثة الابتدائية.......

بينما كنت واقفة في ذلك الطابور وإذا بي أسمع ضجة في طابور السنة الثالثة الابتدائية، وأراهن يطلبن دبابيس صغيرة من زميلاتهن في الفصول الأخرى، فكانت الواحـدة مـنهن تقول لغيرها أعطني دبوسا صغيرا أرده إليك بعد درس أبلتي نبوية موسى.

ولفتني هذا إلى أن هناك مؤامرة بين تلميذات السنة الثالثة تدبر لدرسي، فوجهت عنايتي لأقف على مدى تلك المؤامرة، وأخيرا عرفت أن التلميذات يضعن في أكمام ملابسهن فـوق

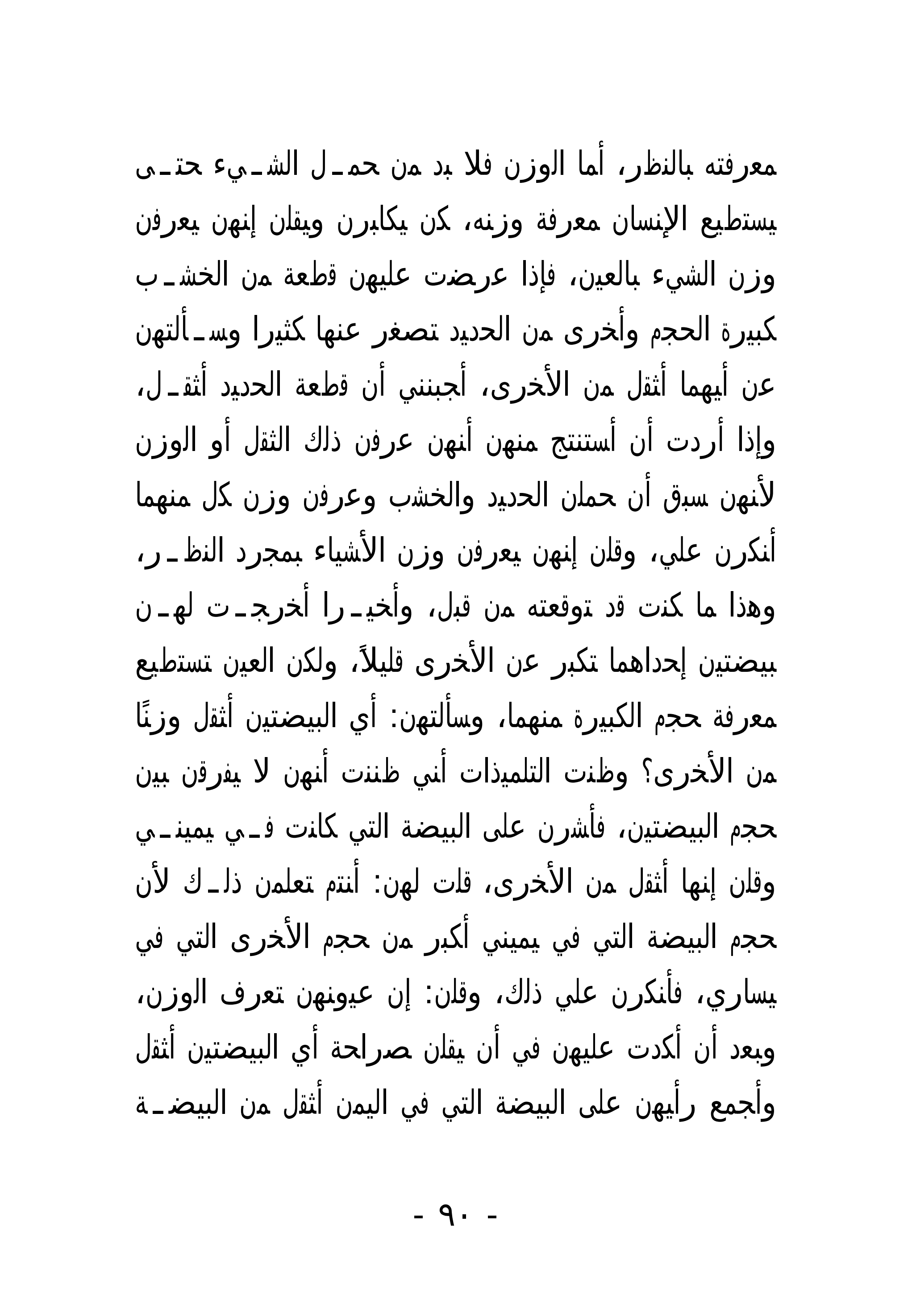

العضد تلك الدبابيس حتى إذا ضغطت علـى ذراع إحـداهن بيدي في الدرس دخلت الدبابيس فيها، وتعجبـت مـن ذلـك السخف لأن الدبابيس في تلك الحالة قد تدخل فـي العضـد لا في يدي أنا، وعرفت التلميذات اللائي فعلن ذلك بالـذات وكن لا يتجاوزن الخمس فلمـا دخلـت الـدرس نـاديتهن وعرفتهن خطأ ما ذهبن إليه وكيف أن تلك الدبابيس قد تفتك بعضلات عضدهن أكثر مما تفتك بعضلات كفي، وهـددتهن بالعقاب إذا هن عدن إلى مثل هذا العمل الطـائش، فخجلـن ونزعن الدبابيس من ملابسهن.

وجاء امتحان آخر السنة، وكنت قد اخترت درسا في اللغة العربية للسنة الرابعة، وأرادت التلميذات أن ينـتقمن منـي فتوصلن إلى سرقة مذكرة درسي بمساعدة إحدى زميلاتـي، وكنت قد أعددت الدرس إعدادا طيبا باللغة العربية، فأعددت بعض الأسئلة التي كنت أظن أن تجيب بها التلميذات، ولمـا دخلت الدرس أمام المفتش الممتحن، وكان المرحوم الشـيخ شريف كانت التلميذات تجيبني على أسئلتي بنفس الإجابـات المكتوبة في مذكرة التحضير وعلى حسب ترتيبها في تلـك المذكرة.

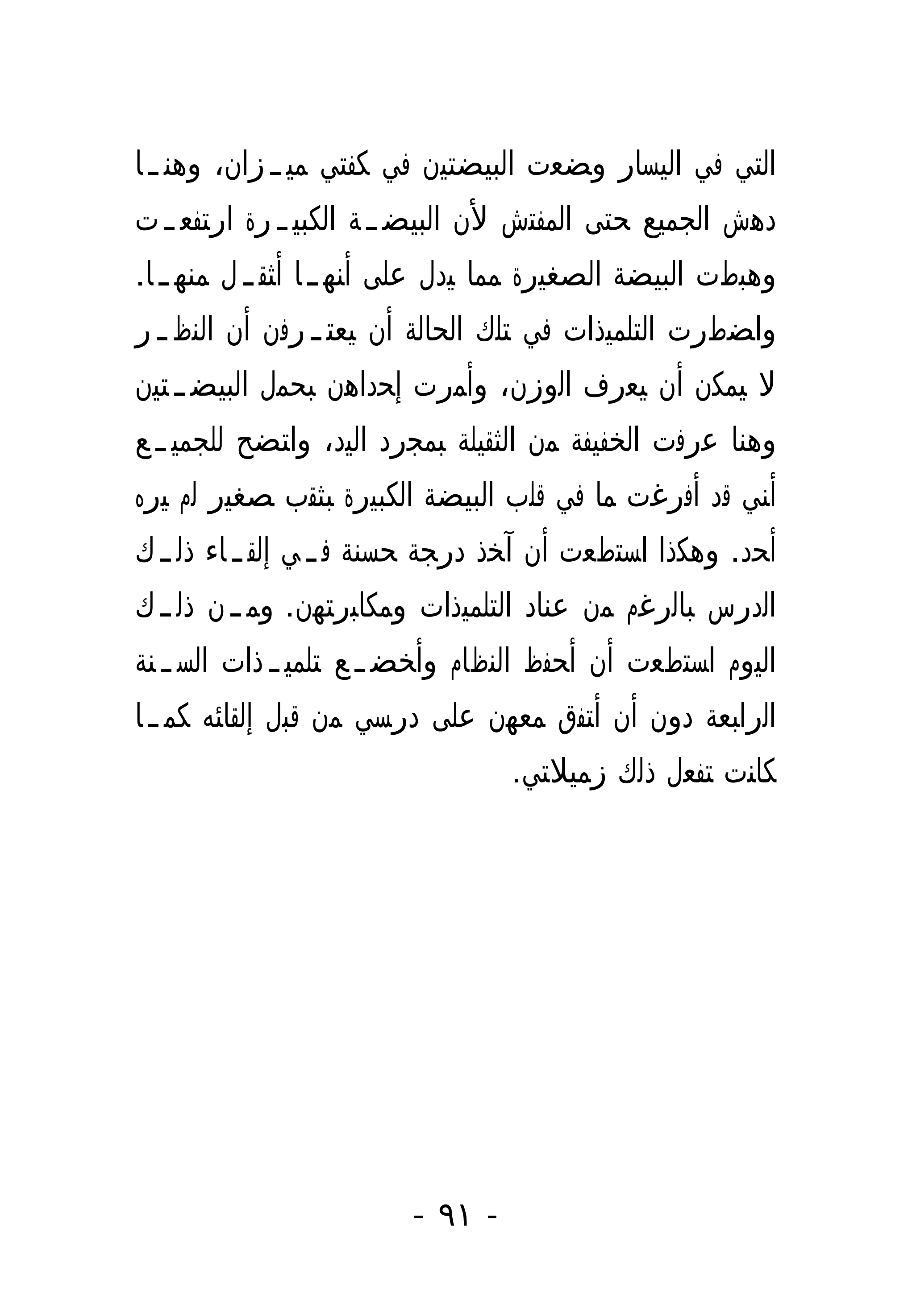


وساءني ذلك لأنه يدل في ظاهره على أني أطلعت التلميذات على درسي قبل إلقائه فخجلت وتوقفت عن التدريس برهة، فقال لي الشيخ شريف ما الذي يمنعك عن إلقاء الدرس وأنت كما نعلم قوية في اللغة العربية؟ قلت: يلوح لي أن التلميذات يعرفن درسي من قبل، قال: لا غرابة في ذلك فنحن في آخر العام، وقد ذاكرت التلميذات جميع الدروس استعدادا للامتحان. قلت، ولكنهن يعرفن الأجوبة التي حضرتها في مذكرة درسي بالذات، قال وهل يضيرك ذلك؟ قلت: نعم لأنه يظهر لي أنهن اطلعن على تلك المذكرة بحيلة شيطانية، قال: لا بأس، فاستمري في درسك، وأتممت الدرس وأنا في أشد ما يكون من الألم.

أردت السنة التالية أن أحتاط فلا يعلم بدرسي أحد فأخفيت مذكرة الدرس الذي كنت مكلفة إلقاءه في امتحان النقل، وكان درسا على الفرق بين الحجم والوزن في السنة الرابعة، وهو درس يحتاج إلى حسن إلقاء وحسن استنتاج، وقد علمت أن التلميذات سيتعنتن معي ويتظاهرن بعدم الفهم مهما شرحت أو يكابرن فيما أريد شرحه، وقد حصل ما توقعته، فكلما عرضت شيئًا على الفصل لأستنتج منه أن الحجم يمكن



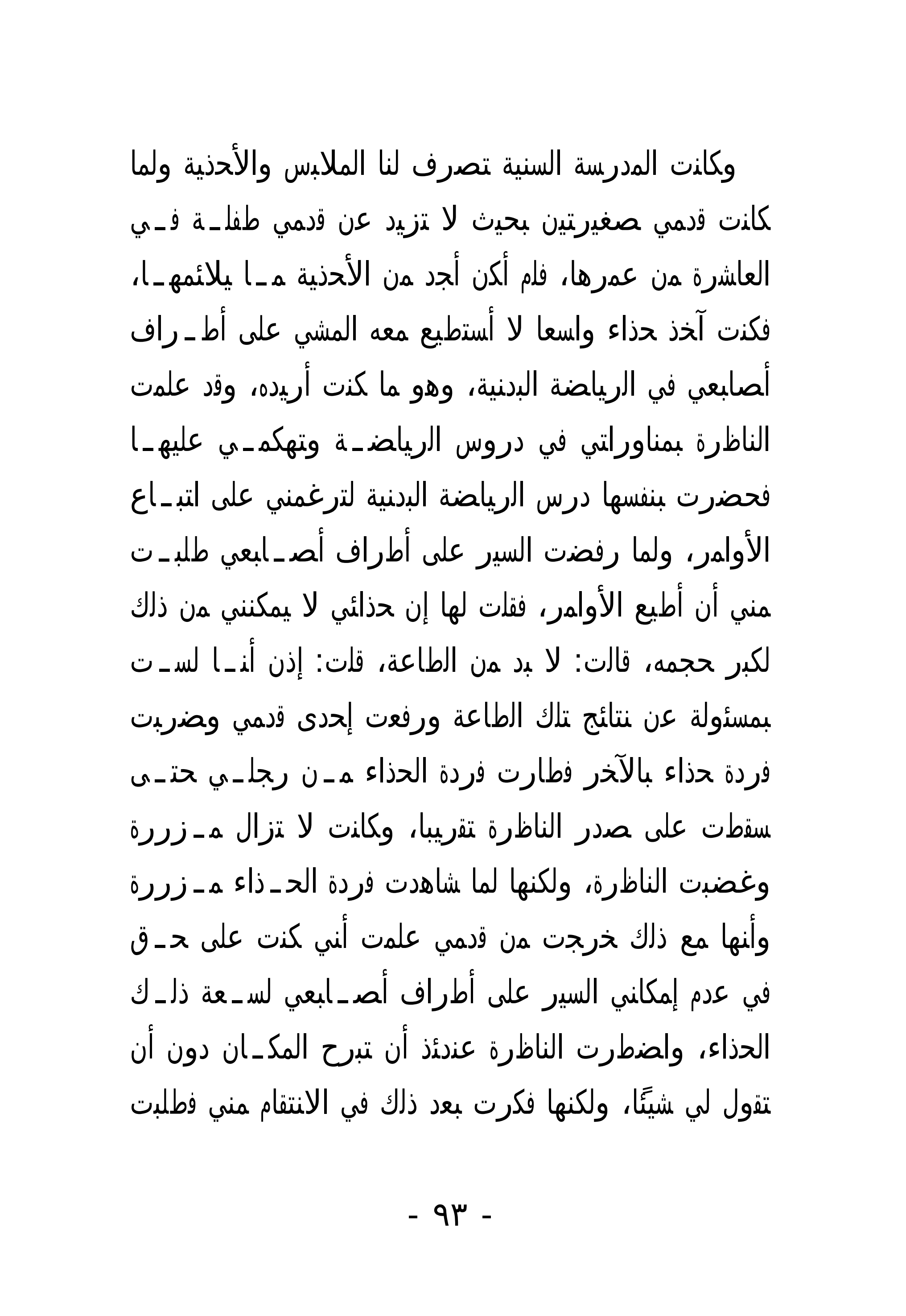
معرفته بالنظر، أما الوزن فلا بد من حمـل الشـيء حتـى يستطيع الإنسان معرفة وزنه، كن يكابرن ويقلن إنهن يعرفن وزن الشيء بالعين، فإذا عرضت عليهن قطعة من الخشـب كبيرة الحجم وأخرى من الحديد تصغر عنها كثيرا وسـألتهن عن أيهما أثقل من الأخرى، أجبنني أن قطعة الحديد أثقـل، وإذا أردت أن أستنتج منهن أنهن عرفن ذلك الثقل أو الوزن لأنهن سبق أن حملن الحديد والخشب وعرفن وزن كل منهما أنكرن علي، وقلن إنهن يعرفن وزن الأشياء بمجرد النظـر، وهذا ما كنت قد توقعته من قبل، وأخيـرا أخرجـت لهـن بيضتين إحداهما تكبر عن الأخرى قليلاً، ولكن العين تستطيع معرفة حجم الكبيرة منهما، وسألتهن: أي البيضتين أثقل وزنًا من الأخرى؟ وظنت التلميذات أني ظننت أنهن لا يفرقن بين حجم البيضتين، فأشرن على البيضة التي كانت فـي يمينـي وقلن إنها أثقل من الأخرى، قلت لهن: أنتم تعلمن ذلـك لأن حجم البيضة التي في يميني أكبر من حجم الأخرى التي في يساري، فأنكرن علي ذلك، وقلن: إن عيونهن تعرف الوزن، وبعد أن أكدت عليهن في أن يقلن صراحة أي البيضتين أثقل وأجمع رأيهن على البيضة التي في اليمن أثقل من البيضـة



التي في اليسار وضعت البيضتين في كفتي ميـزان، وهنـا
دهش الجميع حتى المفتش لأن البيضـة الكبيـرة ارتفعـت
وهبطت البيضة الصغيرة مما يدل على أنهـا أثقـل منهـا.
واضطرت التلميذات في تلك الحالة أن يعتـرفن أن النظـر
لا يمكن أن يعرف الوزن، وأمرت إحداهن بحمل البيضـتين
وهنا عرفت الخفيفة من الثقيلة بمجرد اليد، واتضح للجميـع
أني قد أفرغت ما في قلب البيضة الكبيرة بثقب صغير لم يره
أحد. وهكذا استطعت أن آخذ درجة حسنة فـي إلقـاء ذلـك
الدرس بالرغم من عناد التلميذات ومكابرتهن. ومـن ذلـك
اليوم استطعت أن أحفظ النظام وأخضـع تلميـذات السـنة
الرابعة دون أن أتفق معهن على درسي من قبل إلقائه كمـا
كانت تفعل ذلك زميلاتي.

حبي الشديد للحرية

كنت أحب الحرية والاستقلال في العمل إلى حد جعلني أكره أن أقوم بالرياضة البدنية لأني كنت مضطرة فيها أن أخضع لما يلقى علي من الأوامر دون فكر أو مناقشة، ولهذا كنت أسخر من تلك الأوامر ولا أنتظم في اللعب مع باقي زميلاتي، فكنت آتي من الأعمال والأقوال ما يضحك جميع الزميلات، فيضطرب النظام، وتضطر معلمة الرياضة البدنية إلى إخراجي من اللعب وهذا كل ما كنت أتطلبه. وبتلك الحيل استطعت أن أفلت من تلقي دروس الرياضة البدنية حتى إذا اضطرتني المعلمة يوما إلى اللعب أجبرتها على إخراجي بشتى الوسائل، فإذا قالت: الذراع اليمين رفع، رفعت يساري، وأنا أقول: ليس في المسألة تكليف، وما دام الغرض هو تحريك الأعضاء فلا فرق عندي بين اليمين واليسار، وإذا قالت: مسير على أطراف الأصابع، قلت: كلا لا بد من البرطشة، وهكذا من الأعمال والألفاظ التي كانت تضحك جميع الطالبات فتضطر المعلمة إلى إخراجي من بينهن.


وكانت المدرسة السنية تصرف لنا الملابس والأحذية ولما كانت قدمي صغيرتين بحيث لا تزيد عن قدمي طفلـة فـي العاشرة من عمرها، فلم أكن أجد من الأحذية مـا يلائمهـا، فكنت آخذ حذاء واسعا لا أستطيع معه المشي على أطـراف أصابعي في الرياضة البدنية، وهو ما كنت أريده، وقد علمت الناظرة بمناوراتي في دروس الرياضـة وتهكمـي عليهـا فحضرت بنفسها درس الرياضة البدنية لترغمني على اتبـاع الأوامر، ولما رفضت السير على أطراف أصـابعي طلبـت مني أن أطيع الأوامر، فقلت لها إن حذائي لا يمكنني من ذلك لكبر حجمه، قالت: لا بد من الطاعة، قلت: إذن أنـا لسـت بمسئولة عن نتائج تلك الطاعة ورفعت إحدى قدمي وضربت فردة حذاء بالآخر فطارت فردة الحذاء مـن رجلـي حتـى سقطت على صدر الناظرة تقريبا، وكانت لا تزال مـزررة وغضبت الناظرة، ولكنها لما شاهدت فردة الحـذاء مـزررة وأنها مع ذلك خرجت من قدمي علمت أني كنت على حـق في عدم إمكاني السير على أطراف أصـابعي لسـعة ذلـك الحذاء، واضطرت الناظرة عندئذ أن تبرح المكـان دون أن تقول لي شيئًا، ولكنها فكرت بعد ذلك في الانتقام مني فطلبت

أن أقوم أمامها بإعطاء درس الرياضة البدنية لزميلاتي، ولما كنت لا أحضر دروس الرياضة البدنية فقد كان من المستحيل أن أقوم بإعطاء ذلك الدرس، ولهذا وقفت متحيرة، وما كـاد يقع نظر زميلاتي علي وأنا أحتل محـل معلمـة الرياضـة البدنية حتى أرسلن ضحكاتهن العالية من كل جهـة، بينمـا وقفت أنا صامتة لا أبدي حراكًا، فطلبت مني الناظرة أن أبدأ الدرس وشددت في الطلب، وكانت كلما طلبت ذلـك علـت ضحكات زميلاتي، وأخيرا قلـت لهـن: إنهـن معاقبـات لضحكهن وهنا أمرتهن بالوقوف بدون حركة، وقد زاد ذلـك ضحكهن، ولكن الناظرة شددت علي مع ذلك أن ألقي عليهن الدرس، وأردت أن أسخر بها وبهن، فقلت بصـوت ثابـت رزين: اليدان والرجلان رفع. واحد، اثنين. وهنا لم تتمالـك الناظرة ومعلمة الرياضة البدنية مـن الضـحك. وتبعهمـا الطالبات فتركتني وتركتهن وذهبت وهي تكاد تمـوت مـن كثرة الضحك ومن ذلك اليوم تركتني وشأني.

وكانت ناظرة المدرسة تمنع الطالبات من شراء الفاكهـة، وكان يعز علي ذلك كثيرا، لأن غـذائي كـان أكثـره مـن الفاكهة، فكنت أجد صعوبة عظيمة في حرماني منهـا لهـذا

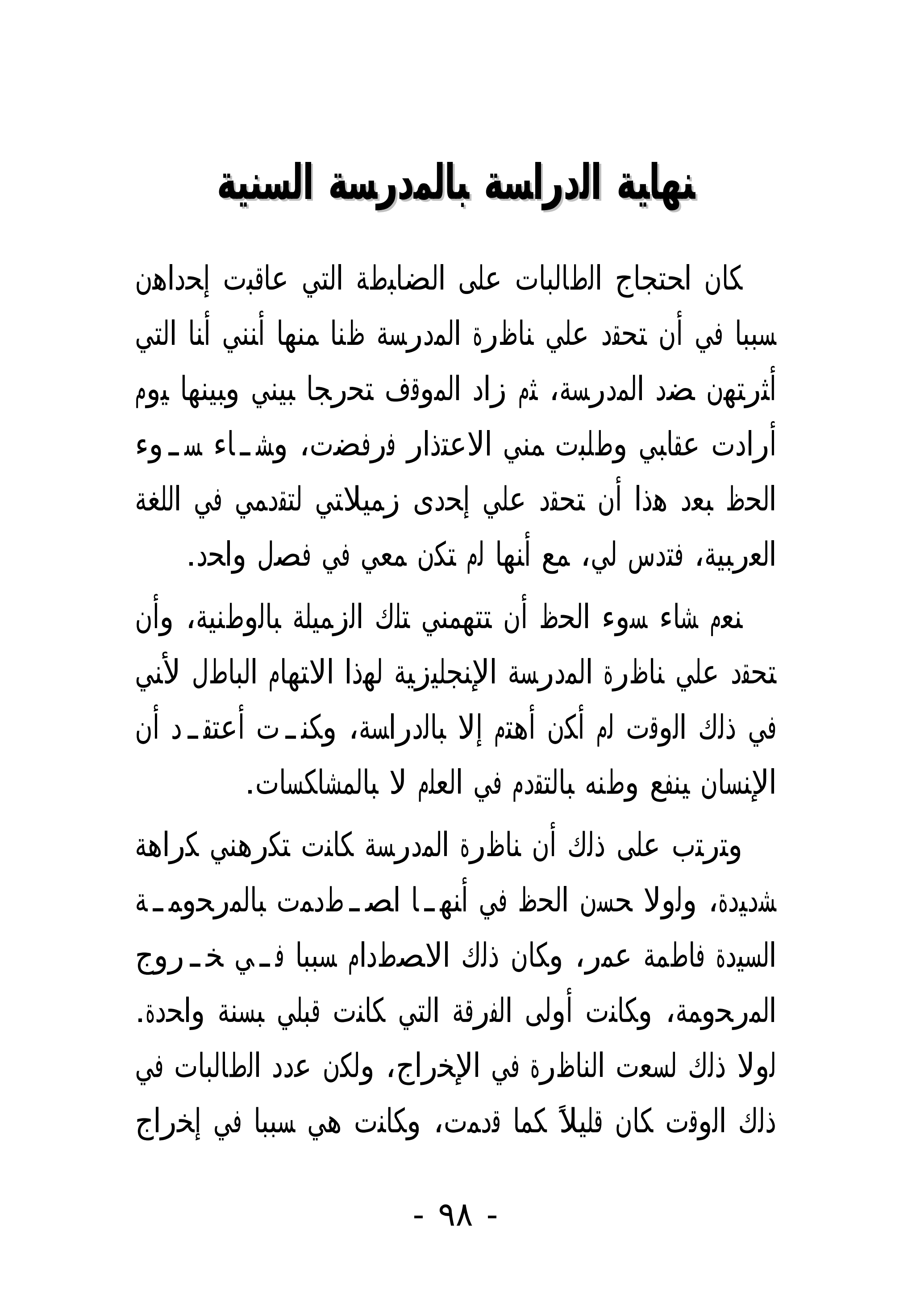
كنت أشتريها رغم الأوامر الصادرة لجميع الخدم بعد شـراء الفاكهة للطالبات، فكنت أرشو الخدم لأحملهم علـى مخالفـة أوامر الناظرة، وفي أحد الأيام بينما كنت أسير بعد السـاعة الرابعة، وقد وضعت في حجري عددا عظيما من البرتقـال أريد أن أضعه في دولابي بعد أن أخذته من الخادمـة التـي اشترته لي، وكان اسمها نبوية إذ فاجأتني الناظرة وصرخت في وجهي قائلة: ما هذا؟ أفزعني صوتها فسقط البرتقال من حجري وانتشر علـى الأرض، ووقفـت وسـطه مندهشـة ونظرت إلي الناظرة في غضب وأعادت قولها: ما هذا؟

عدت إلى صوابي واستجمعت قواي، وقلت: فـي ثبـات وحزم: إنه برتقال كما ترين. قالت: وكيف خالفـت أوامـر المدرسة واشتريت الفاكهة؟ فقلـت: لأنهـا أوامـر تخـالف المعقول، بل تخالف الواجب فإن المدرسة يجـب أن تحـافظ على صحة الطالبات، وقد سمعتك أمس تقولين إنك تأكلين كل يوم في الصباح برتقالة، وإنك تجدين في ذلك صحة، فهـل يجوز لك بعد هذا أن تحرمي الطالبات ممـا تتمتعـين بـه وتحافظين به على صحتك؟ قالت: هذا البرتقال كثير جـدا؟ قلت: لو أنك سمحت لنا بشراء الفاكهة دون عقاب لاكتفيـت

بشراء برتقالة أو برتقالتين في اليوم، أما وأنتِ تمنعين الخدم من شراء الفاكهة لنا، فإني مضـطرة أن أرشـوهم بـالنقود لشراء ذلك البرتقال، وليس من المعقول أن أكلفهـم مخالفـة أمرك كل يوم، فأنا أطلب منهم شراء ما يكفينـي شـهرا أو ما يقارب الشهر.

فكرت الناظرة قليلاً، ثم قالت: ومن الذي اشترى لك هـذا البرتقال؟ قلت: إني لا أسمح لنفسي بذكر اسمه، قالت: ولكني آمرك. قلت: كلا.. لك أن تعاقبينني إن شئت أما غيري فـلا سبيل لك عليه، ولست أبوح باسمه مهما كانـت الظـروف، ورأت أنه لا فائدة من الأخذ والرد معي فتركتني، وأحضرت ضابطة المدرسة، وكانت سيدة نمساوية، وطلبـت منهـا أن تسأل الخدم وتبحث عمن اشترى ذلك البرتقال لتفصله مـن المدرسة، وما زالت الضابطة تسأل وتتجسس حتى عرفـت الفراشة المسكينة التي اشترت ذلـك البرتقـال، وأرادت أن تقدمها للناظرة وما كاد يصلني الخبر حتـى جـن جنـوني، وأشفقت أن تفصل تلك المسـكينة بسـببي فأسـرعت إلـى الضابطة، وكانت تخشاني وتحبني في آن واحد، فقلـت لهـا أرجوك ألا تخبري الناظرة باسم الفراشة المسكينة، وسأذهب

أنا إلى حضرة الناظرة وأطلب منها معافاتك من البحث عـن شارية البرتقال من الآن. قالت: حسنًا فسأقبل ذلك إن فعلت. وفي الحال دخلت على الناظرة وأنا متأثرة لا أستطيع حـبس دموعي فقلت لها في شيء من الحدة والتأثر: إنني لا أستطيع أن أمكث في المدرسـة ولا سـاعة واحـدة إلا إذا منعـت الضابطة عن البحث عن الخادمة أو الخادم الذي اشترى لـي البرتقال، لأن الضابطة تضايق الخدم جميعا وكلهم يـدعون علي لأنني أنا سبب تلك المضايقة، فإما أن تأمري بالكف عن ذلك البحث، وإما أن تسمحي لي الآن بترك المدرسة، ورأتني مصممة على ما أقول فسكتت قليلاً، ثم قالت: أتعدينني أنـك لا تكلفين الخدم مرة أخرى شراء الفاكهة؟ قلت: نعـم أفعـل ذلك. قالت: قد اتفقنا. قلت: ولكني لا أبرح تلك الغرفة حتـى تأمري الضابطة أمامي بعدم البحث عن الخادم الذي اشترى البرتقال فأحضرت الضابطة وأمرتها بما طلبـت وخرجـت معي من غرفة الناظرة وهي تضحك وتربت علـى كتفـي قائلة: لقد نفعت بجرأتك تلك المسكينة التـي كـادت تفصـل بسببك.

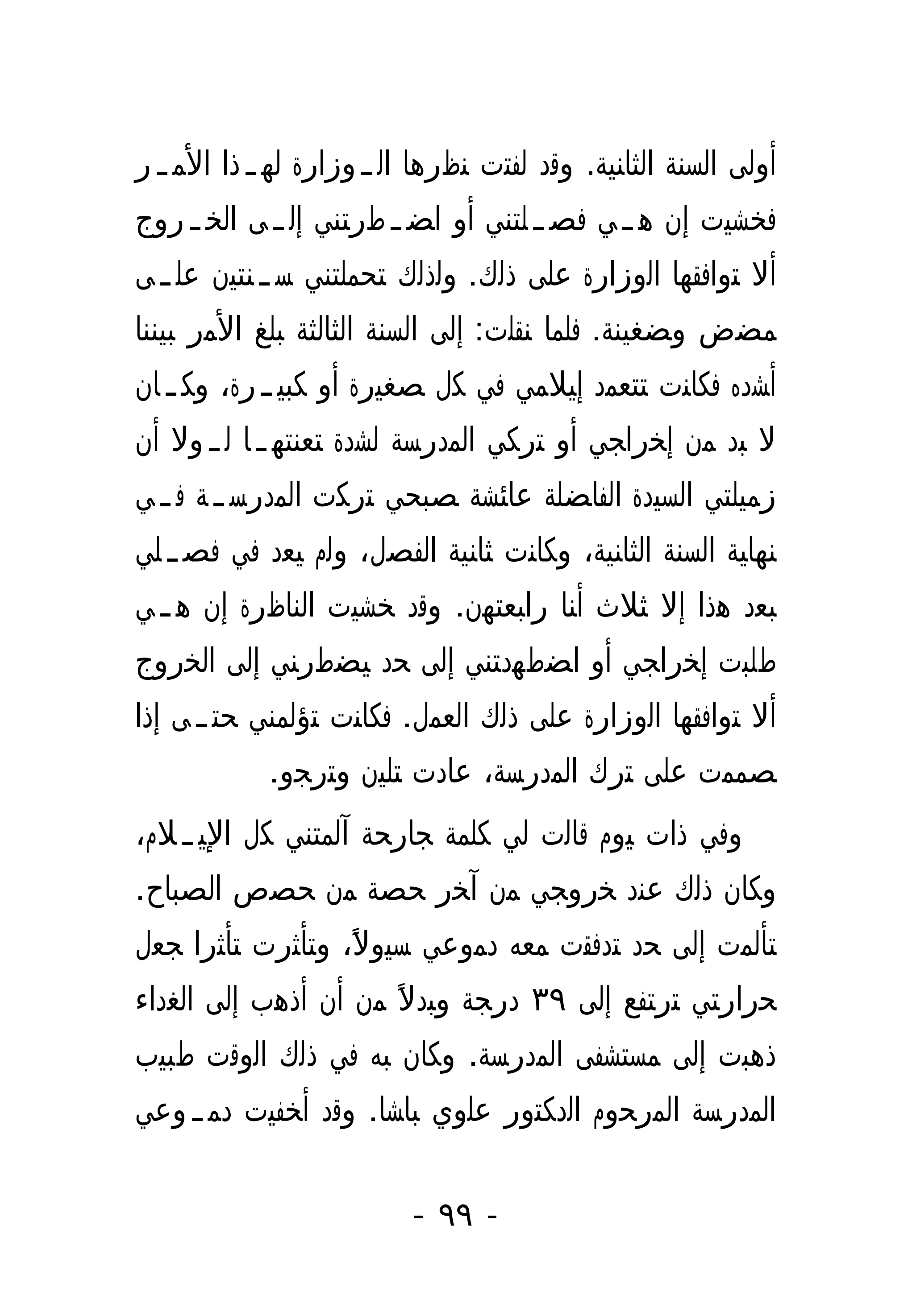


نهاية الدراسة بالمدرسة السنية

كان احتجاج الطالبات على الضابطة التي عاقبت إحداهن سببا في أن تحقد علي ناظرة المدرسة ظنا منها أنني أنا التي أثرتهن ضد المدرسة، ثم زاد الموقف تحرجا بيني وبينها يوم أرادت عقابي وطلبت مني الاعتذار فرفضت، وشـاء سـوء الحظ بعد هذا أن تحقد علي إحدى زميلاتي لتقدمي في اللغة العربية، فتدس لي، مع أنها لم تكن معي في فصل واحد.

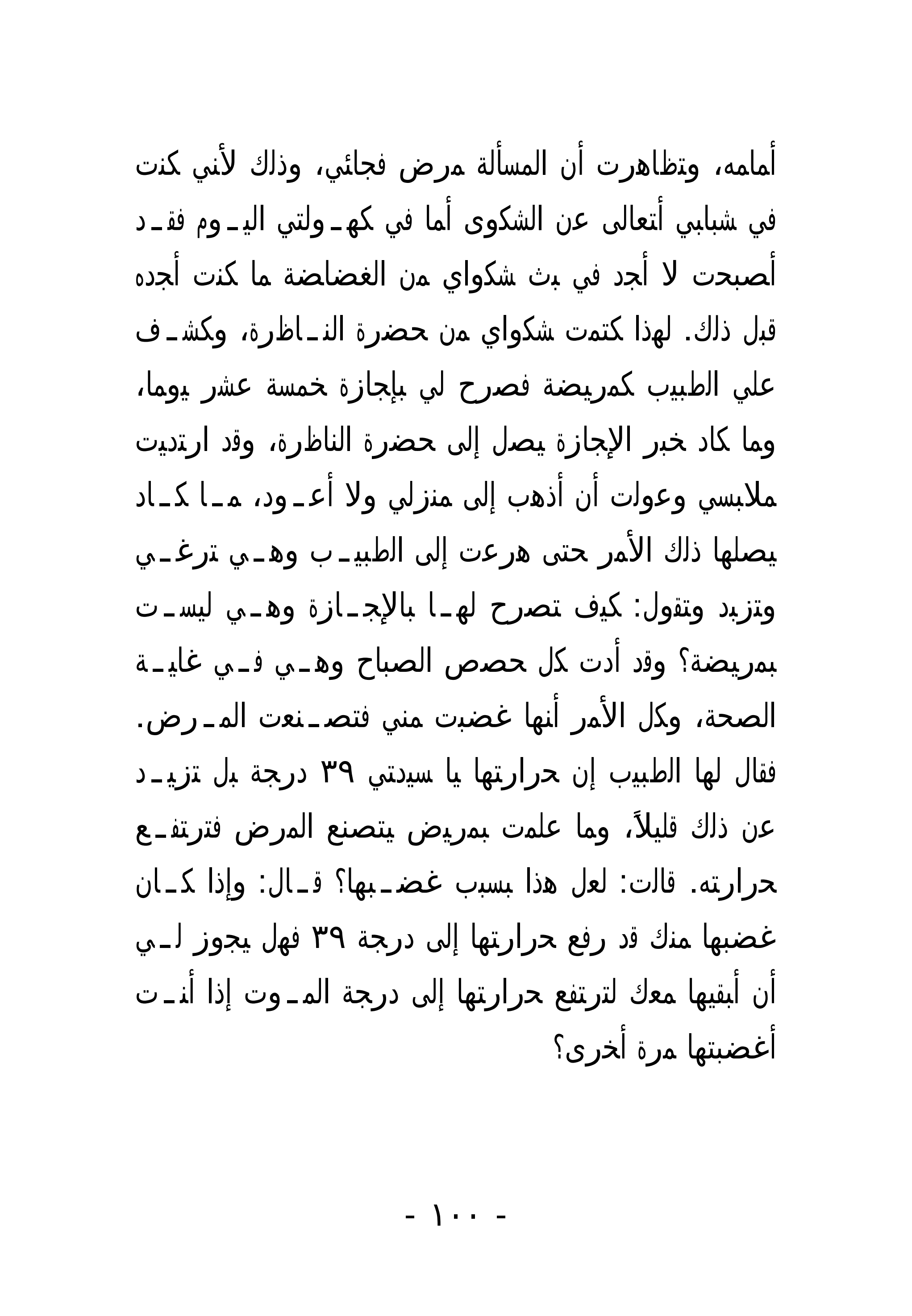
نعم شاء سوء الحظ أن تتهمني تلك الزميلة بالوطنية، وأن تحقد علي ناظرة المدرسة الإنجليزية لهذا الاتهام الباطل لأني في ذلك الوقت لم أكن أهتم إلا بالدراسة، وكنـت أعتقـد أن الإنسان ينفع وطنه بالتقدم في العلم لا بالمشاكسات.

وترتب على ذلك أن ناظرة المدرسة كانت تكرهني كراهة شديدة، ولولا حسن الحظ في أنهـا اصـطدمت بالمرحومـة السيدة فاطمة عمر، وكان ذلك الاصطدام سببا فـي خـروج المرحومة، وكانت أولى الفرقة التي كانت قبلي بسنة واحدة. لولا ذلك لسعت الناظرة في الإخراج، ولكن عدد الطالبات في ذلك الوقت كان قليلاً كما قدمت، وكانت هي سببا في إخراج

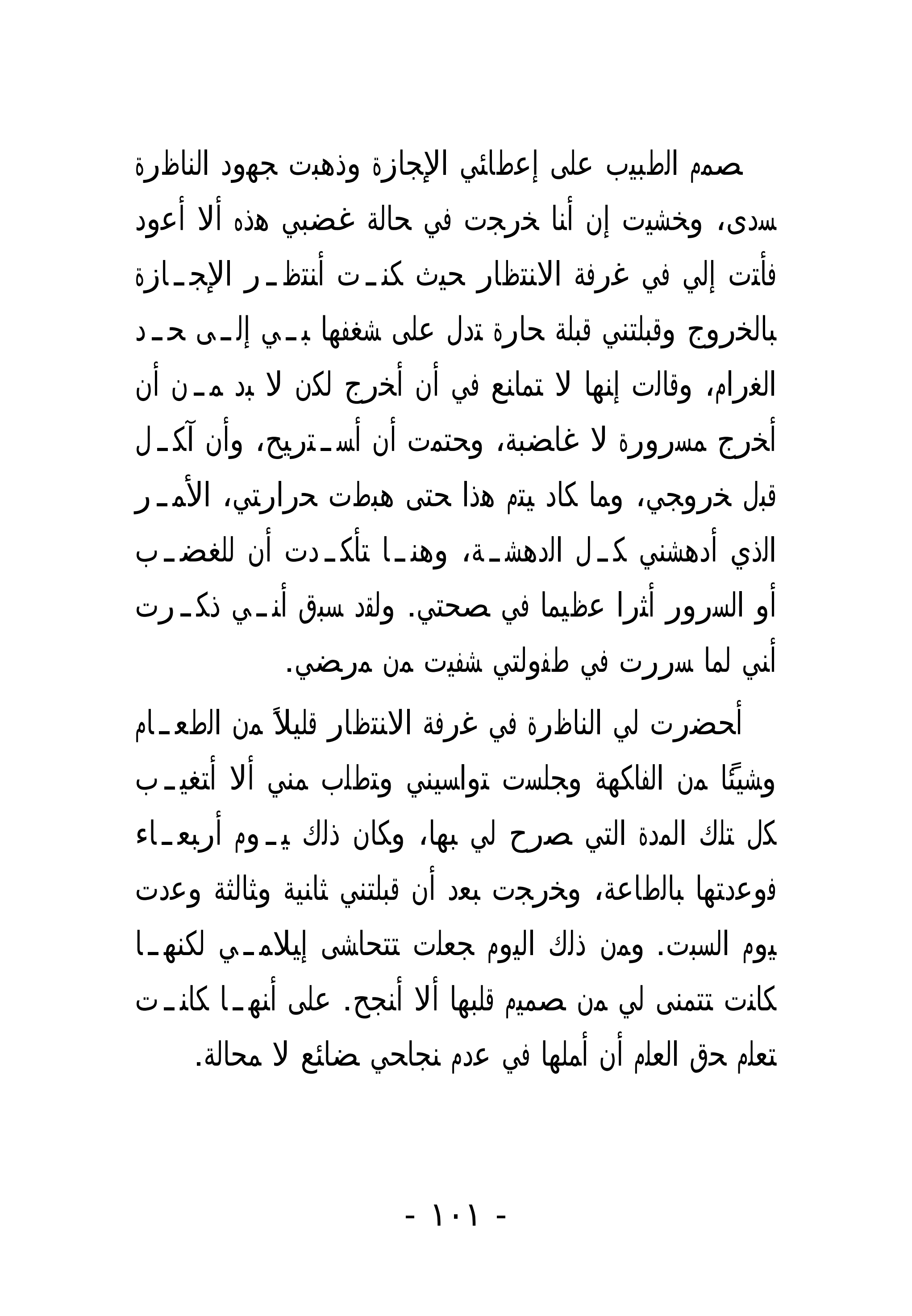


أولى السنة الثانية. وقد لفتت نظرها الـوزارة لهـذا الأمـر فخشيت إن هـي فصـلتني أو اضـطرتني إلـى الخـروج ألا توافقها الوزارة على ذلك. ولذلك تحملتني سـنتين علـى مضض وضغينة. فلما نقلت: إلى السنة الثالثة بلغ الأمر بيننا أشده فكانت تتعمد إيلامي في كل صغيرة أو كبيـرة، وكـان لا بد من إخراجي أو تركي المدرسة لشدة تعنتهـا لـولا أن زميلتي السيدة الفاضلة عائشة صبحي تركت المدرسـة فـي نهاية السنة الثانية، وكانت ثانية الفصل، ولم يعد في فصـلي بعد هذا إلا ثلاث أنا رابعتهن. وقد خشيت الناظرة إن هـي طلبت إخراجي أو اضطهدتني إلى حد يضطرني إلى الخروج ألا توافقها الوزارة على ذلك العمل. فكانت تؤلمني حتـى إذا صممت على ترك المدرسة، عادت تلين وترجو.

وفي ذات يوم قالت لي كلمة جارحة آلمتني كل الإيـلام، وكان ذلك عند خروجي من آخر حصة من حصص الصباح. تألمت إلى حد تدفقت معه دموعي سيولاً، وتأثرت تأثرا جعل حرارتي ترتفع إلى ٣٩ درجة وبدلاً من أن أذهب إلى الغداء ذهبت إلى مستشفى المدرسة. وكان به في ذلك الوقت طبيب المدرسة المرحوم الدكتور علوي باشا. وقد أخفيت دمـوعي

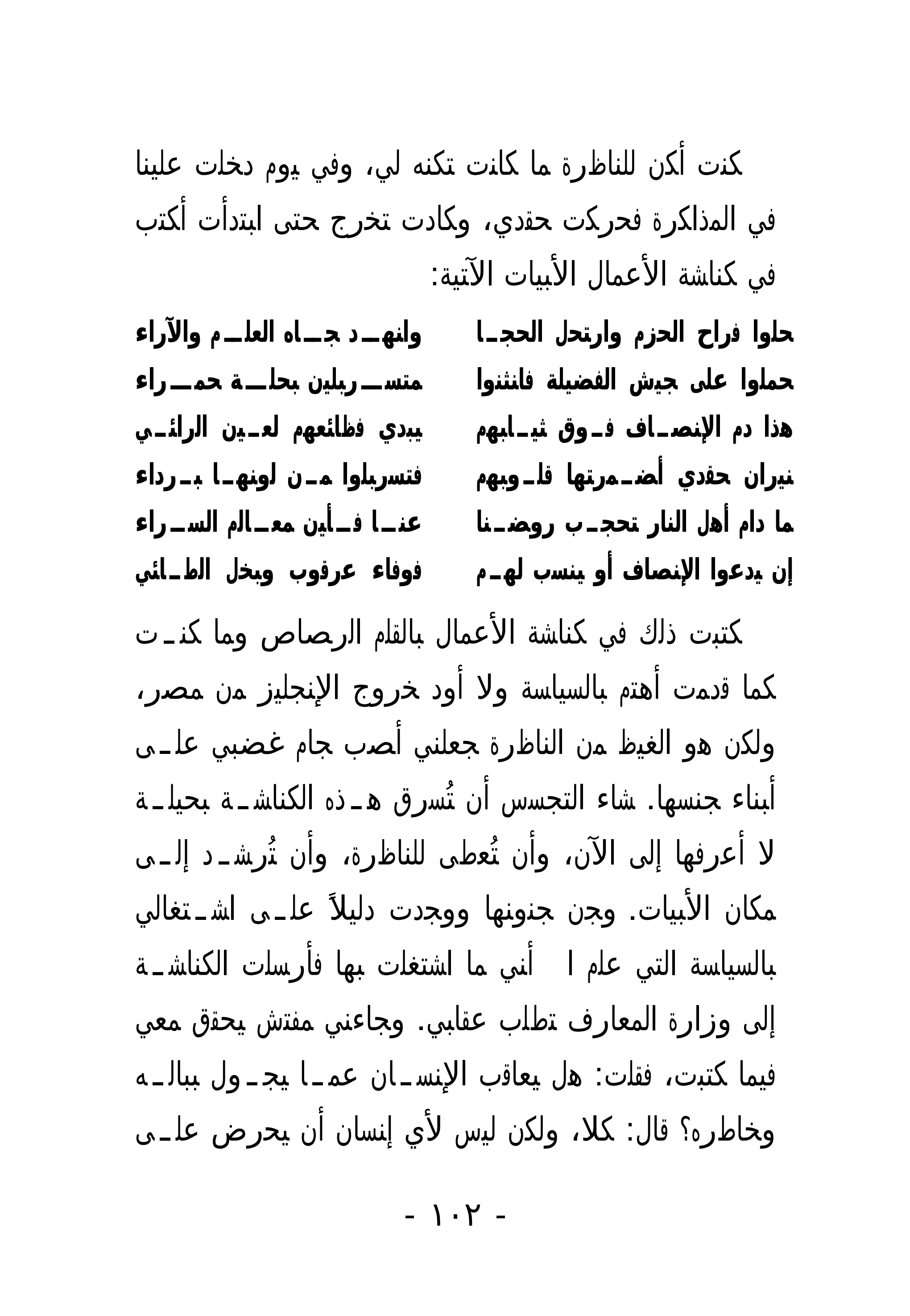


أمامه، وتظاهرت أن المسألة مرض فجائي، وذلك لأني كنت في شبابي أتعالى عن الشكوى أما في كهـولتي اليـوم فقـد أصبحت لا أجد في بث شكواي من الغضاضة ما كنت أجده قبل ذلك. لهذا كتمت شكواي من حضرة النـاظرة، وكشـف علي الطبيب كمريضة فصرح لي بإجازة خمسة عشر يوما، وما كاد خبر الإجازة يصل إلى حضرة الناظرة، وقد ارتديت ملابسي وعولت أن أذهب إلى منزلي ولا أعـود، مـا كـاد يصلها ذلك الأمر حتى هرعت إلى الطبيـب وهـي ترغـي وتزبد وتقول: كيف تصرح لهـا بالإجـازة وهـي ليسـت بمريضة؟ وقد أدت كل حصص الصباح وهـي فـي غايـة الصحة، وكل الأمر أنها غضبت مني فتصـنعت المـرض. فقال لها الطبيب إن حرارتها يا سيدتي ٣٩ درجة بل تزيـد عن ذلك قليلاً، وما علمت بمريض يتصنع المرض فترتفـع حرارته. قالت: لعل هذا بسبب غضـبها؟ قـال: وإذا كـان غضبها منك قد رفع حرارتها إلى درجة ٣٩ فهل يجوز لـي أن أبقيها معك لترتفع حرارتها إلى درجة المـوت إذا أنـت أغضبتها مرة أخرى؟



صمم الطبيب على إعطائي الإجازة وذهبت جهود الناظرة سدى، وخشيت إن أنا خرجت في حالة غضبي هذه ألا أعود فأتت إلي في غرفة الانتظار حيث كنت أنتظر الإجازة بالخروج وقبلتني قبلة حارة تدل على شغفها بي إلى حد الغرام، وقالت إنها لا تمانع في أن أخرج لكن لا بد من أن أخرج مسرورة لا غاضبة، وحتمت أن أستريح، وأن آكل قبل خروجي، وما كاد يتم هذا حتى هبطت حرارتي، الأمر الذي أدهشني كل الدهشة، وهنا تأكدت أن للغضب أو السرور أثرا عظيما في صحتي. ولقد سبق أني ذكرت أني لما سررت في طفولتي شفيت من مرضي.

أحضرت لي الناظرة في غرفة الانتظار قليلاً من الطعام وشيئًا من الفاكهة وجلست تواسيني وتطلب مني ألا أتغيب كل تلك المدة التي صرح لي بها، وكان ذلك يوم أربعاء فوعدتها بالطاعة، وخرجت بعد أن قبلتني ثانية وثالثة وعدت يوم السبت. ومن ذلك اليوم جعلت تتحاشى إيلامي لكنها كانت تتمنى لي من صميم قلبها ألا أنجح. على أنها كانت تعلم حق العلم أن أملها في عدم نجاحي ضائع لا محالة.


كنت أكن للناظرة ما كانت تكنه لي، وفي يوم دخلت علينا في المذاكرة فحركت حقدي، وكادت تخرج حتى ابتدأت أكتب في كناشة الأعمال الأبيات الآتية:

حلوا فراح الحزم وارتحل الحجـا وانهــد جــاه العلــم والآراء
حملوا على جيش الفضيلة فانثنوا متســربلين بحلــة حمــراء
هذا دم الإنصــاف فـوق ثيـابهم يبدي فظائعهم لعـين الرائـي
نيران حقدي أضـمرتها قلـوبهم فتسربلوا مـن لونهـا بـرداء
ما دام أهل النار تحجـب روضـنا عنــا فـأين معــالم الســراء
إن يدعوا الإنصاف أو ينسب لهـم فوفاء عرقوب وبخل الطـائي

كتبت ذلك في كناشة الأعمال بالقلم الرصاص وما كنـت كما قدمت أهتم بالسياسة ولا أود خروج الإنجليز من مصر، ولكن هو الغيظ من الناظرة جعلني أصب جام غضبي علـى أبناء جنسها. شاء التجسس أن تُسرق هـذه الكناشـة بحيلـة لا أعرفها إلى الآن، وأن تُعطى للناظرة، وأن تُرشـد إلـى مكان الأبيات. وجن جنونها ووجدت دليلاً علـى اشـتغالي بالسياسة التي علم ا أني ما اشتغلت بها فأرسلت الكناشـة إلى وزارة المعارف تطلب عقابي. وجاءني مفتش يحقق معي فيما كتبت، فقلت: هل يعاقب الإنسـان عمـا يجـول ببالـه وخاطره؟ قال: كلا، ولكن ليس لأي إنسان أن يحرض علـى

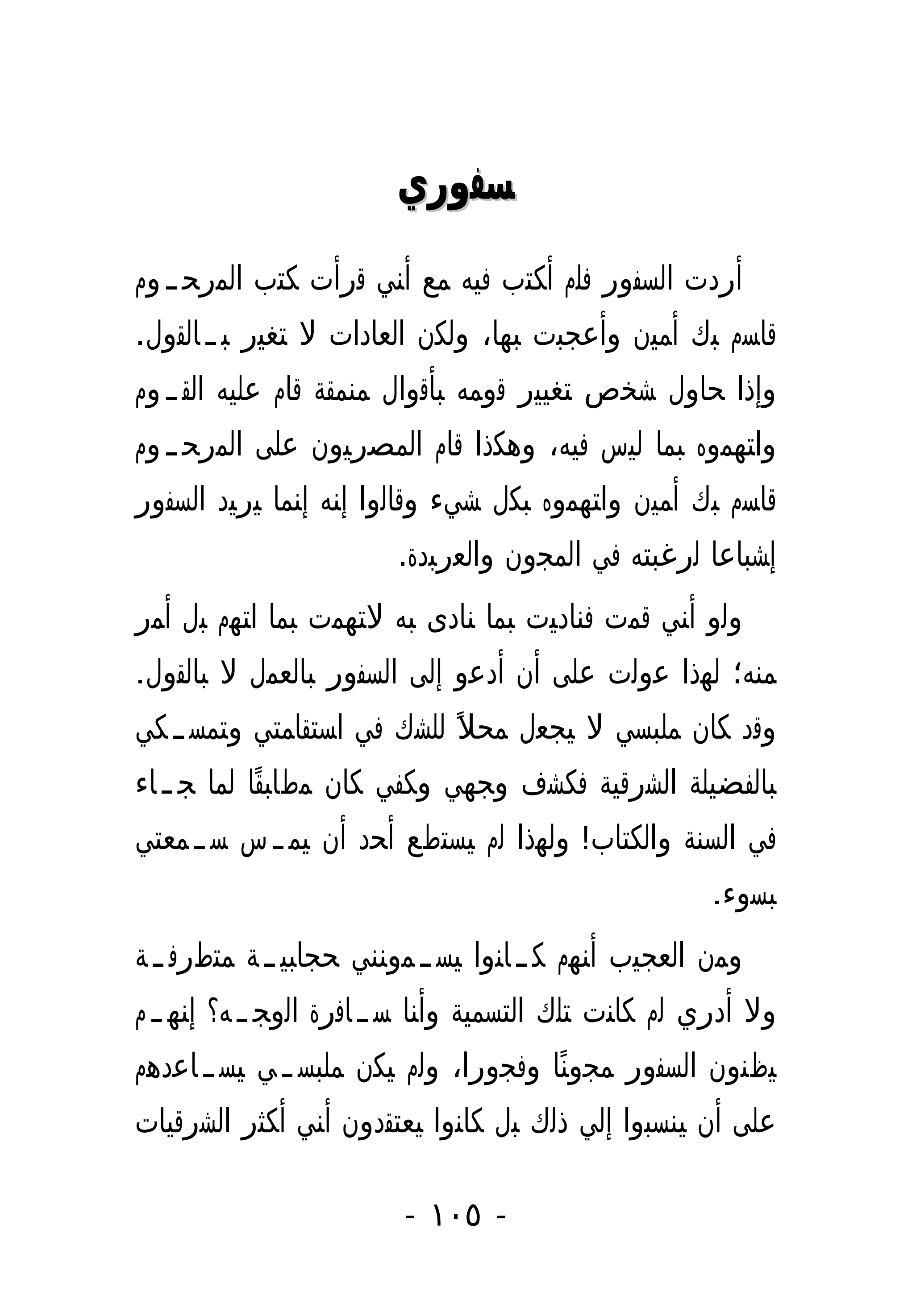
الثورة ضد الحكومة القائمة. قلت: وكيف حرضت عليها أنا؟ قال: بتلك الأبيات. قلت: إن تلك الأبيات كتبت فـي كراسـة لا يقرؤها غيري، ولست متغالية إنني أنا شخصيا لم أقرأهـا منذ كتبتها، فكيف تعد ذلك تحريضا وهو لم يطلع عليه أحد؟ إنني يا سيدي حرة في أن أكره أو أحب دون عقـاب، فـإذا حرضت بطرق علنية كان لكم أن تعملوا معي ما تشـاءون، أما ما يخالج ضميري وما يجول في خاطري فلا سبيل لكـم إليه، على أن تلك الناظرة يجب أن تعاقب هـي، إذ كانـت السبب في إظهار تلك الأبيات التي لولا عملها هي لما اطلـع عليها أحد. وأتم المفتش التحقيق وعرضه على المغفور لـه سعد باشا زغلول فأعجب برأيي أيما عجب، وقال:

حقيقة ليس لنا على قلوب الناس رقابة، وهي لم تكتـب، ولم تنشر، ولا تعد هذه الكراسة إلا خيالا يجول في خاطرها، وأمر بحفظ الأوراق، وتمت السنة النهائية بحالة يعلمهـا ا . على أنني لم أهن فيها برغم ما كانت تكنه لي النـاظرة مـن العداء المكين.

ولم يكن المستر دانلوب من رأي الناظرة بل كان يعطف علي ويقر وزير المعارف على رأيه فيما فعل.

تمت السنة ونجحت، وكنت الأولى بتفوق عظـيم طبعـا، وشاكر نفسه يقرئني السلام وأنا أتقبله بكل سرور.

وكان الواجب أن أعين في المدرسة السنية نفسها، ولكـن حضرة الناظرة قالت: إنها لا تسمح لمكان واحـد يضـمني ويضمها، اللهم إلا القبر، ولما كانت وزارة المعارف لا تدير القبور فقد عينتني بمدرسة عباس الأميرية.

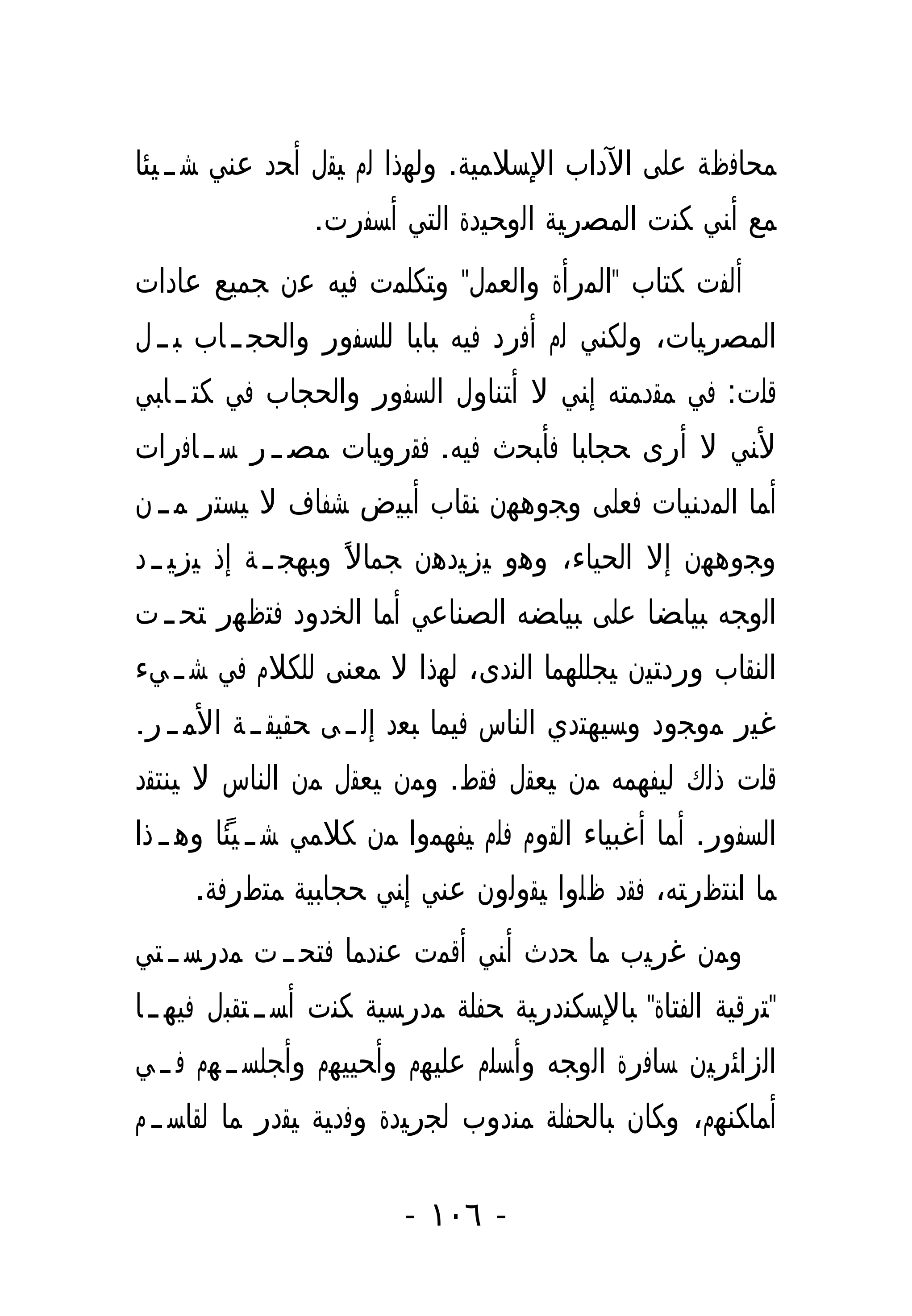


سفوري

أردت السفور فلم أكتب فيه مع أني قرأت كتب المرحوم قاسم بك أمين وأعجبت بها، ولكن العادات لا تغير بالقول. وإذا حاول شخص تغيير قومه بأقوال منمقة قام عليه القوم واتهموه بما ليس فيه، وهكذا قام المصريون على المرحوم قاسم بك أمين واتهموه بكل شيء وقالوا إنه إنما يريد السفور إشباعا لرغبته في المجون والعربدة.

ولو أني قمت فناديت بما نادى به لاتهمت بما اتهم بل أمر منه؛ لهذا عولت على أن أدعو إلى السفور بالعمل لا بالقول. وقد كان ملبسي لا يجعل محلاً للشك في استقامتي وتمسكي بالفضيلة الشرقية فكشف وجهي وكفي كان مطابقًا لما جاء في السنة والكتاب! ولهذا لم يستطع أحد أن يمس سمعتي بسوء.

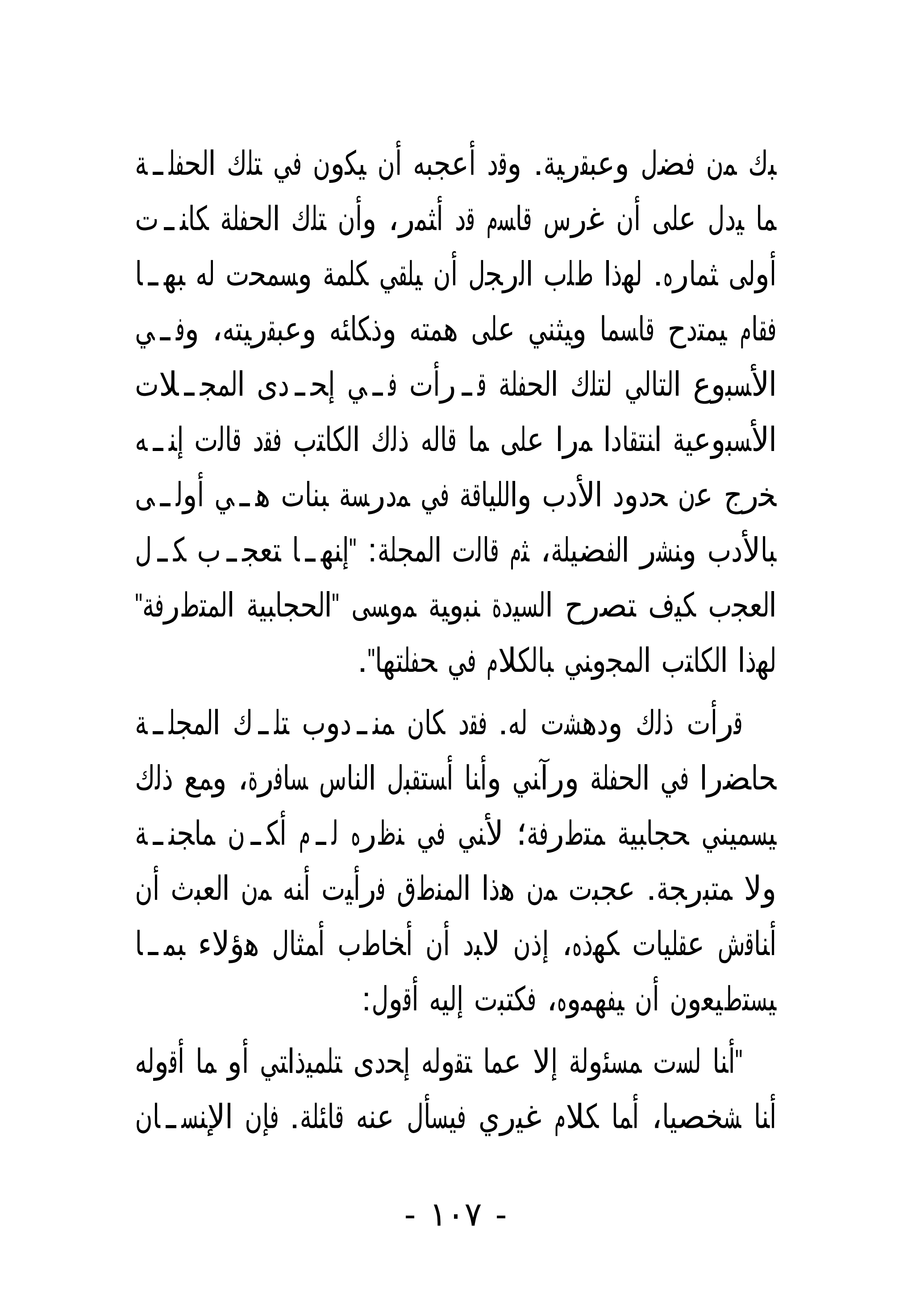
ومن العجيب أنهم كانوا يسمونني حجابية متطرفة ولا أدري لم كانت تلك التسمية وأنا سافرة الوجه؟ إنهم يظنون السفور مجونًا وفجورا، ولم يكن ملبسي يساعدهم على أن ينسبوا إلي ذلك بل كانوا يعتقدون أني أكثر الشرقيات



محافظة على الآداب الإسلامية. ولهذا لم يقل أحد عني شـيئا مع أني كنت المصرية الوحيدة التي أسفرت.

ألفت كتاب "المرأة والعمل" وتكلمت فيه عن جميع عادات المصريات، ولكني لم أفرد فيه بابا للسفور والحجـاب بـل قلت: في مقدمته إني لا أتناول السفور والحجاب في كتـابي لأني لا أرى حجابا فأبحث فيه. فقرويات مصـر سـافرات أما المدنيات فعلى وجوههن نقاب أبيض شفاف لا يستر مـن وجوههن إلا الحياء، وهو يزيدهن جمالاً وبهجـة إذ يزيـد الوجه بياضا على بياضه الصناعي أما الخدود فتظهر تحـت النقاب وردتين يجللهما الندى، لهذا لا معنى للكلام في شـيء غير موجود وسيهتدي الناس فيما بعد إلـى حقيقـة الأمـر. قلت ذلك ليفهمه من يعقل فقط. ومن يعقل من الناس لا ينتقد السفور. أما أغبياء القوم فلم يفهموا من كلامي شـيًئا وهـذا ما انتظرته، فقد ظلوا يقولون عني إني حجابية متطرفة.

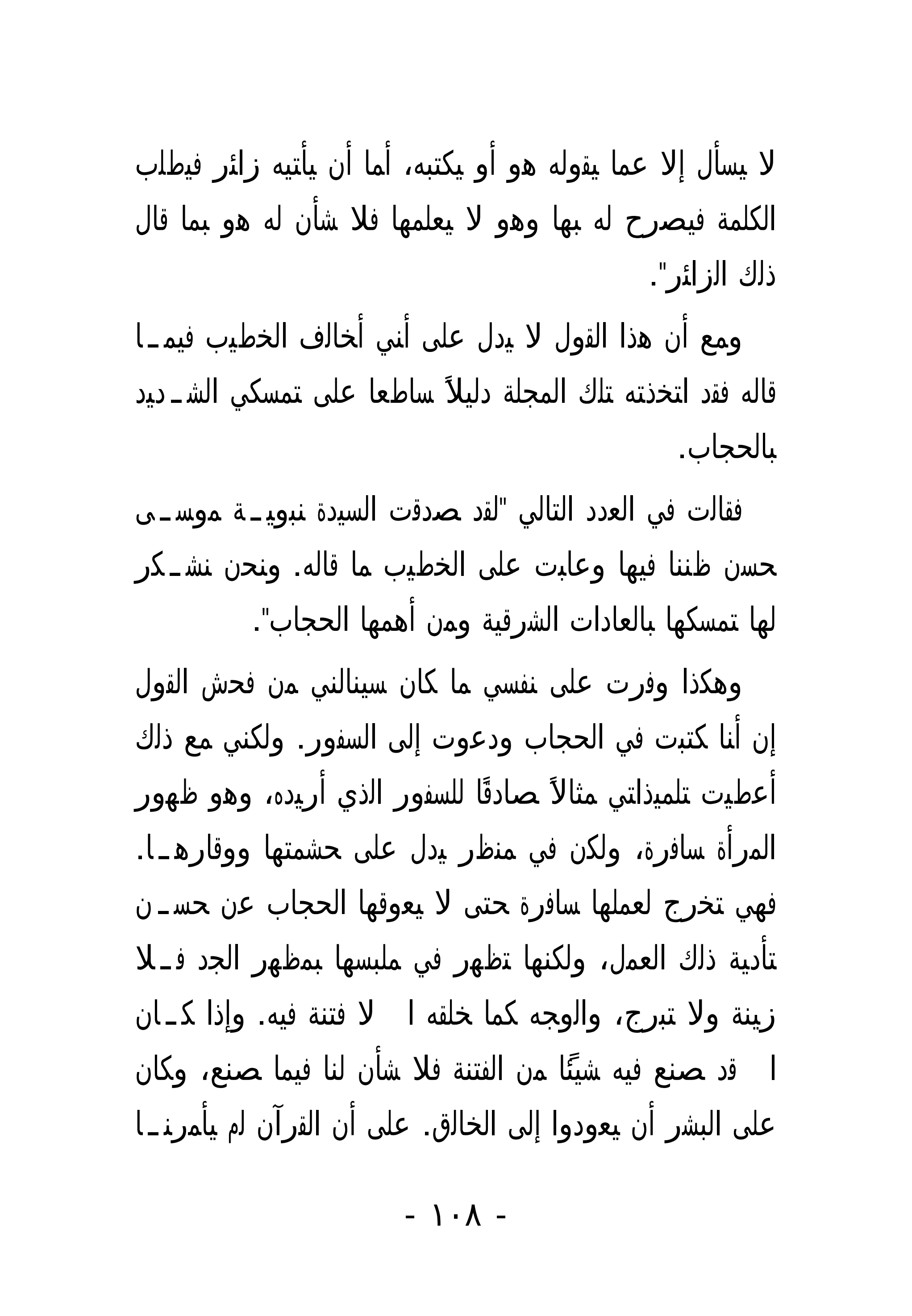
ومن غريب ما حدث أني أقمت عندما فتحـت مدرسـتي "ترقية الفتاة" بالإسكندرية حفلة مدرسية كنت أسـتقبل فيهـا الزائرين سافرة الوجه وأسلم عليهم وأحييهم وأجلسـهم فـي أماكنهم، وكان بالحفلة مندوب لجريدة وفدية يقدر ما لقاسـم



بك من فضل وعبقرية. وقد أعجبه أن يكون في تلك الحفلـة ما يدل على أن غرس قاسم قد أثمر، وأن تلك الحفلة كانـت أولى ثماره. لهذا طلب الرجل أن يلقي كلمة وسمحت له بهـا فقام يمتدح قاسما ويثني على همته وذكائه وعبقريته، وفـي الأسبوع التالي لتلك الحفلة قـرأت فـي إحـدى المجـلات الأسبوعية انتقادا مرا على ما قاله ذلك الكاتب فقد قالت إنـه خرج عن حدود الأدب واللياقة في مدرسة بنات هـي أولـى بالأدب ونشر الفضيلة، ثم قالت المجلة: "إنهـا تعجـب كـل العجب كيف تصرح السيدة نبوية موسى "الحجابية المتطرفة" لهذا الكاتب المجوني بالكلام في حفلتها".

قرأت ذلك ودهشت له. فقد كان منـدوب تلـك المجلـة حاضرا في الحفلة ورآني وأنا أستقبل الناس سافرة، ومع ذلك يسميني حجابية متطرفة؛ لأني في نظره لـم أكـن ماجنـة ولا متبرجة. عجبت من هذا المنطق فرأيت أنه من العبث أن أناقش عقليات كهذه، إذن لابد أن أخاطب أمثال هؤلاء بمـا يستطيعون أن يفهموه، فكتبت إليه أقول:

"أنا لست مسئولة إلا عما تقوله إحدى تلميذاتي أو ما أقوله أنا شخصيا، أما كلام غيري فيسأل عنه قائلة. فإن الإنسـان

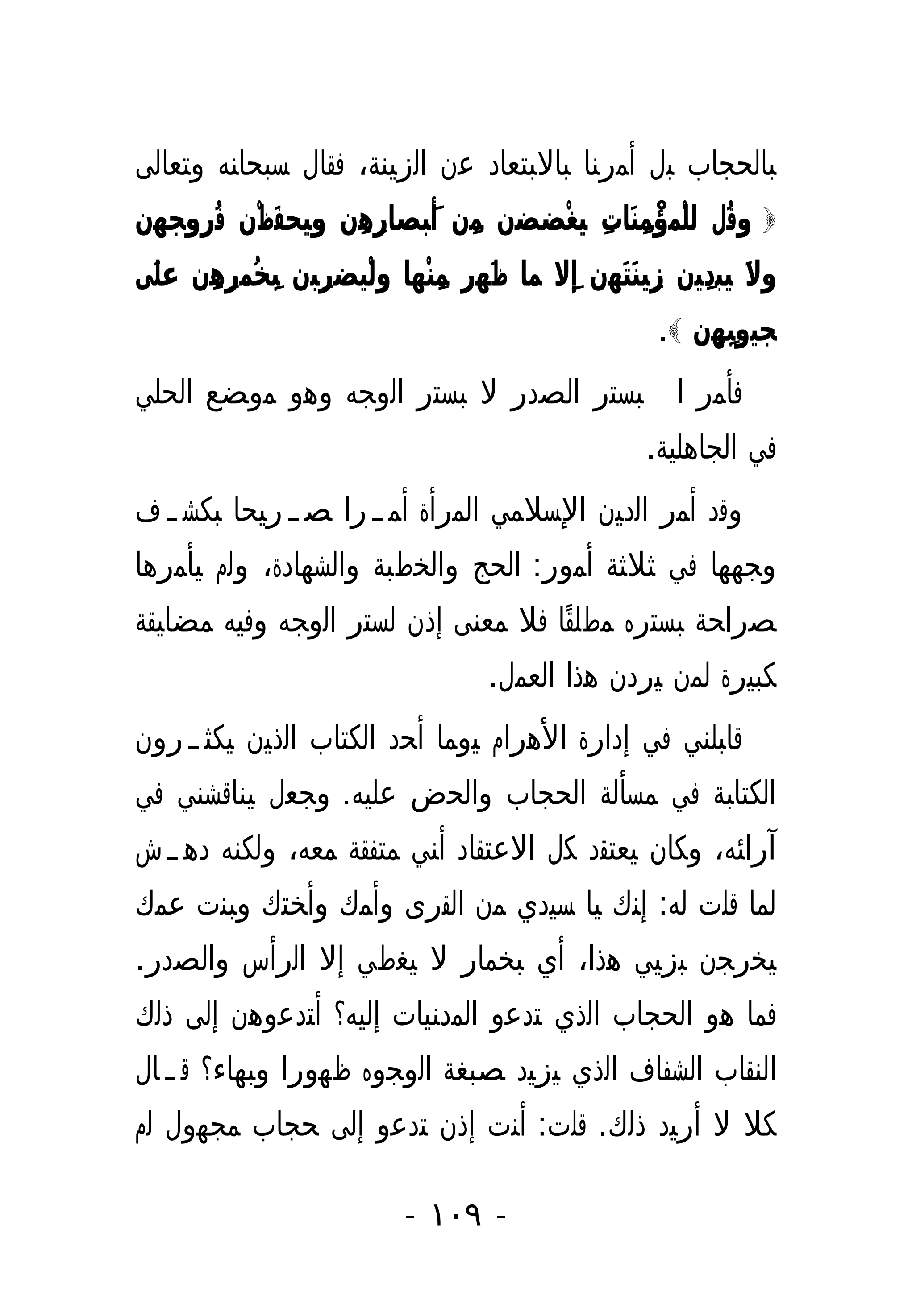


لا يسأل إلا عما يقوله هو أو يكتبه، أما أن يأتيه زائر فيطلب الكلمة فيصرح له بها وهو لا يعلمها فلا شأن له هو بما قال ذلك الزائر".

ومع أن هذا القول لا يدل على أني أخالف الخطيب فيمـا قاله فقد اتخذته تلك المجلة دليلاً ساطعا على تمسكي الشـديد بالحجاب.

فقالت في العدد التالي "لقد صدقت السيدة نبويـة موسـى حسن ظننا فيها وعابت على الخطيب ما قاله. ونحن نشـكر لها تمسكها بالعادات الشرقية ومن أهمها الحجاب".

وهكذا وفرت على نفسي ما كان سينالني من فحش القول إن أنا كتبت في الحجاب ودعوت إلى السفور. ولكني مع ذلك أعطيت تلميذاتي مثالاً صادقًا للسفور الذي أريده، وهو ظهور المرأة سافرة، ولكن في منظر يدل على حشمتها ووقارهـا. فهي تخرج لعملها سافرة حتى لا يعوقها الحجاب عن حسـن تأدية ذلك العمل، ولكنها تظهر في ملبسها بمظهر الجد فـلا زينة ولا تبرج، والوجه كما خلقه ا   لا فتنة فيه. وإذا كـان ا   قد صنع فيه شيئًا من الفتنة فلا شأن لنا فيما صنع، وكان على البشر أن يعودوا إلى الخالق. على أن القرآن لم يأمرنـا



بالحجاب بل أمرنا بالابتعاد عن الزينة، فقال سبحانه وتعالى ﴿ **وقُل للْمؤْمِنَاتِ يغْضضن مِن أَبصارِهِن ويحفَظْن فُروجهن ولاَ يبدِين زِينَتَهن إِلا ما ظَهر مِنْها ولْيضرِبن بِخُمرِهِن علَى جيوبِهِن** ﴾.

فأمر ا بستر الصدر لا بستر الوجه وهو موضع الحلي في الجاهلية.

وقد أمر الدين الإسلامي المرأة أمـرا صـريحا بكشـف وجهها في ثلاثة أمور: الحج والخطبة والشهادة، ولم يأمرها صراحة بستره مطلقًا فلا معنى إذن لستر الوجه وفيه مضايقة كبيرة لمن يردن هذا العمل.

قابلني في إدارة الأهرام يوما أحد الكتاب الذين يكثـرون الكتابة في مسألة الحجاب والحض عليه. وجعل يناقشني في آرائه، وكان يعتقد كل الاعتقاد أني متفقة معه، ولكنه دهـش لما قلت له: إنك يا سيدي من القرى وأمك وأختك وبنت عمك يخرجن بزيي هذا، أي بخمار لا يغطي إلا الرأس والصدر. فما هو الحجاب الذي تدعو المدنيات إليه؟ أتدعوهن إلى ذلك النقاب الشفاف الذي يزيد صبغة الوجوه ظهورا وبهاء؟ قـال كلا لا أريد ذلك. قلت: أنت إذن تدعو إلى حجاب مجهول لم

يره أحد؟ قال نعم أريد أن تضع المرأة فوق رأسها غطاء كثيفًا يستر وجهها كله وفيه ثقبان لتنظر منهما، قالت: يا سبحان ا ! وماذا تفعل المسكينة إذا اضطرت للعمل؟ قال: يجب أن تضحي بكل شيء في سبيل منع الفتنة فإن في وجهها فتنة، قلت: إنك يا سيدي تدعي أن الرجال أكثر عقلاً وحكمة من النساء، وإذا كانت النساء لا يفتن بوجوهكم أنتم وفيكم الجميل ولا شك، فكيف تفتنون أنتم بوجوههن وأنتم أكثر عقلاً وإدراكًا؟ لقد كان الواجب أن تتقنعوا أنتم، وأن تسفر النساء، ما دام فيكم من العقل ما يمنعكم من الفتنة. أما هن فلا عقل لهن ولا إدراك.

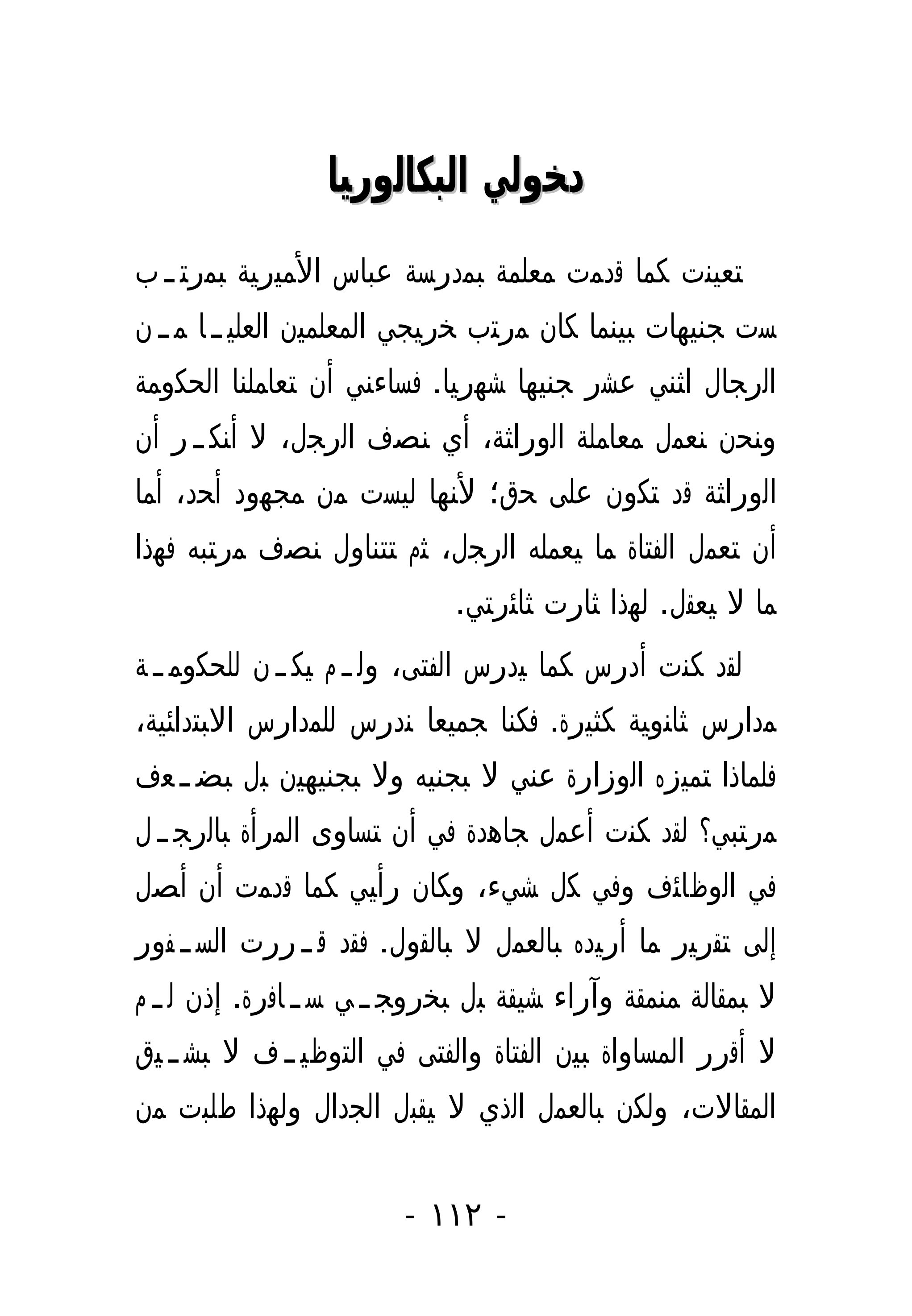
آلمه هذا القول مني وأراد أن يؤلمني فقال: إذا كانت النساء في خلقتك فلا بأس من السفور. وظن بذلك أنه أغاظني، فقلت له ضاحكة: يا شيخ انطق، وهذا ما أريده، النساء في شكلي يسفرن والرجال في جمالك يجب أن يتقنعوا، أي أنك من تضع من الغد على وجهك شوالاً فيه ثقبان وسأهنئك بتلك النتيجة.

وحدث أن قابلتني إحدى السيدات في الترام فقالت لي في دهشة: أمسيحية أنت؟ قلت: كلا إني مسلمة. قالت: وكيف

تكشفين عن وجهك؟ فنظرت إليها ضاحكة، وقلـت: وهـل سترت أنت وجهك بذلك النقاب الشفاف؟.. إنني أرى ملامحك واضحة حتى أنني أستطيع أن أعد أسنانك المذهبـة. وليـت الأمر اقتصر عند هذا الحد فكشف عن وجهـك فقـط كمـا أكشف أنا، بل لقد تجاوزت يا سيدتي الحـد وكشـفت عـن صدرك إلى آخره، فأنا أرى في صدرك ما لا يجوز لـي أن أراه كما أرى ذراعيك إلى نهايتهما أما أنت فـلا تـرين إلا وجهي فما معنى انتقادك إذن؟

عجبت المرأة من جوابي هذا، وقالت: لقد صـدقت فأنـا أقرب إلى النصارى منك.

وهكذا أيدت السفور عمليا لا بالقول، وكنت أعلم أن فـي التعليم ما يفي بالغرض الذي أريده دون نقـاش أو مجادلـة. ولقد صدق ما كنت أتوهمه وأسفرت نساء مصر الآن. حتى أصبح الرجال يطعنون على عقلية المحجبات. نعم تم ما كنت أرجوه، ولكن على شكل لم أكن أريده فقد صحب ذلك السفور تبرج معيب كنت أربأ بفاضلات المصريات عن أن يتدهورن إليه خصوصا المتعلمات منهن، ولكن ما يدرينا فلعلها مرحلة انتقال، ننتقل منها إلى السفور الكامل المحتشم.



دخولي البكالوريا

تعينت كما قدمت معلمة بمدرسة عباس الأميرية بمرتب ست جنيهات بينما كان مرتب خريجي المعلمين العليا من الرجال اثني عشر جنيها شهريا. فساءني أن تعاملنا الحكومة ونحن نعمل معاملة الوراثة، أي نصف الرجل، لا أنكر أن الوراثة قد تكون على حق؛ لأنها ليست من مجهود أحد، أما أن تعمل الفتاة ما يعمله الرجل، ثم تتناول نصف مرتبه فهذا ما لا يعقل. لهذا ثارت ثائرتي.

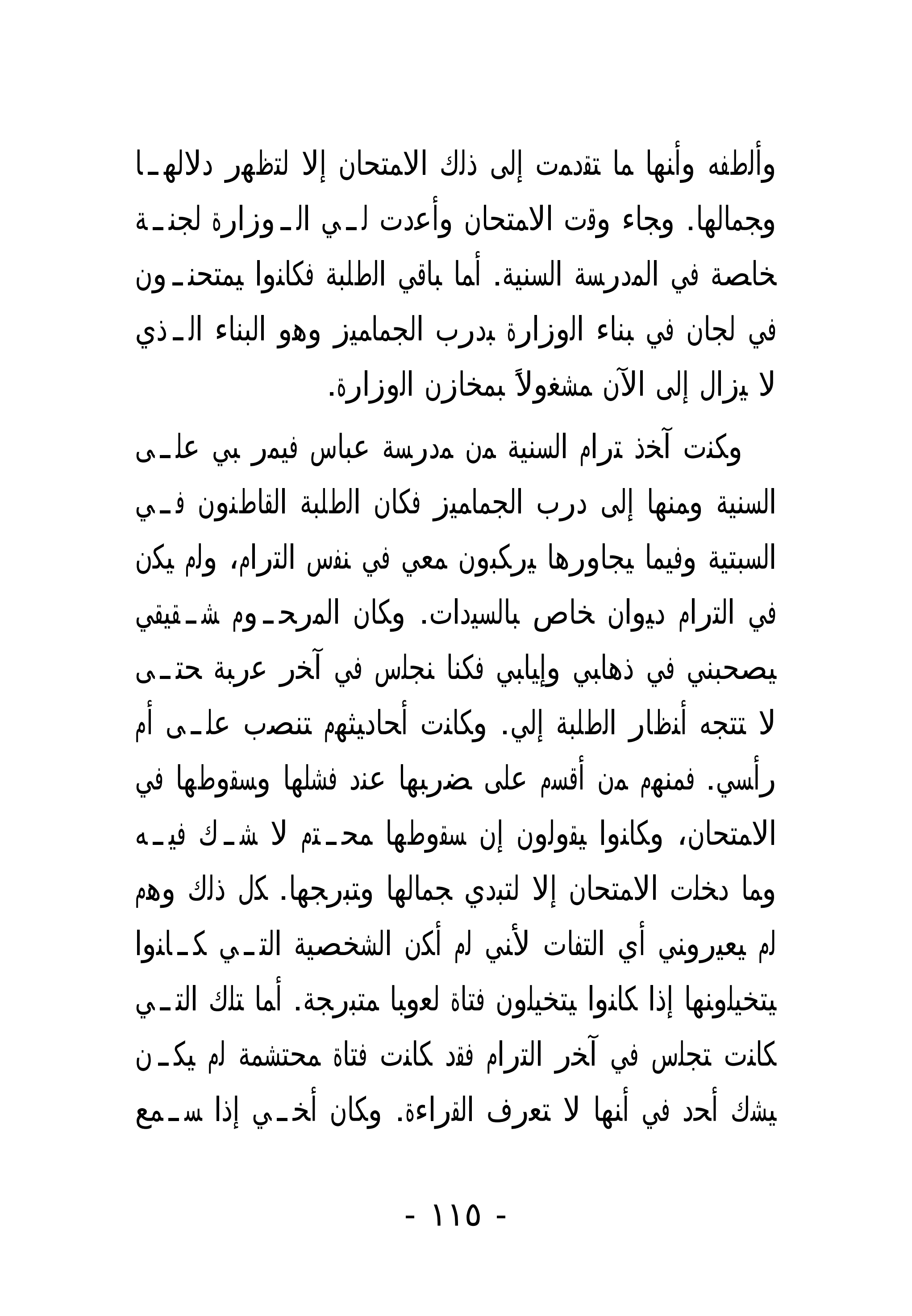
لقد كنت أدرس كما يدرس الفتى، ولم يكن للحكومة مدارس ثانوية كثيرة. فكنا جميعا ندرس للمدارس الابتدائية، فلماذا تميزه الوزارة عني لا بجنيه ولا بجنيهين بل بضعف مرتبي؟ لقد كنت أعمل جاهدة في أن تتساوى المرأة بالرجل في الوظائف وفي كل شيء، وكان رأيي كما قدمت أن أصل إلى تقرير ما أريده بالعمل لا بالقول. فقد قررت السفور لا بمقالة منمقة وآراء شيقة بل بخروجي سافرة. إذن لم لا أقرر المساواة بين الفتاة والفتى في التوظيف لا بشيق المقالات، ولكن بالعمل الذي لا يقبل الجدال ولهذا طلبت من

الوزارة أن تسوي بيننا وبين الرجال في المرتب، فأجـابتني الوزارة بأني وزميلاتي لم ننل شهادة البكالوريا، وإن كنا قد تعلمنا من فنون التربية والتهذيب ما تعلمـه طلبـة مـدارس المعلمين العليا حرفيا، ولكنا مع ذلك تنقصنا الثقافة العامـة، ولهذا لا يمكن مساواتنا بهم، قلت: لقد تعلمـت مـن طـرق التربية ما لم يتعلمه الرجال، وإذا كان ما ينقصني عنهم هـو مرحلة الثقافة العامة أي نيل شهادة البكالوريا، فإني سأدخلها وسأنجح فيها حتى لا أترك لوزارة المعارف عذرا في عـدم مساواتي بالرجال.

اطلعت من ذلك اليوم على مـنهج البكالوريـا ومـلأت استمارة دخول امتحان البكالوريا في الميعاد الـذي حددتـه وزارة المعارف وأرسلتها إلى الوزارة. فضج رجال الوزارة لهذا الحادث، وكـان حـديثهم فـي روحـاتهم وغـدواتهم. واستعظموا على فتاة لم تتعلم في مدرسة ثانويـة أن تـدخل الامتحان وهي لم تستعد له. فجاءني المسـتر دانلـوب فـي مدرسة عباس وبيده استمارة التحاقي بالامتحان. قدمها إلـي وهو يضحك وقال: يبدو لي أنك لم تقرئي منهج البكالوريـا ولو أنك قرأت ذلك المنهج لما أقدمت على إرسال طلبك هذا.

قلت: كلا لقد قرأته وكدت أنتهي من دراسته. قال إنك واهمة استمعي لنصحي واسحبي هذا الطلب ولا ترسليه مرة أخرى، اللهم إلا إذا وعدتني بأنك ستنجحين، قلت: وهل وعدك أحـد ممن تقدموا لهذا الامتحان بنجاحه فيه قبـل دخولـه؟ قـال: ولكنك من تلميذاتي ويهمني أمرك. قلت: إن الكل تلاميـذك يا سيدي ولابد أن يهمك أمرهم بمقدار ما يهمك أمري. قال: إذن فاعلمي بأنك إذا رسبت فستنحط منزلتك فـي نظـري. قلت: إني والحمد فوق الخادمات مباشرة، ولا تستطيع أنت ولا غيرك أن تعتبرني خادمة، أي إني أقـف اليـوم علـى الأرض وليس في وسعك أن تحفر تحت أقدامي فمكانتي في التوظف لا تحتمل النقصان. قال: إنك عنيدة، ولكني أكرر لك النصح في أن تسحبي طلبك هذا، وألا ترسليه إلى الـوزارة. ثم خرج دون أن يترك لي وقتًا للإجابة على ما قال. وما كاد يصل إلى الوزارة حتى كان طلبي في إثره!!

ضجت الوزارة كلها واعتبروا ذلك حادثا، ولم يعـد فـي الطلبة المتقدمين إلى البكالوريا حديث إلا أن لهم زميلة مـن الجنس اللطيف، وقد كانوا يجهلون تلك الزميلة طبعا فأخـذوا ينقلون عنها ما يشاءون. فاعتبروها من أجمل ذلك الجـنس



وألطفه وأنها ما تقدمت إلى ذلك الامتحان إلا لتظهر دلالها وجمالها. وجاء وقت الامتحان وأعدت لي الوزارة لجنة خاصة في المدرسة السنية. أما باقي الطلبة فكانوا يمتحنون في لجان في بناء الوزارة بدرب الجماميز وهو البناء الذي لا يزال إلى الآن مشغولاً بمخازن الوزارة.

وكنت آخذ ترام السنية من مدرسة عباس فيمر بي على السنية ومنها إلى درب الجماميز فكان الطلبة القاطنون في السبتية وفيما يجاورها يركبون معي في نفس الترام، ولم يكن في الترام ديوان خاص بالسيدات. وكان المرحوم شقيقي يصحبني في ذهابي وإيابي فكنا نجلس في آخر عربة حتى لا تتجه أنظار الطلبة إلي. وكانت أحاديثهم تنصب على أم رأسي. فمنهم من أقسم على ضربها عند فشلها وسقوطها في الامتحان، وكانوا يقولون إن سقوطها محتم لا شك فيه وما دخلت الامتحان إلا لتبدي جمالها وتبرجها. كل ذلك وهم لم يعيروني أي التفات لأني لم أكن الشخصية التي كانوا يتخيلونها إذا كانوا يتخيلون فتاة لعوبا متبرجة. أما تلك التي كانت تجلس في آخر الترام فقد كانت فتاة محتشمة لم يكن يشك أحد في أنها لا تعرف القراءة. وكان أخي إذا سمع

حديثهم عني تبسم ونظر إلي، فكنت أحترس ألا أجيب علـى ابتسامته بمثلها، وكنت أجتهد في أن أنزل من التـرام قبـل المدرسة السنية بمحطة وأدخلها من بابها الخلفي لأني كنـت أعلم أن كثيرا من الطلبة يتجمهرون أمام بابها لرؤيتي. وهذا ما كنت أفعله عند الخروج.

أما اللجنة التي كانت تراقبني أثناء الامتحان فقـد كانـت لجنة كاملة أي مكونة من ثلاثة أشخاص: فرنسي وإنجليزيتين إحداهما ناظرة مدرسة السـنية أي صـديقتي المعروفـة!.. فكانت كلما دخلت الامتحان وخرجت منه تحييني بعبـارات التأنيب أو السخرية، كقولها: إنك مغرورة، ولا شـك أنـك سترسبين أو ما الذي حملك على التقديم وتكليفنا إعداد لجنـة خاصة لك؟ وقد كنت أجيبها على تحياتها هـذه بابتسـامات تشف عما في قلبي لحضرتها من الحب المكـين!.. وكانـت الغرفة التي أمتحن فيها واسعة جدا إذ كانت معدة لامتحـان طالبات السنية بأجمعهن، وكنت أجلس في وسطها، وكان هذا يبعدني عن صديقتي الناظرة بمسافة تجعلني لا أتمتع برؤيـة وجهها رؤية دقيقة. وكان المراقب الفرنسي رجل لطيف فكان إذا مر بي أشار بيده إلى تعليمات كانت علـى رأس ورقـة

الامتحان وهي "لا تلتفت يمينًا ولا شمالاً ولا تشر إلى أحد ممن بجانبك أية إشارة" كان يشير إلى تلك التعليمات قائلاً يجب عليك تنفيذها. وهو بالطبع كان يعلم أنها منفذة بطبيعة الحال لأنه لم يكن بجانبي أحد.

وكانت تعليمات الامتحان تقضي ألا نحضر معنا من أدوات الكتابة شيئًا فكانت تعطى لي الريشة التي أكتب بها وحدث في امتحان الهندسة أن كان سن الريشة مكسورا فلم أستطع الرسم بها وصرت كلما رفعت يدي حضرت إلى صديقتي ناظرة السنية ورفضت رفضا باتا أن تعطيني ريشة غير الريشة التي أمامي وضقت ذرعا بتصرفها هذا؟ فتظاهرت بالكتابة وبالامتناع عن طلب ريشة جديدة، ثم قمت فجأة أسير بسرعة نحو المراقب الفرنسي فما كادت تلحق بي إلا ونحن الاثنتان أمامه فعرضت عليه الريشة وطلبت منه تغييرها فوافقني على هذا الطلب، ولكنها عارضته وبقيت معه في جدال ونقاش نحو ربع الساعة وأخيرا انتصر الرجل وأتاني بريشة جديدة.

وآخر أيام الامتحان جاءني مستر دانلوب فقال لي: أتظنين أنك ناجحة؟ قلت: نعم أظن ذلك. قال: حسنًا صدق ا ظنك

وخرج. وهنا تناولتني الناظرة وأخذت تعتب علي كيف أجيبه بالإيجاب، وماذا يكون موقفي إذا أنا رسبت، فقلت لها: إنـي لم أدع النبوة ولا الإخبار بما في الغيب، وكل ما قلت له إنني أظن أنني ناجحة، ولا عيب علي إذا كان ظنـي هـذا غيـر صادق، فكثيرا ما يظن الإنسان غير ما يحدث ولا حرج عليه فيما يظن.

ظهرت النتيجة، وكنت من بين الناجحين وترتيبي علـى ما أعتقد ٤٣ من مائتين. وكان لهذا النبأ وقـع حسـن بـين موظفي وزارة المعارف وبين زملائي الطلبة. وكان ذلك سنة ١٩٠٧، ولم يكن لي بالطبع زميلات، ولم تنجح مصرية في امتحان البكالوريا إلا في سنة ١٩٢٨. لهذا كان النبأ عظيمـا فنشرته الصحف بعناوين ضخمة ببنط كبير مثل "أول ناجحة من المصريات في البكالوريا" أو "مصرية تفوز بنيل شهادات البكالوريا" أو "تفوق المصريات" ولو أنني إذ ذاك فتحت فرنسا لما كان لاسمي رنة أشد مما كان له على أثـر نيـل تلـك الشهادة العظيمة أي شهادة البكالوريا.

اهتم المصححون بهذا النبأ ويظهر أنهم خشـوا أن يظـن أحد أن نبوية هذا رجل فأرادوا أن يضعوا على هذا الاسـم

عنوانًا يمنع الشبهة فكتبوا الست نبوية وأرسلوا إلى مدرسة عباس تلغرافًا يهنئون الناظرة بنجاح معلمتها كما أرسلوا إلى صديقتي العتيدة ناظرة المدرسة السنية تلغرافًا يهنئونها بنجاح إحدى طالباتها. وهنا نسيت مس جونسون الحقد القديم ويظهر أنها عطفت علي. وكنا في ذلك الوقت لا ندخل الامتحان الشفوي إلا إذا نجحنا في التحريري.

ظهرت النتيجة وجئت للامتحان الشفوي في المدرسة السنية أيضا وما كاد يقع نظر الناظرة علي حتى ضمتني إلى صدرها وقبلتني قبلات عديدة وشكرتني لأني رفعت رأسها عاليا.

أما المفتشون الذين جاءوا لامتحاني الشفوي فقد أحضروا لي معهم هدية ثمينة من الكتب الفرنسية. وكنت واثقة بالطبع أني سأنجح في الامتحان الشفوي إذ ليس من المعقول أن تتقدم طالبة واحدة في هذا الامتحان وتنجح في التحريري ثم يذهب الذوق بالممتحنين إلى إسقاطها في الشفوي ولهذا كنت واثقة كل الوثوق من نجاحي في الشفوي.

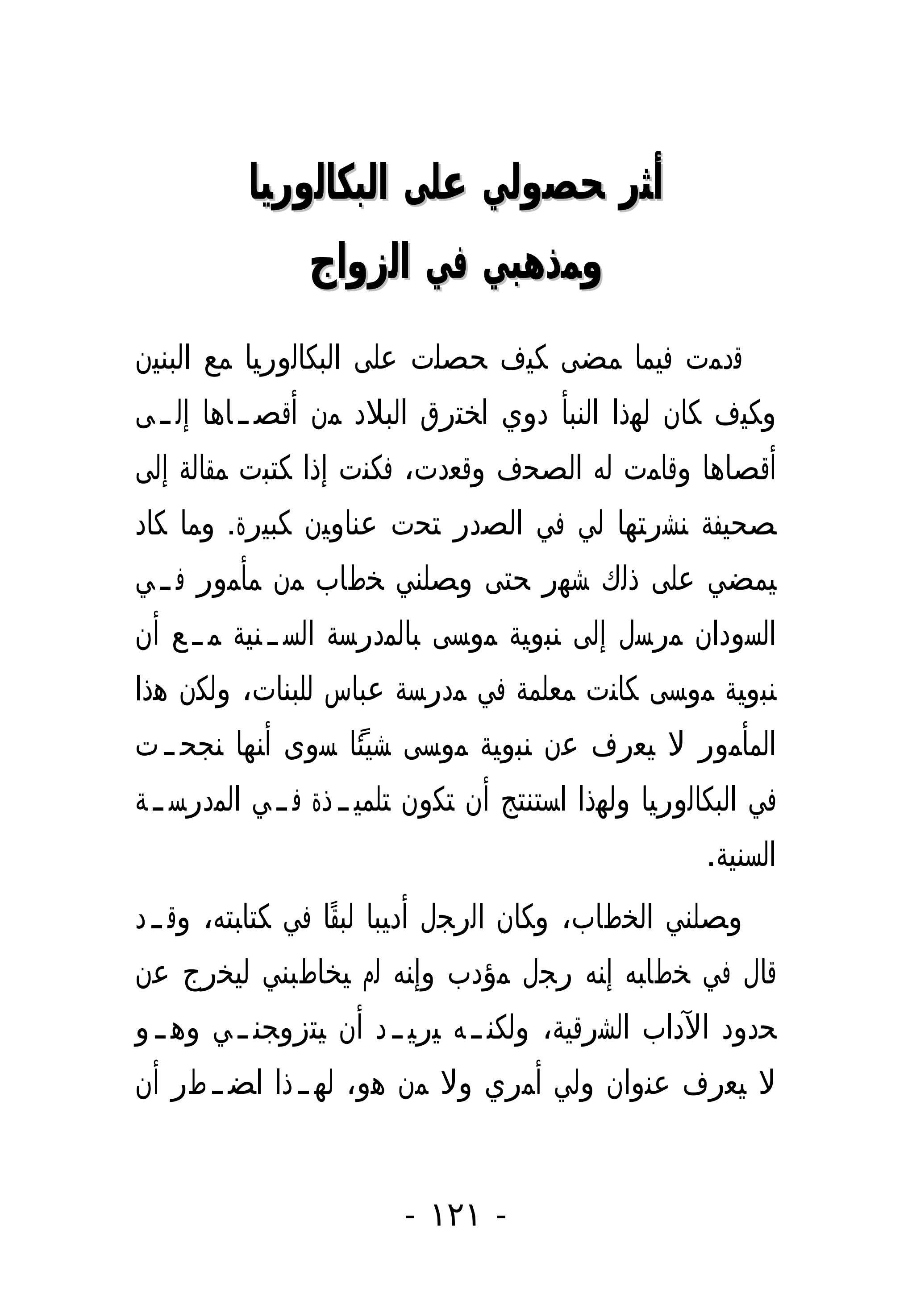
كنت قد تعلمت اللغة الفرنسية في المنزل ومن الكتب، وكنت أعرف كيف أقرأ، ولكني لم أكن متأكدة أني أفهم تلك

اللغة إذ خوطبت بها، ولهذا دخلت باسمة، وقد أعددت هـذا الابتسام لأجيب عليها بكلمات قد حفظتهـا. وكانـت اللغـة الفرنسية إضافية لا أساسية.

وتم ما أردته وسألني الممتحن عن سبب ضحكي. فقلت له في شيء من الدعابة: إني أضحك لأني أعلم أنك لا تعلم إلا الفرنسية التي لا أعرف أنا شيئا منها، ولهذا ضـحك علـى كيفية تخاطبنا. قلت: ذلك بالفرنسية طبعا. وقد سـر الرجـل بهذا. وحادثني محادثة استطعت فهمها، وأعطاني درجة لـم أكن أحلم بالحصول عليها.

أما في اللغة العربية فلم ينس المرحوم الشيخ حمزة فتح ا أن يتحفني بأسئلته الممتازة إذ ذاك كوزن "أكون" وهو كمـا لا يخفى على سيدي القارئ "كن" فنقلت: حركة الواو إلى الساكن قبلها فتحرك بالضم، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين أي النـون والواو، ثم حذفت همزة الوصل لعدم الحاجة إليها إذ جيء بهـا للتوصل إلى الساكن في الأفعال الأخرى كاعلم وانصت، أمـا هنا فقد تحرك أول الفعل فلا حاجة إلى همزة الوصل.

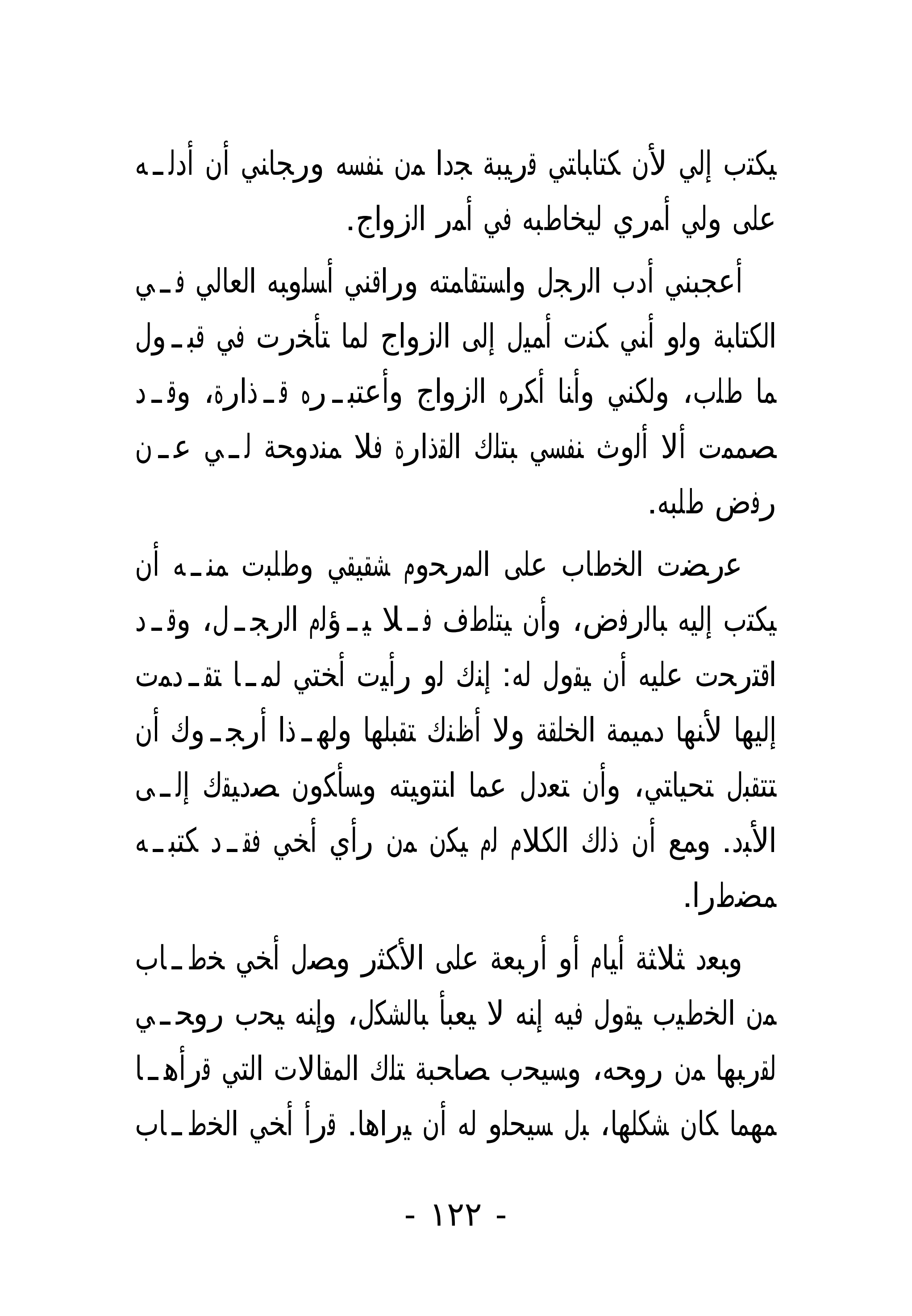
وعذرا أيها القارئ إذا ألقينا عليك درسا من نماذج دروس العربي الماضية.



أثر حصولي على البكالوريا ومذهبي في الزواج

قدمت فيما مضى كيف حصلت على البكالوريا مع البنين وكيف كان لهذا النبأ دوي اخترق البلاد من أقصاها إلى أقصاها وقامت له الصحف وقعدت، فكنت إذا كتبت مقالة إلى صحيفة نشرتها لي في الصدر تحت عناوين كبيرة. وما كاد يمضي على ذلك شهر حتى وصلني خطاب من مأمور في السودان مرسل إلى نبوية موسى بالمدرسة السنية مع أن نبوية موسى كانت معلمة في مدرسة عباس للبنات، ولكن هذا المأمور لا يعرف عن نبوية موسى شيئًا سوى أنها نجحت في البكالوريا ولهذا استنتج أن تكون تلميذة في المدرسة السنية.

وصلني الخطاب، وكان الرجل أديبا لبقًا في كتابته، وقد قال في خطابه إنه رجل مؤدب وإنه لم يخاطبني ليخرج عن حدود الآداب الشرقية، ولكنه يريد أن يتزوجني وهو لا يعرف عنوان ولي أمري ولا من هو، لهذا اضطر أن



يكتب إلي لأن كتاباتي قريبة جدا من نفسه ورجاني أن أدلـه على ولي أمري ليخاطبه في أمر الزواج.

أعجبني أدب الرجل واستقامته وراقني أسلوبه العالي فـي الكتابة ولو أني كنت أميل إلى الزواج لما تأخرت في قبـول ما طلب، ولكني وأنا أكره الزواج وأعتبـره قـذارة، وقـد صممت ألا ألوث نفسي بتلك القذارة فلا مندوحة لـي عـن رفض طلبه.

عرضت الخطاب على المرحوم شقيقي وطلبت منـه أن يكتب إليه بالرفض، وأن يتلطف فـلا يـؤلم الرجـل، وقـد اقترحت عليه أن يقول له: إنك لو رأيت أختي لمـا تقـدمت إليها لأنها دميمة الخلقة ولا أظنك تقبلها ولهـذا أرجـوك أن تتقبل تحياتي، وأن تعدل عما انتويته وسأكون صديقك إلـى الأبد. ومع أن ذلك الكلام لم يكن من رأي أخي فقـد كتبـه مضطرا.

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة على الأكثر وصل أخي خطـاب من الخطيب يقول فيه إنه لا يعبأ بالشكل، وإنه يحب روحـي لقربها من روحه، وسيحب صاحبة تلك المقالات التي قرأهـا مهما كان شكلها، بل سيحلو له أن يراها. قرأ أخي الخطـاب

وقال: الآن لا عذر لكِ فالرجل يقبلك على أي شكل أنتِ عليه وأنا بصفتي ولي أمرك أريد أن تتزوجي ذلك الرجل. وطال بيننا الشجار والأخذ والرد إلى حد كاد أن يخاطبني معه بغير الكلام، لولا أن تلك لم تكن عادته. وفي ذلك الوقـت دخـل قريب والدتي مصطفى أفندي عبد الرازق وسأله عن خبـر هذا النزاع. قال أخي إنها ترفض الزواج من رجل سـبق أن كتبت له أنا شبه وعد. قلت: ولكنك غير محق فـي وعـدك هذا، والرجل الذي تقترح زواجي بـه يتنـاول ٢٤ جنيهـا شهريا وأنا كما تعلم لا أحب الزواج، فإذا قبلت قذاراته كـان يجب أن يغريني المركز الجديد الذي سأكون فيه بعـد ذلـك الزواج، ومرتبي الآن ١٢ جنيها فإذا شئت أن تبقي حـالتي المالية كما هي وجب أن يكون مرتب ذلك الزوج ٤٨ جنيها ١٢ جنيها لي و١٢ جنيها له و٢٤ جنيها للأولاد، فكيف أقبل أنا الزواج على بغضي له، ثم أقبل معه انخفـاض مسـتوى معيشتي وهذا ما لا يعقل؟

انتصر لي مصطفى أفندي. وقال: لقد صدقت. قال أخي: ومعنى هذا أنها لن تتزوج، ومن ذا الـذي يقبـل زواجهـا

ومرتبه يبلغ ذلك المقدار الذي تطمع هي فيه؟ قلت: وهذا كل ما أريده أن تقف طلباتي هذه حجر عثرة في سبيل الزواج.

اضطر أخي أن ينزل على إرادتنـا أي إرادتـي وإرادة مصطفى أفندي، ولكنه كان مكرها. قال: إذن سأكتب للرجل ويجوز أن ا   أراد له الخير بذلك الرفض. أمسك القلم وأخذ يقرأ ما يكتبه بصوت عال. قال: تحية وسلاما وعـذرا أيهـا الصديق إذا أنا أخبرتك في خطابي السـابق بدمامـة خلقـة شقيقتي فقط، ولكني نسيت أن أقول لك إنها فوق ذلك قليلـة الأدب متكبرة متغطرسة لا يطيق الإنسان أن يعاشرها يومـا واحدا وأنا كصديق أنصحك ألا تعاودني في أمرها ولا أخفي عليك أنها تتكبر على أمثالي وأمثالك فلا تذكرها لـي مـرة أخرى.

أخذ يقرأ ذلك الخطاب بصوت عال ليغيظني، ولكني كنت أضحك مقهقهة وأقول: إن هذا خير ما يكتب في مثـل هـذا الموقف، وكان الرجل قد أرسل مع الخطاب هدية فرددناهـا إليه.

وفي سنة ١٩١٤ كنت ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة فجاءني رجل بخطاب كتبه إلي ذلك المأمور يرجوني فيه أن

أقبل ابنة ذلك الرجل بالمدرسة الابتدائية مجانًـا وقـال فـي خطابه إنه تزوج وإنه رزق أولادا وإنه مسرور جدا بأسرته الجديدة، وكأنه يريد أن يقول لي على رأي مثلنا العام (بركة يا جامع اللي جت منك).

عرفت من هذا أن الرجل لا يزال متألما مـن الحادثـة، وكنت أخجل أن أذكر مسألة خطبـة أو زواج أمـام رجـل فنظرت إلى قريبه الذي أتى بذلك الخطاب وقلت له: هل تعلم من أين يعرفني قريبك هذا؟ قال: نعم إنني أعـرف القصـة. قلت: أرجوك أن تخبره أني لم أرفضه احتقارا لشأنه أو لأي عيب فيه، ولو أني كنت أنتوي الزواج لما تزوجت بأفضـل منه، ولكني لاعتبارات شخصية أرفض هذا الزواج، ولكـي أشرح لك موقفي أقول إنني لو كنت قد قبلت ما عرضه على لكنت الآن تحت أمره أطلب منه الرضا والعطف، أمـا الآن بعد رفضي فهو الذي يطلب مني أن أعطف عليـه وعلـى أقاربه، وأنا لأجل خاطره سـأدخل ابنتـك بالمجانيـة فـي مدرستي. ولو أني كنت أخاطب الرجال لكتبت إليه الرد على خطابه هذا، ولكني آليت ألا أفعل فأرجوك أن ترد عليه أنت، وأن تخبره بما قلته لك.

لقد بنيت رفضي على رأي اعتمدته منذ طفـولتي وهـو ألا أتزوج لأني على ما أتذكر لم أكن طفلة بالمعنى الصحيح أجهل ما يحيط بي، ولكني كنت أعلم ما بين الرجل والمـرأة مع أنه لم يكن في منزلنا رجل، ولكن يظهر لـي أن الأمـر غريزة طبيعية أو أني كنت أعلم بالإشارة أو بمـا أراه مـن الحيوانات، كنت أعلم ذلك تمام العلم أنه قـذارة خصوصـا نصيب المرأة فيه، فكنت أنفر منـه وربمـا ترجـع مسـألة خروجي من المنزل في السن الثالثة عشر والتحاقي بالمدرسة إلى كرهي لهذا الأمر لأني لو بقيت بلا عمل لما استطعت أن أبقى أيضا بلا زواج، وليس لي من الأملاك ما يقـوم بسـد حاجتي. لهذا انصرفت عن الزواج بتاتًا، ثم شاء ا أن تزداد فكرتي رسوخًا ووضوحا فسمعت رجلاً يتشاجر مـع امـرأة على قارعة الطريق، ويقول لها ما معناه: امرأة مثلك، أقضي في جوفها حاجتي تتجرأ أن تكلمني بما تقولين؟ شرحت لـي تلك الكلمة ما هناك وكرهت أن يقف مني رجل ذلك الموقف القذر المريع لهذا كنت أكره أن أسمع الزواج فـي شـبابي، أما بعد أن كبرت فقد أصبح مجـرد هـذا الاقتـراح سـبة لا يشتمني أحد بأقبح منها.

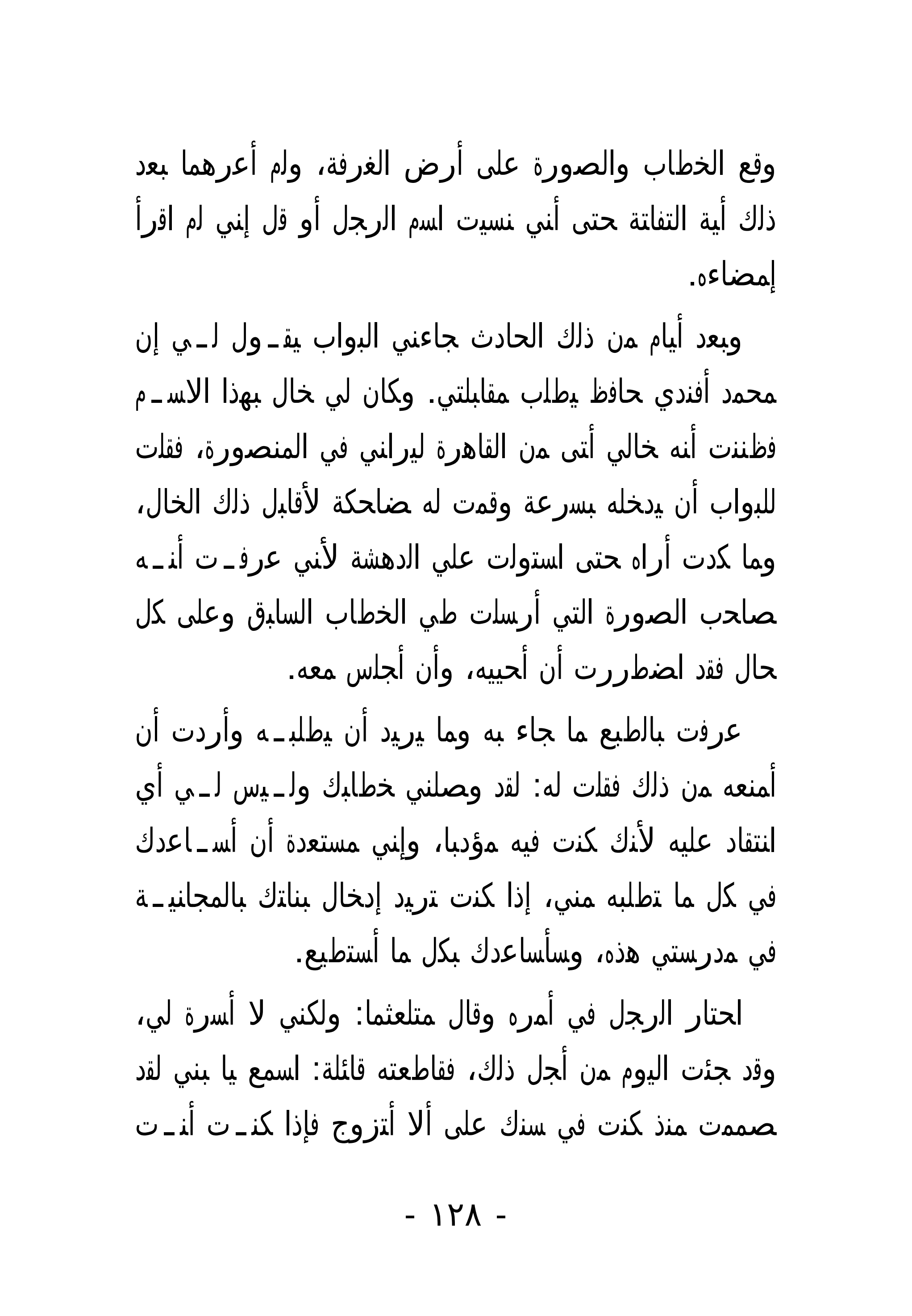
وعلى ذكر تلك الخطوبة أقول إني خطبت بعد ذلك مرتين سأذكرهما هنا على سبيل ذكر أشياء وقعت لي في حياتي.

كانت تلك الخطوبة الأولى في سنة ١٩٠٧ كمـا قـدمت، وفي سنة ١٩١٣ كنت ناظرة لمدرسة معلمات المنصـورة، وكنت ألقي محاضرات في الجامعة المصرية كانت تكتب في جميع الصحف، فوصلني خطاب من أحد المهندسين يقول فيه إنه معجب بمقالاتي وإنه يطلب من ا أن يكثر من أمثـالي في الأمة المصرية.

لم يكن الرجل في طبقة الخطيب الأول من الكتابة فلم يقع كلامه من قلبي موقعا حسنًا على أنه لم يقل شيئًا صراحا بل أكثر في مدحي، وقد أرسـل لـي طـي خطابـه صـورة فوتوغرافية له.

وقد فهمت من تلك الصورة ما كان يرمي إليه في طيـات كلامه وشاء ا أن يكون شقيقي ضيفًا عندي في ذلك اليـوم ففضضت الخطاب وبعد أن قرأته قذفت به شقيقي في ضحك وقلت له:

لو لم يكن هذا الرجل مؤدبا في الكلام لعاقبتـه بإرسـال صورتي إليه..! أما وهو مؤدب فلا معنى إذن لذلك العقاب.


وقع الخطاب والصورة على أرض الغرفة، ولم أعرهما بعد ذلك أية التفاتة حتى أني نسيت اسم الرجل أو قل إني لم اقرأ إمضاءه.

وبعد أيام من ذلك الحادث جاءني البواب يقـول لـي إن محمد أفندي حافظ يطلب مقابلتي. وكان لي خال بهذا الاسـم فظننت أنه خالي أتى من القاهرة ليراني في المنصورة، فقلت للبواب أن يدخله بسرعة وقمت له ضاحكة لأقابل ذلك الخال، وما كدت أراه حتى استولت علي الدهشة لأني عرفـت أنـه صاحب الصورة التي أرسلت طي الخطاب السابق وعلى كل حال فقد اضطررت أن أحييه، وأن أجلس معه.

عرفت بالطبع ما جاء به وما يريد أن يطلبـه وأردت أن أمنعه من ذلك فقلت له: لقد وصلني خطابك ولـيس لـي أي انتقاد عليه لأنك كنت فيه مؤدبا، وإني مستعدة أن أسـاعدك في كل ما تطلبه مني، إذا كنت تريد إدخال بناتك بالمجانيـة في مدرستي هذه، وسأساعدك بكل ما أستطيع.

احتار الرجل في أمره وقال متلعثما: ولكني لا أسرة لي، وقد جئت اليوم من أجل ذلك، فقاطعته قائلة: اسمع يا بني لقد صممت منذ كنت في سنك على ألا أتزوج فإذا كنـت أنـت

اليوم لم تتزوج فأنصحك ألا تفعل! فدهش الرجل مـن تلـك المفاجأة، وقد كان أكبر مني سنا أي كان في سن المرحـوم أخي.

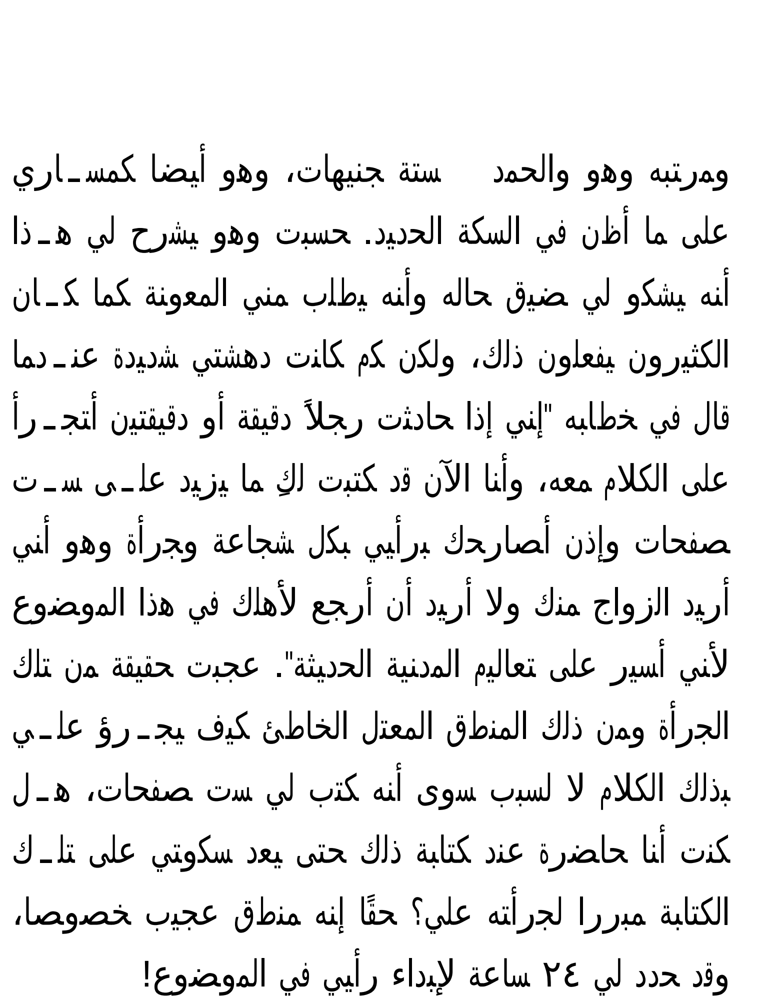
فلم تدخل عليه الحيلة وقال: لسـت بابنـك أولاً، وثانيـا اسمحي لي أن أسألك: لم صـممت علـى عـدم الـزواج؟. ضايقتني تلك الجرأة منه وقلت له: إنك لم ترنـي إلا اليـوم ومع ذلك تسألني عن أمر هو من أخص خصائصي وما كان لك ولا لغيرك أن يتدخل فيـه، مـع هـذا فسأشـبع حـب الاستطلاع في غريزتك، وأقول لك: إنني قد صـممت علـى عدم الزواج لأنني لا أحب الرجال، ولا أحـب أنحـط فـي معيشتي، بل لو أنني تزوجت وأنا اليوم أتناول مرتبا قدره ٢٤ جنيها كان يجب علي ألا أقبل إلا رجلاً مرتبه ٩٦ جنيها ٢٤ جنيها لي و٢٤ جنيها له و٤٨ جنيها للأطفـال ومثـل هـذا الرجل ما أظنه يطلب الزواج مني. قال الرجل: وما المـانع من أن تتزوجي وأنت في وظيفتك؟ قلت: عفوا يا سيدي فقـد قلت لك إنني أكره الرجال فما معنى أن أقبل القرب من رجل وأنا لا أزال أعمل؟ وما فائدة ذلك الرجل ومـا قيمتـه فـي حياتي؟ قلت ذلك وانتصبت واقفة واعتذرت إليه بـأن لـدي

درسا سألقيه الآن، وأن في استطاعته أن يمكث مع معلمـي مدرستي في غرفتهم إذا شاء.

فخرج الرجل من عندي لا أدري مودعا بمـاذا، ولكنـي استدعيت البواب في الحال وقلت له: إذا جاءك هذا الرجـل مرة أخرى فقل له إني غير موجودة وإياك أن تدخله عنـدي مرة ثانية أو تطلب مني حتى السماح له. وبعد أيام جـاءني خطاب منه يقول لي فيه: بالرغم من أنك تدعين أنـك أكبـر مني سنًا وأنك لا أمل للرجال فيك لدمامتك فـإني شخصـيا أرى فيك غير ذلك. قرأت الخطاب ومزقته، وقلت: سـبحان ا !.. من أخذ رأيه في هذه الأمور وما الذي يهمني من رأيه في؟ إن رأيي فيه وفي كل رجل ألا أتزوج. ولا ثاني لهـذا الرأي عندي.

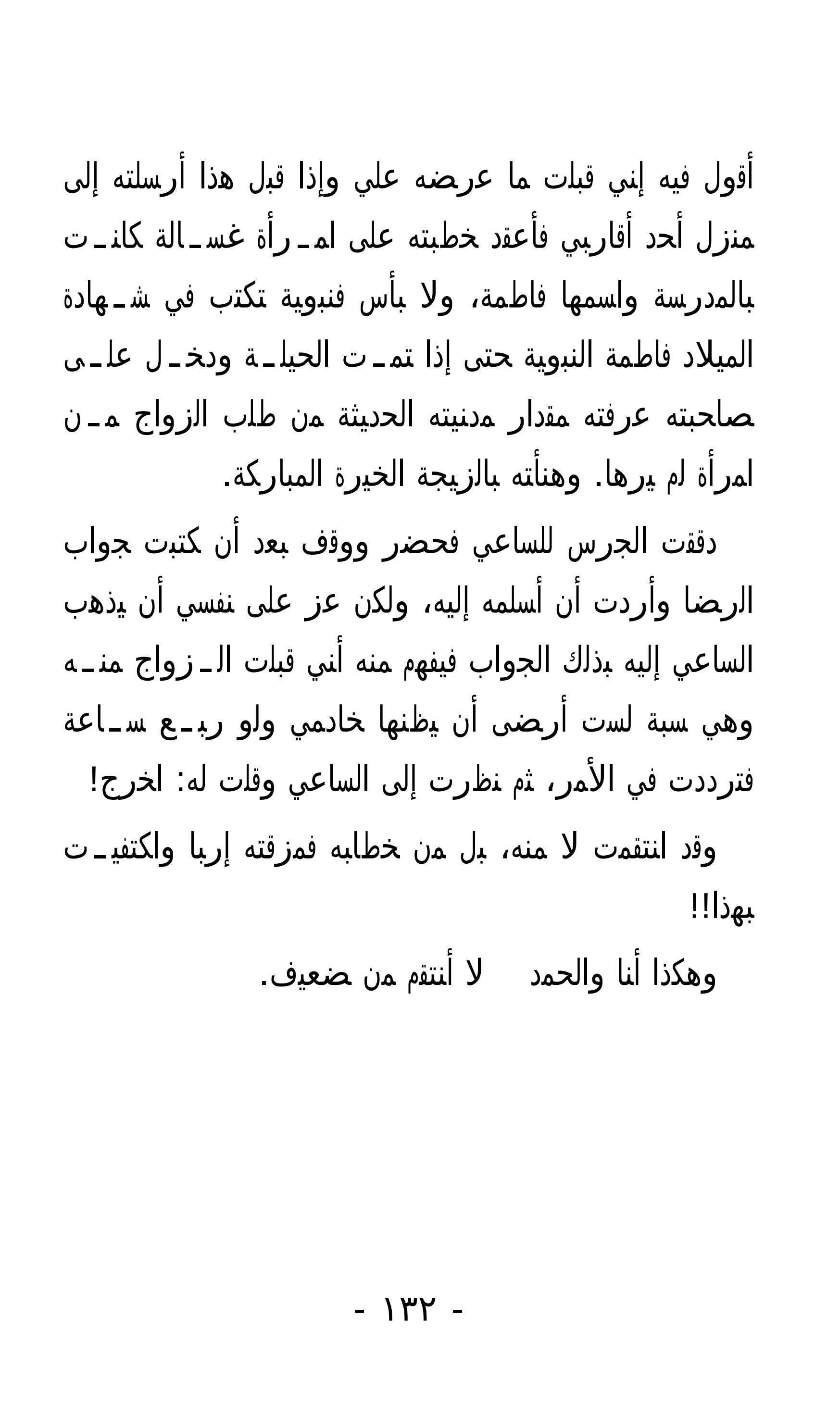
هذه هي الخطوبة الثانية: أما الثالثة فقد دلت والحمـد على أننا نحن السيدات كالعبيد كلما كبرنا رخص ثمننا.

كنت ناظرة مدرسة المعلمات بالإسكندرية في سنة ١٩١٩ على ما أتذكر أي بعد الحادثة بست سنوات فوصلني خطاب قد كتبت فيه كاتبه ما يربو على ٧ صفحات. أخـذت أقـرأ "ويلات الرجل ويعجن كما يقولون" ويصف لي حاله وعمـره



ومرتبه وهو والحمد ستة جنيهات، وهو أيضا كمساري على ما أظن في السكة الحديد. حسبت وهو يشرح لي هذا أنه يشكو لي ضيق حاله وأنه يطلب مني المعونة كما كان الكثيرون يفعلون ذلك، ولكن كم كانت دهشتي شديدة عندما قال في خطابه "إني إذا حادثت رجلاً دقيقة أو دقيقتين أتجرأ على الكلام معه، وأنا الآن قد كتبت لكِ ما يزيد على ست صفحات وإذن أصارحك برأيي بكل شجاعة وجرأة وهو أني أريد الزواج منك ولا أريد أن أرجع لأهلك في هذا الموضوع لأني أسير على تعاليم المدنية الحديثة". عجبت حقيقة من تلك الجرأة ومن ذلك المنطق المعتل الخاطئ كيف يجرؤ علي بذلك الكلام لا لسبب سوى أنه كتب لي ست صفحات، هل كنت أنا حاضرة عند كتابة ذلك حتى يعد سكوتي على تلك الكتابة مبررا لجرأته علي؟ حقًا إنه منطق عجيب خصوصا، وقد حدد لي ٢٤ ساعة لإبداء رأيي في الموضوع!

كنت في ذلك الوقت لا أرفض الزواج فحسب بل أعد طلب الزواج ممن كانت في سني جريمة أو إهانة تلحق بي لا يغسلها إلا الدم. غضبت لهذا وأردت أن أنتقم منه، وفكرت في حيلة لذلك الانتقام. وقلت: أرسل إليه خطابا مع خادمي



أقول فيه إنني قبلت ما عرضه علي وإذا قبل هذا أرسلته إلى منزل أحد أقاربي فأعقد خطبته على امـرأة غسـالة كانـت بالمدرسة واسمها فاطمة، ولا بأس فنبوية تكتب في شـهادة الميلاد فاطمة النبوية حتى إذا تمـت الحيـاة ودخـل علـى صاحبته عرفته مقدار مدنيته الحديثة من طلب الزواج مـن امرأة لم يرها. وهنأته بالزيجة الخيرة المباركة.

دققت الجرس للساعي فحضر ووقف بعد أن كتبت جواب الرضا وأردت أن أسلمه إليه، ولكن عز على نفسي أن يذهب الساعي إليه بذلك الجواب فيفهم منه أني قبلت الـزواج منـه وهي سبة لست أرضى أن يظنها خادمي ولو ربـع سـاعة فترددت في الأمر، ثم نظرت إلى الساعي وقلت له: اخرج!

وقد انتقمت لا منه، بل من خطابه فمزقته إربا واكتفيـت بهذا!!

وهكذا أنا والحمد   لا أنتقم من ضعيف.

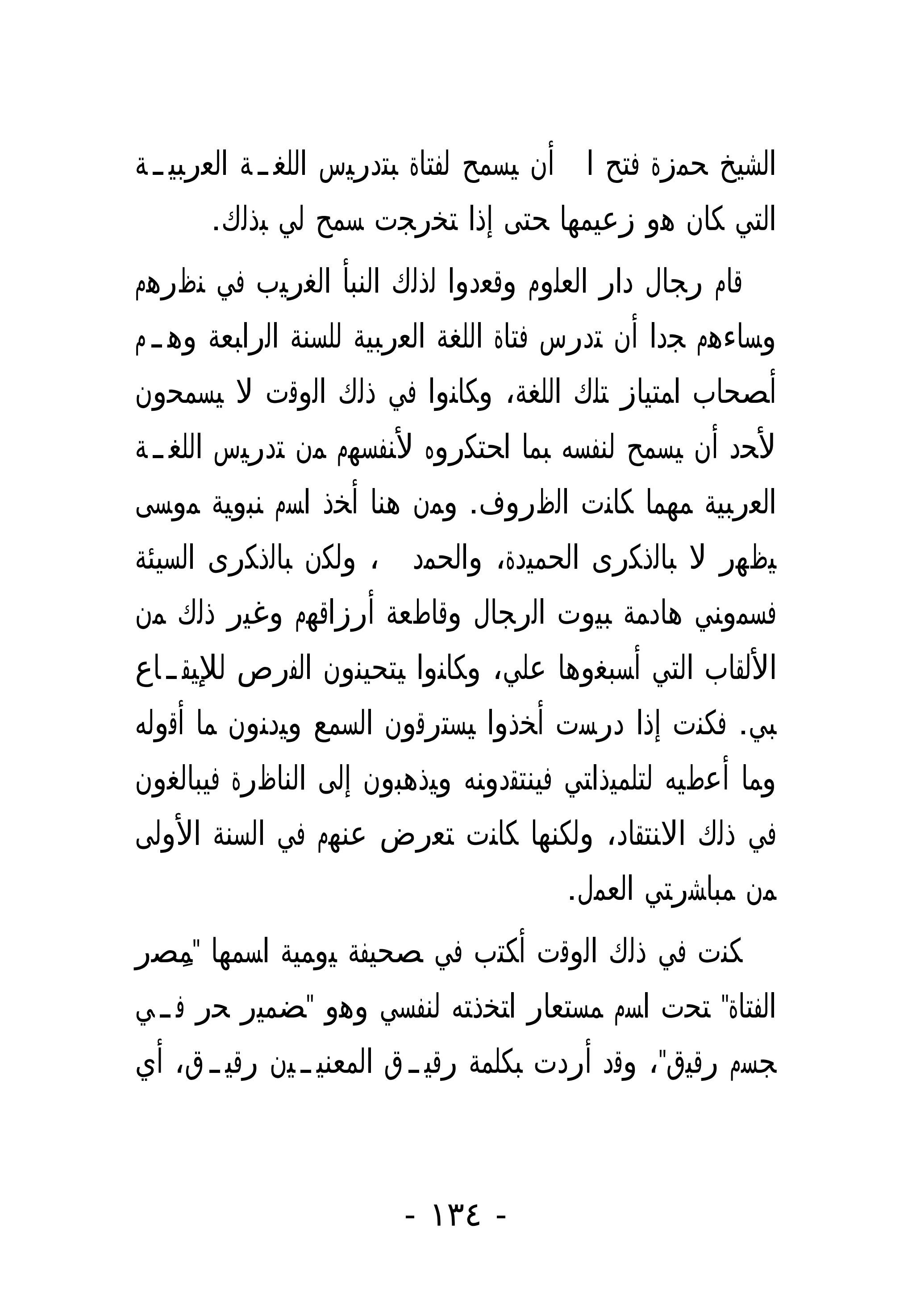
إحلال النساء محل الرجال

(في الوظائف ونتائجه السيئة على شخصي الضعيف)

كانت كل أمنيتي من دخول امتحان البكالوريا أن أكون كالرجال في درجات الوظائف. وقد كان فقد أعطتني الوزارة مرتبا قدره ١٢ جنيها كخريجي مدرسة المعلمين العليا.

ولهذه المناسبة الطريفة أقول إن مرتب خريجي دار العلوم العليا في ذلك الوقت كان ستة جنيهات فقط، وكان مرتبي ضعف مرتب المعلم من دار العلوم. وقد شاء ا أن تنسى وزارة المعارف قرارتها القديمة، وأن تعتبرني الآن من معلمات السنية ويظهر أن للكبر أثرا. وعلى هذا الاعتبار المعكوس الذي لا أفهم معناه كانت تعطيني الوزارة، بارك ا فيها، إعانة شهرية مقدارها أربعة جنيهات! وسبحان مغير الأحوال. والظاهر أن ما نقصه خريجو دار العلوم من المعلومات في عصرهم الحالي زادوا به مالاً و في خلقه شئون.

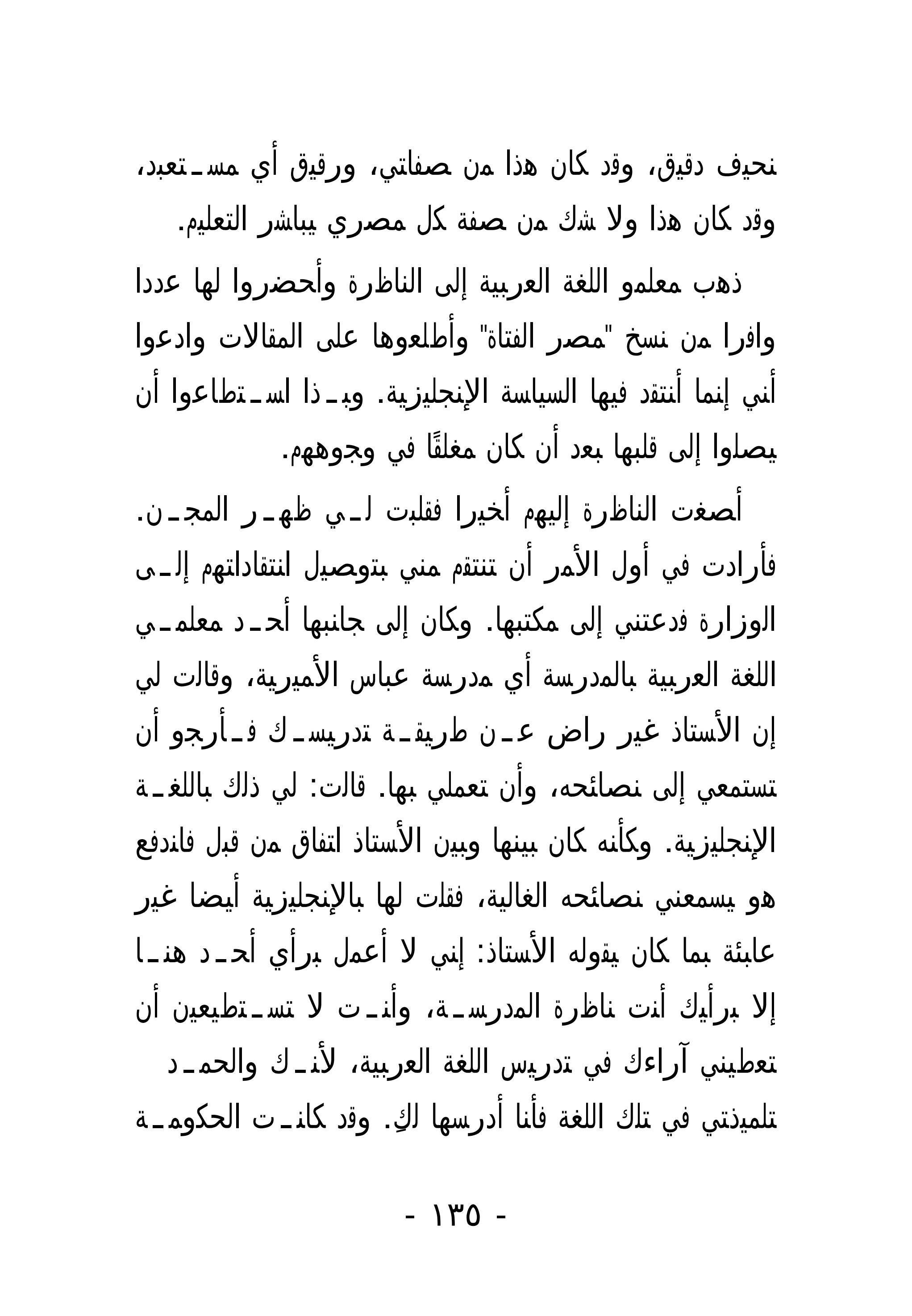
كانت الوزارة في ذلك الوقت تريد إحلال الآنسات محل الرجال في وظائف التعليم بمدارس البنات ورفض المرحوم



الشيخ حمزة فتح ا أن يسمح لفتاة بتدريس اللغـة العربيـة التي كان هو زعيمها حتى إذا تخرجت سمح لي بذلك.

قام رجال دار العلوم وقعدوا لذلك النبأ الغريب في نظرهم وساءهم جدا أن تدرس فتاة اللغة العربية للسنة الرابعة وهـم أصحاب امتياز تلك اللغة، وكانوا في ذلك الوقت لا يسمحون لأحد أن يسمح لنفسه بما احتكروه لأنفسهم من تدريس اللغـة العربية مهما كانت الظروف. ومن هنا أخذ اسم نبوية موسى يظهر لا بالذكرى الحميدة، والحمد ، ولكن بالذكرى السيئة فسموني هادمة بيوت الرجال وقاطعة أرزاقهم وغير ذلك من الألقاب التي أسبغوها علي، وكانوا يتحينون الفرص للإيقـاع بي. فكنت إذا درست أخذوا يسترقون السمع ويدنون ما أقوله وما أعطيه لتلميذاتي فينتقدونه ويذهبون إلى الناظرة فيبالغون في ذلك الانتقاد، ولكنها كانت تعرض عنهم في السنة الأولى من مباشرتي العمل.

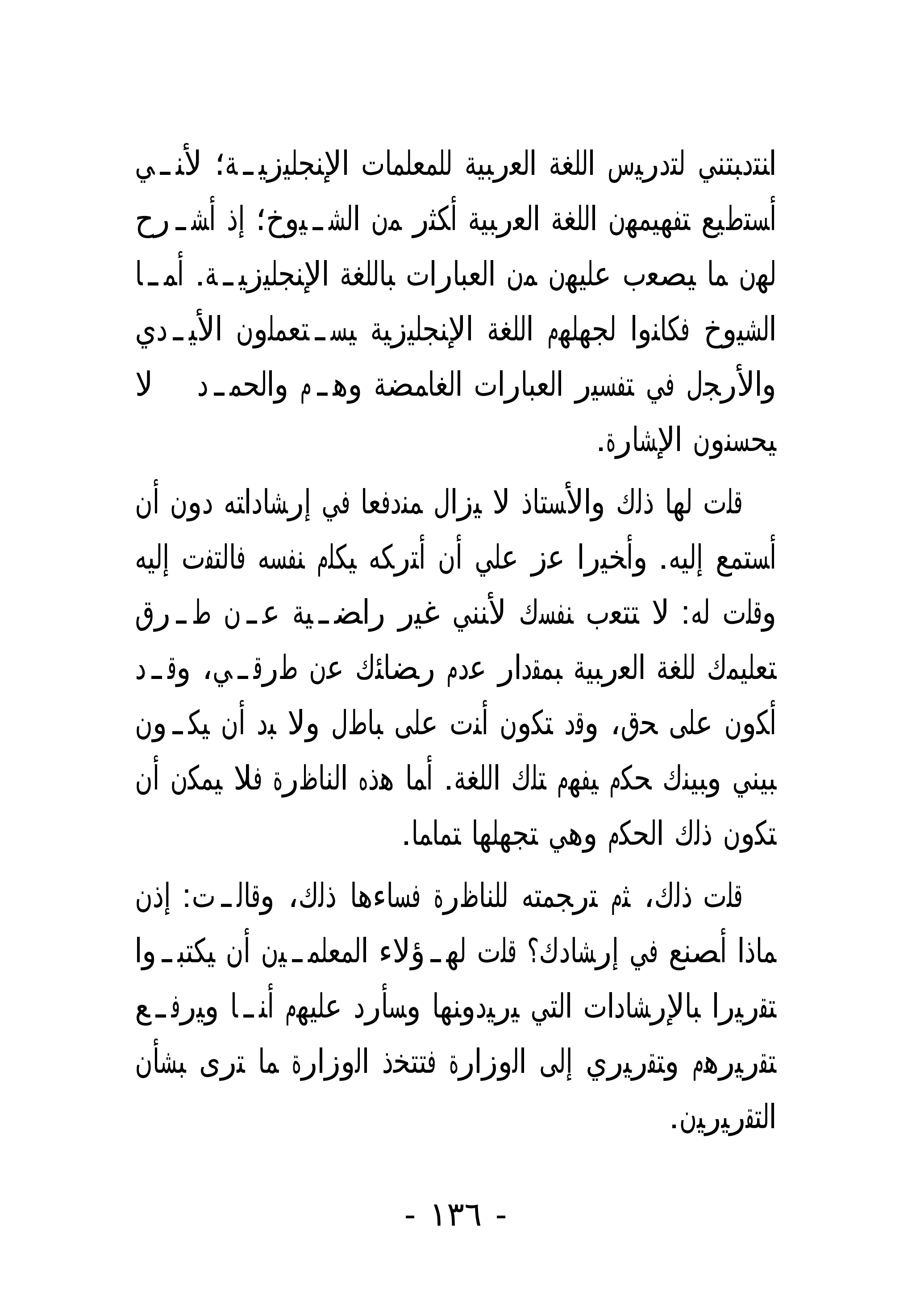
كنت في ذلك الوقت أكتب في صحيفة يومية اسمها "مِصر الفتاة" تحت اسم مستعار اتخذته لنفسي وهو "ضمير حر فـي جسم رقيق"، وقد أردت بكلمة رقيـق المعنيـين رقيـق، أي



نحيف دقيق، وقد كان هذا من صفاتي، ورقيق أي مسـتعبد، وقد كان هذا ولا شك من صفة كل مصري يباشر التعليم.

ذهب معلمو اللغة العربية إلى الناظرة وأحضروا لها عددا وافرا من نسخ "مصر الفتاة" وأطلعوها على المقالات وادعوا أني إنما أنتقد فيها السياسة الإنجليزية. وبـذا اسـتطاعوا أن يصلوا إلى قلبها بعد أن كان مغلقًا في وجوههم.

أصغت الناظرة إليهم أخيرا فقلبت لـي ظهـر المجـن. فأرادت في أول الأمر أن تنتقم مني بتوصيل انتقاداتهم إلـى الوزارة فدعتني إلى مكتبها. وكان إلى جانبها أحـد معلمـي اللغة العربية بالمدرسة أي مدرسة عباس الأميرية، وقالت لي إن الأستاذ غير راض عـن طريقـة تدريسـك فـأرجو أن تستمعي إلى نصائحه، وأن تعملي بها. قالت: لي ذلك باللغـة الإنجليزية. وكأنه كان بينها وبين الأستاذ اتفاق من قبل فاندفع هو يسمعني نصائحه الغالية، فقلت لها بالإنجليزية أيضا غير عابئة بما كان يقوله الأستاذ: إني لا أعمل برأي أحـد هنـا إلا برأيك أنت ناظرة المدرسـة، وأنـت لا تسـتطيعين أن تعطيني آراءك في تدريس اللغة العربية، لأنـك والحمـد تلميذتي في تلك اللغة فأنا أدرسها لكِ. وقد كانـت الحكومـة


انتدبتني لتدريس اللغة العربية للمعلمات الإنجليزية؛ لأنني أستطيع تفهيمهن اللغة العربية أكثر من الشيوخ؛ إذ أشرح لهن ما يصعب عليهن من العبارات باللغة الإنجليزية. أما الشيوخ فكانوا لجهلهم اللغة الإنجليزية يستعملون الأيدي والأرجل في تفسير العبارات الغامضة وهم والحمد لله لا يحسنون الإشارة.

قلت لها ذلك والأستاذ لا يزال مندفعا في إرشاداته دون أن أستمع إليه. وأخيرا عز علي أن أتركه يكلم نفسه فالتفت إليه وقلت له: لا تتعب نفسك لأنني غير راضية عن طرق تعليمك للغة العربية بمقدار عدم رضائك عن طرقي، وقد أكون على حق، وقد تكون أنت على باطل ولا بد أن يكون بيني وبينك حكم يفهم تلك اللغة. أما هذه الناظرة فلا يمكن أن تكون ذلك الحكم وهي تجهلها تماما.

قلت ذلك، ثم ترجمته للناظرة فساءها ذلك، وقالت: إذن ماذا أصنع في إرشادك؟ قلت لهؤلاء المعلمين أن يكتبوا تقريرا بالإرشادات التي يريدونها وسأرد عليهم أنا ويرفع تقريرهم وتقريري إلى الوزارة فتتخذ الوزارة ما ترى بشأن التقريرين.

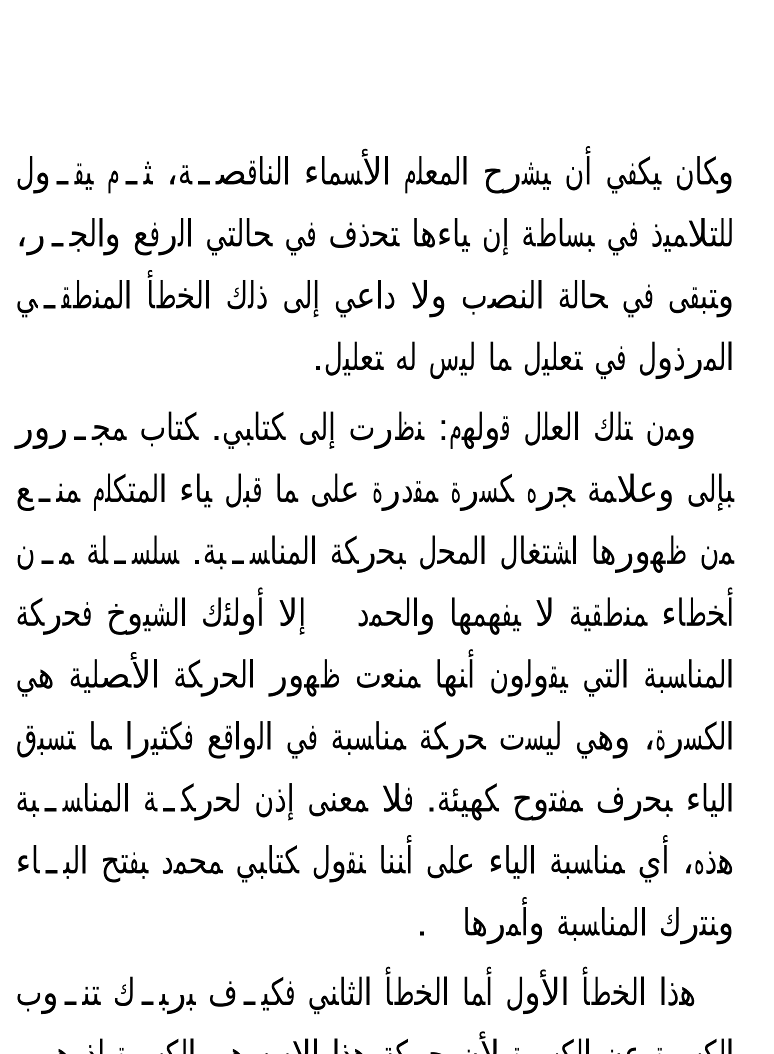
طلبت الناظرة من المعلمين ذلك فرفضوا كتابة التقرير لأنهم في ذلك الوقت لا يحسنون فن الإنشاء وكل معلوماتهم في اللغة العربية كانت تنحصر في نبوغهم في الإبدال والإعلال، فهم يعرفون أن سار أصلها "سير"، ولكنهم لا يعرفون الفرق بين سار وصار وثار، ولهذا لم يستطع أحد منهم أن يتقدم بكتابة ذلك التقرير. وأرادت الناظرة إحراجي، والحق مع القوة لا مع المعول. فطلبت مني أن أكتب أنا التقرير فقلت: يا سيدتي إنني لم أنتقد طرق هؤلاء الرجال، ولا يهمني ذلك الانتقاد، فكيف أكتب تقريرا في حالة لم أنتقدها، ولم أطلب تغييرها وهي طريقة تدريسهم وإن كانت في نظري عقيمة؟ قالت: دعك من تلك الفلسفة وأمامك أمران لا ثالث لهما: فإما أن تكتبي التقرير وإما أن تتبعي إرشادات المعلمين.

اضطررت أن أكتب التقرير وأمري   ، وكان تقريرا موفقًا فقد شرحت فيه تلك الطريقة التي كان يستعملها أساتذة اللغة العربية فلا يهتمون بالإنشاء ولا بفهم العبارات بل يهتمون بأمور لا قيمة لها من أبواب الصرف التي لم أشعر إلى الآن أن لها فائدة فيما كتبته وما سأكتبه، أي أنها لا تفيد

التلميذ أية فائدة في فن الإنشاء بل هي علل خلو من كل شيء حتى من المنطق الصحيح، فقد كان التلميـذ يجهـل معـاني الكلمات فلا يعرف معانيها، ولكن الأستاذ يعلمه أصـولها أي أجدادها القدماء، فيقول له إن "كاد" أصلها "كيد" وهو نفسـه لا يفهم الفرق بين "كاد" و "قاد" ولا كيف تستعمل الكلمتـان، وهو يعرف أصلهما قبل أن يعرفهما.

هذا فضلاً عن أن المنطق الذي يذكر في تلك العلل منطق سخيف لا يستقيم له معنـى – فيشـرح الأسـتاذ أن قـاض استثقلت فيها الضمة على الياء فحذفت الضمة والتقى ساكنان التنوين والياء، فحذفت الياء للتخلص من التقـاء السـاكنين، على أن نبي لم تستثقل فيها الضمة على الياء وبقيـت كمـا هي، وفي هذا الكلام خطأ منطقي إذ يفهم منه أن كـل يـاء تستثقل عليها الضمة، مع أن الضمة هنا لم تستثقل إلا لانتقال النطق من كسر إلى ضم، وقد لا يكون ذلك السبب، فكثيـرا ما تجدنا قد انتقلنا في نطقنا من كسر إلى ضم ولا ضير فـي ذلك كيوجد وغير ذلك.

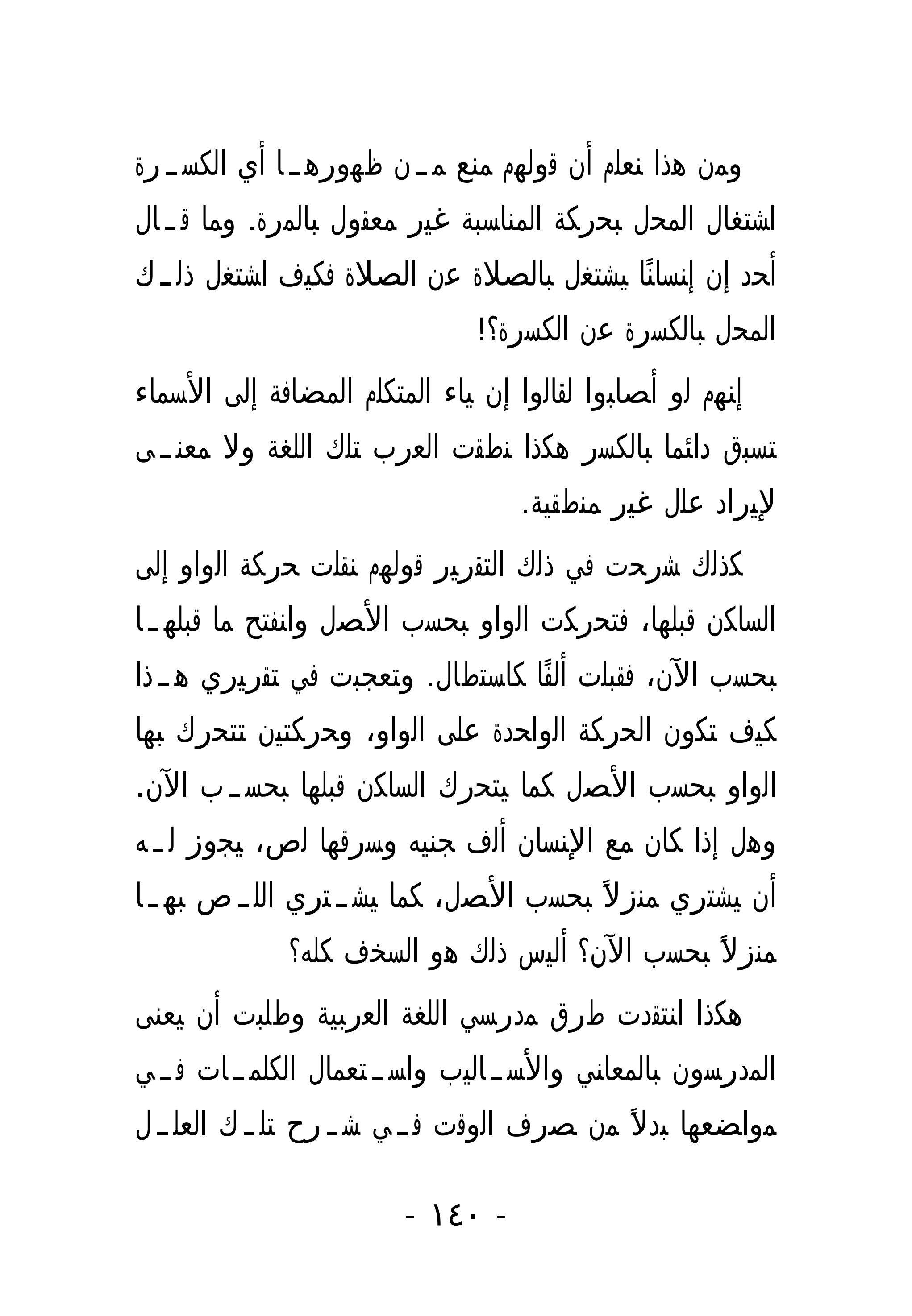
فتلك العلل النحوية لم تكن تستقيم مع المنطق حتى يـتعلم منها التلميذ حسن التعليل، ولم تكن تفيده كثيرا في الكتابـة.



وكان يكفي أن يشرح المعلم الأسماء الناقصة، ثم يقول للتلاميذ في بساطة إن ياءها تحذف في حالتي الرفع والجر، وتبقى في حالة النصب ولا داعي إلى ذلك الخطأ المنطقي المرذول في تعليل ما ليس له تعليل.

ومن تلك العلل قولهم: نظرت إلى كتابي. كتاب مجرور بإلى وعلامة جره كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة. سلسلة من أخطاء منطقية لا يفهمها والحمد إلا أولئك الشيوخ فحركة المناسبة التي يقولون أنها منعت ظهور الحركة الأصلية هي الكسرة، وهي ليست حركة مناسبة في الواقع فكثيرا ما تسبق الياء بحرف مفتوح كهيئة. فلا معنى إذن لحركة المناسبة هذه، أي مناسبة الياء على أننا نقول كتابي محمد بفتح الباء ونترك المناسبة وأمرها .

هذا الخطأ الأول أما الخطأ الثاني فكيف بربك تنوب الكسرة عن الكسرة لأن حركة هذا الاسم هي الكسرة إذ هو مجرور بإلى وحركة المناسبة هي الكسرة فهل يستطيع إنسان يعقل أن يقول إن الكسرة تمنع الكسرة عن الظهور لتظهر هي؟



ومن هذا نعلم أن قولهم منع مـن ظهورهـا أي الكسـرة اشتغال المحل بحركة المناسبة غير معقول بالمرة. وما قـال أحد إن إنسانًا يشتغل بالصلاة عن الصلاة فكيف اشتغل ذلـك المحل بالكسرة عن الكسرة؟!

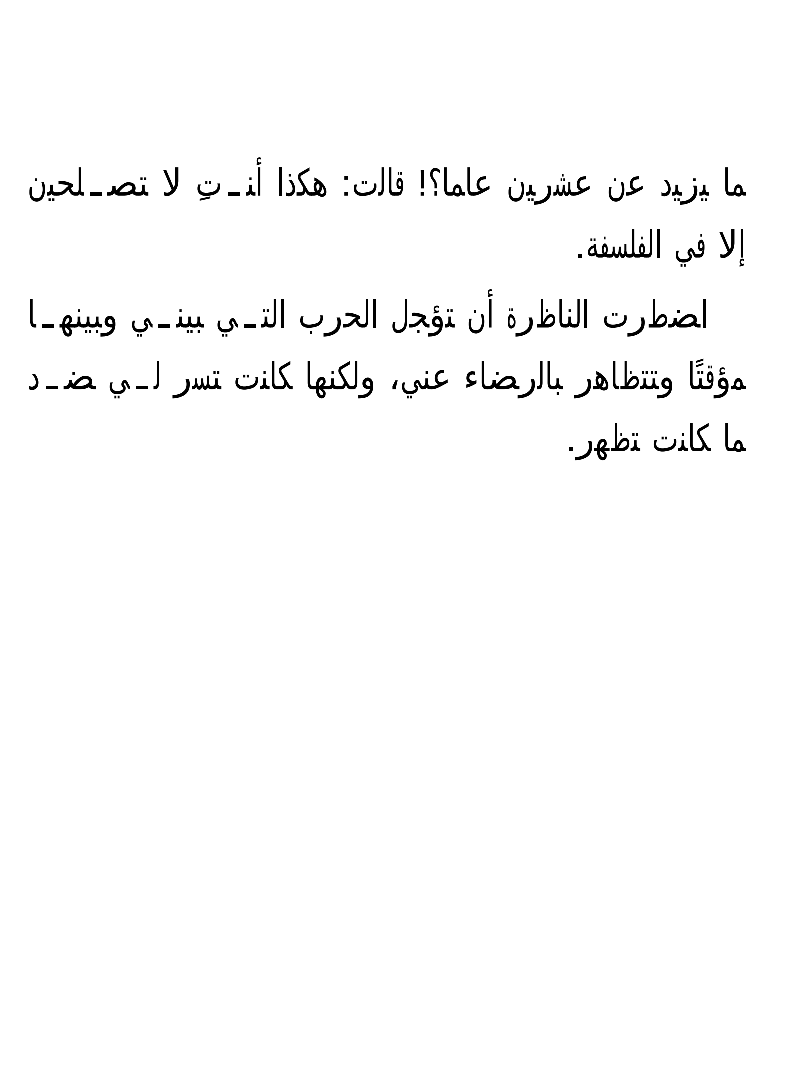
إنهم لو أصابوا لقالوا إن ياء المتكلم المضافة إلى الأسماء تسبق دائما بالكسر هكذا نطقت العرب تلك اللغة ولا معنـى لإيراد علل غير منطقية.

كذلك شرحت في ذلك التقرير قولهم نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها، فتحركت الواو بحسب الأصل وانفتح ما قبلهـا بحسب الآن، فقبلت ألفًا كاستطال. وتعجبت في تقريري هـذا كيف تكون الحركة الواحدة على الواو، وحركتين تتحرك بها الواو بحسب الأصل كما يتحرك الساكن قبلها بحسـب الآن. وهل إذا كان مع الإنسان ألف جنيه وسرقها لص، يجوز لـه أن يشتري منزلاً بحسب الأصل، كما يشـتري اللـص بهـا منزلاً بحسب الآن؟ أليس ذلك هو السخف كله؟

هكذا انتقدت طرق مدرسي اللغة العربية وطلبت أن يعنى المدرسون بالمعاني والأسـاليب واسـتعمال الكلمـات فـي مواضعها بدلاً من صرف الوقت فـي شـرح تلـك العلـل

السخيفة. وكان ناظر المعارف في ذلك الوقت المغفـور لـه سعد باشا زغلول، وما كاد يطلع على التقرير حتى سر بـه سرورا عظيما وطبعه ووزعه على مدارس البنـات ومعـه خطاب دوري يقول فيه:

"جاء هذا التقرير من السيدة نبوية موسى (وقد كنا في ذلك الوقت لا نقول آنسة) فنرسله إليكم رجاء اتباعه في مدرستكم" وزع هذا التقرير على جميع مدارس البنات ومـن ضـمنها مدرسة عباس التي كنت موظفة بها. وقد دهشـت النـاظرة وجن جنونها عند اطلاعها عليه. فأحضرتني وقالت: ما هذا؟ لقد كان هؤلاء يدرسون قبل أن تولدي أنت. فكيف تصححين لهم طرقهم؟ قلت: لا غرابة في ذلك يا سيدتي فقد درست أنا بهذه المدرسة في العام الماضي، وكانت نتائجي في التدريس محمودة، وكنت أنتِ راضية عني. وها هو رضاؤكِ في هذا العام قد انقلب سخطًا. أي أنني لما درسـت عامـا جهلـت ما كنت أدرسه في العام الأول فلم أستطع إرضـاءك بقـدر ما أرضيتك في أول تدريسي، إذا قست ذلك علمت أنهم الآن لا يعرفون شيئًا ما دام الإنسان في عام واحد ينقص كل هذا النقص أي يرجع إلى الوراء. فما بالك بهـم، وقـد درسـوا



ما يزيد عن عشرين عاما؟! قالت: هكذا أنتِ لا تصلحين إلا في الفلسفة.

اضطرت الناظرة أن تؤجل الحرب التي بيني وبينها مؤقتًا وتتظاهر بالرضاء عني، ولكنها كانت تسر لي ضد ما كانت تظهر.

صاحبة الجلالة الصحافة
وأثرها علي سابقًا

اضطرت ناظرة مدرسة عباس الأميرية أن تجعل بينـي وبينها هدنة وفي النفس ما فيها، ولكنها ما لبثت أن ثارت إذ ذكر لها المعلمون أني لا أزال أكتب في "مصر الفتـاة" وإن كتابتي ضد الإنجليز. وعلم ا ما كان في كتابتي شيء مـن ذلك، وما كانت إلا نقدا بريئًا علـى أسـاليب التعلـيم فـي المدارس. طلبت منهم إحضار نسخ عديدة من "مصر الفتـاة" التي تحتوي على تلك المقالات ولا أدري كيف استطاعوا أن يحضروا لها ما يربو على الثلاثين مقالاً، وقد أشروا بالمداد الأحمر على كل مقال. واستدعتني حضرة الناظرة فـدخلت عليها وإذا أمامها تلك الأعداد من مجلة "مصر الفتاة"، وقـد طويت طيا يظهر موضع مقالاتي، ثم قالت: لي، وقد أشارت إلى تلك الأعداد: هل تكتبين في هذه الصحيفة؟ قلت: لا حق لكِ يا سيدتي في سؤالي عن هذا، وكل ما لكِ هو أن تفتشـي عن عملي المدرسي، وأن تنتقديه، وقد علمت مما سبق أنـك أنتِ شخصيا لا تستطيعين ذلك، وأن إخواننا المشايخ لا حق

لهم فيه. قالت: ولكن الوزارة تحرم على الموظفين الكتابة في الصحف. قلت: الوزارة هي إذن التي تسألني عن ذلك أمـا أنتِ فلا شأن لكِ فيه.

قالت إذن سأذهب إلى الوزارة وسأريك نتيجـة أعمالـك. قلت: لا بأس.

اختطفت نسخة من النسخ التي كانت أمامها وذهبت بهـا إلى الوزارة. ثم عادت من الوزارة، وقـد هـدأت ثائرتهـا وأصبحت صديقة من جديد. فاسـتدعتني وقالـت لـي فـي ابتسامة: ما الذي كتبته في تلك المقالة التي ذهبت بهـا أنـا اليوم إلى الوزارة؟ قلت: وهل أعرف أنا شيئًا مما تقـولين؟ قالت: لقد أخذت نسخة من هـذه النسـخ – أي مـن نسـخ الصحيفة التي كانت لا تزال مكدسة على مكتبها – وذهبـت بها إلى سعد باشا زغلول وما كاد يقرؤهـا حتـى أشـرقت أسارير وجهه وسر بها سرورا عظيما، وقال: إنه يتمنى لـو أنك أرسلت إليه بتلك المقالات قبل إرسالها إلـى الصـحف ليصححها لكِ. قلت: إذا جننت في القريب العاجـل فسـأفعل ذلك يا سيدتي. فقالت: ما وجه الجنون؟ قلت: وهـل يكـون جنون أكثر من أن معلمة في إحدى المـدارس تنتظـر مـن

وزير المعارف أن يصحح لها ما تكتبه قبـل إرسـاله فـي الصحف؟ قالت: لو كنت مكانك لفعلت ذلك. قلت: ولو كنـت أنا مكانك لما طلبت من معلمتي هذا. قالت: إنك لا تتـركين فلسفتك.

مضى على ذلك يومان وفي اليوم الثالث حضر سـكرتير المغفور له محمد باشا سعيد في عربة الباشا ومعه خطـاب من وزارة المعارف يصرح لي فيه بالتدريس لبنات محمـد باشا سعيد. فعجبت من التصريح وكيف عرفني محمد باشـا سعيد؟ ومن أين؟ أردت أن أتوقف عن الـذهاب فـي تلـك العربة. ولكن الناظرة أصرت على أن أذهـب لأن الـوزارة خاطبتها بالتليفون وأمرتها بإرسالي. فخرجت وأنا مندهشـة فحياني سكرتير محمد باشا سعيد، وكان في ذلك الوقت رئيسا للوزراء وطلب مني أن أركب إلى جانبه لنذهب إلى منـزل الباشا للتدريس لبناته.

قلت: وما السبب في وقوع اختيار الباشا علي؟ قال وقـد أشار إلى نسخة من صحيفة "مصر الفتاة" كانت في يـده: إن الباشا اطلع على هذا المقال، وقال لسعد باشا إنه ما دام فـي مصر معلمات يجدن اللغة العربية إلـى هـذا الحـد فهـو

لا يرضى أن يعلم بناته رجال. وكان في ذلك ولا شك قطـع رزق لرجال دار العلوم أيضا. فقلت له: ولكني لسـت أنـا بكاتبة ذلك المقال، فإذا كان قد وقع الاختيار علي على زعـم أني كاتبته فأرجوك أن تعيدني إلى المدرسة. قال: لسنا بصدد التحقيق معك يا سيدة، وقد جئت بأمر من وزيـر المعـارف لتدرسي لبنات رئيس الوزراء. قلت: على شرط أني لسـت كاتبة هذا المقال. قال: لا بأس فقد قبلنا هذا الشرط.

ثم أخذ يسرد لي الأسباب التي كنت أجهلها فيما وقع بـين الناظرة ووزير المعارف. وتصفحت المقال فرأيت لدهشـتي أنه كان مدحا لسعد باشا زغلول فقد اختارت الناظرة نسخة، وكان المقال الذي بها لحسن الحظ مدحا لسعد باشا زغلـول قلت: فيه إنه مع نبوغ وزير المعارف وعلو كعبه في العلوم وأنه خير مصري لذلك المركز، فهو مع ذلـك لا يسـتطيع إصلاح المدارس لأن المدارس لا تصلح إلا بمن فيها. وهكذا كان في المقال مدح مستطاب للوزير ونقد مر علـى نظـم التعليم خصوصا تعليم اللغة العربية.

أعجب المغفور له سعد باشا زغلول بالمقال طبعـا لأنـه مدح فيه وقال للناظرة بعد أن قرأه: هل أنتِ واثقة أن هذا من

كتابتها؟ قالت: نعم تمام الثقة، قال: بشرك ا بالخير إذا كان في مدارسنا الآن مثل هذه الكاتبة. قالت: ولكن الكتابة في الصحف محرمة على الموظفين. قال: نعم، ولكني لا آخذها بالشك ولا أعاقبها على الكتابة في الصحف إلا إذا جاءني منها إمضاء صريح بأنها هي التي تكتب تلك المقالات. ولهذا جاءت الناظرة تطلب مني أن أكتب بإمضائي للوزير ليصححه، وكنت على حق إذ رفضت ذلك. وقد أعجب سعد باشا زغلول بالمقال فأخذه وذهب به إلى سعيد باشا وأخبره أن كاتبة ذلك المقال هي نبوية موسى إحدى خريجات المدرسة السنية. وسر سعيد باشا لهذا النبأ وطلب أن تدرس تلك الكاتبة لبناته اللغة العربية.

ذهبت إلى منزل المغفور له محمد باشا سعيد فقابلني في غرفة الاستقبال، وكان واقفًا يتأهب للخروج. وبعد أن حياني قال لي أعجبتني آراؤك في المقال الذي أطلعني عليه سعد زغلول باشا. قلت: ولكنه ليس من كتابتي. قال: لقد وقع اختياري عليك مدرسة لبناتي فلا معنى للتنحي، وقد أخبرني سعد باشا أيضا أنك أول معلمة عينت لتدريس اللغة العربية. قلت: ولكن الرجال غير راضين عن تدريسي. قال: لا بأس

أما أنا فإني راض – وقد كنت في ذلك أحاول ألا أدرس في المنازل لأني كنت أعدها سبة. ثم قال: ستعطين بناتي هنا أربعة دروس في الأسبوع، وقد جعلت مرتبك عن هذا سبعة جنيهات. قال ذلك وتركني وخرج دون أن ينتظر مني جوابا. وجاءتني بعد ذلك السيدة حرمه، وهي من فضليات نساء مصر كمالاً واستقامة مع جمال طبيعي فتان. فقدمت لي بناتها وكن ثلاثًا: حضرة صاحبة العصمة زينب هانم والدة حضرة صاحبة الجلالة الملكة فريال، وحضرة صاحبة العصمة ناهد هانم حرم معالي حسين سري باشا، وشقيقتهما الثالثة بديعة هانم، وقد توفيت إلى رحمة ا .

كنت غير راضية عن هذا الدرس لأني كنت أعده سبة، وكنت أخشى أن التلميذة التي أدرس لها في المنزل قد لا تمنحني من الاحترام ما يجب لمعلمة تدرس في المدارس خصوصا وهؤلاء الثلاث بنات أعلى رأس في مصر إذ ذاك، وقد خشيت أن يعتبرني من بعض الحاشية، ولكني وجدت من أدبهن وحسن معاملتهن ما غير رأيي وحببني في التدريس لهن، أدب رائع، ووجوه بريئة مشرقة سطع فيها دم الحياة الطبيعية لا الدم الصناعي فكان النظر إليهن والبقاء معهن

متعة. كان يجب أن أدفع أنا عنها عشرين جنيها شهريا على أقل تقدير لا أن آخذ سبع جنيهات فالصفقة إذن كانت رابحة، وقد أرادت الناظرة أن تضر بي فنقمتني، وهكذا كنت بحسب ما تلوكه الألسن من الإشاعات كالعفريت الذي إذا ضـرب، ولم تصبه أصبح ماردا (كما يقول عامة النـاس خصوصـا الفلاحين منهم).

كانت المدرسة والناظرة نفسها تخشاني بعد هـذا لأنـي اتصلت بوزير المعارف على زعمهم بل وبمن هو أعلى منه.

أما معلمو اللغة العربية فقد زاد سخطهم إذ علموا أنني لـم أحل محلهم في المدارس فحسب بل حللت محلهم في منـازل العظماء من رجال مصر فلا بدع أن سـميت فـي نظـرهم قاطعة الأرزاق. ومن هنا أصبحت أكره البقـاء فـي وزارة المعارف، وقد كنت بغريزتي الطبيعية ميالة إلى العمل الحر، فكنت تجد بين أوراقي وأنا لا أزال طالبة في معلمات السنية رسما بديعيا للمدرسة التي كنت أنوي فتحها على حسابي يوم أتخرج ولهذا كنت حسب تعبير علي ماهر باشا الأخير أحفظ استقالتي في جيبي وأرحب بالظروف التي تدفعني إليها.

نفعني الصدق مرة واحدة في حياتي

تعينت كما قدمت يوم تخرجت من المدرسة السنية معلمة المدرسة عباس بمرتب ٦ جنيهات شهريا، وكنت في ذلك الوقت أتقاضى معاشًا عن المرحوم والدي، ولم يكن يشترط فينا نحن البنات التوظف أو عدمه بل كانت الشهادة التي تصدر إلى الرزنامة كل ٣ شهور يقول فيها كاتبوها إنها لم تتزوج، ولم تمت، ولم تخرج عن دائرة الحكومة المصرية. ومع أني توظفت فقد كانت شروط الشهادة كلها متوفرة في. ولكني ظننت أنه لا يجوز لي أن أستولي على مرتبين من الحكومة في وقت واحد فأخذت سركي معاشي وذهبت إلى الكاتب الذي كنت أستلم منه المعاش وسألته عما إذا كان يجوز لي أخذ هذا المعاش بعد تعييني معلمة في وزارة المعارف واستيلائي على مرتبها، فقال لي: لا يجوز لكِ هذا، ولكنه أظهر العطف علي ورأى أني لو أخفيت هذا لاستطعت أن أتمتع بالمرتبين، فقال لي في شيء من الرأفة والعطف: قدمي إلي خطابا بأنك ستتزوجين وأنا أعطيك مكافأة هي مقدار معاشك مدة ٣ سنوات. قلت: ولكني لا أريد الزواج.

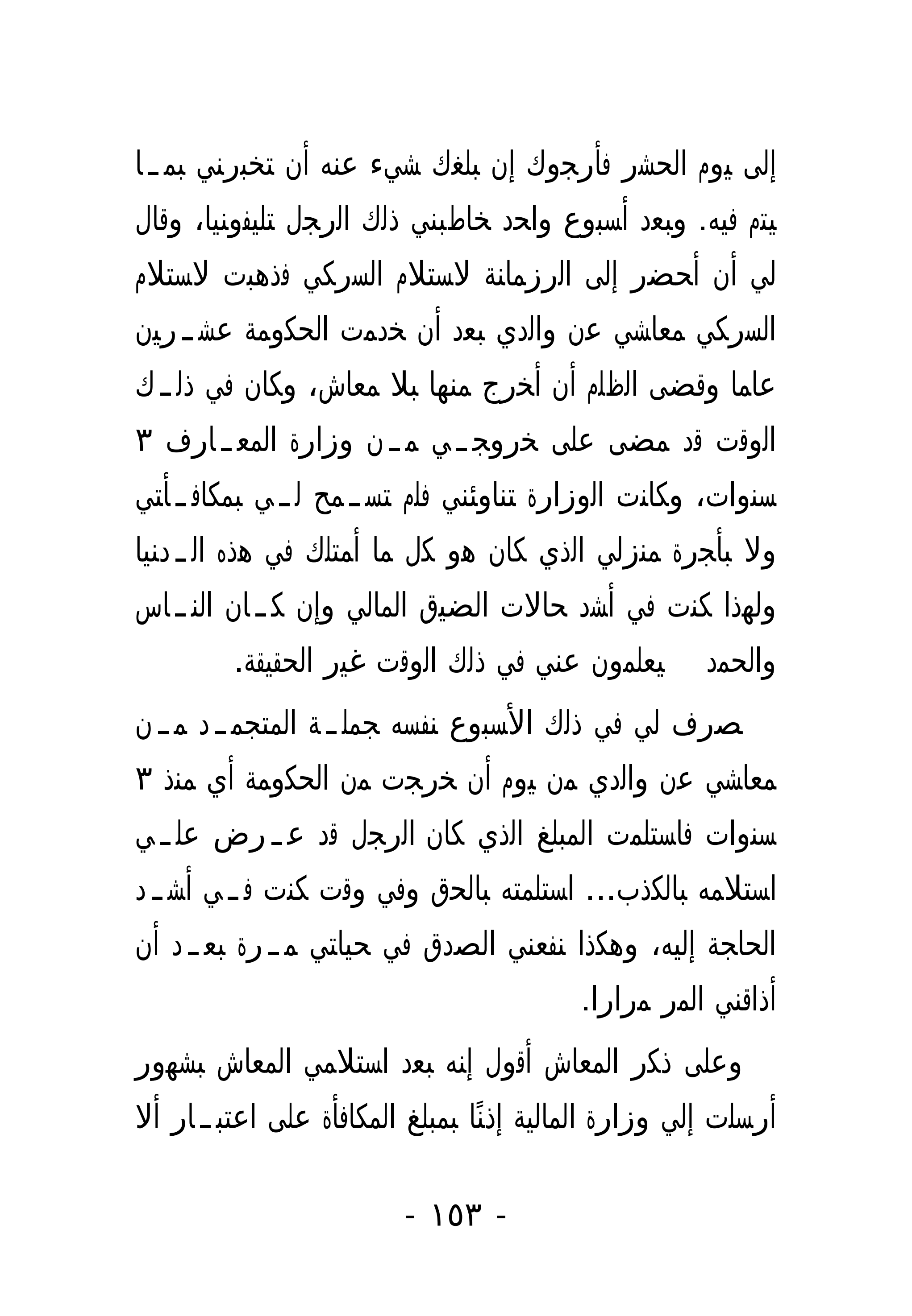
قال: لست آمرك بالزواج، ولكني أقول لك اكتبي لي خطابـا ولدينا أوامر من الحكومة نفسها تحتم ألا نتحرى عن هذا فإذا جاءتني فتاة تسكن بجواري وأخبرتني أنها ستتزوج وأنا أعلم حقيقة العلم كذب ما تقول فإني أصرف لها المكافـأة لأنهـا تصبح بعد ذلك لا حق لها في المعاش فاكتبي هذا الخطـاب اليوم وبعد أسبوعين أسلم لكِ المبلغ. قلت: ولكني لا أستطيع أن أكتب أني سأتزوج لأني لن أتزوج، فاحتد الرجل وأخـذ مني السركي وهو يقول (هي الكلمة حتقرصك؟ إن شـاء ا ما اتزوجتي).

ضاع مني إذن بهذا الصدق الحنبلي مبلغ معاشي لمـدة ٣ سنوات، ولكني لم آسف عليه.

خرجت بعد ذلك من وزارة المعارف كما يشهد التـاريخ وأرادوا نكاية بي أن يحرموني حتى من المعاش فبقيت ثماني سنوات، وبعد أن خرجت بثلاث سنوات جئت الرزمانة أستلم معاش والدتي. وفي دعابة قصصت على كاتـب المعاشـات هناك حكايتي مع ذلك الكاتب القديم أي زميله السـابق يـوم سلمته سركي معاشي وعجب الرجل من تلك الحكاية المدهشة وظن أن بها رتوشًا أو أنها بعيدة عن الحقيقة فقال لـي: إذا

كان هذا صحيحا فإنني أستطيع أن أرد لك معاشك بعد ما لا يزيد عن غمضة عين فاكتبي الطلب الآن. وكان وزير المالية في ذلك الوقت صاحب الرفعة علي باشا ماهر وخشيت أن يقف في الموضوع، فقلت: وهل يعرض هذا على معالي الوزير؟ قال: لا. إن هذا روتين فأنت لم تتزوجي إلى الآن ولست بموظفة، ولا من أرباب المعاشات، فلا بد من رد معاشك. فأطعته وكتبت له الطلب وأنا واقفة أمامه ورجوته أن يتتبع سيره وبعد أسبوع جئت أسأل عن طلبي فقيل لي إنه في مكتب الوكيل، وكان الوكيل في ذلك الوقت المرحوم أحمد باشا عبد الوهاب. وكان يعرف ما بيني وبين رفعة ماهر باشا ويظهر أنه خشى أن يوافق عليه فيلومه الوزير، فكتب على الطلب "موافق ويعرض على معالي الوزير" ولما ذهبت إلى المكتب أستعلم عن سير طلبي قيل لي أن أسال عنه في مكتب معالي الوزير، قلت: إذن أرسل إلى هناك؟ قالوا: نعم..

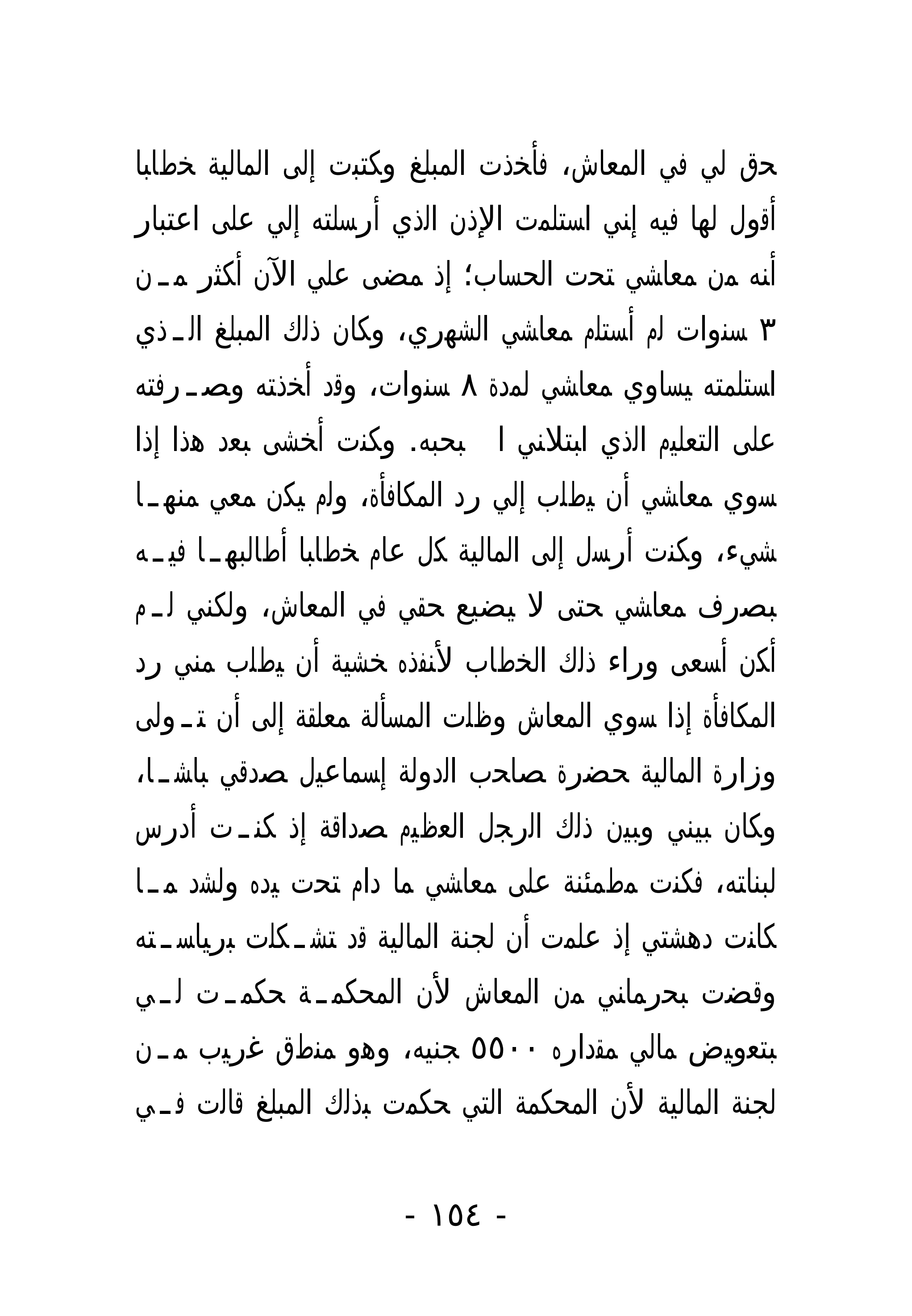
قلت: لا أخرجه ا من ذلك المكتب بتاتًا، ثم ذهبت إلى صاحبي الكاتب الذي أمرني بتقديم الطلب وقلت له: إن الطلب قد أرسل إلى مكتب معالي الوزير ولا أظنه خارجا

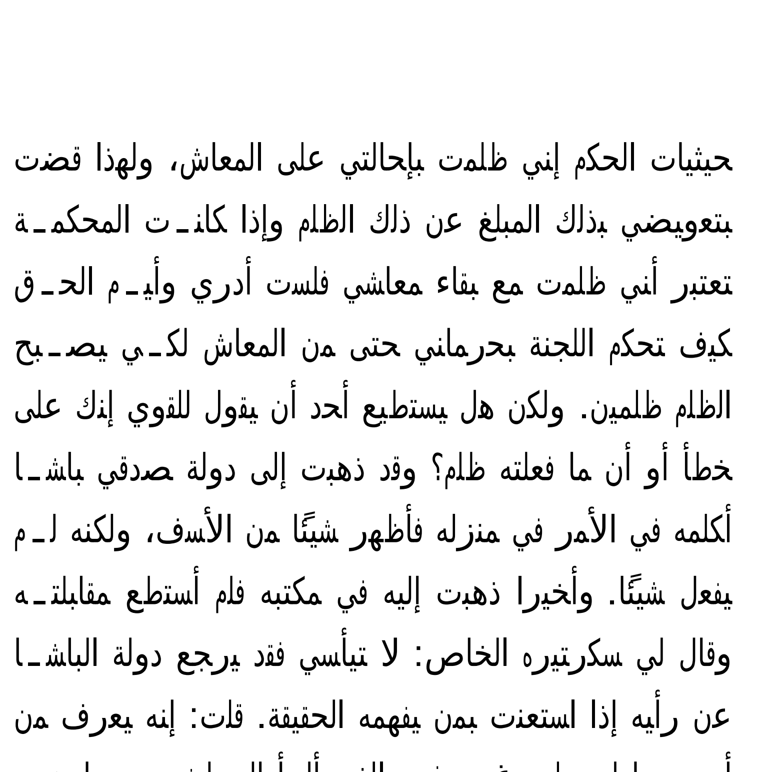


إلى يوم الحشر فأرجوك إن بلغك شيء عنه أن تخبرني بمـا يتم فيه. وبعد أسبوع واحد خاطبني ذلك الرجل تليفونيا، وقال لي أن أحضر إلى الرزمانة لاستلام السركي فذهبت لاستلام السركي معاشي عن والدي بعد أن خدمت الحكومة عشـرين عاما وقضى الظلم أن أخرج منها بلا معاش، وكان في ذلـك الوقت قد مضى على خروجـي مـن وزارة المعـارف ٣ سنوات، وكانت الوزارة تناوئني فلم تسـمح لـي بمكافـأتي ولا بأجرة منزلي الذي كان هو كل ما أمتلك في هذه الـدنيا ولهذا كنت في أشد حالات الضيق المالي وإن كـان النـاس والحمد يعلمون عني في ذلك الوقت غير الحقيقة.

صرف لي في ذلك الأسبوع نفسه جملـة المتجمـد مـن معاشي عن والدي من يوم أن خرجت من الحكومة أي منذ ٣ سنوات فاستلمت المبلغ الذي كان الرجل قد عـرض علـي استلامه بالكذب... استلمته بالحق وفي وقت كنت فـي أشـد الحاجة إليه، وهكذا نفعني الصدق في حياتي مـرة بعـد أن أذاقني المر مرارا.

وعلى ذكر المعاش أقول إنه بعد استلامي المعاش بشهور أرسلت إلي وزارة المالية إذنًا بمبلغ المكافأة على اعتبـار ألا

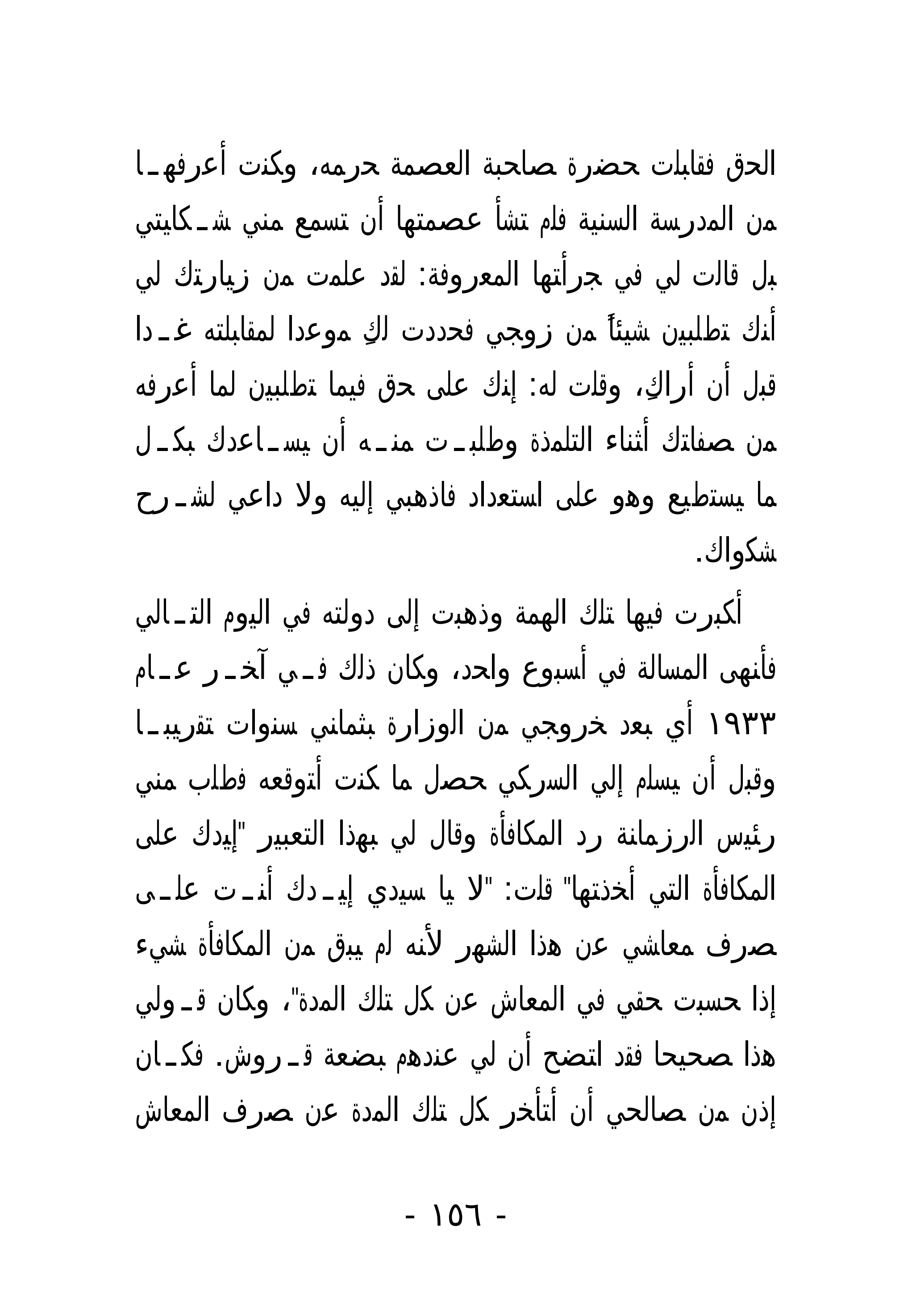

حق لي في المعاش، فأخذت المبلغ وكتبت إلى المالية خطابا أقول لها فيه إنني استلمت الإذن الذي أرسلته إلي على اعتبار أنه من معاشي تحت الحساب؛ إذ مضى علي الآن أكثر مـن ٣ سنوات لم أستلم معاشي الشهري، وكان ذلك المبلغ الـذي استلمته يساوي معاشي لمدة ٨ سنوات، وقد أخذته وصـرفته على التعليم الذي ابتلاني ا بحبه. وكنت أخشى بعد هذا إذا سوي معاشي أن يطلب إلي رد المكافأة، ولم يكن معي منهـا شيء، وكنت أرسل إلى المالية كل عام خطابا أطالبهـا فيـه بصرف معاشي حتى لا يضيع حقي في المعاش، ولكني لـم أكن أسعى وراء ذلك الخطاب لأنفذه خشية أن يطلب مني رد المكافأة إذا سوي المعاش وظلت المسألة معلقة إلى أن تـولى وزارة المالية حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشـا، وكان بيني وبين ذلك الرجل العظيم صداقة إذ كنـت أدرس لبناته، فكنت مطمئنة على معاشي ما دام تحت يده ولشد مـا كانت دهشتي إذ علمت أن لجنة المالية قد تشـكلت بریاسـته وقضت بحرماني من المعاش لأن المحكمـة حكمـت لـي بتعويض مالي مقداره ٥٥٠٠ جنيه، وهو منطق غريب مـن لجنة المالية لأن المحكمة التي حكمت بذلك المبلغ قالت فـي



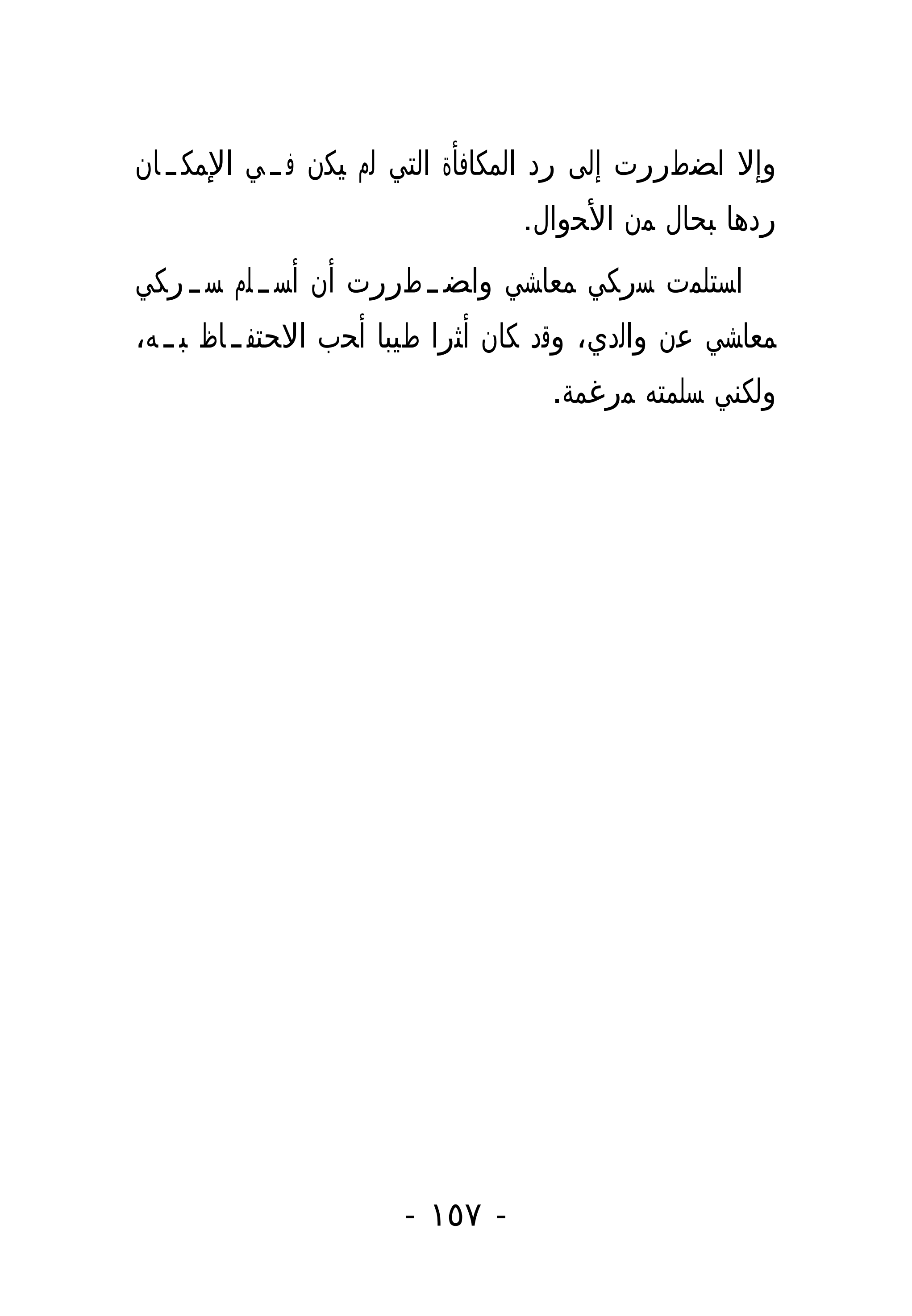
حيثيات الحكم إني ظلمت بإحالتي على المعاش، ولهذا قضت بتعويضي بذلك المبلغ عن ذلك الظلم وإذا كانـت المحكمـة تعتبر أني ظلمت مع بقاء معاشي فلست أدري وأيـم الحـق كيف تحكم اللجنة بحرماني حتى من المعاش لكـي يصـبح الظلم ظلمين. ولكن هل يستطيع أحد أن يقول للقوي إنك على خطأ أو أن ما فعلته ظلم؟ وقد ذهبت إلى دولة صدقي باشـا أكلمه في الأمر في منزله فأظهر شيئًا من الأسف، ولكنه لـم يفعل شيئًا. وأخيرا ذهبت إليه في مكتبه فلم أستطع مقابلتـه وقال لي سكرتيره الخاص: لا تيأسي فقد يرجع دولة الباشـا عن رأيه إذا استعنت بمن يفهمه الحقيقة. قلت: إنه يعرف من أمري ما لم يعلمه غيره فمن الذي ألجأ إليه ليفهمه مـا هـو فاهم؟

نعم إن صدقي باشا قد حدد عمر وزارته بعشر سـنوات، ولكن من يعلم ماذا يأتي به الغيب؟ وإذا ظل في الحكم عشر سنوات كما يظن فسأتحملها وسأطالب بحقي بعد ذلك.

وشاء ا   أن يخرج صدقي باشا من الحكم مباشـرة، وأن يتولى وزارة المالية بعده حضرة صـاحب الدولـة حسـن صبري باشا والرجل كما يعلم الناس جميعا شديد صلب فـي


الحق فقابلت حضرة صاحبة العصمة حرمه، وكنت أعرفهـا من المدرسة السنية فلم تشأ عصمتها أن تسمع مني شـكايتي بل قالت لي في جرأتها المعروفة: لقد علمت من زيارتك لي أنك تطلبين شيئاً من زوجي فحددت الكِ موعدا لمقابلته غـدا قبل أن أراكِ، وقلت له: إنك على حق فيما تطلبين لما أعرفه من صفاتك أثناء التلمذة وطلبـت منـه أن يسـاعدك بكـل ما يستطيع وهو على استعداد فاذهبي إليه ولا داعي لشـرح شكواك.

أكبرت فيها تلك الهمة وذهبت إلى دولته في اليوم التـالي فأنهى المسالة في أسبوع واحد، وكان ذلك فـي آخـر عـام ١٩٣٣ أي بعد خروجي من الوزارة بثماني سنوات تقريبـا وقبل أن يسلم إلي السركي حصل ما كنت أتوقعه فطلب مني رئيس الرزمانة رد المكافأة وقال لي بهذا التعبير "إيدك على المكافأة التي أخذتها" قلت: "لا يا سيدي إيـدك أنـت علـى صرف معاشي عن هذا الشهر لأنه لم يبق من المكافأة شيء إذا حسبت حقي في المعاش عن كل تلك المدة"، وكان قـولي هذا صحيحا فقد اتضح أن لي عندهم بضعة قـروش. فكـان إذن من صالحي أن أتأخر كل تلك المدة عن صرف المعاش



وإلا اضطررت إلى رد المكافأة التي لم يكن فـي الإمكـان ردها بحال من الأحوال.

استلمت سركي معاشي واضـطررت أن أسـلم سـركي معاشي عن والدي، وقد كان أثرا طيبا أحب الاحتفـاظ بـه، ولكني سلمته مرغمة.

عزة النفس تقضي علي دائما

كنت من صغر سني ضعيفة النظر ولولا قلة المتعلمات في ذلك الوقت لما تمكنت من دخول المدرسة السنية ولا صرح لي بأن أكون معلمة لأن كتب التربية تقضى بأن يكون المعلم حسب وصفهم ملء المسامع والأفواه والمقل. أي أن يكون عظيما في شكله، حاد الحواس، حتى يستطيع أن يضبط نظام التلاميذ. وقد كنت أنا على العكس من ذلك قصيرة القامة، نحيلة الجسم، ضعيفة البصر وإن كان منظر عيني لم يكن يدل على شيء من ذلك الضعف، بل كان من يراهما يحسبهما من أحسن العيون.

على أن التجارب العملية أثبتت كذب ما يذهب إليه علماء التربية. فقد كنت على صغر حجمي، وضعف بصري، أستطيع حفظ النظام إلى حد بعيد، لا ينافسني فيه معلم آخر. وهكذا نحمد ا على قلة المتعلمين والمتعلمات في ذلك العهد. ولولا تلك القلة لما استطعت أنا أن أعمل في معاهد التعليم شيئًا.

نجحت في دبلوم معلمات السنية وعملت كما قدمت معلمة، وبعد مضي سنتين أرادت الوزارة تثبيتي، فأحـالتني علـى الكشف الطبي، وكان القائم بذلك الدكتور فيشر فدهش عندما رأى ضعف نظري، وحتم علي أن ألبس النظارات، وكانـت بالطبع النظارات ثقيلة جدا. وقد تألمت في أول لبسها لثقلها، وكان قد أمرني أن أعود إليه بعد أن ألبسها أسبوعا. فعـدت وقلت له: إنني لا أستطيع الاستمرار على لبس تلك النظارات الثقيلة. فنظر إلي وكأنه أنف أن يرد علي الجواب. ثم التفت إلى مساعده وقال له: فهم هذه أنه يجب عليهـا لـبس تلـك النظارة، وساءني احتقاره، فتألمت ونظـرت إلـى مسـاعده قائلة: دع صاحبك هذا يفهم أنني لن ألبسها. وكان المساعد لم يبدأ كلامه، ثم ألقيت بالنظارات أمامهما وخرجت مسرعة.

وكتب الدكتور فيشر بعد ذلك تقريره فقال فيه إنني سـأفقد الإبصار بعد سنتين على الأكثر، وإن عيوني لا تتحمل قراءة ثلاثة كتب وإنه لا يوصي مطلقًا بتثبيتي. وبلغني هذا فكتبـت للوزارة أقول إنني لا أستطيع العمل في الحكومـة إلا مثبتـة وإنهم إذا لم يثبتوني وجب عليهم أن يعتبروا خطـابي هـذا استقالة. وقامت الوزارة وقعدت لذلك النبأ إذ لـم يكـن قـد

توظف في خدمة الحكومة من معلمـات السـنية إلا خمـس معلمات قبل تخرجي وثلاث زميلاتي. وكانت الوزارة فـي حاجة شديدة إلى معلمات لكثرة المعلمين وقلة المعلمات.

فأكثرت الوزارة من إرسال المفتشين للتفتيش علي والتبين من كفاءتي العلمية ومقدرتي على حسن النظام. وقد أثبتـت تقاريرهم أنني أحسن المعلمات نظاما وتدريسا، وقد مللت من كثرة المفتشين، وقضت علي عزة النفس أن أباشر التـدريس واقفة، لا أجلس مطلقًا حتى لا أضطر إلـى القيـام إجـلالاً لدخول مفتش على كثرة هؤلاء المفتشين. وأخيـرا زارنـي مستر دانلوب مستشار وزارة المعارف بنفسـه، ولـم أكـن أعرفه شخصيا، وكنت قد تضـايقت مـن كثـرة المفتشـين وعولت على ألا أعبأ بأحد منهم.

فلما دخل علي مستر دانلوب وناظرة المدرسـة، وكنـت بالطبع واقفة أدرس أمرت التلميذات بالوقوف، ثم بـالجلوس وسرت في درسي دون أن ألتفت إليه. وتناول هـو كراسـة التحضير، وكان بها جملة من الأوراق الصـغيرة إذ كنـت أؤلف كتابا للمطالعة. وقد تركت أصول ذلك الكتاب في دفتر التحضـير فتنـاثرت الأوراق علـى الأرض تحـت أقـدام

الطالبات. ومال هو لالتقاطها وأرادت بعـض التلميـذات أن تساعده في ذلك فأمرتهن بالكف عن هـذا، والالتفـات إلـى الدرس وتركته يلتقط الأوراق بنفسه وسرت في درسي دون أن تلتفت إليه التلميذات، فأعجبته قوة روحي في حفظ النظام والتقط جميع الأوراق بنفسه ووضعها في الكراسة كما كانت، ثم وضعها على منضدة المدرس.

كل ذلك وأنا لم ألتفت إليه، ولم أحسب حسـابا لوجـوده. وكانت السنة التي أدرس فيها الرابعة الابتدائية، وكنت أقـرأ معهن قطعة إملاء أمليتها علـيهن أمـس، وأخـذت منهـا موضوعا للمطالعة، وكانت إحدى التلميذات متغيبة في درس الإملاء أمس، ولم يكن أمامها كراسة بل كانت تسـتمع لمـا يقال. وظن مستر دانلوب أني لم أرها فقال لي: ألا ترين في فصلك هذا مخالفة لنظام التدريس. فقلت: أتقصد هذه التلميـذة الجالسة في آخر الحجرة التي ليس أمامها كراسـة؟ وكـان الرجل يظن أني لضعف نظري لا أرى ذلك. فدهش وقـال: نعم.

قلت: إننا نطالع في كراسة الإملاء التـي أمليتهـا أمـس عليهن، وقد كانت تلك التلميذة متغيبة فالإملاء ليست مكتوبة

في كراستها، ولهذا لم آمرها بإخراجها. قال: أو لـيس مـن حسن النظام الظاهري أن تخرج تلك التلميذة كراستها وإن لم يكن الإملاء مكتوبا فيها؟

قلت: كلا أنا لا يهمني الظاهر وإنما يهمني النظام الحقيقي وفائدة التلميذات، فإن تلك التلميذة لو أخرجت كراسـة لـيس فيها الإملاء ونظرت إليها لشغلها ذلك عن تفهم درسنا اليـوم إذ هي تنظر إلى غير ما نقرأ نحن فيه. أما إذا جلست بدون كراسة فإنها مضطرة أن تصغي إلى ما يقرأ. قال: صـدقت. ثم قال: وما درسك اليوم؟ قلت: مطالعة. قـال: إن الـوزارة قررت أن تطالعي في كتاب الفوائد الفكرية من صفحة كـذا إلى صفحة كذا وأنت اليوم تخـالفين هـذا وتطـالعين مـع تلميذاتك في شيء لم تقرره الوزارة. قلت: لقد فهمت من هذا القرار الذي قررته الوزارة أنها تريد أن تحـدد لـي كميـة ما يجب أن تقرأه التلميذات لا أن تضطرني إلى قراءة كتاب لا يفسد ذوق التلميذات في اللغة العربية فحسب بـل يفسـد ذوقي أنا الأخرى. فنظر إلي وقال: ومن أيـن أتيـت بتلـك الإملاء؟ قلت: لقد وضعتها أنا خصيصا لأني في صدد تأليف كتاب مطالعة لهن. فأنا أملي عليهن أصول كتابي. قال: وهل

أنت واثقة من أنك لم تخطئي في تلك الأصول؟ قلـت: لقـد عينتني الوزارة هنا لأدرس اللغة العربية ومعنى هـذا أنـي أعلم الطالبات المطالعة والإنشاء فإن كنت أنا نفسي لا أحسن ذلك كان الخطأ واقعا على الوزارة التي عينتني لأنها عينـت معلمة تجهل اللغة لتدرس تلك اللغة. أما أنا فإني أقوم بواجبي كمعلمة تعرف تلك اللغة فإذا اتضح للوزارة غير ذلك كـان لها أن تفصلني.

قال: ترجمي لي تلك القطعة. فترجمتها وسر منهـا، ثـم قال: ومن أين جئت بتلك الأفكار؟ قلت: لقد قـرأت كثيـرا، ولكني لا أذكر بالذات أني نقلتها من كتاب خاص. قال: إذن كل ما تملينه علي الطالبات وكل ما تطالعينـه معهـن مـن إنشائك؟ قلت: نعم. قال: ولم لا تقرئين فـي كتـاب الفوائـد الفكرية؟ قلت: لأنه لا يعجبني. قال: وهل أنت أفضـل مـن عبد ا باشا فكري؟

قلت: كلا، ولكنه مات ولو بقي إلى الآن لغير كتابه حسب تغير الزمان، فأنا أفضل منه من تلك الوجهة إذ أنـا لا أزال باقية أعرف تغيرات الدهر، وقد مضى هو، هذا فضلاً عـن أنه رجل قد لا يعرف ما تحتاج إليه السيدات، أما أنـا ففتـاة

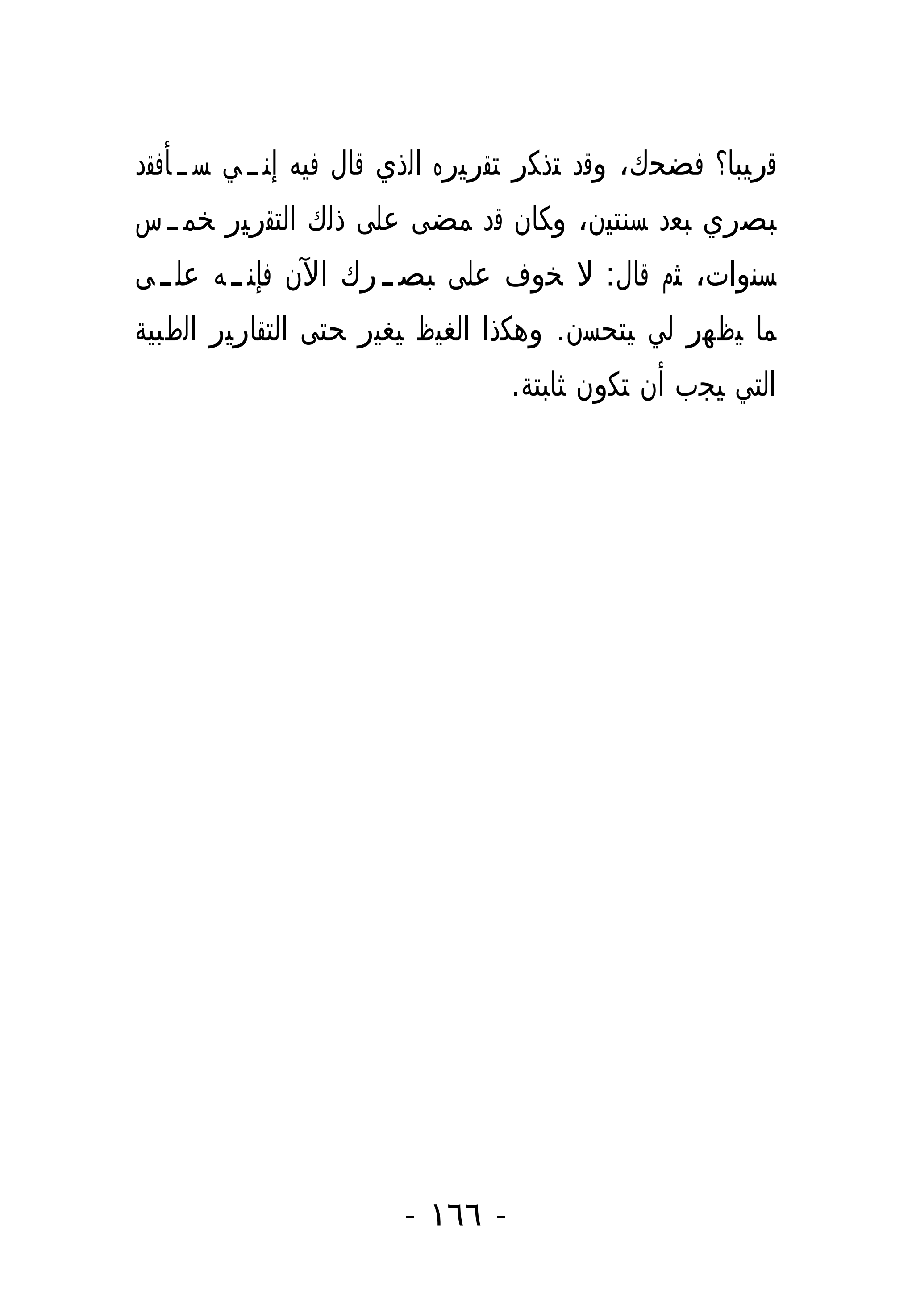
أعرف ما تحتاج إليه الفتيات، خصوصا وأنـي أعاصـرهن الآن. قال: ألا تجدين صعوبة في التدريس لضعف بصـرك؟ قلت: لا أجد من ذلك شيئًا لأني كما ترى أستطيع أن أطـالع كما أستطيع أن أرى آخر تلميذة في الفصل ولا يطلب مـن المعلمة إصابة المرمى الدقيق كمـا يطلـب مـن الضـابط والعساكر. قال: صدقت، ولكنك تجيدين حفظ النظـام إلـى درجة بعيدة. فكيف تجيدين هذا مع ضعف نظرك؟ قلت: إنني أحفظ النظام بمخي لا ببصري. ويكفي أن ترى مني الطالبات عينين سليمتين إذا رفعتهما في طالبة ارتعدت وظنـت أنـي لا أرى وجهها فقط بل أرى دخيلة نفسها وهذا على ما أظـن كاف في حفظ النظام. قال: صدقت.

ثم التفت إلى الناظرة وقال: الحق أني لم أنـاقش معلمـة ولا معلما في منطق هذه المعلمة. قالت: صدقت يـا مسـتر دانلوب فهي دائما قوية المحـاورة. وهنـا عرفـت أنـا أن مخاطبي الذي كلمته بجفاء هو القابض على زمام الأمور في وزارة المعارف، وكدت أرتجف لولا رباطة جـأش ربيـت عليها، وذهب مستر دانلوب بعد ذلك إلـى وزارة المعـارف وقال: لو قيل لي إن نبوية موسى عميـاء لا تـرى ضـوءا

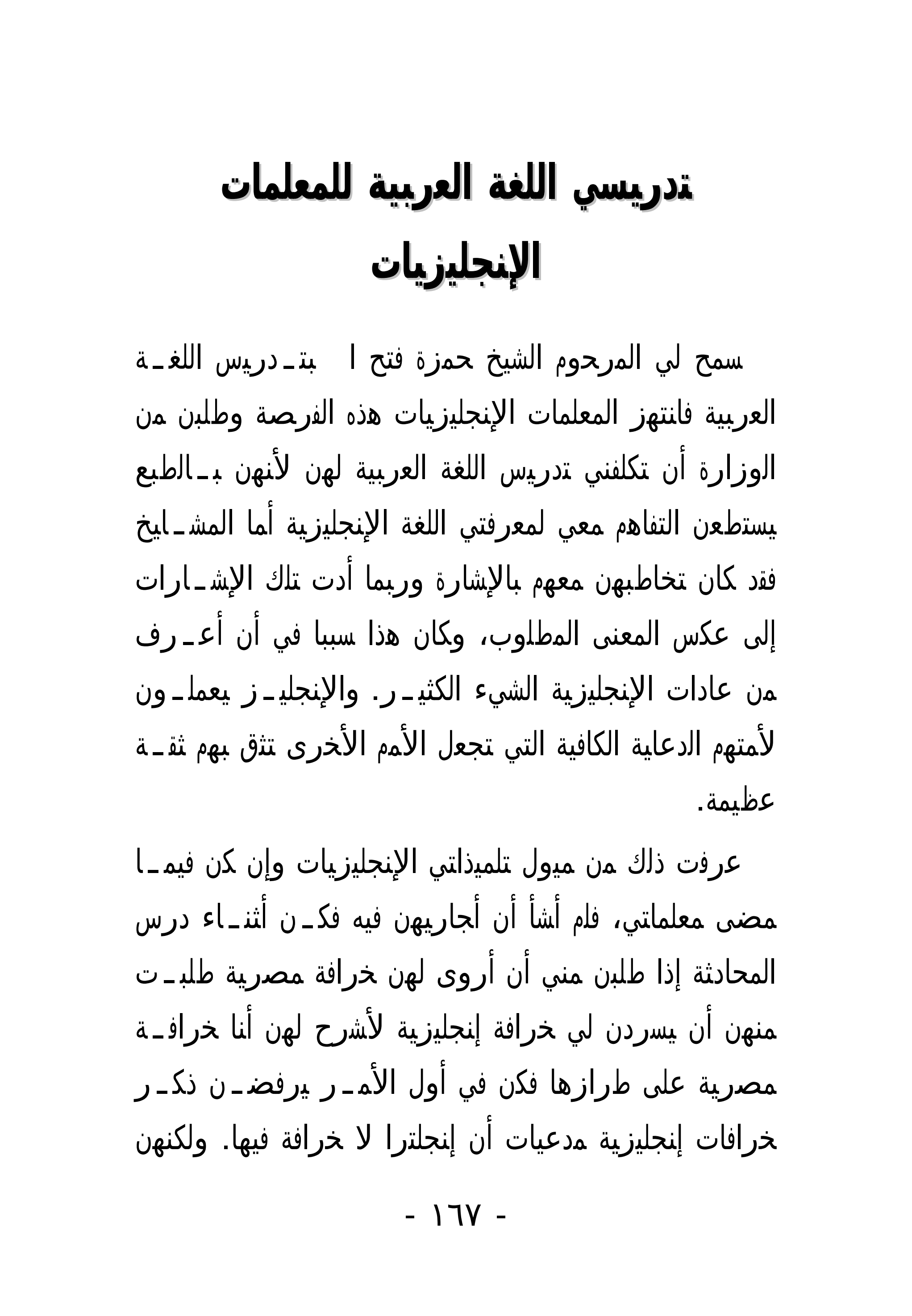
لثبتها. ثم أراد بعد هذا أن يغير من تقرير الدكتور فيشر الذي تركت له نظاراتي بعد أن دفعت فيها ثلاث جنيهات فطلب من مسز الجود أن تكون الوسيطة بيني وبين الدكتور فيشر لتعديل تقريره وجاءتني مسز الجود وقالت أريد أن تذهبي مرة أخرى إلى الدكتور فيشر. فقلت: لست بفاعلة ولو أدى ذلك إلى فصلي. قالت: ولكني لم أسئ إليك وأنا صديقتك وسأذهب معك وأمنعه من أن يكلمك. قلت: إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.

ذهبنا إلى الدكتور فيشر فأخذ يلاطفني ويقول لي يظهر أن الوزارة ليس عندها غيرك وما دام الأمر كذلك فنحن نقبل نظرك على العين والرأس، ثم أصلح من تقريره وكتب تقريرا مناسبا. وثبت بقرار من مجلس الوزراء.

وعلى ذكر الدكتور فيشر أقول إنني في سنة ١٩١٤ أي بعد أن مضت على تلك الحادثة خمس سنوات أردت أن آخذ رأيه في مسألة بصري فذهبت إليه في عيادته كإحدى المريضات فلما نظر إلي، وكان هو الذي يكتب في دفتره أسماء المرضى رأيته يكتب اسمي دون أن يسألني فعرفت أنه لا يزال يذكرني، فقلت له: ما رأيك؟ هل سأفقد البصر



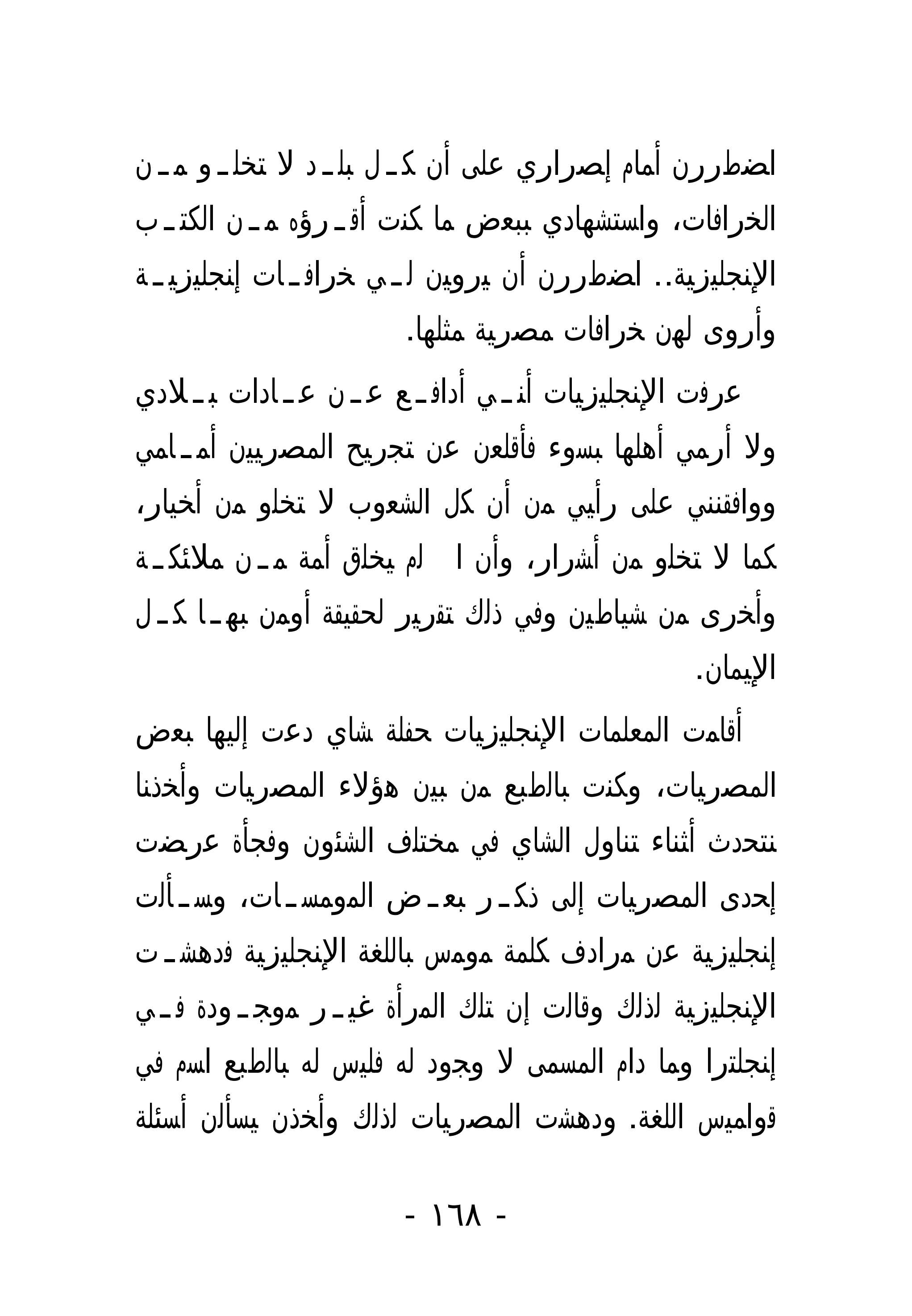
قريبا؟ فضحك، وقد تذكر تقريره الذي قال فيه إنـي سـأفقد بصري بعد سنتين، وكان قد مضى على ذلك التقرير خمـس سنوات، ثم قال: لا خوف على بصـرك الآن فإنـه علـى ما يظهر لي يتحسن. وهكذا الغيظ يغير حتى التقارير الطبية التي يجب أن تكون ثابتة.



تدريسي اللغة العربية للمعلمات الإنجليزيات

سمح لي المرحوم الشيخ حمزة فتح ا بتدريس اللغة العربية فانتهز المعلمات الإنجليزيات هذه الفرصة وطلبن من الوزارة أن تكلفني تدريس اللغة العربية لهن لأنهن بالطبع يستطعن التفاهم معي لمعرفتي اللغة الإنجليزية أما المشايخ فقد كان تخاطبهن معهم بالإشارة وربما أدت تلك الإشارات إلى عكس المعنى المطلوب، وكان هذا سببا في أن أعرف من عادات الإنجليزية الشيء الكثير. والإنجليز يعملون لأمتهم الدعاية الكافية التي تجعل الأمم الأخرى تثق بهم ثقة عظيمة.

عرفت ذلك من ميول تلميذاتي الإنجليزيات وإن كن فيما مضى معلماتي، فلم أشأ أن أجاريهن فيه فكن أثناء درس المحادثة إذا طلبن مني أن أروى لهن خرافة مصرية طلبت منهن أن يسردن لي خرافة إنجليزية لأشرح لهن أنا خرافة مصرية على طرازها فكن في أول الأمر يرفضن ذكر خرافات إنجليزية مدعيات أن إنجلترا لا خرافة فيها. ولكنهن

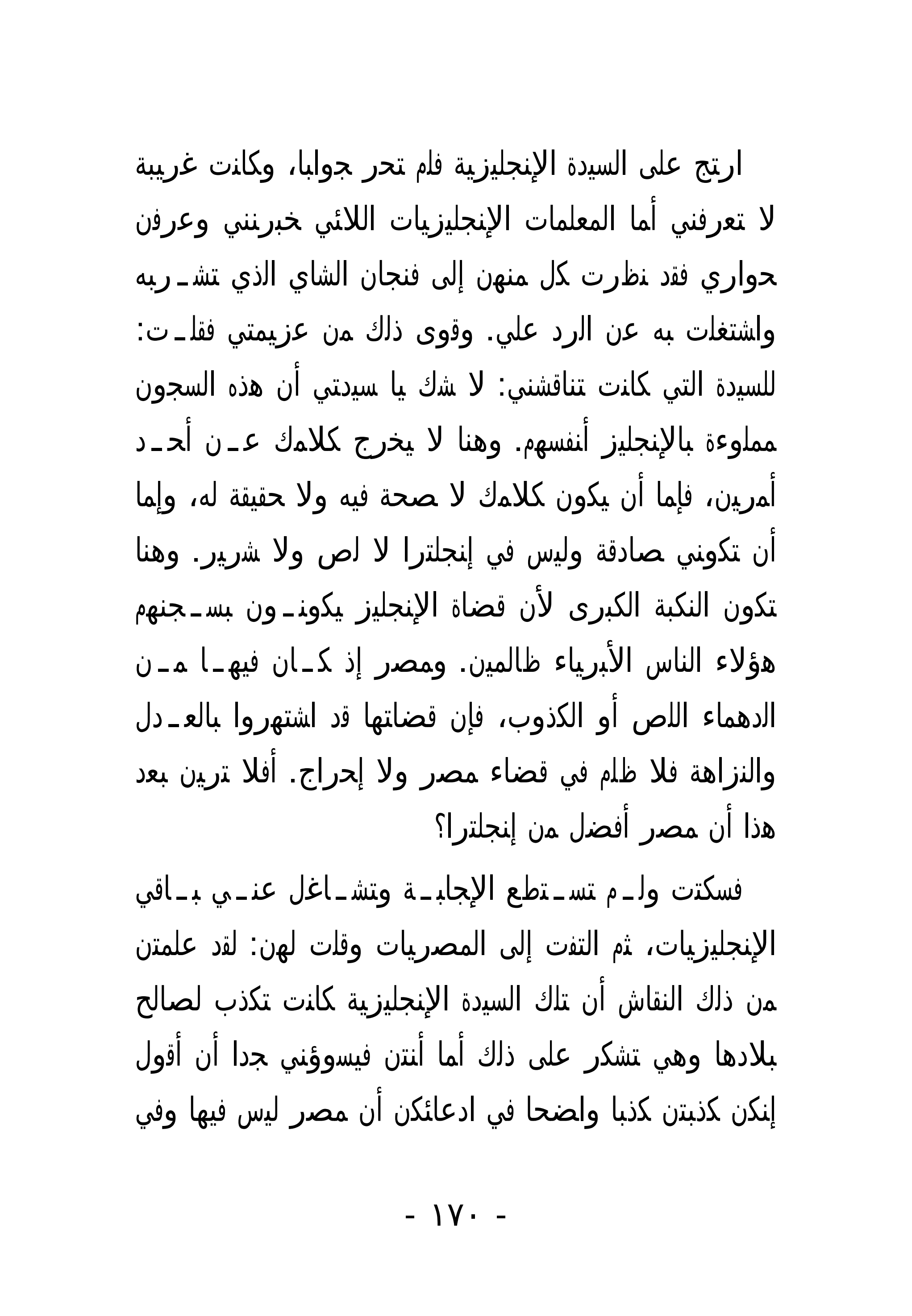


اضطررن أمام إصراري على أن كل بلد لا تخلو من الخرافات، واستشهادي ببعض ما كنت أقرؤه من الكتب الإنجليزية.. اضطررن أن يروين لي خرافات إنجليزية وأروى لهن خرافات مصرية مثلها.

عرفت الإنجليزيات أني أدافع عن عادات بلادي ولا أرمي أهلها بسوء فأقلعن عن تجريح المصريين أمامي ووافقنني على رأيي من أن كل الشعوب لا تخلو من أخيار، كما لا تخلو من أشرار، وأن ا لم يخلق أمة من ملائكة وأخرى من شياطين وفي ذلك تقرير لحقيقة أومن بها كل الإيمان.

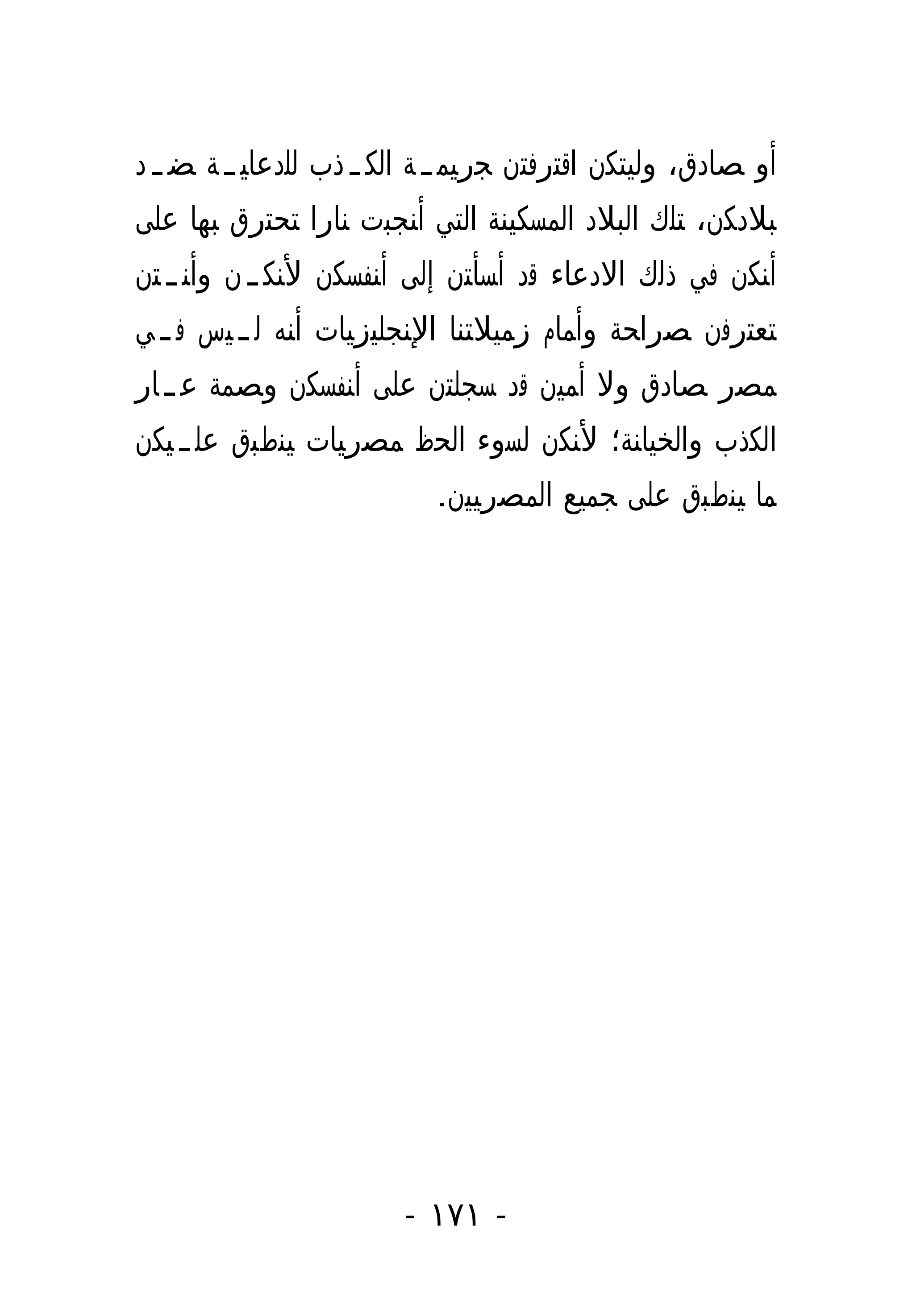
أقامت المعلمات الإنجليزيات حفلة شاي دعت إليها بعض المصريات، وكنت بالطبع من بين هؤلاء المصريات وأخذنا نتحدث أثناء تناول الشاي في مختلف الشئون وفجأة عرضت إحدى المصريات إلى ذكر بعض المومسات، وسألت إنجليزية عن مرادف كلمة مومس باللغة الإنجليزية فدهشت الإنجليزية لذلك وقالت إن تلك المرأة غير موجودة في إنجلترا وما دام المسمى لا وجود له فليس له بالطبع اسم في قواميس اللغة. ودهشت المصريات لذلك وأخذن يسألن أسئلة

مختلفة عن الحالة في إنجلترا وانبرت إنجليزية غيور علـى بلادها تصف لهن إنجلترا بأنها بلاد الخير والعلـم ولا أثـر للشر فيها، واندفعت في ذلك اندفاعا نسـيت معـه الحقيقـة فأخذت تزعم أنه ليس في إنجلترا كذوب ولا غشاش ولا لص ولا محتال. وأخذت المصريات تقول إن مصر ليس فيها من يصدق أو من يفي بوعده وإن كل المصريين خونـة لا أثـر للفضيلة فيهم، وساءتني تلك الدعاية الكاذبة التي تقـوم بهـا زميلاتي ضد بلادهن، ولكني سكت إلى أن هدأت العاصـفة، ثم التفت إلى تلك الإنجليزية المتحمسة وسألتها ببساطة: هـل في إنجلترا محاكم وسجون؟ فدهشت وقالـت: إنـه لسـؤال عجيب ويظهر أنها ظنت في الغباء فقلـت لهـا: لا عجـب يا سيدتي من سؤالي هذا فإني لم أتشرف بزيـارة إنجلتـرا قالت: لا بأس وأخذت تصف لي سـجون لنـدن واتسـاعها وتنسيق غرفها وهنا أظهرت الدهشة، وقلت في شـيء مـن السخرية: وهل بنيت هذه السجون يا سيدتي لتكـون مـأوى المصريين عند ذهابهم لتمضية الصيف في إنجلتـرا مـا دام ليس في الإنجليز كذاب ولا غشاش ولا قاتل ولا شرير؟

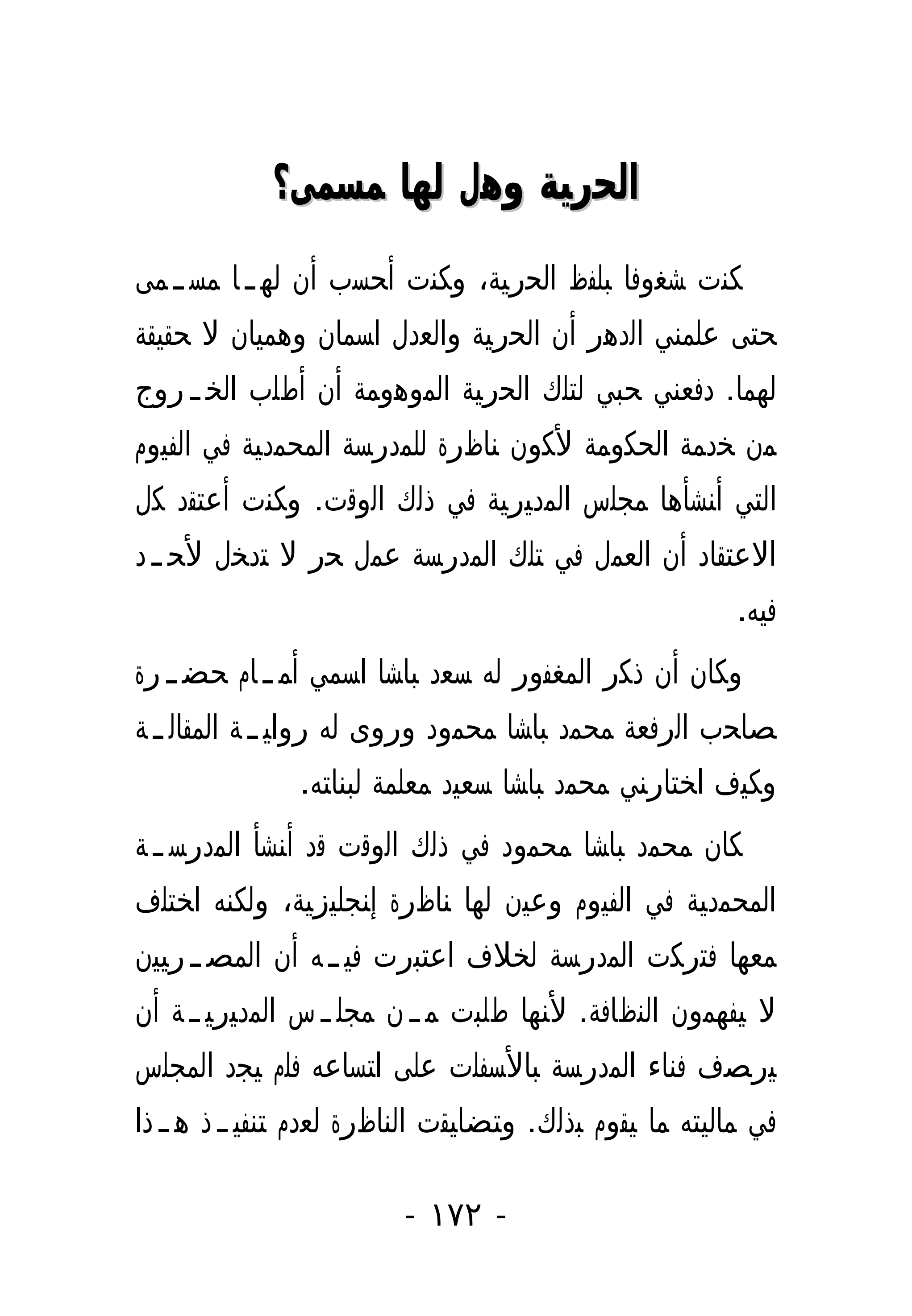


ارتج على السيدة الإنجليزية فلم تحر جوابا، وكانت غريبة لا تعرفني أما المعلمات الإنجليزيات اللائي خبرنني وعرفن حواري فقد نظرت كل منهن إلى فنجان الشاي الذي تشـربه واشتغلت به عن الرد علي. وقوى ذلك من عزيمتي فقلـت: للسيدة التي كانت تناقشني: لا شك يا سيدتي أن هذه السجون مملوءة بالإنجليز أنفسهم. وهنا لا يخرج كلامك عـن أحـد أمرين، فإما أن يكون كلامك لا صحة فيه ولا حقيقة له، وإما أن تكوني صادقة وليس في إنجلترا لا لص ولا شرير. وهنا تكون النكبة الكبرى لأن قضاة الإنجليز يكونـون بسـجنهم هؤلاء الناس الأبرياء ظالمين. ومصر إذ كـان فيهـا مـن الدهماء اللص أو الكذوب، فإن قضاتها قد اشتهروا بالعـدل والنزاهة فلا ظلم في قضاء مصر ولا إحراج. أفلا ترين بعد هذا أن مصر أفضل من إنجلترا؟

فسكتت ولـم تسـتطع الإجابـة وتشـاغل عنـي بـاقي الإنجليزيات، ثم التفت إلى المصريات وقلت لهن: لقد علمتن من ذلك النقاش أن تلك السيدة الإنجليزية كانت تكذب لصالح بلادها وهي تشكر على ذلك أما أنتن فيسوؤني جدا أن أقول إنكن كذبتن كذبا واضحا في ادعائكن أن مصر ليس فيها وفي



أو صادق، وليتكن اقترفتن جريمـة الكـذب للدعايـة ضـد بلادكن، تلك البلاد المسكينة التي أنجبت نارا تحترق بها على أنكن في ذلك الادعاء قد أسأتن إلى أنفسكن لأنكـن وأنـتن تعترفن صراحة وأمام زميلاتنا الإنجليزيات أنه لـيس فـي مصر صادق ولا أمين قد سجلتن على أنفسكن وصمة عـار الكذب والخيانة؛ لأنكن لسوء الحظ مصريات ينطبق علـيكن ما ينطبق على جميع المصريين.

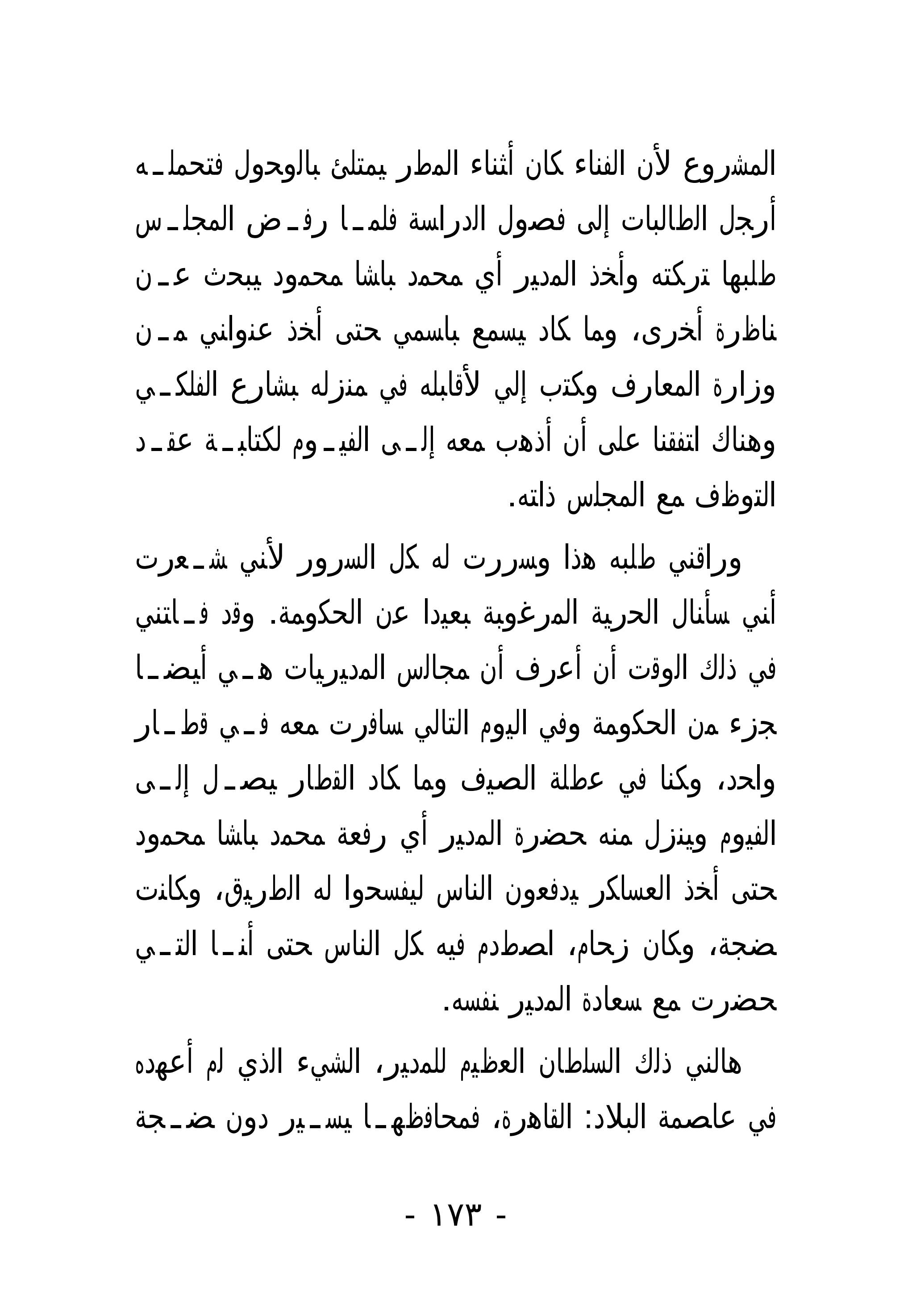


الحرية وهل لها مسمى؟

كنت شغوفا بلفظ الحرية، وكنت أحسب أن لهـا مسـمى حتى علمني الدهر أن الحرية والعدل اسمان وهميان لا حقيقة لهما. دفعني حبي لتلك الحرية الموهومة أن أطلب الخـروج من خدمة الحكومة لأكون ناظرة للمدرسة المحمدية في الفيوم التي أنشأها مجلس المديرية في ذلك الوقت. وكنت أعتقد كل الاعتقاد أن العمل في تلك المدرسة عمل حر لا تدخل لأحـد فيه.

وكان أن ذكر المغفور له سعد باشا اسمي أمـام حضـرة صاحب الرفعة محمد باشا محمود وروى له روايـة المقالـة وكيف اختارني محمد باشا سعيد معلمة لبناته.

كان محمد باشا محمود في ذلك الوقت قد أنشأ المدرسـة المحمدية في الفيوم وعين لها ناظرة إنجليزية، ولكنه اختلف معها فتركت المدرسة لخلاف اعتبرت فيـه أن المصـريين لا يفهمون النظافة. لأنها طلبت مـن مجلـس المديريـة أن يرصف فناء المدرسة بالأسفلت على اتساعه فلم يجد المجلس في ماليته ما يقوم بذلك. وتضايقت الناظرة لعدم تنفيـذ هـذا



المشروع لأن الفناء كان أثناء المطر يمتلئ بالوحول فتحمله أرجل الطالبات إلى فصول الدراسة فلما رفض المجلس طلبها تركته وأخذ المدير أي محمد باشا محمود يبحث عن ناظرة أخرى، وما كاد يسمع باسمي حتى أخذ عنواني من وزارة المعارف وكتب إلي لأقابله في منزله بشارع الفلكي وهناك اتفقنا على أن أذهب معه إلى الفيوم لكتابة عقد التوظف مع المجلس ذاته.

وراقني طلبه هذا وسررت له كل السرور لأني شعرت أني سأنال الحرية المرغوبة بعيدا عن الحكومة. وقد فاتني في ذلك الوقت أن أعرف أن مجالس المديريات هي أيضا جزء من الحكومة وفي اليوم التالي سافرت معه في قطار واحد، وكنا في عطلة الصيف وما كاد القطار يصل إلى الفيوم وينزل منه حضرة المدير أي رفعة محمد باشا محمود حتى أخذ العساكر يدفعون الناس ليفسحوا له الطريق، وكانت ضجة، وكان زحام، اصطدم فيه كل الناس حتى أنا التي حضرت مع سعادة المدير نفسه.

هالني ذلك السلطان العظيم للمدير، الشيء الذي لم أعهده في عاصمة البلاد: القاهرة، فمحافظها يسير دون ضجة

ولا جلبة. أما المدير في المديريات فكأنه ملك وذكرتني تلك الحادثة بحكاية رويت لي عن فلاحة رأت زحاما على محطة السكة الحديد في بلدها فسألت: علام ذلك الزحام؟ فقيل لهـا أنه الخديوي يشرف البلد قالت: "يا سلام والزيطة دي كلهـا علشان الخديوي، وا أنا باحسبه المدير". وهكذا عرفت في ذلك اليوم من هو ذلك المدير العظيم.

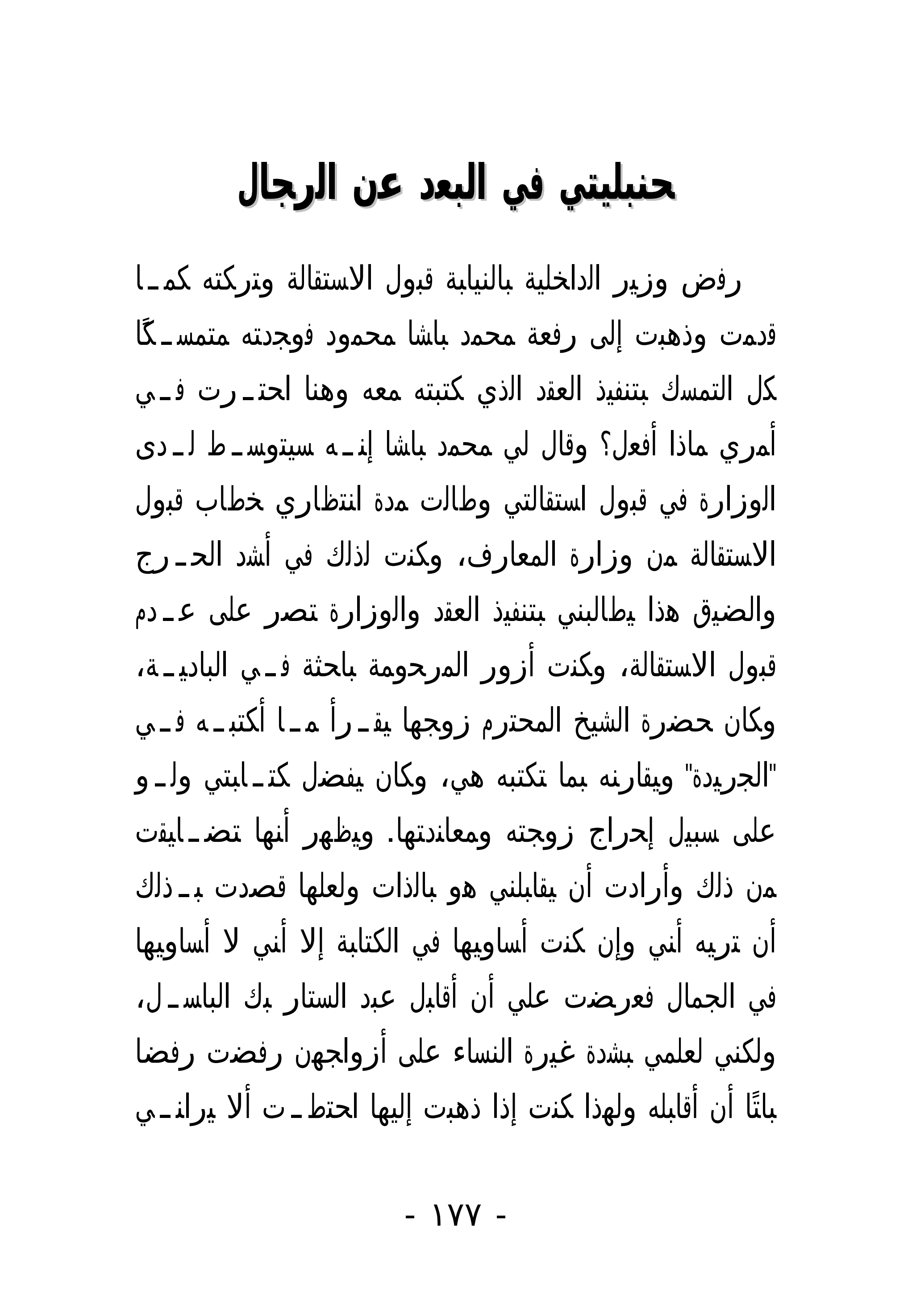
استقل عربته وتبعته في عربة أجرة إلى المديرية وهنـاك في ساحة المدير ما كدنا نصل حتى قابله العساكر بتلك التحية العسكرية المعروفة، وقد صرخ فـيهم رئيسـهم: "كركـون سلاح" وتبعت تلك الصرخة ضجة عظيمة من بنادق العسكر أفزعتني، ولم أكن رأيتها قبل ذلك. وتبعت المدير إلى غرفته وأنا أكاد أرتعد خوفًا، فطلب أحد الكتبة وأمره بإعداد العقـد فنظرت إليه وقلت له: مع من؟ قال معك! قلت: أتعاقـد أنـا معك؟ أعوذ با ! لقد اعتدت ألا أخشى رئيسا، وقـد شـتمت رئيستي قبل أن أحضر معك، وإذا أنا ناقشتك فمـاذا يكـون حالي وأنت هنا ملك يخشاك كل الناس، وتحت أمرك عسكر أزعجتني تحيتهم لك؟ فأنا لا أقبل العمل معك ولن أستطيعه، قال: ولكني سأعاملك بالحسنى. قلت: إنك إن قلت لي كلمـة

في المستقبل فسأقول لك عشرا. قال: ولكن هـل تسـتطيعين إدارة المدرسة بنجاح؟ قلت: نعم. قال: لا بأس فلن أقول لـك تلك الكلمة.

وعلى ذلك اتفقنا وأمضيت العقد وعـدت إلـى القـاهرة، فقدمت استقالتي من وزارة المعارف، وكان المغفور له سعد باشا زغلول وزير المعارف في ذلك الوقت قد سـافر إلـى أوربا لتمضية الصيف وحل محله صـاحب الدولـة رئـيس الوزراء محمد باشا سعيد الذي كنت أدرس لبناته فـي ذلـك الوقت فلما عرضت عليه الاستقالة رفض قبولها. وقابلني في منزله فقال لي: لابد من أن تسحبي استقالتك. قلت: لن أفعل، قال: هذا أمري. قلت: لقد أعطيت كلمة شرف، قال: سـآمر المدير بتمزيق العقد "لأنه كان في ذلك الوقت وزيرا للداخلية" قلت: ولكني أعطيت كلمة شرف ولا قيمة للعقد بجانبها. قال: فهل تقدرين كلمتك أكثر من تقديرك لكلمتي؟ قلت: كلمتي تنفذ علي لأني قلتها. قال: ولكني سأكون ضدك إن فعلت. قلـت: لا بأس فلن نتقابل بعد اليوم. قال: سبحان ا إنـك لعنيـدة، وهلا تزالين على تصميمك بعد أن علمت أن هذا يغضـبني؟ قلت: نعم لأنه يرضيني. قال: إذن أحمد ا إذ لم تطل مدتك

في تعليم بناتي لأنك عنيدة وأخشى أن تسري تلك الخلة منك إليهن. قلت: إذن قد عملت ما يرضيك في تعاقدي بـالفيوم. فألقى بسبعة جنيهات مرتب الشهر الآتي، وقال: هذا مرتبـك وشاوري نفسك لعلك تهتدين. قلت: لقد صممت. فخرج مـن باب وخرجت من الثاني.

وهكذا بدأت عملي في الفيوم مغضوبا علي مـن رئـيس الوزارة ووزير الداخلية الذي هو ولا شك رئيس المدير وإن كان لا يؤبه به في المديرية بمقدار ما يؤبه بالمدير مرءوسه.

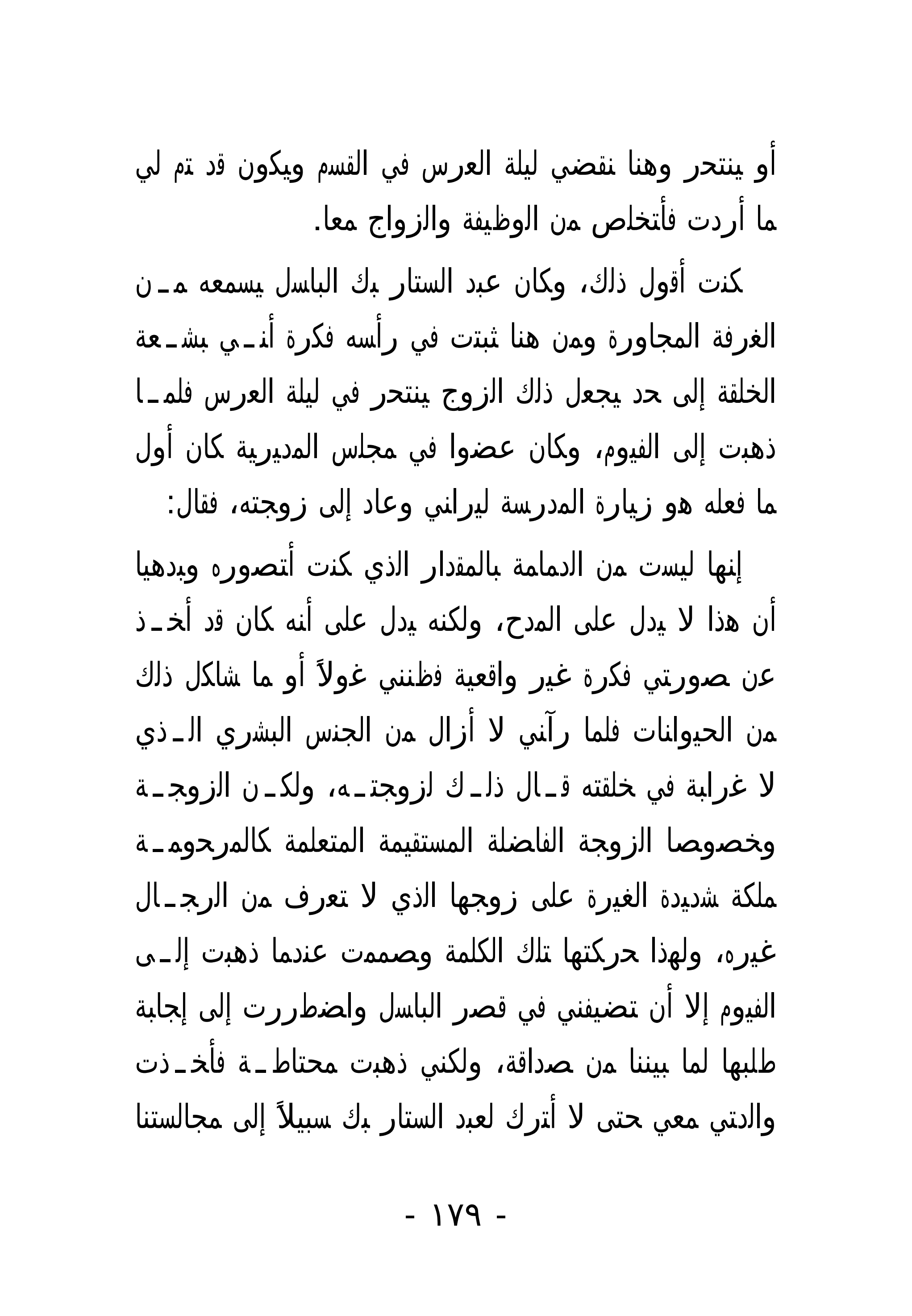


حنبليتي في البعد عن الرجال

رفض وزير الداخلية بالنيابة قبول الاستقالة وتركته كمـا قدمت وذهبت إلى رفعة محمد باشا محمود فوجدته متمسـكًا كل التمسك بتنفيذ العقد الذي كتبته معه وهنا احتـرت فـي أمري ماذا أفعل؟ وقال لي محمد باشا إنـه سيتوسـط لـدى الوزارة في قبول استقالتي وطالت مدة انتظاري خطاب قبول الاستقالة من وزارة المعارف، وكنت لذلك في أشد الحـرج والضيق هذا يطالبني بتنفيذ العقد والوزارة تصر على عـدم قبول الاستقالة، وكنت أزور المرحومة باحثة فـي الباديـة، وكان حضرة الشيخ المحترم زوجها يقـرأ مـا أكتبـه فـي "الجريدة" ويقارنه بما تكتبه هي، وكان يفضل كتـابتي ولـو على سبيل إحراج زوجته ومعاندتها. ويظهر أنها تضـايقت من ذلك وأرادت أن يقابلني هو بالذات ولعلها قصدت بـذلك أن تريه أني وإن كنت أساويها في الكتابة إلا أني لا أساويها في الجمال فعرضت علي أن أقابل عبد الستار بك الباسـل، ولكني لعلمي بشدة غيرة النساء على أزواجهن رفضت رفضا باتًا أن أقابله ولهذا كنت إذا ذهبت إليها احتطـت ألا يرانـي

حتى ولا من ثقب الباب، فكنت أجلس دائما بجانـب البـاب المغلق في الحجرة حتى إذا نظر أحد منه فلا يراني.

وكان ذلك يضايقها وربما كان يضايق أيضا عبد السـتار بك وذهبت إليها وأنا في حيرتي هذه فسـألتني عـن كيفيـة خروجي من ذلك المأزق، قلت: لقد فكرت فلـم أجـد لـي مخرجا من هذا إلا أن أتزوج وهذا العـذر الشـرعي يمنـع الطرفين من التمسك بي، ولكني كما تعلمين لا أحب الزواج ولهذا عولت أن أتزوج بشخص أكون واثقة من أنه سيطلقني في ليلة العرس، قالت: وكيف يتم لكِ ذلك؟ قلت: نعـم لقـد سمعت إحدى سمسارات الزواج تقول: إن رجلاً طلب منهـا أن تبحث له عن زوجة لا يشترط فيها إلا الجمال فقط فهـو لا يشترط علما ولا مالاً ولا يهمه إلا أن تكون زوجته ملكـة الجمال في الدنيا، فإذا تم لي الأمر ورضيت تلك السمسـارة أن تخدع الزوج فإني لا أقابله إلا ليلة الزواج بالطبع، وهناك أرتدي ملابسي هذه التي ترينها أنت ويدخل الرجـل وهـو ينتظر أن يرى ملكة الجمال في العالم، وإذا به يرانـي كمـا ترينني الآن. فهل تظنين أنه يتمالك نفسه من أن يضـربني



أو ينتحر وهنا نقضي ليلة العرس في القسم ويكون قد تم لي ما أردت فأتخلص من الوظيفة والزواج معا.

كنت أقول ذلك، وكان عبد الستار بك الباسل يسمعه من الغرفة المجاورة ومن هنا ثبتت في رأسه فكرة أنني بشعة الخلقة إلى حد يجعل ذلك الزوج ينتحر في ليلة العرس فلما ذهبت إلى الفيوم، وكان عضوا في مجلس المديرية كان أول ما فعله هو زيارة المدرسة ليراني وعاد إلى زوجته، فقال:

إنها ليست من الدمامة بالمقدار الذي كنت أتصوره وبدهيا أن هذا لا يدل على المدح، ولكنه يدل على أنه كان قد أخذ عن صورتي فكرة غير واقعية فظنني غولاً أو ما شاكل ذلك من الحيوانات فلما رآني لا أزال من الجنس البشري الذي لا غرابة في خلقته قال ذلك لزوجته، ولكن الزوجة وخصوصا الزوجة الفاضلة المستقيمة المتعلمة كالمرحومة ملكة شديدة الغيرة على زوجها الذي لا تعرف من الرجال غيره، ولهذا حركتها تلك الكلمة وصممت عندما ذهبت إلى الفيوم إلا أن تضيفني في قصر الباسل واضطررت إلى إجابة طلبها لما بيننا من صداقة، ولكني ذهبت محتاطة فأخذت والدتي معي حتى لا أترك لعبد الستار بك سبيلاً إلى مجالستنا

في منزله وجاء طبعا ليحييني ورأى والـدتي قـد سـترت وجهها، ولكنه جلس وهي عادة العرب في إكرام الضـيوف والمبالغة في ذلك الإكرام، ولكني تضايقت لأني عندما دخلت المنزل قالت لي المرحومة إنك أجمل من ذي قبل، وهي تريد أن تقول: أقل دمامة من ذي قبل. قلت: وما الذي تغير فـي؟ أترين أني غيرت شيئًا من خلقتي الطبيعيـة؟ قالـت: كـلا، ولكنك تبدين في نظري مقبولة. تبين لي من تلك الكلمة أنهـا توجس مني خيفة ولهـذا أردت ألا يمكـث زوجهـا معنـا فتوضأت وصليت، وإن كانت تلك ليست بعادتي في كل الأيام فلما دخل وأراد أن يسلم علي باليد اعتذرت حتى لا يـنقض وضوئي فجلس، وقد شعر بشيء من الجفـاء، وهـذا كـل ما أردته. وأخذت المرحومة، وكانت على مـا يظهـر لـي مغرمة به.. أخذت تحادثه وتقول له: ألست في حبـي علـى رأي امرئ القيس حيث يقول:

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

قال: فلتسأل نبوية عن رأيها في معنى ذلك البيت. فقلت: محتدة: أنا لا أسأل في معنى الأبيات الغرامية وفـي شـكلي ولبسي وكلامي ما يمنع أي رجل من أن يسألني ذلك السؤال

فإن هو تجاهل كل ذلك فليس له إلا الضرب. ودهش الباسل وقال: لا شك أنكما من النساء وخرج، وكان هذا كل ما أريد. وقد ساءني أن يظهر على المرحومة شيء من الغيرة من فتاة لا تعرف الرجال فأقسمت ألا أبيت في ذلـك المنـزل إلا إذا دخلت أنا وهي في غرفة وأغلقناها مـن الـداخل وأخـذت تستعطف فأرفض وأقول إن كلامك شككني في طهارة هـذا البيت.

أليس للرجال بعـد هـذا أيهـا القـارئ أن يكرهـوني أو يصفوني بالجنون؟ وهل يلامون إذا فعلوا ذلك؟

انتهت الليلة على خير ما يـرام أو علـى أسـوئه وفـي الصباح استقليت أول قطار يترك قصر الباسل إلـى الفيـوم وظللت صديقة للمرحومة لأني كنت أحبها كثيرا، ولكني لـم أدخل منزلها بعد هذا، لا لأني كنت أشك في طهارة زوجها، ولكن لأني لم أكن أريد أن يكون اسمي بأية حـال موضـعا للشبهة.

وتصادف أن دخلت منزل المرحوم أحمد باشـا الباسـل لأزور زوجتـه فرأتنـي المرحومـة هنـاك. وقالـت: إن عبد الستار بك مع الرجال وأريد أن أدعوه لمقابلتك. قلـت:

ولكني يا سيدتي لا أريد مقابلته. قالت: اسمعي يا نبوية إنـي أنا أريد أن أراه ولعلي اتخذتك حجـة. فضـحكت وقلـت: لا أدري لم تريدين ذلك وليس في وجهه ما يعجب، وكانـت شقيقة الباسل موجودة، وقد نفذت المرحومة غرضها قبل أن تقوله لي، وإذا به قد حضر وبادرته شقيقته بقولها إنها تقول عنك إنك دميم. قلت: لا بأس وهذا لا يعيبه يكفي أنـه نبيـل كريم. وحييت الجميع وخرجت في الحال بالرغم من إلحـاح المرحومة باحثة البادية في استبقائي.

أعود إلى حيرتي قبل الوظيفة فأقول إني كنت فـي أشـد الحيرة حقًا. كنت أفكر كثيرا في كيف أتخلص مـن طرفـي النزاع، وكان لي صديقة فقالت لي إنها تعرف منجما مـاهرا يخبرني عن المستقبل، ولم أكن أعتقد في المنجمين إلا أنـي وجدت من التسلية أن أذهب إليه ولو علـى سـبيل تمضـية الوقت والخروج من الحيرة ولو دقائق، ويظهر أن صـديقتي تلك كانت سمسارة لذلك المنجم فأخبرته عـن حـالتي قبـل ذهابي إليه فلما ذهبت رأيت شابا يظهر عليـه أنـه تلميـذ صغير، وقد التف حوله عدد عظيم من السيدات وقيل لي إنه إنما يبحث مستقبلهن بالدور على حسـب مجيـئهن، وكنـت

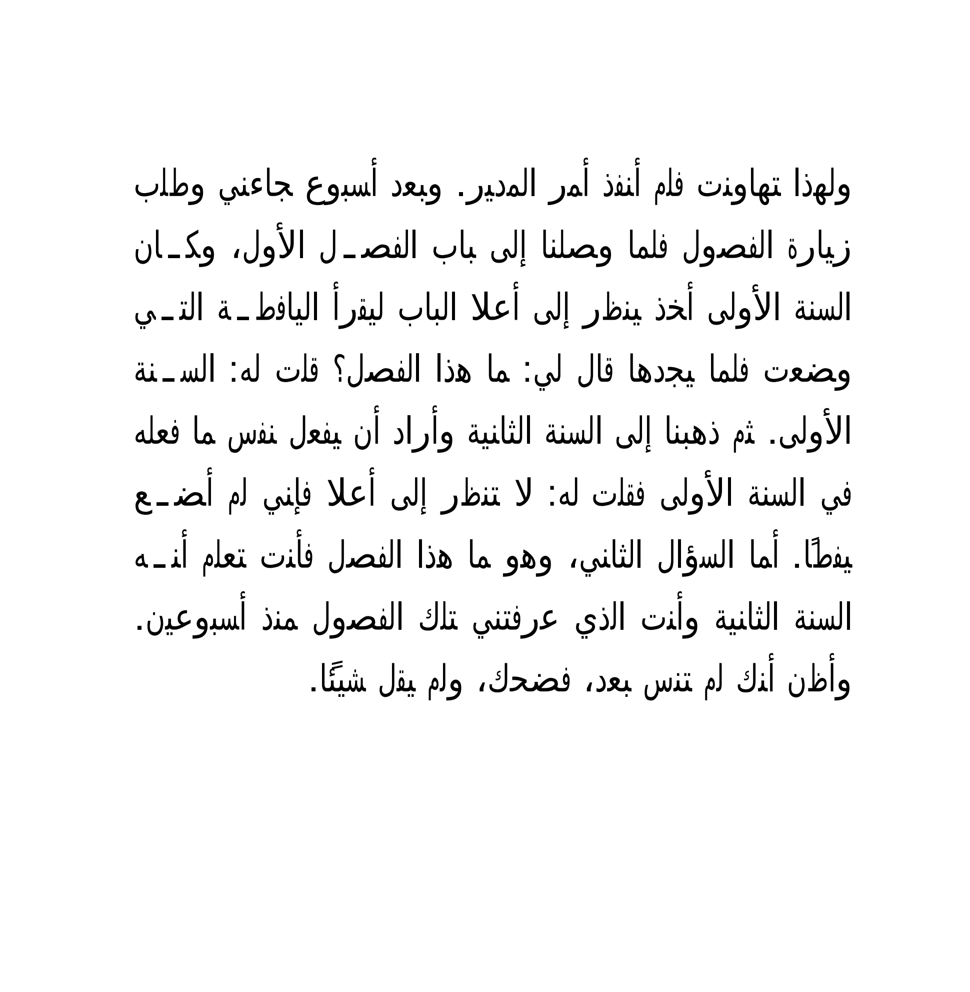
بالطبع الأخيرة وجلست وإذا به ينتهي من سيدتين فيما لا يقل عن ثلث ساعة وعلى هذا حسبت انتهاءه من جميع من كـ ن قبلي فرأيت أنه لا يقل عن ست ساعات فقمت واقفة وقلـ ت: بصوت مسموع لقد جئت لأسري عن نفسي لا أن أتضـ ايق وبقائي هنا ست ساعات أنتظر ذلك الشاب الصغير ليـ روي لي مستقبلاً هو أجهل الناس به مضيعة لوقتي فإلى اللقاء.

وسمع الشيخ الصغير ذلك فقال: سأقدم النظر في مستقبلك على جميع الحاضرات فادني مني واضطرتني صديقتي إلى الدنو منه لأكشف عن مستقبلي. وإذا به يقول إنك في وظيفة حكومية وتريدين الخروج منها إلى عمل آخر وستخسـ رين كثيرا في ذلك العمل. ودهشت كيف عـ رف هـ ذه الحقيقـ ة وكادت عقيدتي أن تتزعزع واسترسل هو في كلامه وكأنـ ه أراد أن ينتقم مني فقال لـ ي: إنـ ك ستمرضـ ين وسـ تفقدين بصرك، وكأنه كان ينافس الدكتور فيشر في ذلك، وكان يريد أن ينبئني بما يسوؤني من جميع الوجوه وأخيرا قال لي: إنك ستتزوجين من رجل يأخذ جميع مالك وهنا تنبهت إلى كذبه، وقد كنت مصممة على ألا أتزوج فكيـ ف إذن يتغيـ ر ذلـ ك التصميم إلى الزواج لا من رجل ثري أطمع أنا في ماله بـ ل

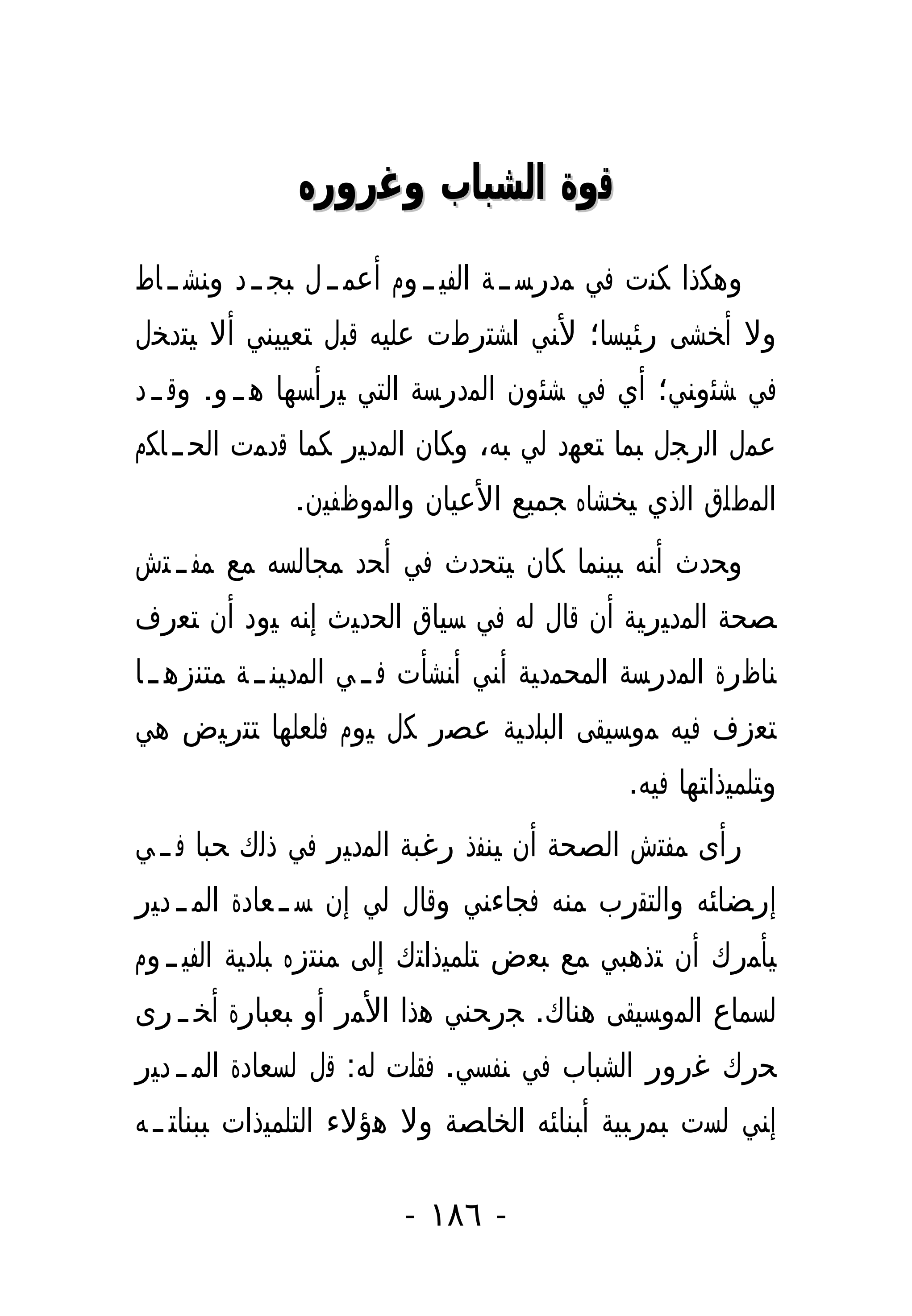
من رجل يأخذ هو مالي وهذا بالطبع يستحيل علي ما دمت في عقلي وهنا قلت له: أرجو أن تكشف لي عن أمر واحد، هل سأبقى صحيحة العقل أم أجن في يوم من الأيام؟ قال: لا سيظل عقلك سليما. قلت: أنت إذن كاذب كل الكذب لأنه من غير المعقول أن أحتفظ بعقلي الذي يرشدني الآن وأتزوج برجل يأخذ مالي، إنك يا هذا كاذب. وقمت وتركت المكان.

قبلت استقالتي بعد ذلك.

وابتدأت عملي في المدرسة المحمدية بالفيوم، وكنت مسرورة بذلك العمل الجديد فغيرت فيها تقريبا كل شيء، ويوم استلامها حضر معي المدير نفسه فدخل معي الفصول وأخذ يقول لي هذا هو فصل السنة الثانية وغير ذلك، لأنه كان مهتما بالمدرسة أشد الاهتمام ويعلم عنها كل شيء. وزارني بعد ذلك بثلاثة أيام فاقترح أن أضع يافطة باسم كل فصل على بابه، ولم أكن أنا أهتم بمثل تلك الصغائر لأن المدرسة لم تكن من الاتساع وتشابه النواحي بحيث يخطئ الإنسان غرفاتها، بل كانت مدرسة صغيرة لا يدخلها بالطبع إلا المعلمون الذين يعرفون مكان كل فصل. أما الزائرون فكانوا يذهبون معي إن شاءوا زيارتها فأدلهم على كل فصل.



ولهذا تهاونت فلم أنفذ أمر المدير. وبعد أسبوع جاءني وطلب زيارة الفصول فلما وصلنا إلى باب الفصل الأول، وكان السنة الأولى أخذ ينظر إلى أعلا الباب ليقرأ اليافطة التي وضعت فلما يجدها قال لي: ما هذا الفصل؟ قلت له: السنة الأولى. ثم ذهبنا إلى السنة الثانية وأراد أن يفعل نفس ما فعله في السنة الأولى فقلت له: لا تنظر إلى أعلا فإني لم أضع يفطًا. أما السؤال الثاني، وهو ما هذا الفصل فأنت تعلم أنه السنة الثانية وأنت الذي عرفتني تلك الفصول منذ أسبوعين. وأظن أنك لم تنس بعد، فضحك، ولم يقل شيئًا.



قوة الشباب وغروره

وهكذا كنت في مدرسـة الفيـوم أعمـل بجـد ونشـاط ولا أخشى رئيسا؛ لأني اشترطت عليه قبل تعييني ألا يتدخل في شئوني؛ أي في شئون المدرسة التي يرأسها هـو. وقـد عمل الرجل بما تعهد لي به، وكان المدير كما قدمت الحـاكم المطلق الذي يخشاه جميع الأعيان والموظفين.

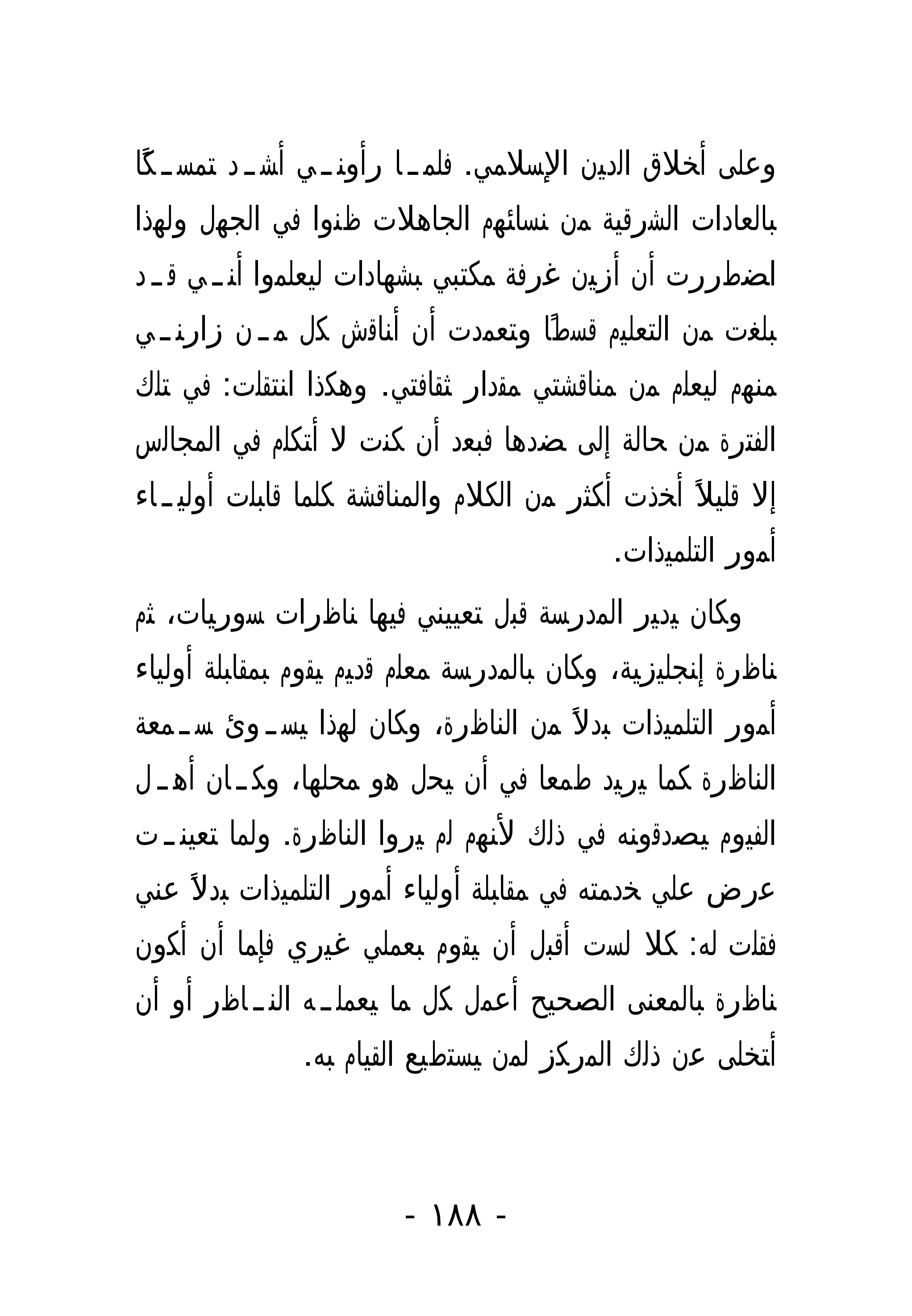
وحدث أنه بينما كان يتحدث في أحد مجالسه مع مفـتش صحة المديرية أن قال له في سياق الحديث إنه يود أن تعرف ناظرة المدرسة المحمدية أني أنشأت فـي المدينـة متنزهـا تعزف فيه موسيقى البلدية عصر كل يوم فلعلها تتريض هي وتلميذاتها فيه.

رأى مفتش الصحة أن ينفذ رغبة المدير في ذلك حبا فـي إرضائه والتقرب منه فجاءني وقال لي إن سـعادة المـدير يأمرك أن تذهبي مع بعض تلميذاتك إلى منتزه بلدية الفيـوم لسماع الموسيقى هناك. جرحني هذا الأمر أو بعبارة أخـرى حرك غرور الشباب في نفسي. فقلت له: قل لسعادة المـدير إني لست بمربية أبنائه الخاصة ولا هؤلاء التلميذات ببناتـه

حتى يكون له حق إرسالنا إلى المنتزه متى شاء إن هـؤلاء التلميذات لهن آباء ولآبائهن الحق في إرسالهن إلى المنتـزه أو منعهن من ذلك حسب ما يقدر هؤلاء الآباء.

دهش مفتش الصحة لهذا القول وقال: كيـف أبلـغ ذلـك لسعادة المدير؟ قلت: يا سيدي إنك إنما تبلغـه الحـق الـذي لا شك فيه وما أنت في ذلك إلا رسول. وذهب الرجل إلـى المدير يقص عليه القصة فاستاء المدير لتصرفه وقال له: إني لم أطلب منك أن تأمرها بالذهاب إلى ذلك المتنـزه، ولكنـي قلت: لك أن تخبرها به علها تريد هي ذلـك، فـأرجوك أن تذهب إليها في الحال، وأن تشرح لها ما أخطأت أنـت فـي شرحه. فدهش مفتش الصحة لاستلام المدير لتصرفي الشاذ، ثم جاءني وهو يبتسم فقال: عذرا يا سيدتي فقد أخطأت فيمـا أبلغتك إياه فالمدير لا يأمرك، ولكنه أراد أن يخبرك أن فـي مدينة الفيوم متنزها تعزف فيه الموسيقى عصر كل يوم، فإن رأيت من المستحسن الذهاب إليه فلكِ هـذا. قلـت: حسـنًا سأستشير آباء التلميذات في ذلك.

كل أهل الفيوم ينفرون من تعلـيم البنـات ويعتقـدون أن المتعلمة لا أخلاق لها، وأنها تخرج على العـادات الشـرقية



وعلى أخلاق الدين الإسلامي. فلمـا رأونـي أشـد تمسـكًا بالعادات الشرقية من نسائهم الجاهلات ظنوا في الجهل ولهذا اضطررت أن أزين غرفة مكتبي بشهادات ليعلموا أنـي قـد بلغت من التعليم قسطًا وتعمدت أن أناقش كل مـن زارنـي منهم ليعلم من مناقشتي مقدار ثقافتي. وهكذا انتقلت: في تلك الفترة من حالة إلى ضدها فبعد أن كنت لا أتكلم في المجالس إلا قليلاً أخذت أكثر من الكلام والمناقشة كلما قابلت أوليـاء أمور التلميذات.

وكان يدير المدرسة قبل تعييني فيها ناظرات سوريات، ثم ناظرة إنجليزية، وكان بالمدرسة معلم قديم يقوم بمقابلة أولياء أمور التلميذات بدلاً من الناظرة، وكان لهذا يسـوئ سـمعة الناظرة كما يريد طمعا في أن يحل هو محلها، وكـان أهـل الفيوم يصدقونه في ذلك لأنهم لم يروا الناظرة. ولما تعينـت عرض علي خدمته في مقابلة أولياء أمور التلميذات بدلاً عني فقلت له: كلا لست أقبل أن يقوم بعملي غيري فإما أن أكون ناظرة بالمعنى الصحيح أعمل كل ما يعملـه النـاظر أو أن أتخلى عن ذلك المركز لمن يستطيع القيام به.

قابلت أهالي الفيوم فأعجبهم زيي واستقامتي وضعوا ثقتهم في المدرسة. وكانوا قبل ذلك لا يريدون إدخال بناتهم فيهـا فكان المدير يزورهم ويرجوهم أن يرسلوا بناتهم إليها، وكان الرجل منهم إذا أراد أن يرضي المدير أرسل إلى المدرسـة طفلة قد لا تتجاوز السادسة من عمرها حتى إذا بلغت السابعة أو الثامنة حجبها بالمنزل خشية على أخلاقها، ولهـذا قلـت: لسعادة المدير: أرجوك ألا تطلب من أحد من الأعيان إدخال كريمته فإن كل مبتذل ممقوت مكروه قال: وكيف نسـتطيع جمع التلميذات؟ قلت: اترك هذا لي وسأعمل مـا أسـتطيع. فكان الرجل من أهل الفيوم إذا جاءني ليدخل طفلته الصغيرة أناقشه وأحبب إليه تعليم البنات وأظهر له أن التعلـيم يزيـد الفتاة عفة واستقامة، وأن العلم خير أينما حل فكان يضـطر إلى تصديقي لما كان يعاينه من زيي الكامل مع صغر سـني ومن كلامي الذي كان يشبهه بكلام الرجال فكان يأتيني فـي اليوم الثاني بثلاث كريمات كان قد قرر حجزهن بالمنزل.

وهكذا دخلت المدرسة وعدد تلميذاتها لا يزيد عن الثمانين فما كدت أمكث فيها أربعة شهور حتى زاد عـددهن علـى

المائتين، وقد سر المدير بذلك سرورا عظيما وأخـذ يحسـن معاملتي وينفذ لي كل ما أريد.

وكنت في كل فرصة أجتهد أن أظهر لآباء التلميذات شدة حرصي على الأخلاق ليزدادوا ثقة بالمدرسـة. وحـدث أن أساءت تلميذة أدبها فطردتها وجاءني والدها يسألني أن أعفو عنها، وأن أقبلها وأنا أرفض وأتعزز ودخل في تلك اللحظـة سعادة المدير فدهش لهذا التغيير العظيم في أخـلاق أهـالي الفيوم وطلب منه الرجل أن يساعده فـي رد كريمتـه إلـى المدرسة فقال المدير مبتسما: لقد أخذت علي عهدا ألا أتدخل في شئونها فأنا لا أستطيع شيئًا غير أن أضم صـوتي إلـى صوتك علها تقبل ذلك. وهنا قبلت رجـاء المـدير وأعـدت التلميذة إلى المدرسة بعد أن أخذت على أبيها عهـدا بشـدة الرقابة عليها فشكر الرجل المدير وحياه وانصرف. وما كاد يخرج نظر إلي المدير قائلاً: إني لا أكاد أصدق ما أرى الآن من ذلك التغير العظيم فمن زهد الآباء في المدرسة إلى رغبة فيها رغبة ملحة ينفذونها بالتوسل والرجاء!! قلت: نعم فإنـه كلما ازداد عرض الشيء على الناس كلما ازدادوا زهدا فيـه (وأحب شيء إلى الإنسان ما منع) قال: صدقت.

كيف كنت في أول عملي بالفيوم؟

كنت حديثة عهد بالحياة وأحوالها، ولم أكن أعرف من أعيان المصريين إلا أسماءهم، وكنت أتصور أن كلمة باشا إنما تعطى لأكثر الناس تعليما وذكاء.

وأخذ المدير يتحدث بالمدرسة وما صارت إليه من الرقي في مدة قيامي بأعمالها. وإذا قال المدير أنصت جميع الأعيان. ولهذا اهتم الأعيان بالمدرسة وأرادوا أن يشاهدوا ناظرتها وأبلغني سعادة المدير أن فلانًا باشا عين أعيان الفيوم سيزور مدرستي في يوم كذا الساعة كذا أيضا. واهتممت بالأمر، وكنت أعد نفسي للجمل التي سأقولها أمام سعادته أو لأجوبة الأسئلة التي سيلقيها علي!

وجاء هذا العين وإذا به يتكلم لا بلهجة والدتي فحسب بل بأحط من أرائها. وهنا احترمت والدتي على عدم تعليمها وقلت: لقد وضعها ذكاؤها في مكانة من اللباقة تفوق أمثال هؤلاء الأعيان. وضايقني ما عرفته من جمود ذلك العين، وكان مما ناقشني فيه أنه بصفته عضوا في مجلس المديرية ومن الأعضاء البارزين، لا الغائرين في الجدار، بهذه الصفة

لا يريد سعادته أن يعين المجلس معلما للغـة العربيـة مـن الشبان المتعلمين بل يريد أن يعين لي مقرئ مدافن المرحوم والده لا لسبب سوى أنه رجل كبير السن موثوق في أمانته. فقلت له إذا كان كل ما نبغيه هو سن ذلك المعلم وشدة ثقتنـا من أنه لا يخشى منه على أخلاق الطالبات، وإذا كان هذا هو كل ما نطلبه من معلم يعلم اللغة العربية التي هي أهم فروع التعليم فحسبنا أن نكتفي ببواب المدرسة لأن فيه تلك الشروط متوفرة جدا، فهو رجل مسن ومتزوج وكامل في أخلاقه.

واحتار الباشا في الإجابة على ما قلت له ثم قاسني بنظره من أعلا إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلا، وفكر في الموضوع مليا، ثم قال لي: إنك عنيدة لأن أمله في تعيين المقـرئ قـد تبخر وطار. وقد كان واثقًا من تعيينه بعد أن قدر كبر سـنه واستقامته. أما العلم فلا ضرورة إليه ما دام هـذا سـيكون معلما للبنات.

كان ذلك الباشا قد قدم اقتراحا إلى مجلس المديرية بتعيين ذلك المقرئ، ولكن حديثي معه خيب الأمل في نجـاح ذلـك الاقتراح، ثم قابلت المدير بعد ذلك وحادثتـه فـي المسـألة وطلبت منه سرعة تعيين شاب صالح من المتعلمـين الجـدد

وشرحت له بجلاء أن الشاب الصالح أفضل من شيخ لا صلاح فيه، وأن الصفات السيئة في الإنسان تزداد وضوحا كلما كبر وهذا بدهي، فالإنسان كلما كبر ضعف عقله فلا بأس بعد ذلك أن تقوى شهواته والرجل الذي يولع بالنساء شابا يولع بهن أضعاف ذلك هو شيخ لأنه أصبح ضعيف الإرادة، ضعيف العقل، تتغلب عليه شهواته. وربما دفعه اعتقاد الناس في شيخوخته إلى الاسترسال في غوايته، وهو في مأمن من أن يتعقب خطواته أحد وختمت محاضرتي هذه بطلب السرعة في تعيين ذلك المعلم. وفعلاً عين للمدرسة معلم كامل من الشبان المتخرجين في ذلك الوقت.

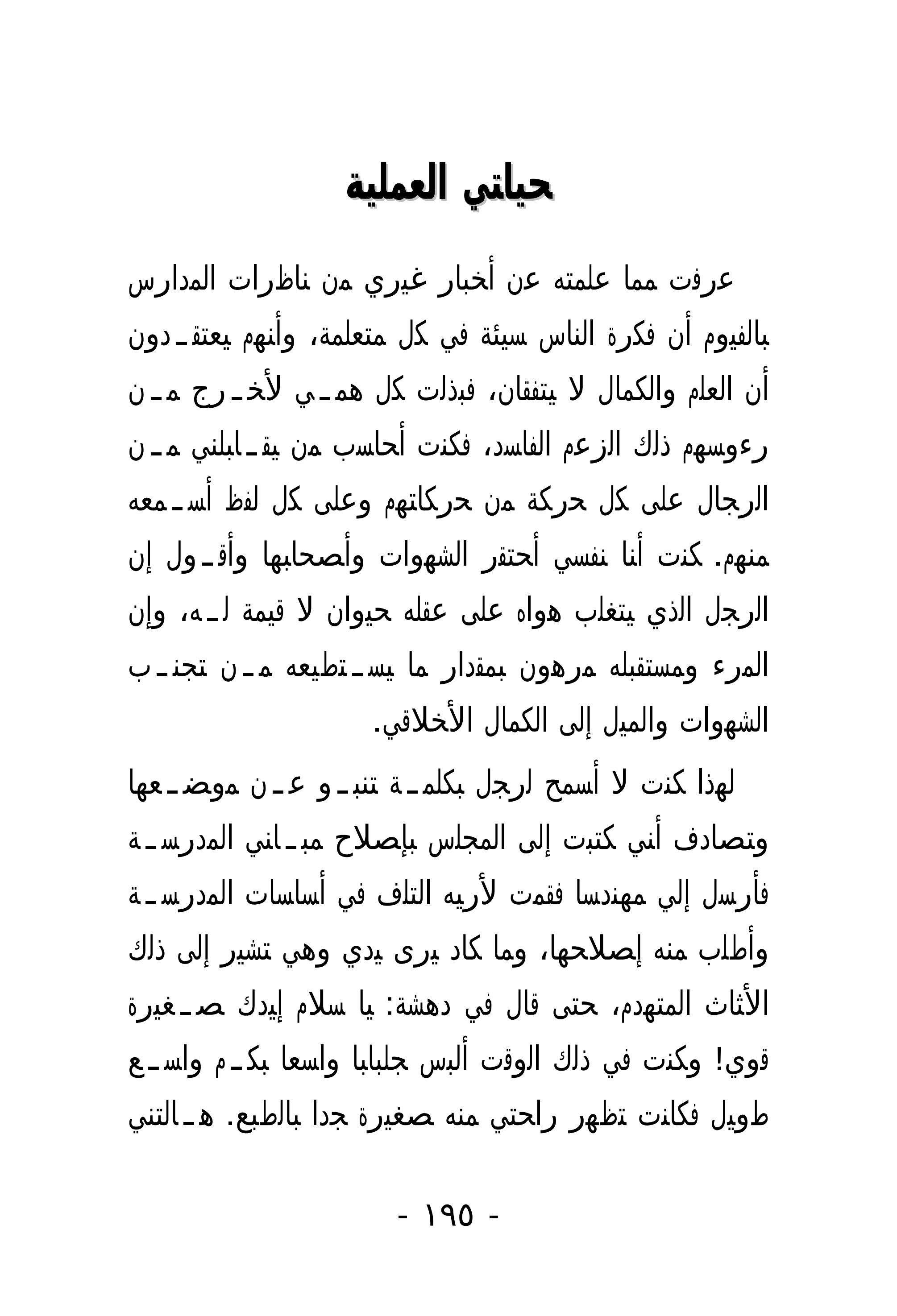
وأخذ سعادة الباشا مكانه في الصف الأول من أعدائي المحترمين وما عسى أن يقول عن تلك التي عارضته فيما أراد من التعيين في مجلس المديرية. وهو يعتبره من ضمن عزبه الطويلة العريضة؟ إنه لا يستطيع أن يقول عن أخلاقها بالنسبة للكمال شيئًا، لأن هذا كان مشاهدا معروفًا في أنحاء الفيوم إذن فليسلك طريقًا آخر إلى ذم تلك التي خيبت آماله فيما أراد فيقول إنها عنيدة وإنها تكاد تقابل من يزورها لا بكلمة الترحاب بل بالضرب دونما سبب، فهي تضرب هذا

وتشتم ذاك ولا تأبه بكرامة أحد ولا تحترم الأعيان لما لهم من الحول والطول في المديرية وغير ذلك.

ولقد بارك ا في مجهود ذلك الباشا من تلك الناحية ووجد من يساعده ويفهم الناس شدة أخلاق تلك الناظرة فإنها تحاسب الرجل الذي يزورها على أية كلمة يظهر فيها لين أو مجاملة، وهي كما كانوا يقولون كالأسد المفترس لا تسمح لأحد أن يرفع رأسه في مجلسها.

ولو أن هؤلاء رأوني اليوم ليعرفوا أني جبنت كما أراده السن فلم أعد أنا ذاك الأسد بل أصبحت أجبن من أرنب ولا أدري هل هم بعد ذلك راضون عني؟ وإذا كانت شجاعتي هي التي كانت تغضبهم في الماضي، فهل يروقهم الآن جبني؟

سؤال أريد أن يجيبني عليه كل من عاملني الآن وفي الماضي.



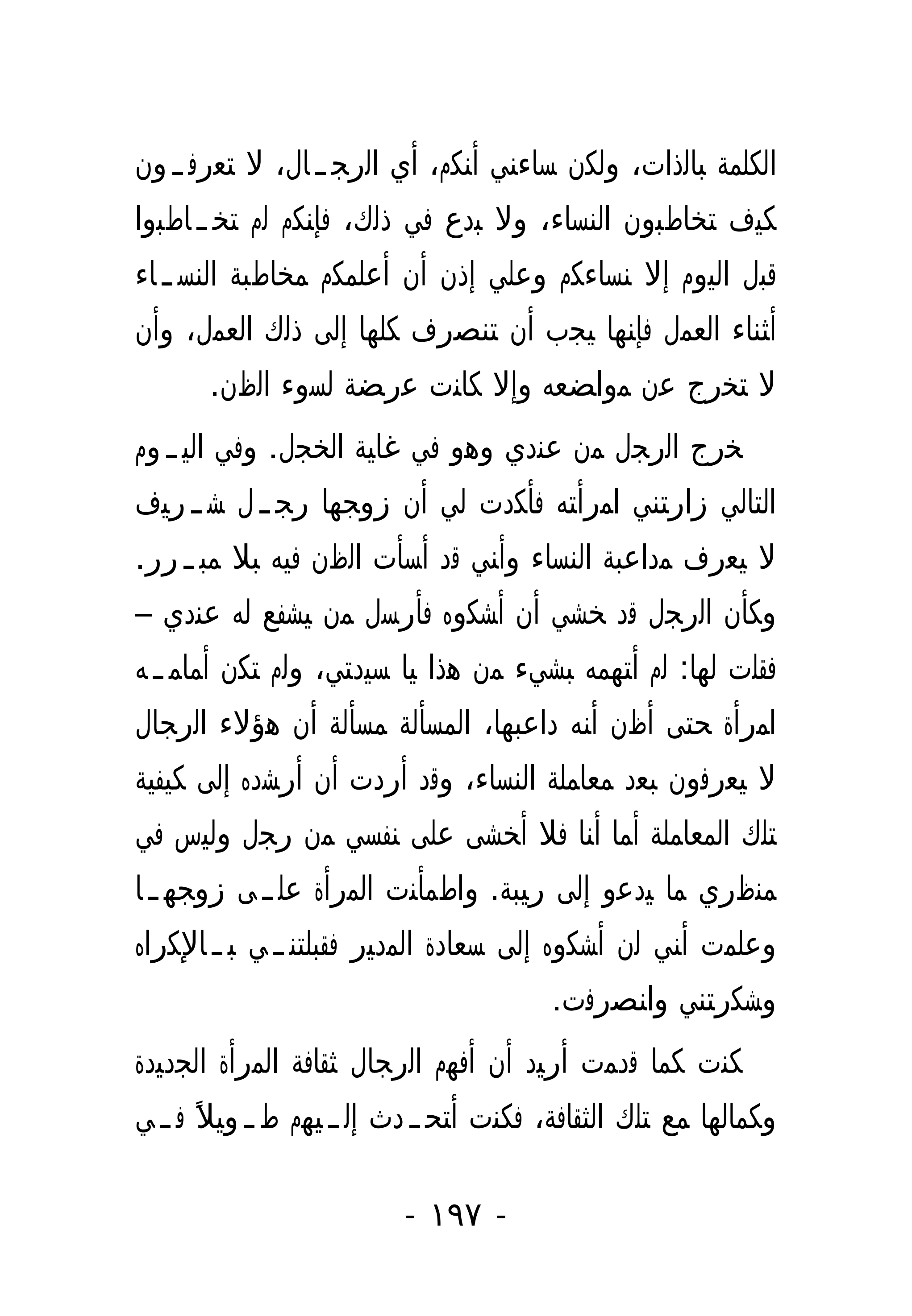
حياتي العملية

عرفت مما علمته عن أخبار غيري من ناظرات المدارس بالفيوم أن فكرة الناس سيئة في كل متعلمة، وأنهم يعتقـدون أن العلم والكمال لا يتفقان، فبذلت كل همـي لأخـرج مـن رءوسهم ذلك الزعم الفاسد، فكنت أحاسب من يقـابلني مـن الرجال على كل حركة من حركاتهم وعلى كل لفظ أسـمعه منهم. كنت أنا نفسي أحتقر الشهوات وأصحابها وأقـول إن الرجل الذي يتغلب هواه على عقله حيوان لا قيمة لـه، وإن المرء ومستقبله مرهون بمقدار ما يسـتطيعه مـن تجنـب الشهوات والميل إلى الكمال الأخلاقي.

لهذا كنت لا أسمح لرجل بكلمـة تنبـو عـن موضـعها وتصادف أني كتبت إلى المجلس بإصلاح مبـاني المدرسـة فأرسل إلي مهندسا فقمت لأريه التلف في أساسات المدرسـة وأطلب منه إصلاحها، وما كاد يرى يدي وهي تشير إلى ذلك الأثاث المتهدم، حتى قال في دهشة: يا سلام إيدك صـغيرة قوي! وكنت في ذلك الوقت ألبس جلبابا واسعا بكـم واسـع طويل فكانت تظهر راحتي منه صغيرة جدا بالطبع. هـالتني

تلك الجرأة منه وأنكرت عليه أن يخرج عن الكلام في العمل إلى الكلام في أوصاف من تكلمه. ونظرت إليه في شيء من الحدة وقلت له: شيء بايخ! فخجل الرجل وقال: هل خرجت عن الأدب؟ وهل في كلمتي هذه ما يريب؟! قلت: إنها على الأقل لا محل لها لأني أنا أعرف مقدار حجم يدي قبل أن أراك، فلا معنى أن تخبرني بأنها صغيرة، وقد تكون أنت على غير حق في تقدير صغرها لأني أنا أعرفها أكثر مما تعرفها أنت. وهل تجد من الحكمة أو من اللياقة أن أقول لك الآن إن الشمس طالعة وأنت ترى ذلك بعينيك؟ لقد كنت أود أن كلامنا لا يخرج عن العمل ولا يمس الشخصيات فأنت في نظري مخطئ. قال: إني أعتذر وإن كنت أعترف أني لم أخطئ. على أنه لم يكن يقدر الظروف فإني لو سمحت له بتلك الكلمة لما ضمنت في المستقبل أن يطري جزءا من أجزاء جسمي، فيقول لي مثلاً إن عينيك جميلتان وإن يدك لطيفة، وغير ذلك من الأوصاف التي لم أكن أسمح لأحد أن يذكرها.

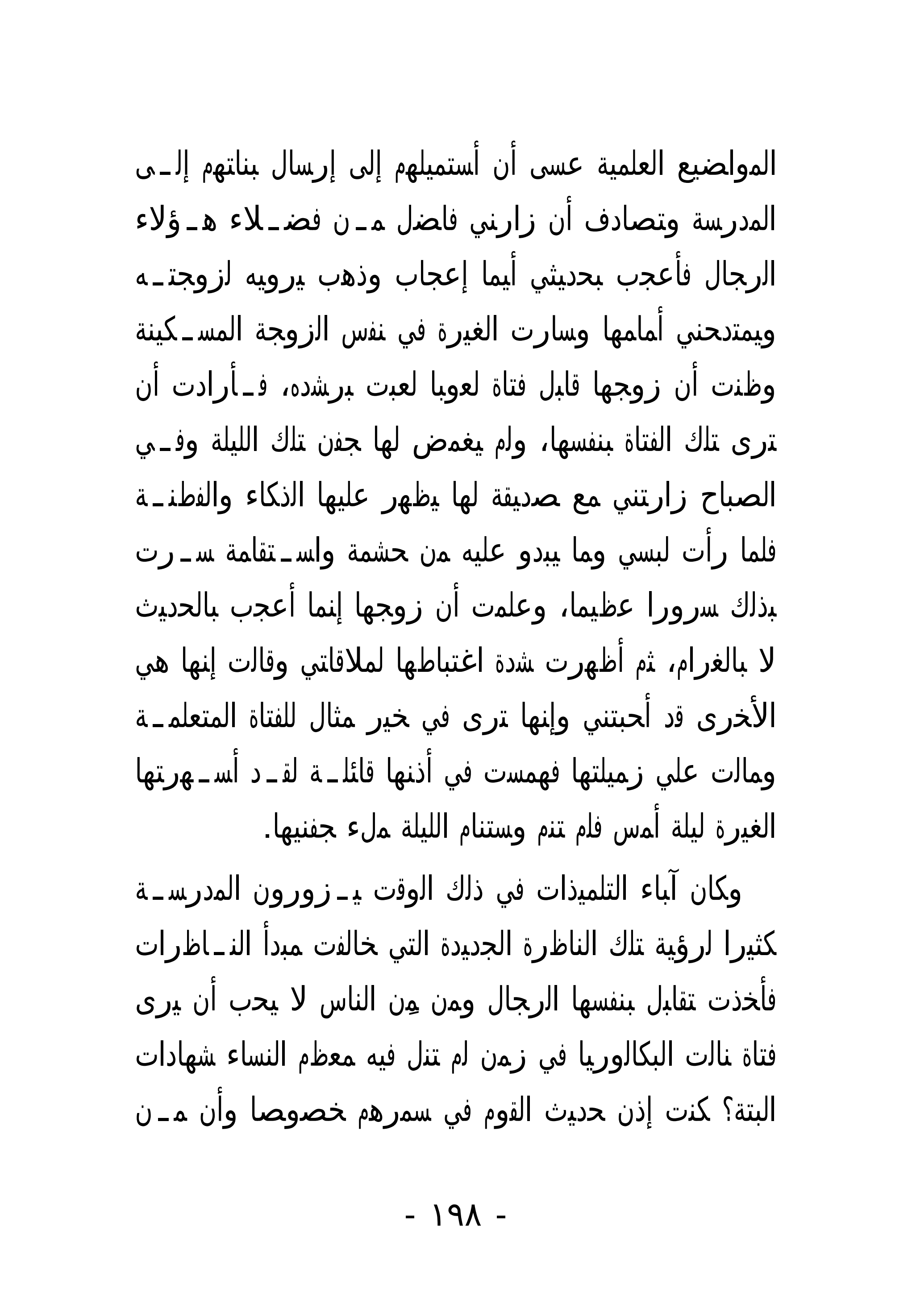
على أنه استطرد بعد ذلك فقال: إني إلى الآن لا أعرف ما الذي أغضبك من كلمة بريئة كهذه؟ قلت: لم أغضب من



الكلمة بالذات، ولكن ساءني أنكم، أي الرجال، لا تعرفون كيف تخاطبون النساء، ولا بدع في ذلك، فإنكم لم تخاطبوا قبل اليوم إلا نساءكم وعلي إذن أن أعلمكم مخاطبة النساء أثناء العمل فإنها يجب أن تنصرف كلها إلى ذلك العمل، وأن لا تخرج عن مواضعه وإلا كانت عرضة لسوء الظن.

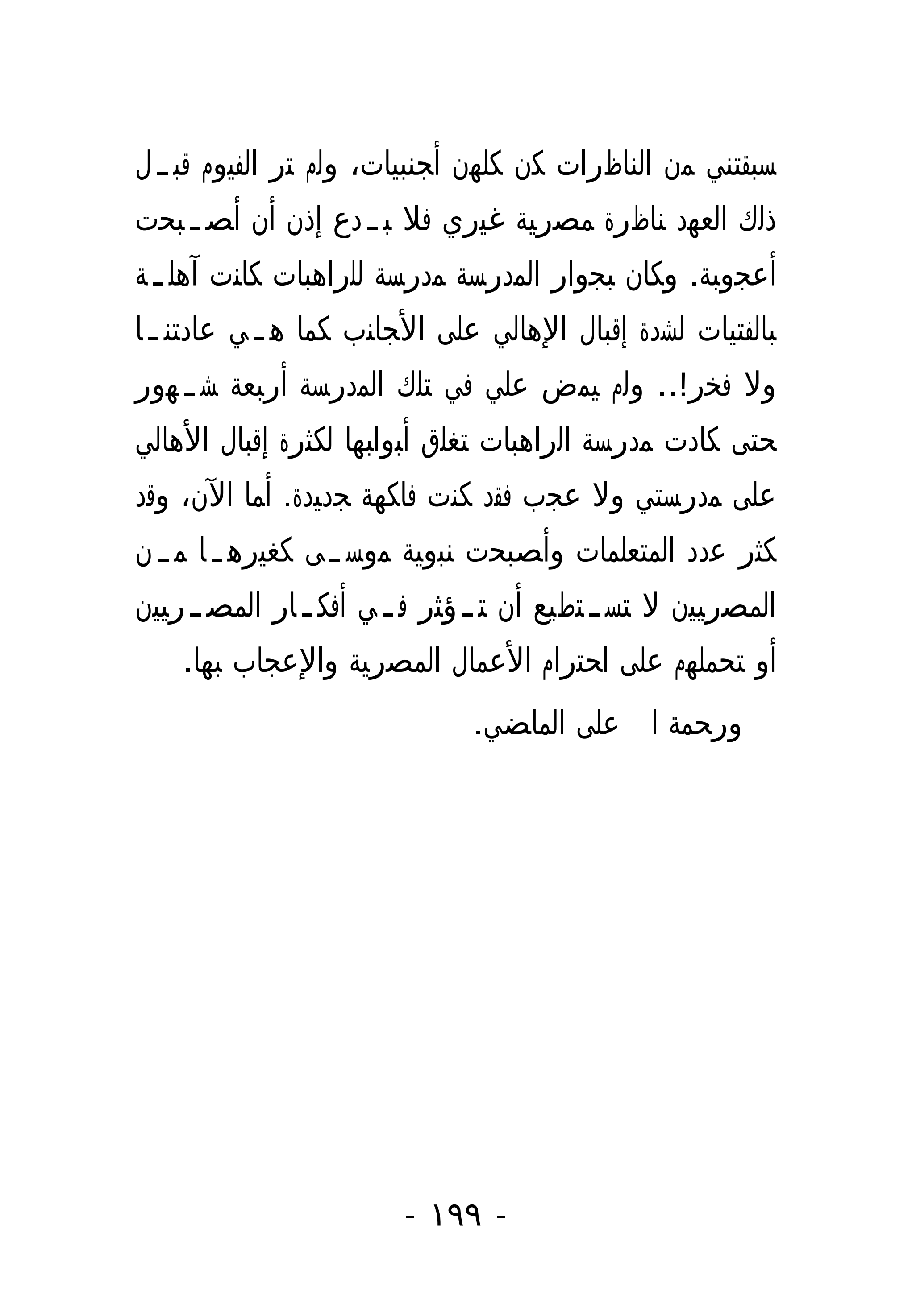
خرج الرجل من عندي وهو في غاية الخجل. وفي اليوم التالي زارتني امرأته فأكدت لي أن زوجها رجل شريف لا يعرف مداعبة النساء وأني قد أسأت الظن فيه بلا مبرر. وكأن الرجل قد خشي أن أشكوه فأرسل من يشفع له عندي – فقلت لها: لم أتهمه بشيء من هذا يا سيدتي، ولم تكن أمامه امرأة حتى أظن أنه داعبها، المسألة مسألة أن هؤلاء الرجال لا يعرفون بعد معاملة النساء، وقد أردت أن أرشده إلى كيفية تلك المعاملة أما أنا فلا أخشى على نفسي من رجل وليس في منظري ما يدعو إلى ريبة. واطمأنت المرأة على زوجها وعلمت أني لن أشكوه إلى سعادة المدير فقبلتني بالإكراه وشكرتني وانصرفت.

كنت كما قدمت أريد أن أفهم الرجال ثقافة المرأة الجديدة وكمالها مع تلك الثقافة، فكنت أتحدث إليهم طويلاً في



المواضيع العلمية عسى أن أستميلهم إلى إرسال بناتهم إلـى المدرسة وتصادف أن زارني فاضل مـن فضـلاء هـؤلاء الرجال فأعجب بحديثي أيما إعجاب وذهب يرويه لزوجتـه ويمتدحني أمامها وسارت الغيرة في نفس الزوجة المسـكينة وظنت أن زوجها قابل فتاة لعوبا لعبت برشده، فـأرادت أن ترى تلك الفتاة بنفسها، ولم يغمض لها جفن تلك الليلة وفـي الصباح زارتني مع صديقة لها يظهر عليها الذكاء والفطنـة فلما رأت لبسي وما يبدو عليه من حشمة واسـتقامة سـرت بذلك سرورا عظيما، وعلمت أن زوجها إنما أعجب بالحديث لا بالغرام، ثم أظهرت شدة اغتباطها لملاقاتي وقالت إنها هي الأخرى قد أحبتني وإنها ترى في خير مثال للفتاة المتعلمـة ومالت علي زميلتها فهمست في أذنها قائلـة لقـد أسـهرتها الغيرة ليلة أمس فلم تنم وستنام الليلة ملء جفنيها.

وكان آباء التلميذات في ذلك الوقت يـزورون المدرسـة كثيرا لرؤية تلك الناظرة الجديدة التي خالفت مبدأ النـاظرات فأخذت تقابل بنفسها الرجال ومن مِن الناس لا يحب أن يرى فتاة نالت البكالوريا في زمن لم تنل فيه معظم النساء شهادات البتة؟ كنت إذن حديث القوم في سمرهم خصوصا وأن مـن



سبقتني من الناظرات كن كلهن أجنبيات، ولم تر الفيوم قبل ذلك العهد ناظرة مصرية غيري فلا بدع إذن أن أصبحت أعجوبة. وكان بجوار المدرسة مدرسة للراهبات كانت آهلة بالفتيات لشدة إقبال الإهالي على الأجانب كما هي عادتنا ولا فخر!.. ولم يمض علي في تلك المدرسة أربعة شهور حتى كادت مدرسة الراهبات تغلق أبوابها لكثرة إقبال الأهالي على مدرستي ولا عجب فقد كنت فاكهة جديدة. أما الآن، وقد كثر عدد المتعلمات وأصبحت نبوية موسى كغيرها من المصريين لا تستطيع أن تؤثر في أفكار المصريين أو تحملهم على احترام الأعمال المصرية والإعجاب بها.

ورحمة ا على الماضي.

المعلمة الإنجليزية

أردت إصلاح المدرسة المحمدية بالفيوم إصلاحا صحيحا لأني وجدتها في حاجة شديدة إلى ذلك الإصلاح وما يضحك أني يوم توليت إدارتها ومررت على الفصول وجدت شيخًا من إخواننا سادة دار العلوم يدرس التدبير المنزلي، وقد وقع في (حيص بيص) كما يقال في كيف يكسر البيض الذي لم يعتد الرجل تكسيره، ولم تعتد التلميذات أيضا ذلك. فكن يعجزن عن أن يكسرن بيضة دون أن يتلفن صفارها.

اضطررت هنا أن أعالج الحالة، وأن أكسر البيض للتلميذات لأعلمهن كيفية كسرها، وأن أقضي على تلك الفوضى بإخراج ذلك المعلم من تدريس التدبير المنزلي وإعطائه دروسا في اللغة العربية بدل ذلك. وأعطيت دروس التدبير المنزلي لمعلمة لأنها أليق به مهما كان جهلها بتلك المادة ولو في ظاهر الحالة. وساء المعلم ذلك لأنه كان يتمتع ولو بتذوق الأطعمة، وكان هذا القرار قد حرمه من ذلك التمتع. ساءه ذلك، ولكني لم أصطدم به، ولم يصطدم بي لأني أخذت أحسن معاملته وأتجنبه.

انتهيت من ذلك الإصلاح وفكـرت فـي تعلـيم اللغـة الإنجليزية، وكانت تقوم بتدريسها معلمـة سـورية لا تكـاد تعرف منها إلا بضع كلمات، وأردت أن أبحث عن معلمـة أخرى من السوريات تستطيع أن تفهم اللغة التـي تدرسـها فأعلنت في الصحف ووصلني رسائل شتى مـن سـوريات مختلفات، ولم تكتب لي إحداهن مـن سـوء الحـظ باللغـة الإنجليزية بل كانت جميعهن يكتبن باللغة العربية إذا صح أن يقال إن لغتهن تلك كانت عربية. رأيت إذن أن أقابل هـؤلاء المعلمات قبل أن أختار من بينهن واحدة خشـية أن تكـون كالمعلمة التي بالمدرسة لا تستطيع التفاهم بتلك اللغـة التـي تدرسها. فزرت أغلبهن في منازلهن وعلمت أنهن لا يفضلن معلمتي في شيء، ويظهر لي أن كل سورية في ذلك الوقـت كانت تدعي العلم بأية لغة ما دامت تعرف ألف باء تلك اللغة. ومما أذكره أني زرت إحداهن وسألتها هـل تعـرف اللغـة الإنجليزية جيدا؟ قالت: أعرف سبع لغات، قلت: أسأل فقـط عن اللغة الإنجليزية. قالـت: أعرفهـا تمامـا. ورأيـت أن أختبرها فأخذت أتحدث معها بالإنجليزية وأخـذت تجيبنـي بنعم. أشكرك. وضايقتني تلك الإجابة لأني لم أفهم منهـا إذا

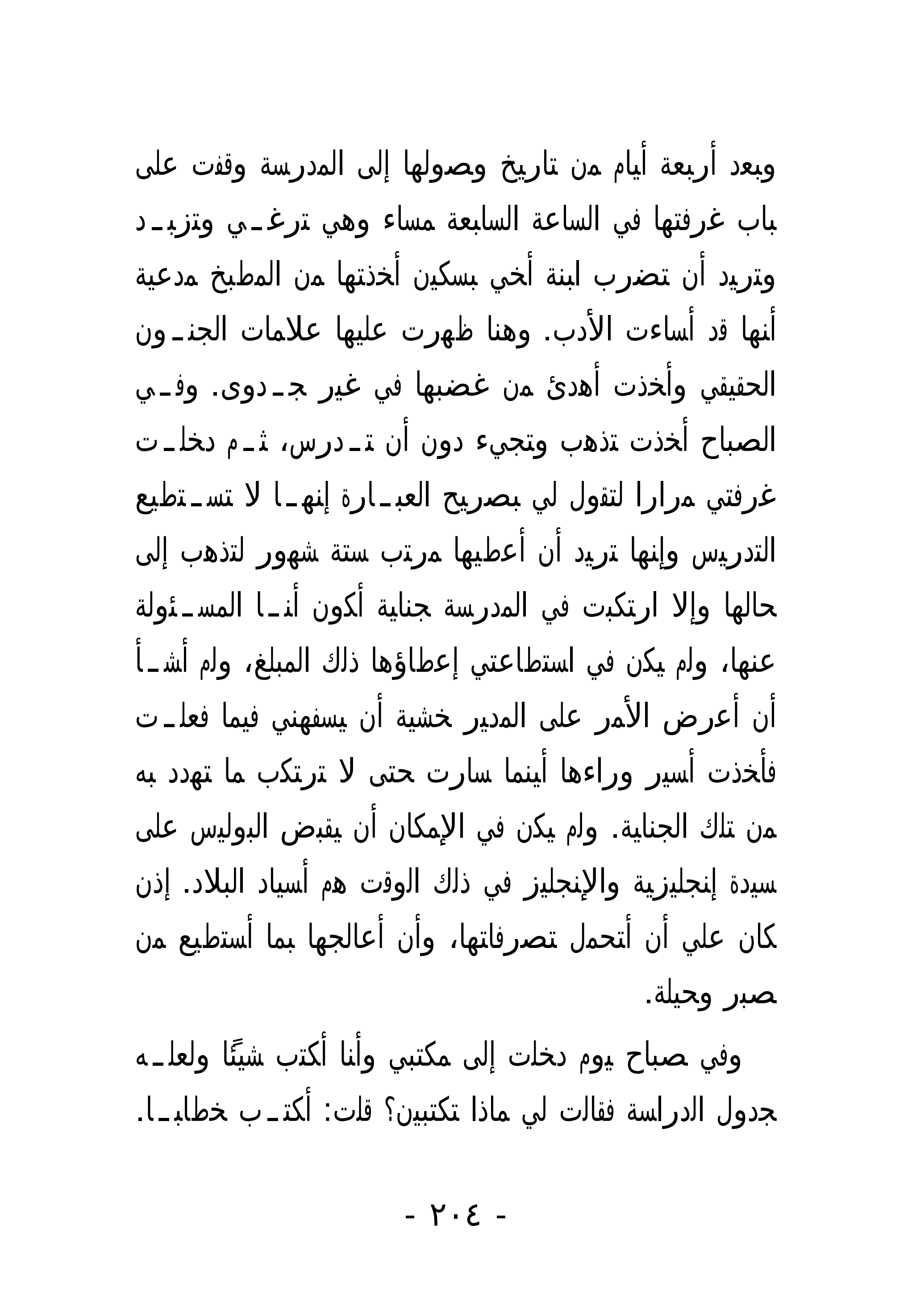
كانت واثقة تفهم ما تقول، أم هي تحفظ هاتين الكلمتين فتنطق بهما عندما أخاطبها دون أي فهم.

وأردت أن أختبر ذلك بنفسي فقلت لها: إن كل شيء بالمدرسة جميل إلا أنني أنا شخصيا اعتدت أن أضرب المعلمات أمام الصفوف بعصاتي. وكنت أظن أنها ستدهش لهذا الكلام إذا هي فهمته. ولكنها وهي لا تفهم شيئًا في اللغة الإنجليزية التي تريد تدريسها لم تظهر أية دهشة لهذا الخبر المضحك بل أجابتني: نعم أشكرك! لقد صدق ظني إذن في أنها لا تفهم شيئًا وهنا قلت لها: وأنا أيضا أشكرك. وتركت المكان.

عولت بعد ذلك أن أعين إنجليزية لتدريس اللغة الإنجليزية فذهبت إلى كونوت هاوس لأبحث عن معلمة إنجليزية هناك فلم تقبل إحداهن السفر إلى الفيوم واعتذرت إلى رئيسة المنزل، ولكني عند خروجي تبعتني سيدة إنجليزية كانت تجلس منفردة في ناحية من الصالة وقالت لي: إنني أنا أقبل ذلك العرض، ولكني لا أريد أن يعرض كلامي هذا على الرئيسة لأنها تكرهني بعض الشيء وكل عيبي في نظرها أن في أذني شيئًا بسيطًا من الصمم. قلت، ولكنك تسمعين.

قالت: نعم، ولكني لست حادة السمع كبـاقي الإنجليزيـات. قلت: لا بأس فليس هذا بالعيب العظيم. قالت: أعطنـي إذن عنوان المدرسة وسأكون عندك بعد يومين. وفـي الميعـاد المحدد وصلتني منها برقية فانتظرتها فـي محطـة الفيـوم وحضرت بها إلى المدرسة وأنا في أشد ما يكون من الغبطة والسرور حيث نجحت في إصلاح تعليم اللغة الإنجليزية بعد أن كان مهملاً. أكلت معها طعام العشاء وجهزت لها غرفة. وبعد شيء من السمر قامت كل منا إلى غرفة نومها.

ومن المدهشات أني في تلك الليلة حلمت أن تلك السيدة قد جنت ووقفت وبيدها سكين تتهدد ابنة أخي، وقد كانت تلميذة داخلية بالمدرسة، فاستيقظت من النوم مرعوبة أرتجف مـن هول ما رأيت، ولكني لم أعر ذلك أي التفـات بـل ظننتـه أضغاث أحلام وقصصت لها الحلم ونحن على مائدة الإفطار فظهر عليها الغضب والامتعاض وقالت ليس ذلـك بحلـم، ولكنك إنما اتصلت ببعض أعدائي، وهنا جاءني شـيء مـن الشك لأني كنت أظنها ستضحك من ذلك الحلم وتعتبره نوعا من التسلية، أما وقد أغضبها فقد ترك ذلك في نفسي أثـرا، ولكني كظمت غيظي وأكدت لها أن المسألة لا تعدو حلمـا.



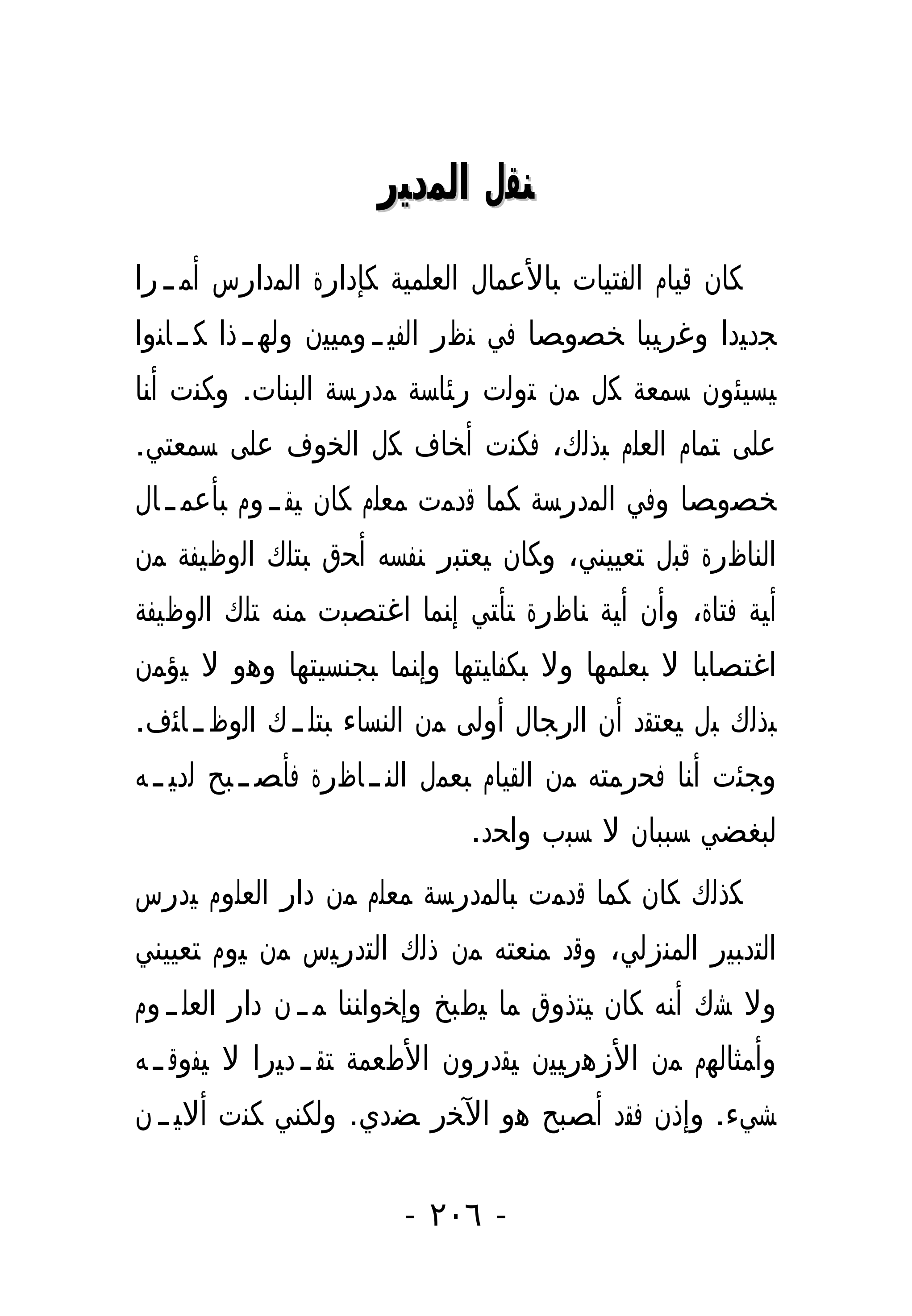
وبعد أربعة أيام من تاريخ وصولها إلى المدرسة وقفت على باب غرفتها في الساعة السابعة مساء وهي ترغي وتزبد وتريد أن تضرب ابنة أخي بسكين أخذتها من المطبخ مدعية أنها قد أساءت الأدب. وهنا ظهرت عليها علامات الجنون الحقيقي وأخذت أهدئ من غضبها في غير جدوى. وفي الصباح أخذت تذهب وتجيء دون أن تدرس، ثم دخلت غرفتي مرارا لتقول لي بصريح العبارة إنها لا تستطيع التدريس وإنها تريد أن أعطيها مرتب ستة شهور لتذهب إلى حالها وإلا ارتكبت في المدرسة جناية أكون أنا المسئولة عنها، ولم يكن في استطاعتي إعطاؤها ذلك المبلغ، ولم أشأ أن أعرض الأمر على المدير خشية أن يسفهني فيما فعلت فأخذت أسير وراءها أينما سارت حتى لا ترتكب ما تهدد به من تلك الجناية. ولم يكن في الإمكان أن يقبض البوليس على سيدة إنجليزية والإنجليز في ذلك الوقت هم أسياد البلاد. إذن كان علي أن أتحمل تصرفاتها، وأن أعالجها بما أستطيع من صبر وحيلة.

وفي صباح يوم دخلت إلى مكتبي وأنا أكتب شيئًا ولعله جدول الدراسة فقالت لي ماذا تكتبين؟ قلت: أكتب خطابا.

قالت: لمن؟ قالت: ذلك بخوف وارتباك ولاحظت ذلك عليهـا فقلت: لقنصل انجلترا. قالت: لماذا؟ قلـت: لأشـكوك إليـه. قالت: أو أنت فاعلة؟ قلت: نعم لا شك في ذلك. فخرجت من مكتبي مسرعة وعادت ومعها حمال حمل حقائبها وخرجت، ولكنها لم تترك غرفة نومها مفتوحة بـل أغلقتهـا وأخـذت مفتاحها معها.

وصارحت المدير في ذلك الوقت بالحقيقة فقال إنه لا يرى أن نتقدم لفتح تلك الغرفة من غير استئذان السفارة البريطانية وهنا ذهبت إلى السفارة البريطانية وشرحت لهم الحقيقة فقال لي موظف السفارة الذي قابلني بعد أن قابل السفير لا حـرج عليك في فتح الباب والسفير جاد في البحث عنها وظهر لـي أنها معروفة لدى السفارة، وبعد أربعة أيام وصلني خطـاب من بورسعيد فيه مفتاح الغرفة ويظهر أنها خشيت مغبة بحث السفير عنها فسافرت من بورسعيد إلى إنجلترا.

وهكذا فوجئت بالصعب العسير في أول عمل توليته.



نقل المدير

كان قيام الفتيات بالأعمال العلمية كإدارة المدارس أمـرا جديدا وغريبا خصوصا في نظر الفيـوميين ولهـذا كـانوا يسيئون سمعة كل من تولت رئاسة مدرسة البنات. وكنت أنا على تمام العلم بذلك، فكنت أخاف كل الخوف على سمعتي. خصوصا وفي المدرسة كما قدمت معلم كان يقـوم بأعمـال الناظرة قبل تعييني، وكان يعتبر نفسه أحق بتلك الوظيفة من أية فتاة، وأن أية ناظرة تأتي إنما اغتصبت منه تلك الوظيفة اغتصابا لا بعلمها ولا بكفايتها وإنما بجنسيتها وهو لا يؤمن بذلك بل يعتقد أن الرجال أولى من النساء بتلـك الوظـائف. وجئت أنا فحرمته من القيام بعمل النـاظرة فأصـبح لديـه لبغضي سببان لا سبب واحد.

كذلك كان كما قدمت بالمدرسة معلم من دار العلوم يدرس التدبير المنزلي، وقد منعته من ذلك التدريس من يوم تعييني ولا شك أنه كان يتذوق ما يطبخ وإخواننا مـن دار العلـوم وأمثالهم من الأزهريين يقدرون الأطعمة تقـديرا لا يفوقـه شيء. وإذن فقد أصبح هو الآخر ضدي. ولكني كنت ألايـن

الاثنين وأعطف عليهما وأحترس منهما، وكنت لا أقبل على سمعتي أية ريبة. حتى لا أجعل لهما ولا لغيرهما سبيلاً إلـى الخوض في عرضي. ولهذا كتبـت علـى بـاب المدرسـة "لا تقابل الناظرة أحدا من الرجال قبل الساعة الثامنة صباحا ولا بعد الرابعة بعد الظهر" أي أني لا أقابل الرجال إلا فـي أوقات العمل المعينة للدراسة. والمدرسة في ذلك الوقت تكون مكتظة بالمعلمين والمعلمات والتلميذات أيضا فلا شبهة علي في أني أقابل أحدا. وكان حضرة صاحب الرفعة محمد باشا محمود يقرني على كل ما أفعله ولا يتدخل في أعمالي.

وفجأة انقضى عهده ونقل محافظًا لبورسعيد وخلفه غيـره وعز على المدير الجديد أن يكون للناظرة وهي مرءوسة له أوامر ونواهي فكان أول ما فعله أن أرسـل إلـي سـكرتير مجلس المديرية الساعة السابعة مساء فرفضت طبعا مقابلتـه وقلت للبواب أن يخبره أني لا أقابل الرجال إلا فـي وقـت العمل، وأني الآن منفردة في المدرسة فلا يجـوز أن يـدخل عندي رجل مهما كانت الأسباب، وقال السكرتير إنه مرسـل من قبل سعادة المدير. قلت: ولو!

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المدير لأعتذر إليه عـن رفضي وأشرح له الأسباب. فقلت لـه: إنـي لا أزال فتـاة صغيرة وأقيم في المدرسة وحدي ودخول الرجال علي وأنـا منفردة يعرض شرفي للقيل والقال. قال: ولكنه مرسل مـن قبلي. قلت: إن الناس لا يعلمون تلك الرسالة وهم فقط يرون رجلاً يدخل في منزل تقيم فيه فتاة وحدها. على أنـك أنـت شخصيا لا تستطيع أن تضمن سلوك مرءوسيك فهبني فتـاة فاسدة الأخلاق، وافرض أن ذلك السكرتير على شاكلتي فمن الذي يضمن لك حسن مسلكنا، ونحن على انفراد بعيدين عن كل العيون؟ أليس من الأفضل أن ترسله أثناء النهـار حتـى لا نكون نحن الاثنين في خلوة؟ قال: ولكنه يعمل النهار فـي المجلس. قلت: إن عمله معي قليل لا فائدة فيه، وقـد قمـت بأعمالي في المدرسة الآن سبعة شهور دون أن يعمل معـي سكرتير من المجلس، والأعمال على مـا يـرام. وإذا كـان ولابد من حضوره إلي فلا بأس من أن يخلى من عمله ولـو نصف ساعة. قال: ولكن هذا أمري. قلت: إنك تأمر في كـل شيء اللهم إلا فيما يتعلق بشرفي شخصيا فلا أقبل فيه أمـرا

ولا نهيا. إني إنما جئت لأعمل في الدراسة وأثناء الدراسـة لا أن أعمل الليل والنهار.

وخرجت من عنده، وقد تأثر هو بعض الشـيء وأراد أن ينفذ طلبه بالقوة فأرسل إلي السكرتير بعد بضعة أيام لا فـي الساعة السابعة فحسب بل في التاسعة مساء ورفضت طبعـا دخوله إلى المدرسة. وتشبث هو وقال: إن هذا أمر المـدير وإنه لابد داخل. فقلت: للبـواب أن يخبـره إنـه إن دخـل فسأستدعي النيابة العمومية، فخاف وانصرف.

وبعد أيام من تلك الحادثة زارني المدير في مكتبي، وكان يضع في عروة سترته وردة حمـراء وجلـس جلسـة لـم أستحسنها منه. جلس تلك الجلسة على مكتبي بحيث التصـق بي فاضطررت أن أقف، وأن أقول له في شيء من الحـدة: إني لو أعلم أن المديرين يتغيرون بتلك السرعة لما أقـدمت على قبول تلك الوظيفة. قال: وهل يعين في وظيفة المـدير جندي؟ قلت: إني يا سيدي لا أخاف الشدة، ولكني إنما أشكو اللين. قال في شيء من الفكاهة: لم أسمع بأحد يشكو اللـين غيرك، ثم طلب أن يرى المدرسة فخرجـت معـه وكلانـا مغضبا. وتصادف أن صادفنا فراش يحمل على رأسه سبورة

وفي يده جردل وكاد يصدمني بسبورته فقلت في شيء مـن الغضب: "اوعى كده أنت راخر.. أنت حتاخد وشـي" فقـال المدير: إن هنا من هو أولى منه بذلك. فلـم أتمالـك نفسـي وقلت له: نعم لا أشك في أنك أولى منه بحمل تلك السـبورة والجردل أيضا. وتراشقنا بعد هذا بالألفاظ. ثم خرج مغضـبا يهدد بقوته وسلطانه.

ويظهر أن المدير شكا أمره إلى ناظر المدرسة الأميرية، وكان عضوا في اللجنة التي تدير المدرسة المحمدية التابعـة لمجلس المديرية وهي التي أديرها أنا وأوحى إليه أن يقـوم هو بدلاً عنه بالمناورة، وكان بالمدرسة معلمة تقطن في بيت ذلك الناظر، وكان حول اسمها واسمه إشاعة متداولة فقالـت لها يوما: إني أعلم يا سيدتي أنك فتاة فاضـلة، وأن النـاظر لا يقل عنك في الفضل، ولكن ما دام الناس يتكلمـون فـي حقكما أفليس من صالح التعليم أن تبتعدي عن منزله حفظـًا لسمعتك وكرامتك؟.. ويظهر أنها أخبرت الناظر بذلك.

وبعد يوم جاءني الناظر نفسه فجلس في مكتبي وأخذ يقول لي: إنه يعتبر تلك المعلمة كقريبة له وإنـه يتـولى أمرهـا بنفسه، وإن زوجته تغار منها وهو لا يدري ماذا يفعل، قلت:

إن الزوجة يجب أن تكون لها الحرية في المنزل وإذا كانـت زوجتك لا تريد تلك المعلمة وجب أن تخرج من هذه المنزل. قال: وأين تلبث؟ قلت: حيث تريد هي. قال: ولكنـي أغـار عليها أيضا ولا أتركها تبيت في أي منزل كان. قلـت: هـل يرضيك أن تبيت في منزل أخي؟ وكان أخي في ذلك الوقت وكيل نيابة في الفيوم. قال: إن ما بيني وبين زوجتـي مـن النزاع يصير بين أخيك وزوجته. قلت: إنه يتحمل من أجلي. قال: ولكني لا أقبل ذلك. قلـت: ومـاذا تريـد إذن؟ قـال: ما المانع في أن تبيت معك هنا في المدرسة؟ وأن تتنـازلي عن أوامرك فأزوركما في المساء في أي وقـت أردت، وأن تعتبرينني قريبك كما تعتبرني هي كوالدها. قلت: إن والـدي يا سيدي قد مات وليس لي من الأقارب إلا أخ واحد يقيم معنا في الفيوم، ولست أستطيع أن أختلق لي أقارب جدد ولا أسمح لرجل أن يدخل تلك المدرسة مساء، مهما كانت الظروف، إن أردت أن تقيم تلك المعلمة معي فـلا بـأس علـى شـرط ألا يزورها أحد. قال: إنني عضو في مجلس المديريـة، وإن المدير يضع سلطة تلك المدرسة في يدي وسـتندمين علـى

استبدادك هذا. قلت: لا أندم على شيء فإذا خرجت من ذلـك المكان بشرفي كان هذا كل ما أرجوه.

عز علي أن يكون اشتغالي بالتعليم سـببا فـي أن يفسـد الرجال أخلاقي وأنكرت على رجال التعلـيم كنـاظر تلـك المدرسة أن يقوموا بمثل تلك الأعمال الدنيئة فلم أتمالك مـن أن أقول له: إنك سافل وضيع لا شرف لك ولا كرامة. وفي أثناء ذلك دخل أخي علينا وسمع تلك الألفاظ ورآني في حدة، وقد اغرورقت عيناي بالدموع وما كدت أرى أخـي حتـى ذهلت وخشيت أن يعلم الأمر فلا يبقيني في الوظيفة بعـد أن يقتل ذلك الوغد، وكان أخي أقوى منه جسما فسكت وخـاف الآخر مغبة ذلك فسكت هو أيضا وجعل أخي يردد سـؤاله: ماذا جرى؟ ولا يجيبه أحد منا، أنا لأنني في حيرة أرجـو أن أخفي الأمر عليه، والآخر لأنه خائف من أن أقول الحقيقـة فيكيل أخي له الضرب كيلاً، وقد لا يخرج من عندي سالما.

وأخيرا تداركت الأمر وقلت له: لا شيء.. إن هذا الرجل يتدخل في أعمالي المدرسية. قال: أو لهذا التدخل يجوز لـك أن تقولي له "إنك سافل منحط لا شرف لك ولا كرامة". قلت: قد أكون مخطئة، ولكن هكذا دفعني الغيظ لأنـه قـال لـي

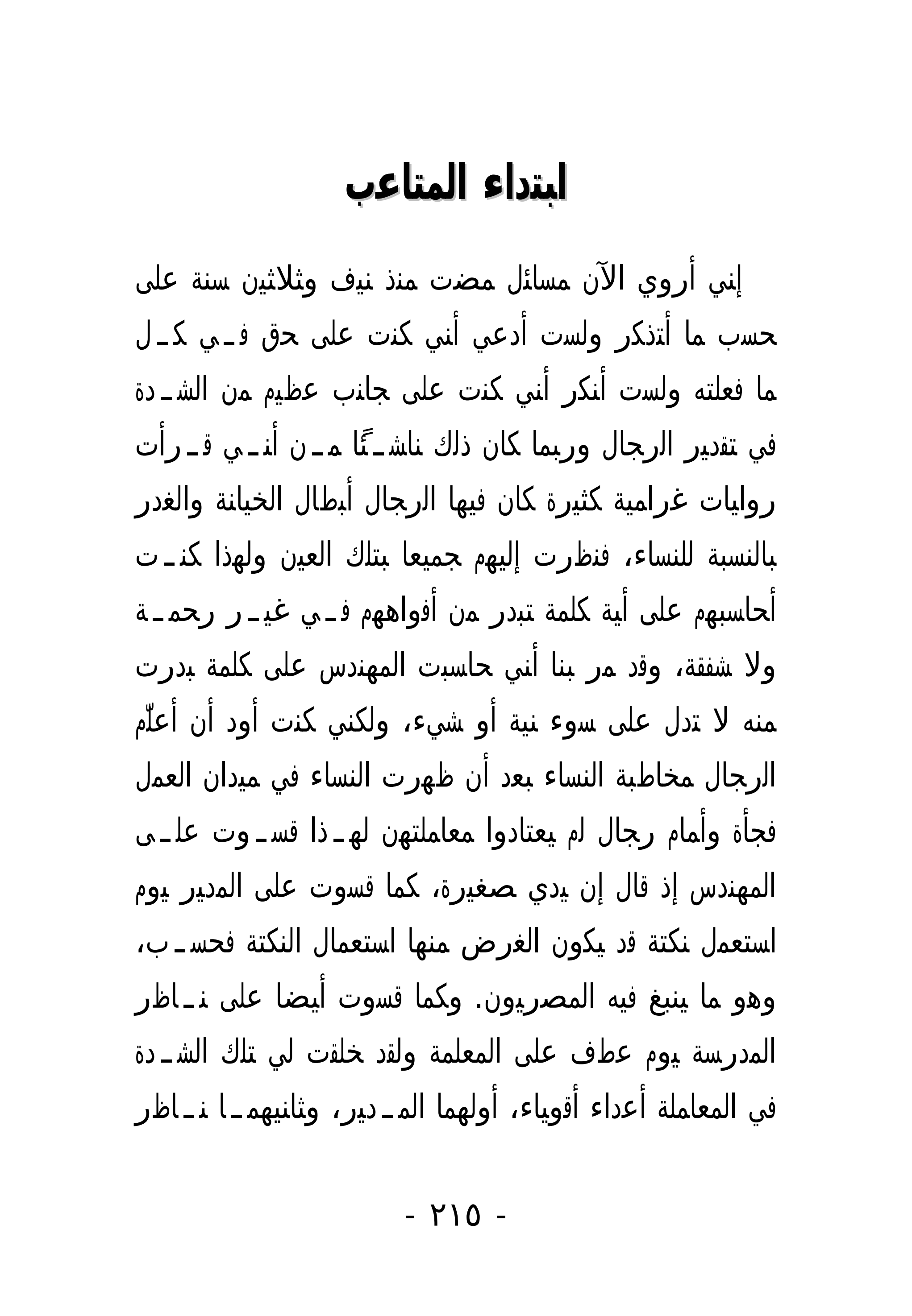
افرضيني قريبك وأنت تعلم أني لا أحـب قرابـة الرجـال. وأنقذت تلك الجملة ناظر المدرسة فقال: هذا كل ما قلته لها. ولم يعلم أخي أن عرض القرابة كـان عرضـا أراد بـه أن تكون علاقتي معه كعلاقة المعلمة الأخرى أي علاقة الريبـة والشك. فقال: لا تغضب يا أخي وسأكون أنا قريبك. قلـت: إذا كنت تريد أن تكون قريبه فلتكن تلك القرابة بعيدة عني.

وأخذ أخي الرجل من يده وأراد أن يخرج به، ولم يخجل صاحبنا من موقفه بل قال لي أمام أخي مرة أخرى: اعلمـي أن سلطة المدرسة في يدي وستندمين. قلت: لقد قلت لك إنني لا أندم وسأخرج من هذه المدرسة شريفة أضع قدمي علـى رأس كل سافل منكم، وعجب أخي من هذا التعبير وساورته الشكوك. فخرج به، ثم عاد إلي وقال: اصدقيني ما الخبـر؟ قلت: الخبر كما أخبرتك. قال: ولكن كلامكما الأخيـر يـدل على أن المسالة تتعلق بالشرف. قلت: أو تظن أن هناك رجلاً ينظر إلي نظرة الريبة؟ ليس فـي مـن الجمـال يـا أخـي ما يغري. هل عندك شك أني كنت ضده. قال: لا شك عندي في ذلك. قلت: إذن فلم أخفي أمره؟ فانصرف أخي.

ولقد فكرت إذ ذاك في الأمر فعلمت أن أخي لو عرف الحقيقة لانهال عليه ضربا ووصل الأمر إلى القضـاء، وهنـاك يقـول الناس: دخل عليها أخوها ومعها ناظر المدرسة فضربه ضـربا مبرحا. ولا شك أن هذا يعطي الناس فكـرة أن النـاظر كـان يداعبني برضى مني. لهذا أخفيت الأمر عن أخي كل الإخفاء.

وفي اليوم التالي جاءني الناظر فـدخل مكتبـي دون أن يحييني وبعد أن جلس قال: أتعلمين لم جئت؟ قلت: لا أعلـم الغيب. قال: إنما جئت لأعلم هل لا تزالين مصرة على رأيك بالأمس؟ وكأن إخفاء الأمر عن أخي جعله يظن أني رضيت بما عرض أو أني على الأقل أتردد في قبوله، قلت: أو تعلم أنت لم أذنت لك اليوم بالدخول؟ قال: إني أدخل بالرغم منك؟ قلت: كلا إنك من اليوم لن تدخل هذا المكتب وإنـي أمنعـك بكل قوة، وما أذنت لك اليوم، إلا لأني ظننـت أنـك كنـت سكران البارحة، وأنك جئت لتعتذر عن خطئك. أمـا وأنـت مصر عليه فلا أسمح لك بـدخول المدرسـة مـرة أخـرى ولا يهمني ما يترتب على ذلك فإن شرفي فوق كـل شـيء. قال: إذن سترين.

وخرج مسرعا.



ابتداء المتاعب

إني أروي الآن مسائل مضت منذ نيف وثلاثين سنة على حسب ما أتذكر ولست أدعي أني كنت على حق فـي كـل ما فعلته ولست أنكر أني كنت على جانب عظيم من الشـدة في تقدير الرجال وربما كان ذلك ناشـئًا مـن أنـي قـرأت روايات غرامية كثيرة كان فيها الرجال أبطال الخيانة والغدر بالنسبة للنساء، فنظرت إليهم جميعا بتلك العين ولهذا كنـت أحاسبهم على أية كلمة تبدر من أفواههم فـي غيـر رحمـة ولا شفقة، وقد مر بنا أني حاسبت المهندس على كلمة بدرت منه لا تدل على سوء نية أو شيء، ولكني كنت أود أن أعلّم الرجال مخاطبة النساء بعد أن ظهرت النساء في ميدان العمل فجأة وأمام رجال لم يعتادوا معاملتهن لهـذا قسـوت علـى المهندس إذ قال إن يدي صغيرة، كما قسوت على المدير يوم استعمل نكتة قد يكون الغرض منها استعمال النكتة فحسـب، وهو ما ينبغ فيه المصريون. وكما قسوت أيضا على نـاظر المدرسة يوم عطف على المعلمة ولقد خلقت لي تلك الشـدة في المعاملة أعداء أقوياء، أولهما المـدير، وثانيهمـا نـاظر

المدرسة الأميرية، وبيدهما كل الأمـر فـي إدارة مدرسـة البنات.

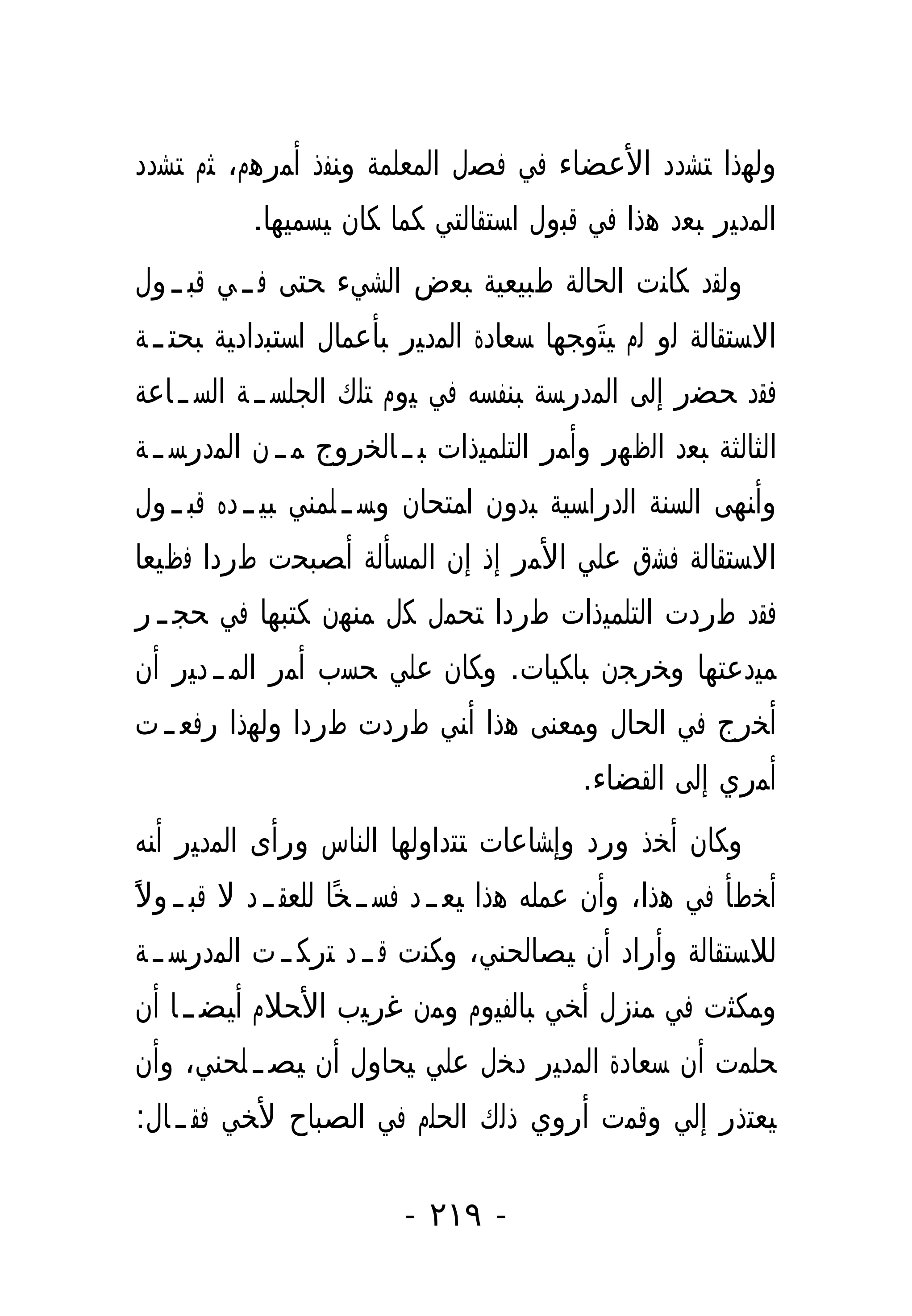
واشتهرت في مدينة الفيوم إذ ذاك بالشدة ولا فخر، وكان لسوء حظي أن زارني المرحوم حافظ بك إبراهيم فقال لـي إنه لا يوافق على ظهور النساء في العمل سافرات، وكنت إذ ذاك أكشف وجهي، فقلت له: إن المرأة إذا عملت وجـب أن تظهر بطبيعتها كما خلقها ا وليس في ذلك شيء. قـال: إن فيه إغراء. قلت: إنك متغال يا سيدي. فنحن المصريات ليس في خلقتنا الطبيعية إذا ظهرت كما هي ما يغـري الرجـال. وما دامت الفتاة منا تظهر أمام الرجال دون تبرج أو تغييـر في خلقتها الطبيعية، فلا خوف مـن إغـرائهم بهـا. قـال: أو تظنين أنه ليس في وجهك الطبيعي ما يغري؟ إن فيه شيئًا من علامات الجمال. أراد المرحوم بـذلك أن يعلـم مـدى أفكاري، وأن يجرب في قول شوقي: "خدعوها بقولهم حسناء" وقصد بما أراده علامة سوداء في وجهي فقلت له في شـدة: وا لولا مكانتك الأدبية لطردتك الآن. قال: ولم؟ هل أسأت أدبي في شيء؟ قلت: كلا، ولكنك في نظري أخطأت لأنـك دققت في وجهي حتى رأيت ما أسميه أنا تشويها فادعيت أنه

من محاسن الجمال. قال: هل في رؤيتي لوجهك خطأ؟ ألـم تري أنت وجهي أيضا؟ قلت: نعـم رأيـت رجـلا لا أقـل ولا أكثر، ولم أدقق في تقاطيع وجهك مثلما دققت أنت. قال: إذن السلام عليك وأشهد أنه يجوز لفتاة فقط فـي مصـر أن تكشف وجهها أما باقي الفتيات فلا. ثم تركني ومضى، ولـم ير من المدرسة إلا وجهي مع أنه كان يقصد زيارتها.

ولم أعبأ بكل تلك الشهرة التي زادها المرحوم حافظ بـك بل كتبت إلى المجلس أطلب فصل تلك المعلمة من مدرسـة البنات فازداد حنق سعادة المدير والناظر علي، وعمدا إلـى مضايقتي بشتى الطرق وأخيرا ثبت لدي أنـي لا أسـتطيع العمل معهما، فأردت أن أستقيل بطريقة تحفظ لي كرامتـي بعض الشيء، وقد كنت متعاقدة مع مجلس المديرية لمـدة ٣ سنوات لم أعمل منها إلا سبعة شهور ونصف، وكـان فـي العقد شرط ينص على أني إذا أردت ترك المدرسـة وجـب علي أن أخطر المجلس في شهر مايو أي قبل انتهاء الدراسة ليستعد لتعيين ناظرة غيري عند ابتداء الدراسـة، وأردت أن أعامل المجلس بالذمة والشرف، وأن أسـتقيل فـي الميعـاد المحدد لاستقالتي فكتبت أقول إذا لم تفصل تلك المعلمة مـن

العمل فإني لا أستطيع البقاء في المدرسـة ولهـذا أخطـر المجلس باستقالتي وإخلاء طرفي من المدرسة ابتداء من آخر سبتمبر المقبل. وقد أردت بذلك أن أنهي سـنتي المدرسـية وأقوم بامتحانات النقل وأسلم المجلس المدرسـة فـي حالـة مرضية في آخر سبتمبر، ولا شك أن شهور الإجازة من حق الناظرة التي عملت ابتداء من أول أكتوبر إلى آخر مايو وكنا في ذلك الوقت في يوم ٢٠ مايو.

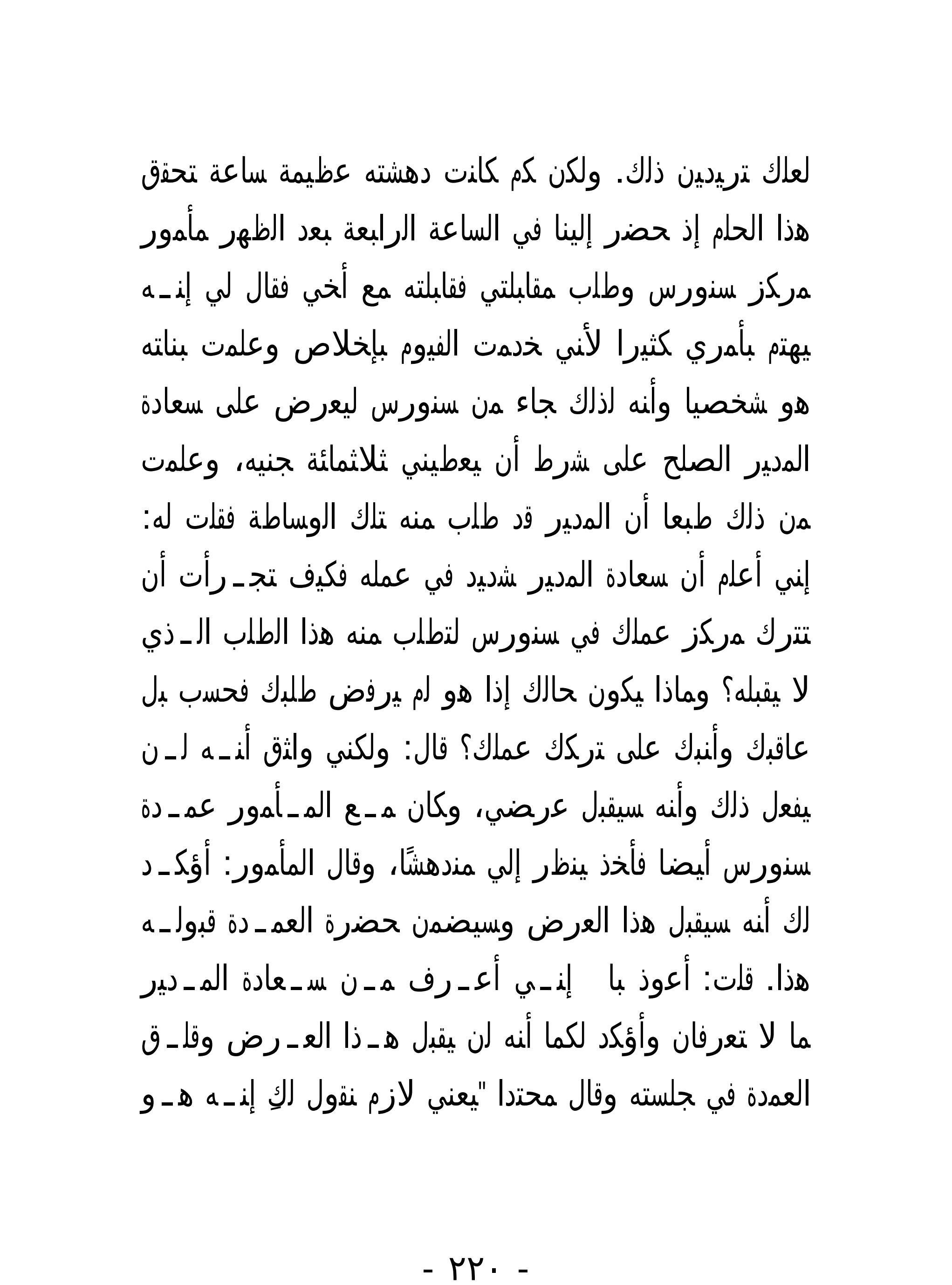
وما كادت تلك الاستقالة تصل إلى سعادة المـدير حتـى حركه الحقد للانتقام مني فعقد جلسة لمجلس المديرية بصـفة مستعجلة عرض عليهم فيها استقالتي ولما كـان الأعضـاء جميعهم يعلمون الإشاعات التي تدور حول تلك المعلمة فقـد صمموا على فصلها وقرروا ذلك في جدول الأعمـال قبـل النظر في استقالتي وبعد فصلها نظروا في استقالتي، وكـان المنطق يقضي ألا يكون هناك استقالة لأني طلبـت فصـل المعلمة وقلت إني إذا لم ينفذ هذا الشرط أعتبـر مسـتقيلة. وما دامت المعلمة قد فصلت فقد أجبت إلى طلبي ولا معنـى إذن للاستقالة، ولكنها الضغائن تفعل في النفوس مـا تشـاء



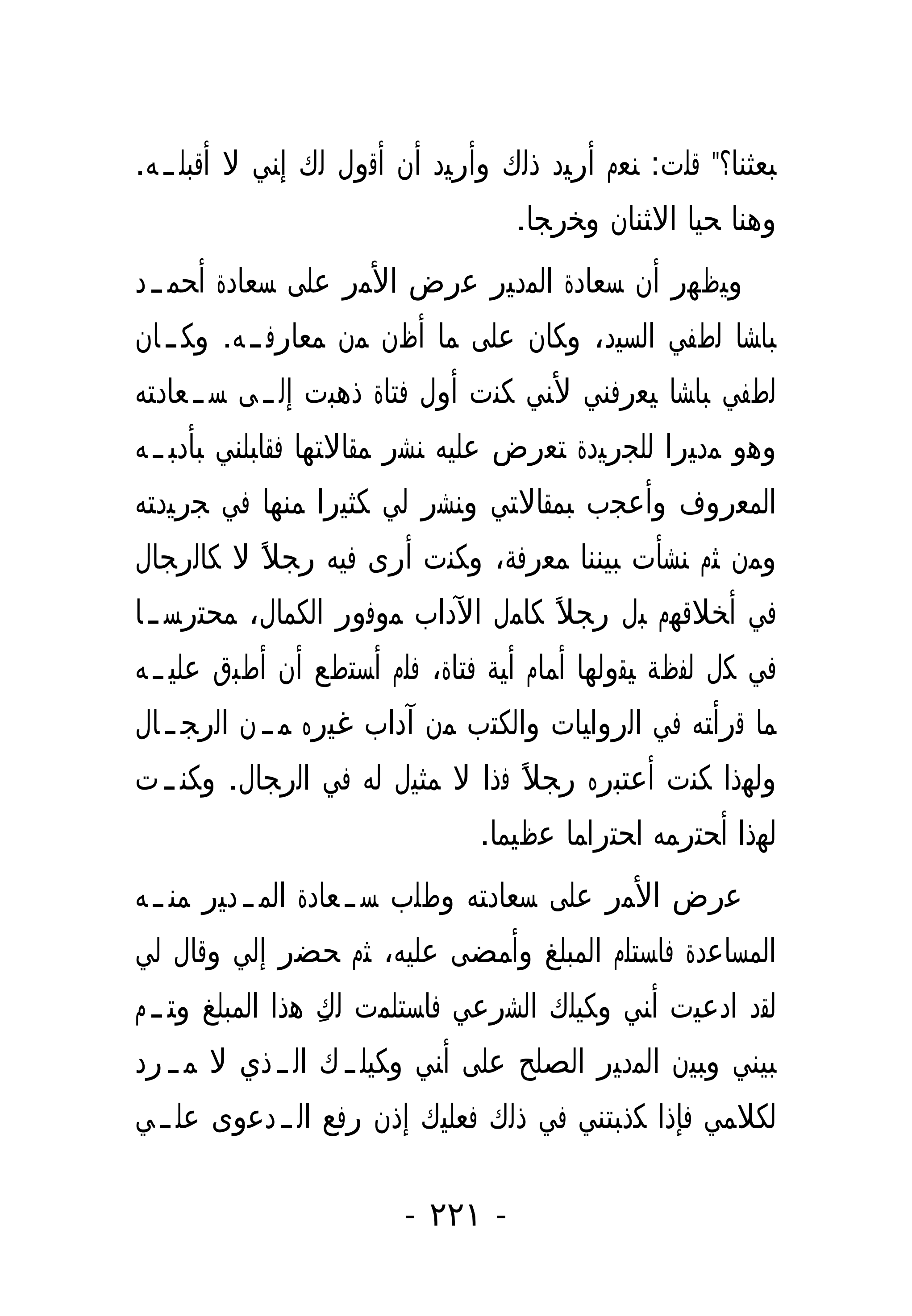
ولهذا تشدد الأعضاء في فصل المعلمة ونفذ أمرهم، ثم تشدد المدير بعد هذا في قبول استقالتي كما كان يسميها.

ولقد كانت الحالة طبيعية بعض الشيء حتى في قبول الاستقالة لو لم يتَوجها سعادة المدير بأعمال استبدادية بحتة فقد حضر إلى المدرسة بنفسه في يوم تلك الجلسة الساعة الثالثة بعد الظهر وأمر التلميذات بالخروج من المدرسة وأنهى السنة الدراسية بدون امتحان وسلمني بيده قبول الاستقالة فشق علي الأمر إذ إن المسألة أصبحت طردا فظيعا فقد طردت التلميذات طردا تحمل كل منهن كتبها في حجر ميدعتها وخرجن باكيات. وكان علي حسب أمر المدير أن أخرج في الحال ومعنى هذا أني طردت طردا ولهذا رفعت أمري إلى القضاء.

وكان أخذ ورد وإشاعات تتداولها الناس ورأى المدير أنه أخطأ في هذا، وأن عمله هذا يعد فسخًا للعقد لا قبولاً للاستقالة وأراد أن يصالحني، وكنت قد تركت المدرسة ومكثت في منزل أخي بالفيوم ومن غريب الأحلام أيضا أن حلمت أن سعادة المدير دخل علي يحاول أن يصالحني، وأن يعتذر إلي وقمت أروي ذلك الحلم في الصباح لأخي فقال:



لعلك تريدين ذلك. ولكن كم كانت دهشته عظيمة ساعة تحقق هذا الحلم إذ حضر إلينا في الساعة الرابعة بعد الظهر مأمور مركز سنورس وطلب مقابلتي فقابلته مع أخي فقال لي إنـه يهتم بأمري كثيرا لأني خدمت الفيوم بإخلاص وعلمت بناته هو شخصيا وأنه لذلك جاء من سنورس ليعرض على سعادة المدير الصلح على شرط أن يعطيني ثلاثمائة جنيه، وعلمت من ذلك طبعا أن المدير قد طلب منه تلك الوساطة فقلت له: إني أعلم أن سعادة المدير شديد في عمله فكيف تجـرأت أن تترك مركز عملك في سنورس لتطلب منه هذا الطلب الـذي لا يقبله؟ وماذا يكون حالك إذا هو لم يرفض طلبك فحسب بل عاقبك وأنبك على تركك عملك؟ قال: ولكني واثق أنـه لـن يفعل ذلك وأنه سيقبل عرضي، وكان مـع المـأمور عمـدة سنورس أيضا فأخذ ينظر إلي مندهشًا، وقال المأمور: أؤكـد لك أنه سيقبل هذا العرض وسيضمن حضرة العمـدة قبولـه هذا. قلت: أعوذ بالله إنـي أعـرف مـن سـعادة المـدير ما لا تعرفان وأؤكد لكما أنه لن يقبل هـذا العـرض وقلـق العمدة في جلسته وقال محتدا "يعني لازم نقول لكِ إنـه هـو



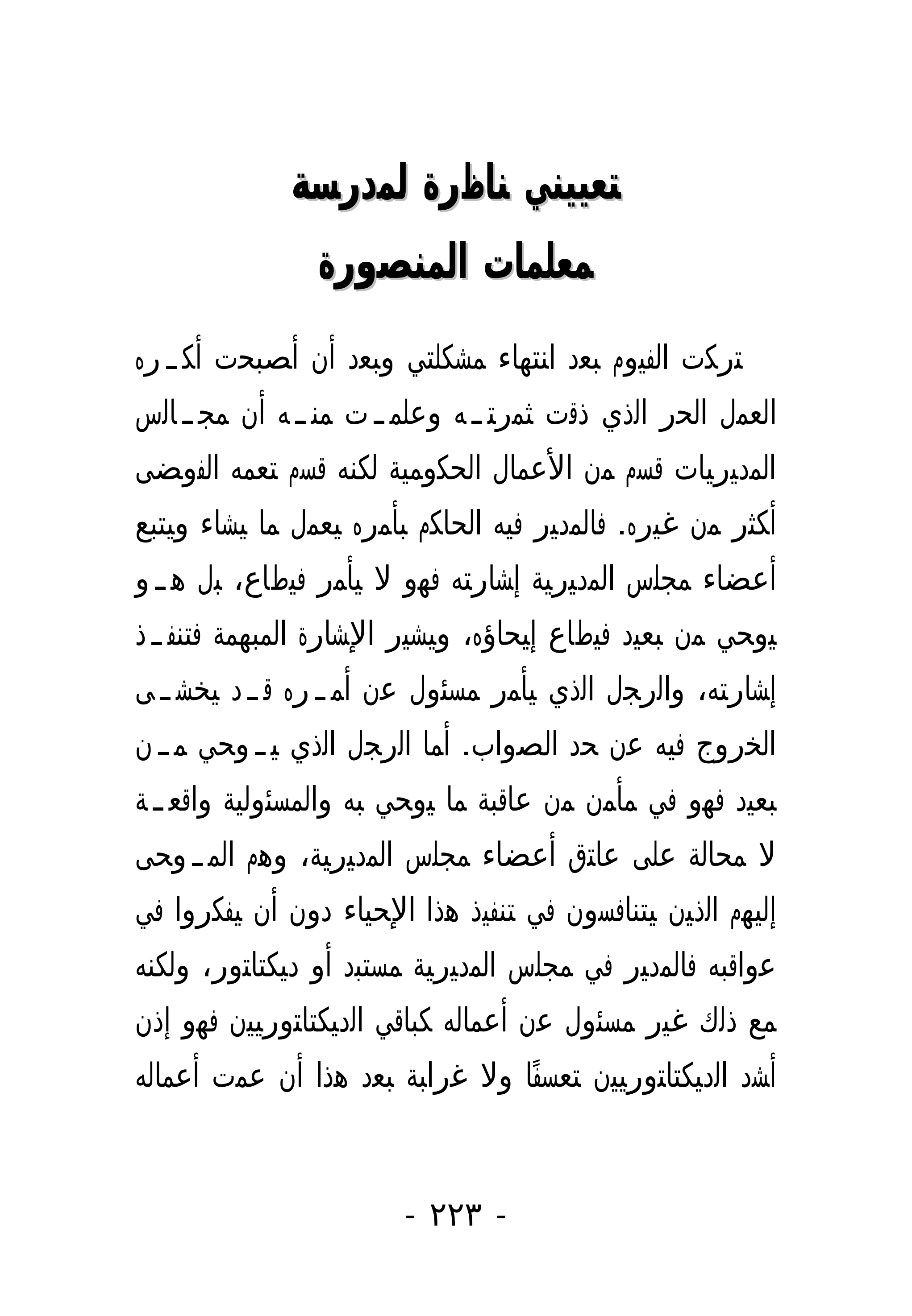
بعثنا؟" قلت: نعم أريد ذلك وأريد أن أقول لك إنني لا أقبلـه. وهنا حيا الاثنان وخرجا.

ويظهر أن سعادة المدير عرض الأمر على سعادة أحمـد باشا لطفي السيد، وكان على ما أظن من معارفـه. وكـان لطفي باشا يعرفني لأني كنت أول فتاة ذهبت إلـى سـعادته وهو مديرا للجريدة تعرض عليه نشر مقالاتها فقابلني بأدبـه المعروف وأعجب بمقالاتي ونشر لي كثيرا منها في جريدته ومن ثم نشأت بيننا معرفة، وكنت أرى فيه رجلاً لا كالرجال في أخلاقهم بل رجلاً كامل الآداب موفور الكمال، محترسـا في كل لفظة يقولها أمام أية فتاة، فلم أستطع أن أطبق عليـه ما قرأته في الروايات والكتب من آداب غيره مـن الرجـال ولهذا كنت أعتبره رجلاً فذا لا مثيل له في الرجال. وكنـت لهذا أحترمه احتراما عظيما.

عرض الأمر على سعادته وطلب سـعادة المـدير منـه المساعدة فاستلم المبلغ وأمضى عليه، ثم حضر إلي وقال لي لقد ادعيت أني وكيلك الشرعي فاستلمت لكِ هذا المبلغ وتـم بيني وبين المدير الصلح على أني وكيلـك الـذي لا مـرد لكلامي فإذا كذبتني في ذلك فعليك إذن رفع الـدعوى علـي

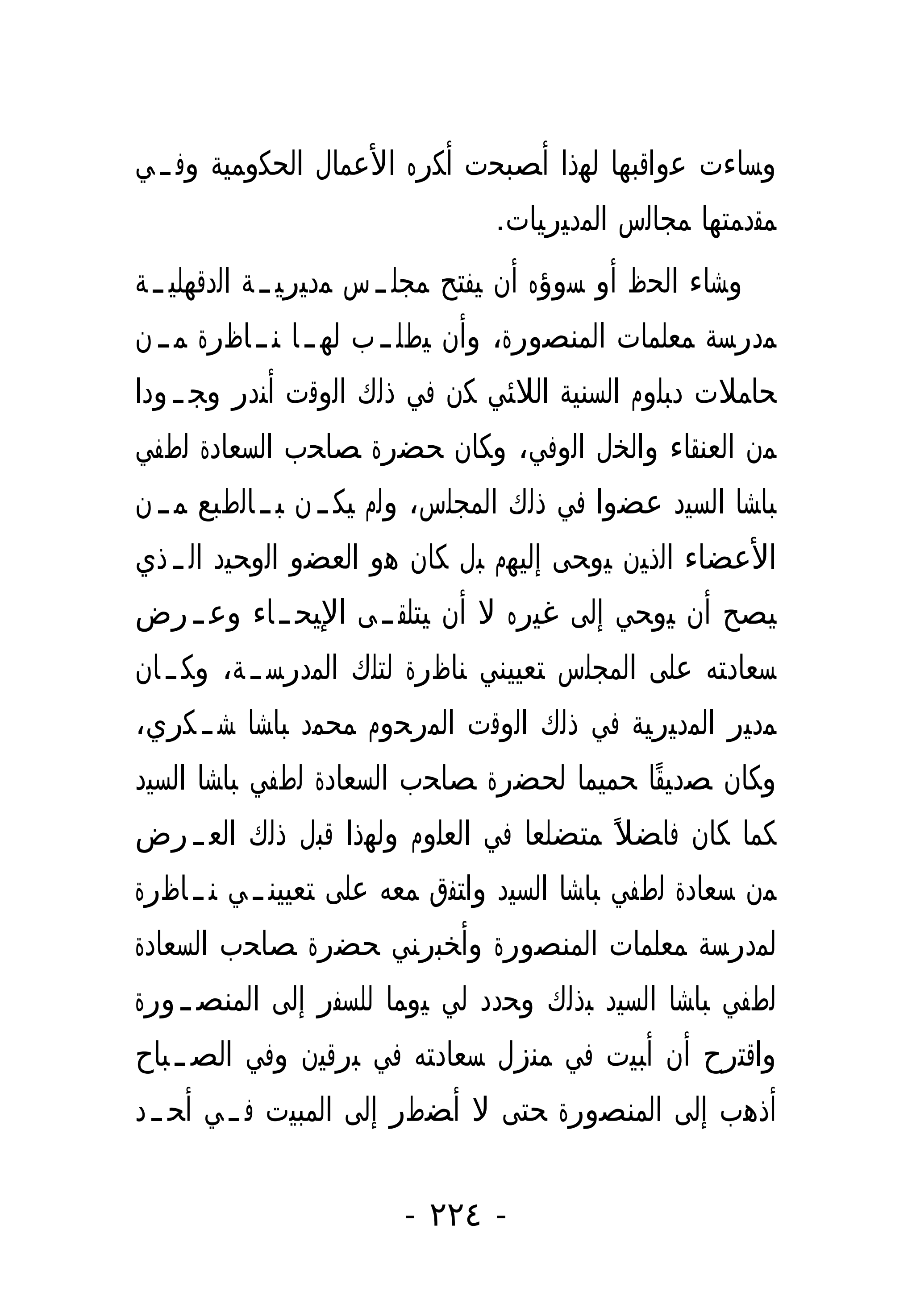


لا على المدير. وكان رفعـي الـدعوى عليـه مـن رابـع المستحيلات، وهكذا انتهت المسألة.



تعييني ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة

تركت الفيوم بعد انتهاء مشكلتي وبعد أن أصبحت أكـره العمل الحر الذي ذقت ثمرتـه وعلمـت منـه أن مجـالس المديريات قسم من الأعمال الحكومية لكنه قسم تعمه الفوضى أكثر من غيره. فالمدير فيه الحاكم بأمره يعمل ما يشاء ويتبع أعضاء مجلس المديرية إشارته فهو لا يأمر فيطاع، بل هـو يوحي من بعيد فيطاع إيحاؤه، ويشير الإشارة المبهمة فتنفـذ إشارته، والرجل الذي يأمر مسئول عن أمـره قـد يخشـى الخروج فيه عن حد الصواب. أما الرجل الذي يـوحي مـن بعيد فهو في مأمن من عاقبة ما يوحي به والمسئولية واقعـة لا محالة على عاتق أعضاء مجلس المديرية، وهم المـوحى إليهم الذين يتنافسون في تنفيذ هذا الإحياء دون أن يفكروا في عواقبه فالمدير في مجلس المديرية مستبد أو ديكتاتور، ولكنه مع ذلك غير مسئول عن أعماله كباقي الديكتاتوريين فهو إذن أشد الديكتاتوريين تعسفًا ولا غرابة بعد هذا أن عمت أعماله

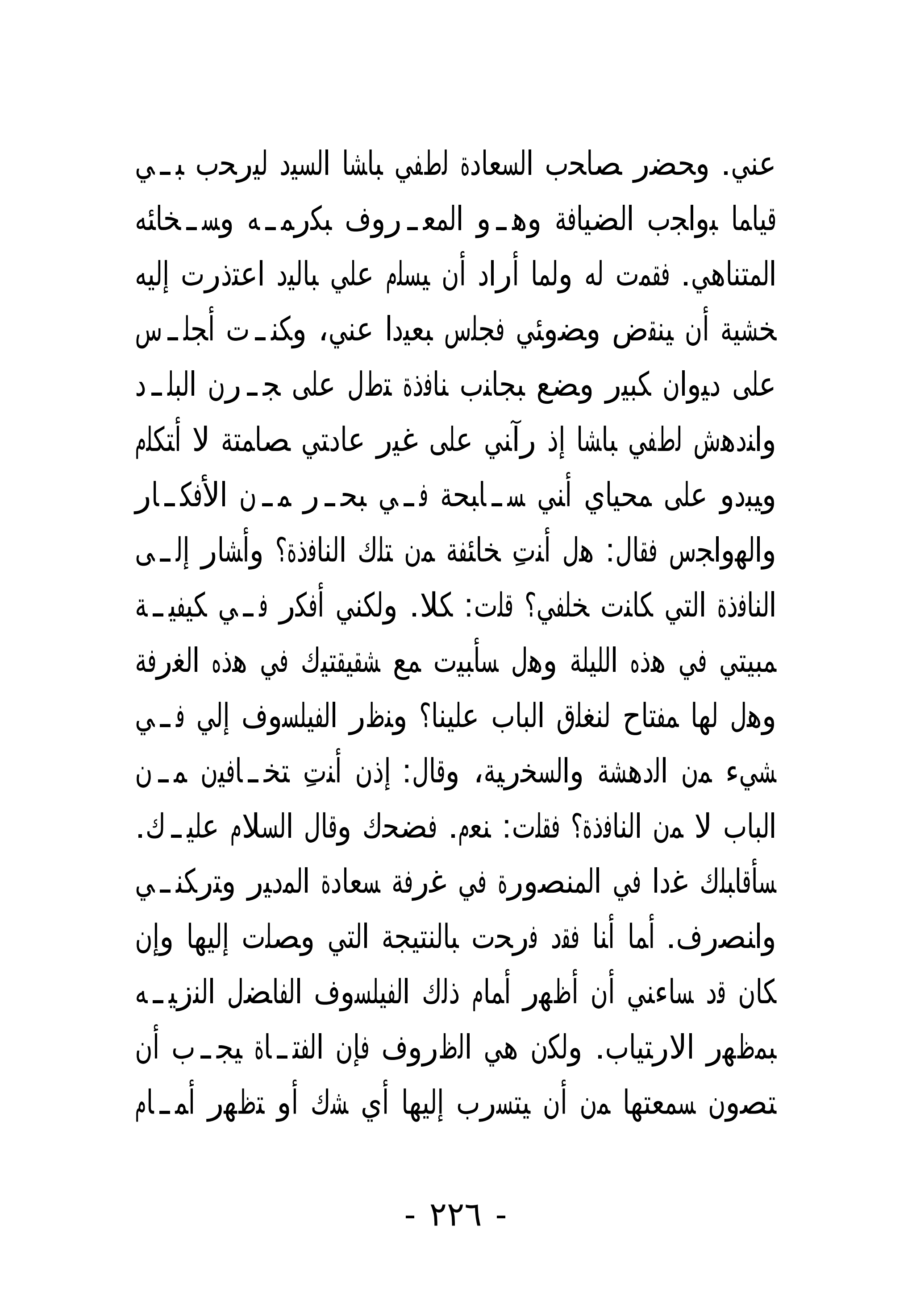


وساءت عواقبها لهذا أصبحت أكره الأعمال الحكومية وفي مقدمتها مجالس المديريات.

وشاء الحظ أو سوؤه أن يفتح مجلس مديرية الدقهلية مدرسة معلمات المنصورة، وأن يطلب لها ناظرة من حاملات دبلوم السنية اللائي كن في ذلك الوقت أندر وجودا من العنقاء والخل الوفي، وكان حضرة صاحب السعادة لطفي باشا السيد عضوا في ذلك المجلس، ولم يكن بالطبع من الأعضاء الذين يوحى إليهم بل كان هو العضو الوحيد الذي يصح أن يوحي إلى غيره لا أن يتلقى الإيحاء وعرض سعادته على المجلس تعييني ناظرة لتلك المدرسة، وكان مدير المديرية في ذلك الوقت المرحوم محمد باشا شكري، وكان صديقًا حميما لحضرة صاحب السعادة لطفي باشا السيد كما كان فاضلاً متضلعا في العلوم ولهذا قبل ذلك العرض من سعادة لطفي باشا السيد واتفق معه على تعييني ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة وأخبرني حضرة صاحب السعادة لطفي باشا السيد بذلك وحدد لي يوما للسفر إلى المنصورة واقترح أن أبيت في منزل سعادته في برقين وفي الصباح أذهب إلى المنصورة حتى لا أضطر إلى المبيت في أحد

الفنادق وهي عادة لم تكن مألوفة بين المصـريات فرحبـت بفكرة سعادته وشكرت له ذلك وذهبت إلى برقين وإذا بعربة المغفور له والده تنتظرني عند المحطة فأخذتني إلى منـزلهم العامر في برقين.

دخلت المنزل مغتبطة فقابلتني شـقيقتاه وزوجـة والـده بالترحيب كما هي عادة ذلك المنزل لكل طارق. جلست مـع الشقيقتين، وكان المنزل ينفذ الحجاب بالدقة، فلا يدخل أحـد من الرجال إلى محل الحريم، وعلمت أن هؤلاء الفضـليات من نساء برقين لم يقابلن رجلاً غريبا، ولم يتحدثن إلى رجل أجنبي عنهن. وهنا هالني الأمر وتساءلت في نفسـي مـاذا يكون رأيهن في مبيتي في منزلهن وتحدثي مـع شـقيقهن؟ ألا يبدو ذلك غريبا شاذا في نظر هؤلاء الفضليات؟ ولا يبعد بعد ذلك أن يحتقرني لخروجي عن الفضائل التي اعتـدنها. فكرت في ذلك فمادت بي الأرض وخشيت علـى سـمعتي السوء، ولم أدر ماذا أصنع وأردت أن أتجنب مقابلة حضـرة صاحب السعادة لطفي باشا السيد حتـى لا أظهـر أمـامهن بالخروج على فضـائلهن المتبعـة فطلبـت مـاء لأتوضـأ وتوضيت وصليت وجلست تائهة أفكر فيما عسـى أن يقـال



عني. وحضر صاحب السعادة لطفي باشا السيد ليرحب بـي قياما بواجب الضيافة وهـو المعـروف بكرمـه وسـخائه المتناهي. فقمت له ولما أراد أن يسلم علي باليد اعتذرت إليه خشية أن ينقض وضوئي فجلس بعيدا عني، وكنـت أجلـس على ديوان كبير وضع بجانب نافذة تطل على جـرن البلـد واندهش لطفي باشا إذ رآني على غير عادتي صامتة لا أتكلم ويبدو على محياي أني سـابحة فـي بحـر مـن الأفكـار والهواجس فقال: هل أنتِ خائفة من تلك النافذة؟ وأشار إلـى النافذة التي كانت خلفي؟ قلت: كلا. ولكني أفكر فـي كيفيـة مبيتي في هذه الليلة وهل سأبيت مع شقيقتيك في هذه الغرفة وهل لها مفتاح لنغلق الباب علينا؟ ونظر الفيلسوف إلي فـي شيء من الدهشة والسخرية، وقال: إذن أنتِ تخـافين مـن الباب لا من النافذة؟ فقلت: نعم. فضحك وقال السلام عليـك. سأقابلك غدا في المنصورة في غرفة سعادة المدير وتركنـي وانصرف. أما أنا فقد فرحت بالنتيجة التي وصلت إليها وإن كان قد ساءني أن أظهر أمام ذلك الفيلسوف الفاضل النزيـه بمظهر الارتياب. ولكن هي الظروف فإن الفتـاة يجـب أن تصون سمعتها من أن يتسرب إليها أي شك أو تظهر أمـام

غيرها من فضليات الفتيات بمظهر لم يألفنه من قبل فتكـون مضغة في الأفواه. والناس لا يعلمون إلا المشاهد والملموس أمامهم.

وفي اعتقادي أن المعلمة على الخصوص يجب أن تكون مثال الأدب والنزاهة والشرف إلى أبعد حد من حدود الكمال مهما كلفها ذلك لتكون قدوة صالحة أمـام تلميـذاتها، فـإن أضافت إلى نزاهتها الظاهريـة الباديـة نزاهـة السـريرة وما وراء الغيب فقد برهنت على أنها جديرة بمهنة التعلـيم والتهذيب وإلا فلا كان تعليم ولا تتوجه القدوة الحسـنة مـن جانب المعلمات.

خرجت في الصباح دون أن أقابل صاحب السعادة لطفـي باشا السيد كما أراد هو ذلك وتقابلنا في غرفة المغفـور لـه محمد باشا شكري وبعد كتابة العقد بيني وبين المجلس لمـدة خمس سنوات دعاني المغفور له لتناول الطعام مع حضـرة صاحبة العصمة حرمه، وكان المغفور له وقورا قليل الكلام يميل إلى الجد أكثر منه إلى الهزل حتى في أحاديثه.

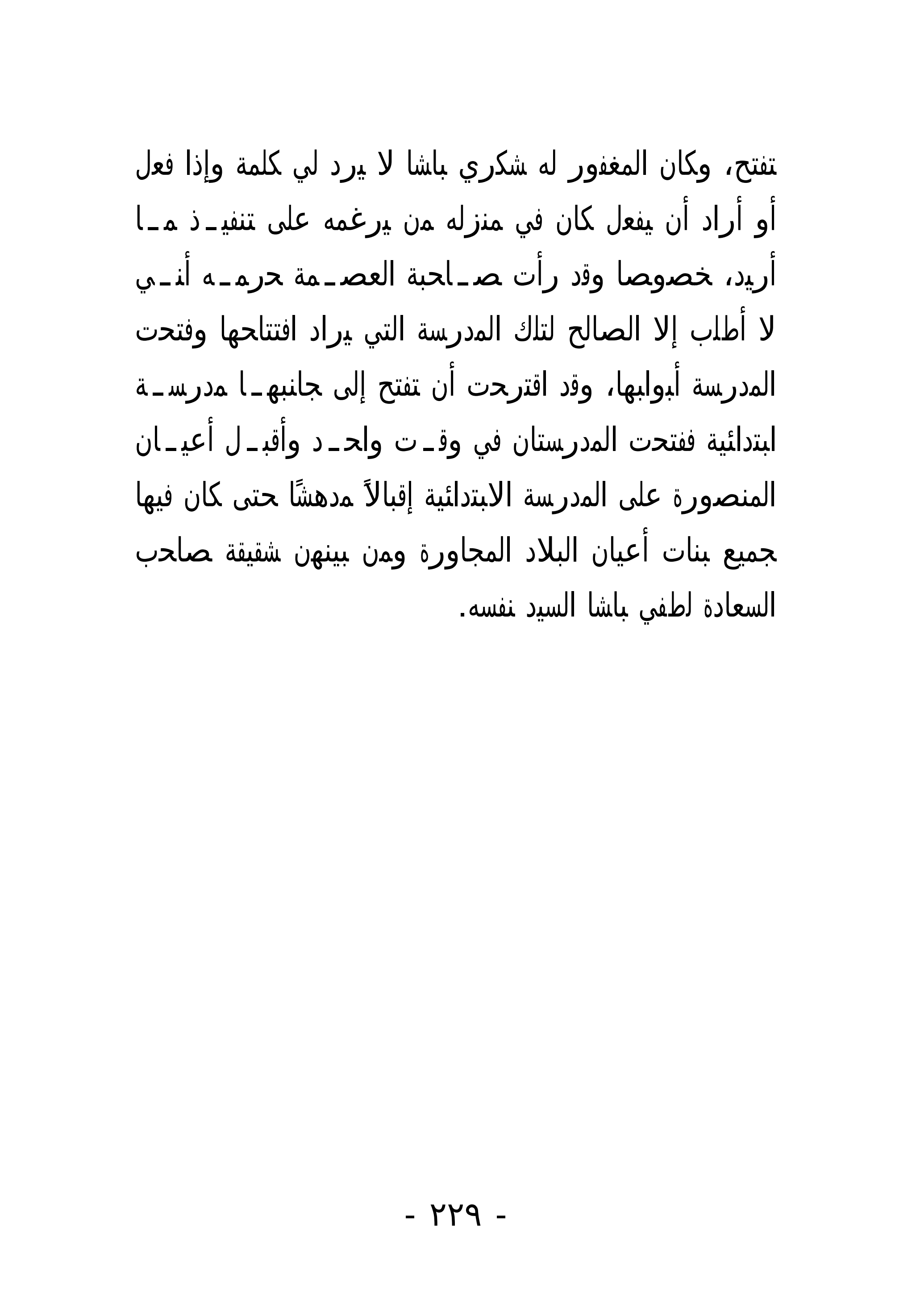
ذهبت إلى المنزل فقابلتني السيدة الجليلة حرمه بالترحيب وجلسنا نتسامر وإذا بي أقابل سيدة لا كسيدات ذلك العصـر

بل سيدة متعلمة سامية الأفكار تدير منزلها بالحكمة والروية، وكان المغفور له على تضلعه في العلم يخشى جانبها ويجلها كل الإجلال.

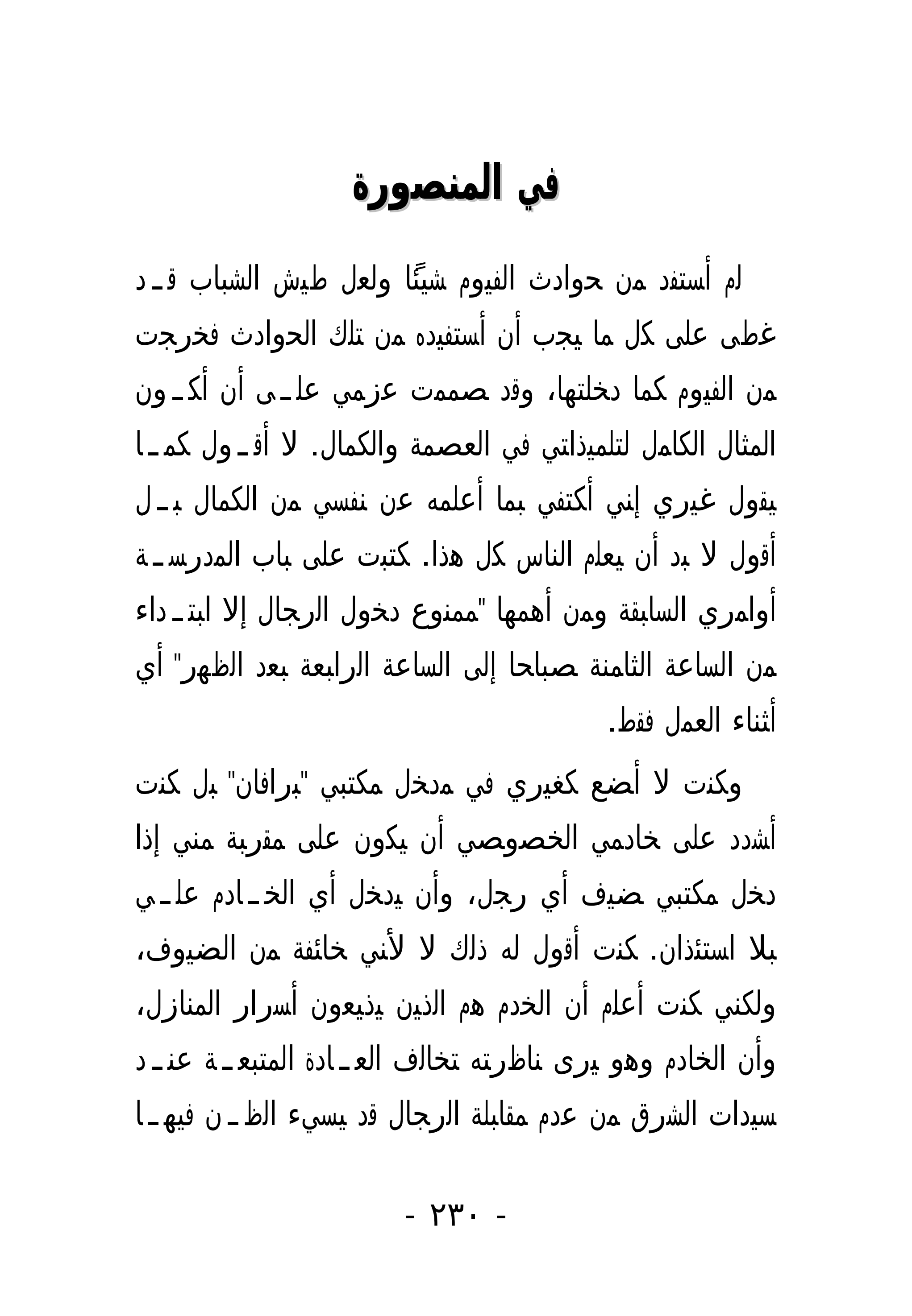
جلسنا نتحادث فقامت بيننا من اللحظة الأولى صداقة متينة فأخذنا نتسامر ونضحك، وقد أنِســتْ كــل منــا بــالأخرى. وحضر المغفور له في وقاره وسكينته، وكان قلبي قد اطمأن إلى حرمه المصون فعدت لا أخفي شــيئًا إذا أنــا تبســطت أو ضحكت. وهنا نظرت إلى سعادته في شيء من الدعابــة وقلت: لا تؤاخذني إذا أنا نسيت في خطابــك الآن أن أذكــر كلمة سعادتك، لأني لم أعتد خطاب العظمــاء فأنــا "أكــره سعادتك" من كل قلبي أريد بذلك الكلمة لا شخص المدير.

واضطر سعادة المدير أن يضــحك، وأن يقــول "أرجــو ألا تذكري تلك الكلمة ما دامت تعلمــك كراهتــي". وهكــذا توطدت بيني وبين صاحبة العصمة حرمه أواصر الصــداقة من أول مقابلة، وقد حرصت كل منا على تلك الصداقة إلــى اليوم.

وابتدأت عملي في مدرسة معلمــات المنصــورة بإعــداد المدرسة وشراء أثاثها، وترتيب كل ما يصلح لهــا قبــل أن



تفتح، وكان المغفور له شكري باشا لا يرد لي كلمة وإذا فعل أو أراد أن يفعل كان في منزله من يرغمه على تنفيـذ مـا أريد، خصوصا وقد رأت صـاحبة العصـمة حرمـه أنـي لا أطلب إلا الصالح لتلك المدرسة التي يراد افتتاحها وفتحت المدرسة أبوابها، وقد اقترحت أن تفتح إلى جانبهـا مدرسـة ابتدائية ففتحت المدرستان في وقـت واحـد وأقبـل أعيـان المنصورة على المدرسة الابتدائية إقبالاً مدهشًا حتى كان فيها جميع بنات أعيان البلاد المجاورة ومن بينهن شقيقة صاحب السعادة لطفي باشا السيد نفسه.



في المنصورة

لم أستفد من حوادث الفيوم شيئًا ولعل طيش الشباب قـد غطى على كل ما يجب أن أستفيده من تلك الحوادث فخرجت من الفيوم كما دخلتها، وقد صممت عزمي علـى أن أكـون المثال الكامل لتلميذاتي في العصمة والكمال. لا أقـول كمـا يقول غيري إني أكتفي بما أعلمه عن نفسي من الكمال بـل أقول لا بد أن يعلم الناس كل هذا. كتبت على باب المدرسـة أوامري السابقة ومن أهمها "ممنوع دخول الرجال إلا ابتـداء من الساعة الثامنة صباحا إلى الساعة الرابعة بعد الظهر" أي أثناء العمل فقط.

وكنت لا أضع كغيري في مدخل مكتبي "برافان" بل كنت أشدد على خادمي الخصوصي أن يكون على مقربة مني إذا دخل مكتبي ضيف أي رجل، وأن يدخل أي الخـادم علـي بلا استئذان. كنت أقول له ذلك لا لأني خائفة من الضيوف، ولكني كنت أعلم أن الخدم هم الذين يذيعون أسرار المنازل، وأن الخادم وهو يرى ناظرته تخالف العـادة المتبعـة عنـد سيدات الشرق من عدم مقابلة الرجال قد يسيء الظـن فيهـا

إلى حد بعيد، فأردت أن أغلق أمامه باب سوء الظن وأجعله يشعر أني لا أخلو برجل لأني قد أمرته أن يكون على مقربة مني بحيث يراني ويسمعني أي يسمع ما يدور بيني وبين ضيفي من الحوار.

وكنت إذا أردت أن أكتب إلى ناظر المدرسة الأميرية أو أحد موظفي مجلس المديرية خطابا أستفهم فيه عن شيء أو أطلب شيئًا أرسلت الخطاب مع خادمي مفتوحا حتى لا أترك له سبيلاً إلى الظن والتخمين فيقول: هؤلاء المتعلمات يكاتبن الرجال لغايات أخرى. بل كنت أريه الخطاب وأخبره مضمونه وأضعه أمامه في المظروف وأتركه مفتوحا وأسلمه إليه ليكون مطمئنًا إلى أن المسألة لا تتعدى العمل ولعل الزمن نفسه كان يتطلب مني ذلك الحرص فقد كان اللوم موجها إلى المتعلمات، وكثيرا ما كانت الصحف تحمل عليهن، وكان الجهلاء من الناس لا حديث لهم إلا الطعن في التعليم وتشويه سمعة المتعلمات.

فكان علي والحال هذه أن أبرهن لجميع هؤلاء أنهم مخطئون، وأن التعليم لا يفسد صالحا كما أنه لا يصلح فاسدا اللهم إلا قليلاً.

وكان لحسن حظي أن وثق الناس بي وتحدثوا عني بالخير ودفع هذا بعض أعيان المنصورة إلى زيارة المدرسة ليـروا تلك التي سمعوا عنها كثيرا، ولكن شاء سوء الحظ أن تكون زيارتهم بعد الساعة الرابعة، وألا يسمح لهم البواب بذلك لأن الناظرة تقيم وحدها في المنزل ولا تسمح لأحد من الرجـال بزيارتها إلا أثناء العمل.

عز عليهم الأمر، وقد كان بعضهم من أعضـاء مجلـس المديرية وهم لذلك يعتبرون أنفسهم أصحاب تلـك المدرسـة لا يجوز لأحد أن يرد لهم رأيا أو يناقشهم الحساب فيها.

عادوا من المدرسة غاضبين وشكوا أمرهم إلـى سـعادة المدير، وكان كما قدمت فاضلاً محبا للعلم، وكـان يـود أن تنجح المدرسة التي أسسها هو، وأن يثق الناس بالناظرة التي عينها، وكان يسره أن يسمع دائما فيها مدحا لا قدحا. فهـدأ من ثائرتهم وأفهمهم أني على حق فيما فعلت لأني على كـل حال فتاة صغيرة السن ولا يجوز لي أن أختلط بالرجال فـي غير أوقات العمل.

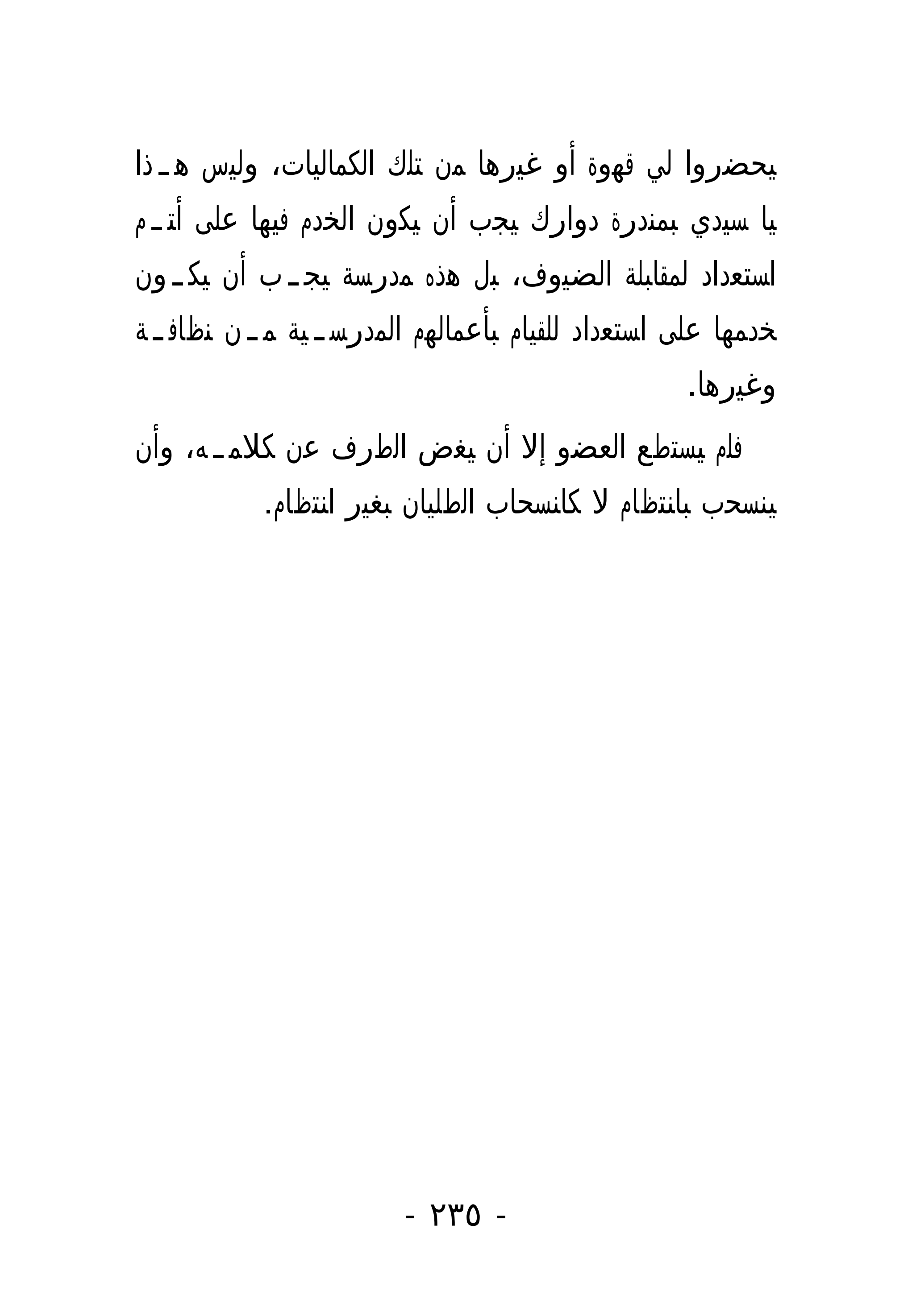
فعل ذلك، ثم أرسل إلي وقص علي القصة، وقـال: لقـد صممت أن أصدر أمري بألا يزورك أحد إلا بعد أن يأخـذ

إذني في زيارتك. قلت: أنا لا أعطيك هذا الحق ولست أنـت بقريبي ولا بولي أمري حتى تسمح بزيارتي أو تمنعها ولقـد صممت ألا يكون لرجل علي سلطان، ولو أردت ذلك لاتبعت الطريقة المشروعة. ومكانتك مني كمكانة كـل فـرد فـي المنصورة. فأنت رجل أجنبي عني وإذا كان يعيب المرأة أن ترى الرجل الأجنبي كانت رؤيتي لك عارا لا أقبله أمـا إذا كان كما أعتقد أن المرأة لا يعيبها أن تقابل الرجال ما دامت متمسكة بالفضيلة والكمال فلا بأس إذن من أن أقابلـك، وأن أقابل غيرك، أما أن تتحكم أنت في أموري الشخصية فهـو ما لا أقبله.

قال: لقد أردت أن أمنع عنك لوم الناس فأقول لهم إني أنا الذي أمنعها من مقابلتكم فلا يكون عليك مسئولية فـي عـدم مقابلتهم فلا يغضبون منك ولا يغضبون مني. قلـت: إنـي شخص كامل يجب أن أكون مسئولة عما أفعل ولا يهمني أن يغضب علي شخص أو أشخاص ما دمت على حـق فيمـا فعلت، وأنا أود أن أتحلى بالفضـيلة مختـارة لا مضـطرة والسجين المقيد لا يوصف بالأمانة. إنما يوصف بهـا مـن يستطيع السرقة، ولم يفعل. ولهذا أريد أمتنع عن الرجـال إذا

شئت أنا ذلك لا إذا شاء ذلك غيري. قال: جازاك ا ، أنـتِ تستحقين ما وصفوك به من الغلاظة والشدة. قلت: ولا بـأس في ذلك.

زارني بعد ذلك الرجال في أثناء العمل فسرتهم مقـابلتي وأعجبهم حواري وأثنوا على المدرسة ثناء حسـنًا وانتهـت المسألة بميل كل أعيان المنصورة إلي ودفاعهم عني. وكـان أعضاء مجلس المديرية يدعون دائما أنهم أولو الأمـر فـي مدارس المجلس، وكنت كثيرا ما أردهم إلى الصواب فيمـا يدعون. وتصادف أن زارني أحد هؤلاء الأعضاء فأحسـنت مقابلته ورحبت به كعادتي المألوفـة إذ ذاك لكـل طـارق، وأمرت الخادم أن يحضر القهوة، وكان مع العضـو ضـيف آخر وغابت القهوة فأظهر عضو المجلس غضـبه وتألمـه لتأخر القهوة عن الميعاد كأنه أراد أن يظهر للضيف الآخـر مقدار سلطته على المدرسة وناظرتها وخـدمها. فقلـت لـه ضاحكة: أو تظن أن فراشي سيحضرها؟ قال: ولم لا؟ قلت: لا يا سيدي إنك مخطئ. إني أعمل هنا ناظرة لمدرسة يهمني إتقان أعمالها المدرسية وبيني وبين خدمي اتفاق أنه إذا كـان مراحيض المدرسة مثلاً لم تنظف فعليهم أن ينظفوها قبل أن


يحضروا لي قهوة أو غيرها من تلك الكماليات، وليس هـذا يا سيدي بمندرة دوارك يجب أن يكون الخدم فيها على أتـم استعداد لمقابلة الضيوف، بل هذه مدرسة يجـب أن يكـون خدمها على استعداد للقيام بأعمالهم المدرسـية مـن نظافـة وغيرها.

فلم يستطع العضو إلا أن يغض الطرف عن كلامـه، وأن ينسحب بانتظام لا كانسحاب الطليان بغير انتظام.

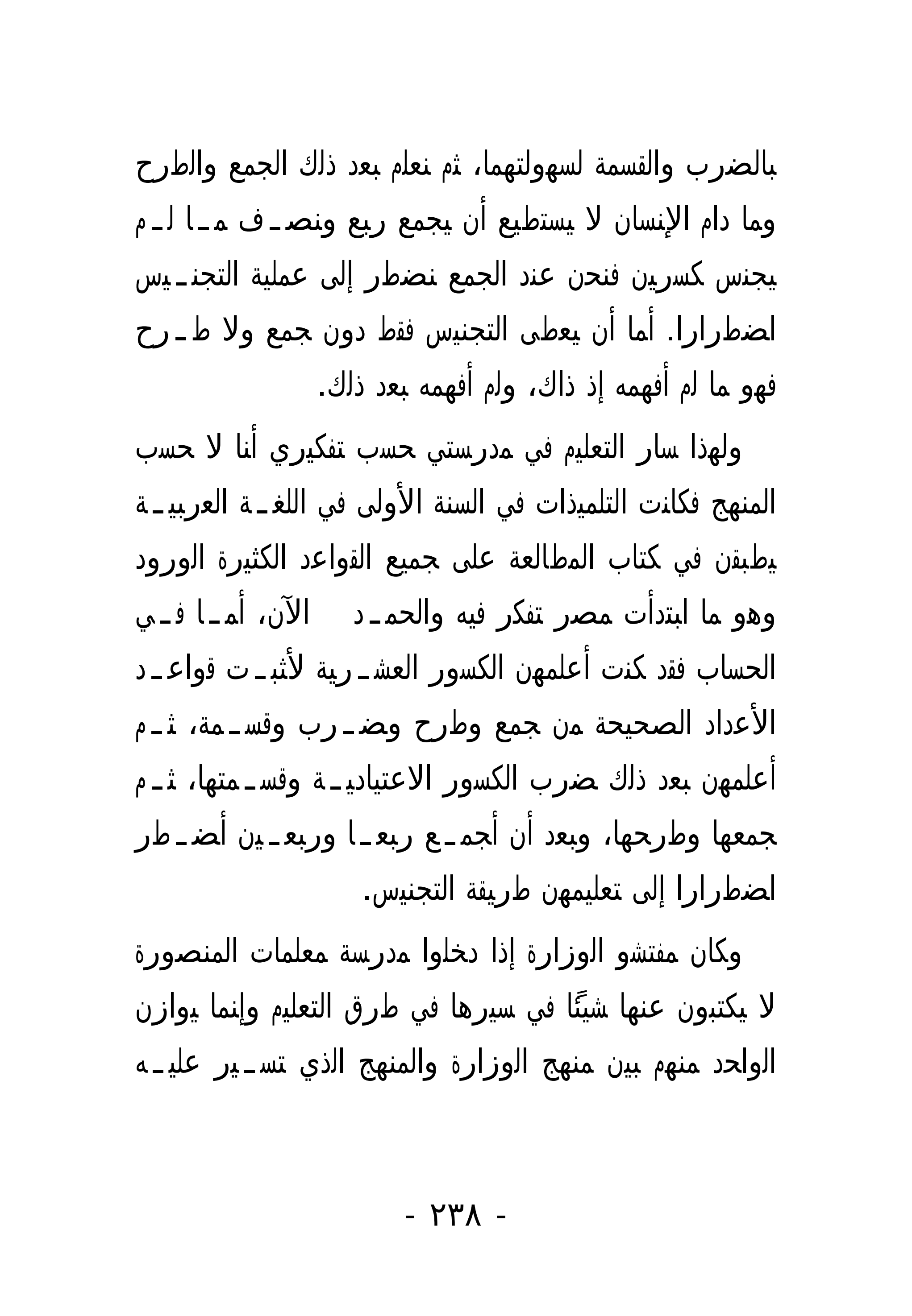
مناهج التعليم ومناورات وزارة المعارف للإشراف على مجالس المديريات في الماضي

كانت وزارة المعارف كثيرا ما تعطي السلطة لرجال لهم يهبهم ا من الخبرة ما ينالون به التوفيق في أعمالهم. فـإذا فتحت مدارس جديدة دبروا لها من المناهج مـا لا يسـتطيع الإنسان أن يسير به علميا في طريق النجاح. وكانت مدارس المعلمات في ذلك الوقت جديدة، وقد وضع لها منهج خـاص فكان فيه العجب العجاب.

لم تكن الطالبات تتعلم قواعد النحو في المدارس الأوليـة بل كانت تدخل مدارس المعلمات وهي لا تعرف شـيئًا مـن قواعد النحو في اللغة العربية. وكان المنهج يقضي أن يعطى لهن في السنة الأولى مرفوعات الأسماء والأفعال والممنـوع من الصرف. ولا أدري كيف تيسر لواضع المنهج أن يعلـم الممنوع في الصرف لطالبات لم يتعلمن المجرورات. يقـول لهن المعلم إن الاسم الممنوع من الصرف يجر بالفتحة نيابة

عن الكسرة وهن لا يعرفن متى يجر الاسـم. وتخصـيص إعطائهن المرفوعات فقـط دون المنصـوبات كـان أيضـا مضحكًا، لأنهن كن يتعلمن خبر إن دون أن يعرفن اسـمها، وكن يتعلمن اسم كان دون أن يعرفن خبرها، وهـو تعلـيم ناقص مختل لأني إذا أعطيت التلميذة جملة فيها كـان أو إن وجب أن تعرف أن اسم الأولى مرفوع وخبرهـا منصـوب واسم الثانية منصوب وخبرها مرفوع، لا أن تعرف شـطرا من كل جملة. وعلى ذلك يكون التعليم آليا، عبارة عن حفـظ لا يستند إلى شيء عملي مفهوم.

أما في الحساب فكان منهج السنة الأولى إعـادة الأربـع قواعد الأصلية، ثم تجنيس الكسور الاعتيادية، ومهمـا فكـر الإنسان ودقق لا يستطيع أن يفهم عقلية واضع ذلك المـنهج: أولاً لأن الكسور العشرية أسهل من الاعتيادية، وكان يجـب البدء بها لأنها تسير حسب سير الأعداد الصـحيحة خطـوة بخطوة مع ملاحظة أين توضع الشرطة العشرية، أما الكسور الاعتيادية فلها قواعد تخالف قواعد الأعداد الصحية بـالمرة. ولو جاز لنا أن نعلمها قبل أن نعلم الكسور العشرية لما جاز لنا إطلاقًا أن نبتدئ فيها بالجمع والطرح بل يجب أن نتبـدئ



بالضرب والقسمة لسهولتهما، ثم نعلم بعد ذلك الجمع والطرح وما دام الإنسان لا يستطيع أن يجمع ربع ونصف ما لم يجنس كسرين فنحن عند الجمع نضطر إلى عملية التجنيس اضطرارا. أما أن يعطى التجنيس فقط دون جمع ولا طرح فهو ما لم أفهمه إذ ذاك، ولم أفهمه بعد ذلك.

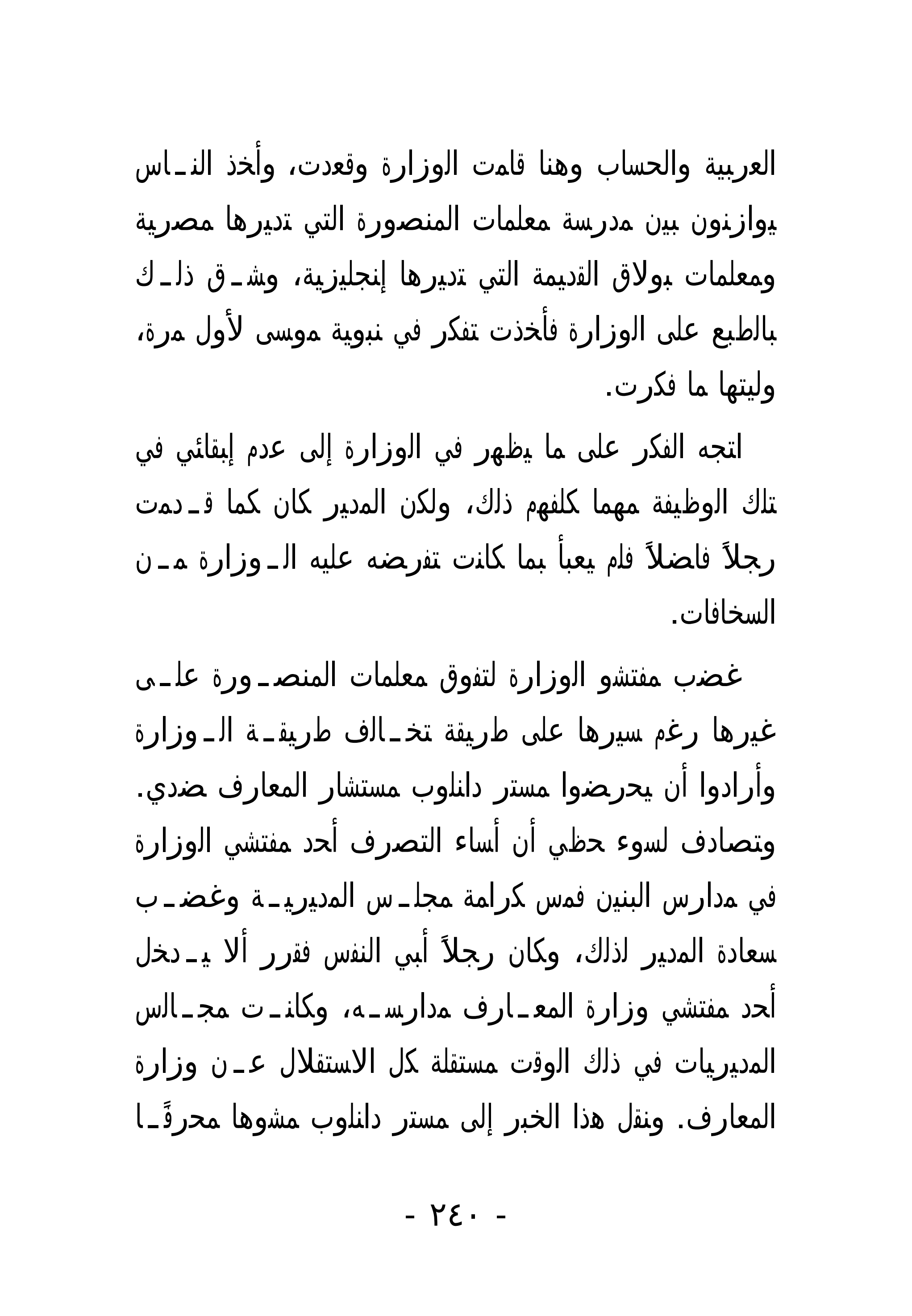
ولهذا سار التعليم في مدرستي حسب تفكيري أنا لا حسب المنهج فكانت التلميذات في السنة الأولى في اللغة العربية يطبقن في كتاب المطالعة على جميع القواعد الكثيرة الورود وهو ما ابتدأت مصر تفكر فيه والحمد الآن، أما في الحساب فقد كنت أعلمهن الكسور العشرية لأثبت قواعد الأعداد الصحيحة من جمع وطرح وضرب وقسمة، ثم أعلمهن بعد ذلك ضرب الكسور الاعتيادية وقسمتها، ثم جمعها وطرحها، وبعد أن أجمع ربعا وربعين أضطر اضطرارا إلى تعليمهن طريقة التجنيس.

وكان مفتشو الوزارة إذا دخلوا مدرسة معلمات المنصورة لا يكتبون عنها شيئًا في سيرها في طرق التعليم وإنما يوازن الواحد منهم بين منهج الوزارة والمنهج الذي تسير عليه

المدرسة دون تفكير، ثم يشرح كيف تخالف هـذه المدرسـة منهج الوزارة.

ولم أكن أعبأ كثيرا بتلك التقارير التي لا شيء فيها جديد علي، لأنني كنت أعلم والحمد الفرق بين منهجي ومـنهج الوزارة، وكان من ضمن ما كنت أخالف الوزارة فيـه مـن النظم أني كنت أعطي طالباتي خمس حصص في الصـباح وحصتين فقط في المساء وبذلك كن يخـرجن للغـداء فـي الساعة الثانية عشرة والنصف بينما تخرج مدارس الحكومـة في الساعة الحادية عشرة والنصف، الوقت الذي لم يعتد بيت من البيوت الغداء فيه. وكانت طالباتي تعود إلـى المدرسـة الساعة الثانية بعد الظهر بينما كانت تلاميذ المدارس الأميرية يعودون الساعة الواحدة أي في زمن لا يستطيع معه التلميـذ هضم الأكل والاستعداد لقبول الدرس. وكان هذا من أظهـر مخالفاتي لنظم وزارة المعارف.

"ومن العجيب أن الوزارة منذ عامين أو ثلاثة قد اتبعتـه في مدارسها الثانوية". وظللنا على هذا حتى دخلت مدرستي امتحان الكفاءة للمعلمات الذي تقوم به الوزارة نفسها وإذا بها الأولى على جميع المدارس. وقد تفوقت خصوصا في اللغـة



العربية والحساب وهنا قامت الوزارة وقعدت، وأخذ النـاس يوازنون بين مدرسة معلمات المنصورة التي تديرها مصرية ومعلمات بولاق القديمة التي تديرها إنجليزية، وشـق ذلـك بالطبع على الوزارة فأخذت تفكر في نبوية موسى لأول مرة، وليتها ما فكرت.

اتجه الفكر على ما يظهر في الوزارة إلى عدم إبقائي في تلك الوظيفة مهما كلفهم ذلك، ولكن المدير كان كما قـدمت رجلاً فاضلاً فلم يعبأ بما كانت تفرضه عليه الـوزارة مـن السخافات.

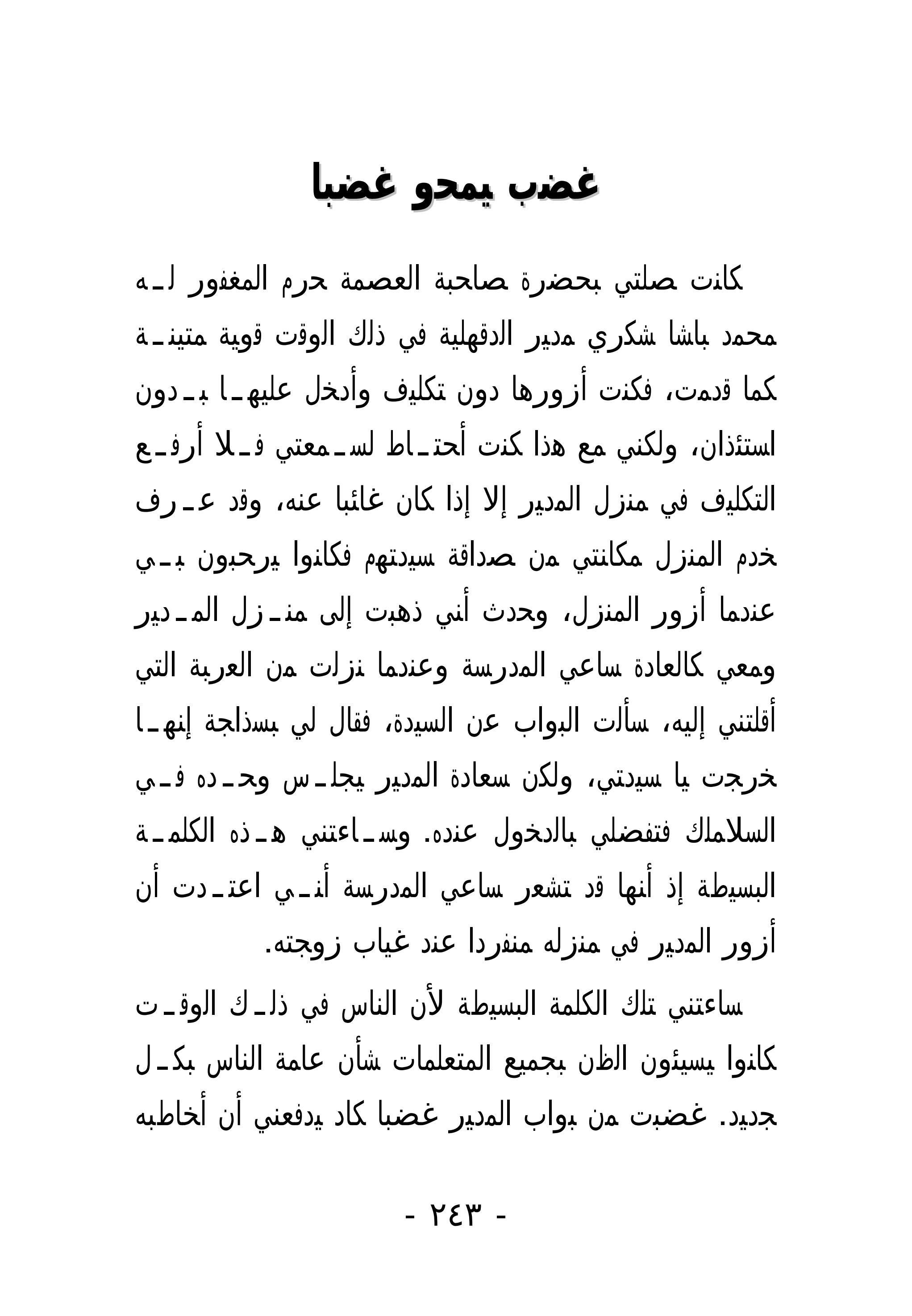
غضب مفتشو الوزارة لتفوق معلمات المنصـورة علـى غيرها رغم سيرها على طريقة تخـالف طريقـة الـوزارة وأرادوا أن يحرضوا مستر دانلوب مستشار المعارف ضدي. وتصادف لسوء حظي أن أساء التصرف أحد مفتشي الوزارة في مدارس البنين فمس كرامة مجلـس المديريـة وغضـب سعادة المدير لذلك، وكان رجلاً أبي النفس فقرر ألا يـدخل أحد مفتشي وزارة المعـارف مدارسـه، وكانـت مجـالس المديريات في ذلك الوقت مستقلة كل الاستقلال عـن وزارة المعارف. ونقل هذا الخبر إلى مستر دانلوب مشوها محرفًـا

فقيل له: إن نبوية موسى لصداقتها لحضرة صاحبة العصمة حرم المدير قد أثارته ضد وزارة المعـارف وهـي تريـد ألا يكون للإنجليز يد في مجالس المديريات وهي لذلك تعلـم طالبات المعلمات اللغة الإنجليزية حتى لا تحتاج إلى تعيـين إنجليزية في المدرسة الابتدائية لتعليم اللغة.

وغضب مستر دانلوب لهذا التحدي، ولكن الرجـل كـان عمليا فأراد أن يحضر بنفسه ليعلم مدى تلك القصة. وكان قد ابتدأ أن يتفق مبدئيا مع مستشـار الداخليـة أن يكـون لـه الإشراف على مدارس مجالس المديريات. وفجأة ومن غيـر علم مني ولا من المدير زارني جناب المستر دانلوب، وكان يظهر على محياه الغضب وما كدت أراه حتى قمت وحييتـه ورحبت به وأهلت، ولكنه قابل تحيتي وترحيبي بشيء مـن الغلاظة: أريد أن أرى فصول المدرسة. قلت: أهلاً وسـهلاً، تفضل. ودخلت معه المدرسة وزار الفصول فسر منها وابتدأ يظهر ارتياحه، ثم قال لي: ألم يرسل المدير إلى مدارسـكم أمرا بعدم إدخال مفتشي وزارة المعارف إليها؟ قلت: نعم لقد كان ذلك. قال: فما السبب الذي حمله على هذا؟ قلت: لا علم لي به. قال: وكيف إذن أدخلتني فصـول المدرسـة مـا دام

المدير يمنعك من هذا؟ فقلت: إني أعرفك تمام المعرفة. ولـم أدخلك كمفتش من وزارة المعارف بل أدخلتك كصديق لي أنا ولناظرة المدرسة أن تدخل من تشاء من أصدقائها على شرط ألا يكون في دخوله مـا يخـالف الآداب، وأنـت مستشـار المعارف، أي رجل معروف في الأوساط العلمية ولا بـأس من دخولك مدرستي، شاء المدير أم لم يشأ. قال: وهل هـذا سيكون اعتذارك إليه؟ قلت: نعم. فخف غضبه بعض الشيء، ثم ذهب إلى المدير فعرفه هذا أن مسألة منع مفتشـي وزارة المعارف لم يكن لها اتصال بي بتاتًا، ولكن الرجل مازال في شك من أمري خصوصا بعد أن قيل له بجانب هذا إني أنافس الناظرة الإنجليزية وإني قد تفوقت عليها وأنا أفخر بذلك.

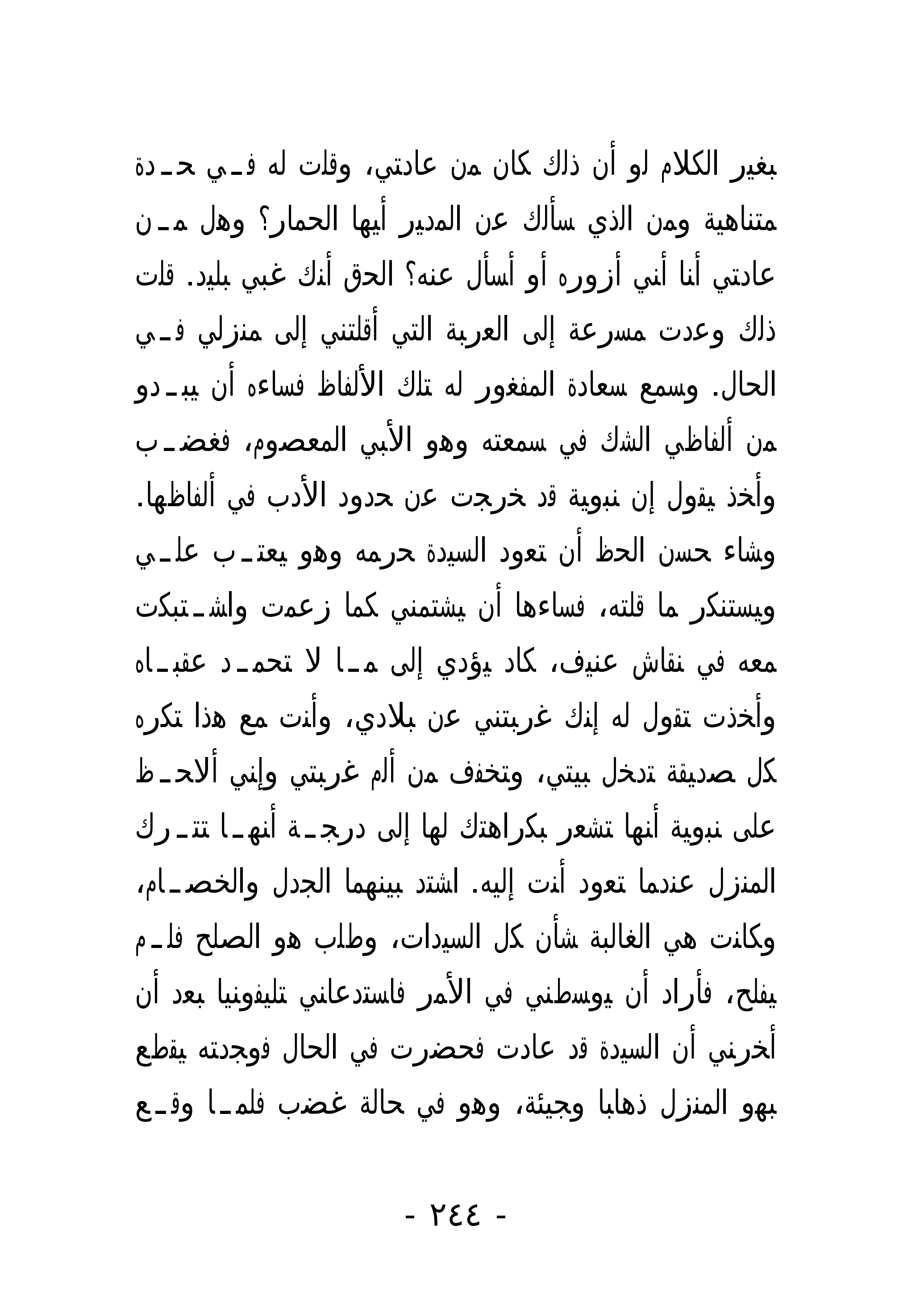
وانتهت هذه الحركة بأن أشرفت وزارة المعـارف علـى مدارس مجالس المديريات وذلك بأمر جناب مستشار الداخلية الذي لا يستطيع المدير مخالفته.



غضب يمحو غضبا

كانت صلتي بحضرة صاحبة العصمة حرم المغفور لـه محمد باشا شكري مدير الدقهلية في ذلك الوقت قوية متينـة كما قدمت، فكنت أزورها دون تكليف وأدخل عليهـا بـدون استئذان، ولكني مع هذا كنت أحتـاط لسـمعتي فـلا أرفـع التكليف في منزل المدير إلا إذا كان غائبا عنه، وقد عـرف خدم المنزل مكانتي من صداقة سيدتهم فكانوا يرحبون بـي عندما أزور المنزل، وحدث أني ذهبت إلى منـزل المـدير ومعي كالعادة ساعي المدرسة وعندما نزلت من العربة التي أقلتني إليه، سألت البواب عن السيدة، فقال لي بسذاجة إنهـا خرجت يا سيدتي، ولكن سعادة المدير يجلـس وحـده فـي السلاملك فتفضلي بالدخول عنده. وسـاءتني هـذه الكلمـة البسيطة إذ أنها قد تشعر ساعي المدرسة أنـي اعتـدت أن أزور المدير في منزله منفردا عند غياب زوجته.

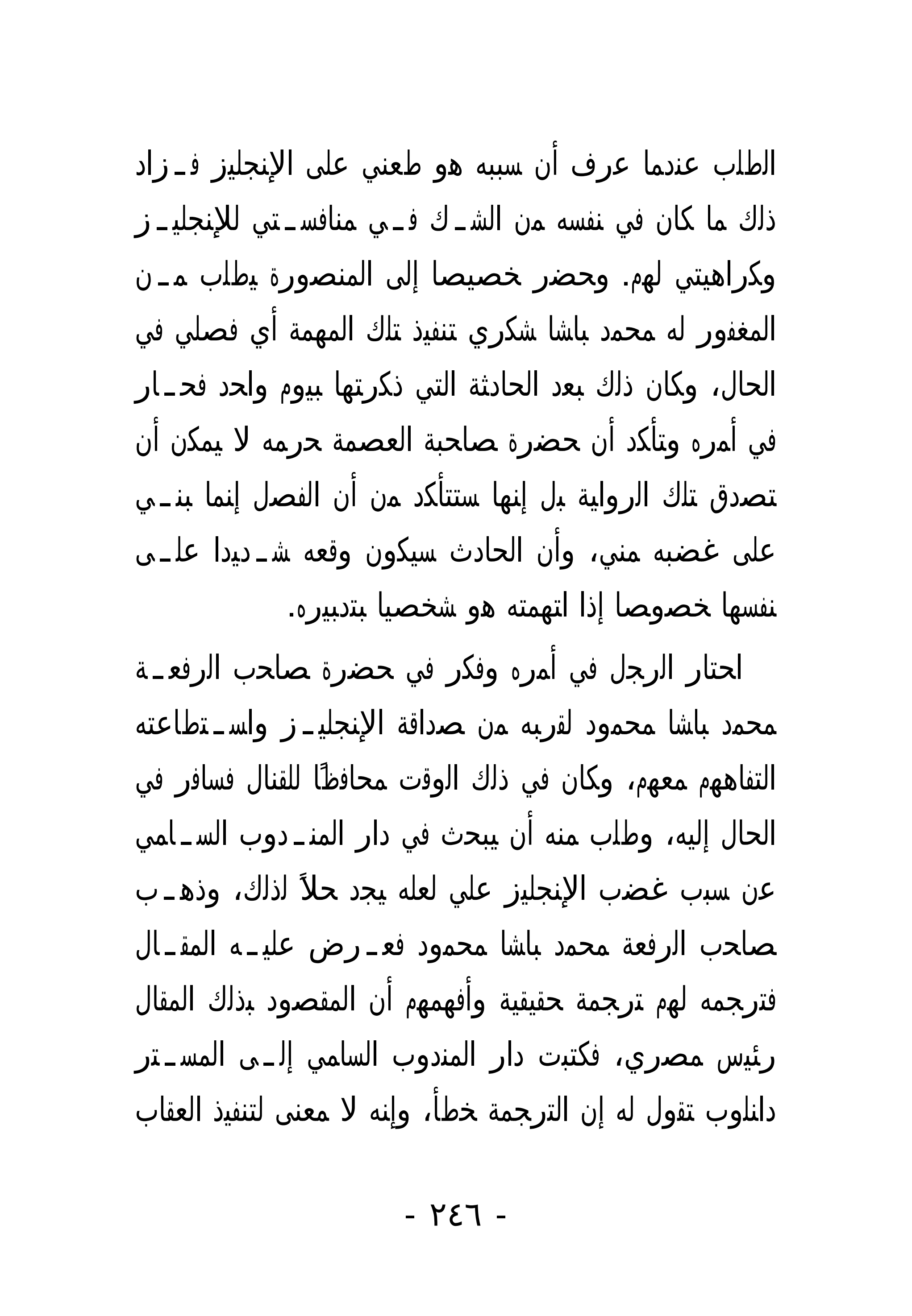
ساءتني تلك الكلمة البسيطة لأن الناس في ذلـك الوقـت كانوا يسيئون الظن بجميع المتعلمات شأن عامة الناس بكـل جديد. غضبت من بواب المدير غضبا كاد يدفعني أن أخاطبه



بغير الكلام لو أن ذلك كان من عادتي، وقلت له فـي حـدة متناهية ومن الذي سألك عن المدير أيها الحمار؟ وهل مـن عادتي أنا أني أزوره أو أسأل عنه؟ الحق أنك غبي بليد. قلت ذلك وعدت مسرعة إلى العربة التي أقلتني إلى منزلي فـي الحال. وسمع سعادة المغفور له تلك الألفاظ فساءه أن يبـدو من ألفاظي الشك في سمعته وهو الأبي المعصوم، فغضـب وأخذ يقول إن نبوية قد خرجت عن حدود الأدب في ألفاظها. وشاء حسن الحظ أن تعود السيدة حرمه وهو يعتـب علـي ويستنكر ما قلته، فساءها أن يشتمني كما زعمت واشـتبكت معه في نقاش عنيف، كاد يؤدي إلى مـا لا تحمـد عقبـاه وأخذت تقول له إنك غربتني عن بلادي، وأنت مع هذا تكره كل صديقة تدخل بيتي، وتخفف من ألم غربتي وإني ألاحـظ على نبوية أنها تشعر بكراهتك لها إلى درجـة أنهـا تتـرك المنزل عندما تعود أنت إليه. اشتد بينهما الجدل والخصـام، وكانت هي الغالبة شأن كل السيدات، وطلب هو الصلح فلـم يفلح، فأراد أن يوسطني في الأمر فاستدعاني تليفونيا بعد أن أخبرني أن السيدة قد عادت فحضرت في الحال فوجدته يقطع بهو المنزل ذهابا وجيئة، وهو في حالة غضب فلمـا وقـع

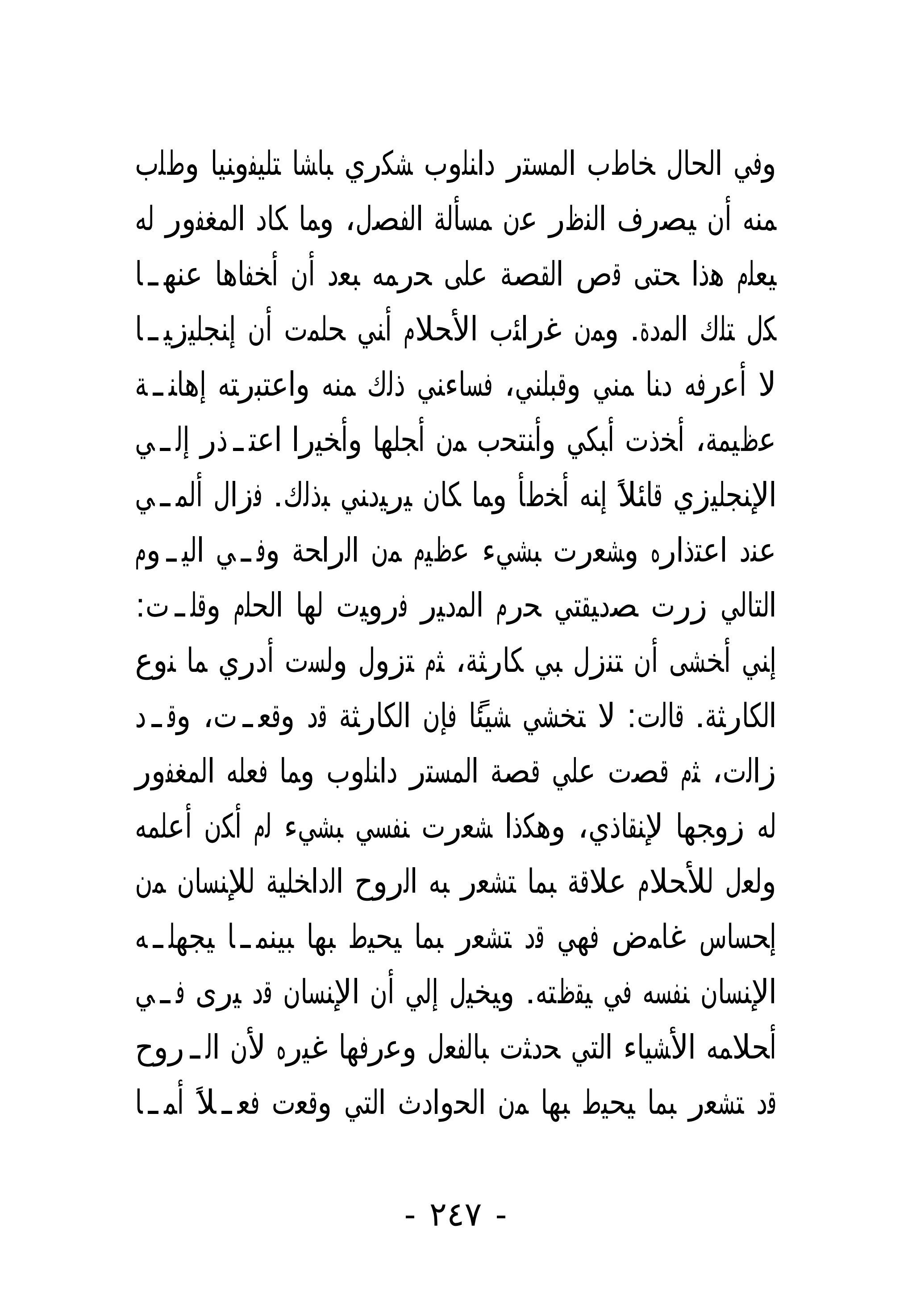
بصره علي أشار إلى الغرفة التي كانت تجلس فيها حرمه وقال: انظري كيف كنتِ سببا فيما بيني وبينها من خلاف فلم أجبه، ولكني دخلت عليها مسرعة وما كادت تراني حتى زاد غضبها، وقالت إنه أراد أن يبلغك هذه القصة حتى ينفرك من زيارتي. قلت: كلا يا سيدتي إني إنما أحضر هنا لزيارتك لا لزيارته ولا يهمني أغضب هو علي أم رضي، ولكن اسمحي لي أن أقول لك إنك ظالمة في غضبك منه لأنه شتمني داخل منزله بعد أن أسأت أنا إليه على مسمع من الخدم وعلى قارعة الطريق. إني أنا المخطئة لا هو. فزال غضبها من كلامي وتم بينهما الصلح.

كانت هذه الحادثة سببا في إفلاتي من عقاب محقق أراده جناب المستر دانلوب مستشار وزارة المعارف، وهكذا أراد ا أن يكون السوء سببا في الخير. فقد كتبت مقالة في إحدى الصحف أنتقد فيها بعض أخطأ الرؤساء، وكنت أقصد الرؤساء في تلك المقالة هم الإنجليز، واتصلت دار المندوب السامي بجناب المرحوم المستر دانلوب، وطلبت منه أن يطلب فصلي من وظيفتي بما له من إشراف على مدارس مجالس المديريات وأسرع المستر دانلوب إلى تلبية ذلك

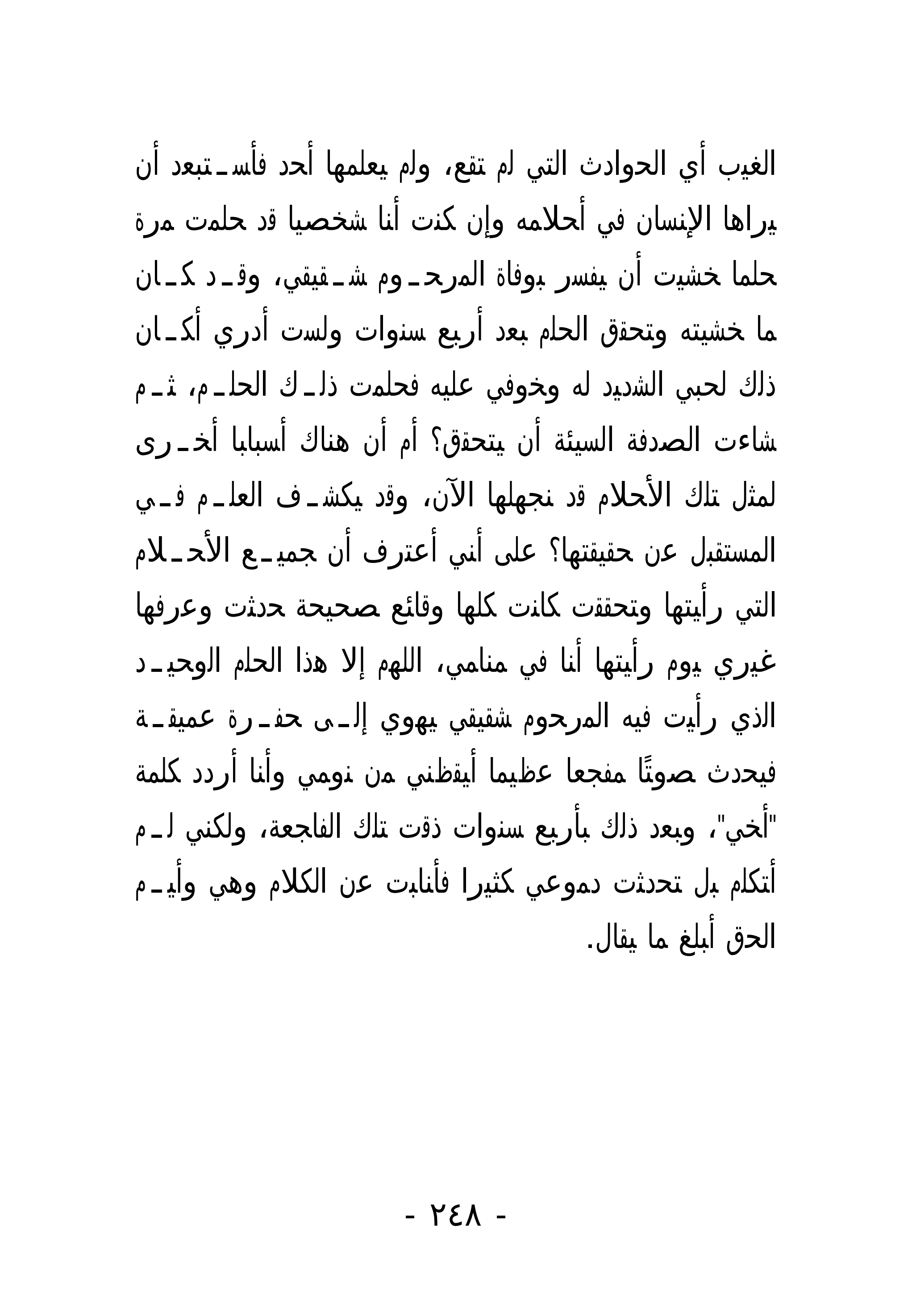


الطلب عندما عرف أن سببه هو طعني على الإنجليز فـزاد ذلك ما كان في نفسه من الشـك فـي منافسـتي للإنجليـز وكراهيتي لهم. وحضر خصيصا إلى المنصورة يطلب مـن المغفور له محمد باشا شكري تنفيذ تلك المهمة أي فصلي في الحال، وكان ذلك بعد الحادثة التي ذكرتها بيوم واحد فحـار في أمره وتأكد أن حضرة صاحبة العصمة حرمه لا يمكن أن تصدق تلك الرواية بل إنها ستتأكد من أن الفصل إنما بنـي على غضبه مني، وأن الحادث سيكون وقعه شـديدا علـى نفسها خصوصا إذا اتهمته هو شخصيا بتدبيره.

احتار الرجل في أمره وفكر في حضرة صاحب الرفعـة محمد باشا محمود لقربه من صداقة الإنجليـز واسـتطاعته التفاهم معهم، وكان في ذلك الوقت محافظًا للقنال فسافر في الحال إليه، وطلب منه أن يبحث في دار المنـدوب السـامي عن سبب غضب الإنجليز علي لعله يجد حلاً لذلك، وذهـب صاحب الرفعة محمد باشا محمود فعـرض عليـه المقـال فترجمه لهم ترجمة حقيقية وأفهمهم أن المقصود بذلك المقال رئيس مصري، فكتبت دار المندوب السامي إلـى المسـتر دانلوب تقول له إن الترجمة خطأ، وإنه لا معنى لتنفيذ العقاب



وفي الحال خاطب المستر داناوب شكري باشا تليفونيا وطلب منه أن يصرف النظر عن مسألة الفصل، وما كاد المغفور له يعلم هذا حتى قص القصة على حرمه بعد أن أخفاها عنهـا كل تلك المدة. ومن غرائب الأحلام أني حلمت أن إنجليزيـا لا أعرفه دنا مني وقبلني، فساءني ذلك منه واعتبرته إهانـة عظيمة، أخذت أبكي وأنتحب من أجلها وأخيرا اعتـذر إلـي الإنجليزي قائلاً إنه أخطأ وما كان يريدني بذلك. فزال ألمـي عند اعتذاره وشعرت بشيء عظيم من الراحة وفـي اليـوم التالي زرت صديقتي حرم المدير فرويت لها الحلم وقلـت: إني أخشى أن تنزل بي كارثة، ثم تزول ولست أدري ما نوع الكارثة. قالت: لا تخشي شيئًا فإن الكارثة قد وقعـت، وقـد زالت، ثم قصت علي قصة المستر داناوب وما فعله المغفور له زوجها لإنقاذي، وهكذا شعرت نفسي بشيء لم أكن أعلمه ولعل للأحلام علاقة بما تشعر به الروح الداخلية للإنسان من إحساس غامض فهي قد تشعر بما يحيط بها بينمـا يجهلـه الإنسان نفسه في يقظته. ويخيل إلي أن الإنسان قد يرى فـي أحلامه الأشياء التي حدثت بالفعل وعرفها غيره لأن الـروح قد تشعر بما يحيط بها من الحوادث التي وقعت فعـلاً أمـا



الغيب أي الحوادث التي لم تقع، ولم يعلمها أحد فأستبعد أن يراها الإنسان في أحلامه وإن كنت أنا شخصيا قد حلمت مرة حلما خشيت أن يفسر بوفاة المرحوم شقيقي، وقد كان ما خشيته وتحقق الحلم بعد أربع سنوات ولست أدري أكان ذلك لحبي الشديد له وخوفي عليه فحلمت ذلك الحلم، ثم شاءت الصدفة السيئة أن يتحقق؟ أم أن هناك أسبابا أخرى لمثل تلك الأحلام قد نجهلها الآن، وقد يكشف العلم في المستقبل عن حقيقتها؟ على أني أعترف أن جميع الأحلام التي رأيتها وتحققت كانت كلها وقائع صحيحة حدثت وعرفها غيري يوم رأيتها أنا في منامي، اللهم إلا هذا الحلم الوحيد الذي رأيت فيه المرحوم شقيقي يهوي إلى حفرة عميقة فيحدث صوتًا مفجعا عظيما أيقظني من نومي وأنا أردد كلمة "أخي"، وبعد ذلك بأربع سنوات ذقت تلك الفاجعة، ولكني لم أتكلم بل تحدثت دموعي كثيرا فأنابت عن الكلام وهي وأيم الحق أبلغ ما يقال.



إصلاح مدرسة المنصورة أخلاقيا ومخاوفي التي كنت أخشاها بعد إطلاق يدي في المدرسة

أقنع حضرة صاحب الرفعة محمد باشا محمود الإنجليز – كما قدمت – ببراءتي مما اتهمت به. ووثق حضرة صاحب السعادة المغفور له مدير الدقهلية بأعمالي فأطلق يدي في إدارة المدرسة حتى كان لا يعارض لي أمرا، فالتفت إلى إصلاح المدرسة من الوجهة الأخلاقية فاتجهت بنوع خاص إلى مسلك المعلمات لأنهن قدوة التلميذات. وكان بالمدرسة معلمة من المدرسة السنية قد نالت شهادتها بعدي بثلاث سنوات فقط، وقد كانت زميلتي في بعض سني الدراسة، ولكن ما تعلمته من العلوم لم يكن لينير لها السبيل في حياتها الشخصية؛ لأنها على ما يظهر اقتصرت على علوم المدرسة وهي لا تتناول شيئًا من أخلاق الرجال ومشاكلهم مع السيدات مثلاً، أما أنا فقد كنت على العكس من ذلك قد استفدت فائدة عظيمة من قراءتي كثيرا من المجلات والقصص الغرامية

التي كانت تمثل لي أخلاق الرجال وحيلهم في سلب النسـاء الشرف والمال معا.

لهذا كنت يقظة أكاد أعرف ما يكنه الرجل من وراء تملقه فتاة من الفتيات. وكان لتلك المعلمة ابن عم كان يظهر لهـا الولوع بها إلى درجة بعيدة، وكان في الوقت ذاته يريـد أن يولعها هي به ليسلبها ما كانت تتقاضاه مـن مرتبهـا فكـان يرسل لها كثيرا من الخطابات ويطلب في كل خطاب يكتبـه أن تكثر هي من الكتابة إليه ويلومها على عدم تغزلهـا بـه وإظهارها حبه وغرامه في كتاباتها، فكان بـذلك يريـد أن يعلمها كيف تولع به وعرفت من خلال كلامـه فـي تلـك الخطابات أنه لا يكن لها حبا، وأنه إنمـا يريـد أن يسـتغل ما يتظاهر به مـن الحـب لمصـلحته الشخصـية ليسـلبها ما استطاع أن يسلبها من المال. وكانت المسكينة تحرم نفسها من ضروريات الحياة وترسل إليه مرتبها كاملاً تقريبا.

نصحت لها بعبارات مبهمة فلم تفهم قصدي، ولم يزدهـا كلامي إلا تعلقًا بابن عمها وغراما به. وأخيرا أرسل إليهـا خطابا يقول لها فيه إنه سيحضر إلى المنصـورة فـي يـوم الجمعة ليقضي معها يوما مفعما بالمغامرات الغراميـة بـين

الحقول والمياه. وساءني أن يتم ذلـك لأن المنصـورة بلـد صغير لا يخفى على سكانه شيء مما يدور فيه فلم أسـلمها ذلك الخطاب، ولم أخبرها به، ولكني في الساعة المضـروبة لحضوره جلست في مكتبي وقلت للبواب: إذا جاءك رجـل يسأل عن فلانة، فقل له إن ناظرة المدرسة تنصـحك بتـرك المنصورة حالاً وإلا قبض عليك. فكان كلام البواب مفاجـأة مفزعة للرجل أسرع بعدها إلى القطار الذي أقله إلى القاهرة. وسافرت المعلمة بعد ذلك إلى القاهرة فعرفت مـا تـم لـه وساءها الأمر، فجاءتني غاضبة تلومني علـى مـا حـدث، فهدأت من غضبها ونصحت لها أن تتـروى فـي الأمـر، وألا تأمن ابن عمها هذا كثيرا لأنه يظهر لـي أنـه خـائن محتال. وعارضت طبعا فقلت لها إذا كان ينوي الزواج منك فما الذي يؤخره إلى اليوم؟ وهل عندك مانع من أن يتم عقـد الزواج الآن؟ قالت: لا مانع عندي، ولكنه هو يتعلل بعلل قد لا أفهمها. قلت: إذن هو محتال كاذب وإني أمنعك بتاتًـا أن تكاتبيه أو تستلمي منه خطابات، ما لم يعقد عليك وما دمـت أنت لا مانع عندك فيجب أن يسرع هو إلى تنفيذ ذلك لتكوني واثقة من حسن نيته.

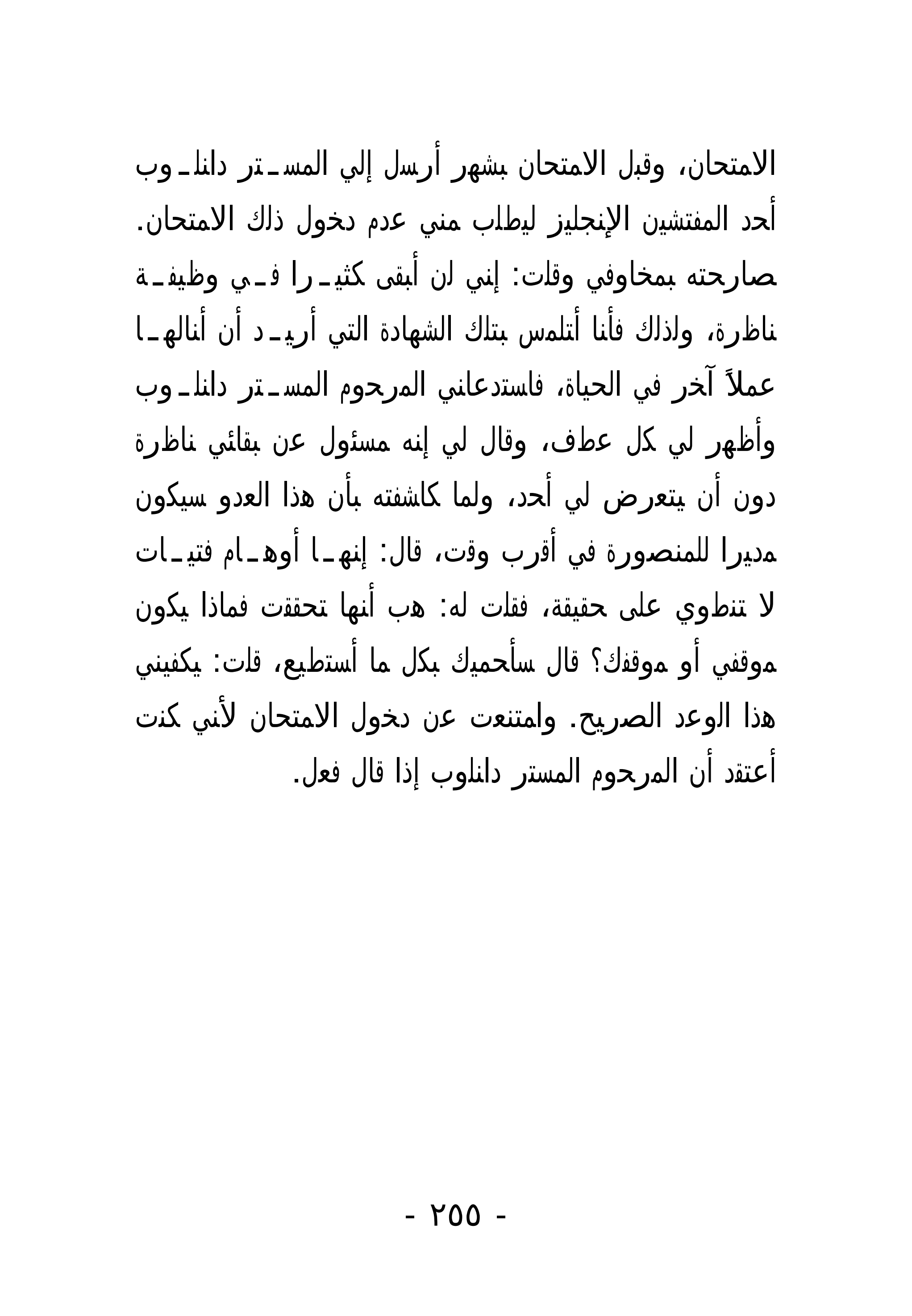
وبعد يومين جاءني خطاب منه يقول لي إنه لا يجوز لـي مطلقًا التدخل بينه وبين زوجته المستقبلية وإن له أن يكاتبها، وأن يتنزه معها ما شاء له الهوى. فأرسلت أقول له إني قـد فهمت من جملة خطاباته أنه لص محتـال وأنـه لا ينـوي الزواج بها، بل هو يستغل تظاهره بالحب ليسلبها المال وأنه في نظري أسفل الرجال قاطبة لأنه لم يختر فريسة له يسلبها العرض والمال إلا ابنة عمه التي كان يجب عليه أن يـدافع عن شرفها، وأن يحمي ذلك الشرف بكل ما يسـتطيع لا أن يكون هو أول من يفسد أخلاقها وإني لهـذا لا أصـرح لـه ولا لها بالمكاتبة إلا إذا أسرع إلى عقـد العقـد وأصـبحت زوجته الشرعية ومن غير هذا لا يمكنني أن أسمح له بشيء من ذلك الحب الدنيء المتصنع.

وانقطعت جواباته بالطبع عنها فلم تطق صبرا وسـافرت إلى القاهرة في عطلة الأسبوع، واضطر هو إذ ذاك أن يعقد عليها. وقال لها بعد انتهاء العقد: عليك أن تشكري ناظرتـك لأن خطابها إلي هو السبب فيما تم اليوم. وثـارت ثائرتهـا كيف تكتب له الناظرة وهل وقعت هي في غرامـه أيضـا؟ فقال لها ضاحكًا: "غرام إيه يا شيخه؟ دي لعنت أبويه".

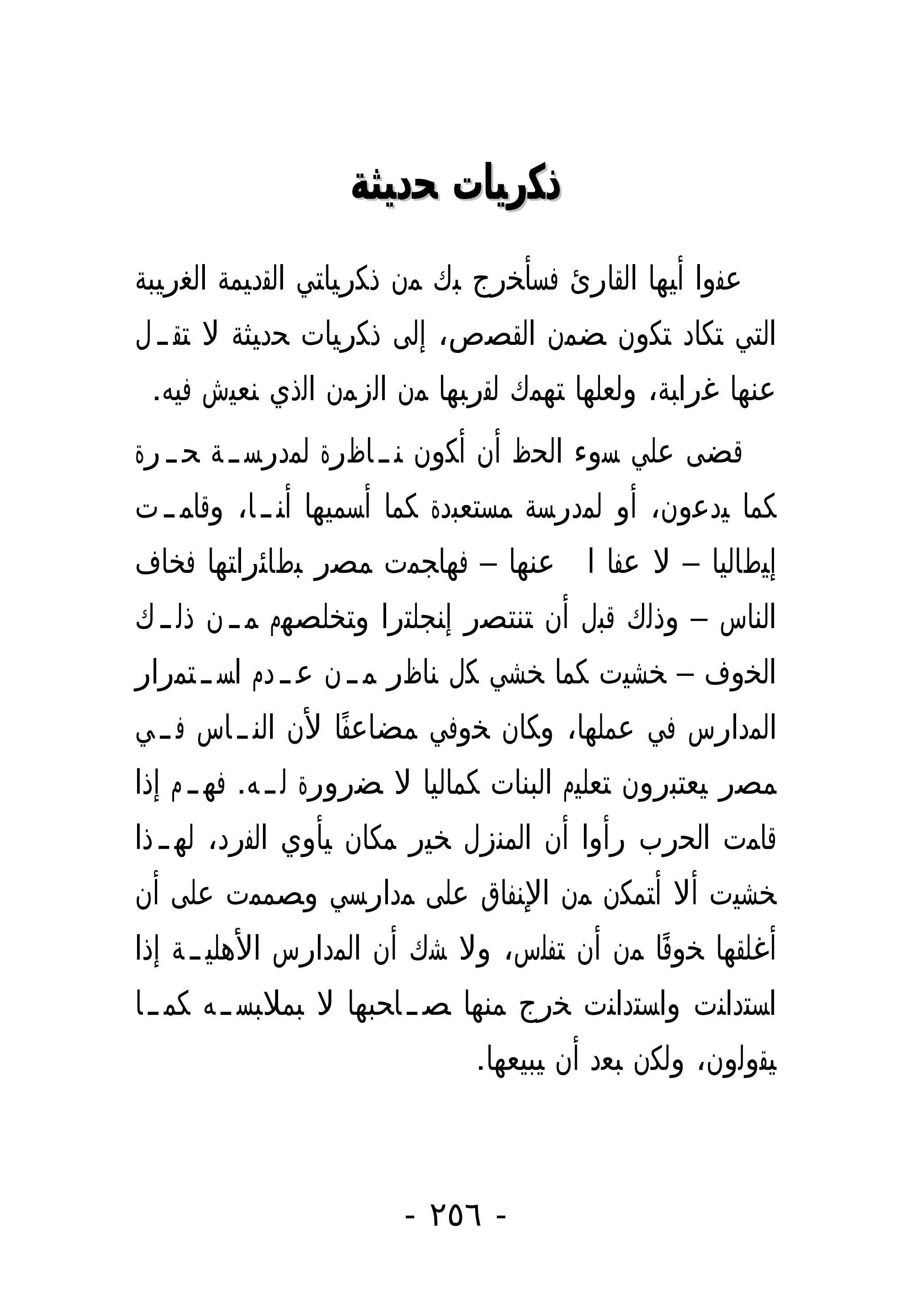
تم عقد الزواج وتركت المدرسة في آخر السنة، ولكن ابن عمها ما لبث أن أظهر لها غايته الحقيقية وهو أنه لا يميـل إليها ولا يريدها زوجة لـه خصوصـا بعـد أن أصـبحت ولا مرتب لها، أي بعد أن غاض منبع النقود الذي كان يغريه بالتقرب منها. فطلقها دون أن يدخل بها. وهكذا ظهرت غايته واضحة جلية وعرفت هي أني كنت على حق فيما نطقت لها به.

وبعد هذه الحادثة استقامت معلمات المدرسـة ولـو فـي ظاهرهن وصح ما كنت أريده من ظهورهن بمظهر الكمـال والحشمة ليكن قدوة صالحة لطالباتهن. وكانت كلمتي نافـذة لا مرد لها فاستقامت شئون التعليم فـي المدرسـة ودخلـت تلميذات المدرسة امتحان شهادة كفـاءة المعلمـات فتفوقـت مدرسة المنصورة على جميع مدارس المعلمات الأولية ومن بينها مدرسة معلمات بولاق. وأخذ النـاس يتناقشـون فـي المفاضلة بين الناظرة المصـرية والإنجليزيـة لأن نـاظرة مدرسة بولاق كانت إنجليزية، وكان الناس قبل ذلك يعتقدون بأن المصريات لا يصلحن بتاتًا لنظارة المدرسة وأثبتت لهـم تلك الحادثة عكس ما كانوا يتوهمـون. فأخـذوا يفضـلون

الناظرة المصرية على الإنجليزية وفي ذلك فتح باب ما كان ليلجه أحد في الماضي وهو تعيين ناظرات مصريات لجميع المدارس. وكان الإنسان في ذلك الوقت لا يستطيع أن يجاهر بفكرة تعيين ناظرات مصريات، وإلا تعرض لخطرين معـا أولهما وهو صحيح غضب السلطات الإنجليزية عليه ووقوفها في وجهه، وثانيهما معارضة السامعين لما يقول ودحضـهم أقواله وبراهينه بكل ما يستطيعون. ويظهر أن أعدائي اتخذوا من ذلك سلاحا يحاربونني به فيما أريده من الإصلاح اعتقادا منهم أن الإنجليز سيساعدونهم على كل ما يريـدون، ولكـن المستر دانلوب كان على العكس من ذلك لا يـزال يعطـف علي، تبين لي في ذلك الحين حرج مركزي وعرفت عـدوا قويا يسعى ورائي. ويجتهد في أن يعين مديرا للدقهلية حتـى يستطيع الانتقام مني. وكنت أعتقد اعتقادا لا يخالطه شك في أنه سينجح فيما يريد، وأن بقائي كناظرة لا يمكن أن يـدوم وأني سأضطر إلى تركي هذا العمل غضبت أم رضيت قبلت أم رفضت. فقدمت في مدرسة الحقوق منتسـبة، وكـان أن نجحت في جميع السنوات إلى أن أصبحت في السنة الرابعة، وكان من المؤكد أن أنجح لو أني اسـتطعت دخـول ذلـك



الامتحان، وقبل الامتحان بشهر أرسل إلي المسـتر دانلـوب أحد المفتشين الإنجليز ليطلب مني عدم دخول ذلك الامتحان. صارحته بمخاوفي وقلت: إني لن أبقى كثيـرا فـي وظيفـة ناظرة، ولذلك فأنا أتلمس بتلك الشهادة التي أريـد أن أنالهـا عملاً آخر في الحياة، فاستدعاني المرحوم المسـتر دانلـوب وأظهر لي كل عطف، وقال لي إنه مسئول عن بقائي ناظرة دون أن يتعرض لي أحد، ولما كاشفته بأن هذا العدو سيكون مديرا للمنصورة في أقرب وقت، قال: إنهـا أوهـام فتيـات لا تنطوي على حقيقة، فقلت له: هب أنها تحققت فماذا يكون موقفي أو موقفك؟ قال سأحميك بكل ما أستطيع، قلت: يكفيني هذا الوعد الصريح. وامتنعت عن دخول الامتحان لأني كنت أعتقد أن المرحوم المستر دانلوب إذا قال فعل.



ذكريات حديثة

عفوا أيها القارئ فسأخرج بك من ذكرياتي القديمة الغريبة التي تكاد تكون ضمن القصص، إلى ذكريات حديثة لا تقل عنها غرابة، ولعلها تهمك لقربها من الزمن الذي نعيش فيه.

قضى علي سوء الحظ أن أكون ناظرة لمدرسة حرة كما يدعون، أو لمدرسة مستعبدة كما أسميها أنا، وقامت إيطاليا – لا عفا الله عنها – فهاجمت مصر بطائراتها فخاف الناس – وذلك قبل أن تنتصر إنجلترا وتخلصهم من ذلك الخوف – خشيت كما خشي كل ناظر من عدم استمرار المدارس في عملها، وكان خوفي مضاعفًا لأن الناس في مصر يعتبرون تعليم البنات كماليا لا ضرورة له. فهم إذا قامت الحرب رأوا أن المنزل خير مكان يأوي الفرد، لهذا خشيت ألا أتمكن من الإنفاق على مدارسي وصممت على أن أغلقها خوفًا من أن تفلس، ولا شك أن المدارس الأهلية إذا استدانت واستدانت خرج منها صاحبها لا بملابسه كما يقولون، ولكن بعد أن يبيعها.

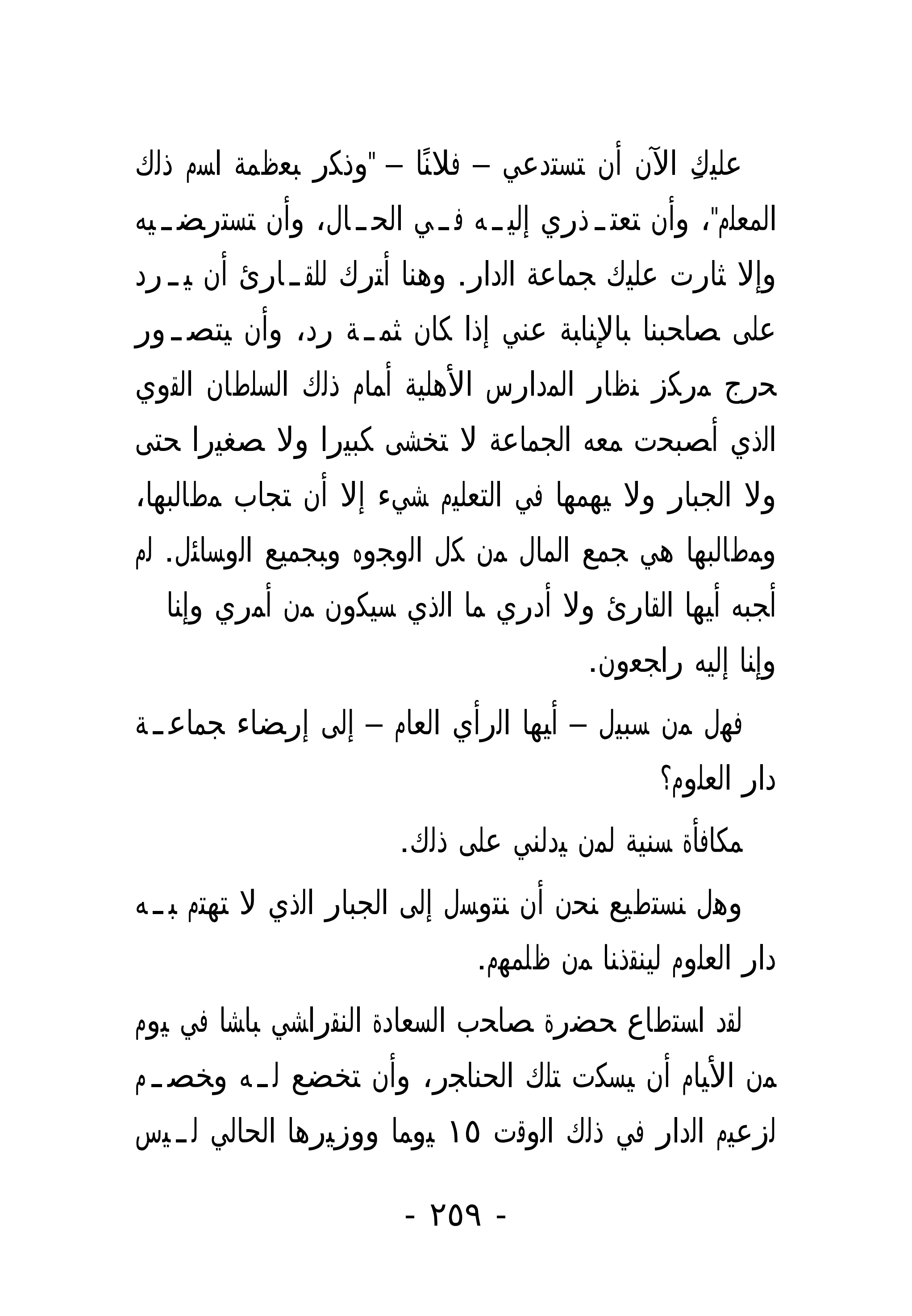
ولهذا عرضت الأمر على معلمي مدارسي وصـارحتهم بنيتي في إغلاق المدارس فعارضوا في ذلك فطلبت منهم أن تخفض مرتباتهم في ذلك الظرف فقط إلى الحد الذي أستطيع معه السداد واتفقت مع أساتذة دار العلوم على مرتب أساسـه ١٠,٥ جنيهات شهريا بدلا من ١٢ جنيها فتعاقدوا على هـذا ورضوا به مختارين، ولكني ذهبت يوما إلى الوزارة وإذا بي أصادف فرقة بأكملها من تلاميذ المدارس الحرة جاءت لتحتج على صاحب المدرسة، وسألتهم ما سبب هذا الاحتجاج، قالوا لقد أساء صاحب المدرسة إلى أستاذنا. وهنـا نظـرت وإذا بالفرقة تحيط بها فرقة أخرى من أساتذة دار العلـوم يظهـر أنهم هم الذين قادوها إلى الوزارة فنظرت إلى التلاميذ وقلت: أساءكم معاملة صاحب المدرسة لأستاذكم الذي هو مـن دار العلوم؟ قالوا: نعم. قلت: أو كان عاجزا عن أن يأخذه بثـأره بدلاً من أن ينيب عنه "كبشة" صبية كما يقولون؟

تألمت من أن يقوم معلمو دار العلوم بإفسـاد المـدارس الحرة إلى هذا الحد، وأردت أن أنتصر لهذا التعلـيم الـذي ضحيت من أجله. أنبت زعيمهم – أي زعيم الدار – علـى هذا التصرف الذي من شأنه أن يعلم التلاميذ كيف يتمـردون

لا على ناظر المدرسة حسب بل وعلـى معلميهـا أيضـا، وغضب زعيم الدار لما أبديته أنا من النقد، وأراد أن ينـتقم لنفسه ولجماعة دار العلوم، وفجأة ومن غير انتظار جـاءني أحد أساتذة دار العلوم يوم الخميس ٢٦ ديسمبر يقـول إنـه لا يقبل التعاقد الذي اتفق عليه معي في أول أكتوبر وهددني بالاستقالة، ولكني أفهمته أنه رجل وأنه يجب أن ينفـذ كـل ما تعاقد به على أني لا أعارض في استقالته إذا شاء، وفـي يوم السبت ٢٨ منه خاطبني زعيم الدار فجأة أيضا ومن غير انتظار، وقال لي في لهجة الآمر الناهي: نحن لا نقبل تلـك الفوضى ولا تسمح الجماعة بأن يأخذ أحد أفرادها أقل مـن الحد الأدنى – وهو لا يريد طبعا بالجماعة أهل منزله كمـا اعتاد الناس، ولكنه يريد جماعة دار العلوم – قلت: ولكننـا اتفقنا ووافق معالي وزير المعارف على ذلك الاتفاق. فقـال لي شيئًا لم أفهمه ولعله أراد أن يشابه هذا البيت:

وكنا إذا الجبار صعر خده　　مشينا إليه بالسـيوف تعاتبـه

فلم يهمني شأنه وشأن الجبار، ولكن كان يهمني تصـرفه نحوي على أنه والحق يقال لم يدعني أفكر في ذلـك كثيـرا ولا قليلاً، بل قال في لهجة الآمر:



عليكِ الآن أن تستدعي – فلانًا – "وذكر بعظمة اسم ذلك المعلم"، وأن تعتـذري إليـه فـي الحـال، وأن تسترضـيه وإلا ثارت عليك جماعة الدار. وهنا أترك للقـارئ أن يـرد على صاحبنا بالإنابة عني إذا كان ثمـة رد، وأن يتصـور حرج مركز نظار المدارس الأهلية أمام ذلك السلطان القوي الذي أصبحت معه الجماعة لا تخشى كبيرا ولا صغيرا حتى ولا الجبار ولا يهمها في التعليم شيء إلا أن تجاب مطالبها، ومطالبها هي جمع المال من كل الوجوه وبجميع الوسائل. لم أجبه أيها القارئ ولا أدري ما الذي سيكون من أمري وإنا وإنا إليه راجعون.

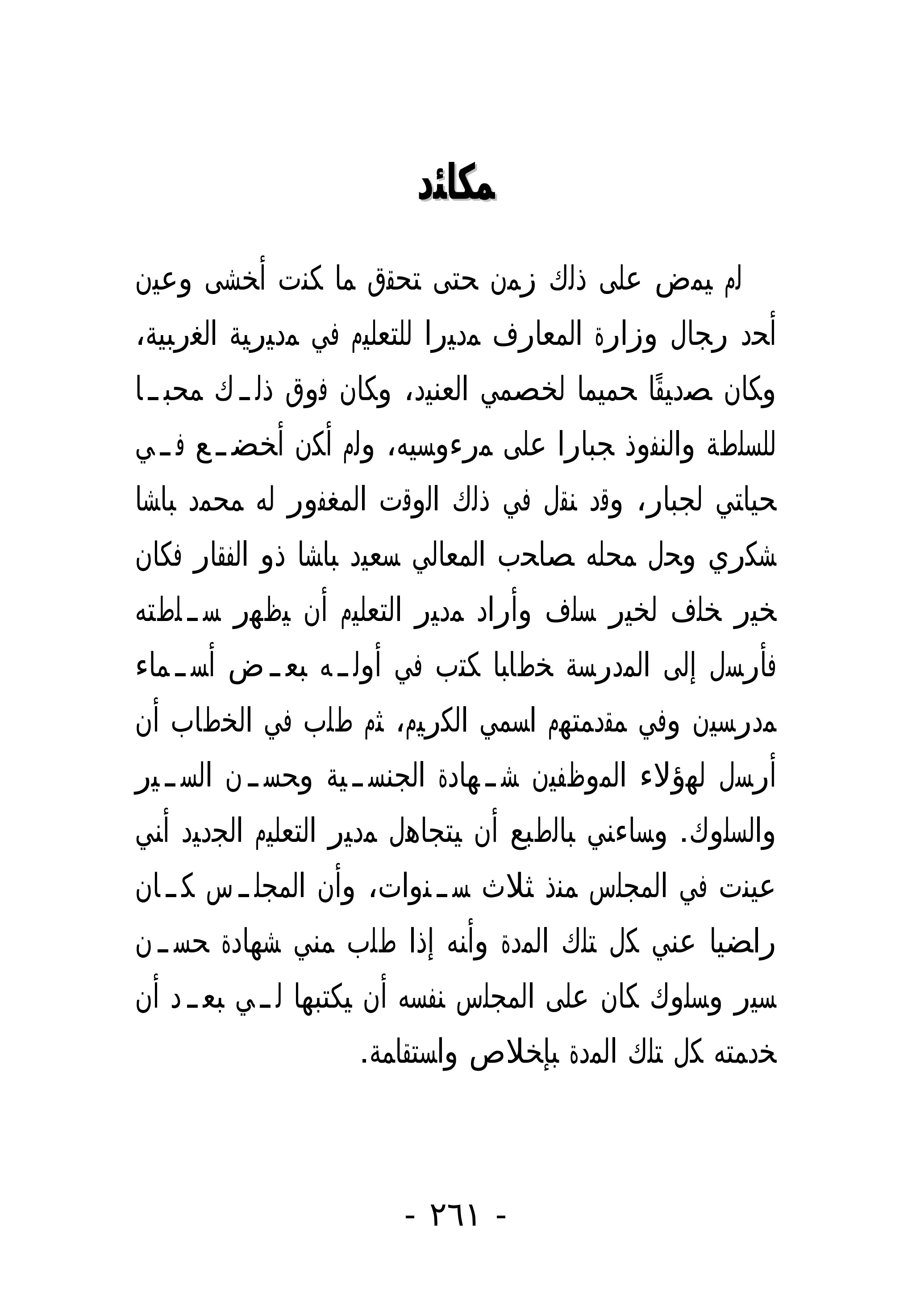
فهل من سبيل – أيها الرأي العام – إلى إرضاء جماعـة دار العلوم؟

مكافأة سنية لمن يدلني على ذلك.

وهل نستطيع نحن أن نتوسل إلى الجبار الذي لا تهتم بـه دار العلوم لينقذنا من ظلمهم.

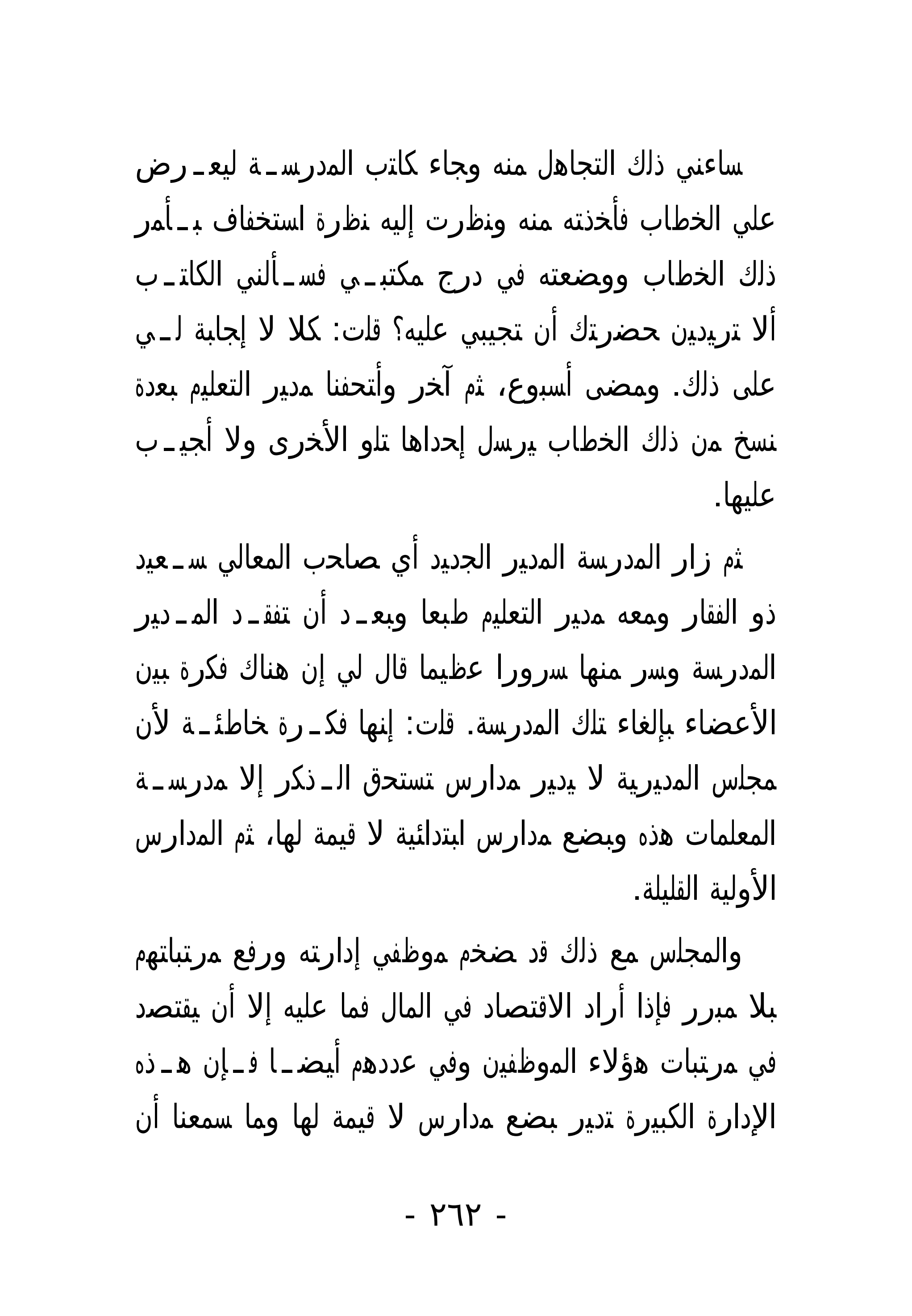
لقد استطاع حضرة صاحب السعادة النقراشي باشا في يوم من الأيام أن يسكت تلك الحناجر، وأن تخضع لـه وخصـم لزعيم الدار في ذلك الوقت ١٥ يوما ووزيرها الحالي لـيس


بأقل حزما ولا عدلاً من ذاك الوزير فلعله ينظر في الأمـر ويفهم بجلاء أنه ليس هو الذي يعاتب بتلك الوسائل.



مكائد

لم يمض على ذلك زمن حتى تحقق ما كنت أخشى وعين أحد رجال وزارة المعارف مديرا للتعليم في مديرية الغربية، وكان صديقًا حميما لخصمي العنيد، وكان فوق ذلك محبا للسلطة والنفوذ جبارا على مرءوسيه، ولم أكن أخضع في حياتي لجبار، وقد نقل في ذلك الوقت المغفور له محمد باشا شكري وحل محله صاحب المعالي سعيد باشا ذو الفقار فكان خير خاف لخير سلف وأراد مدير التعليم أن يظهر سلطته فأرسل إلى المدرسة خطابا كتب في أوله بعض أسماء مدرسين وفي مقدمتهم اسمي الكريم، ثم طلب في الخطاب أن أرسل لهؤلاء الموظفين شهادة الجنسية وحسن السير والسلوك. وساءني بالطبع أن يتجاهل مدير التعليم الجديد أني عينت في المجلس منذ ثلاث سنوات، وأن المجلس كان راضيا عني كل تلك المدة وأنه إذا طلب مني شهادة حسن سير وسلوك كان على المجلس نفسه أن يكتبها لي بعد أن خدمته كل تلك المدة بإخلاص واستقامة.



ساءني ذلك التجاهل منه وجاء كاتب المدرسـة ليعـرض علي الخطاب فأخذته منه ونظرت إليه نظرة استخفاف بـأمر ذلك الخطاب ووضعته في درج مكتبـي فسـألني الكاتـب ألا تريدين حضرتك أن تجيبي عليه؟ قلت: كلا لا إجابة لـي على ذلك. ومضى أسبوع، ثم آخر وأتحفنا مدير التعليم بعدة نسخ من ذلك الخطاب يرسل إحداها تلو الأخرى ولا أجيـب عليها.

ثم زار المدرسة المدير الجديد أي صاحب المعالي سـعيد ذو الفقار ومعه مدير التعليم طبعا وبعـد أن تفقـد المـدير المدرسة وسر منها سرورا عظيما قال لي إن هناك فكرة بين الأعضاء بإلغاء تلك المدرسة. قلت: إنها فكـرة خاطئـة لأن مجلس المديرية لا يدير مدارس تستحق الـذكر إلا مدرسـة المعلمات هذه وبضع مدارس ابتدائية لا قيمة لها، ثم المدارس الأولية القليلة.

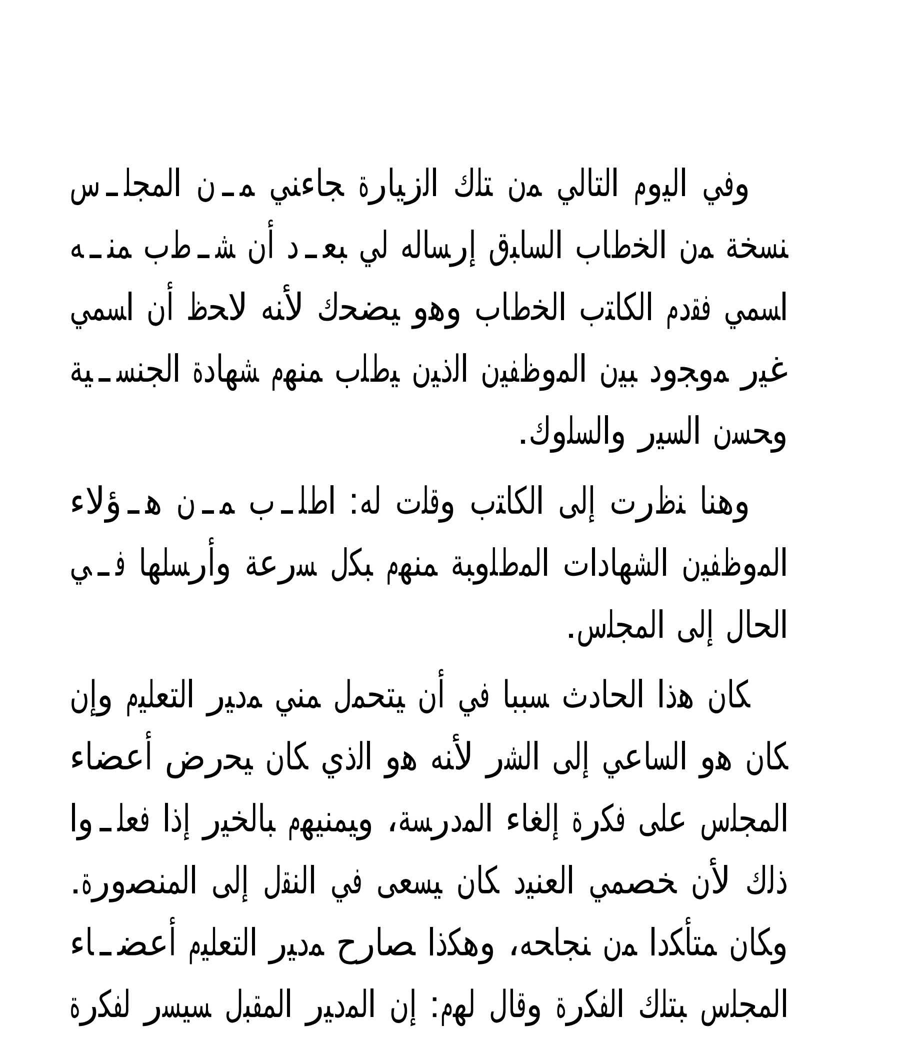
والمجلس مع ذلك قد ضخم موظفي إدارته ورفع مرتباتهم بلا مبرر فإذا أراد الاقتصاد في المال فما عليه إلا أن يقتصد في مرتبات هؤلاء الموظفين وفي عددهم أيضـا فـإن هـذه الإدارة الكبيرة تدير بضع مدارس لا قيمة لها وما سمعنا أن

قاطرة بخارية عظيمة يؤتى بها لتجر وراءها قاربا لا هنـاك ولا هنا وإلا كان ذلك خطلاً في الرأي وإسرافًا في المال فإذا أراد سعادة المدير الاقتصاد فما عليه إلا أن يحـذف نصـف موظفي إدارة المجلس.

قال مدير التعليم: ولكنهم قليلـون لا يسـتطيعون القيـام بعملهم إلا بكل مشقة. قلت: لقد كتب إلي هؤلاء الموظفـون عشرة خطابات في صوغ لا معنى له ولا فائدة منه ولـو أن لديهم ما يشغلهم ما تعلقوا بتلك السفاسف. قال: وما هو ذلـك الموضوع. قلت: طلبتم مني في تلـك الخطابـات الكثيـرة المتعددة أن أرسل إليكم شهادة تثبت جنسيتي وأخرى تثبـت حسن سيري وسلوكي، مع العلم بأني موظفة في ذلك المجلس من ثلاث سنوات ولو طلب أحد شهادة تثبت حسـن سـيري وسلوكي لكان على المجلس نفسه أن يكتبها لي حسبما خبره عني في تلك السنوات الثلاثة فأنتم تعملون ما لا فائدة منـه، ولا مؤاخذة يا سعادة البـك إذا قلـت: إن مرتبـك الضـخم لا يتحمله هذا المجلس بمورده الضئيل على أنه لا خسارة في الأمر إذ ردك المجلس إلى الوزارة التي انتدبت منها.

وقد تفضل أنت العودة إلى عملك في الحكومـة فتسـتفيد ويستفيد المجلس معك لأنك هنا لا عمل لك إلا الأشياء التـي لا تؤخر ولا تقدم. وإلا فما معنى أن تطلب شهادة جنسـيتي بتلك الخطابات الكثيرة ولا يشك الناظر فـي وجهـي فـي مصريتي لحظة.

قال: هذا ما يقتضيه النظام. قلت: وهل قدمت أنـت إلـى المجلس بجنسيتك. قال: إنني كنت موظفًا بوزارة المعـارف ولي فيها ملف خدمة. قلت: وهل فاتك أنني مثلك تماما فـي ذلك وملف خدمتي موجود بالوزارة أم حسبت يا سيدي أنهـم أحضروني هنا من وكالة البلح! ثم نظرت إلى معالي سـعيد ذو الفقار باشا وقلت: لا شك يا سيدي أنك تقتنع بمصـريتي تماما وأنت تنظر إلى وجهي هذا الأسمر دون شـهادة، أمـا سعادة البك مدير التعليم فهو أشـبه بـالإنجليز منـه إلـى المصريين فهو بعد أن يقدم لك شهادات بمصريته سـيتركك وأنت في حيرة من أمر جنسيته هذه، وضحك معالي سعيد ذو الفقار وقال: إنها لعلى حق فيما تقول وسأؤيد هذه المدرسـة بكل ما أستطيع وسكت مدير التعليم على مضض.



وفي اليوم التالي من تلك الزيارة جاءني من المجلس نسخة من الخطاب السابق إرساله لي بعد أن شطب منه اسمي فقدم الكاتب الخطاب وهو يضحك لأنه لاحظ أن اسمي غير موجود بين الموظفين الذين يطلب منهم شهادة الجنسية وحسن السير والسلوك.

وهنا نظرت إلى الكاتب وقلت له: اطلب من هؤلاء الموظفين الشهادات المطلوبة منهم بكل سرعة وأرسلها في الحال إلى المجلس.

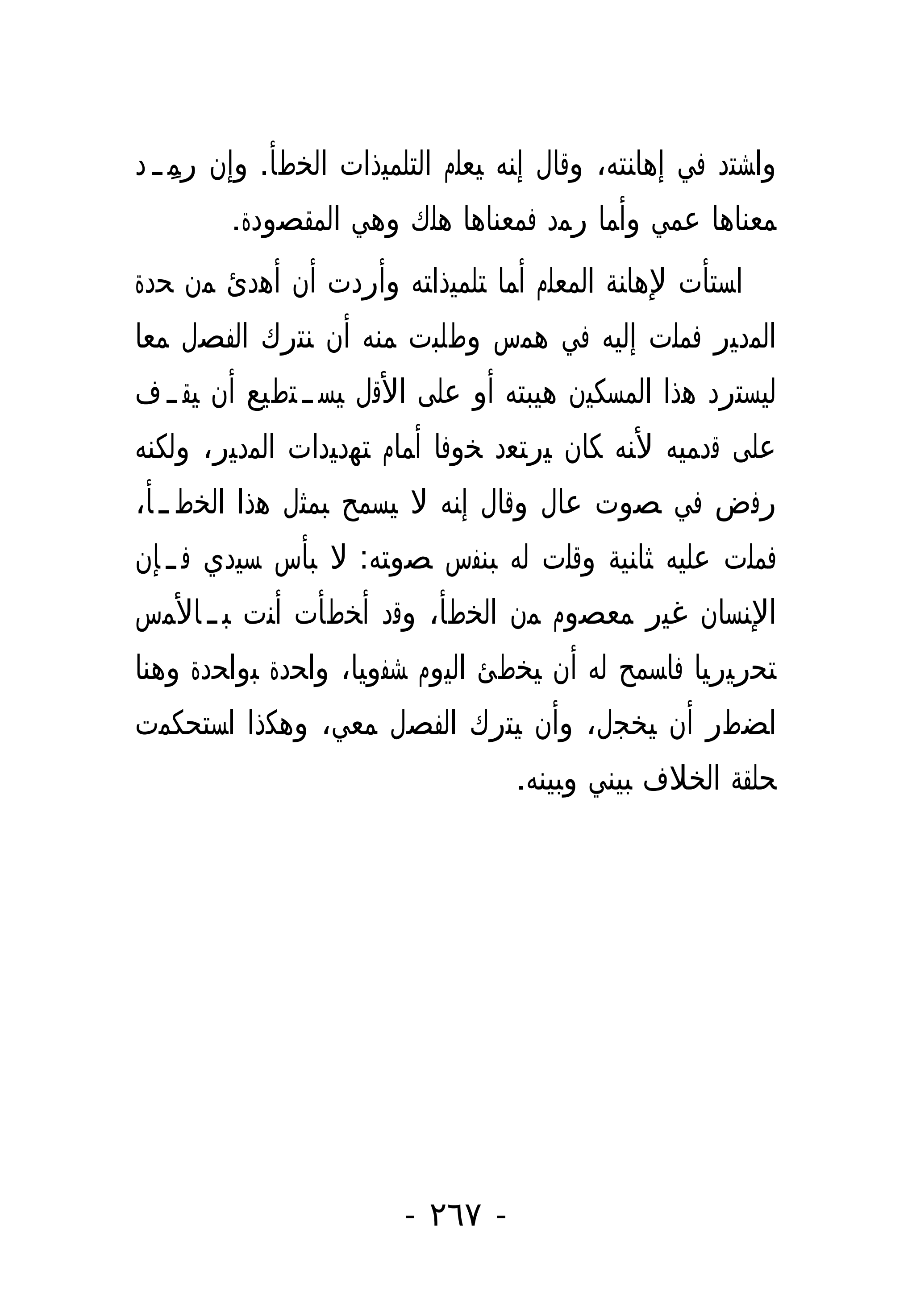
كان هذا الحادث سببا في أن يتحمل مني مدير التعليم وإن كان هو الساعي إلى الشر لأنه هو الذي كان يحرض أعضاء المجلس على فكرة إلغاء المدرسة، ويمنيهم بالخير إذا فعلوا ذلك لأن خصمي العنيد كان يسعى في النقل إلى المنصورة. وكان متأكدا من نجاحه، وهكذا صارح مدير التعليم أعضاء المجلس بتلك الفكرة وقال لهم: إن المدير المقبل سيسر لفكرة إلغاء هذه المدرسة، وعلى ذلك انتشرت الفكرة ووصلت إلى المدير كما قدمت، وكان علي أن أدافع عنها بكل ما أستطيع.

لهذا اجتهدت أن أفهم المدير أي "ذو الفقار باشا" أنه يستطيع الاقتصاد من موظفي المجلس لا من إلغاء المدرسة.

وحدث بعد ذلك أن زار المدرسة المرحـوم حفنـي بـك ناصف المشرف على اللغة العربية. وكان لمدير التعليم كتاب مطالعة تقرؤه تلميذات في سني المدرسة الابتدائية، وقـرأت البنت أمام حفني حديثًا للساعة عن نفسها، فقالت: هـا أنـذا، فطلب المرحوم حفني بك مـن التلميـذة أن تعيـد الجملـة وتصححها فقرأتها مرة وثانية وثالثة وسألني حفني بك عـن هذا الخطأ المتكرر، فقلت: إن التلميذة تقرأ صحيحا لأن هـذا المكتوب في كتاب المطالعة وإن كـان الواجـب أن تقـول (ها أنا ذي).

قال: إذن الكتـاب مخطـئ. قلـت: نعـم. قـال: ولـم لا تصححينه، وكان مدير التعليم موجودا معه فقلـت: فـي ابتسامة: لو فعلت ذلك لطردت من البلد لأن المؤلـف هـو سعادة المدير.

انتهت تلك الزيارة وتركت في نفس مدير التعلـيم أثـرا لا يمحى فزار المدرسة في اليـوم التـالي وحضـر درس المطالعة في هذا الفصل وقرأت تلميذة في نفس الكتاب: "لقد رمد الثعبان" قرأتها بكسر الميم فاحتد المدير علـى المعلـم

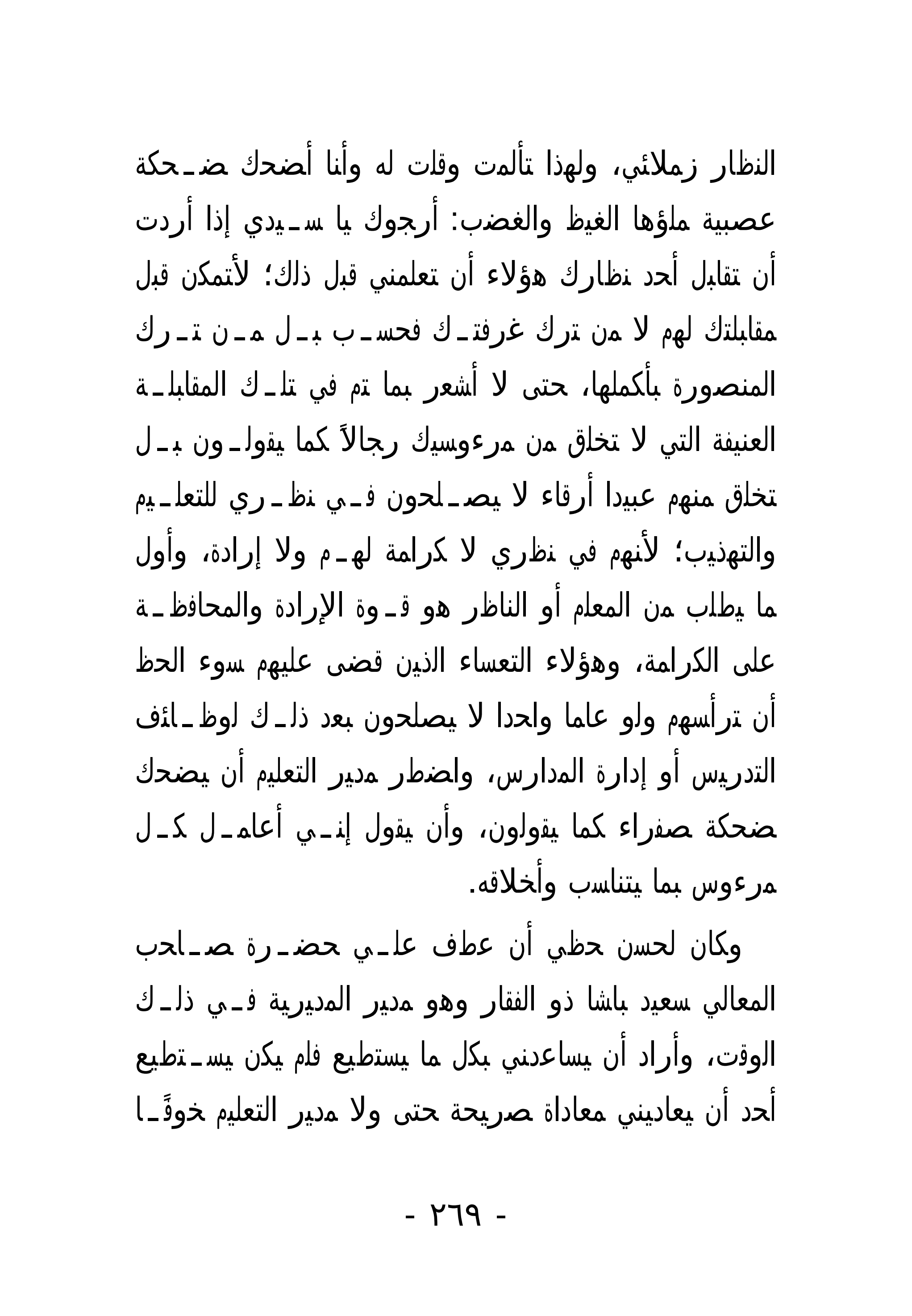


واشتد في إهانته، وقال إنه يعلم التلميذات الخطأ. وإن رمِد معناها عمي وأما رمد فمعناها هلك وهي المقصودة.

استأت لإهانة المعلم أما تلميذاته وأردت أن أهدئ من حدة المدير فملت إليه في همس وطلبت منه أن نترك الفصل معا ليسترد هذا المسكين هيبته أو على الأقل يستطيع أن يقف على قدميه لأنه كان يرتعد خوفا أمام تهديدات المدير، ولكنه رفض في صوت عال وقال إنه لا يسمح بمثل هذا الخطأ، فملت عليه ثانية وقلت له بنفس صوته: لا بأس سيدي فإن الإنسان غير معصوم من الخطأ، وقد أخطأت أنت بالأمس تحريريا فاسمح له أن يخطئ اليوم شفويا، واحدة بواحدة وهنا اضطر أن يخجل، وأن يترك الفصل معي، وهكذا استحكمت حلقة الخلاف بيني وبينه.

سعيد ذو الفقار باشا

زرت مدير التعليم بعد هذا، وكان كما قدمت شديدا سيء المعاملة لمرءوسيه، ولكنه قابلني ببشاشة وترحاب لما رآه من عطف مدير المديرية علي وما كدت أجلس في مكتبه حتى استأذن عليه أحد النظار – أي نظار المدارس التابعة للمجلس – فدخل الرجل في شيء من الخجل والتهيب، فلم يقم له المدير، ولم يمد له يده فاضطر أن يحييه برفع اليد – أي تحية عسكرية – وقال مدير التعليم بشدة: ما الذي جاء بك وماذا تريد؟ قال: جئت لتشملني بعطفك. فقال: ماذا تعني بهذا الكلام؟ إني أود أن أخلق منكم رجالاً لا يميلون إلى الملق، فاذهب من حيث أتيت ما دام ليس لديك مطلب تقدمه. فحيا الرجل تحية عسكرية أخرى وأراد أن ينصرف وهو يترك المكان بظهره حتى لا يدير ظهره لسعادة المدير، وهنا احتد المدير، وقال: أريد أن أخلق منكم رجالاً يحترمون أنفسهم ولا يفعلون ما تفعل، وخرج الرجل وهو يدعو له بطول العمر، وساءني هذا لأني زميلة ذلك الذي أهين ولعل المدير ما فعل ذلك إلا ليظهر لي مقدار بطشه وسلطانه على



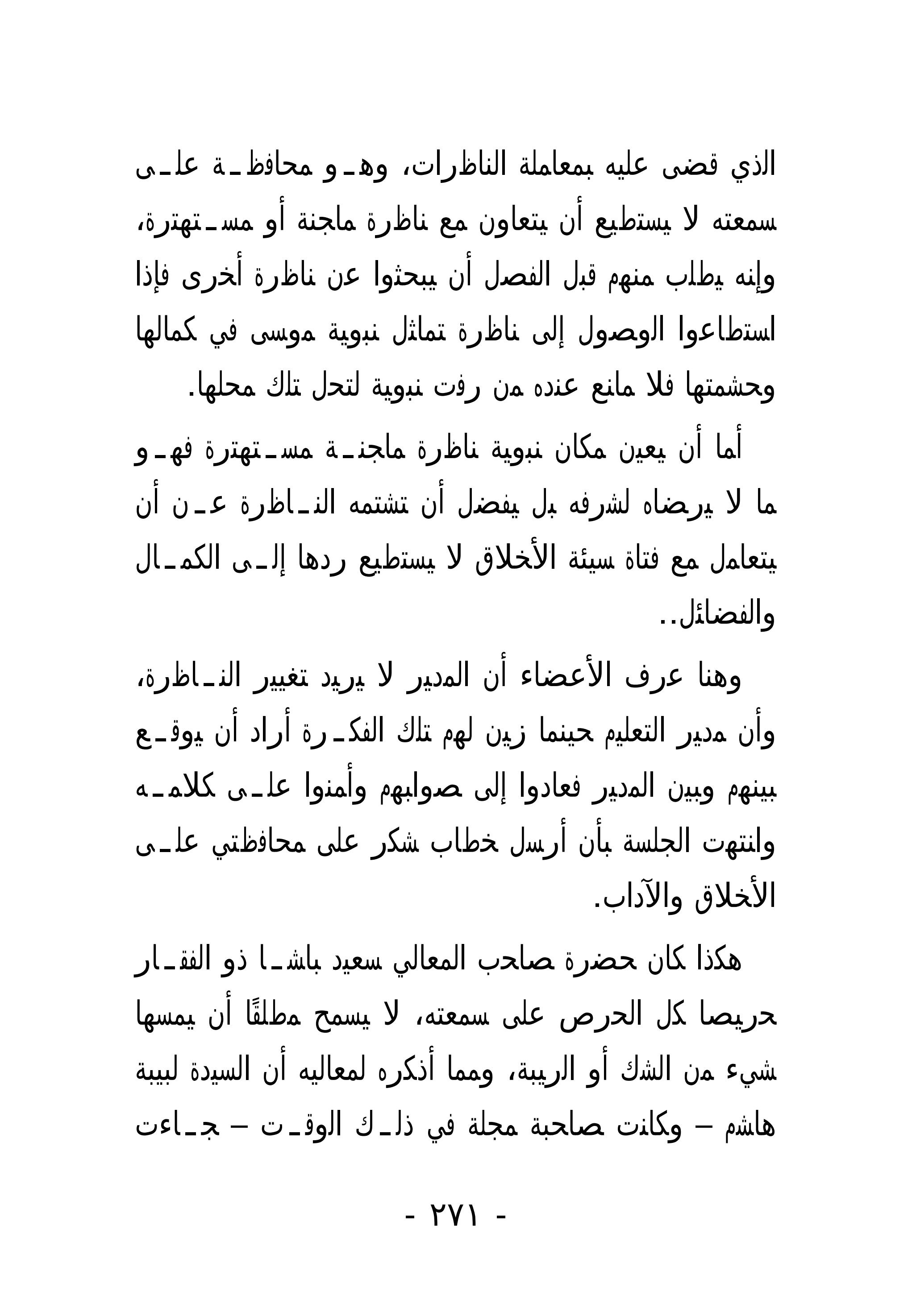
النظار زملائي، ولهذا تألمت وقلت له وأنا أضحك ضحكة عصبية ملؤها الغيظ والغضب: أرجوك يا سيدي إذا أردت أن تقابل أحد نظارك هؤلاء أن تعلمني قبل ذلك؛ لأتمكن قبل مقابلتك لهم لا من ترك غرفتك فحسب بل من ترك المنصورة بأكملها، حتى لا أشعر بما تم في تلك المقابلة العنيفة التي لا تخلق من مرءوسيك رجالاً كما يقولون بل تخلق منهم عبيدا أرقاء لا يصلحون في نظري للتعليم والتهذيب؛ لأنهم في نظري لا كرامة لهم ولا إرادة، وأول ما يطلب من المعلم أو الناظر هو قوة الإرادة والمحافظة على الكرامة، وهؤلاء التعساء الذين قضى عليهم سوء الحظ أن ترأسهم ولو عاما واحدا لا يصلحون بعد ذلك لوظائف التدريس أو إدارة المدارس، واضطر مدير التعليم أن يضحك ضحكة صفراء كما يقولون، وأن يقول إنني أعامل كل مرءوس بما يتناسب وأخلاقه.

وكان لحسن حظي أن عطف علي حضرة صاحب المعالي سعيد باشا ذو الفقار وهو مدير المديرية في ذلك الوقت، وأراد أن يساعدني بكل ما يستطيع فلم يكن يستطيع أحد أن يعاديني معاداة صريحة حتى ولا مدير التعليم خوفًا

من معاليه. وأوغر مدير التعليم صدور أعضـاء المجلـس وطلب منهم أن يلحوا في طلب إلغاء المدرسة تنفيـذًا لإرادة المدير المقبل، واسترسلوا في طلبهم هذا وجاهروا بالعـداوة نحو المدرسة، وأقامت المدرسة حفلتها السـنوية وأردت أن أنتقم من هؤلاء الأعضاء في تلك الحفلة. فألفت مفاخرة بـين طفلتين إحداهما ابنة رجل مـتعلم، ولكنـه متوسـط الحـال والأخرى ابنة رجل جاهل من أعيان البلاد، فأخذت كل منهما تفتخر بوالدها، وتغلبت ابنة المتعلم على ابنة الجاهل، وكـان مما قالته لزميلتها:

- إن فخر والدي في رقي معارفه وكمال ومداركه، أمـا أنتِ فلم يرتق والدك إلا بالطين (أي الفدادين) أما هو مجردا من طينه فلا قيمة له ولا احترام.

ساء أعضاء المجلس تلك الجرأة واعتبروها إهانـة لهـم وطلبوا عقد المجلس بصفة مستعجلة ليطلبوا فصـل نـاظرة المدرسة وعلم المدير بما أرادوه، وكان ذكيـا لبقًـا اعتـاد معاشرة الملوك والخروج من المآزق، فعقد المجلس وبعد أن سمع مرافعتهم وإلحاحهم في طلب فصلي قال لهم: إنه هـو الآخر مستاء مني لتلك الجرأة، ولكنه هو المسكين فيهم إذ هو



الذي قضى عليه بمعاملة الناظرات، وهـو محافظـة علـى سمعته لا يستطيع أن يتعاون مع ناظرة ماجنة أو مسـتهترة، وإنه يطلب منهم قبل الفصل أن يبحثوا عن ناظرة أخرى فإذا استطاعوا الوصول إلى ناظرة تماثل نبوية موسى في كمالها وحشمتها فلا مانع عنده من رفت نبوية لتحل تلك محلها.

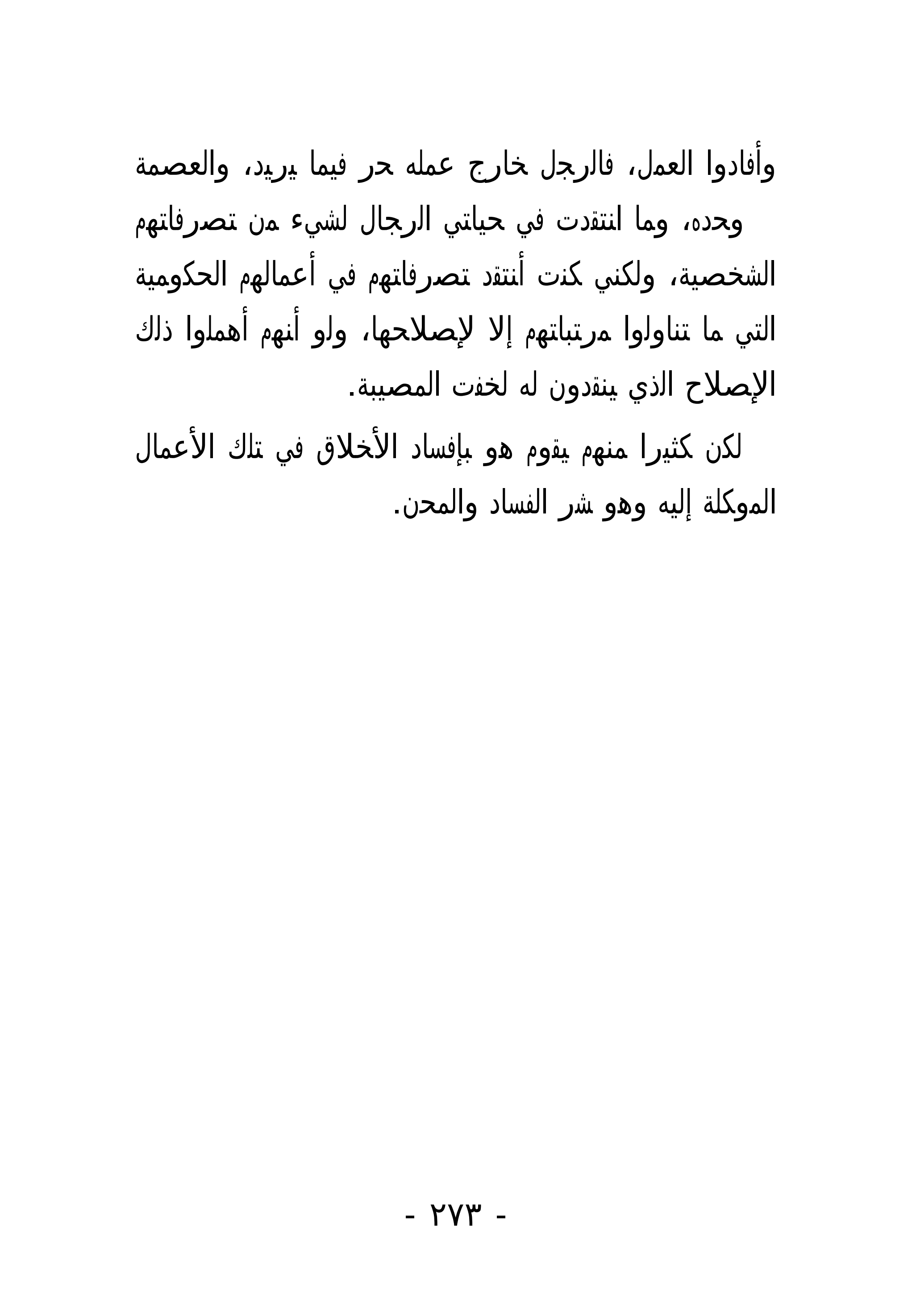
أما أن يعين مكان نبوية ناظرة ماجنـة مسـتهترة فهـو ما لا يرضاه لشرفه بل يفضل أن تشتمه النـاظرة عـن أن يتعامل مع فتاة سيئة الأخلاق لا يستطيع ردها إلـى الكمـال والفضائل..

وهنا عرف الأعضاء أن المدير لا يريد تغيير النـاظرة، وأن مدير التعليم حينما زين لهم تلك الفكـرة أراد أن يوقـع بينهم وبين المدير فعادوا إلى صوابهم وأمنوا علـى كلامـه وانتهت الجلسة بأن أرسل خطاب شكر على محافظتي علـى الأخلاق والآداب.

هكذا كان حضرة صاحب المعالي سعيد باشـا ذو الفقـار حريصا كل الحرص على سمعته، لا يسمح مطلقًا أن يمسها شيء من الشك أو الريبة، ومما أذكره لمعاليه أن السيدة لبيبة هاشم – وكانت صاحبة مجلة في ذلـك الوقـت – جـاءت

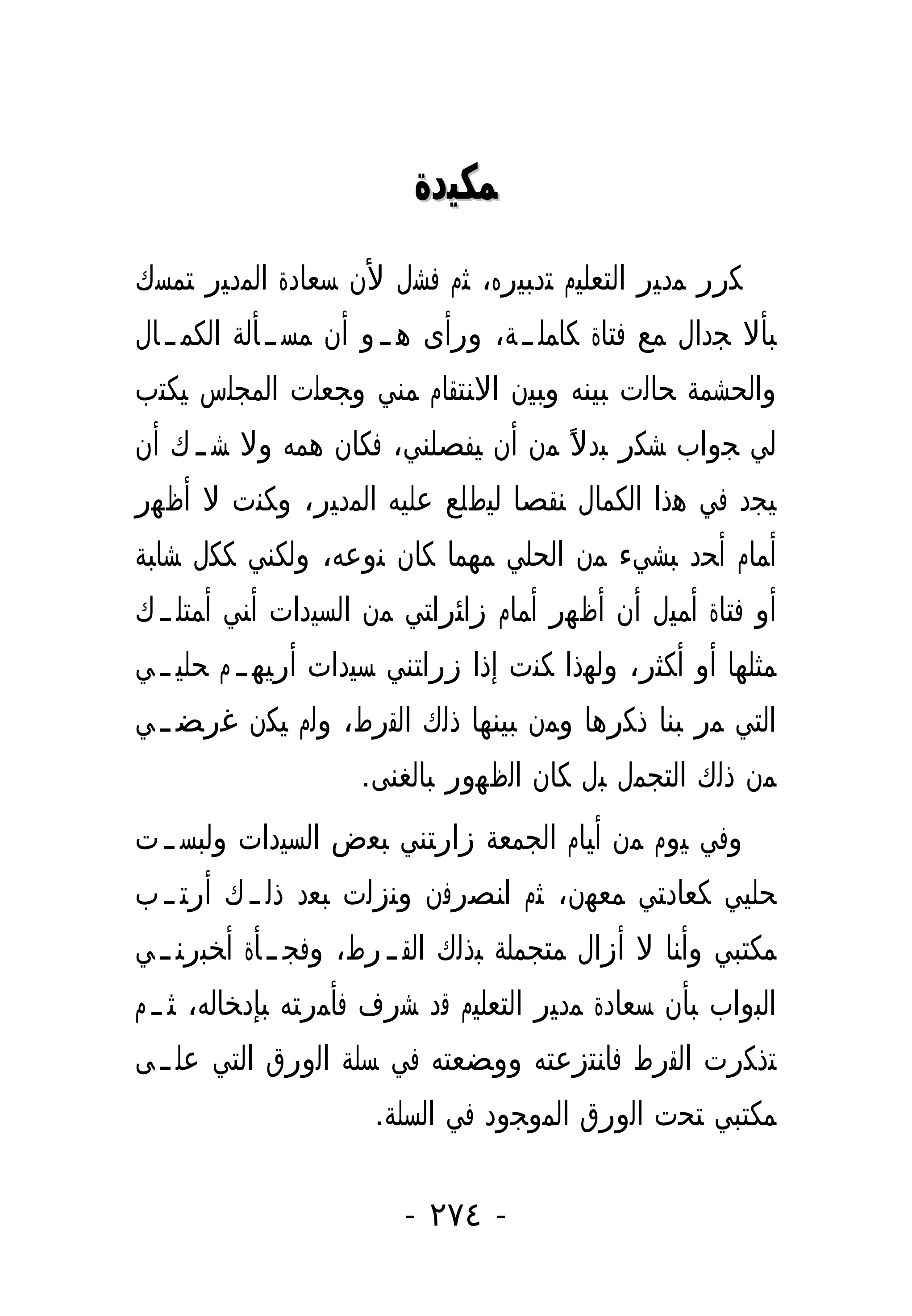
لمقابلته فرفض مقابلتها، وزارتني لأتوسط بينهما وبين المدير في تحقيق رغبتها، فكلمته تليفونيا ورجوته أن يقابله فقـال: هل هي صغيرة السن؟ قلت: نعم هي في مثل سني أو أكبـر قليلاً. قال: أرجو أن تعافيني من تلك المقابلة. قلت: أحمد ا الذي خلق لي وجها يمكنني من مقابلتك صباح مساء دون أن ترفض أو تتردد، وكان لشدة حرصه على العادات الشـرقية لا يقابلني أنا نفسي إذا زرت منزله بل تقابلني السيدة حرمـه وكريماته، وكانت عاداته فـي منزلـه عـادات الشـرقيين المحافظين فلا يسمح لحرمه المصون بأن تصحبه فـي أيـة جهة، ولم يرها أحد من المنصورة عموما، بل كانت تأتي من القاهرة وتذهب إليها دون أن يشعر أحد بمجيئها أو ذهابهـا. وكان معاليه قوي الشكيمة في منزله حسن المعاملة في وقت واحد، لا يسمح لخادمة أن تدنو منه بل كانت تقوم حرمه بكل طلباته الخصوصية، فكان مثال الكمال في منزله، وفي عمله.

وقلت له يوما: إني أعتقد يا باشا أنـك الرجـل الوحيـد المعصوم وكأن ا قد خلقك لا تعـرف الفسـاد، فضـحك مستهزئًا وقال: نعم يا نبوية لا أعرفه لا في منزلي ولا فـي عملي، وهي جملة حكيمة لو نفذها الرجال لأفـادوا الـبلاد



وأفادوا العمل، فالرجل خارج عمله حر فيما يريد، والعصمة وحده، وما انتقدت في حياتي الرجال لشيء من تصرفاتهم الشخصية، ولكني كنت أنتقد تصرفاتهم في أعمالهم الحكومية التي ما تناولوا مرتباتهم إلا لإصلاحها، ولو أنهم أهملوا ذلك الإصلاح الذي ينقدون له لخفت المصيبة.

لكن كثيرا منهم يقوم هو بإفساد الأخلاق في تلك الأعمال الموكلة إليه وهو شر الفساد والمحن.



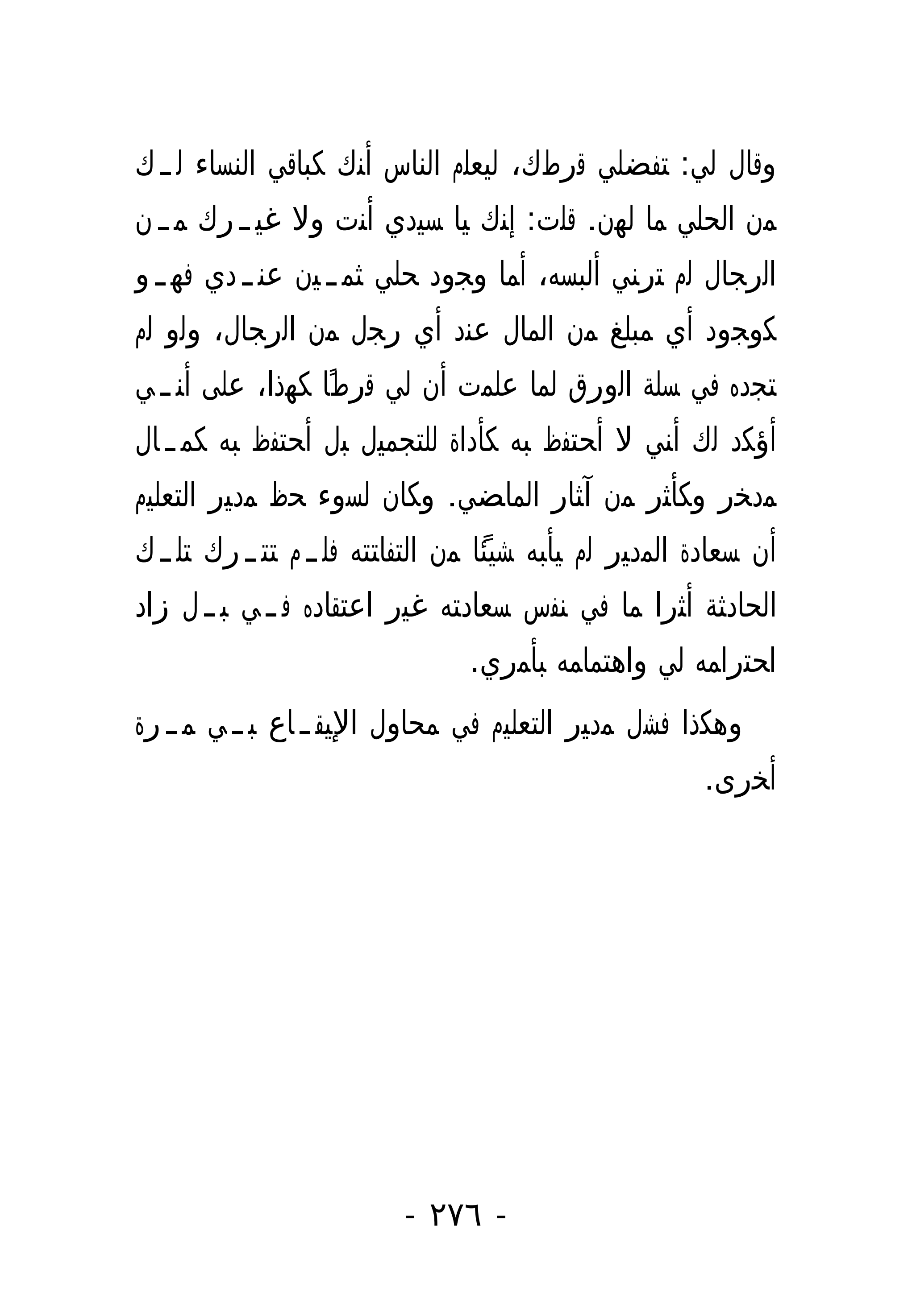
مكيدة

كرر مدير التعليم تدبيره، ثم فشل لأن سعادة المدير تمسك بألا جدال مع فتاة كاملة، ورأى هو أن مسألة الكمال والحشمة حالت بينه وبين الانتقام مني وجعلت المجلس يكتب لي جواب شكر بدلاً من أن يفصلني، فكان همه ولا شك أن يجد في هذا الكمال نقصا ليطلع عليه المدير، وكنت لا أظهر أمام أحد بشيء من الحلي مهما كان نوعه، ولكني ككل شابة أو فتاة أميل أن أظهر أمام زائراتي من السيدات أني أمتلك مثلها أو أكثر، ولهذا كنت إذا زرانني سيدات أريهم حليي التي مر بنا ذكرها ومن بينها ذلك القرط، ولم يكن غرضي من ذلك التجمل بل كان الظهور بالغنى.

وفي يوم من أيام الجمعة زارتني بعض السيدات ولبست حليي كعادتي معهن، ثم انصرفن ونزلت بعد ذلك أرتب مكتبي وأنا لا أزال متجملة بذلك القرط، وفجأة أخبرني البواب بأن سعادة مدير التعليم قد شرف فأمرته بإدخاله، ثم تذكرت القرط فانتزعته ووضعته في سلة الورق التي على مكتبي تحت الورق الموجود في السلة.

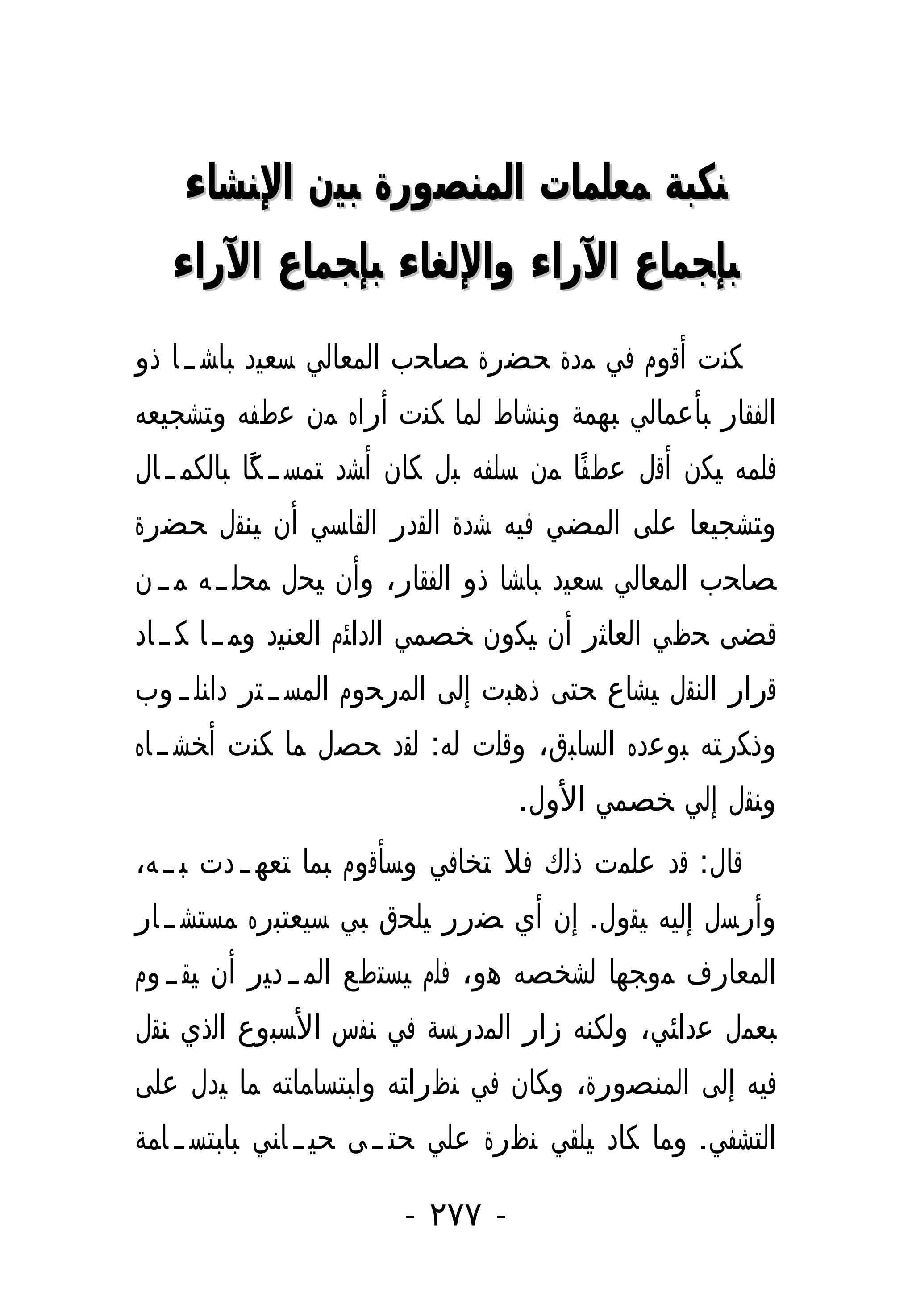
ودخل هو وسألني في بعض أشـياء فـدخلت المدرسـة لأستقصي عنها وعدت وحياني بعد ذلـك وخـرج، ولعـدم اكتراثي بمسألة الحلي لم أفطن إلى أن القرط قـد فقـد مـن مكانه؛ لأني لم أبحث عنه، ولم أتلمسه وبعد ذلـك الحـادث بثلاثة أيام خاطبني مدير التعليم تليفونيا وقال لي لقد ظننتـك فصلت الخدم جميعهم. قلت: ولم ذلك؟ قال: ألم تفقدي شـيئًا ثمينًا، فتذكرت القرط ووضعت يدي في السلة لأخرجه مـن مكانه فلم أجده فعلمت أنه أخذه. قلـت إنك إذن آخذه. قـال: أو لم تعرفي ذلك إلى الآن؟

قلت: نعم لأني لا أهتم بتلك الأشياء، ولـم أتـذكر أنـي وضعته هنا إلا بعد أن كلمتني أنت الآن، ومر علـى ذلـك وقت، ولم يحضر هو القرط، ولم أطالبه به وفي يـوم مـن الأيام كنت مسافرة، وكان سعادة المدير مسافرا إلى القـاهرة أيضا، وظهرت في العربة التي كان هو بها أي في ديـوان الحريم الذي كان إلى جانبي في الدرجة الأولى ورآني مدير التعليم وكأنه انتهز تلك الفرصة ليظهر للمدير أنـي كبـاقي النساء حتى ينتزع منه فكرة الكمـال التـي علقـت بذهنـه ولا أدري كيف. كان ممسكًا بالقرط في تلك اللحظة فأخرجه



وقال لي: تفضلي قرطك، ليعلم الناس أنك كباقي النساء لـك من الحلي ما لهن. قلت: إنك يا سيدي أنت ولا غيـرك مـن الرجال لم ترني ألبسه، أما وجود حلي ثمـين عنـدي فهـو كوجود أي مبلغ من المال عند أي رجل من الرجال، ولو لم تجده في سلة الورق لما علمت أن لي قرطًا كهذا، على أنـي أؤكد لك أني لا أحتفظ به كأداة للتجميل بل أحتفظ به كمـال مدخر وكأثر من آثار الماضي. وكان لسوء حظ مدير التعليم أن سعادة المدير لم يأبه شيئًا من التفاتته فلـم تتـرك تلـك الحادثة أثرا ما في نفس سعادته غير اعتقاده فـي بـل زاد احترامه لي واهتمامه بأمري.

وهكذا فشل مدير التعليم في محاول الإيقـاع بـي مـرة أخرى.



نكبة معلمات المنصورة بين الإنشاء بإجماع الآراء والإلغاء بإجماع الآراء

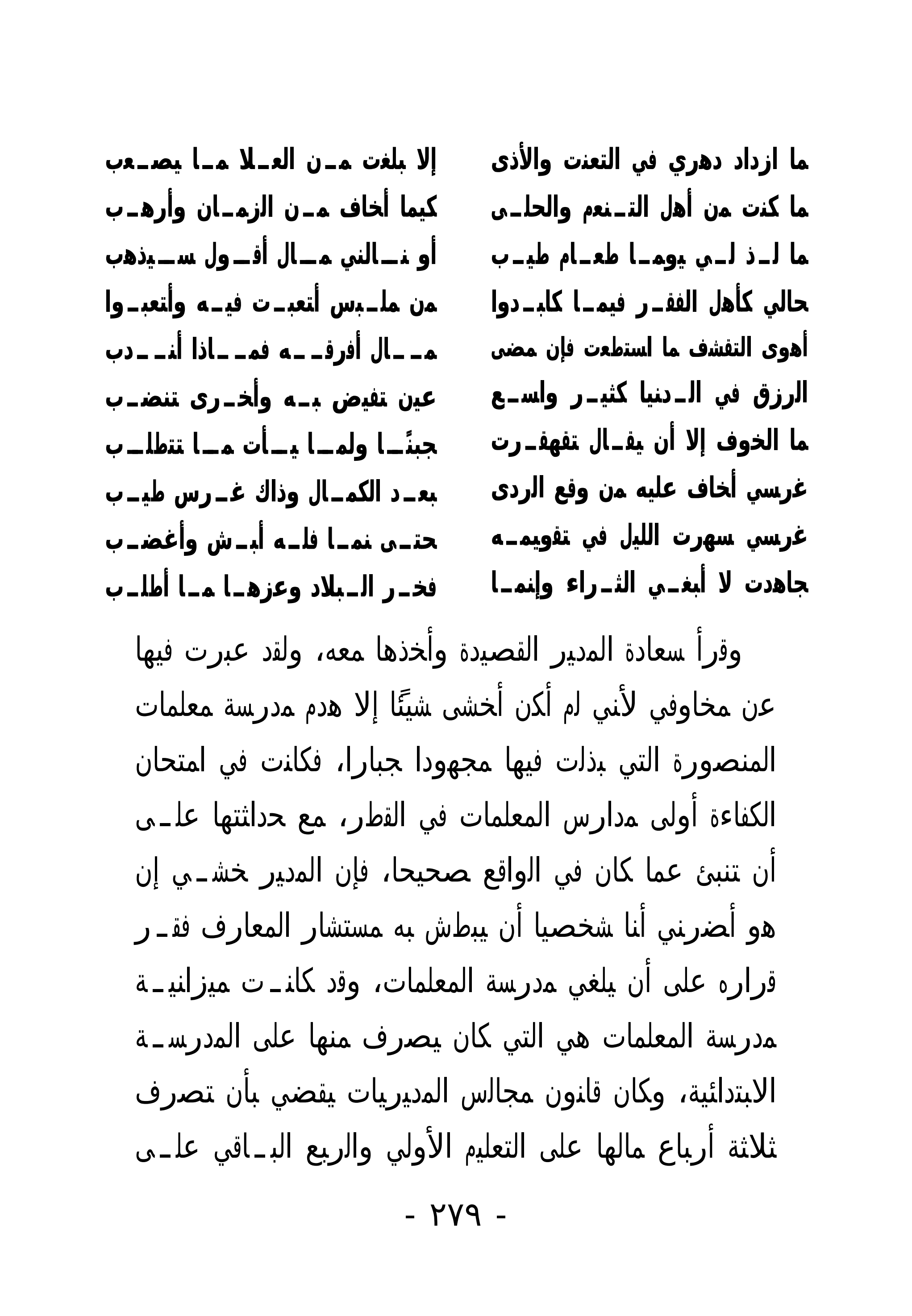
كنت أقوم في مدة حضرة صاحب المعالي سعيد باشـا ذو الفقار بأعمالي بهمة ونشاط لما كنت أراه من عطفه وتشجيعه فلمه يكن أقل عطفًا من سلفه بل كان أشد تمسـكًا بالكمـال وتشجيعا على المضي فيه شدة القدر القاسي أن ينقل حضرة صاحب المعالي سعيد باشا ذو الفقار، وأن يحل محلـه مـن قضى حظي العاثر أن يكون خصمي الدائم العنيد ومـا كـاد قرار النقل يشاع حتى ذهبت إلى المرحوم المسـتر داناـوب وذكرته بوعده السابق، وقلت له: لقد حصل ما كنت أخشـاه ونقل إلي خصمي الأول.

قال: قد علمت ذلك فلا تخافي وسأقوم بما تعهـدت بـه، وأرسل إليه يقول. إن أي ضرر يلحق بي سيعتبره مستشـار المعارف موجها لشخصه هو، فلم يستطع المـدير أن يقـوم بعمل عدائي، ولكنه زار المدرسة في نفس الأسبوع الذي نقل فيه إلى المنصورة، وكان في نظراته وابتساماته ما يدل على التشفي. وما كاد يلقي نظرة علي حتـى حيـاني بابتسـامة

صفراء قبل أن يمد يده بالتحية، ثم قال وهو يتردد في تحيته: لعلك مسرورة من مركزك الحالي. قلـت: نعـم مسـرورة وسأظل كذلك.

وهكذا زار المدرسة وخرج، وقد حركت تلـك الزيـارة كوامن قلبينا، وجاءني في اليوم الثاني لزيارته مدير التعلـيم فقال لي: لقد ودعت المدير السابق بقصيدة مدح أفليس مـن المستحسن أو الواجب أن تستقبلي المدير الحالي بمثـل تلـك القصيدة. قلت: إنه لم يترك لي وقتًا لذلك بل زارني مفاجأة، ولم يكن في مقابلته ما يشجعني على مدحه ولو أنـه حـاول نسيان ما مضى في أعماله المستقبلة لوجدت من نفسي بعـد ذلك رضا بمدحه والثناء عليه، أما الآن فمـاذا أقـول وقـد افترقنا في الماضي على أسوأ حال واجتمعنا أمس وكل منـا على حالته الماضية؟ قال: لا بد أن تحاولي كتابة الموضـوع وسأزورك غدا لأخذ ما يجود به خيالك. ولم يخلف وعده بل جاءني في الغد فوجد على مكتبي القصيدة التالية:

يا دهر كـم تعـدو وكـم تتقلـب	**وتفــل عــزم العــاملين وتتعــب**
إن كان مـا تبغيـه ذلـي فالـذي	**تبغيــه لا يرضــاه شــهم طيــب**
حالي كمـا جربتهـا مـن شـدة	**ما صـدني عنهـا العـدو الأغلـب**
ما فل عزمي حادث فيمـا مضـى	**بـل زادنــي علمــا بمــا يتعقــب**



ما ازداد دهري في التعنت والأذى ... إلا بلغت من العلا ما يصعب

ما كنت من أهل التنعم والحلى ... كيما أخاف من الزمان وأرهب

ما لذ لي يوما طعام طيب ... أو نالني مال أقول سيذهب

حالي كأهل الفقر فيما كابدوا ... من ملبس أتعبت فيه وأتعبوا

أهوى التقشف ما استطعت فإن مضى ... مال أفرقه فماذا أندب

الرزق في الدنيا كثير واسع ... عين تفيض به وأخرى تنضب

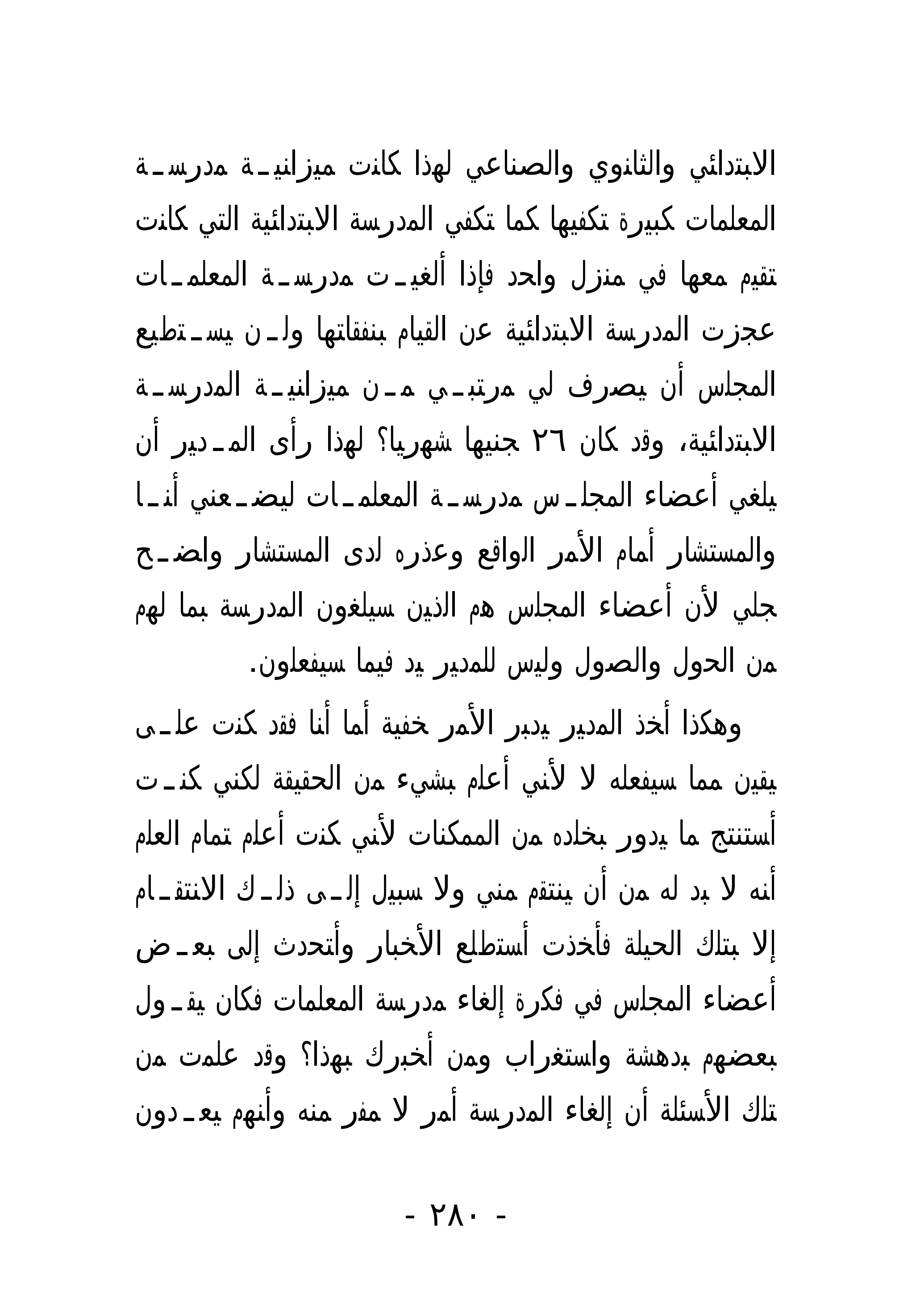
ما الخوف إلا أن يقال تقهقرت ... جبنًا ولما يأت ما تتطلب

غرسي أخاف عليه من وقع الردى ... بعد الكمال وذاك غرس طيب

غرسي سهرت الليل في تقويمه ... حتى نما فله أبش وأغضب

جاهدت لا أبغي الثراء وإنما ... فخر البلاد وعزها ما أطلب

وقرأ سعادة المدير القصيدة وأخذها معه، ولقد عبرت فيها عن مخاوفي لأني لم أكن أخشى شيئًا إلا هدم مدرسة معلمات المنصورة التي بذلت فيها مجهودا جبارا، فكانت في امتحان الكفاءة أولى مدارس المعلمات في القطر، مع حداثتها على أن تنبئ عما كان في الواقع صحيحا، فإن المدير خشي إن هو أضرني أنا شخصيا أن يبطش به مستشار المعارف فقر قراره على أن يلغي مدرسة المعلمات، وقد كانت ميزانية مدرسة المعلمات هي التي كان يصرف منها على المدرسة الابتدائية، وكان قانون مجالس المديريات يقضي بأن تصرف ثلاثة أرباع مالها على التعليم الأولي والربع الباقي على



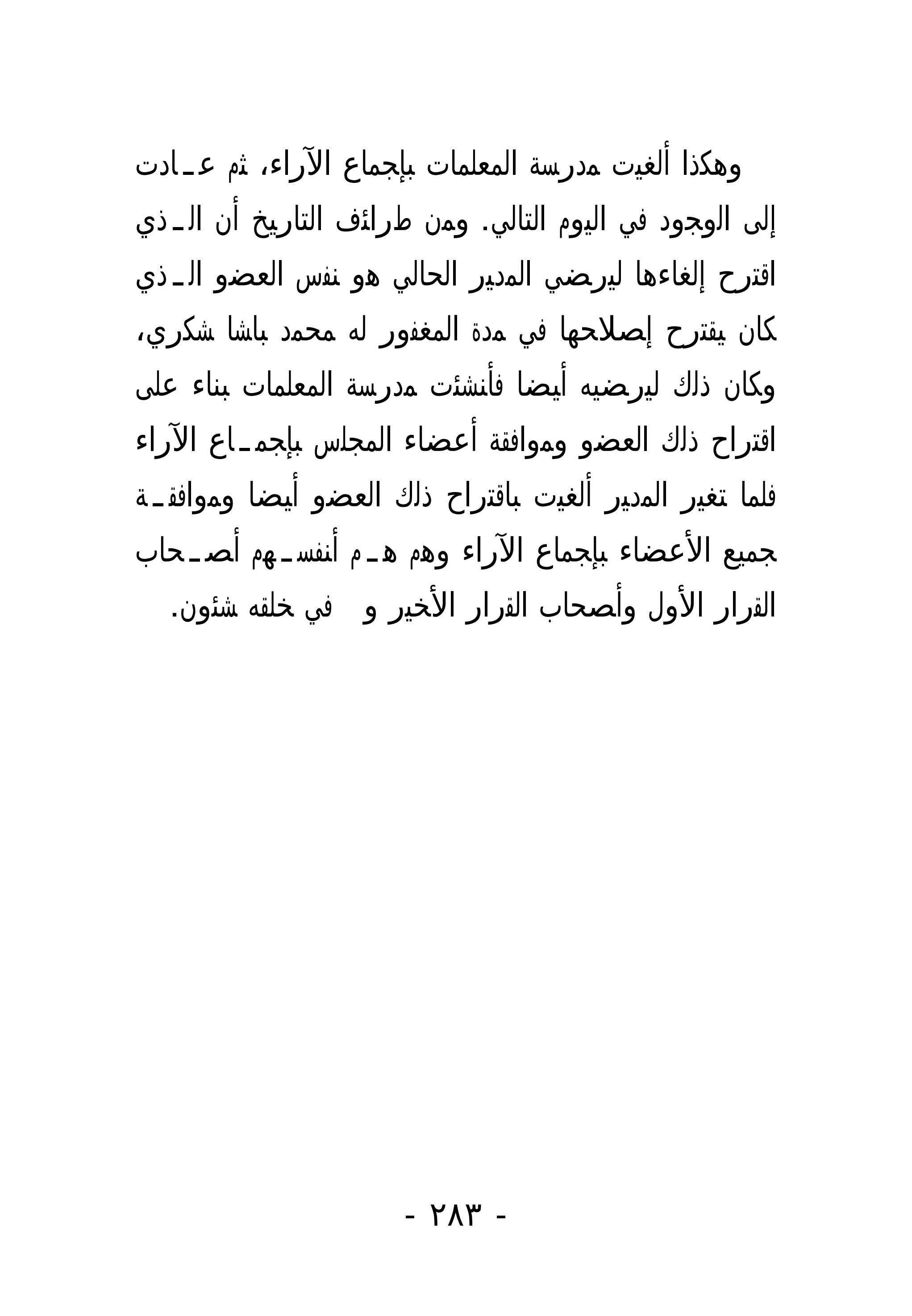
الابتدائي والثانوي والصناعي لهذا كانت ميزانيـة مدرسـة المعلمات كبيرة تكفيها كما تكفي المدرسة الابتدائية التي كانت تقيم معها في منزل واحد فإذا ألغيـت مدرسـة المعلمـات عجزت المدرسة الابتدائية عن القيام بنفقاتها ولـن يسـتطيع المجلس أن يصرف لي مرتبـي مـن ميزانيـة المدرسـة الابتدائية، وقد كان ٢٦ جنيها شهريا؟ لهذا رأى المـدير أن يلغي أعضاء المجلـس مدرسـة المعلمـات ليضـعني أنـا والمستشار أمام الأمر الواقع وعذره لدى المستشار واضـح جلي لأن أعضاء المجلس هم الذين سيلغون المدرسة بما لهم من الحول والصول وليس للمدير يد فيما سيفعلون.

وهكذا أخذ المدير يدبر الأمر خفية أما أنا فقد كنت علـى يقين مما سيفعله لا لأني أعلم بشيء من الحقيقة لكني كنـت أستنتج ما يدور بخلده من الممكنات لأني كنت أعلم تمام العلم أنه لا بد له من أن ينتقم مني ولا سبيل إلـى ذلـك الانتقـام إلا بتلك الحيلة فأخذت أستطلع الأخبار وأتحدث إلى بعـض أعضاء المجلس في فكرة إلغاء مدرسة المعلمات فكان يقـول بعضهم بدهشة واستغراب ومن أخبرك بهذا؟ وقد علمت من تلك الأسئلة أن إلغاء المدرسة أمر لا مفر منه وأنهم يعـدون

له العدة في الخفاء، وفي إحدى الليالي حلمت أن النار شبت في إحدى غرف مدرسة المعلمات فعرفت أن النكبة قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى فذهبت إلى مستشار المعارف وأخبرته بما تم عليه عزم المدير من إلغاء مدرسة المعلمات إكراما لي، فاستبعد الرجل الأمر وقال: إنه محال أن يضرب التعليم تلك الضربة لينتقم مني، وإني إنما أتخيل ما لا يمكن حصوله. قلت: هب أن خيالي تحقق فماذا يكون موقفك بعد أن يلغي المجلس مدرسة المعلمات بإجماع الآراء. قال: سألغي القرار يوم صدوره.

فذهبت إلى مدير التعليم وسألته عن إلغاء مدرسة المعلمات. فقال: أساحرة أنت تعلمين بسحرك الغيب. قلت: نعم، ولكن سحري لا يمكنني من معرفة اليوم الذي ستطير فيه مدرسة المعلمات. قال: قد لا تنتظرين كثيرا وما دام خيالك خصبا إلى هذا الحد فلم لا تتخيلين أنها تلغى غدا، وعرفت من مزاحه هذا أن المدرسة ستلغى قريبا وأنه يريد إخفاء حقيقة ما قال بشيء من المزاح. قلت: ومتى يعقد مجلس المديرية. قال: إنه سيعقد يوم كذا في الأسبوع المقبل فتأكدت أن المدرسة ستلغى في ذلك اليوم.

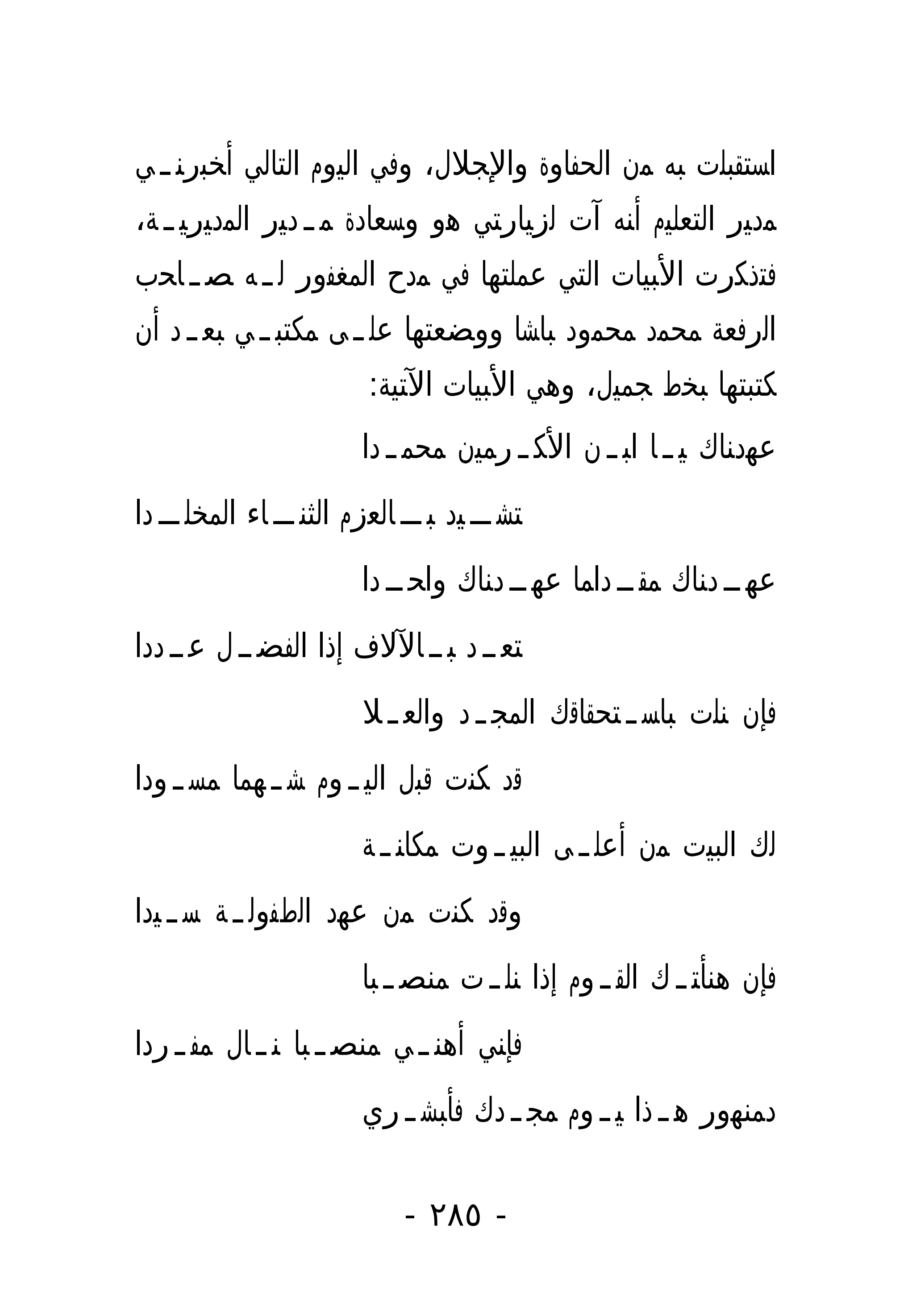
وفي يوم انعقاد المجلس خاطبت مدير التعليم تليفونيا قبـل دخوله الجلسة وسألته عما سيتم في تلك الجلسة بشأن مدرسة المعلمات. قال: لكِ أن تتخيلي ما تشائين أما أنا فليس عنـدي ما أقوله. قلت: حسنًا إنك لا تريد أن تتكلم إلا بعد أن أكـون أنا أمام الأمر الواقع. قال: لا شأن لـي بخيالـك وتنبؤاتـك وما كاد يخرج من الجلسة حتى اتصلت به تليفونيا وسـألته عما تم بشأن مدرسة المعلمات. فقال بصوت الظـافر: لقـد ألغيت بإجماع الآراء فاتصلت في الحال بمستشار المعـارف تليفونيا وأخبرته الخبر واستنجزت وعده. قال: إن هذا كـلام فارغ لا أصدقه. قلت: ما عليك إلا أن تتصل بمدير التعلـيم فاتصل به في الحال وعرف حقيقة الخبر وما كـاد يعرفهـا حتى أرغى وأزبد وقال لمدير التعليم: إنها سخافة يجـب أن يدفع ثمنها مجلس المديرية، ولم يمض نصف سـاعة حتـى اتصل مستشار الداخلية الإنجليزية بالمدير نفسه وطلب منـه أن يرسل قرار إلغاء مدرسة المعلمات مع مخصـوص إلـى الداخلية، وأرسل القرار في الحال، ثم عاد إلى المجلس فـي اليوم التالي وعليه إشارة وزير الداخلية بإلغاء ذلك القرار.



وهكذا ألغيت مدرسة المعلمات بإجماع الآراء، ثم عـادت إلى الوجود في اليوم التالي. ومن طرائف التاريخ أن الـذي اقترح إلغاءها ليرضي المدير الحالي هو نفس العضو الـذي كان يقترح إصلاحها في مدة المغفور له محمد باشا شكري، وكان ذلك ليرضيه أيضا فأنشئت مدرسة المعلمات بناء على اقتراح ذلك العضو وموافقة أعضاء المجلس بإجمـاع الآراء فلما تغير المدير ألغيت باقتراح ذلك العضو أيضا وموافقـة جميع الأعضاء بإجماع الآراء وهم هـم أنفسـهم أصـحاب القرار الأول وأصحاب القرار الأخير و في خلقه شئون.

رضاء بعد الغضب

أعيدت المدرسة، ولكن إلغائها ترك في نفسي أثـرا لـم يمكنني التغلب عليه، كنت غير مطمئنة من عملي مع ذلـك المدير متأكدة كل التأكيد أنه سيبطش بي متى استطاع ذلـك، والمدير لا شك يستطيع أن يعمل ما يريد، ولهـذه المناسـبة (السيئة) تذكرت المدة التي قضيتها مع المغفور له صـاحب الرفعة محمد باشا محمود وكيف كـان رحمـه ا عـادلاً لا يهمه إلا العمل، وقد سمعت في ذلك الوقت أنه نقـل إلـى البحيرة فعملت أبياتًا من الشعر أعدد فيها مفاخره، وما كدت أخلص من هذا حتى حادثتني حضرة صاحبة العصمة حـرم المدير الحالي تليفونيا وأخبرتني أنها تريد زيـارتي فأهلـت ورحبت، وكان ذلك لأن الداخلية حتمت على هذا المـدير أن يصالحني وهو يعلم أني كنت في أشد الغضب والألم فـأراد أن يمهد لنفسه السبيل بزيارة صاحبة العصمة حرمـه وفـي المساء زارتني السيدة المصونة حرمه فاستقبلتها لدى البـاب استقبالاً يليق بمقامها لأنها كانت سيدة جليلة، وهي في الوقت نفسه حرم مدير المديرية وسرت باستقبالي، ثم ودعتها بمـا



استقبلت به من الحفاوة والإجلال، وفي اليوم التالي أخبرني مدير التعليم أنه آت لزيارتي هو وسعادة مدير المديرية، فتذكرت الأبيات التي عملتها في مدح المغفور له صاحب الرفعة محمد محمود باشا ووضعتها على مكتبي بعد أن كتبتها بخط جميل، وهي الأبيات الآتية:

عهدناك يا ابن الأكرمين محمدا
تشيد بالعزم الثناء المخلدا

عهدناك مقداما عهدناك واحدا
تعد بالآلاف إذا الفضل عددا

فإن نلت باستحقاقك المجد والعلا
قد كنت قبل اليوم شهما مسودا

لك البيت من أعلى البيوت مكانة
وقد كنت من عهد الطفولة سيدا

فإن هنأتك القوم إذا نالت منصبا
فإني أهني منصبا نال مفردا

دمنهور هذا يوم مجدك فأبشري

وتيهي على كل العواصـم إذ غـدا

ولـو أن هـذا الـدهر جـاد بمثلـه

علينا لشـاد المجـد فينـا وجـددا

حسدناك إذ نلـت المـراد وضـيعت

صروف الليالي جل آمالنـا سـدى

وفي آخر الأبيات كما يرى القارئ شـيء مـن التلمـيح بأسفي واستيائي لنقل ذلك المدير إلى الدقهلية ونقل المغفـور له محمد باشا محمود إلى دمنهور، وكنت أود العكس.

أخيرا جاء الميعاد الذي حدده سعادة المدير لزيارتي. فلـم أسمح بالدخول إلا بعد أن انتظر على الباب نصف ساعة، ثم صعد إلى مكتبي ومعه مدير التعليم فوجدني جالسة على مقعد ضخم كبير وليس بالغرفة مقعد مثله بل بها كراسي خيزران من العادية، وقد هيأ لي طيش الشباب إذ ذاك أن أفعل هـذا لأهينه وأجلسه على كرسي عادي في الوقت الذي أتربع فيه أنا على كرسي ضخم، فلما دخل لم أعبأ بدخوله، ولـم أقـم لاستقباله فحيا وجلس، ولم أرد عليه تحيتـه. فقـال: مالـك غاضبة لا تردين؟ قلت: وما شأنك بغضبي؟ قال: أنا رئـيس

تلك المدرسة. قلت: وما شأنك أنت بي يا حضـرة الـرئيس ولست بقريبي ولا صلة لي بك وما الذي يهمك من غضبي؟ قال: لقد جئت لأزور المدرسة. قلت: ولكنك مع هذا تعلم أني لا أريد أن أراك ولا أستقبلك. فأخذ يلين في لهجة ويقول: لقد استقبلت زوجتي أمس استقبالاً حسنًا. قلت: وما الخطأ الـذي فعلته تلك السيدة حتى أستقبلها بغير ذلك؟ ولم تكـن عضـوا معكم في المجلس، ولم تدبر شيئًا. قال: ولكنها زوجتي ولهـا ما لي من الكرامة. قلت: نعم إن لها كـل كرامـة تسـتحقها زوجة مدير، وليس لها في نظري من الأخطاء ما يجـوز أن أحرمها من تلك الكرامة ومن ذلك الاحترام الواجب لزوجـة مدير.

قال: وماذا أنتِ فاعلة الآن، وقد جئت لزيارتك وأريد أن أرى المدرسة؟ قلت: لك أن تراها كما تريد أما أنا فلا أسـير معك. قال: وكيف تحل المشكلة إذن؟ قلـت: لا مشـكلة يـا سيدي لأني "ح اجيب لك نايبة تاخدك تزورك المدرسة" قـال بغضب: ما هذا الكلام! قلت: وماذا فيه. إني سـآتيك بنائبـة عني أنا لتأخذك لزيارة المدرسة فهل في ذلك ما يغضـبك؟ قال: إنك تقسين علي في معاملتك، أفتظنين أني لـم أعامـل

ناظرة غيرك، قلت: كلا. أعلم أنـك عاملـت غيـري مـن الناظرات كما أعلم أن تلك المقابلـة لا تـزال مدونـة فـي محاضر البوليس. قال: لقد كانت مسألة تافهة أثارها بعـض مجانين الأهالي بالفيوم. قلت: إن في المنصورة أمثال هؤلاء المجانين ولو أني عاملتك معاملتها لوصلنا إلى ما وصـلتما إليه بالفيوم، قال: دعك من الماضي ولننظر إلى المسـتقبل، وسأرضيك بقدر ما أستطيع. قلت: لا أظن أنـك ترضـيني مختارا، وإنك إن أرضيتني اليوم فستنتهز فرصة إغضـابي غدا إذ استطعتها. ورأيي أن يحترس كل منا من الآخر، وألا أقابلك ولا تقابلني إلا للضرورة ويفعل ا بنا ما يريد.

قال: أعاهدك ألا أسيء إليك بعد هذا، قلـت: أرجـو أن تكون في هذه المرة صادق الوعد.

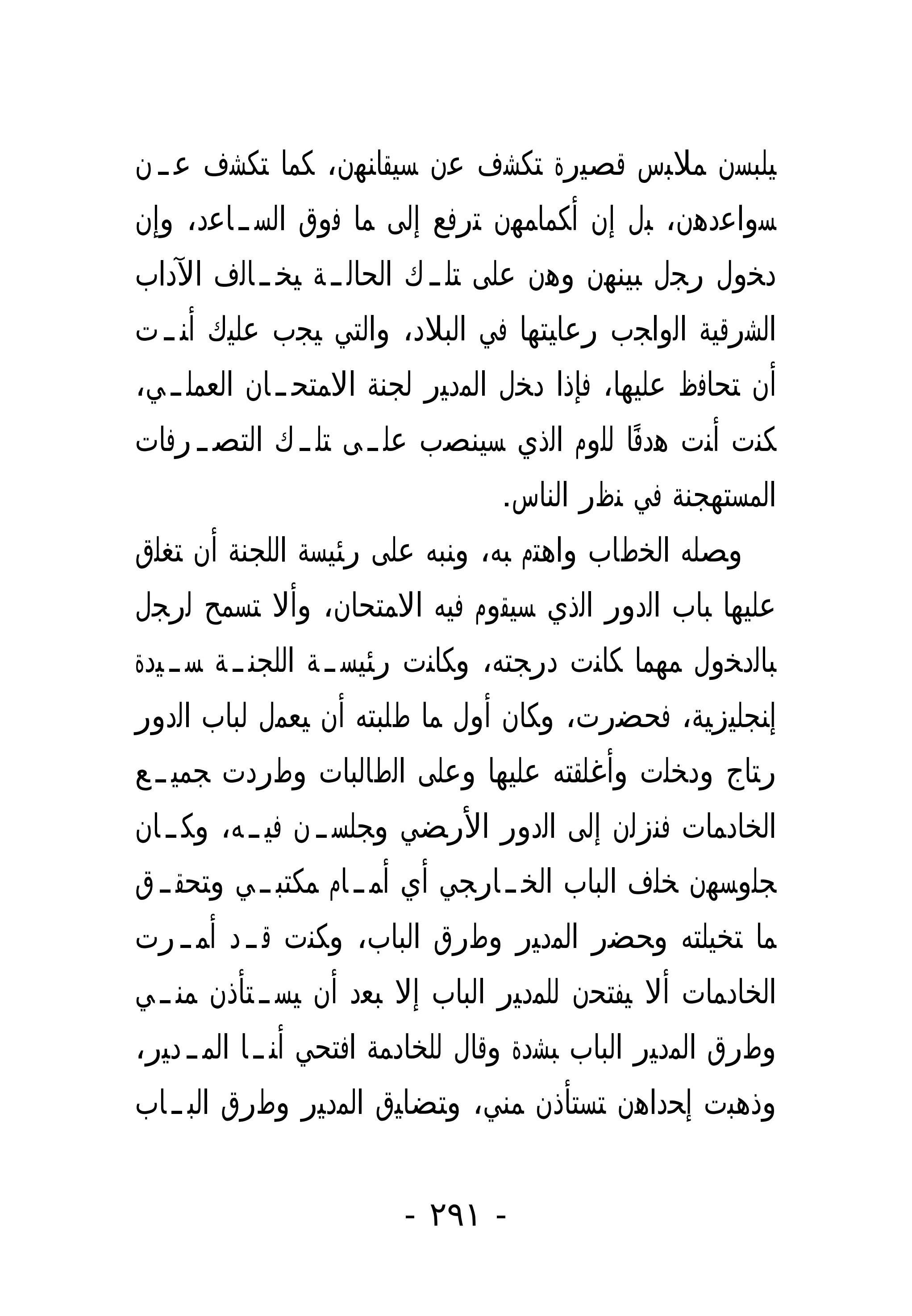
لكنه ما لبث بعد هذا أن ضايقني مضايقة عظيمة فـذهبت إلى مكتبه، وكان عنده بعض الأعيان فقلت له: مـن العقـل ألا يعمل الإنسان عملاً إلا وله من غايـة تفيـده شخصـيا ولا أدري ما هي التي تتلمسـها سـعادتك مـن مضـايقتي والإساءة إلي. إنك إن انتصرت علي بعد ذلك فلن يعجب بك أحد أو يصفق كل استحسانًا. بل يقولون جرب قوته ضد فتاة،

وإذا أنا انتصرت عليك كان الويل والخجل لك. فمـا الـذي يحملك على هذا؟ قال: إني لا أضايقك. قلـت: ولكنـي أنـا شخصيا أشعر بتلك المضايقة. قال: لعلك مـن رواد الـزار ولعل عليك عفريتًا يكرهني. قال ذلك بشيء مـن السـخرية أمام الأعيان ليظهر أني امرأة كبـاقي النسـاء الجـاهلات، فابتسمت وقلت له في نفس سخريته: يجوز يا باشا أن يكون علي عفريت، ولكن ما رأيك لو أن هذا الأمر قد ثبت جليـا لأصبحت أنت شيخة الزار لأن عفريتي لا يظهـر إلا علـى يديك. أو بعبارة أخرى لا يتحرك إلا إذا زمـرت لـه أنـت وطبلت، فضحك الأعيان وخجل سعادته.

انتقام

أخذ المدير ينتقم مني، وأخذت أنا الأخـرى أبحـث فـي وسائل لأنتقم بها لنفسي، فكانت من أهم وسائله إفهام الإنجليز أني وطنية محبوبة وأني أكره الإنجليز وأعمل ضدهم، ولـم أكن أتجه إلى وجهة نظره هذه لأني كنت أجهل ما يدسه لي عند الإنجليز.

وكان امتحان الكفاءة للمعلمات وامتحان الابتدائية يقامـان في مدرستي، وكان يسبق الامتحانين امتحان عملي للتـدبير المنزلي، وكانت هذه الأشياء في أعلى دور مـن المدرسـة. وكنت أعلم شدة ميل المدير إلى التدخل في كل شيء يتعلـق بالسيدات، فعلمت من هذا أنه سـيدخل الامتحـان العملـي وأردت أن أقطع عليه الطريق فيما يريد، فكتبت إلى المستر دانلوب خطابا أقول له فيه: إن وزارة المعارف هي المسئولة عن نظام الامتحانات، وعن المخالفات للآداب التي يجوز أن تقع فيها ما دامت هي القائمة بتلك الامتحانات العامة، وإنـي أعلم أن المدير شديد الرغبة في أن يتدخل في كل شيء وأنه سيحضر حتما لامتحان العملي والطالبات في ذلك الامتحـان



يلبسن ملابس قصيرة تكشف عن سيقانهن، كما تكشف عـن سواعدهن، بل إن أكمامهن ترفع إلى ما فوق الســاعد، وإن دخول رجل بينهن وهن على تلـك الحالـة يخـالف الآداب الشرقية الواجب رعايتها في البلاد، والتي يجب عليك أنـت أن تحافظ عليها، فإذا دخل المدير لجنة الامتحـان العملـي، كنت أنت هدفًا للوم الذي سينصب علـى تلـك التصـرفات المستهجنة في نظر الناس.

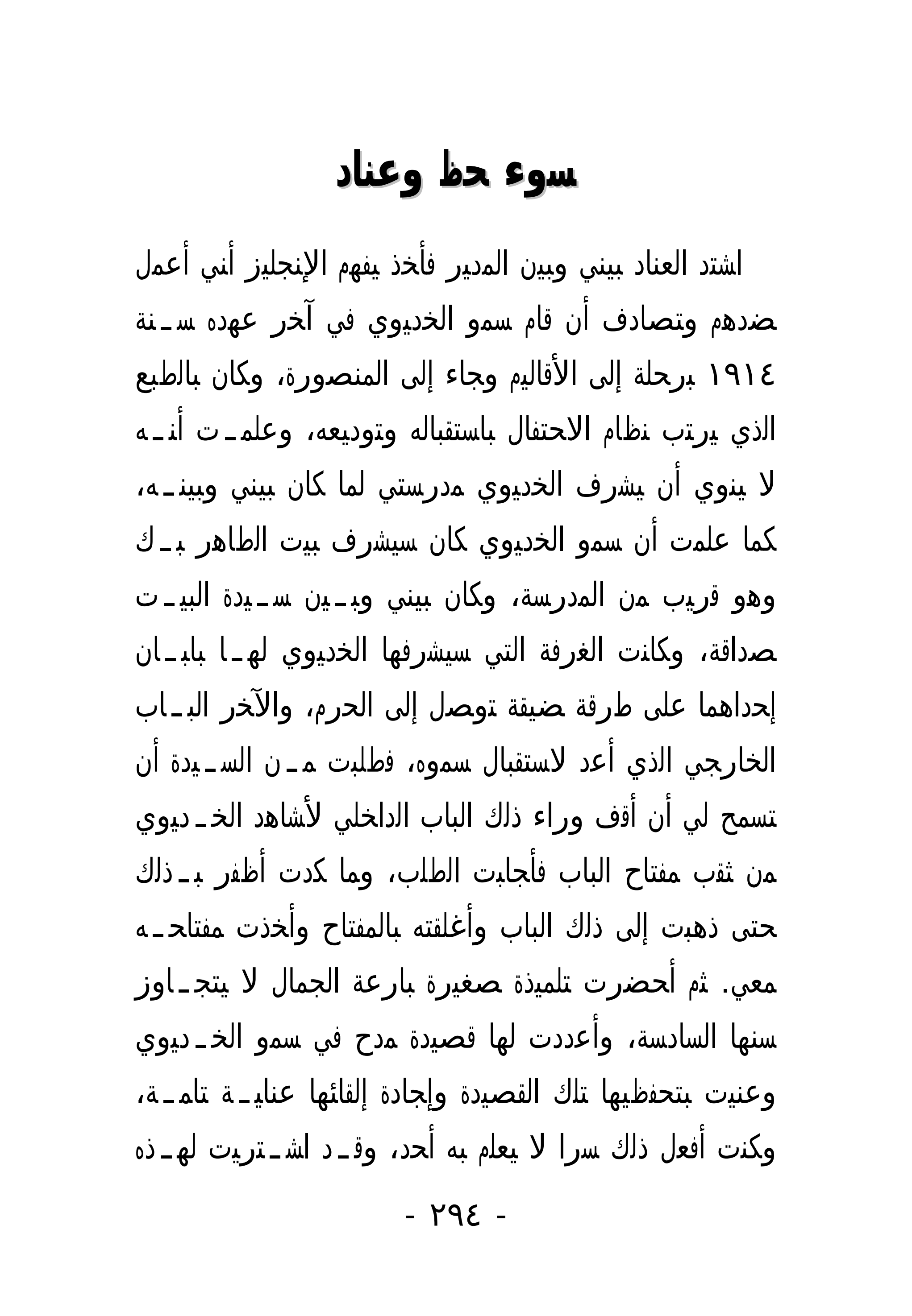
وصله الخطاب واهتم به، ونبه على رئيسة اللجنة أن تغلق عليها باب الدور الذي سيقوم فيه الامتحان، وألا تسمح لرجل بالدخول مهما كانت درجته، وكانت رئيسـة اللجنـة سـيدة إنجليزية، فحضرت، وكان أول ما طلبته أن يعمل لباب الدور رتاج ودخلت وأغلقته عليها وعلى الطالبات وطردت جميـع الخادمات فنزلن إلى الدور الأرضي وجلسـن فيـه، وكـان جلوسهن خلف الباب الخـارجي أي أمـام مكتبـي وتحقـق ما تخيلته وحضر المدير وطرق الباب، وكنت قـد أمـرت الخادمات ألا يفتحن للمدير الباب إلا بعد أن يسـتأذن منـي وطرق المدير الباب بشدة وقال للخادمة افتحي أنـا المـدير، وذهبت إحداهن تستأذن مني، وتضايق المدير وطرق البـاب

مرة أخرى، ثم ثالثة والخادم تجيب بأنها لا تستطيع أن تفـتح الباب إلا بعد أن تأذن الناظرة، وأن إحدى زميلاتها ذهبـت لتستحضر ذلك الإذن، واشتد المدير في لهجته وقال أنا مدير البلد، وقالت الخادمة: وأنا مالي يا سيدي.

وأخيرا قالت له: لا تغضب وسأذهب أنا بنفسي وجاءتني الخادمة الثانية، فأمرتها أن تحضر لي كوبا من الماء قبل أن تفتح له الباب، وكانت هذه بالطبع كل الوسائل التي أسـتطيع أن أنتقم بها لنفسي.

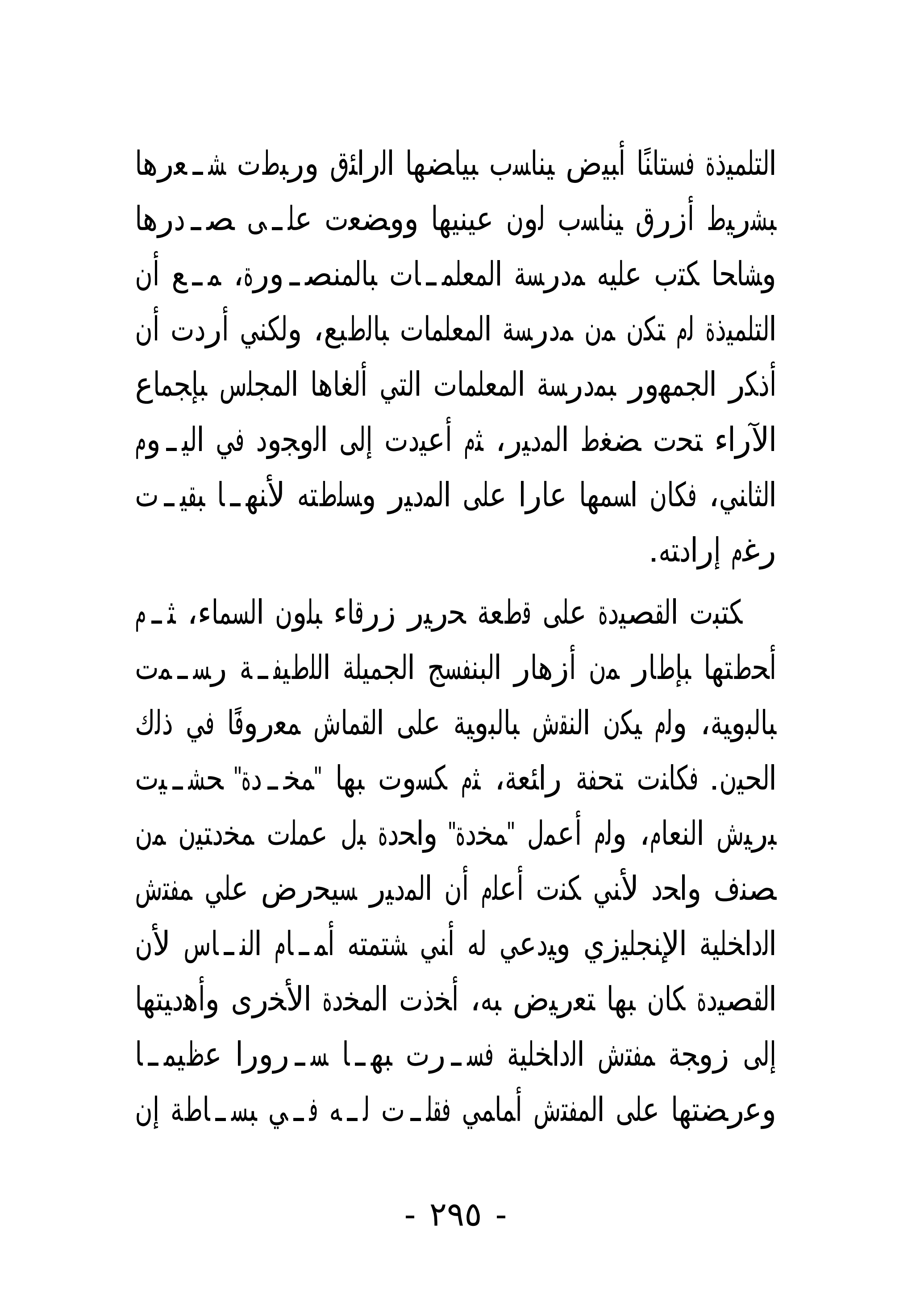
فتحت الخادمة الباب بعد أن وقف خارجه نصف سـاعة، ودخل، وكنت واقفة على باب مكتبي، وقد أمرت الخادمـات ألا يرشدنه إلى شيء، ومن ترشده سترفت في الحال، ودخل المدير ووقف أمامهن، وقـال لأقـربهن منـه: أيـن لجنـة الامتحان؟ قالت: لجنة؟ لجنة إيه يا سيدي، ودي تبقـى إيـه؟ قال: ألم تحضر هنا سيدة أجنبية فأين هـي؟ قالـت: سـيدة أجنبية، واش عرفني أنا؟ وسأل الثانية فلم تفده بأكثر من هذا، فتركهن وذهب بدلاً من أن يصعد إلى السلم الموصـل إلـى الدور الأعلى ذهب إلى الجهة الثانية التي بها المـراحيض، وبعد أن زارها بالطبع عاد إلى مكانه الأول وسأل السـؤال الأول بشدة، وقلت: أنا للخادمة التي كان يخاطبها فـي أول الأمر: خذي ده يا فلانة (مشيرة إلى المدير) وديـه اللجنـة،

وهنا عرفت الخادمة معنى كلمة اللجنة التي كانت تتجاهلهـا، وذهبت أمامه وتبعها وهو في غضب، فلما وصل إلى الدور الثالث طرق الباب ففتحت له رئيس اللجنة بنفسها لترى مـن الطارق وقالت من أنت؟ قال: أنا المدير. قالت: إنـي آسـفة لأني لا أستطيع الخروج إليك ولا إدخالك عنـدي، وأغلقـت الباب، ونظرت الخادمة إليه في شيء من الدهشة، وقد ذهـل هو وخجل من موقفه، فقالت له: يا عيني يا سيدي طردتـك؟ ولم يجب هو بشيء، ولكنه أسرع بالنزول قفزا فكان يقفز كل ثلاث درجات دفعة واحدة، ومر بالخادمات اللائي كن بالفناء والخادمة تجري وراءه، ولما خرج هو يجري وفتح البـاب الخارجي، وكان جمهور من الناس مجتمعا عند البـاب فـي انتظار بناتهم فسمعوا الخادمة وهي تقول: مسـكين، والنبـي صعب علي لما طردته. فظن الناس أن التي طردتـه هـي نبوية موسى، وانتشر الخبر في مدينـة المنصـورة، وأخـذ الناس يتساءلون كيف اسـتطاعت أن تطـرده، وأن تبقـى، وكثرت الحكايات والأقاويل، وكلها تنصب على موقف المدير المخجل من ناظرة المدرسة الظافرة المنتصرة.



سوء حظ وعناد

اشتد العناد بيني وبين المدير فأخذ يفهم الإنجليز أني أعمل ضدهم وتصادف أن قام سمو الخديوي في آخر عهده سنة ١٩١٤ برحلة إلى الأقاليم وجاء إلى المنصورة، وكان بالطبع الذي يرتب نظام الاحتفال باستقباله وتوديعه، وعلمت أنه لا ينوي أن يشرف الخديوي مدرستي لما كان بيني وبينه، كما علمت أن سمو الخديوي كان سيشرف بيت الطاهر بك وهو قريب من المدرسة، وكان بيني وبين سيدة البيت صداقة، وكانت الغرفة التي سيشرفها الخديوي لها بابان إحداهما على طرقة ضيقة توصل إلى الحرم، والآخر الباب الخارجي الذي أعد لاستقبال سموه، فطلبت من السيدة أن تسمح لي أن أقف وراء ذلك الباب الداخلي لأشاهد الخديوي من ثقب مفتاح الباب فأجابت الطلب، وما كدت أظفر بذلك حتى ذهبت إلى ذلك الباب وأغلقته بالمفتاح وأخذت مفتاحه معي. ثم أحضرت تلميذة صغيرة بارعة الجمال لا يتجاوز سنها السادسة، وأعددت لها قصيدة مدح في سمو الخديوي وعنيت بتحفظيها تلك القصيدة وإجادة إلقائها عناية تامة، وكنت أفعل ذلك سرا لا يعلم به أحد، وقد اشتريت لهذه



التلميذة فستانًا أبيض يناسب بياضها الرائق وربطت شـعرها بشريط أزرق يناسب لون عينيها ووضعت علـى صـدرها وشاحا كتب عليه مدرسة المعلمـات بالمنصـورة، مـع أن التلميذة لم تكن من مدرسة المعلمات بالطبع، ولكني أردت أن أذكر الجمهور بمدرسة المعلمات التي ألغاها المجلس بإجماع الآراء تحت ضغط المدير، ثم أعيدت إلى الوجود في اليـوم الثاني، فكان اسمها عارا على المدير وسلطته لأنهـا بقيـت رغم إرادته.

كتبت القصيدة على قطعة حرير زرقاء بلون السماء، ثـم أحطتها بإطار من أزهار البنفسج الجميلة اللطيفـة رسـمت بالبوية، ولم يكن النقش بالبوية على القماش معروفًا في ذلك الحين. فكانت تحفة رائعة، ثم كسوت بها "مخـدة" حشـيت بريش النعام، ولم أعمل "مخدة" واحدة بل عملت مخدتين من صنف واحد لأني كنت أعلم أن المدير سيحرض علي مفتش الداخلية الإنجليزي ويدعي له أني شتمته أمـام النـاس لأن القصيدة كان بها تعريض به، أخذت المخدة الأخرى وأهديتها إلى زوجة مفتش الداخلية فسـرت بهـا سـرورا عظيمـا وعرضتها على المفتش أمامي فقلـت لـه فـي بسـاطة إن

المكتوب على تلك المخدة قصيدة عملتها مدحا في الخديوي ورجائي أن تقرأها، وأن تقول لي انتقادك عليها لأني أريد أن أرسلها له، وكان الرجل من الإنجليز الذين يعدون أنفسهم شرقيين يجيدون اللغة العربية فقرأها وقال إنها عظيمة وبناء على هذا أخذت موافقته على هذا التعريض بالمدير.

وعندما شرف سمو الخديوي الغرفة المعدة له في منزل الطاهر بك كنت أنا على الباب الخلفي وما كاد سموه يأخذ مجلسه حتى فتحت الباب ودفعت التلميذة أمامه، وقد قدمت لسموه المخدة فأخذها وسر بها كثيرا وقبلها، وقال إنها أحسن هدية قدمت إليه في تلك الرحلة، وظن الحاضرون أن مهمة الفتاة قد انتهت، ولكنها ما لبثت أن تقدمت إلى الخديوي تلقي القصيدة بإلقاء جيد وإشارات حية قد يعجز عنها الممثل الكفء فأخذت تشير إلى الخديوي، ثم تشير إلى المدير فيما كان يخصه من التعريض وتلت الأبيات التالية:

قد طار نومك والحوادث حوم	**ورماك بالأهوال ليل مظلم**
أبليت جسما كاد يخفي رقة	**وما قضى عليه الدهر فيما يجرم**
أتعبت قلبا كان محمود العلا	**فغدا لجور زمانه يتألم**
تبغين تعليم البنات ونشره	**ويلح دهرك في العناد ويظلم**
تبني ليهدم كل ما شيدته	**من ذلك البنيان وهو الأرقم**

وكانت تشير إلى المدير في الكلمات التي تحتها خط في هذه الأبيات لتظهر للخديوي أن المدير هو المقصود بالذات في كلمات الدهر والزمان؛ ولتؤكد معنى ما ذهبت إليه قالت:

مولاي إن الدهر عبدك فانهه عمها يخبي للكرام ويكتم

وأشارت إلى المدير عند قولها "الدهر عبدك" فأصبحت الإشارة ثابتة لا شك فيها.

وأخذ الخديوي يعجب بإلقاء التلميذة ويمتدحها ووقف المدير متحيرا في أمره لا يدري ماذا يفعل، ووقف كتمثال من الزعفران لا يكاد يتحرك، وأخذ الأعيان يتبادلون الابتسامات لتلك الجرأة المدهشة من فتاة تشتم المدير أمام الزائرين العظيم، ثم مضت التلميذة في إلقاء القصيدة فقالت:

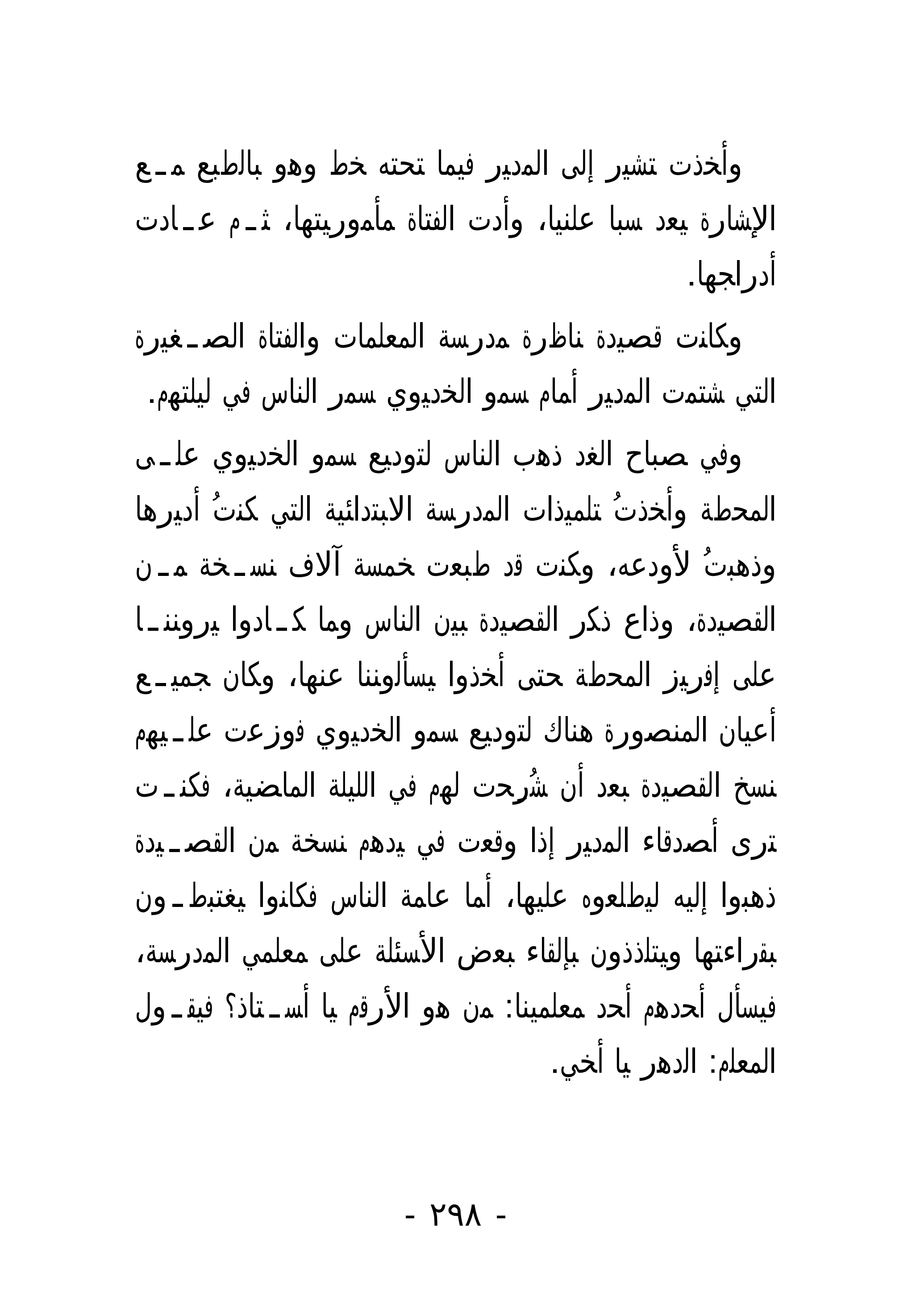
ما ضر أهل الشرق أنهم تركوا النساء وراءهم وتقدموا

فانحطت الأبناء بالأم التي جهلوا مكانتها العلية فيهم

جهلت بأحوال الحياة فأوقعت أبنائها في شر ما تتوهم

قد عودوها الجبن من عهد الصبا فتعلم الأبناء ذاك وعلموا

وتسارعوا للعار في أعمالهم والفسق والبهتان إن يتكلموا



وأخذت تشير إلى المدير فيما تحته خط وهو بالطبع مع الإشارة يعد سبا علنيا، وأدت الفتاة مأموريتها، ثم عادت أدراجها.

وكانت قصيدة ناظرة مدرسة المعلمات والفتاة الصغيرة التي شتمت المدير أمام سمو الخديوي سمر الناس في ليلتهم.

وفي صباح الغد ذهب الناس لتوديع سمو الخديوي على المحطة وأخذتُ تلميذات المدرسة الابتدائية التي كنتُ أديرها وذهبتُ لأودعه، وكنت قد طبعت خمسة آلاف نسخة من القصيدة، وذاع ذكر القصيدة بين الناس وما كادوا يروننا على إفريز المحطة حتى أخذوا يسألوننا عنها، وكان جميع أعيان المنصورة هناك لتوديع سمو الخديوي فوزعت عليهم نسخ القصيدة بعد أن شُرحت لهم في الليلة الماضية، فكنت ترى أصدقاء المدير إذا وقعت في يدهم نسخة من القصيدة ذهبوا إليه ليطلعوه عليها، أما عامة الناس فكانوا يغتبطون بقراءتها ويتلذذون بإلقاء بعض الأسئلة على معلمي المدرسة، فيسأل أحدهم أحد معلمينا: من هو الأرقم يا أستاذ؟ فيقول المعلم: الدهر يا أخي.

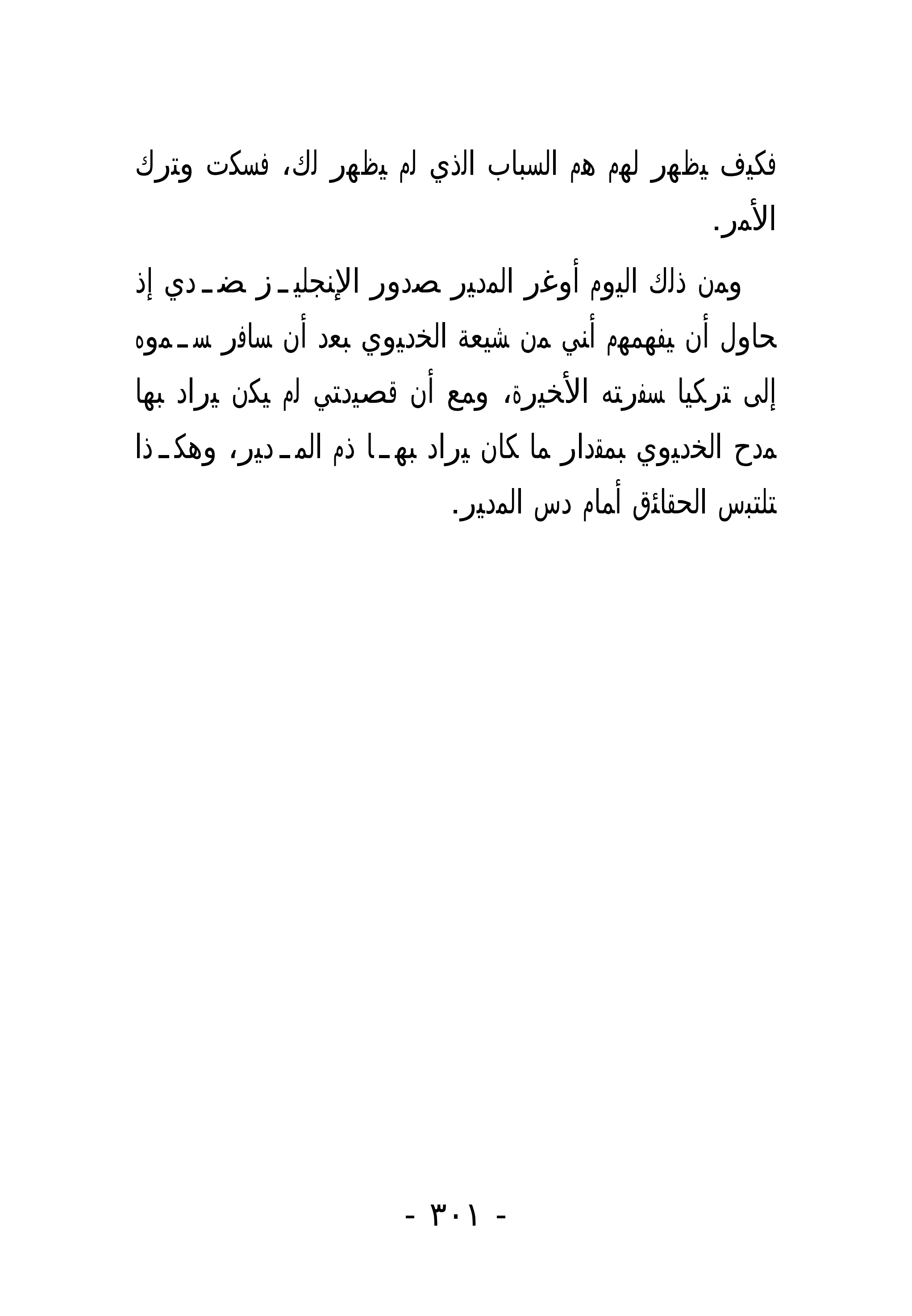
ويظهر لي أنه حصل سوء تفاهم بـين المـدير وسـمو الخديوي ولا أدري إذا كان للقصيدة شأن في هذا أم لا، ولكن المشاهد الذي رآه الناس أن سمو الخديوي لم يأخذه معه فـي صالونه، مع أن العادة تقضي أن يركب المدير مع سموه إلى آخر حدود مديريته، ووقف صالون سمو الخديوي في مكـان بعيد عن إفريز المحطة؛ فاضـطر المـدير أن ينـزل، وأن يتخطى قضبان السكة الحديد إلى المكان الـذي وقـف فيـه الصالون فزلت قدمه وسقط بين القضبان، ثم قام.

وبعد أن سار القطار بالخديوي جاءني المدير ومعه وكيل المديرية والحكمدار فحياني باليد وضغط على يدي قائلاً: إن سمو الخديوي سر منك سرورا عظيما. وهو يريد بـذلك أن يهددني بالانتقام مني لما فعلته. وأردت أن أجيبه على تهديده بمثله، فقلت: في لهجة المستفهم وفي ابتسامة فاترة: "ومـين اللي قال لك إنه سر مني؟ ده ما خدكش وياه في الصـالون" ولقد أسفت كثيرا لسقوطك على قضـبان الحديـد وأرجـو ألا يكون قد أصابك ضرر منه".

وأردت بذلك أن أقول له: لا يهمني تهديدك ويكفيني مذلتك اليوم، وكان جوابي بشكل مضحك حقًا حتى أغرق وكيل المديرية والحكمدار في الضحك.

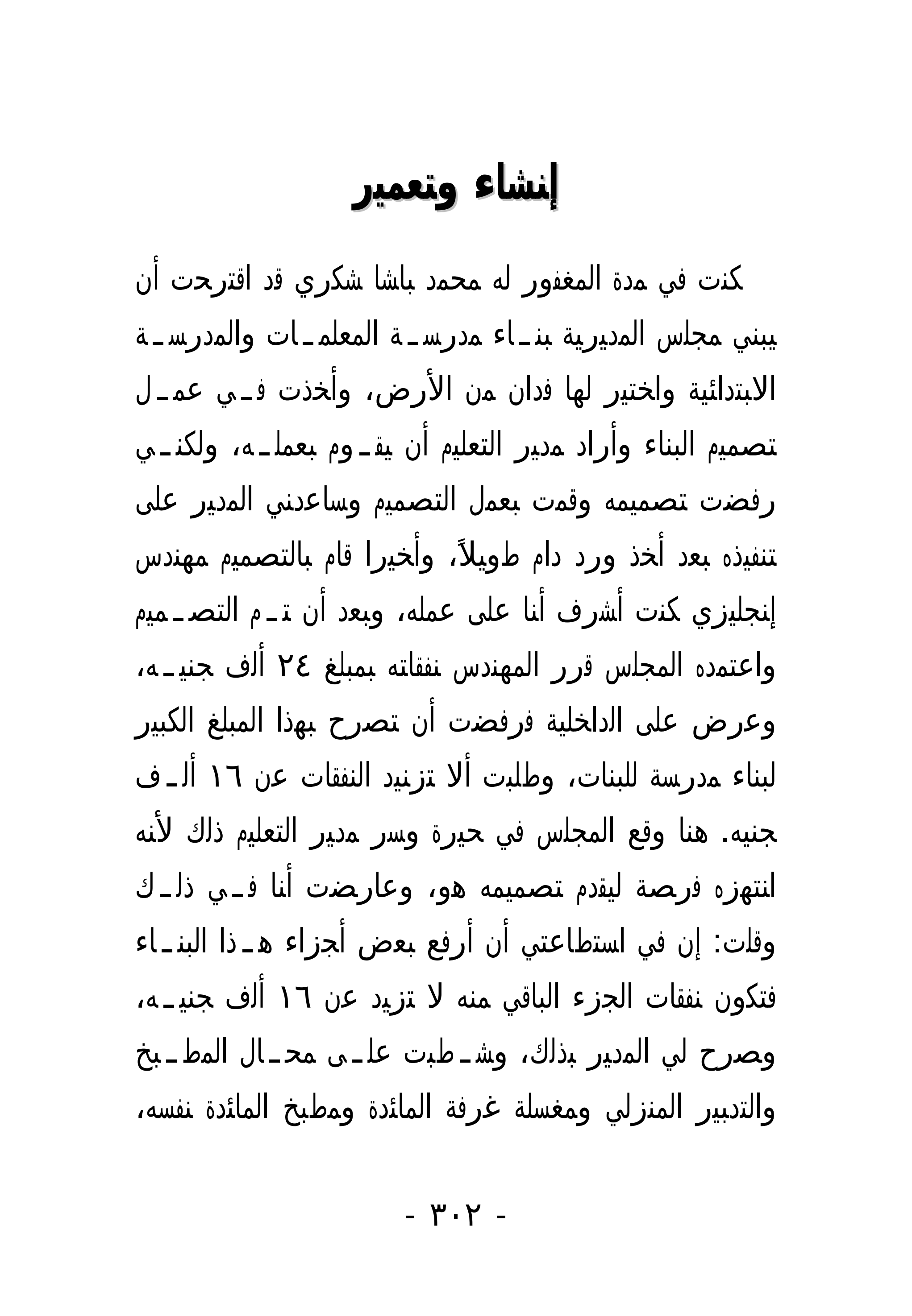
ولم أستطع في ذلك اليوم أن أستقل العربة التي أقلتني إلى المحطة إلا بعد ساعتين وذلك لازدحام الناس لرؤية تلك الناظرة التي استطاعت أن تشتم المدير أمام جميع الأعيان.

ويقول المدير نفسه لأحد إخوانه إنه خرج من المحطة مسرعا إلى منزل مفتش الداخلية ليشكوني إليه فلما دخل غرفة الاستقبال وجد المخدة بالقصيدة على أحسن مقعد في الغرفة، فكاد يشل لأنه عرف أنه لا يستطيع أن يطعن في القصيدة بعد أن رآها مفتش الداخلية وهو مستشرق، وفي اليوم التالي أرسل إلي مفتش الداخلية ولما دخلت عليه قال: أكان من اللياقة أن تشتمي المدير أمام سمو الخديوي والمودعين؟ قلت: من قال لك ذلك وكيف شتمته؟ قال: بقصيدتك. قلت: ألم أقدمها إليك من قبل وآخذ رأيك فيها فَلِم لَم تقل لي فيها سبابا أو شتائم، قال: إنه لم يظهر لي ذلك. قلت: فإذا كان لم يظهر لك وأنت مفتش اللغة العربية أكثر من المدير ومن كثير الأعيان الذين حضروا لتوديع الخديوي



فكيف يظهر لهم هم السباب الذي لم يظهر لك، فسكت وترك الأمر.

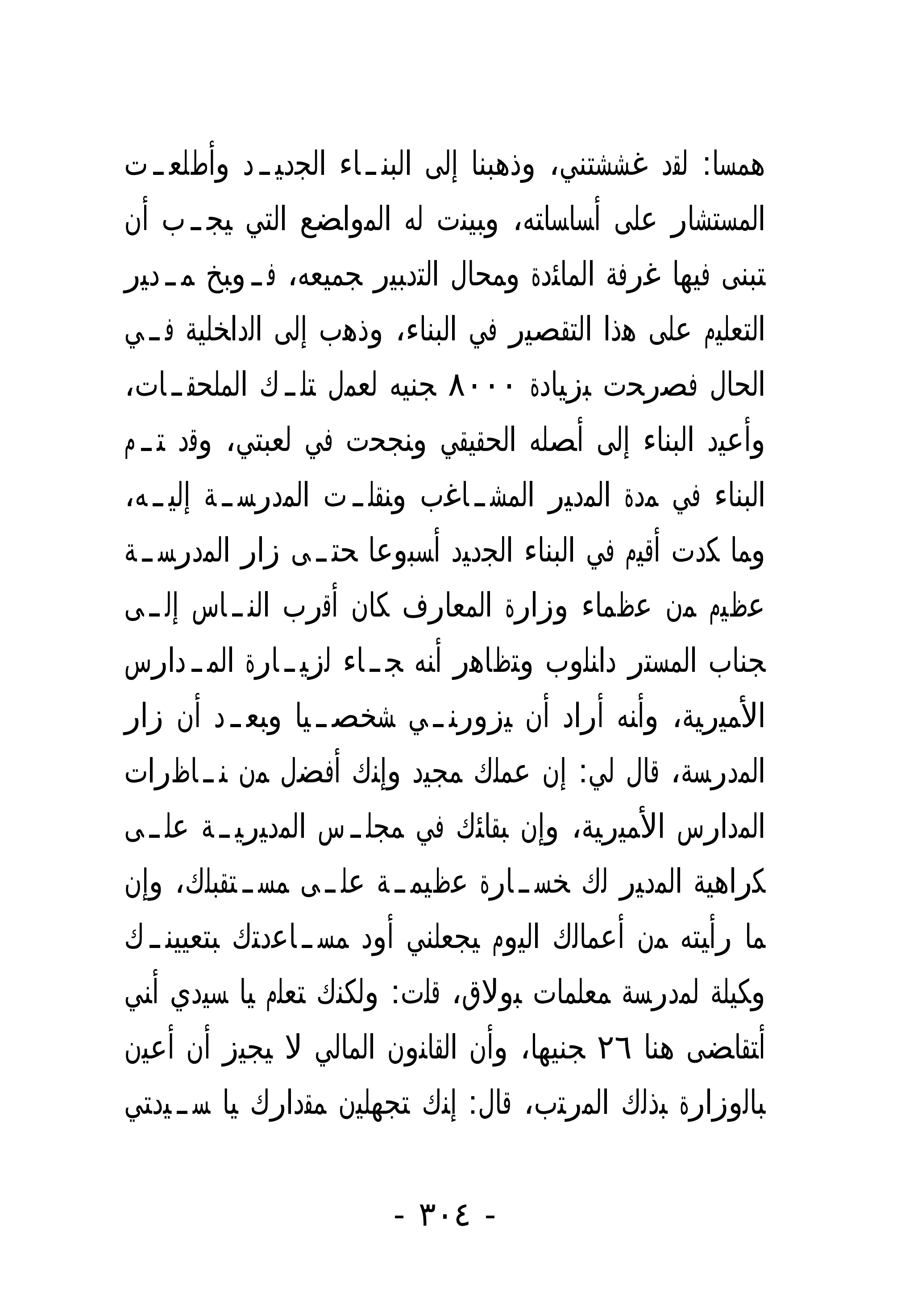
ومن ذلك اليوم أوغر المدير صدور الإنجليـز ضـدي إذ حاول أن يفهمهم أني من شيعة الخديوي بعد أن سافر سـموه إلى تركيا سفرته الأخيرة، ومع أن قصيدتي لم يكن يراد بها مدح الخديوي بمقدار ما كان يراد بهـا ذم المـدير، وهكـذا تلتبس الحقائق أمام دس المدير.



إنشاء وتعمير

كنت في مدة المغفور له محمد باشا شكري قد اقترحت أن يبني مجلس المديرية بناء مدرسة المعلمات والمدرسة الابتدائية واختير لها فدان من الأرض، وأخذت في عمل تصميم البناء وأراد مدير التعليم أن يقوم بعمله، ولكني رفضت تصميمه وقمت بعمل التصميم وساعدني المدير على تنفيذه بعد أخذ ورد دام طويلاً، وأخيرا قام بالتصميم مهندس إنجليزي كنت أشرف أنا على عمله، وبعد أن تم التصميم واعتمده المجلس قرر المهندس نفقاته بمبلغ ٢٤ ألف جنيه، وعرض على الداخلية فرفضت أن تصرح بهذا المبلغ الكبير لبناء مدرسة للبنات، وطلبت ألا تزيد النفقات عن ١٦ ألف جنيه. هنا وقع المجلس في حيرة وسر مدير التعليم ذلك لأنه انتهزه فرصة ليقدم تصميمه هو، وعارضت أنا في ذلك وقلت: إن في استطاعتي أن أرفع بعض أجزاء هذا البناء فتكون نفقات الجزء الباقي منه لا تزيد عن ١٦ ألف جنيه، وصرح لي المدير بذلك، وشطبت على محال المطبخ والتدبير المنزلي ومغسلة غرفة المائدة ومطبخ المائدة نفسه،

وتركت الفصول فقط، وقوم المهندس البناء بعد ذلك فقدر نفقاته بمبلغ ١٦ ألف جنيه، ووافقت الداخلية وابتدأ المقاول في حفر الأساس وزارنا المرحوم المستر دانلوب ليتفقد البناء الجديد، وقبل أن يذهب إليه مر على المدرسة القديمة هو ومدير التعليم فطاف المدرسة ودخل المطبخ، فقال: إن المطبخ ضيق جدا، وكان المدير في ذلك الوقت عدوي، فقال مدير التعليم في شيء من الاعتزاز بنفسه، إن المطبخ هو الشيء الوحيد الذي لا أشرف عليه أنا، قلت: عفوا يا سيدي وهل إذا أشرفت عليه تستطيع أن تعمل شيئًا في مثل هذا المنزل الضيق؟ فهل كنت تخلق حجرة واسعة للمطبخ؟ أم كنت تستطيع أن تزحزح جدران هذا المطبخ ليتسع؟ على أنك أشرفت على ما أعتقد على البناء الجديد فهل احتطت لمطبخه، قال: نعم. قلت: كلا يا سيدي فسيري جناب المستشار اليوم أن البناء ليس فيه مطبخ للتدبير، ولا للمدرسة، ولا غرفة للمائدة أيضا، ولا شيء من الملحقات الضرورية للتدبير المنزلي، فدهش المستشار وقال أصحيح هذا؟ وكان مدير التعليم قد تظاهر أمامه بأنه هو صاحب تصميم البناء، فلما قلت: ذلك أسقط في يده وقال لي



همسا: لقد غششتني، وذهبنا إلى البناء الجديد وأطلعت المستشار على أساساته، وبينت له المواضع التي يجب أن تبنى فيها غرفة المائدة ومحال التدبير جميعه، فوبخ مدير التعليم على هذا التقصير في البناء، وذهب إلى الداخلية في الحال فصرحت بزيادة ٨٠٠٠ جنيه لعمل تلك الملحقات، وأعيد البناء إلى أصله الحقيقي ونجحت في لعبتي، وقد تم البناء في مدة المدير المشاغب ونقلت المدرسة إليه، وما كدت أقيم في البناء الجديد أسبوعا حتى زار المدرسة عظيم من عظماء وزارة المعارف كان أقرب الناس إلى جناب المستر دانلوب وتظاهر أنه جاء لزيارة المدارس الأميرية، وأنه أراد أن يزورني شخصيا وبعد أن زار المدرسة، قال لي: إن عملك مجيد وإنك أفضل من ناظرات المدارس الأميرية، وإن بقائك في مجلس المديرية على كراهية المدير لك خسارة عظيمة على مستقبلك، وإن ما رأيته من أعمالك اليوم يجعلني أود مساعدتك بتعيينك وكيلة لمدرسة معلمات بولاق، قلت: ولكنك تعلم يا سيدي أني أتقاضى هنا ٢٦ جنيها، وأن القانون المالي لا يجيز أن أعين بالوزارة بذلك المرتب، قال: إنك تجهلين مقدارك يا سيدتي

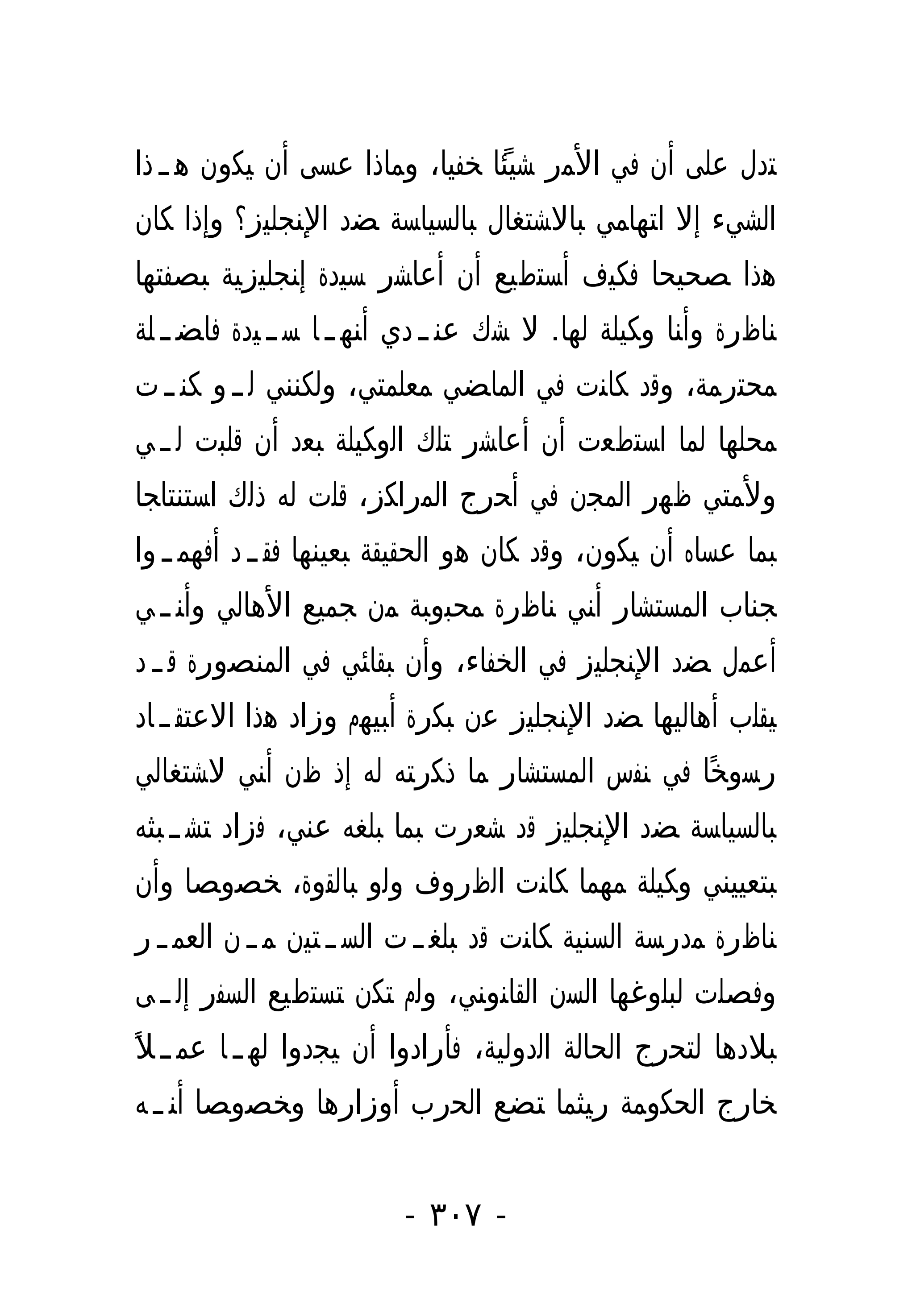
فناظرة مثلك مجدة يجب أن يعمل لها كل استثناء ممكن ولا يتأخر مجلس الوزراء أن يساعدك بذلك متى شرح له مكانتك جناب المستشار.

كان ذلك الباشا يخاطبني مخاطبة الثعلب للغراب لغرض في نفسه، ولم أكن أفطن لغرضه، فقلت له: وهل تظن أن مثل ذلك الاستثناء ميسور؟ وهل يعنى مجلس الوزراء في الحالة الحاضرة (وقد كنا في سنة ١٩١٩) مع اضطرابها بتعيين فتاة مثلي في مدرسة قد أخذت بنائها السلطة العسكرية فهي الآن في حكم العدم؟ وما الذي يهم مجلس الوزراء من تعيين وكيلة لمدرسة مغلقة؟ قال: صدقت قد لا تتم تلك الأمنية. ومع ذلك فلم لا تجربين؟ ولا يكفيك ذلك إلا كتابة الطلب وسأحفظ طلبك عندي فلا يعلم به أحد إلا إذا وافق عليه مجلس الوزراء، فكتبت له طلبا أقول فيه إنني أرغب أن أكون وكيلة لمدرسة ببولاق بمرتب شهري قدره ٢٦ جنيها على شرط أن أكون مثبتة، وأن يكون لي خادمة خصوصية وأعطيته الطلب، وأنا أعلم أنه كلام لا قيمة له لأن تحديد المرتب عقبة عظيمة، وشرط التثبيت عقبة ثانية، لأن نظري كما قدمت كان ضعيفًا لا يسمح بتثبيتي فلا بد لمجلس

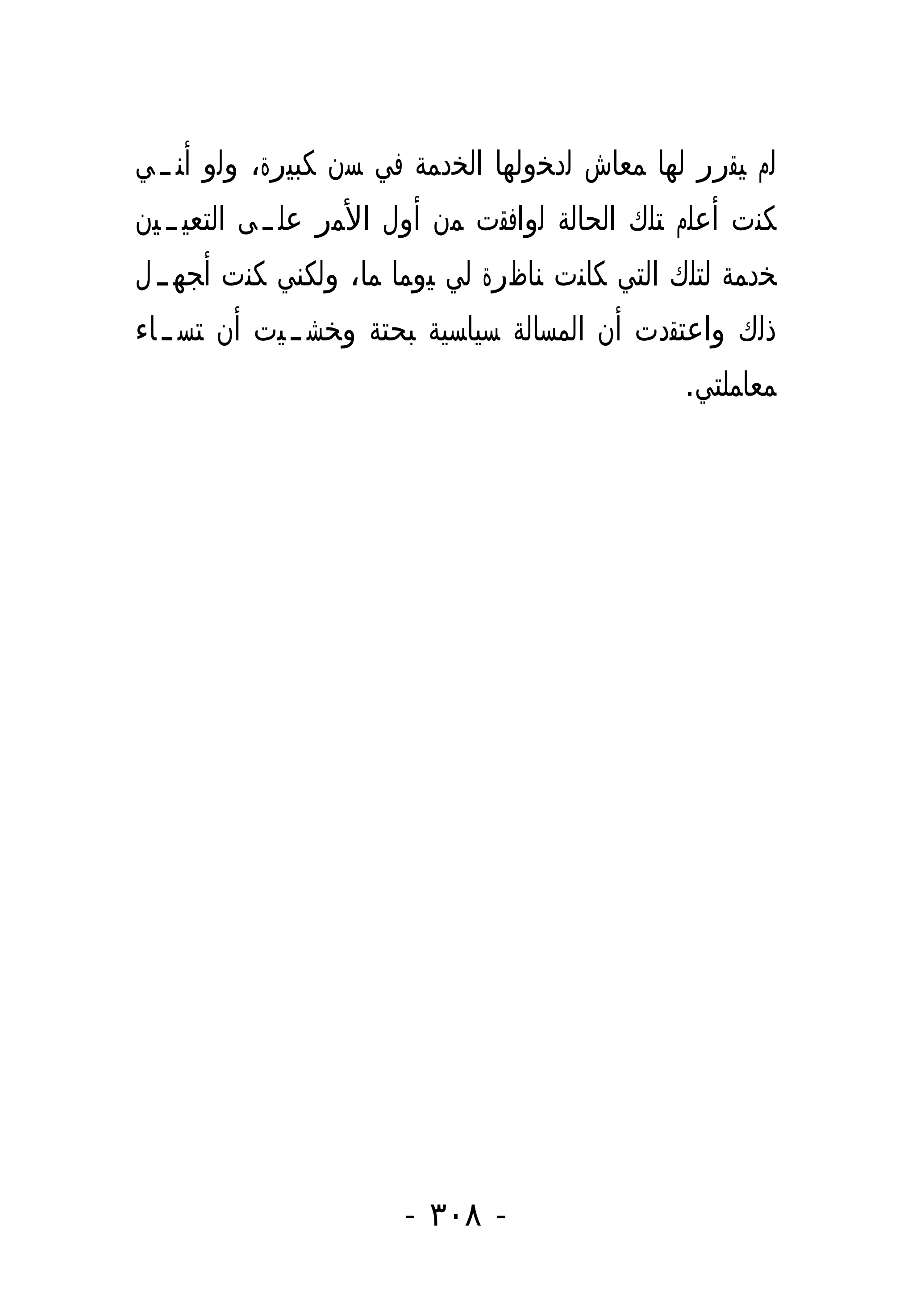
الوزراء أن يثبتني بصفة استثنائية، وأن يقرر مرتبي بصـفة استثنائية أيضا (وخبطتين في الرأس توجع) على أني كنـت أجهل أن في الأمر دسيسة سياسية ولهذا أعطيته الطلب وأنا واثقة أنه لن يجاب.

وما كانت أشد دهشتي إذ خاطبني الباشا في اليوم التـالي تليفونيا وهنأني بوظيفتي الجديدة. قلت: بدهشة ومتى اجتمـع مجلس الوزراء لتعييني؟ قال: إنه لم يجتمع، ولكن الـوزراء وافقوا على التعيين متفرقين. قلت: عجبا، وما الدافع لهم إلى كل تلك السرعة والمدرسة التي عينت بها مغلقة فلا حاجـة إلى تعيين وكيلة لها أو ناظرة. قال لقد تم هذا والسلام، فقلت: إني أرفض هذه الوظيفة؛ لأن في طياتها أمرا خفيا لا أفهمه. قال على كل حال لا بد من حضورك حالاً لمقابلـة جنـاب المستشار فهو وحده يستطيع أن يشرح لك الحالة.

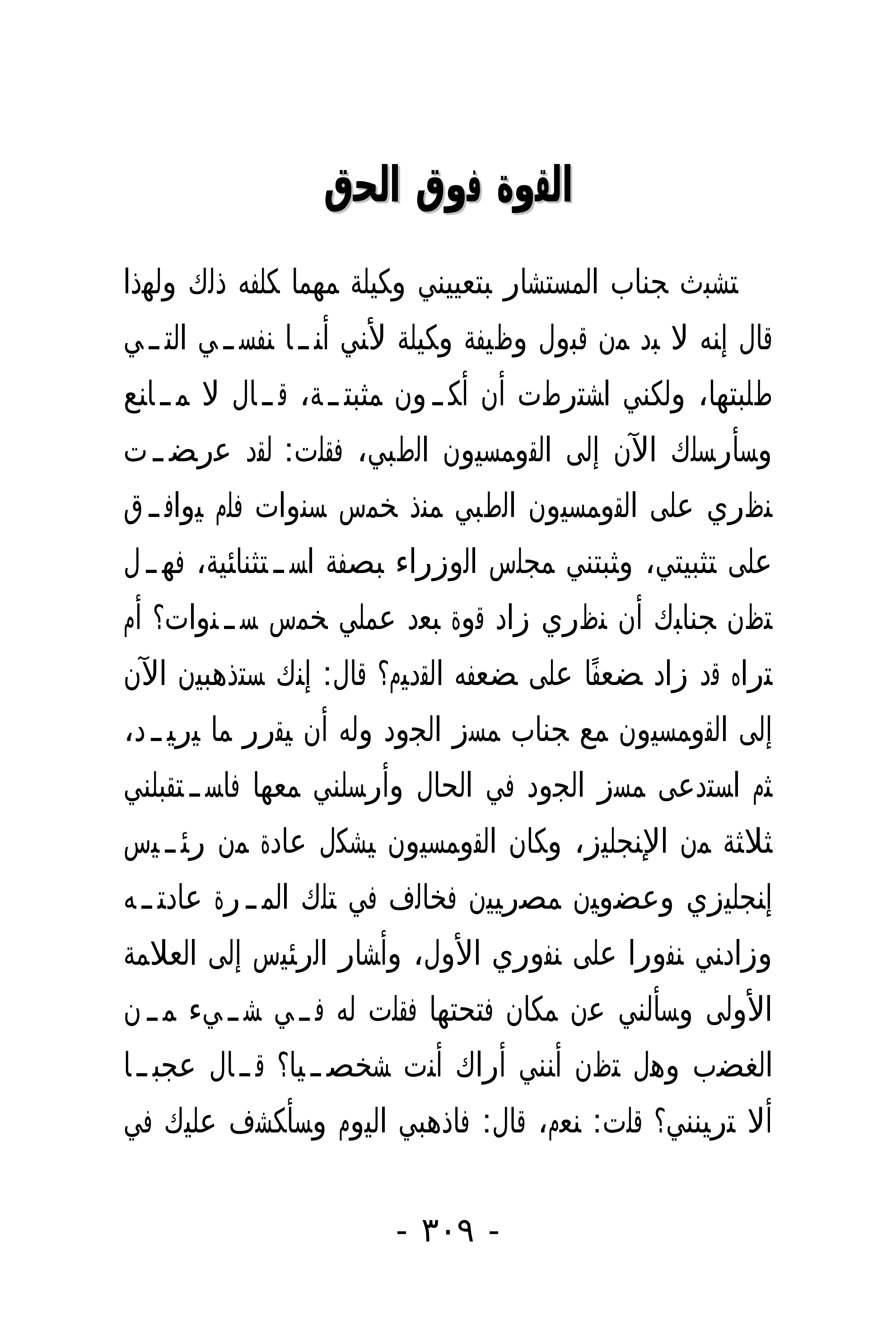
قابلت جنابه في اليوم التالي وأنا مصممة علـى رفـض التعيين، وقال لي إنه يدهش لرفضي بعد أن عينني في وظيفة لم تعين فيها مصرية من قبل وبمرتب لم تتناوله غيري مـن المصريات. قلت: نعم هذا صحيح، ولكن سرعة تعييني على ما فيه من العقبات وعلى عدم وجود المدرسة التي عينت فيها



تدل على أن في الأمر شيئًا خفيا، وماذا عسى أن يكون هـذا الشيء إلا اتهامي بالاشتغال بالسياسة ضد الإنجليز؟ وإذا كان هذا صحيحا فكيف أستطيع أن أعاشر سيدة إنجليزية بصفتها ناظرة وأنا وكيلة لها. لا شك عنـدي أنهـا سـيدة فاضـلة محترمة، وقد كانت في الماضي معلمتي، ولكنني لـو كنـت محلها لما استطعت أن أعاشر تلك الوكيلة بعد أن قلبت لـي ولأمتي ظهر المجن في أحرج المراكز، قلت له ذلك استنتاجا بما عساه أن يكون، وقد كان هو الحقيقة بعينها فقـد أفهمـوا جناب المستشار أني ناظرة محبوبة من جميع الأهالي وأنـي أعمل ضد الإنجليز في الخفاء، وأن بقائي في المنصورة قـد يقلب أهاليها ضد الإنجليز عن بكرة أبيهم وزاد هذا الاعتقـاد رسوخًا في نفس المستشار ما ذكرته له إذ ظن أني لاشتغالي بالسياسة ضد الإنجليز قد شعرت بما بلغه عني، فزاد تشـبثه بتعييني وكيلة مهما كانت الظروف ولو بالقوة، خصوصا وأن ناظرة مدرسة السنية كانت قد بلغـت السـتين مـن العمـر وفصلت لبلوغها السن القانوني، ولم تكن تستطيع السفر إلـى بلادها لتحرج الحالة الدولية، فأرادوا أن يجدوا لهـا عمـلاً خارج الحكومة ريثما تضع الحرب أوزارها وخصوصا أنـه



لم يقرر لها معاش لدخولها الخدمة في سن كبيرة، ولو أنـي كنت أعلم تلك الحالة لوافقت من أول الأمر علـى التعيـين خدمة لتلك التي كانت ناظرة لي يوما ما، ولكني كنت أجهـل ذلك واعتقدت أن المسالة سياسية بحتة وخشـيت أن تسـاء معاملتي.

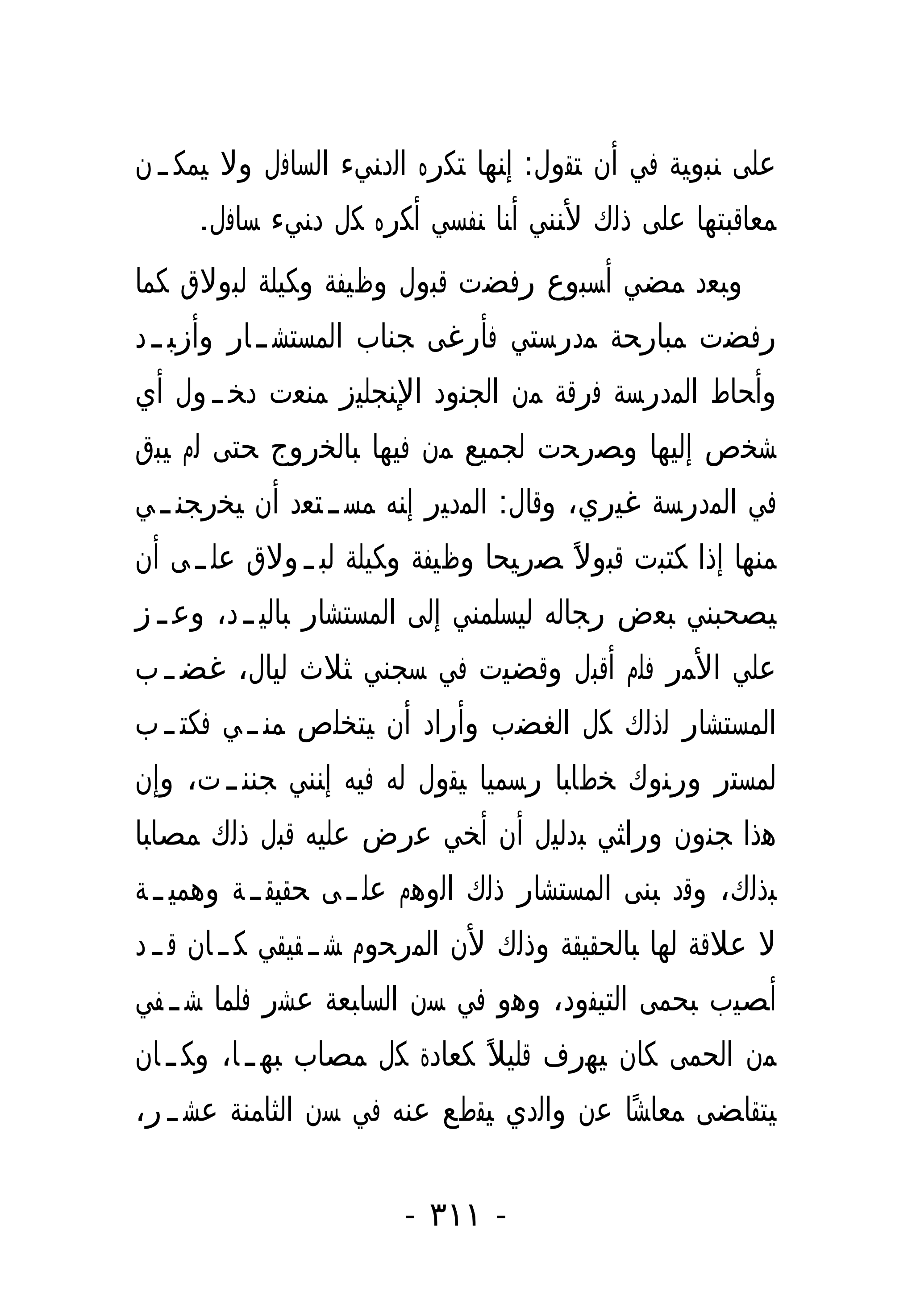


القوة فوق الحق

تشبث جناب المستشار بتعييني وكيلة مهما كلفه ذلك ولهذا قال إنه لا بد من قبول وظيفة وكيلة لأني أنا نفسي التي طلبتها، ولكني اشترطت أن أكون مثبتة، قال لا مانع وسأرسلك الآن إلى القومسيون الطبي، فقلت: لقد عرضت نظري على القومسيون الطبي منذ خمس سنوات فلم يوافق على تثبيتي، وثبتني مجلس الوزراء بصفة استثنائية، فهل تظن جنابك أن نظري زاد قوة بعد عملي خمس سنوات؟ أم تراه قد زاد ضعفًا على ضعفه القديم؟ قال: إنك ستذهبين الآن إلى القومسيون مع جناب مسز الجود وله أن يقرر ما يريد، ثم استدعى مسز الجود في الحال وأرسلني معها فاستقبلني ثلاثة من الإنجليز، وكان القومسيون يشكل عادة من رئيس إنجليزي وعضوين مصريين فخالف في تلك المرة عادته وزادني نفورا على نفوري الأول، وأشار الرئيس إلى العلامة الأولى وسألني عن مكان فتحتها فقلت له في شيء من الغضب وهل تظن أنني أراك أنت شخصيا؟ قال عجبا ألا ترينني؟ قلت: نعم، قال: فاذهبي اليوم وسأكشف عليك في

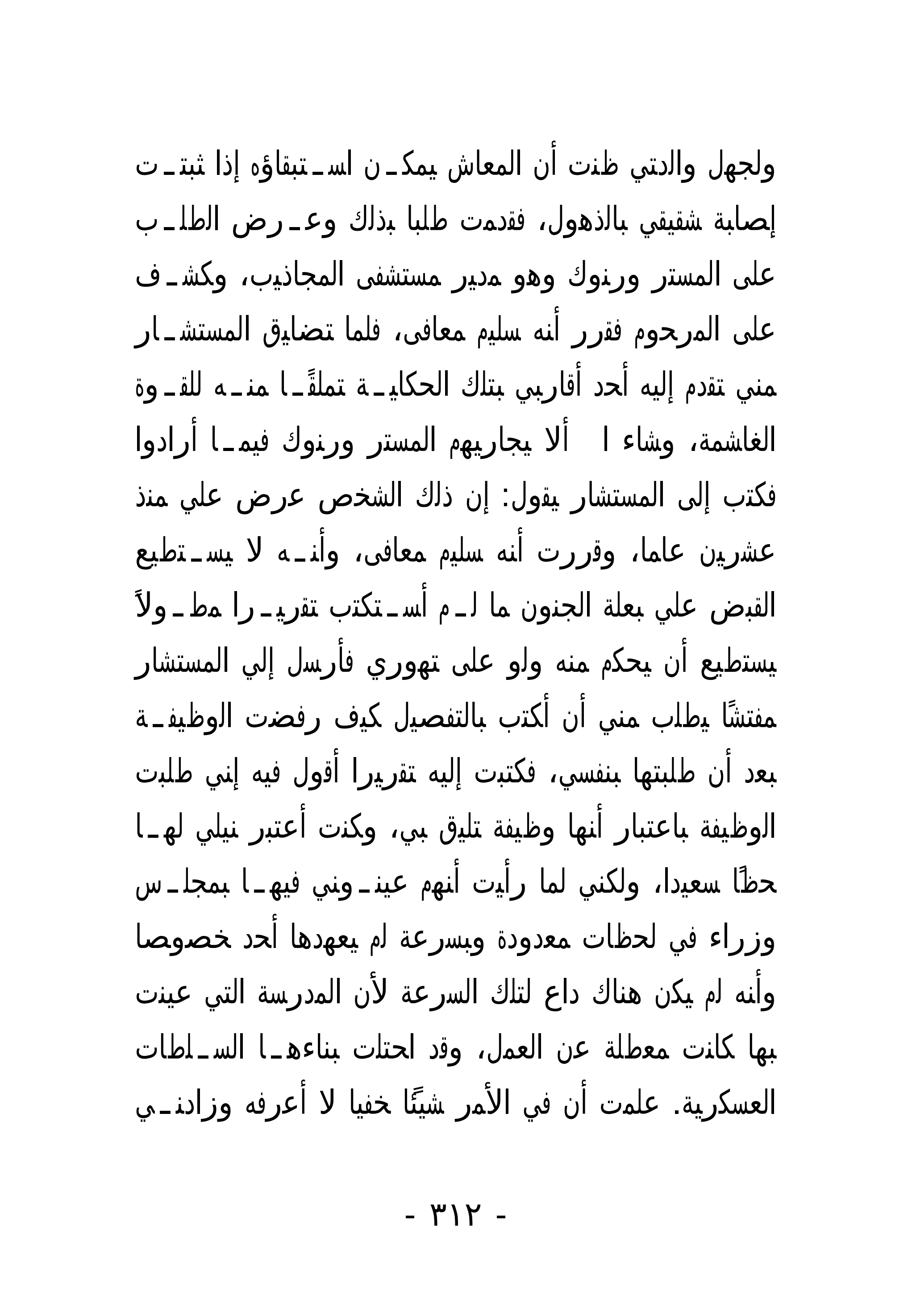
يوم آخر. فخرجت من الغرفة وتأخرت مسز الجـود معـه برهة، ثم لحقت بي وأعادتني إلى المستشار الذي مـا كـاد يراني حتى هب مسلما علي وهو يبتسم قائلاً: أهنئك بالنجاح في الكشف الطبي قلت: وهل نجحت وأنا لم أر الرجل نفسه؟ قال نعم، وقد عينت وكيلة لمدرسة بـولاق أيضـا وأمامـك أسبوع واحد تستعدين فيه لتسلم مركزك الجديد. عدت إلـى المنصورة، وقد علمت أني غير باقية فيها فـدعوت سـيدات المنصورة إلى اجتماع ودعتهن فيه وألقيت علـيهن خطابـا يتضمن كثيرا من الطعن على المدير بصفة غير مباشرة ومن ذلك أني قلت: (يتهمونني أيتها السيدات بكراهيتـي الشـديدة للرجال فناشدتكن ا ألا دافعتن عني عنـد رجـالكن فـإنني لا أكره من الرجال إلى الدنيء السافل).

ولما كانت كراهيتي للمدير مشهورة عند جميع الناس فقد كان هو المقصود بالدنيء السافل، وقد طبعت تلـك الخطبـة ووزعتها في مدينة المنصورة فأخذ المدير نسخة منها وذهب إلى المستر دانلوب ليشكو من سوء تصرفي فلمـا ترجمـت الخطبة للمستشار لم يجد فيها ما يوجب لومي لأن الطعن لم يكن صريحا بل كان يفهم بالقرائن، وقد قال جنابـه لا لـوم



على نبوية في أن تقول: إنها تكره الدنيء السافل ولا يمكن معاقبتها على ذلك لأنني أنا نفسي أكره كل دنيء سافل.

وبعد مضي أسبوع رفضت قبول وظيفة وكيلة لبولاق كما رفضت مبارحة مدرستي فأرغى جناب المستشار وأزبد وأحاط المدرسة فرقة من الجنود الإنجليز منعت دخول أي شخص إليها وصرحت لجميع من فيها بالخروج حتى لم يبق في المدرسة غيري، وقال: المدير إنه مستعد أن يخرجني منها إذا كتبت قبولاً صريحا وظيفة وكيلة لبولاق على أن يصحبني بعض رجاله ليسلمني إلى المستشار باليد، وعز علي الأمر فلم أقبل وقضيت في سجني ثلاث ليال، غضب المستشار لذلك كل الغضب وأراد أن يتخلص مني فكتب لمستر ورنوك خطابا رسميا يقول له فيه إنني جننت، وإن هذا جنون وراثي بدليل أن أخي عرض عليه قبل ذلك مصابا بذلك، وقد بنى المستشار ذلك الوهم على حقيقة وهمية لا علاقة لها بالحقيقة وذلك لأن المرحوم شقيقي كان قد أصيب بحمى التيفود، وهو في سن السابعة عشر فلما شفي من الحمى كان يهرف قليلاً كعادة كل مصاب بها، وكان يتقاضى معاشًا عن والدي يقطع عنه في سن الثامنة عشر،

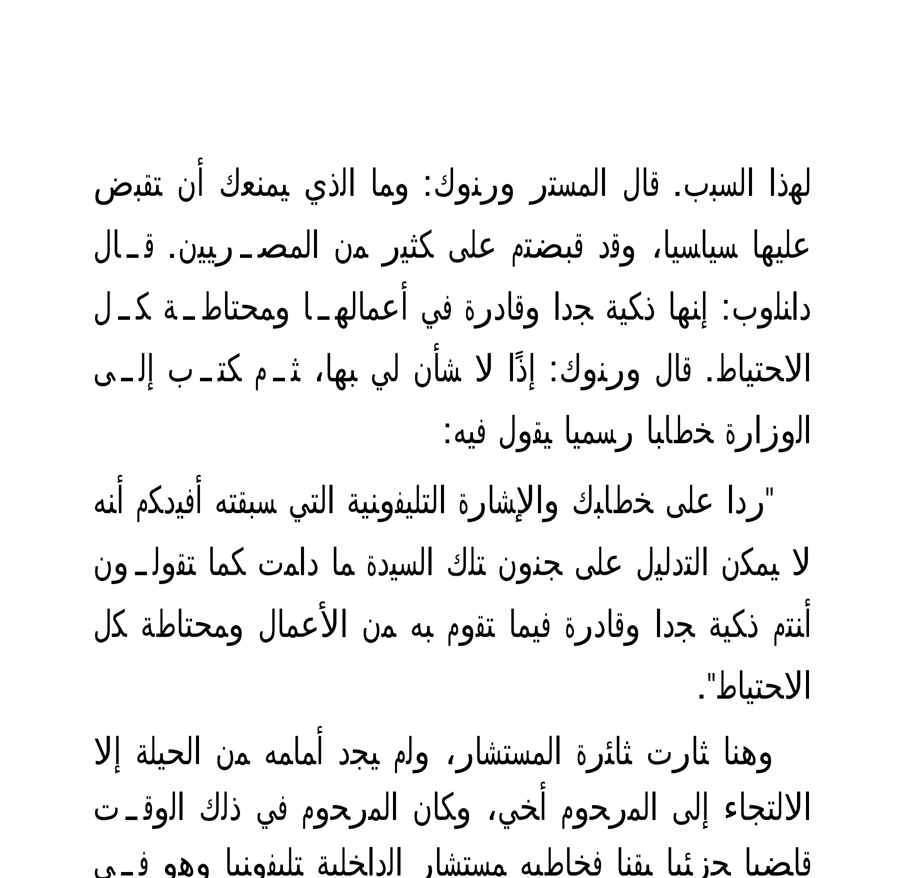


ولجهل والدتي ظنت أن المعاش يمكن استبقاؤه إذا ثبتت إصابة شقيقي بالذهول، فقدمت طلبا بذلك وعرض الطلب على المستر ورنوك وهو مدير مستشفى المجاذيب، وكشف على المرحوم فقرر أنه سليم معافى، فلما تضايق المستشار مني تقدم إليه أحد أقاربي بتلك الحكاية تملقًا منه للقوة الغاشمة، وشاء ا ألا يجاريهم المستر ورنوك فيما أرادوا فكتب إلى المستشار يقول: إن ذلك الشخص عرض علي منذ عشرين عاما، وقررت أنه سليم معافى، وأنه لا يستطيع القبض علي بعلة الجنون ما لم أستكتب تقريرا مطولاً يستطيع أن يحكم منه ولو على تهوري فأرسل إلي المستشار مفتشًا يطلب مني أن أكتب بالتفصيل كيف رفضت الوظيفة بعد أن طلبتها بنفسي، فكتبت إليه تقريرا أقول فيه إني طلبت الوظيفة باعتبار أنها وظيفة تليق بي، وكنت أعتبر نيلي لها حظًا سعيدا، ولكني لما رأيت أنهم عينوني فيها بمجلس وزراء في لحظات معدودة وبسرعة لم يعهدها أحد خصوصا وأنه لم يكن هناك داع لتلك السرعة لأن المدرسة التي عينت بها كانت معطلة عن العمل، وقد احتلت بناءها السلطات العسكرية. علمت أن في الأمر شيئًا خفيا لا أعرفه وزادني

يقينًا فيما اعتقدت أن القومسيون الطبي الذي تشكل من ثلاثة من الإنجليز مفروض فيهم جميعا النزاهة قد أقروا صلاحيتي للعمل دون أن أرى شيئًا.

علمت من ذلك كله أني متهمة بالسياسة وتعييني وكيلة لناظرة إنجليزية بعد هذا الاتهام يجعل تلك الناظرة ضدي، وعلى ذلك يكون بقائي معها لا كوكيلة وناظرة بل كسجان ومسجون، فهي لا تأتمنني في شيء بل ستراقب حركاتي وسكناتي مراقبة شديدة تجعلها تتوهم الشك يقينًا وتقلب الحقائق رأسا على عقب ولست ألومها في ذلك أو أنسب إليها الشر، بل وهي معلمتي أعرف عنها الكثير من الخير، ولكني لو كنت مكانها لفعلت ما تفعل مع تلميذة تمردت علي وعلى أمتي وقلبت لي ظهر المجن في أشد المراكز حروجة ولهذه الأسباب رفضت الوظيفة.

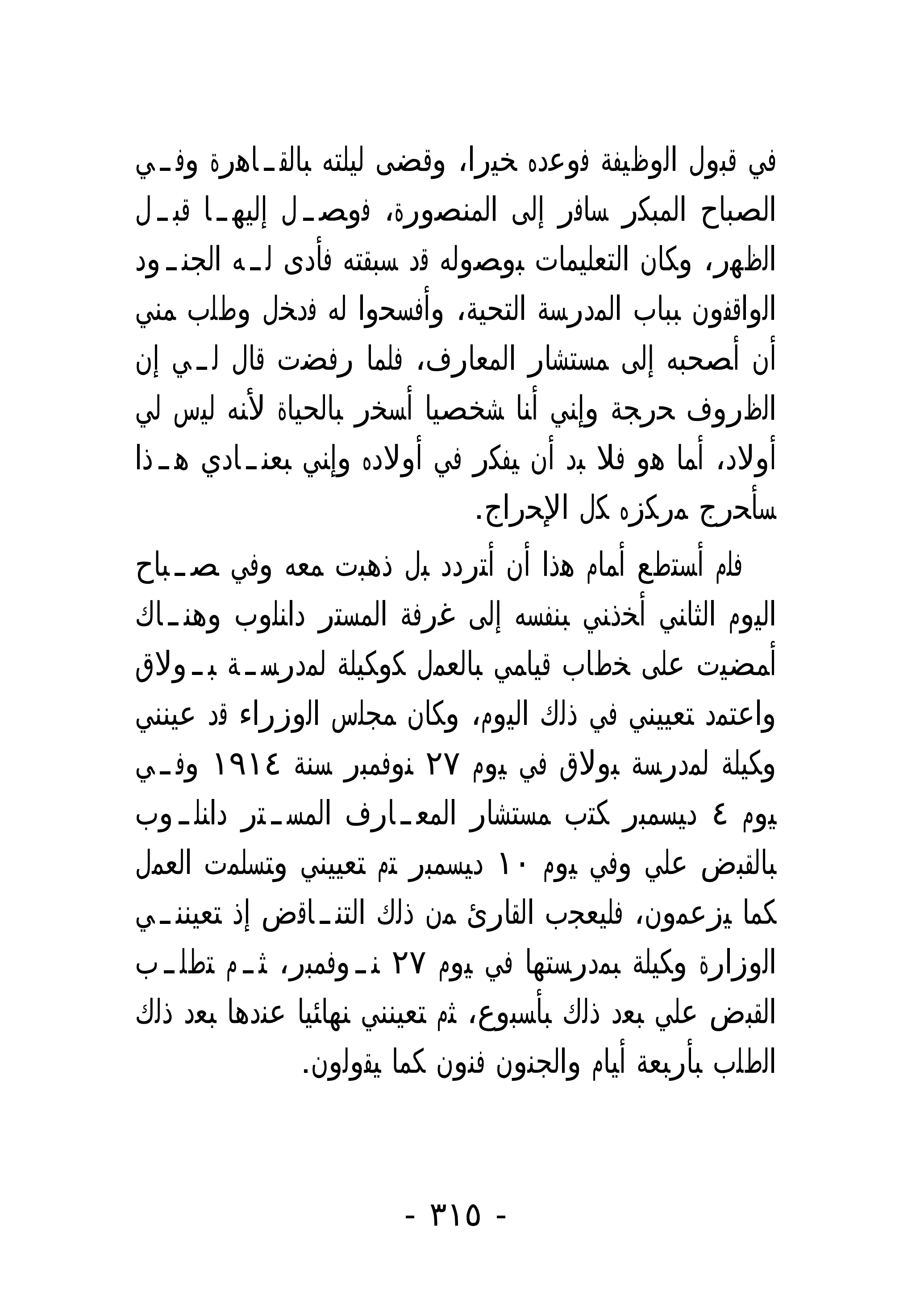
عرض هذا التقرير على المستر ورنوك فأعطاني الحق كله وقال إني لم أخطئ في شيء وإن الخطأ واقع على الوزارة نفسها وإنه يهون عليه أن يقبض على المستر داناوب نفسه من أن يمسني بسوء قال ذلك للمستر داناوب تليفونيا فصارحه الآخر بأني ضد الإنجليز وأنه يجب القبض علي



لهذا السبب. قال المستر ورنوك: وما الذي يمنعك أن تقبض عليها سياسيا، وقد قبضتم على كثير من المصريين. قال دانلوب: إنها ذكية جدا وقادرة في أعمالها ومحتاطة كل الاحتياط. قال ورنوك: إذًا لا شأن لي بها، ثم كتب إلى الوزارة خطابا رسميا يقول فيه:

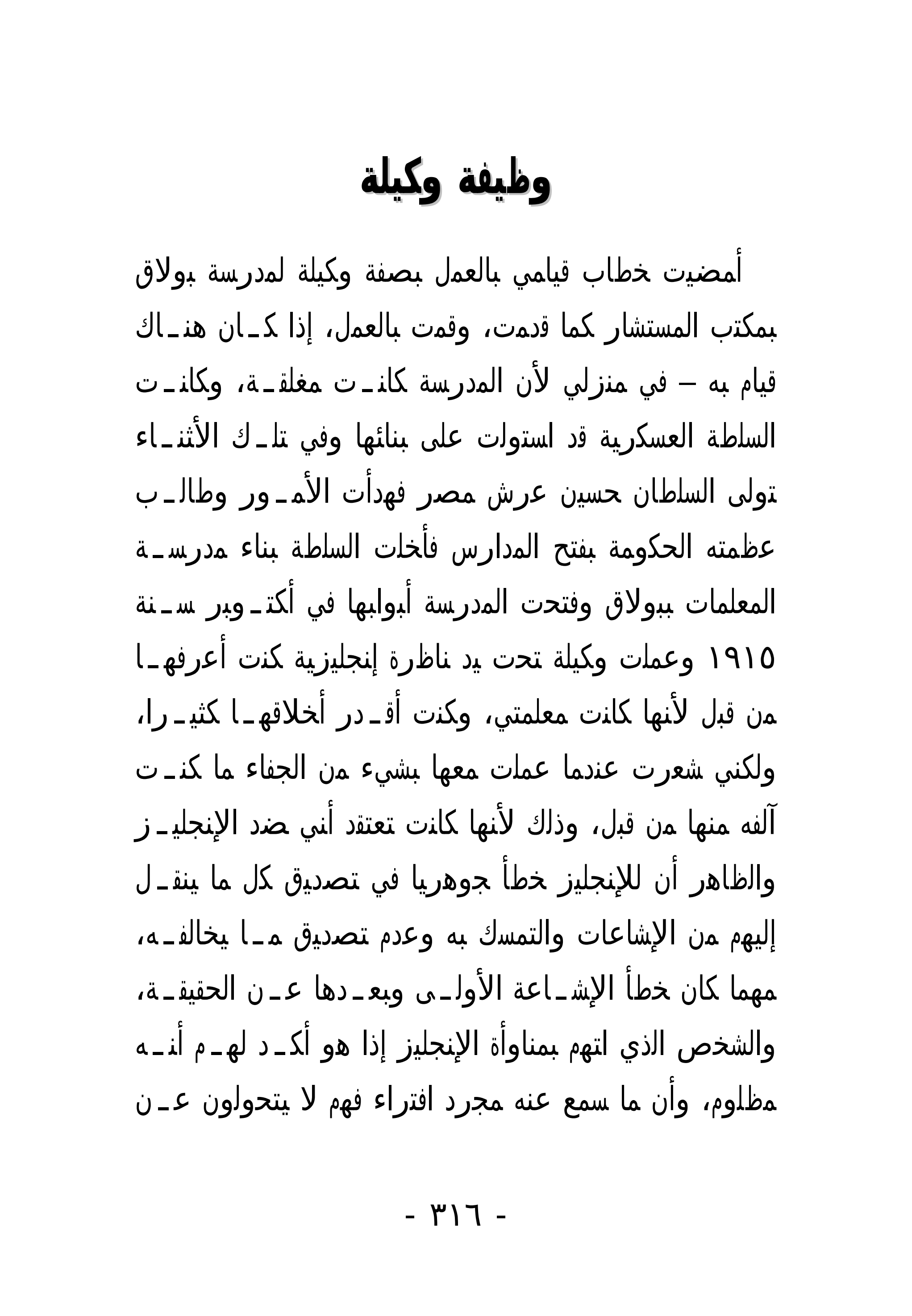
"ردا على خطابك والإشارة التليفونية التي سبقته أفيدكم أنه لا يمكن التدليل على جنون تلك السيدة ما دامت كما تقولون أنتم ذكية جدا وقادرة فيما تقوم به من الأعمال ومحتاطة كل الاحتياط".

وهنا ثارت ثائرة المستشار، ولم يجد أمامه من الحيلة إلا الالتجاء إلى المرحوم أخي، وكان المرحوم في ذلك الوقت قاضيا جزئيا بقنا فخاطبه مستشار الداخلية تليفونيا وهو في الجلسة فطلب منه رفع الجلسة والحضور إليه في القاهرة حالاً، ولما وصل المرحوم إلى القاهرة وجد ساعي المستشار ينتظره على المحطة بسيارة المستشار الخصوصية فسار به في الحال إلى جناب المستشار وبعد أن حياه وشرب معه الشاي طلب منه أن يقابل مستشار المعارف، وأن يقضي له ما يريد، وذهب أخي بسيارة مستشار الداخلية إلى مستشار المعارف في منزله فقابله أحسن مقابلة، ورجاه أن يرجوني



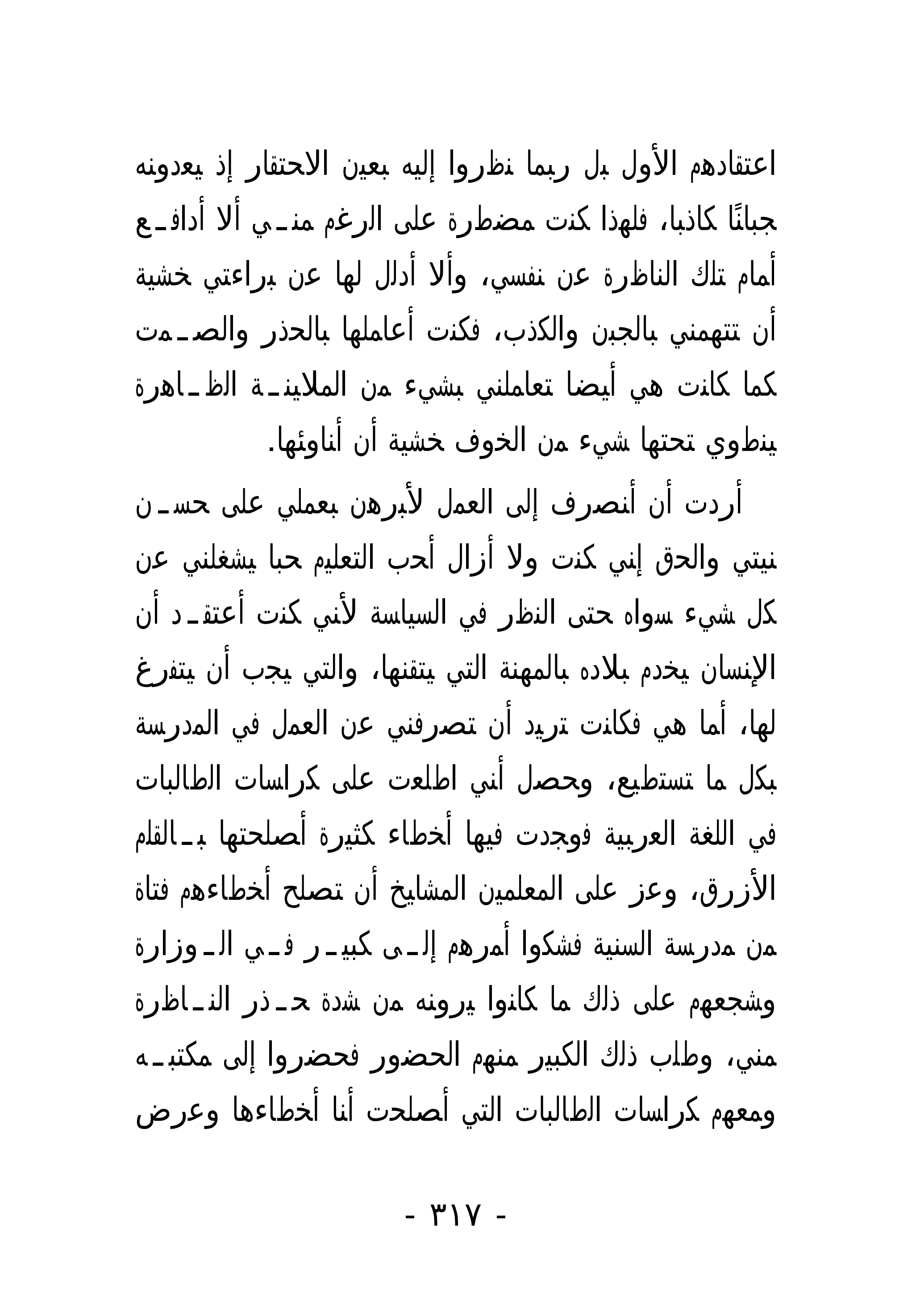
في قبول الوظيفة فوعده خيرا، وقضى ليلته بالقـاهرة وفـي الصباح المبكر سافر إلى المنصورة، فوصـل إليهـا قبـل الظهر، وكان التعليمات بوصوله قد سبقته فأدى لـه الجنـود الواقفون بباب المدرسة التحية، وأفسحوا له فدخل وطلب مني أن أصحبه إلى مستشار المعارف، فلما رفضت قال لـي إن الظروف حرجة وإني أنا شخصيا أسخر بالحياة لأنه ليس لي أولاد، أما هو فلا بد أن يفكر في أولاده وإني بعنـادي هـذا سأحرج مركزه كل الإحراج.

فلم أستطع أمام هذا أن أتردد بل ذهبت معه وفي صـباح اليوم الثاني أخذني بنفسه إلى غرفة المستر دانلوب وهنـاك أمضيت على خطاب قيامي بالعمل كوكيلة لمدرسـة بـولاق واعتمد تعييني في ذلك اليوم، وكان مجلس الوزراء قد عينني وكيلة لمدرسة بولاق في يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ وفـي يوم ٤ ديسمبر كتب مستشار المعـارف المسـتر دانلـوب بالقبض علي وفي يوم ١٠ ديسمبر تم تعييني وتسلمت العمل كما يزعمون، فليعجب القارئ من ذلك التنـاقض إذ تعيننـي الوزارة وكيلة بمدرستها في يوم ٢٧ نـوفمبر، ثـم تطلـب القبض علي بعد ذلك بأسبوع، ثم تعينني نهائيا عندها بعد ذلك الطلب بأربعة أيام والجنون فنون كما يقولون.



وظيفة وكيلة

أمضيت خطاب قيامي بالعمل بصفة وكيلة لمدرسة بولاق بمكتب المستشار كما قدمت، وقمت بالعمل، إذا كـان هنـاك قيام به – في منزلي لأن المدرسة كانـت مغلقـة، وكانـت السلطة العسكرية قد استولت على بنائها وفي تلـك الأثنـاء تولى السلطان حسين عرش مصر فهدأت الأمـور وطالـب عظمته الحكومة بفتح المدارس فأخلت السلطة بناء مدرسـة المعلمات ببولاق وفتحت المدرسة أبوابها في أكتـوبر سـنة ١٩١٥ وعملت وكيلة تحت يد ناظرة إنجليزية كنت أعرفهـا من قبل لأنها كانت معلمتي، وكنت أقـدر أخلاقهـا كثيـرا، ولكني شعرت عندما عملت معها بشيء من الجفاء ما كنـت آلفه منها من قبل، وذلك لأنها كانت تعتقد أني ضد الإنجليـز والظاهر أن للإنجليز خطأ جوهريا في تصديق كل ما ينقـل إليهم من الإشاعات والتمسك به وعدم تصديق مـا يخالفـه، مهما كان خطأ الإشـاعة الأولـى وبعـدها عـن الحقيقـة، والشخص الذي اتهم بمناوأة الإنجليز إذا هو أكـد لهـم أنـه مظلوم، وأن ما سمع عنه مجرد افتراء فهم لا يتحولون عـن



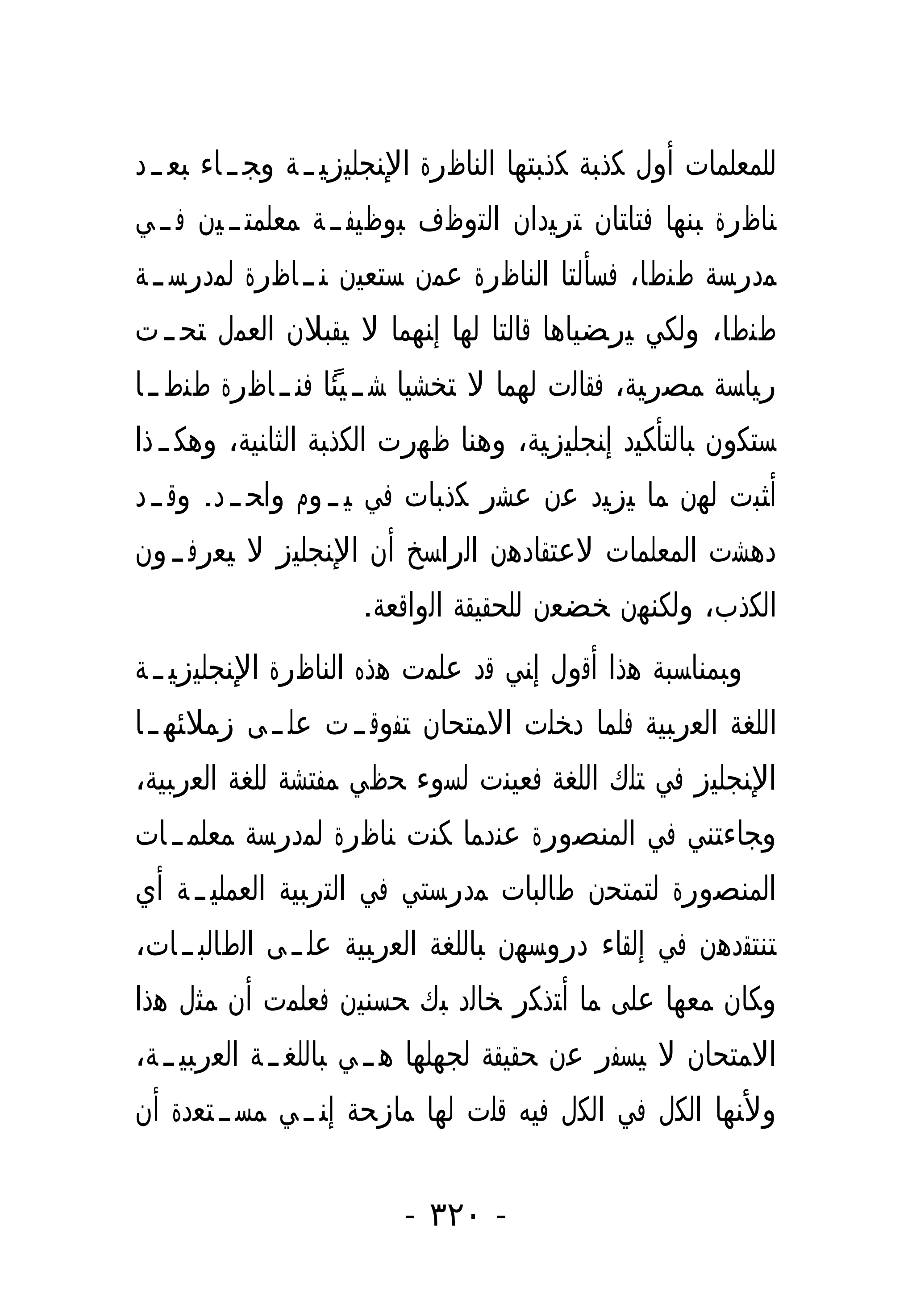
اعتقادهم الأول بل ربما نظروا إليه بعين الاحتقار إذ يعدونه جبانًا كاذبا، فلهذا كنت مضطرة على الرغم مني ألا أدافع أمام تلك الناظرة عن نفسي، وألا أدلل لها عن براءتي خشية أن تتهمني بالجبن والكذب، فكنت أعاملها بالحذر والصمت كما كانت هي أيضا تعاملني بشيء من الملاينة الظاهرة ينطوي تحتها شيء من الخوف خشية أن أناوئها.

أردت أن أنصرف إلى العمل لأبرهن بعملي على حسن نيتي والحق إني كنت ولا أزال أحب التعليم حبا يشغلني عن كل شيء سواه حتى النظر في السياسة لأني كنت أعتقد أن الإنسان يخدم بلاده بالمهنة التي يتقنها، والتي يجب أن يتفرغ لها، أما هي فكانت تريد أن تصرفني عن العمل في المدرسة بكل ما تستطيع، وحصل أني اطلعت على كراسات الطالبات في اللغة العربية فوجدت فيها أخطاء كثيرة أصلحتها بالقلم الأزرق، وعز على المعلمين المشايخ أن تصلح أخطاءهم فتاة من مدرسة السنية فشكوا أمرهم إلى كبير في الوزارة وشجعهم على ذلك ما كانوا يرونه من شدة حذر الناظرة مني، وطلب ذلك الكبير منهم الحضور فحضروا إلى مكتبه ومعهم كراسات الطالبات التي أصلحت أنا أخطاءها وعرض

الأمر على المستشار، وكان الرجل دقيقًا في عمله عادلاً في تصرفاته فسألهم عما كتبته أنا بالقلم الأزرق وهل هو خطأ أم صواب؟ فقالوا إنه صواب. وهنا ثارت ثائرته وقال "أتشكون إلي من أن فتاة من السنية وجدت لكم أخطاء أنـتم المشـايخ أعلام اللغة العربية فأصلحتها؟ وهل كان من صالح التعليم أن تتركها؟ الحـق إن شـكواكم غريبـة مضـحكة وإن خيـر ما يمكنني أن أقوله لكم هو أن تخرجوا من مكتبـي دون أن ينالكم عقاب"، وهكذا باءوا بالفشل من شكواهم، ولكن حضرة الناظرة طلبت مني بعد ذلك أن أترك الأمـور تجـري فـي مجراها الطبيعي، وألا أتدخل في عمل أحد مـن المدرسـة، ومن ثم ابتدأ بيني وبينها شيء من العداء والجفـاء، وكانـت غرفتي إلى جانب غرفتها، فكنت أنتقد بعض أعمالها، وكانت المعلمات في ذلك الوقت ككل مصـري يـتهمن المصـري بالكذب وكل العيوب ويبرئن الإنجليز من كل عيـب مهمـا صغر، وأردت أن أشرح لهن الخطأ فيما ذهبن إليه فقلت لهن إنكن تعتقدن أن الإنجليز لا يكـذبون وفـي اسـتطاعتي أن أبرهن لكن عمليا أنهم ككل الشعوب منهم الصادق والكاذب، والأمين والخائن، وهذه ناظرة إنجليزية الأصل وستقابل اليوم

بعض المعلمات لتعينهن في مجـالس المـديريات، وربمـا استطعت أن أثبت لكن كذبها مما تقوله لهـؤلاء المعلمـات، وكانت أول من دخلت عند الناظرة آنسة طلبتها هي لتعينهـا ناظرة في مدارس مجالس المديريات، فقالت لها: "إن هنـاك مدرستين فتحتهما مجالس المديريات إحداهما مدرسة شـبين الكوم والأخرى مدرسة طنطا، فاكتبي إلي تطلبـين وظيفـة ناظرة في مجالس المديريات لأعينك في إحدى المدرسـتين" قالت: الفتاة: "ولكني لا أريد مدرسة شبين الكوم بـل أريـد مدرسة طنطا" قالت: "لا بأس، ولكن يجب عليك في الطلـب ألا تعيني المدرسة التي تريدينها وسأعينك في طنطـا كمـا تريدين" وخرجت الفتاة من غرفتها إلى غرفتي وقصت علي قصتها أمام بقية المعلمات، فقلت لهن إن هنا كذبا لا أستطيع إثباته الآن لأن مدرسة طنطا بنيت بناء حسنًا لتديرها ناظرة إنجليزية لا مصرية وستعين الفتاة في مدرسة شبين الكوم.

وجاءت بعد هذه ناظرة بنها فطلبت من الناظرة أن تعينها في مدرسة شبين الكوم لأنها غير مستريحة في بنها فقالـت الناظرة في دهشة: "وهل ستفتح مدرسة في شبين الكوم؟ إني لم أسمع بذلك" وعندما قصت ناظرة مدرسة بنها حكايتها تبين

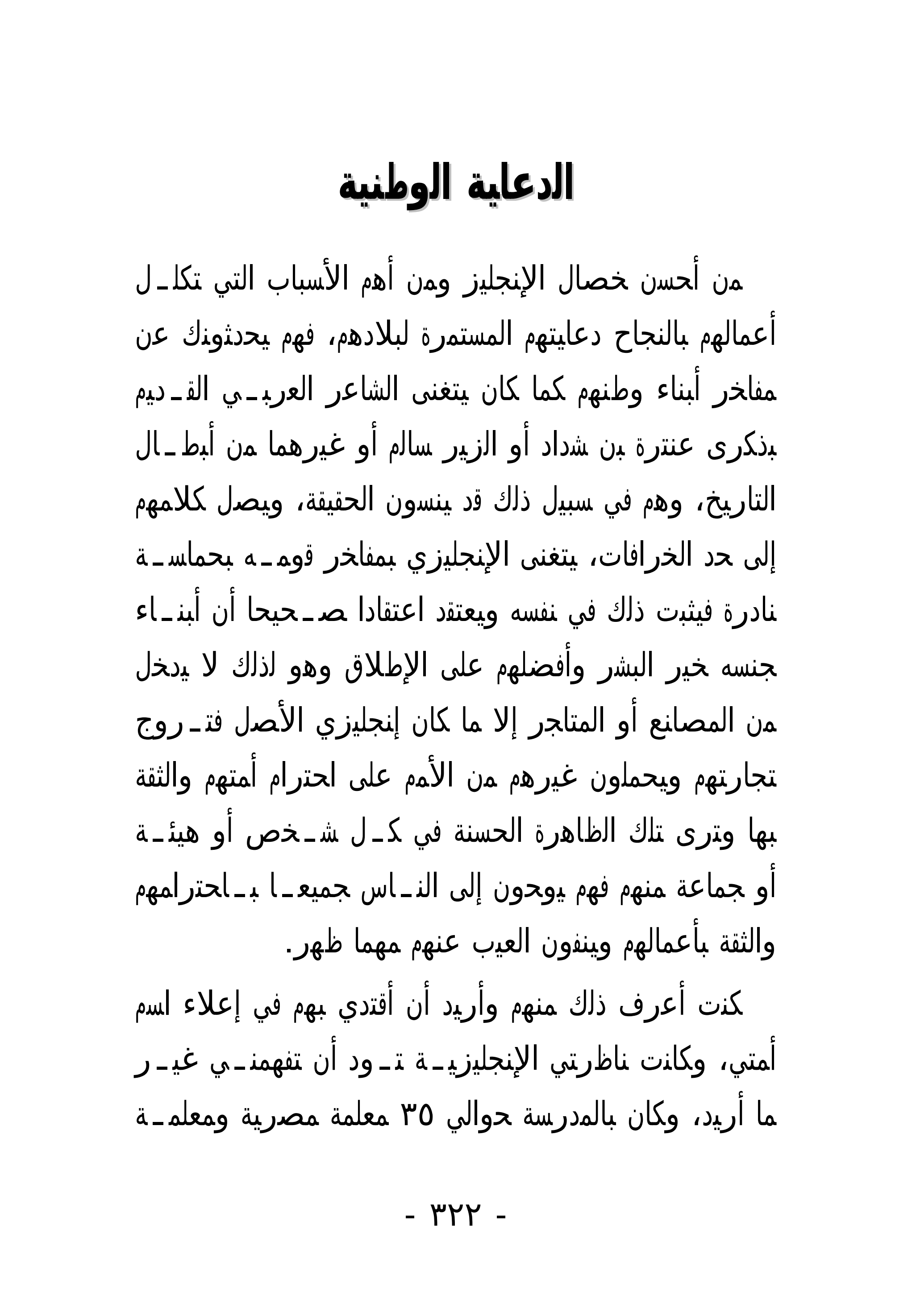


للمعلمات أول كذبة كذبتها الناظرة الإنجليزيـة وجـاء بعـد ناظرة بنها فتاتان تريدان التوظف بوظيفـة معلمتـين فـي مدرسة طنطا، فسألتا الناظرة عمن ستعين نـاظرة لمدرسـة طنطا، ولكي يرضياها قالتا لها إنهما لا يقبلان العمل تحـت رياسة مصرية، فقالت لهما لا تخشيا شـيئًا فنـاظرة طنطـا ستكون بالتأكيد إنجليزية، وهنا ظهرت الكذبة الثانية، وهكـذا أثبت لهن ما يزيد عن عشر كذبات في يـوم واحـد. وقـد دهشت المعلمات لاعتقادهن الراسخ أن الإنجليز لا يعرفـون الكذب، ولكنهن خضعن للحقيقة الواقعة.

وبمناسبة هذا أقول إني قد علمت هذه الناظرة الإنجليزيـة اللغة العربية فلما دخلت الامتحان تفوقـت علـى زملائهـا الإنجليز في تلك اللغة فعينت لسوء حظي مفتشة للغة العربية، وجاءتني في المنصورة عندما كنت ناظرة لمدرسة معلمـات المنصورة لتمتحن طالبات مدرستي في التربية العمليـة أي تنتقدهن في إلقاء دروسهن باللغة العربية علـى الطالبـات، وكان معها على ما أتذكر خالد بك حسنين فعلمت أن مثل هذا الامتحان لا يسفر عن حقيقة لجهلها هـي باللغـة العربيـة، ولأنها الكل في الكل فيه قلت لها مازحة إنـي مسـتعدة أن

أحضر لك فنجانًا عظيما من القهوة على شرط أن تتعهدي لي بعدم رسوب الطالبات في تلك المـادة. فقالـت: لا. لا أذوق قهوتك. وقامت فعملت هي وخالد بك فـي الامتحـان مـدة ساعتين، ثم جاءت لتستريح في مكتبـي فقلـت: ألا تـزالين تصرين على عدم قبول شرطي وشرب القهوة؟ قالـت: لا.. كلا. أما خالد بك فقال لي:

لقد طار مخي من التعب فأرجو إحضار القهـوة وإنـي مستعد لأن يرسب من الطالبات حتى الأوليات، ثم أعطتنـي كشفًا وقالت: إنه يجب علي أن أضع للطالبات درجاتهن فـي أعمال السنة من ٣٠. فقلت لها: إني أعلم أن أوليات الطالبات سيرسبن في امتحانك وإذن سأعطي هؤلاء الأوليات ٦٠ من ٣٠. فقالت بحدة: لا تفعلي فإن هذا غير مصرح به وضايقني تجاهلها المزاح إلى هذا الحد، فقلت لها: ألا تمزحـون فـي بلادكم؟ فقال: كلا.. نحن لا نقـول الكـذب حتـى ولا فـي المزاح، مع أنها كما رأى القارئ قالت ذلك الكذب في الجـد الصحيح.



الدعاية الوطنية

من أحسن خصال الإنجليز ومن أهم الأسباب التي تكلل أعمالهم بالنجاح دعايتهم المستمرة لبلادهم، فهم يحدثونك عن مفاخر أبناء وطنهم كما كان يتغنى الشاعر العربي القديم بذكرى عنترة بن شداد أو الزير سالم أو غيرهما من أبطال التاريخ، وهم في سبيل ذلك قد ينسون الحقيقة، ويصل كلامهم إلى حد الخرافات، يتغنى الإنجليزي بمفاخر قومه بحماسة نادرة فيثبت ذلك في نفسه ويعتقد اعتقادا صحيحا أن أبناء جنسه خير البشر وأفضلهم على الإطلاق وهو لذلك لا يدخل من المصانع أو المتاجر إلا ما كان إنجليزي الأصل فتروج تجارتهم ويحملون غيرهم من الأمم على احترام أمتهم والثقة بها وترى تلك الظاهرة الحسنة في كل شخص أو هيئة أو جماعة منهم فهم يوحون إلى الناس جميعا باحترامهم والثقة بأعمالهم وينفون العيب عنهم مهما ظهر.

كنت أعرف ذلك منهم وأريد أن أقتدي بهم في إعلاء اسم أمتي، وكانت ناظرتي الإنجليزية تود أن تفهمني غير ما أريد، وكان بالمدرسة حوالي ٣٥ معلمة مصرية ومعلمة

واحدة إنجليزية فكانـت كلمـا أخطـأت إحـدى المعلمـات المصريات قالت لي: هكذا المصريون لا يفلحون في عمـل فإذا عارضتها في ذلك قالت: لا تقيسي على نفسـك فأنـتِ مستثناة، وكنت أجيبها أني مصرية صميمة، وأن لون بشرتي وشكل وجهي الفرعوني يدلان على أني من صميم مصـر، ومحال أن أستثنى من بناتها وأنها هي تحكم على المصريات حكما قاسيا لا مبرر له مع أنهن كالإنجليزيات في كفـايتهن ومحال أن يعصم شخص من الخطأ فكانت تعارض بشدة في ذلك وأخيرا قلت لها إن بالمدرسة ٣٥ معلمة مصرية ومعلمة واحدة إنجليزية وبناء عليه يجب أن نجـد ٣٥ خطـأ مـن المصريات يقابله خطأ واحد من الإنجليزية وإني سأحصـي أخطاء الفريقين. قالت: محال أن تجدي للإنجليزيـة خطـأ. قلت: سنكون أمام الأمر الواقع في المستقبل القريب، وكانت تلك السيدة الإنجليزية تدرس ١٢ حصة أسبوعيا فقـط فـي التدبير المنزلي ليكون عندها من الوقت ما يكفـي لإرشـاد معلمات التدبير اللاتي كانت كل منهم تدرس ٢٤ حصة فـي الأسبوع، وكانت تلك السيدة تستغل سيطرتها عليهن فتـوزع

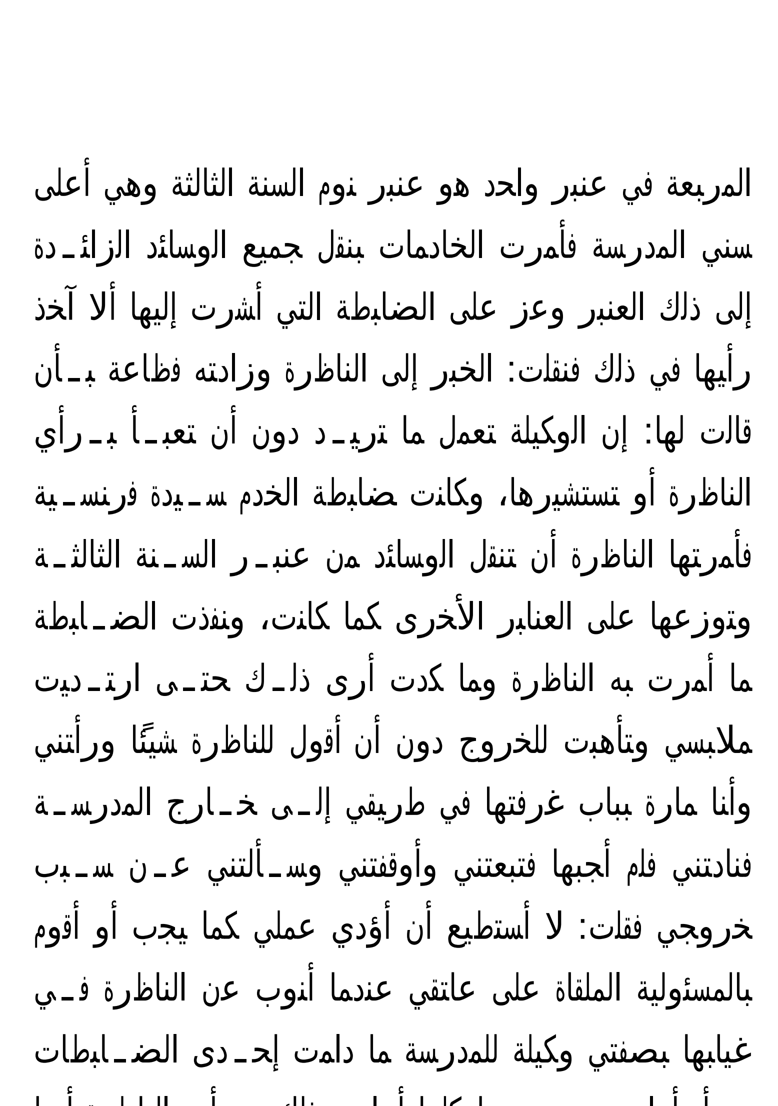
دروسها عليهن فلا هي ترشدهن ولا تقوم بتدريس دروسـها نفسها.

وفي أحد الأيام تغيبت إحدى معلمات التـدبير المنزلـي فأمرتني الناظرة أن أوزع دروسها ففعلت، ولكني لـم أوزع درس السيدة الإنجليزية التي كانت تقوم بتدريسه تلك المعلمة بصفة غير رسمية، وعندما ابتدأ ذلك الـدرس أتيـت إلـى الناظرة وأخبرتها أن الفرقة الفلانية ليس بها معلمـة قالـت: لعلك لم توزعي دروس المعلمة الغائبة قلت: كلا قـد فعلـت وهذا الدرس مخصص للسيدة الإنجليزية، قالت: وأين هـي؟ قلت: إنها في غرفتها تشـرب الشـاي مـع ضـيف لهـا، قالت: محال أن تترك درسها، قلت: إنها يا سيدتي لا تدخلـه بتاتًا بل هي تتركه للمعلمة الغائبة، قالت: إني لا أسمح لـكِ بذلك القول، قلت: إن الحقيقة لا تقبل الجدل فقامت وهي تكاد تتميز غيظًا وذهبت إلى غرفة المعلمة الإنجليزيـة وأمرتهـا بالحضور إلى الدرس، وكانت تلك المعلمة الإنجليزية تدرس درس التربية العملية في التدبير المنزلي ونظرا لأن الطالبات يعلمن أنها لا تصحح مذكرات دروسهن التي يلقينها أمامهـا لأنها لا تفهمها بل تضع عليها الدرجة حيثمـا اتفـق أخـذن

يهملن إعداد مذكراتهن، وبعد يومين من الحادثة الأولى كانت إحدى طالباتها تُدرس درس (يخنـى) للسـنة الرابعـة مـن المدرسة الملحقة، وكان ذلك في الحصة الأولى صباحا فلـم تعد مذكرة درسها بل أخذت كراسة إحدى طالباتي، وكانت قد أعدت بها درسا للسنة الثانية في مبادئ جدول الضرب، وقد أرادت الطالبة بأخذ تلك الكراسة أن توهم المعلمة الإنجليزية بأنها أعدت مذكرتها، وأنها أخطأت فأحضرت كراسة أخرى بدلاً من كراستها وينتهي الأمر عند هذا الحد، ولكن المعلمة ما كاد يقع بصرها على مذكرة طالبتي التي كانت قد أعدتها بنظام وإتقان حتى وضعت عليها الدرجة النهائية وأمضـت، ولما دخلت طالبتي لإلقاء درسها أمامي رأيت إمضاء المعلمة الإنجليزية والدرجة في نهاية المذكرة، فسألت الطالبـة عـن السبب في وضع تلك الإمضاء، فأخبرتني بما حدث فـذهبت إلى الناظرة وبيدي الكراسة، وقلت لها ما رأيك فـي معلمـة تضع إمضاءها والدرجة على كراسة لم تقرأها، قالت: لـيس ذلك بغريب على المصريات، قلت: ومـا رأيـك إذا كانـت إنجليزية؟ قالت: محال أن يصدر هذا من إنجليزية. فأطلعتها على الدرس فرجعت، ثم قالت: لعلها قرأته، ولكنها لم تفهمه

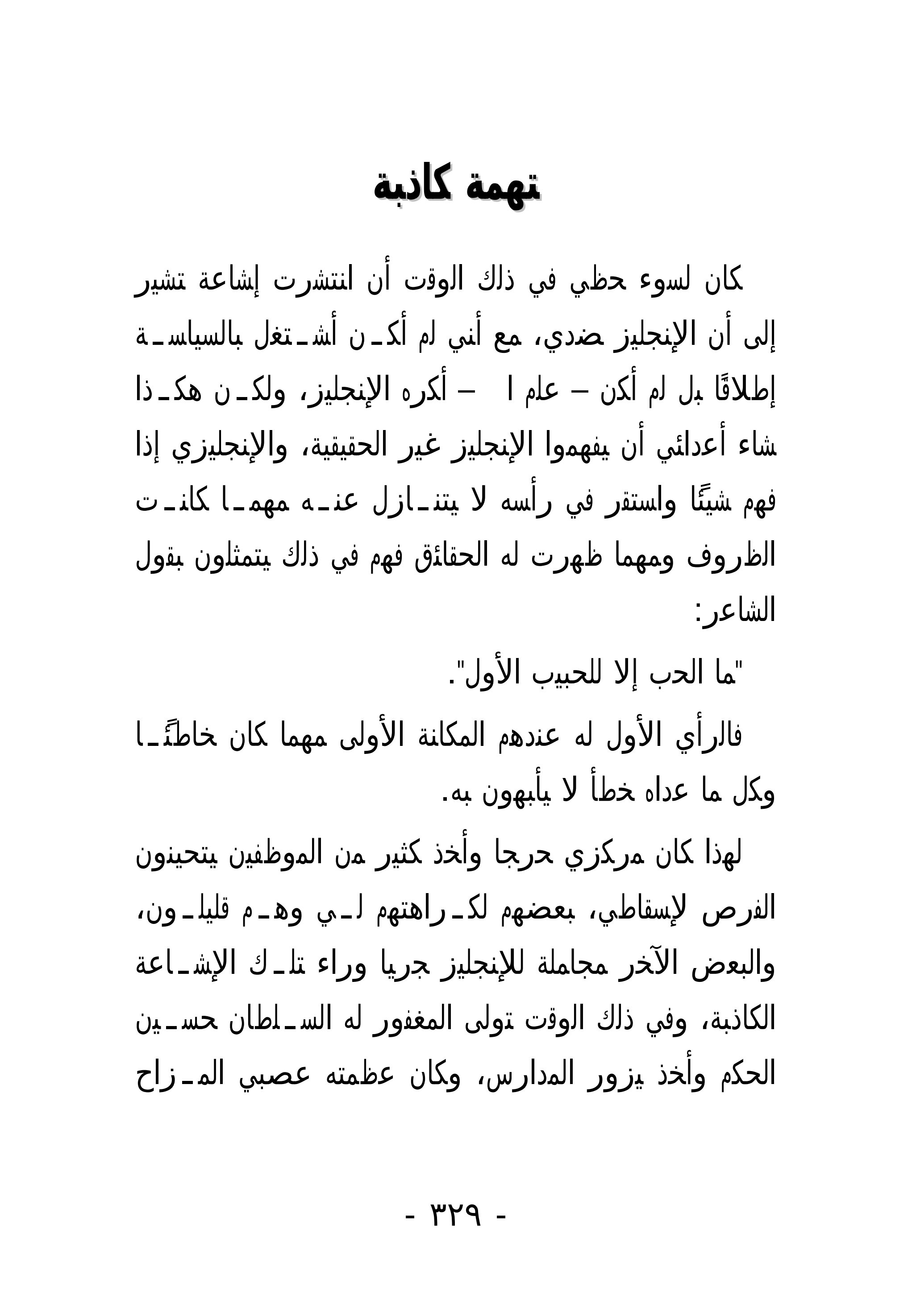
جيدا. قلت: إن السيدة التي تقرأ السنة الثانية على أنها الرابعة وتقرأ كلمة (حساب) على أنها (طبيخ)، ثم تقرأ كلمة جـدول الضرب على أنه (يخني) لا يجوز لنا أن نعتبر أنها قـرأت شيئا، بل هي وضعت الدرجة جزافًـا دون أن تعـرف فـي المذكرة شيئًا. فقالت الناظرة بحدة: أرجو ألا تناقشـيني فـي أخطاء تلك السيدة مرة أخرى. قلت: لست بفاعلة ويكفي أني أظهرت لك أن الإنجليزيات أكثر من المصريات أخطاء. ولم تعد بعد ذلك إلى الطعن في المصريات أمامي.

وكان بالمدرسة ضابطة تعرف اللغة الإنجليزية وتشـاطر الناظرة رأيها في الطعن على المصريات ولهذا كانت الناظرة تحابيها وترفع من درجتها واعتمادا على ثقة النـاظرة بهـا وميلها إليها أرادت أن تتعالى علـي متناسـية أنـي وكيلـة المدرسة وأنها إحدى الضابطات، ومررت بعنابر النوم يوما فوجدت أن بعض الأسِرة بها وسائد مربعة فـوق وسـادتها الأصلية وبعضها ليس بـه تلـك الوسـائد، وأن الطالبـات تشاجرت على تلك الوسائد الزائدة فكل منهن تريد أن يكـون لها وسادة مربعة، وهكذا كانت تلك الوسـائد منبـع شـقاق وخصام فأردت أن أمنع ذلك الشقاق بوضع جميـع الوسـائد



المربعة في عنبر واحد هو عنبر نوم السنة الثالثة وهي أعلى سني المدرسة فأمرت الخادمات بنقل جميع الوسائد الزائدة إلى ذلك العنبر وعز على الضابطة التي أشرت إليها ألا آخذ رأيها في ذلك فنقلت: الخبر إلى الناظرة وزادته فظاعة بأن قالت لها: إن الوكيلة تعمل ما تريد دون أن تعبأ برأي الناظرة أو تستشيرها، وكانت ضابطة الخدم سيدة فرنسية فأمرتها الناظرة أن تنقل الوسائد من عنبر السنة الثالثة وتوزعها على العنابر الأخرى كما كانت، ونفذت الضابطة ما أمرت به الناظرة وما كدت أرى ذلك حتى ارتديت ملابسي وتأهبت للخروج دون أن أقول للناظرة شيئًا ورأتني وأنا مارة بباب غرفتها في طريقي إلى خارج المدرسة فنادتني فلم أجبها فتبعتني وأوقفتني وسألتني عن سبب خروجي فقلت: لا أستطيع أن أؤدي عملي كما يجب أو أقوم بالمسئولية الملقاة على عاتقي عندما أنوب عن الناظرة في غيابها بصفتي وكيلة للمدرسة ما دامت إحدى الضابطات تهزأ بأوامري وتمحوها كلما أرادت ذلك، ورأت الناظرة أنها أخطأت فقالت: ولكني أخذت الوسائد من عنبر السنة الثالثة لأنجدها، ثم أعيدها إليه. قلت: حسنًا أما أنا فسأبقى في منزلي

إلى أن تعود الوسائد إلى حيث وضعتها، ثم سـلمت عليهـا وانصرفت وذهبت إلى المرحوم الدكتور طلعت لآخذ إجـازة مرضية ورأى الدكتور أن حرارتي ٣٩ درجة فقال إني أعتقد أنك لست بمريضة بالرغم مـن ارتفـاع حرارتـك ولعلـك مغضبة أو مجهدة، وعلى كل حال فأنتِ تسـتحقين إجـازة للراحة من ذلك الإجهاد وسمح لي بإجازة ١٥ يوما، فعـدت إلى المدرسة لأسلم الإجازة وآخذ ملابسي وما كادت الناظرة تراني حتى تبعتني إلى غرفتي وقال ألا تـزالين مغضـبة؟ قلت: لا يغضبني شيء، ولكني لا أستطيع البقاء فـي تلـك المدرسة إلا إذا نفذت أوامري. قالت: لقد أحضرت المنجـد وستكون الوسائد في محلها غدا. قلت: لا بأس يـا سـيدتي وسأكون بالمدرسة غدا إن شـاء ا ومـررت بالضـابطة الفرنسية التي رأت كيف غيرت الناظرة أمرها الأول، والتي كانت تتألم بعض الشيء من قوة نفـوذ الضـابطة الأخـرى فقالت لي: أهنئك بفوزك الباهر، وها نحن نعمل بسرعة فـي تنجيد الوسائل ووضعها في مكانها الـذي أمـرت أنـتِ أن توضع به، وهكذا عادت الوسائد إلى مكانها في اليوم التـالي كما عدت أنا إلى عملي وفي النفوس ما فيها.



تهمة كاذبة

كان لسوء حظي في ذلك الوقت أن انتشرت إشاعة تشير إلى أن الإنجليز ضدي، مع أني لم أكن أشتغل بالسياسة إطلاقًا بل لم أكن – علم ا – أكره الإنجليز، ولكن هكذا شاء أعدائي أن يفهموا الإنجليز غير الحقيقية، والإنجليزي إذا فهم شيئًا واستقر في رأسه لا يتنازل عنه مهما كانت الظروف ومهما ظهرت له الحقائق فهم في ذلك يتمثلون بقول الشاعر:

"ما الحب إلا للحبيب الأول".

فالرأي الأول له عندهم المكانة الأولى مهما كان خاطئًا وكل ما عداه خطأ لا يأبهون به.

لهذا كان مركزي حرجا وأخذ كثير من الموظفين يتحينون الفرص لإسقاطي، بعضهم لكراهتهم لي وهم قليلون، والبعض الآخر مجاملة للإنجليز جريا وراء تلك الإشاعة الكاذبة، وفي ذلك الوقت تولى المغفور له السلطان حسين الحكم وأخذ يزور المدارس، وكان عظمته عصبي المزاج

جريئًا يقول ما يريد فكـان المسـتر دانلـوب – مستشـار المعارف – يخشاه.

فلما جاء دور مدرسة معلمات بولاق وحدد موعد زيـارة عظمة السلطان لها أخذ المستر دانلوب بنفسه يتـردد علـى المدرسة ليتأكد من أن كل ما فيها يرضي عظمة السـلطان، وقد زار الفصول جميعها فلما دخل فصـلي، وكنـت أدرس "التربية العلمية" رأى في سواد ملبسي ما يثبت علـي تهمـة عدم رضائي بالحكم الحاضر، وقد كنت في شبابي المعلمـة الوحيدة التي ترتدي ملابس سوداء، وكنت أفعل ذلك محافظة على الحشمة والكمال، فقال لي: يجب أن تغيـري ملابسـك هذه، قلت: وما السبب الذي يدعوني إلـى ذلـك؟ قـال: إن حضرة صاحب العظمة السلطان سيتأكد من ملابسك هذه أنك ضد الحكومة الحاضرة وأنك تشايعين الخديوي السابق، قلت: لم أتصل عمري بسمو الخديوي ولا بحاشيته، وقد كنت ألبس ملابسي السوداء وسموه في الحكـم، قـال: ولكـن عظمـة السلطان لا يعلم ذلك. قلت: ولكن جنابك تعلمه، وأظن أن من الواجب أن تطلعه على الحقيقة. قال: ليس هذا مـن شـأني، ولكني أقول لكِ إنك إذا لم تغيري ملابسك فـلا تلـومي إلا

نفسك وسينفيك السلطان إلى مالطـه ولا يسـتطيع أحـد أن يعارضه في ذلك. قلت: أأنفى لأني ألـبس ملابسـي التـي اعتدت أن ألبسها طول حياتي؟ قال: نعم سيكون ذلك، وأنتِ وحدك المسئولة عنه. قلت: لست آسفة يا مستر دانلوب فـإن بلادا تنفي الناس لا لسبب سـوى أنهـم يلبسـون ملابسـهم لا يأسف الإنسان على الخروج منها لا إلى مالطه فحسب بل إلى جهنم إن شاء ا ، لأني لا أظن أن فـي جهـنم يعاقـب الناس على ملابسهم.

قال: إذن أنت تصرين على لبس ملابسك هذه أمام عظمة السلطان. قلت: نعم وأمنعك منعا باتا أن تحدثني في أشـياء شخصية لا علاقة لها بالعمل، فأنتم الإنجليز تعرفون مقـدار الحرية الشخصية ولا تسمحون لأحد أن ينتقـد شخصـيات غيره، ولهذا فإن لك أن تنتقد أعمالي أما ملابسي فلست أسمح لك بالكلام فيها، قال: إذن هذا حد بيننا ولست مسئولاً عمـا يصيبك بل أنتِ المسئولة شخصيا عن تصرفاتك.

قلت: إنني شخص كامل يا مستر دانلوب وكـل شـخص بالطبع مسئول عن تصرفاته، فتركني وخرج، وقـد كـادت

الدموع تتساقط من عيني لولا مسكة من الجلد كانت تمنعنـي من أظهر ما يشمت الأعداء بي.

وتجلـ ـ ـدي للشـ ـ ـامتين أريهـ ـ ـم

أني لريـ ـب الـ ـدهر لا أتضعضـ ـع

بقيت طيلة يومي غارقة في أفكار لا حد لها ولا نهاية.

وفي اليوم التالي زار المدرسة المرحوم الشـيخ شـ ـريف المفتش بوزارة المعارف ودخل مكتبي فلم يحيني مع أنه كان يعرفني أيام كنت ناظرة لمدرسة المنصورة، وكان يحييـنـي تحية طيبة، ولكنه لما بلغه أن الإنجليز ضدي أو أني أنا ضد الإنجليز كيفما يريد القارئ فقد أخذ يتجنى علي، ولم يحيني، ولم يكفه ذلك بل قال لي بصوت ملؤه التأنيب: لِم لَم تحينـي عند دخولي؟ فنظرت إليه مندهشة وقلت له: إنك أنت القادم، وكان الواجب عليك أن تحييني. قال: ألم يبلغك أني آت لعمل (البروفة) لزيارة عظمة السلطان؟ قلت: بلغني ذلك. قال: فلِم لَم تحيني تحية السلطان؟ قلت: لا أعلم أنك السلطان.

قال: سأخرج، ثم أعود لتحييني تحية السلطان. قلت: لـم أعتد تمثيل الروايات المحزنة أو المضحكة أمام طالباتي فأنت تخرج وتعود ليحييك الطالبات أما أنا فسأظل سـاكنة. قـال:

وما هي التحية التي ستحيين بها عظمة السلطان؟ قلت: التحية التركية يا سيدي لأن عظمته تركي الأصل، ومن الـذوق أن نحييه تحية بلاده. قال: ولكني أريد أن تحييه تحيـة العـرب فهل تعرفين ما هي؟ قلت: كلا لأن العرب لـم يكـن لـديهم سينما لنعرف تحيتهم. قال: ألم تزوري بلاد الصعيد؟ قلـت: لا.. لم أتشرف.

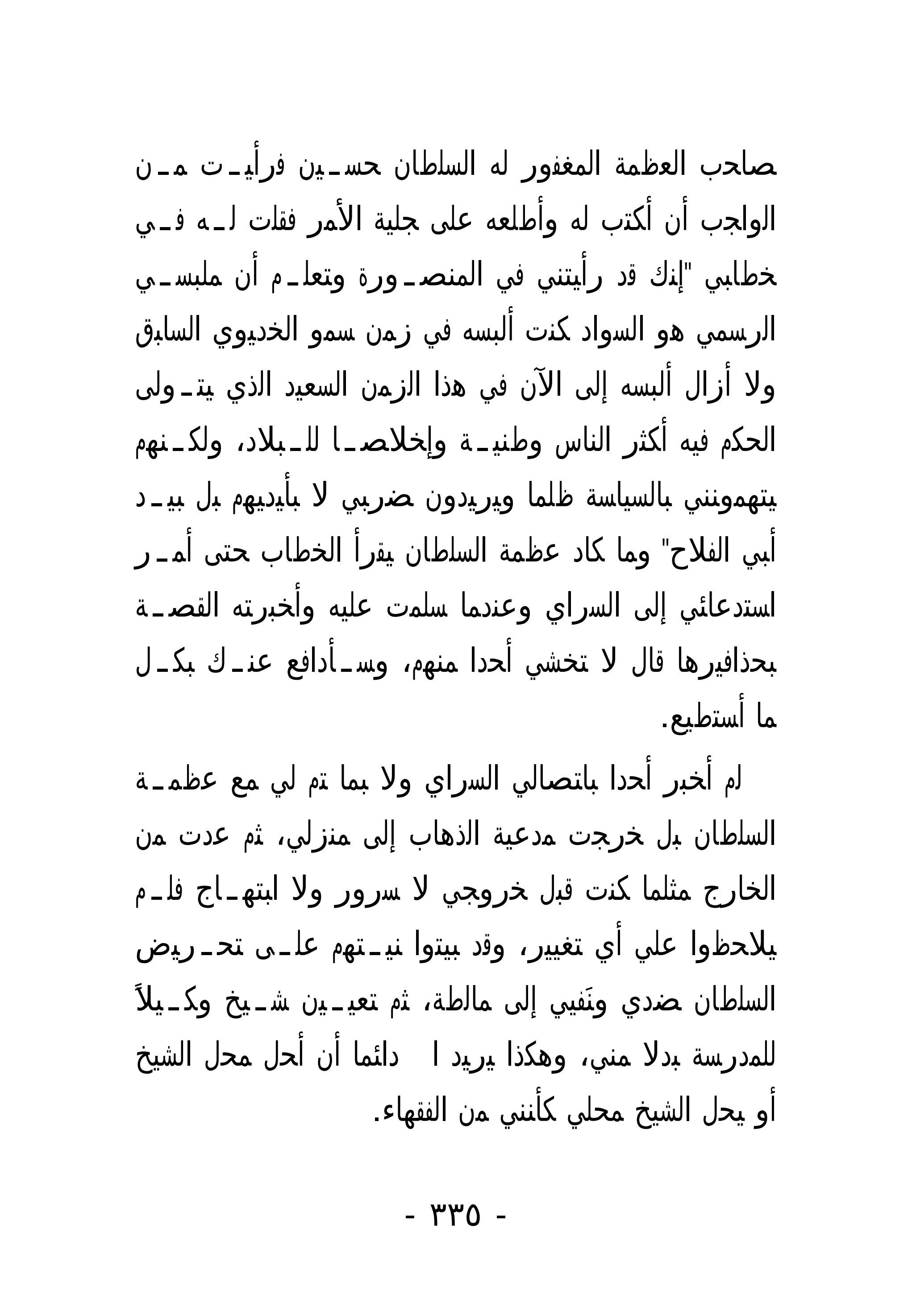
قال: هناك يحيون تحية العرب وهي هكذا: "وضرب بيده اليمنى جانبه الأيسر حتى خيل إلي أنه أصيب بطلق نـاري في ذلك الجنب فمال عليه" وقال: هل لكِ أن تجربـي هـذه التحية؟ قلت: كلا يا سيدي سأحييه التحية التركية، قلت ذلـك وملت في وقفتي على منصة المعلم في شيء من السـخرية، وكان بجانبه الغمراوي بك المفـتش فـي وزارة المعـارف أيضا، وكان المرحوم الشيخ شريف يعرف اللغة الفرنسية أما الغمراوي فيعرف الإنجليزية، وفي تلك اللحظة دخلت ناظرة المدرسة ونظرت إلي وأنا أقف تلك الوقفة التي تدل على عدم الاهتمام. قالت: أتقفين هكذا أمام السلطان؟ قلت: كلا سـأقف هكذا، "وملت قليلاً عما كنت" فلم تجبني وخرجت مسرعة من الغرفة. فلما رأى ذلك الشيخ الغمراوي وفهم مـا دار بينـي

وبين الناظرة أخذ الشيخ شريف من يده وقال له هيـا بنـا، ما لنا وللسيدة نبوية.

طلب بعد ذلك الشيخ شريف مذكرة الدرس الذي سـألقيه أمام عظمة السلطان فقلت: إنني لم أعدها وسأعدها في يـوم إلقاء الدرس كعادتي في باقي دروسي، قال: ولكنـي أريـد الإطلاع عليها. قلت: لست بالطفلة لتعلمني أنت فإن كان في الكفاية للتدريس أمام عظمة السلطان تشرفت بالقيام به وإن لم يكن كان عليكم أن تمنعوني من التدريس أمام عظمته أما أن تعلمني الدرس قبل إلقائه فهي سخرية لا أرضاها للمعلمات، ووقفت ساكتة، وكنت فـي الفصـل ألقـي درسـا، قـال: ألا ترغبين في التدريس أمامي؟ قلت: قد انتهى درس اليوم، قال: هل هناك مانع من أن تلقي الدرس الذي سـتلقينه أمـام عظمة السلطان. قلت: درس السلطان سألقيه أمـام عظمتـه ودرس اليوم قد انتهى.

ومرة أخرى سحبه الأستاذ الغمراوي بك من يده وخرج به.

ذهبت إلى غرفتي بعد ذلك، وقد اسودت الدنيا في عينـي وتأكدت أنني واقعة في كيدهم لا مفر لي منه، ثم فكرت قليلاً، وكنت أعرف المغفور له سعيد باشا ذو الفقار كبيـر أمنـاء


صاحب العظمة المغفور له السلطان حسـين فرأيـت مـن الواجب أن أكتب له وأطلعه على جلية الأمر فقلت لـه فـي خطابي "إنك قد رأيتني في المنصـورة وتعلـم أن ملبسـي الرسمي هو السواد كنت ألبسه في زمن سمو الخديوي السابق ولا أزال ألبسه إلى الآن في هذا الزمن السعيد الذي يتـولى الحكم فيه أكثر الناس وطنيـة وإخلاصـا للـبلاد، ولكـنهم يتهمونني بالسياسة ظلما ويريدون ضربي لا بأيديهم بل بيـد أبي الفلاح" وما كاد عظمة السلطان يقرأ الخطاب حتى أمـر استدعائي إلى السراي وعندما سلمت عليه وأخبرته القصـة بحذافيرها قال لا تخشي أحدا منهم، وسـأدافع عنـك بكـل ما أستطيع.

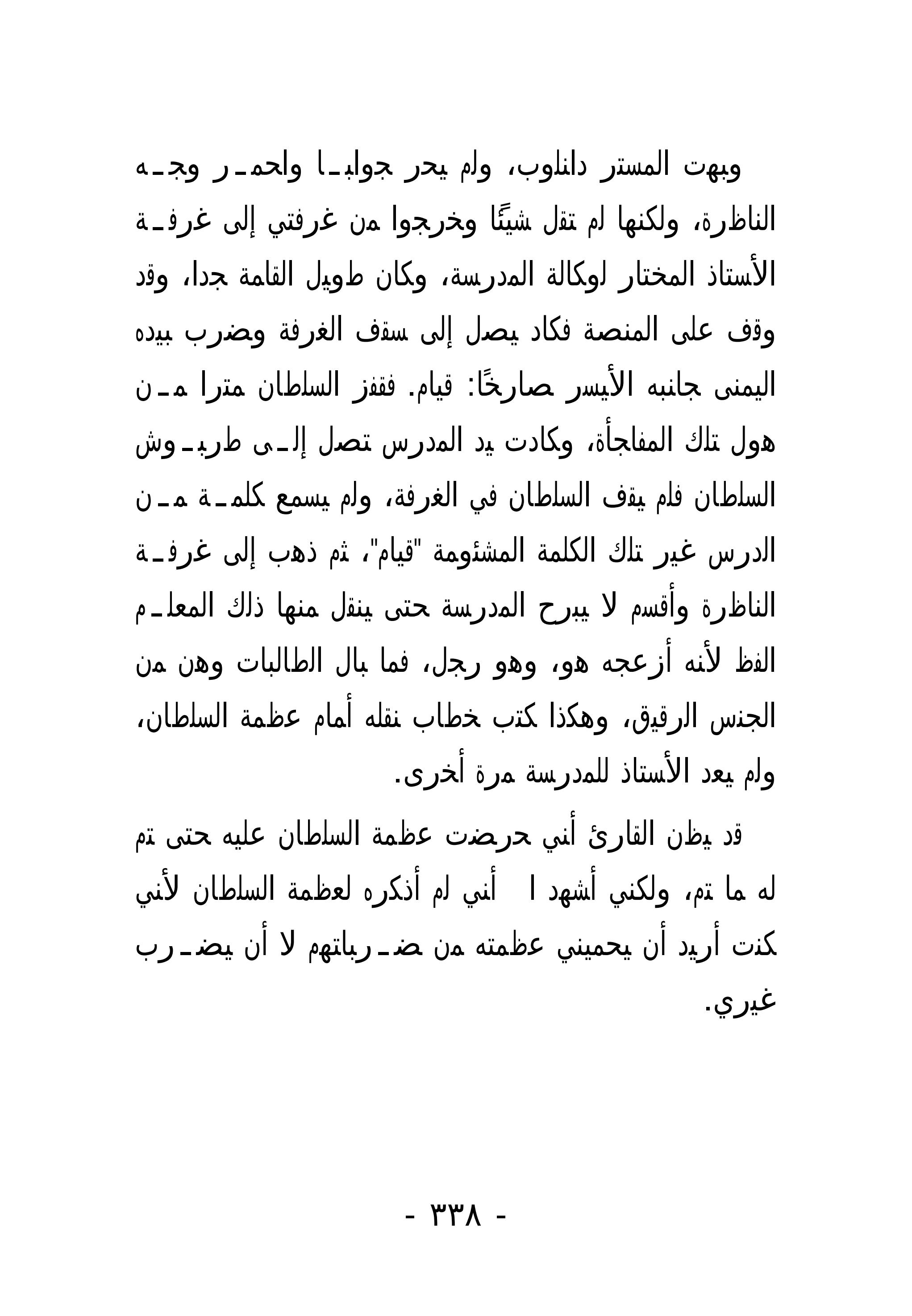
لم أخبر أحدا باتصالي السراي ولا بما تم لي مع عظمـة السلطان بل خرجت مدعية الذهاب إلى منزلي، ثم عدت من الخارج مثلما كنت قبل خروجي لا سرور ولا ابتهـاج فلـم يلاحظوا علي أي تغيير، وقد بيتوا نيـتهم علـى تحـريض السلطان ضدي ونَفيي إلى مالطة، ثم تعيـين شـيخ وكـيلاً للمدرسة بدلا مني، وهكذا يريد ا دائما أن أحل محل الشيخ أو يحل الشيخ محلي كأنني من الفقهاء.

أخطأ سادتنا في اختيار الأستاذ الذي أرادوا أن يحل محلي اختاروا شيخًا لم يخلق في حياته للتعليم ولست أنكر أنه كان عالما متضلعا في اللغة العربية، ولكنه لم يكن معلما بل كان من يصغي إليه وهو يلقي الدرس يظن أن هنـاك مشـاجرة يجب أن يستدعى لها البوليس، فهو يلقي بصـوت جهـوري يخترق الحوائط ولا تصغي إلى ذلك الصوت طالباتـه بـل يلعبن ويمرحن كأن كلاً منهم لا يرى صاحبه. وكان فضـلاً عن هذا غير منظم في ملابسه يعشش العنكبوت في أجـزاء جبته وهو لا يشعر به، وكنت بحسب وظيفتي يجب أن أكون آخر معلمة يزورها السلطان، ولكنهم نظروا إلى ما سـيكون فوضعوا ذلك الأستاذ بعدي.

وشرف عظمة السلطان المدرسة وأخـذوا يـروون لـه الأقاصيص عن نبوية موسى وكراهيتها للحكـم الحاضـر، وكان عظمته يسمع هذا ليلقي به في الهـواء دون أن يقـول شيئًا، وزار جميع الفصول فتألم من شكل التحية التي كـانوا يحيونه بها فقد كانت المعلمة أو المعلم يقف علـى المنصـة وهي ترتفع عن أرض الحجرة بنحو ٤٠ سنتيمترا حتـى إذا دخل عظمته الغرفة حياه بضربة قوية من يده اليمنى علـى

جانبه الأيسر يتفزع منها عظمته، خصوصا وهي تأتي من فوق رأس عظمته، وكان رحمه ا قصير القامة فكان حتى المعلم الذي لا يزيد عنه في الطول يزيد عنه بارتفاع المنصة، تضايق السلطان من تلك التحية المؤلمة وأظهر مضايقته، ولكنه لم يكن في الإمكان تغييرها ودخل السلطان أخيرا الفرقة التي كنت أدرس بها ويظهر أنهم قالوا له: إن المدرسة هنا نبوية، ولكنه أخطأ السمع فظنها "نبيهة" فدخل الفرقة يقول "سعيدة، يا ست نبيهة"، ولكنه ما كاد يقع نظره علي وأنا أحييه التحية التركية لا من فوق المنصة كما فعلوا بل من أسفلها ما كاد يقع بصره علي حتى قال "أهلاً ست نبوية" ووضع يده اليسرى تحت يدي ليمنعها من الوصول إلى الأرض، ثم حياني باليد اليمنى يدا بيد، ولم يفعل ذلك مع غيري لأنه غير ممكن.

ودهش جناب المستشار كما دهشت حضرة الناظرة لأن السلام كان يدل على أن كلاً منا يعرف الآخر وألقيت الدرس أمام عظمته فسر منه كثيرا، وفي نهايته نظر إلى المستر دانلوب، وقال: ما الذي يمنع تلك السيدة من أن تكون ناظرة لتلك المدرسة.



وبهت المستر دانلوب، ولم يحر جوابا واحمر وجه الناظرة، ولكنها لم تقل شيئًا وخرجوا من غرفتي إلى غرفة الأستاذ المختار لوكالة المدرسة، وكان طويل القامة جدا، وقد وقف على المنصة فكاد يصل إلى سقف الغرفة وضرب بيده اليمنى جانبه الأيسر صارخًا: قيام. فقفز السلطان مترا من هول تلك المفاجأة، وكادت يد المدرس تصل إلى طربوش السلطان فلم يقف السلطان في الغرفة، ولم يسمع كلمة من الدرس غير تلك الكلمة المشئومة "قيام"، ثم ذهب إلى غرفة الناظرة وأقسم لا يبرح المدرسة حتى ينقل منها ذلك المعلم الفظ لأنه أزعجه هو، وهو رجل، فما بال الطالبات وهن من الجنس الرقيق، وهكذا كتب خطاب نقله أمام عظمة السلطان، ولم يعد الأستاذ للمدرسة مرة أخرى.

قد يظن القارئ أني حرضت عظمة السلطان عليه حتى تم له ما تم، ولكني أشهد ا   أني لم أذكره لعظمة السلطان لأني كنت أريد أن يحميني عظمته من ضرباتهم لا أن يضرب غيري.

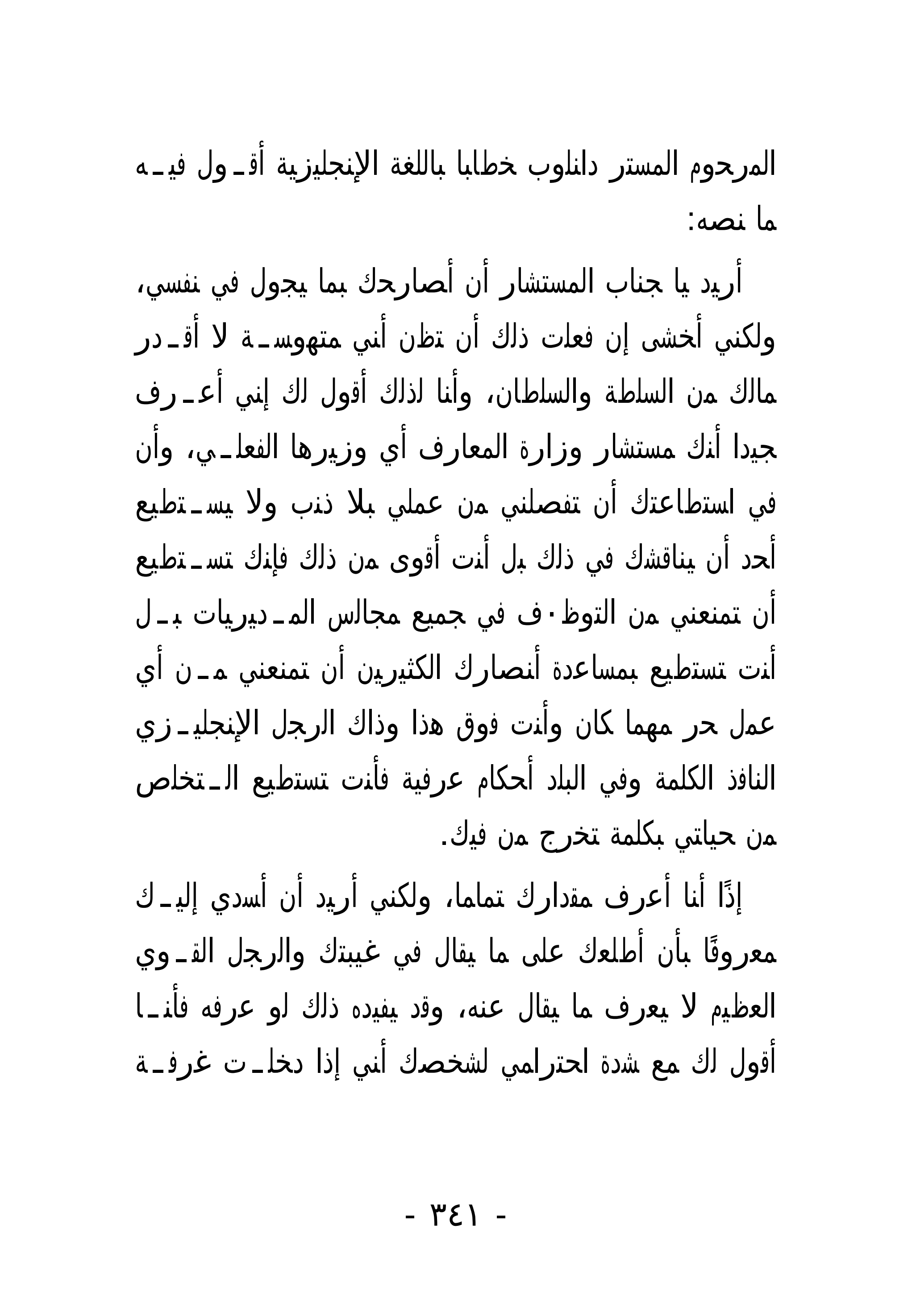
وبعد مبارحة عظمته المدرسة جاءتني الناظرة فقالت فـي شيء من الدعابة: ما الذي أعجبه من درسك؟ لقد كنت سوادا في سواد؟

قلت: لعلك عرفت من هذا أني أستطيع أن أرضي أبنـاء بلادي. قالت: إنه قد أخطأ في تقديرك. قلت: من منا التي تنفى إلى مالطه؟ التي كانت تلبس ملابسها أم التـي تقـول علـى السلطان مثل هذا القول؟ قالت: على رسلك فهو لا يسـتطيع أن ينفيني.

وقد أهداني عظمته ساعة يد من الماس بسوار ذهبي كما أهدى بعض المعلمات أشياء أخرى أقل من الساعة قيمة.

إيقاف الاضطهاد
إلى تحسين الفرص

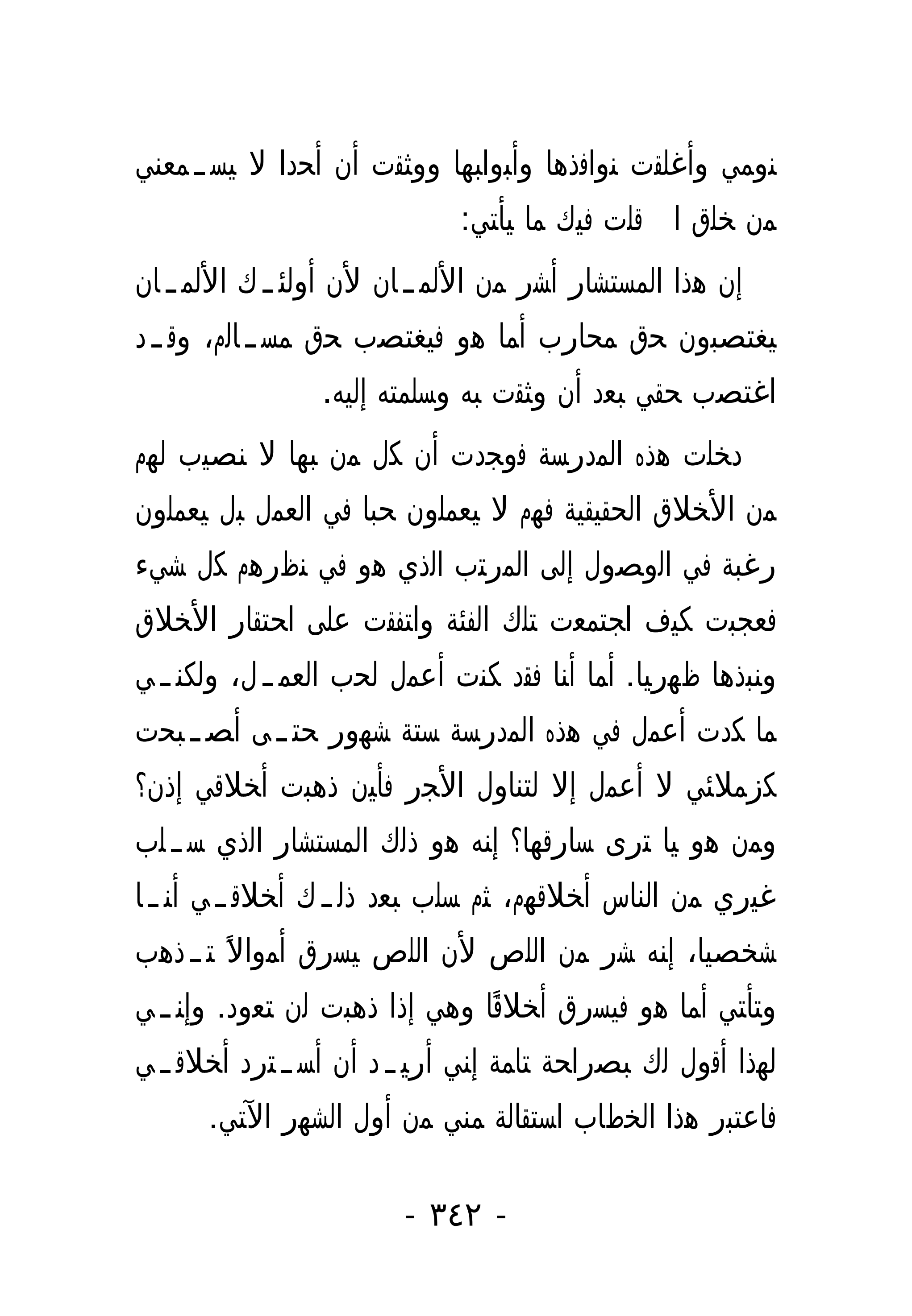
وضعت زيارة المغفور لـه السـلطان حسـين لمدرسـة معلمات بولاق حدا لاضطهادي فلم أعد بعدها مضطهدة بـل تركت وشأني، ولكني لم أكن أعمل بالمعنى الصحيح؛ لأنـي لم أكن معلمة ولا ناظرة بل كنت شيئًا بين الوظيفتين وهـذا الشيء لا عمل له في الغالب وهو ما يسمى بوكيلة المدرسة. تضايقت من هذه الحالة وأردت أن أبحث عن عمل آخر مهما كان أستعيد فيه نشاطي وجدي حتى أني رجوتهم أن أكـون ناظرة لمدرسة أولية وهي وظيفة لا تتناسب والمرتب الـذي كنت أتقاضاه. ولكن كنت أراها أفضل مـن العطـل. لأنـي أستطيع فيهـا أن أعمـل، وأن أصـلح المدرسـة دون أن يعارضني أحد في ذلك الإصلاح، وكانت في نظري على حد المثل الإنجليزي (كن رأس كلب ولا تكن ذنب أسد)، ولكنهم أبوا علي حتى تلك الوظيفة المتواضعة وأخيرا عولت علـى ترك العمل في الوزارة فكتبـت إلـى مستشـار المعـارف



المرحوم المستر دانلوب خطابا باللغة الإنجليزية أقـول فيـه ما نصه:

أريد يا جناب المستشار أن أصارحك بما يجول في نفسي، ولكني أخشى إن فعلت ذلك أن تظن أني متهوسـة لا أقـدر مالك من السلطة والسلطان، وأنا لذلك أقول لك إني أعـرف جيدا أنك مستشار وزارة المعارف أي وزيرها الفعلـي، وأن في استطاعتك أن تفصلني من عملي بلا ذنب ولا يسـتطيع أحد أن يناقشك في ذلك بل أنت أقوى من ذلك فإنك تسـتطيع أن تمنعني من التوظـف في جميع مجالس المـديريات بـل أنت تستطيع بمساعدة أنصارك الكثيرين أن تمنعني مـن أي عمل حر مهما كان وأنت فوق هذا وذاك الرجل الإنجليـزي النافذ الكلمة وفي البلد أحكام عرفية فأنت تستطيع الـتخلص من حياتي بكلمة تخرج من فيك.

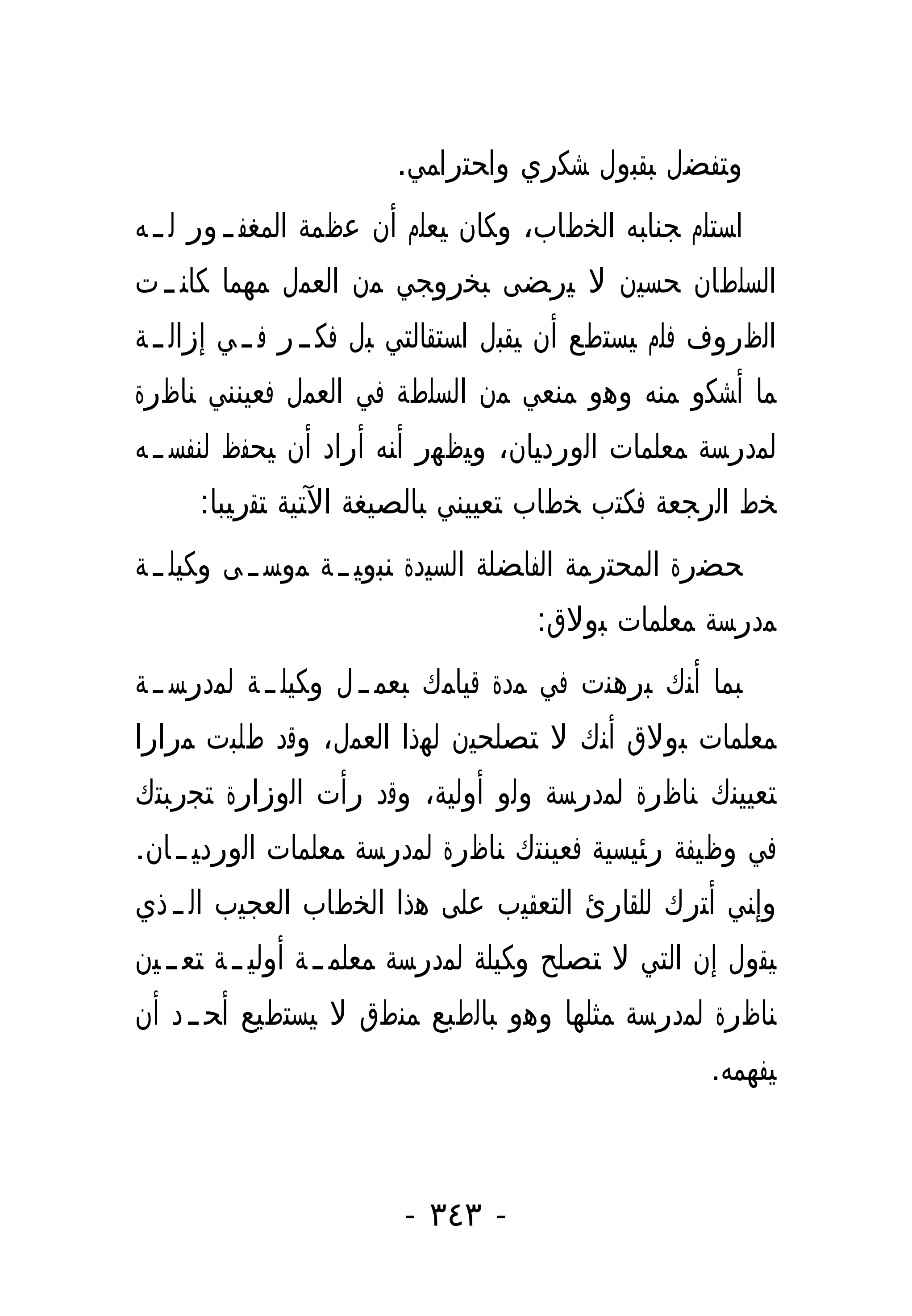
إذًا أنا أعرف مقدارك تماما، ولكني أريد أن أسدي إليـك معروفًا بأن أطلعك على ما يقال في غيبتك والرجل القـوي العظيم لا يعرف ما يقال عنه، وقد يفيده ذلك لو عرفه فأنـا أقول لك مع شدة احترامي لشخصك أني إذا دخلـت غرفـة



نومي وأغلقت نوافذها وأبوابها ووثقت أن أحدا لا يسـمعني من خلق ا قلت فيك ما يأتي:

إن هذا المستشار أشر من الألمـان لأن أولئـك الألمـان يغتصبون حق محارب أما هو فيغتصب حق مسـالم، وقـد اغتصب حقي بعد أن وثقت به وسلمته إليه.

دخلت هذه المدرسة فوجدت أن كل من بها لا نصيب لهم من الأخلاق الحقيقية فهم لا يعملون حبا في العمل بل يعملون رغبة في الوصول إلى المرتب الذي هو في نظرهم كل شيء فعجبت كيف اجتمعت تلك الفئة واتفقت على احتقار الأخلاق ونبذها ظهريا. أما أنا فقد كنت أعمل لحب العمـل، ولكنـي ما كدت أعمل في هذه المدرسة ستة شهور حتـى أصـبحت كزملائي لا أعمل إلا لتناول الأجر فأين ذهبت أخلاقي إذن؟ ومن هو يا ترى سارقها؟ إنه هو ذلك المستشار الذي سـلب غيري من الناس أخلاقهم، ثم سلب بعد ذلـك أخلاقـي أنـا شخصيا، إنه شر من اللص لأن اللص يسرق أموالاً تـذهب وتأتي أما هو فيسرق أخلاقًا وهي إذا ذهبت لن تعود. وإنـي لهذا أقول لك بصراحة تامة إنني أريـد أن أسـترد أخلاقـي فاعتبر هذا الخطاب استقالة مني من أول الشهر الآتي.

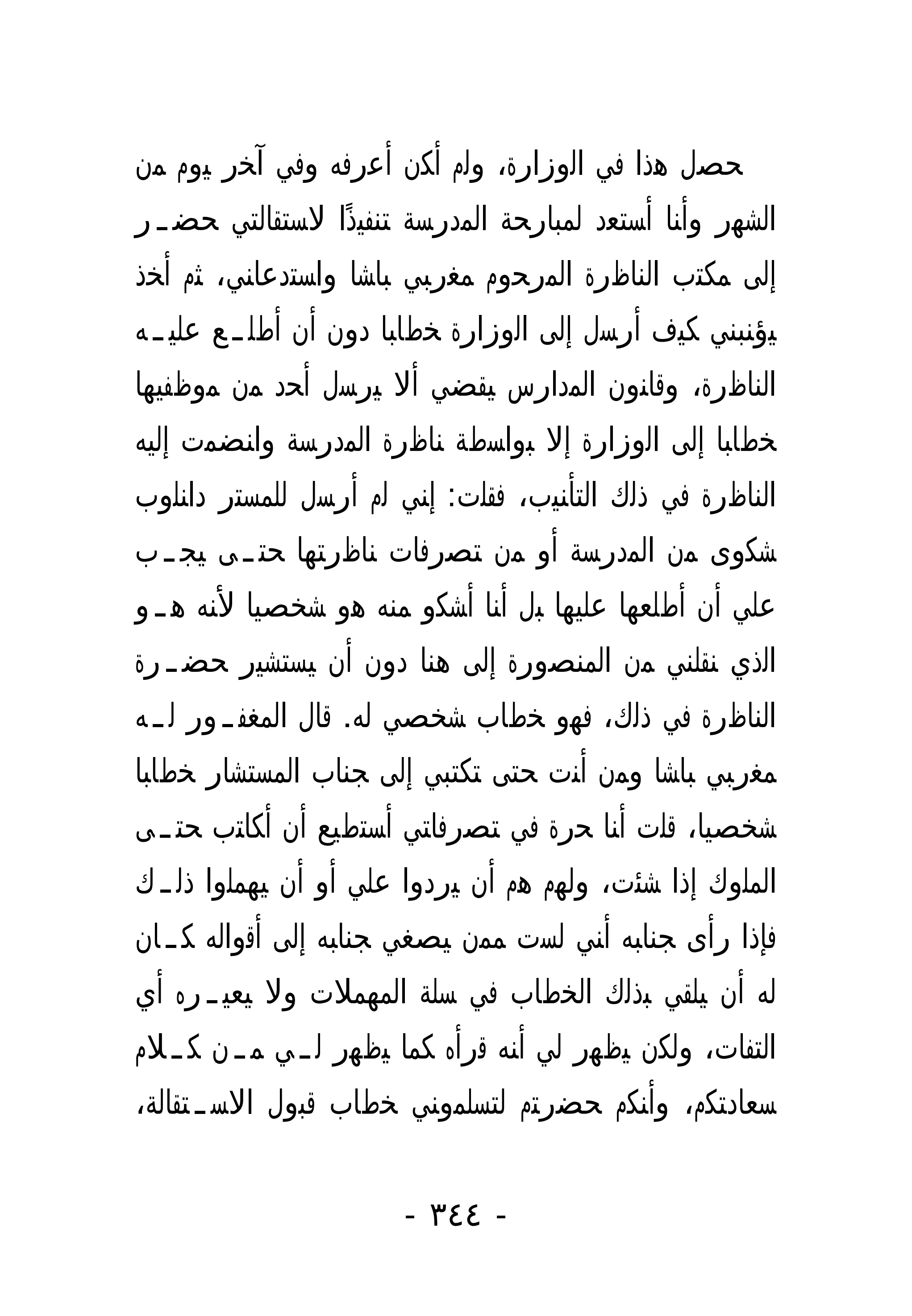


وتفضل بقبول شكري واحترامي.

استلم جنابه الخطاب، وكان يعلم أن عظمة المغفـور لـه السلطان حسين لا يرضى بخروجي من العمل مهما كانـت الظروف فلم يستطع أن يقبل استقالتي بل فكـر فـي إزالـة ما أشكو منه وهو منعي من السلطة في العمل فعينني ناظرة لمدرسة معلمات الورديان، ويظهر أنه أراد أن يحفظ لنفسـه خط الرجعة فكتب خطاب تعييني بالصيغة الآتية تقريبا:

حضرة المحترمة الفاضلة السيدة نبويـة موسـى وكيلـة مدرسة معلمات بولاق:

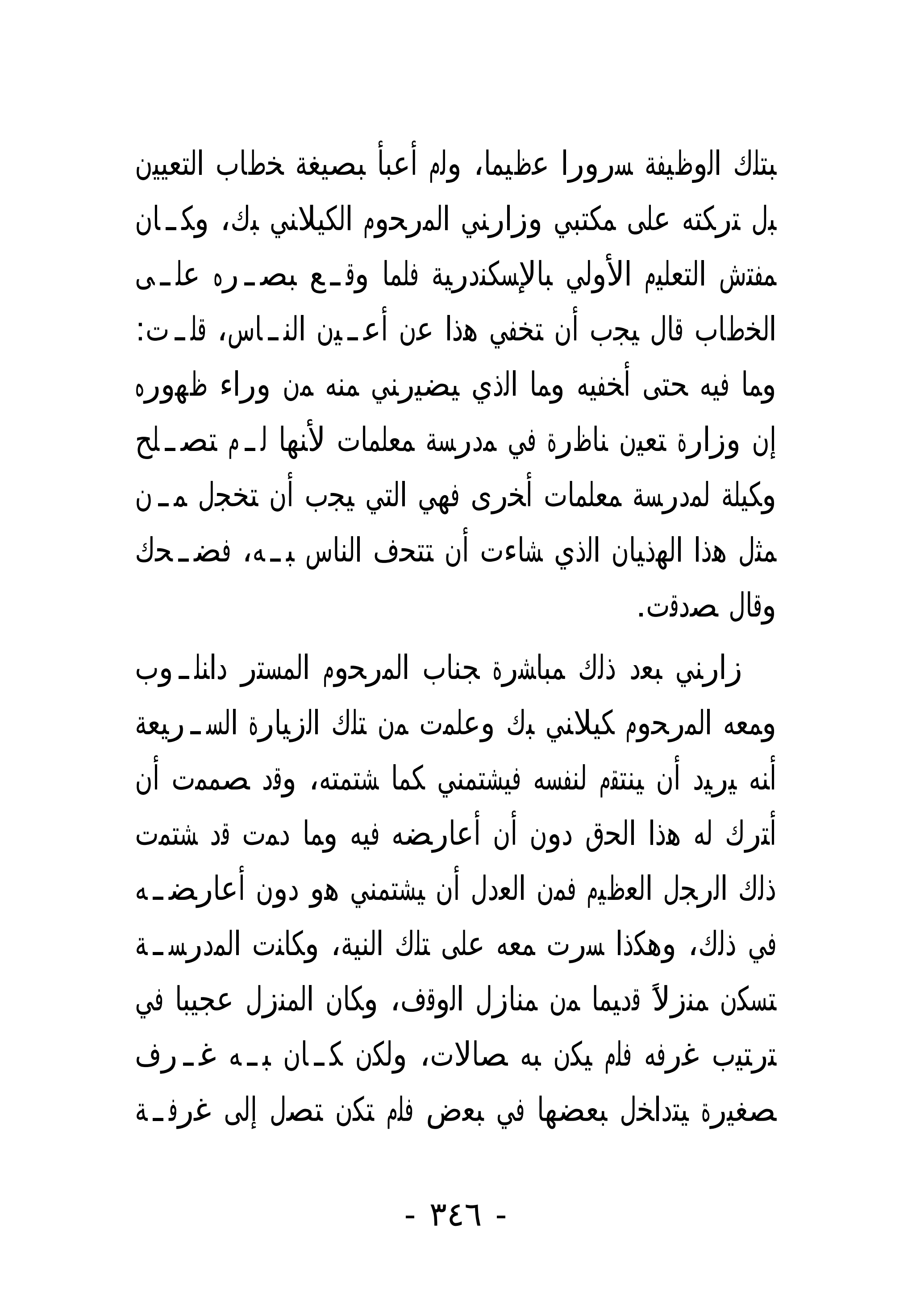
بما أنك برهنت في مدة قيامك بعمـل وكيلـة لمدرسـة معلمات بولاق أنك لا تصلحين لهذا العمل، وقد طلبت مرارا تعيينك ناظرة لمدرسة ولو أولية، وقد رأت الوزارة تجربتك في وظيفة رئيسية فعينتك ناظرة لمدرسة معلمات الورديـان. وإني أترك للقارئ التعقيب على هذا الخطاب العجيب الـذي يقول إن التي لا تصلح وكيلة لمدرسة معلمـة أوليـة تعـين ناظرة لمدرسة مثلها وهو بالطبع منطق لا يستطيع أحـد أن يفهمه.



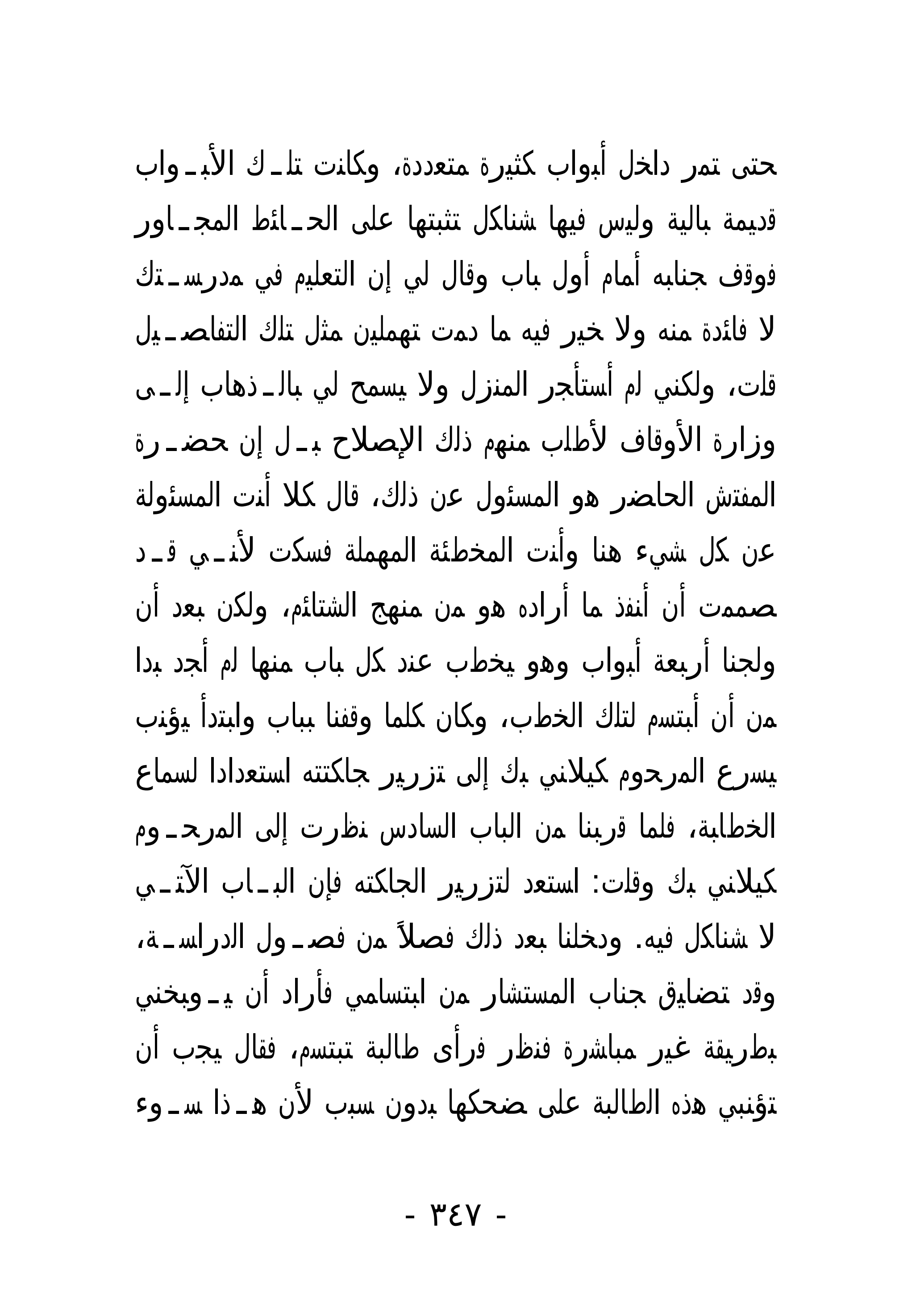
حصل هذا في الوزارة، ولم أكن أعرفه وفي آخر يوم من الشهر وأنا أستعد لمبارحة المدرسة تنفيذًا لاستقالتي حضـر إلى مكتب الناظرة المرحوم مغربي باشا واستدعاني، ثم أخذ يؤنبني كيف أرسل إلى الوزارة خطابا دون أن أطلـع عليـه الناظرة، وقانون المدارس يقضي ألا يرسل أحد من موظفيها خطابا إلى الوزارة إلا بواسطة ناظرة المدرسة وانضمت إليه الناظرة في ذلك التأنيب، فقلت: إنني لم أرسل للمستر دانلوب شكوى من المدرسة أو من تصرفات ناظرتها حتـى يجـب علي أن أطلعها عليها بل أنا أشكو منه هو شخصيا لأنه هـو الذي نقلني من المنصورة إلى هنا دون أن يستشير حضـرة الناظرة في ذلك، فهو خطاب شخصي له. قال المغفـور لـه مغربي باشا ومن أنت حتى تكتبي إلى جناب المستشار خطابا شخصيا، قلت أنا حرة في تصرفاتي أستطيع أن أكاتب حتـى الملوك إذا شئت، ولهم هم أن يردوا علي أو أن يهملوا ذلـك فإذا رأى جنابه أني لست ممن يصغي جنابه إلى أقواله كـان له أن يلقي بذلك الخطاب في سلة المهملات ولا يعيـره أي التفات، ولكن يظهر لي أنه قرأه كما يظهر لـي مـن كـلام سعادتكم، وأنكم حضرتم لتسلموني خطاب قبول الاسـتقالة،

فضحك المحروم ضحكته الحلوة، وقال لقد جئـت لأسـلمك خطاب تعيينك ناظرة لمدرسة معلمات الورديان، وعليـك أن تذهبي غدا إلى مقر وظيفتك الجديدة، وأن ترسلي إلى جناب المستشار خطابا تعتذري له فيه عن خطابك هذا. قلت: نعـم سأرسل إليه ذلك ولو استطعت لكتبته قصيدة مـدح مطولـة فأرجوك أن تحمل إليه تحيتي واعتذاري، ثم كتبت إلى جناب المستشار خطابا آخر أقول له فيه: لقد أسـأت التعبيـر فـي خطابي السابق، ولكني مع تلك الإساءة قد فعلت خيـرا فقـد أظهرت بذلك الخطاب صفاتك النادرة التي قل أن توجد فـي رئيس غيرك فأنت مع قوتك وسلطانك لم تـرد أن تعـاقبني على سوء تعبيري، بل رددت إلى حقـي كـاملاً وأظهـرت بالعمل لا بالقول أني أسأت الظن بك ظلما وأنك بريء ممـا نسبته إليك، ولولا خطابي هذا لما ظهرت فيك تلك المواهب السامية، ولا ظهر للناس خطئي فيما ذهبت إليه من اتهامـك ظلما أو جهلاً بصفاتك النادرة فاقبـل اعتـذاري وشـكري والسلام عليك.

تسلمت عملي في مدرسة معلمـات الورديـان ومـع أن مرتبي لم يزد، ولم تتغير درجتي في شيء ما فقـد سـررت


بتلك الوظيفة سرورا عظيما، ولم أعبأ بصيغة خطاب التعيين بل تركته على مكتبي وزارني المرحوم الكيلاني بك، وكـان مفتش التعليم الأولي بالإسكندرية فلما وقـع بصـره علـى الخطاب قال يجب أن تخفي هذا عن أعـين النـاس، قلـت: وما فيه حتى أخفيه وما الذي يضيرني منه من وراء ظهوره إن وزارة تعين ناظرة في مدرسة معلمات لأنها لـم تصـلح وكيلة لمدرسة معلمات أخرى فهي التي يجب أن تخجل مـن مثل هذا الهذيان الذي شاءت أن تتحف الناس بـه، فضـحك وقال صدقت.

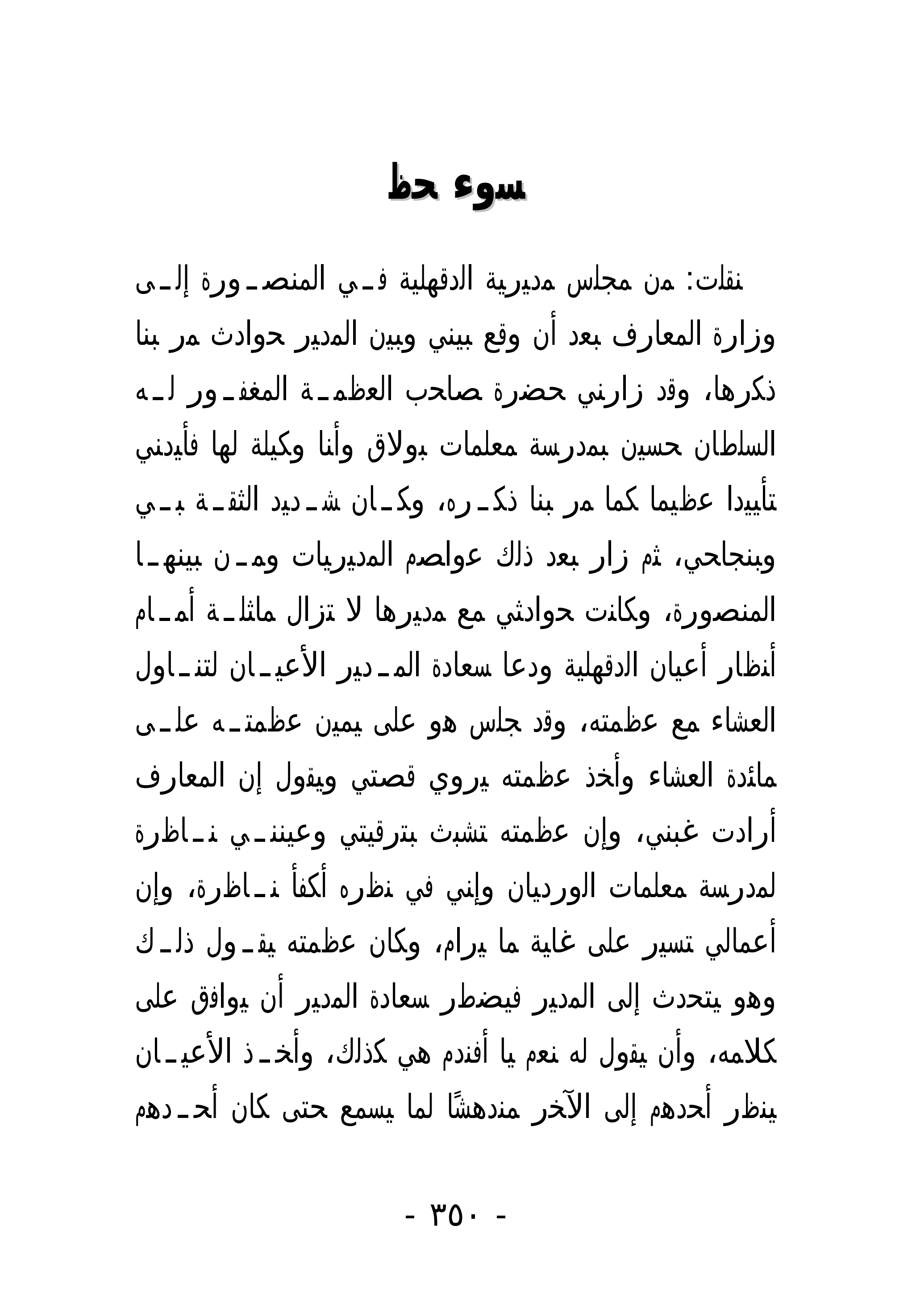
زارني بعد ذلك مباشرة جناب المرحوم المستر دانلـوب ومعه المرحوم كيلاني بك وعلمت من تلك الزيارة السـريعة أنه يريد أن ينتقم لنفسه فيشتمني كما شتمته، وقد صممت أن أترك له هذا الحق دون أن أعارضه فيه وما دمت قد شتمت ذلك الرجل العظيم فمن العدل أن يشتمني هو دون أعارضـه في ذلك، وهكذا سرت معه على تلك النية، وكانت المدرسـة تسكن منزلاً قديما من منازل الوقف، وكان المنزل عجيبا في ترتيب غرفه فلم يكن به صالات، ولكن كـان بـه غـرف صغيرة يتداخل بعضها في بعض فلم تكن تصل إلى غرفـة



حتى تمر داخل أبواب كثيرة متعددة، وكانت تلـك الأبـواب قديمة بالية وليس فيها شناكل تثبتها على الحـائط المجـاور فوقف جنابه أمام أول باب وقال لي إن التعليم في مدرسـتك لا فائدة منه ولا خير فيه ما دمت تهملين مثل تلك التفاصـيل قلت، ولكني لم أستأجر المنزل ولا يسمح لي بالـذهاب إلـى وزارة الأوقاف لأطلب منهم ذلك الإصلاح بـل إن حضـرة المفتش الحاضر هو المسئول عن ذلك، قال كلا أنت المسئولة عن كل شيء هنا وأنت المخطئة المهملة فسكت لأنـي قـد صممت أن أنفذ ما أراده هو من منهج الشتائم، ولكن بعد أن ولجنا أربعة أبواب وهو يخطب عند كل باب منها لم أجد بدا من أن أبتسم لتلك الخطب، وكان كلما وقفنا بباب وابتدأ يؤنب يسرع المرحوم كيلاني بك إلى تزرير جاكتته استعدادا لسماع الخطابة، فلما قربنا من الباب السادس نظرت إلى المرحـوم كيلاني بك وقلت: استعد لتزرير الجاكته فإن البـاب الآتـي لا شناكل فيه. ودخلنا بعد ذلك فصلاً من فصـول الدراسـة، وقد تضايق جناب المستشار من ابتسامي فأراد أن يـوبخني بطريقة غير مباشرة فنظر فرأى طالبة تبتسم، فقال يجب أن تؤنبي هذه الطالبة على ضحكها بدون سبب لأن هـذا سـوء

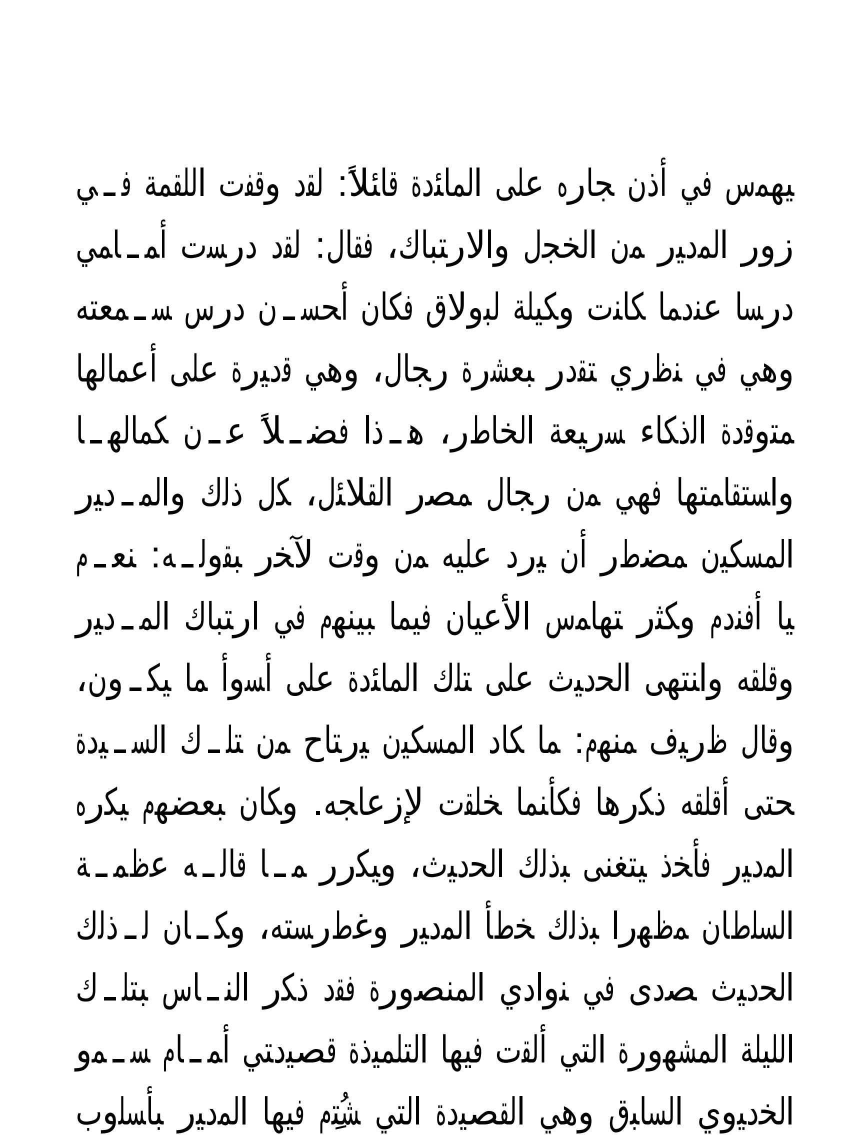
أدب منها، وفهمت ما أراده فأخـذت أوبـخ الطالبـة علـى ضحكها بلا سبب وأنا نفسي أضحك بلا سبب، وكان منظري أمام جناب المستشار مثيرا للاستغراق في الضحك فاضـطر المرحوم كيلاني بك أن يضحك عند خروجنا مـن الغرفـة فنظر إليه المستشار بحدة وقال له: (هل في وجهي أرجـوز يضحك؟) فزرر المرحوم جاكتته مرة أخرى وبعد أن سـار المستشار وسرنا في إثره قال لي همسا (وأنت ما أنت عماله تضحكي من الصبح؟). قلت: (الناس مقامات يا أفندم) دخلنـا بعد ذلك فصلاً آخر كان المعلم يلقي فيه درس إملاء فنظـر جنابه إلى كراسات الطالبات فوجدهن قد بيضـن الموضـع السابق فنظر إلي شذرا، وقال: لا أريد أن تبيض الطالبـات موضوعات الإملاء فهل سمعت؟ قلت: ولكني أريد ذلك لأن هذه الموضوعات الإملائية قطع أدبية مختارة أريد أن تقرأها التلميذات مرارا ولا سبيل إلى ذلك إلا بتبييضها، فهن يستفدن من ذلك فائدة مزدوجة فيتعلمن منها أدب اللغة ويعتدن حسن التنسيق في الكتابة، لأني أحتم عليهن العناية بتحسين الخـط في التبييض قال: ولكني لا أوافق على ذلك وأنـا مستشـار المعارف. قلت: نعم إنك مستشار المعارف، ولكن تلك الصفة

لا تؤهلك للتدخل في هذا فأنت أرقى منه، وعملك ينحصـر في أمرين: أن ترضى عن عملي فتبقيني فيـه، أو تسـخط فتمنعني منه، أما أن تقوم أنت بأعمال الناظرة فليس هذا من الحزم في شيء فنظر إلي في دهشة، ثم تحول عنـي إلـى الجانب الآخر من الغرفة وتبعه المرحوم كيلاني بك وقال له: يجب أن تقنعها بعدم تبييض الإملاء، ولم أشأ أن أرد عليـه في ذلك، وقد تفقد جميع غرف المدرسة فسر مـن نظافتهـا ونظامها وشد على يدي عند خروجه قائلاً: أهنئـك. وهكـذا كان الرجل عادلاً لا يغريه سلطانه. وفي اليوم الثاني جاءني المرحوم كيلاني بك وقال لي جئت لأقنعـك بعـدم تبيـيض الإملاء. قلت: إن الأمـر الـذي لـم يسـتطعه المستشـار لا يستطيعه أحد في الوزارة فلا تتعب نفسك فيما لا يجدي.



سوء حظ

نقلت: من مجلس مديرية الدقهلية فـي المنصـورة إلـى وزارة المعارف بعد أن وقع بيني وبين المدير حوادث مر بنا ذكرها، وقد زارني حضرة صاحب العظمـة المغفـور لـه السلطان حسين بمدرسة معلمات بولاق وأنا وكيلة لها فأيدني تأييدا عظيما كما مر بنا ذكـره، وكـان شـديد الثقـة بـي وبنجاحي، ثم زار بعد ذلك عواصم المديريات ومـن بينهـا المنصورة، وكانت حوادثي مع مديرها لا تزال ماثلـة أمـام أنظار أعيان الدقهلية ودعا سعادة المـدير الأعيـان لتنـاول العشاء مع عظمته، وقد جلس هو على يمين عظمتـه علـى مائدة العشاء وأخذ عظمته يروي قصتي ويقول إن المعارف أرادت غبني، وإن عظمته تشبث بترقيتي وعيننـي نـاظرة لمدرسة معلمات الورديان وإنني في نظره أكفأ نـاظرة، وإن أعمالي تسير على غاية ما يرام، وكان عظمته يقـول ذلـك وهو يتحدث إلى المدير فيضطر سعادة المدير أن يوافق على كلامه، وأن يقول له نعم يا أفندم هي كذلك، وأخـذ الأعيـان ينظر أحدهم إلى الآخر مندهشًا لما يسمع حتى كان أحـدهم



يهمس في أذن جاره على المائدة قائلاً: لقد وقفت اللقمة في زور المدير من الخجل والارتباك، فقال: لقد درست أمامي درسا عندما كانت وكيلة لبولاق فكان أحسن درس سمعته وهي في نظري تقدر بعشرة رجال، وهي قديرة على أعمالها متوقدة الذكاء سريعة الخاطر، هذا فضلاً عن كمالها واستقامتها فهي من رجال مصر القلائل، كل ذلك والمدير المسكين مضطر أن يرد عليه من وقت لآخر بقوله: نعم يا أفندم وكثر تهامس الأعيان فيما بينهم في ارتباك المدير وقلقه وانتهى الحديث على تلك المائدة على أسوأ ما يكون، وقال ظريف منهم: ما كاد المسكين يرتاح من تلك السيدة حتى أقلقه ذكرها فكأنما خلقت لإزعاجه. وكان بعضهم يكره المدير فأخذ يتغنى بذلك الحديث، ويكرر ما قاله عظمة السلطان مظهرا بذلك خطأ المدير وغطرسته، وكان لذاك الحديث صدى في نوادي المنصورة فقد ذكر الناس بتلك الليلة المشهورة التي ألقت فيها التلميذة قصيدتي أمام سمو الخديوي السابق وهي القصيدة التي شُتِم فيها المدير بأسلوب ملتو غريب لم يستطع معه إثبات الشتائم التي وجهت إليه،

والتي دلت عليها إشارات التلميذة، وهكذا كانت تلك الليلة من ليالي المدير السود.

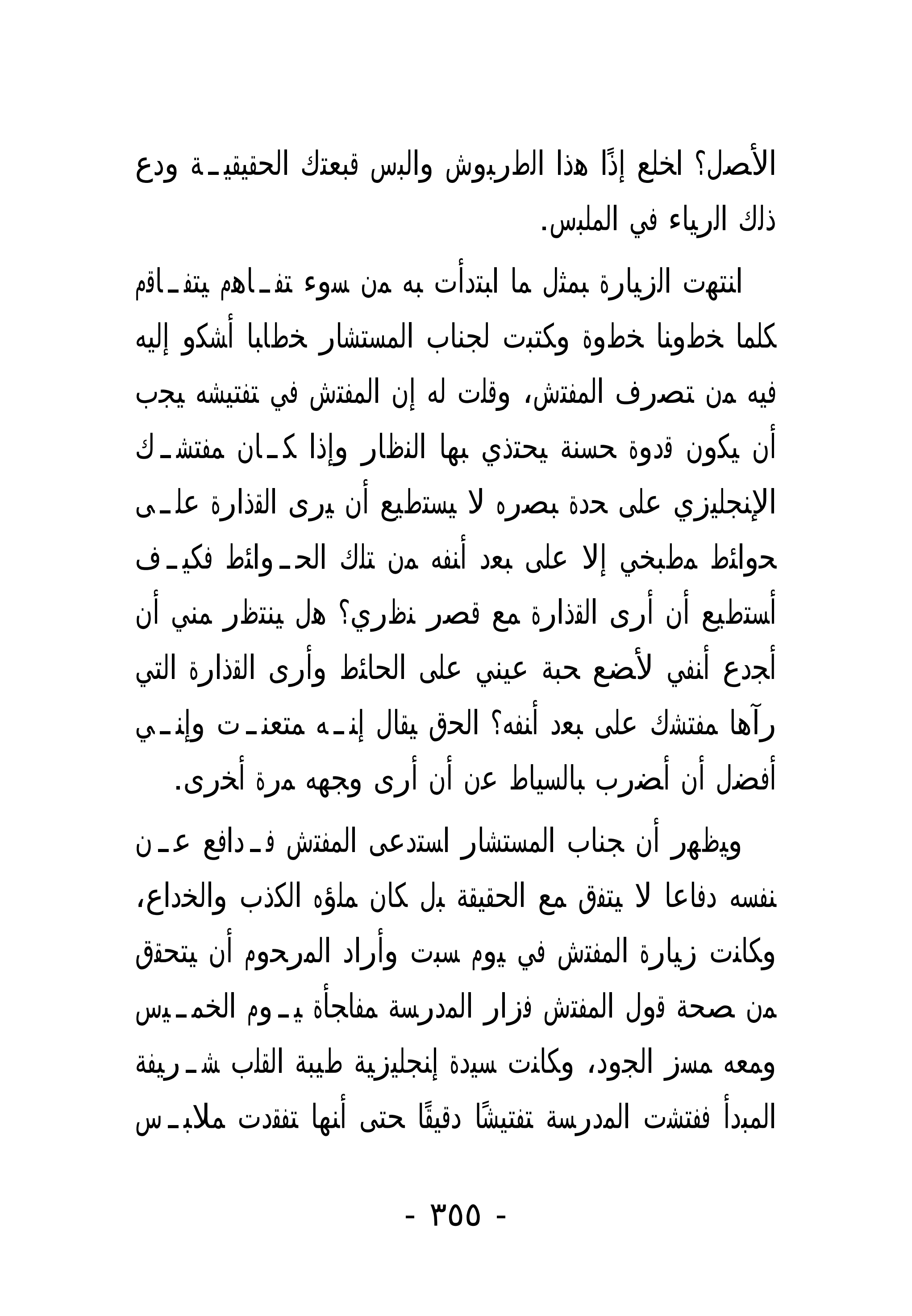
أما أنا فقد بليت في وزارة المعارف بأظلم من ذلك المدير وشاء سوء حظي أنا الأخرى أن يزورني في مدرستي مفتش إنجليزي كان مشـهورا بغطرسـته وحبـه للإسـاءة إلـى الموظفين، وكنت عند زيارته أتفقد طالبات مدرسة المعلمات في صفوف الصباح استعدادا لدخول الدروس، وكانت مدرسة المعلمات تقف في جانب من الفناء وتقف تلميـذات الملحـق أو المدرسة الأولية التابعة لها في الجانـب الآخـر، فوقـف المفتش بين المدرستين في وسط الفناء، ولم أكن رأيته فـي حياتي فلما انتهيت من تفقد طالبات مدرسة المعلمات واتجهت إلى جهة الملحق اعترضني هو في وسط الطريق فقال لـي بشدة دون أن يحييني: إنك متأخرة، فنظرت له بدهشة وقلت: ومن أنت أولاً؟! قال: أنا فلان المفتش بـوزارة المعـارف، قلت: إني أسير حسب ساعتي وساعة المدرسـة، قـال: إن ساعتك متأخرة، قلت: لا بأس، قلت ذلـك بعـد أن أوليتـه ظهري وسرت نحو صفوف الملحق، فاشتد غيظه وعز عليه ألا أقف لسماع تأنيبه، فقال لي بإشارة احتقار من سبابته: إني

أكلمك. قلت: أعلم ذلك، كما أعلم أن أمـامي تلميـذات قـد تأخرن عن ميعاد درسهن حسب رأيك، ولا بد أن أصـرفهن قبل أن أتفرغ لمحادثتك. قلت ذلك وأنا لا أزال في طريقـي وتفقدت تلميذات الملحق حسب عادتي، ثـم انصـرفن إلـى فرقهن وبقي هو واجما وسط الفناء.

وقد مررت به في طريقي إلى مكتبي فلـم ألتفـت إليـه فاضطر أن يتبعني وهو يقول أنا هنا يا سيدة نبويـة. قلـت: أعلم ذلك. قال: إنـي أريـد أن أزور المدرسـة. قلـت: إن المدرسة أمام جنابك تفعـل بهـا مـا تريـد. قـال: أود أن تصحبيني. قلت: حسنًا وسرت إلـى جانبـه فنظـرت إلـي متعجبا، وقال: أليس من العجيب أن تكون سـاعتك متـأخرة عن ساعتي؟ قلت: وما وجه العجب في ذلك وأنا لم أرك في حياتي، ولم أضبط ساعتي على ساعتك. وقال: ومـا الـذي ستفعلينه اليوم بعد أن علمت أن سـاعتك متـأخرة؟ قلـت: لا شيء أفرض أني لم أرك، وأسير حسب ساعتي إلـى أن تنتهي دروس الصباح، ثم أضبطها بعد ذلك لأني لو ضبطتها الآن لقل وقت الحصة الأولى خمس دقائق وهذا ما لا أريده، أما إذا سرت كما أنا فقد دخلت التلميذات الدرس بعد تـأخر

خمس دقائق، ثم ينتهين منه بعد تأخر خمس دقـائق أيضـا ولا ضرر في ذلك.

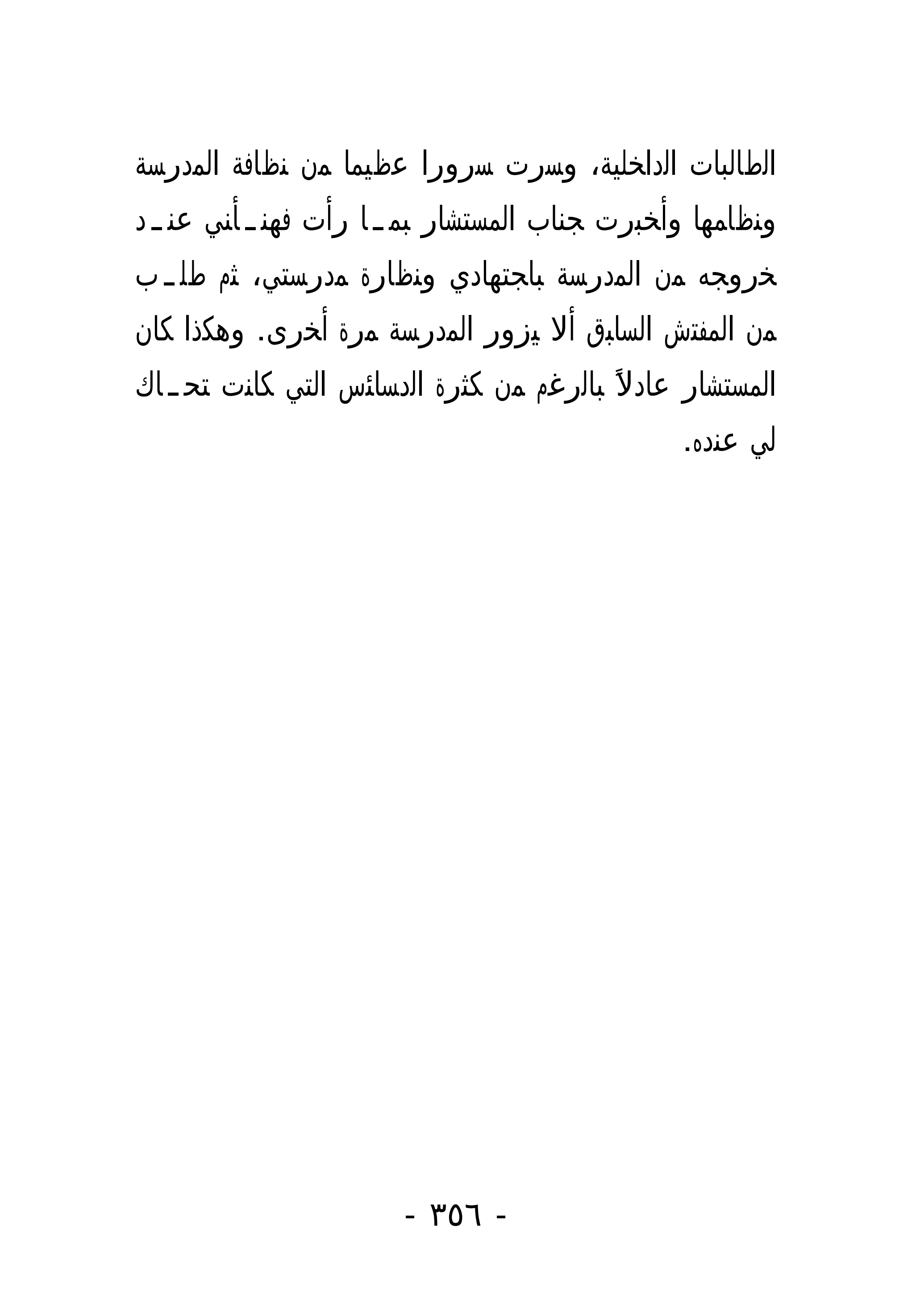
غاظه كلامي وأراد أن ينتقم مني فأراد أن يتفقـد نظافـة المدرسة قبل أن يتفقـد الـدروس لاعتقـاده أن المصـريين لا يعنون بالنظافة. ودخلنا مطبخ المدرسة فأدهشـته نظافتـه ووقف حائرا لا يدري ماذا يفعل، ثم تفقد كل شيء فيه بدقـة وأخيرا أخذ يشم حوائطه بأنفه، وكان الرجل طويل الأنـف، وقد ضايقني ذلك منه، فقلت له: أتريد يـا مسـتر فـلان أن تكنس حوائط مطبخي بأنفك، وهل إذا فعلت ذلك فـي كـل غرفة تدخلها أجد من وقتي متسعا للسـير معـك؟ إن لـدي أعمالاً أريد إنجازها فإلى اللقاء! قلت ذلك وتركتـه فتبعنـي مسرعا وهو يقول: تمهلي إنـي أريـد أن أزور المدرسـة بحضورك. فسرت معه وأخذ في أثناء سيره يقول لي بمناسبة أو بغير مناسبة: نحن الإنجليز، وكان يلبس طربوشًا مصريا فقلت له: وما بالك نحن المصريين ألسنا خلقًا مـثلكم؟ إنـك تلبس طربوشًا مصريا دلالة على أنـك موظـف مصـري أو على الأقل لتحمل الناظر إليك على الاعتقاد بأنك موظـف مصري فما بالك تذكرني من وقت لآخـر بأنـك إنجليـزي



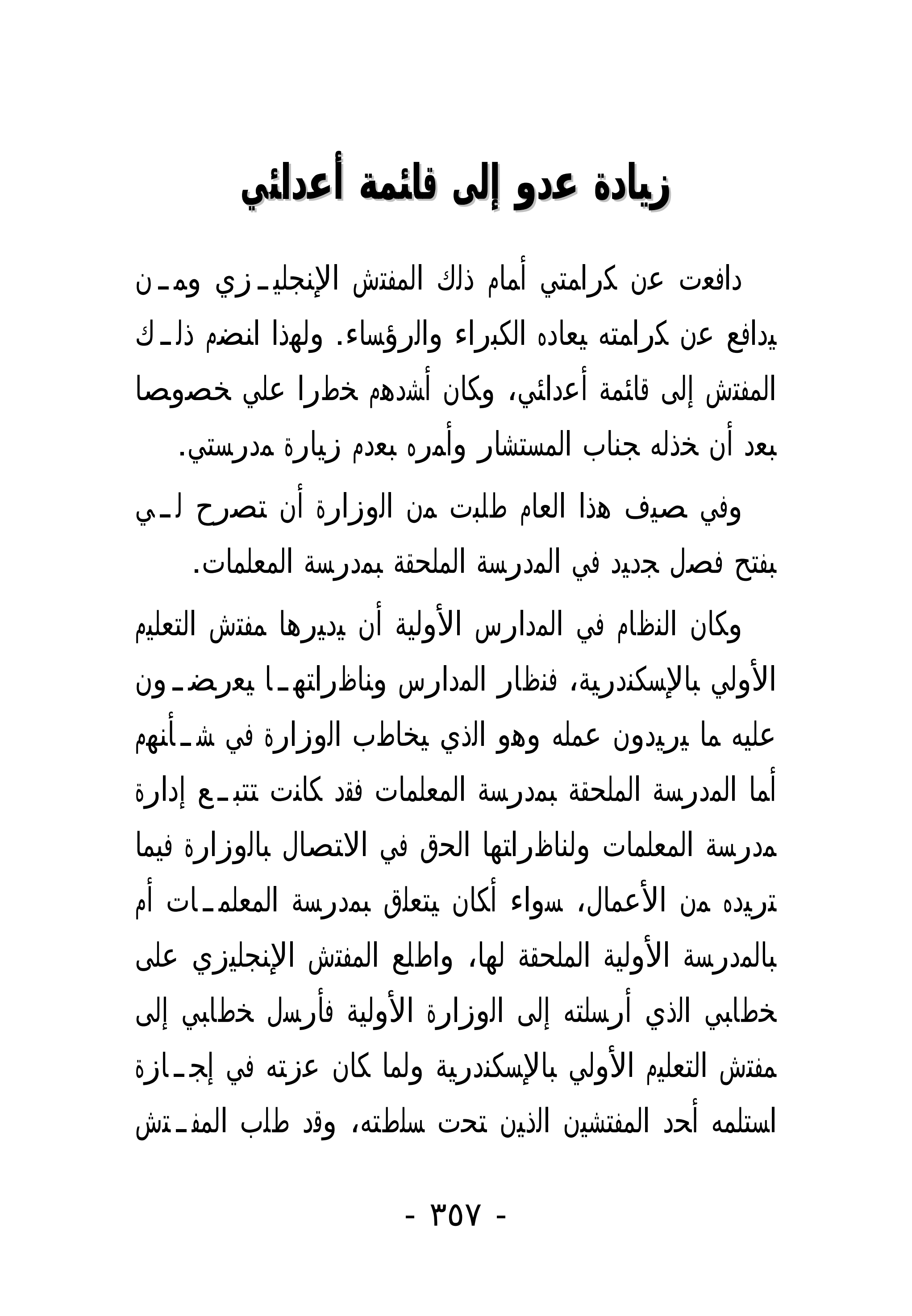
الأصل؟ اخلع إذًا هذا الطربوش والبس قبعتك الحقيقيـة ودع ذلك الرياء في الملبس.

انتهت الزيارة بمثل ما ابتدأت به من سوء تفـاهم يتفـاقم كلما خطونا خطوة وكتبت لجناب المستشار خطابا أشكو إليه فيه من تصرف المفتش، وقلت له إن المفتش في تفتيشه يجب أن يكون قدوة حسنة يحتذي بها النظار وإذا كـان مفتشـك الإنجليزي على حدة بصره لا يستطيع أن يرى القذارة علـى حوائط مطبخي إلا على بعد أنفه من تلك الحـوائط فكيـف أستطيع أن أرى القذارة مع قصر نظري؟ هل ينتظر مني أن أجدع أنفي لأضع حبة عيني على الحائط وأرى القذارة التي رآها مفتشك على بعد أنفه؟ الحق يقال إنـه متعنـت وإنـي أفضل أن أضرب بالسياط عن أن أرى وجهه مرة أخرى.

ويظهر أن جناب المستشار استدعى المفتش فـدافع عـن نفسه دفاعا لا يتفق مع الحقيقة بل كان ملؤه الكذب والخداع، وكانت زيارة المفتش في يوم سبت وأراد المرحوم أن يتحقق من صحة قول المفتش فزار المدرسة مفاجأة يـوم الخمـيس ومعه مسز الجود، وكانت سيدة إنجليزية طيبة القلب شـريفة المبدأ ففتشت المدرسة تفتيشًا دقيقًا حتى أنها تفقدت ملابـس



الطالبات الداخلية، وسرت سرورا عظيما من نظافة المدرسة ونظامها وأخبرت جناب المستشار بمـا رأت فهنـأني عنـد خروجه من المدرسة باجتهادي ونظارة مدرستي، ثم طلـب من المفتش السابق ألا يزور المدرسة مرة أخرى. وهكذا كان المستشار عادلاً بالرغم من كثرة الدسائس التي كانت تحـاك لي عنده.

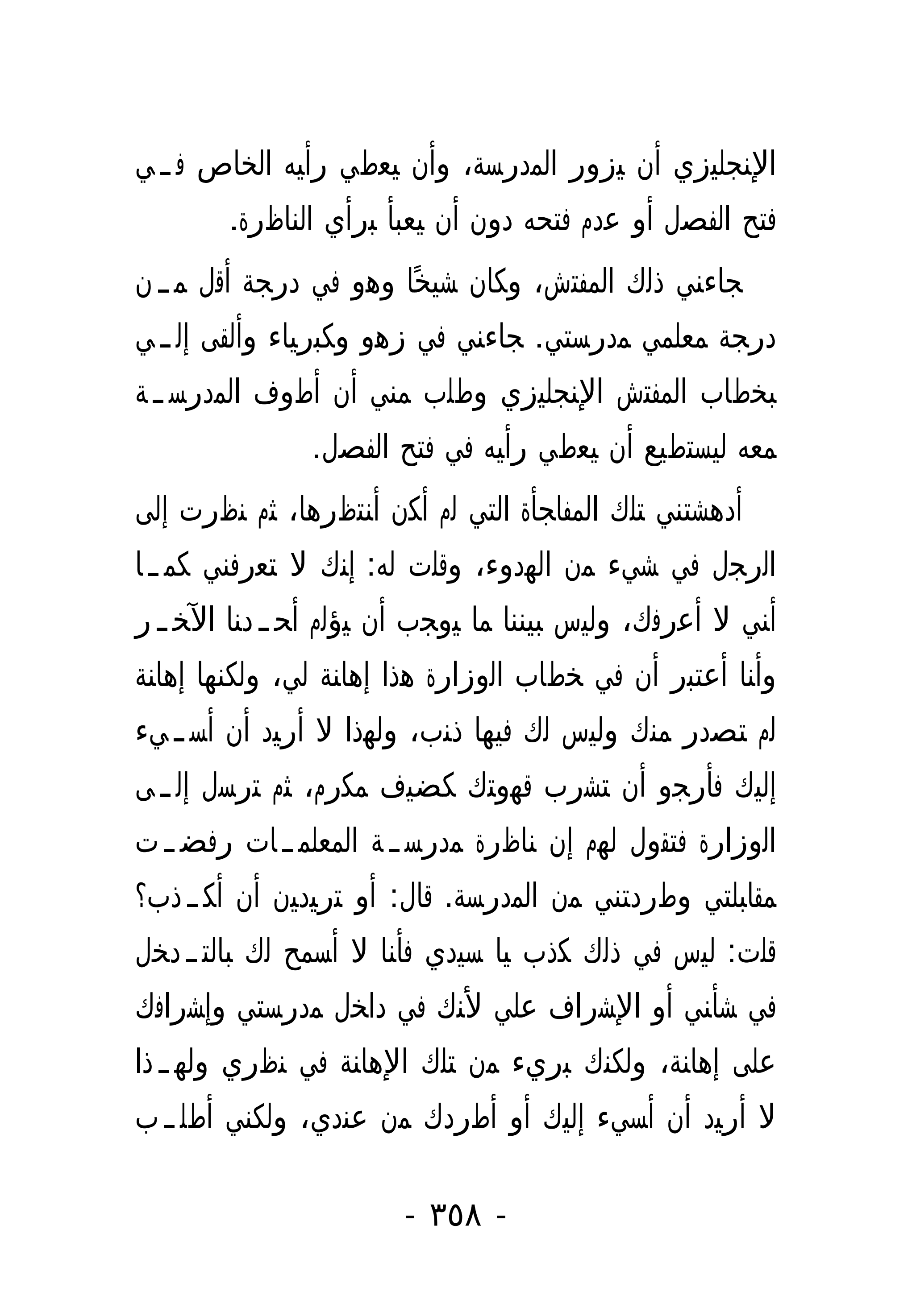


زيادة عدو إلى قائمة أعدائي

دافعت عن كرامتي أمام ذلك المفتش الإنجليـزي ومـن يدافع عن كرامته يعاده الكبراء والرؤساء. ولهذا انضم ذلـك المفتش إلى قائمة أعدائي، وكان أشدهم خطرا علي خصوصا بعد أن خذله جناب المستشار وأمره بعدم زيارة مدرستي.

وفي صيف هذا العام طلبت من الوزارة أن تصرح لـي بفتح فصل جديد في المدرسة الملحقة بمدرسة المعلمات.

وكان النظام في المدارس الأولية أن يديرها مفتش التعليم الأولي بالإسكندرية، فنظار المدارس وناظراتهـا يعرضـون عليه ما يريدون عمله وهو الذي يخاطب الوزارة في شـأنهم أما المدرسة الملحقة بمدرسة المعلمات فقد كانت تتبـع إدارة مدرسة المعلمات ولناظراتها الحق في الاتصال بالوزارة فيما تريده من الأعمال، سواء أكان يتعلق بمدرسة المعلمـات أم بالمدرسة الأولية الملحقة لها، واطلع المفتش الإنجليزي على خطابي الذي أرسلته إلى الوزارة الأولية فأرسل خطابي إلى مفتش التعليم الأولي بالإسكندرية ولما كان عزته في إجـازة استلمه أحد المفتشين الذين تحت سلطته، وقد طلب المفـتش


الإنجليزي أن يزور المدرسة، وأن يعطي رأيه الخاص في فتح الفصل أو عدم فتحه دون أن يعبأ برأي الناظرة.

جاءني ذلك المفتش، وكان شيخًا وهو في درجة أقل من درجة معلمي مدرستي. جاءني في زهو وكبرياء وألقى إلي بخطاب المفتش الإنجليزي وطلب مني أن أطوف المدرسة معه ليستطيع أن يعطي رأيه في فتح الفصل.

أدهشتني تلك المفاجأة التي لم أكن أنتظرها، ثم نظرت إلى الرجل في شيء من الهدوء، وقلت له: إنك لا تعرفني كما أني لا أعرفك، وليس بيننا ما يوجب أن يؤلم أحدنا الآخر وأنا أعتبر أن في خطاب الوزارة هذا إهانة لي، ولكنها إهانة لم تصدر منك وليس لك فيها ذنب، ولهذا لا أريد أن أسيء إليك فأرجو أن تشرب قهوتك كضيف مكرم، ثم ترسل إلى الوزارة فتقول لهم إن ناظرة مدرسة المعلمات رفضت مقابلتي وطردتني من المدرسة. قال: أو تريدين أن أكذب؟ قلت: ليس في ذلك كذب يا سيدي فأنا لا أسمح لك بالتدخل في شأني أو الإشراف علي لأنك في داخل مدرستي وإشرافك على إهانة، ولكنك بريء من تلك الإهانة في نظري ولهذا لا أريد أن أسيء إليك أو أطردك من عندي، ولكني أطلب

منك أن تخبرهم أنني فعلت ذلك وغرضي من هذا أن أهينهم على سوء تصرفهم.

قال لا أستطيع أن أدعي ما لم يحصل قلت: حسـن. ثـم استدعيت الخادم وقلت له أخرج هذا الشيخ من هنـا، وكـان الخادم قد سبق له التوظيف في المدارس الأولية ويعلم ما لهذا الشيخ من سلطة على ناظراتها، والخادم لا يعرف الفرق بين ناظرة المعلمات وناظرة المدرسة الأولية ولهذا وقف مندهشًا ينظر إلي في حيرة فقلت بغضب: قلت لك أخرج ذلك الشيخ وإلا فصلت من هنا، وعند ذلك قـام الشـيخ وقـال: كفـى سأذهب، ولكني أخشى أن يضـر ذلـك بمسـتقبلك، قلـت: لا تخف شيئًا فأنا إذا خرجت من هذه المدرسة سأجد عمـلاً في غيرها، لأني أستطيع أن أفتح مشغلاً للخياطة أو ما شاكل ذلك. ويجب أن تنظر أنت إلى مسـتقبلك فأنـت إذا تركـت الوزارة لا أظنك تجد عملاً في غير مقاري المدافن.

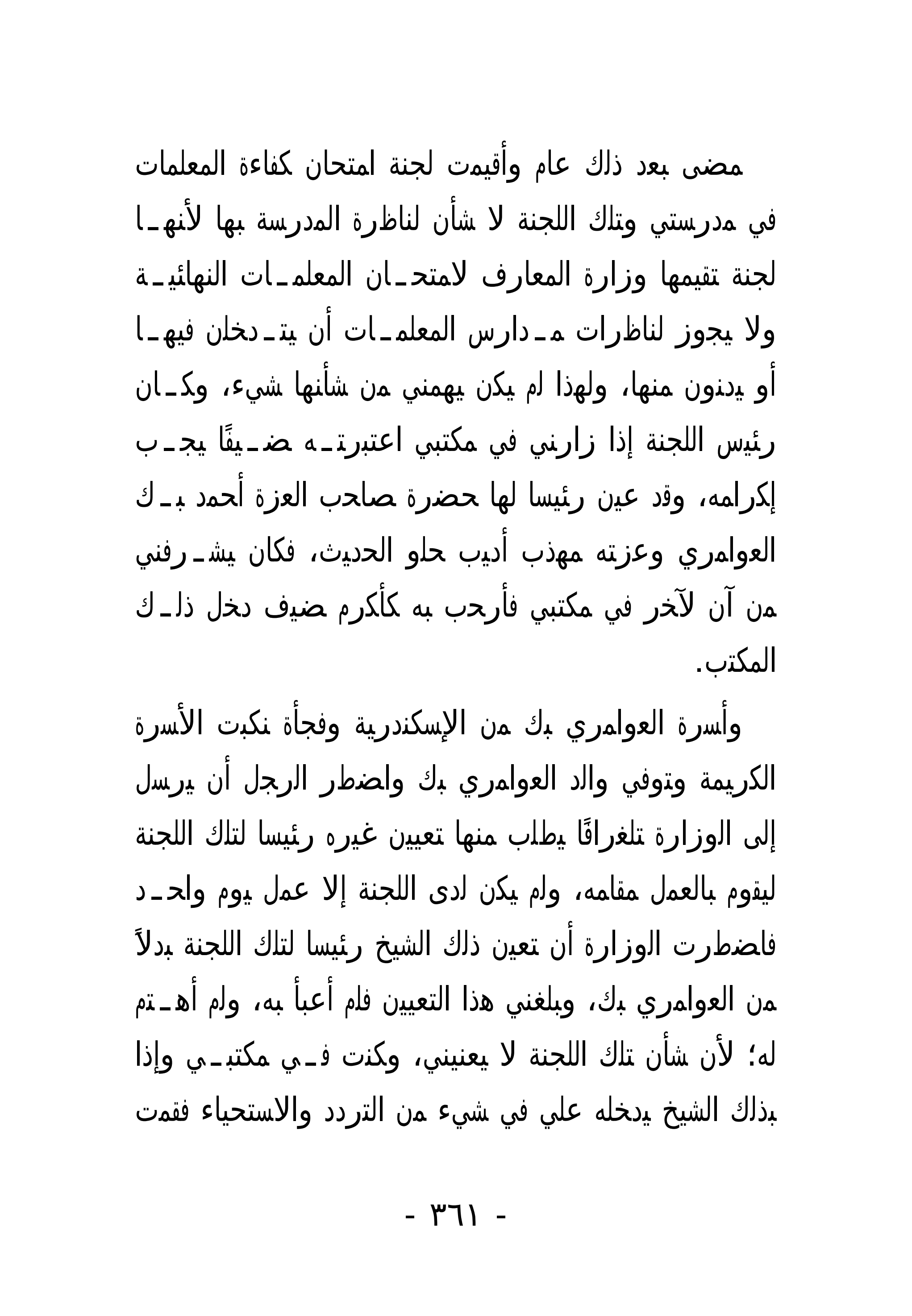
قال: وما أقول لهم إذًا؟ قلت: سبحان ا العظيم يا رجل! قل لهم: الناظرة طردتني، ولم تقبل مني شيئًا فخرج وكتـب إلى الوزارة خطابا عجيبا كان الغزل أقرب منه إلى الشكوى إذ قال في خطابه ذلك، ذهبت إلى ناظرة مدرسة المعلمـات

وما زلت ألين لها فتشتد، وأدنو فتبعد، وأستميلها فتنفر، وأحنو فتقسو. وهكذا من تلك المقابلات اللغوية الظريفة وأخيرا قال في آخر خطابه: ثم قلت لها ماذا أقول للوزارة قالت: (يا رجل قل لهم الناظرة طردتني).

كان هذا الخطاب حديث كتبة الوزارة مدة شهر يجعلون منه سمرا حلوا للتفكه، وكان جناب المستشار مسافرا في إنجلترا لتمضية إجازته الصيفية فلم يستطيعوا أن يعملوا لي شيئًا.

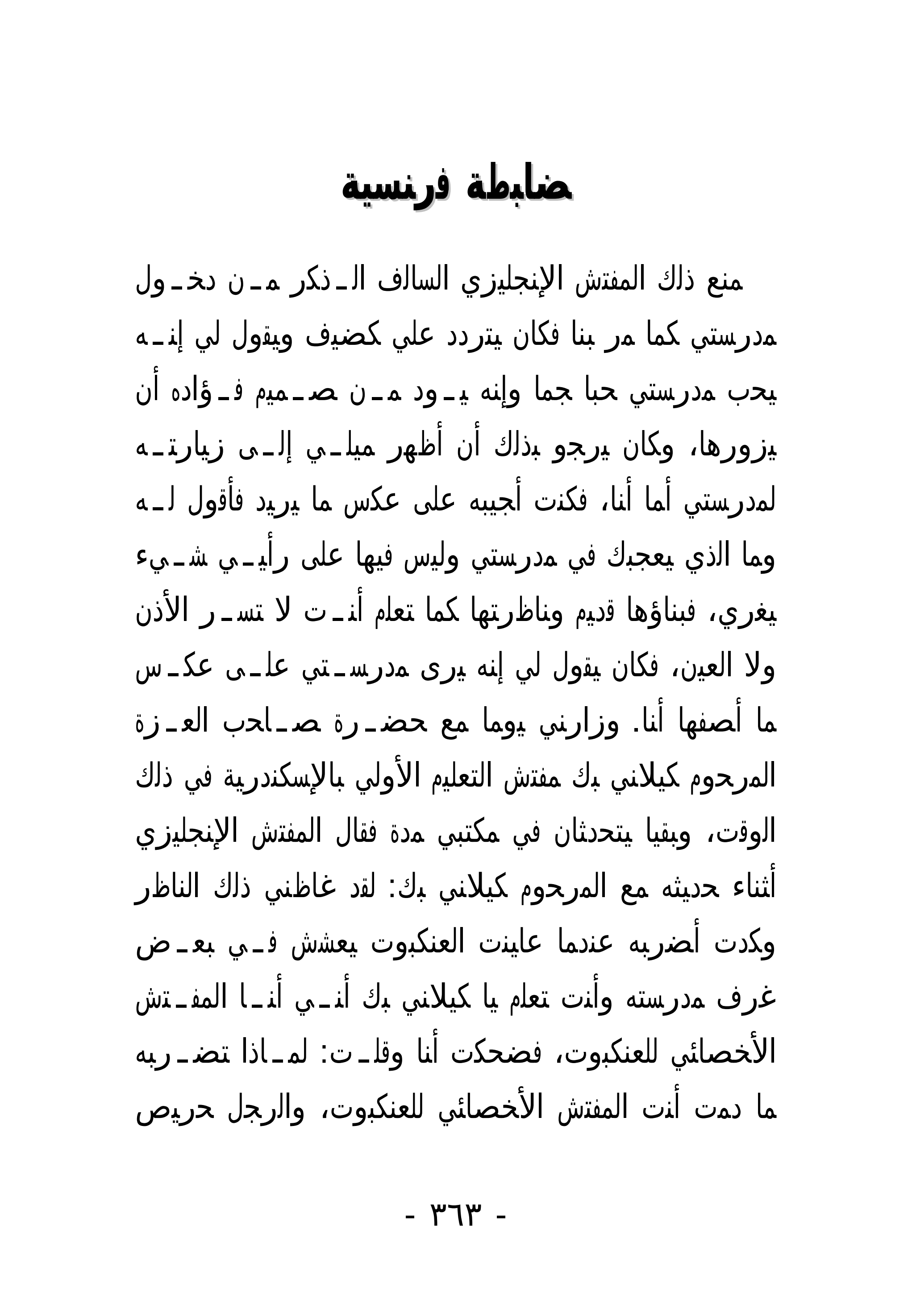
فلما عاد من إجازته عرض عليه الخطاب وعرف منه أنه انتقام من ذلك المفتش فاستدعاه وقال: لو ذهب المفتش إلى مس مورسن ناظرة مدرسة معلمات بولاق فماذا كانت تصنع معه؟ قال لا شك أنها كانت تطرده، قال المستشار: إذًا نبوية على حق في طرده. وكتب على الخطاب بالحفظ.

وعرض بعد ذلك على الوزير، وكان المغفور له عدلي باشا يكن فقال مبتسما عندما قرأ خطاب المفتش (ا يخيبه يعني ملقاش يتغزل إلا في نبوية موسى؟)، ثم أشر عليه بالحبر بالحفظ.


مضى بعد ذلك عام وأقيمت لجنة امتحان كفاءة المعلمات في مدرستي وتلك اللجنة لا شأن لناظرة المدرسة بها لأنهـا لجنة تقيمها وزارة المعارف لامتحـان المعلمـات النهائيـة ولا يجوز لناظرات مـدارس المعلمـات أن يتـدخلن فيهـا أو يدنون منها، ولهذا لم يكن يهمني من شأنها شيء، وكـان رئيس اللجنة إذا زارني في مكتبي اعتبرتـه ضـيفًا يجـب إكرامه، وقد عين رئيسا لها حضرة صاحب العزة أحمد بـك العوامري وعزته مهذب أديب حلو الحديث، فكان يشـرفني من آن لآخر في مكتبي فأرحب به كأكرم ضيف دخل ذلـك المكتب.

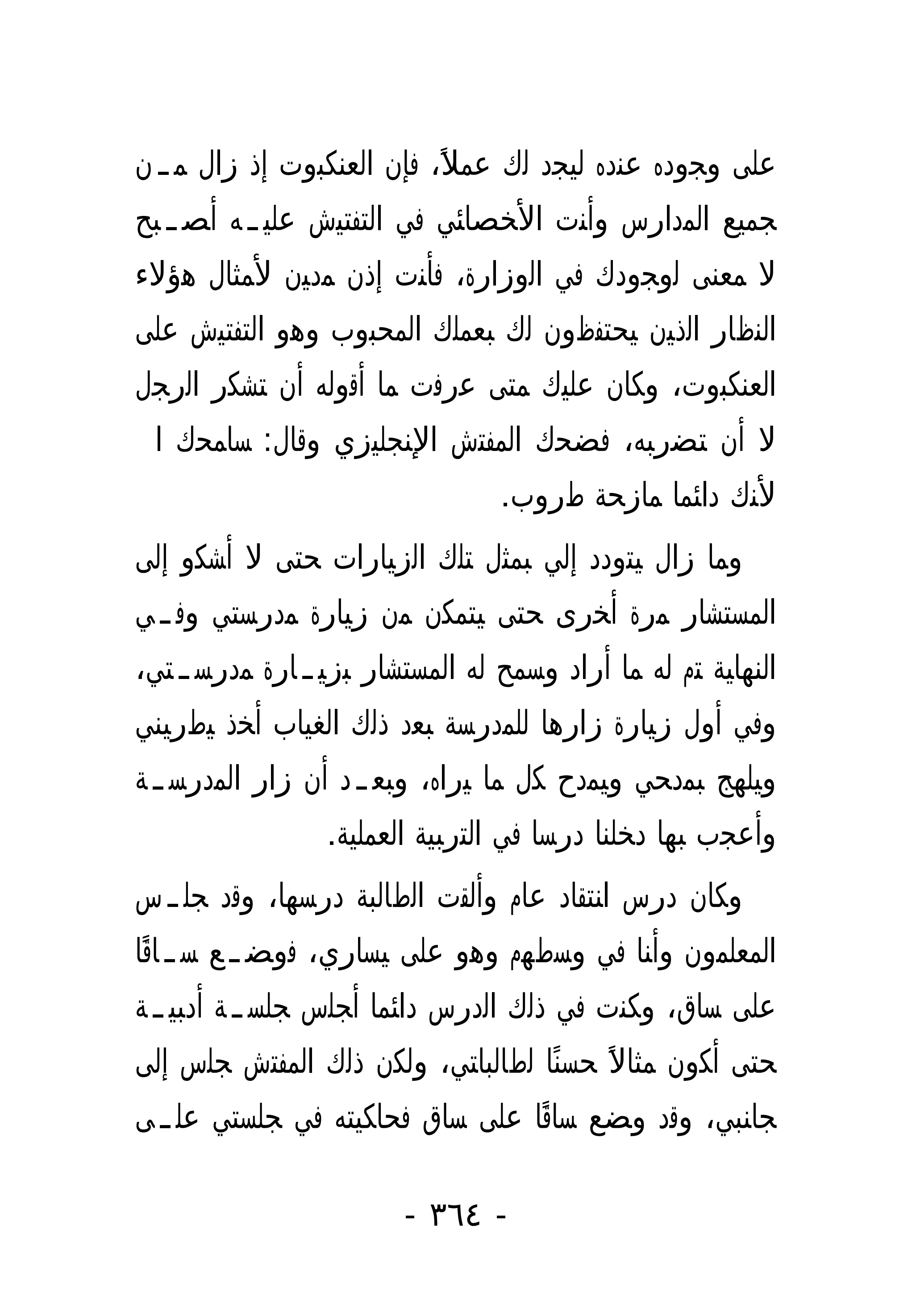
وأسرة العوامري بك من الإسكندرية وفجأة نكبت الأسرة الكريمة وتوفي والد العوامري بك واضطر الرجل أن يرسل إلى الوزارة تلغرافًا يطلب منها تعيين غيره رئيسا لتلك اللجنة ليقوم بالعمل مقامه، ولم يكن لدى اللجنة إلا عمل يوم واحـد فاضطرت الوزارة أن تعين ذلك الشيخ رئيسا لتلك اللجنة بدلاً من العوامري بك، وبلغني هذا التعيين فلم أعبأ به، ولم أهـتم له؛ لأن شأن تلك اللجنة لا يعنيني، وكنت فـي مكتبـي وإذا بذلك الشيخ يدخله علي في شيء من التردد والاستحياء فقمت

له ورحبت به لأني أعتبره ضيفًا، ودهش هو لذلك التغيير في مقابلتي وجلس صامتًا، ثم قال بصوت خافت كأنـه يحـدث نفسه (وا   عدية يسين سرها باتع). قلت: وكيف ظهر لـك هذا السر؟ قال في مقابلتك لي لأني لما عينت في تلك اللجنة خشيت أن تقابليني بمقابلتك السابقة، فبت طول الليـل أقـرأ عدية يسين رجاء أن يهديك ا   لي. فضحكت وقلت: لا شأن للعدية فيما ترى من تغيري فالفرق بعيد بين الموقفين؛ لأنـك في موقفك الأول كنت تنفذ إهانة أرادت الوزارة أن توجههـا إلي، أما اليوم فأنت رئيس لجنة لا علاقة لي بها فإذا دخلـت مكتبي فأنت ضيف يجب علي إكرامك والترحيب بمقـدمك، وهكذا فعلت، أما عدية يسين فلا شأن لها على ما أعلم فـي تصرفي هذا فسر الرجل وبقي طيلة يومه يتردد على مكتبي في تناول القهوة.



ضابطة فرنسية

منع ذلك المفتش الإنجليزي السالف الـذكر مـن دخـول مدرستي كما مر بنا فكان يتردد علي كضيف ويقول لي إنـه يحب مدرستي حبا جما وإنه يـود مـن صـميم فـؤاده أن يزورها، وكان يرجو بذلك أن أظهر ميلـي إلـى زيارتـه لمدرستي أما أنا، فكنت أجيبه على عكس ما يريد فأقول لـه وما الذي يعجبك في مدرستي وليس فيها على رأيـي شـيء يغري، فبناؤها قديم وناظرتها كما تعلم أنـت لا تسـر الأذن ولا العين، فكان يقول لي إنه يرى مدرسـتي علـى عكـس ما أصفها أنا. وزارني يوما مع حضـرة صـاحب العـزة المرحوم كيلاني بك مفتش التعليم الأولي بالإسكندرية في ذلك الوقت، وبقيا يتحدثان في مكتبي مدة فقال المفتش الإنجليزي أثناء حديثه مع المرحوم كيلاني بك: لقد غاظني ذلك الناظر وكدت أضربه عندما عاينت العنكبوت يعشش فـي بعـض غرف مدرسته وأنت تعلم يا كيلاني بك أنـي أنـا المفـتش الأخصائي للعنكبوت، فضحكت أنا وقلـت: لمـاذا تضـربه ما دمت أنت المفتش الأخصائي للعنكبوت، والرجل حريص



على وجوده عنده ليجد لك عملاً، فإن العنكبوت إذ زال من جميع المدارس وأنت الأخصائي في التفتيش عليه أصبح لا معنى لوجودك في الوزارة، فأنت إذن مدين لأمثال هؤلاء النظار الذين يحتفظون لك بعملك المحبوب وهو التفتيش على العنكبوت، وكان عليك متى عرفت ما أقوله أن تشكر الرجل لا أن تضربه، فضحك المفتش الإنجليزي وقال: سامحك ا لأنك دائما مازحة طروب.

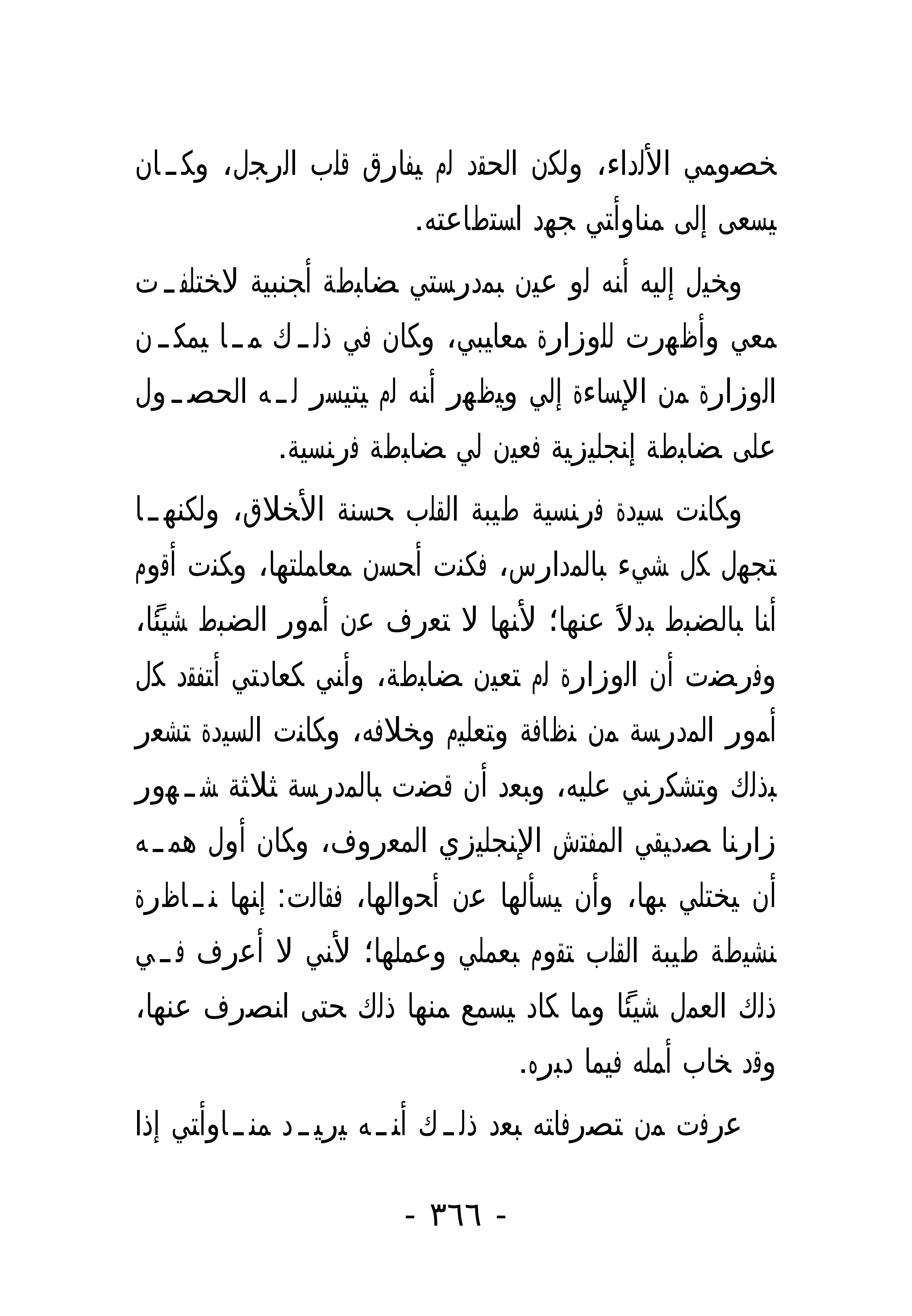
وما زال يتودد إلي بمثل تلك الزيارات حتى لا أشكو إلى المستشار مرة أخرى حتى يتمكن من زيارة مدرستي وفي النهاية تم له ما أراد وسمح له المستشار بزيارة مدرستي، وفي أول زيارة زارها للمدرسة بعد ذلك الغياب أخذ يطريني ويلهج بمدحي ويمدح كل ما يراه، وبعد أن زار المدرسة وأعجب بها دخلنا درسا في التربية العملية.

وكان درس انتقاد عام وألقت الطالبة درسها، وقد جلس المعلمون وأنا في وسطهم وهو على يساري، فوضع ساقًا على ساق، وكنت في ذلك الدرس دائما أجلس جلسة أدبية حتى أكون مثالاً حسنًا لطالباتي، ولكن ذلك المفتش جلس إلى جانبي، وقد وضع ساقًا على ساق فحاكيته في جلستي على

كره مني لذلك وأردت بذلك أن ألفته إلى ما يجب عليه في آداب الجلوس.

وفجأة اعتدل في جلسته ورفع ساقه من على الآخر وجلس في أدب واحتشام وعدت أنا إلى جلستي المعتادة فلما انتهى الدرس سألت التلميذات كعادتي واحدة بعد أخرى عن رأيهم في الدرس، ثم انتقلت: إلى سؤال المعلمين، وكان المعلمون قد اعتادوا أن يجيبوا على أسئلتي وهم جلوس فلما سألت أحدهم أمام المفتش وقف للإجابة فامتعضت، وقلت له: لقد اعتدت يا فلان أن تجيب على الأسئلة وأنت جالس، فما الذي حدا بك إلى الوقوف وتغيير ما اعتدناه، مع أني أريد دائما أن تكون دروسنا في حضور المفتشين أو في غير حضورهم على حالتها العادية لا تغيير فيها؟ قال: لقد رأيت ذلك أبلغ في تأدية ما أريد من المعاني، قلت: حسنًا فعليكم إذن أن تتبعوه من الآن.

وبعد أن انتهيت من سؤال المعلمين سألت المفتش وأدهشني أن وقف وأجاب، ولكن لم يقف ليجيب على سؤالي فحسب بل وقف ليطريني ويطري مدرستي أمام الطالبات، ويقول إن هذا الدرس أفضل درس رآه في حياته من دروس النقد العام في التربية العملية. وهكذا اصطلحت مع أحد



خصومي الأداء، ولكن الحقد لم يفارق قلب الرجل، وكان يسعى إلى مناوأتي جهد استطاعته.

وخيل إليه أنه لو عين بمدرستي ضابطة أجنبية لاختلفت معي وأظهرت للوزارة معايبي، وكان في ذلك ما يمكن الوزارة من الإساءة إلي ويظهر أنه لم يتيسر له الحصول على ضابطة إنجليزية فعين لي ضابطة فرنسية.

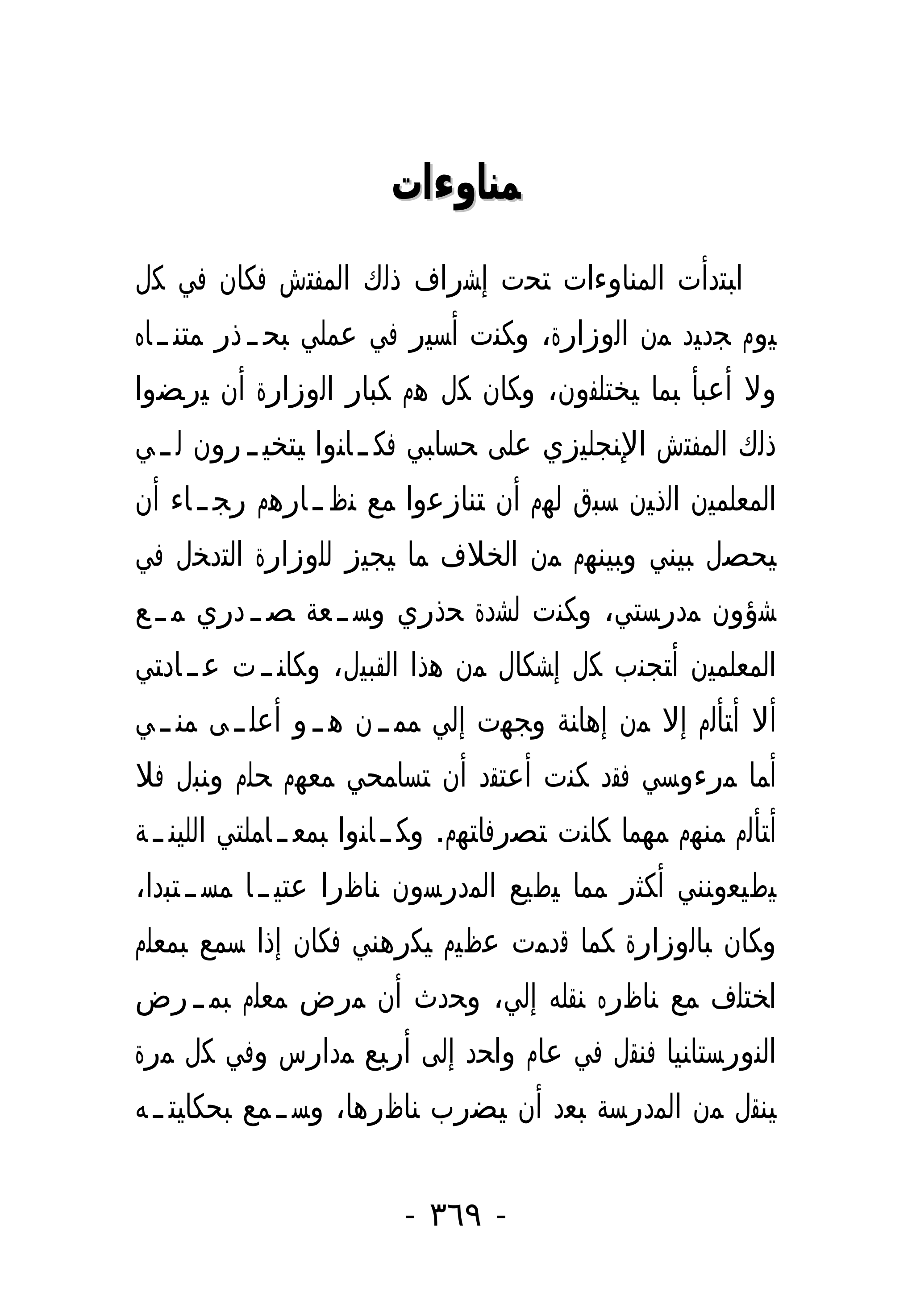
وكانت سيدة فرنسية طيبة القلب حسنة الأخلاق، ولكنها تجهل كل شيء بالمدارس، فكنت أحسن معاملتها، وكنت أقوم أنا بالضبط بدلاً عنها؛ لأنها لا تعرف عن أمور الضبط شيئًا، وفرضت أن الوزارة لم تعين ضابطة، وأني كعادتي أتفقد كل أمور المدرسة من نظافة وتعليم وخلافه، وكانت السيدة تشعر بذلك وتشكرني عليه، وبعد أن قضت بالمدرسة ثلاثة شهور زارنا صديقي المفتش الإنجليزي المعروف، وكان أول همه أن يختلي بها، وأن يسألها عن أحوالها، فقالت: إنها ناظرة نشيطة طيبة القلب تقوم بعملي وعملها؛ لأني لا أعرف في ذلك العمل شيئًا وما كاد يسمع منها ذلك حتى انصرف عنها، وقد خاب أمله فيما دبره.

عرفت من تصرفاته بعد ذلك أنه يريد مناوأتي إذا

استطاع، فكنت لا أعبأ به، وشاء له الطمع وحب المـال أن يؤلف كتاب مطالعة لمدارس المعلمات الأولية باللغة العربية، وكنت غير راضية عن هذا الكتاب، وإن كان قد استعان في تأليفه ببعض المصريين أو المشايخ، ولكن عبارات الكتـاب أقرب إلى اللغة الإنجليزية منها إلى اللغة العربيـة، ودخـل يوما درسا من دروس المطالعة فسألني في شيء من الزهـو عن رأيي في كتابه، وكان يعتقد أني سأمدحه وأطريه، فدهش عندما أجبته: إنه ليس بكتاب عربي، قال: كيف ذلك فأشرت إلى جملة فيه ابتدأها بقوله: أنا أتكلم، أو ما شبه ذلك. فأشرت إليها وقلت: ليس هذا بالأسلوب العربي الصحيح فغاظه ذلـك وقال للأستاذ المعلم، وكان من دار العلوم ولا يعرف شيئًا في اللغة الإنجليزية: أفي هذه الجملة خطأ يا أستاذ وأشار إليهـا. قال الأستاذ: لا، فقلت: إنك تقول: لا، على أنه لم ينصب في تلك الجملة الفاعل، ولم يرفع المفعول، ولكن هل هذا الوضع من اللغة العربية في شيء، فخجل الرجـل وعـرف أنـي أعارض في مدح الكتاب، وقال في همس: لم أكـن أعـرف أنكما تتناقشان في ذلك.

ودخل مرة علي أستاذ من دار العلوم كان متين الأخـلاق

كثير الفضائل فلم يعجبه، وقال إنه قديم في أسلوبه لأنـه لـم يتبع الإرشادات التي وضعتها الوزارة في تعليم الإملاء مـن كتابة الكلمة الجديدة على السبورة قبل الابتـداء فـي درس الإملاء. قلت: إن ذلك لا يتناسب واللغة العربية. قال: إنـي من المستشرقين. قلت: نعم، أما أنا فمن العرب ولا يعـرف المستشرقين في لغتنا ما نعـرف نحـن مـن أن إملاءكـم لا ضابط له، فرائدنا فيها النظر والسماع وضربت له مـثلاً بكلمات كثيرة تنطق بغير ما تكتـب بـه، أو تنطـق نطقًـا لا يتناسب مع كتابتها أما في اللغة العربية فإملاؤنـا قيـاس تضبطه القواعد فإذا نحن كتبنا على السبورة كلمة "نـداءكم" وهي مفتوحة أوهمنا الطلبة أن كلمة نـداء بعـدها حـرف أو حرفان تكتب مفردة رغم أننا لو قرأناها بالضمة لكانـت "نداؤكم" بالواو، ولو قرأناها بالكسرة لكانت "نـدائكم" باليـاء فليس لنا بعد هذا أن نقول في إملائنا أن نذكر التلميذ بقواعد الإملاء التي قاعدة فيها، وأن نأمر بأن يتبين النطق ليكتـب الكلمة صحيحة، واضطر المستشرق أخيرا أن يوافقني علـى هذا الرأي، وأن يعترف أن ما كتبه من الإرشادات لمعلمـي اللغة العربية كان خطأ.



مناوءات

ابتدأت المناوءات تحت إشراف ذلك المفتش فكان في كل يوم جديد من الوزارة، وكنت أسير في عملي بحذر متناه ولا أعبأ بما يختلفون، وكان كل هم كبار الوزارة أن يرضوا ذلك المفتش الإنجليزي على حسابي فكانوا يتخيرون لي المعلمين الذين سبق لهم أن تنازعوا مع نظارهم رجاء أن يحصل بيني وبينهم من الخلاف ما يجيز للوزارة التدخل في شؤون مدرستي، وكنت لشدة حذري وسعة صدري مع المعلمين أتجنب كل إشكال من هذا القبيل، وكانت عادتي ألا أتألم إلا من إهانة وجهت إلي ممن هو أعلى مني أما مرءوسي فقد كنت أعتقد أن تسامحي معهم حلم ونبل فلا أتألم منهم مهما كانت تصرفاتهم. وكانوا بمعاملتي اللينة يطيعونني أكثر مما يطيع المدرسون ناظرا عتيا مستبدا، وكان بالوزارة كما قدمت عظيم يكرهني فكان إذا سمع بمعلم اختلاف مع ناظره نقله إلي، وحدث أن مرض معلم بمرض النورستانيا فنقل في عام واحد إلى أربع مدارس وفي كل مرة ينقل من المدرسة بعد أن يضرب ناظرها، وسمع بحكايته

ذلك العظيم فسر سرورا يتناسب مع عظمته وأمر بنقله إلـى مدرستي بالإسكندرية.

نقل هذا المدرس إلي فجأة دون صفارة إنذار فدخل مكتبي لأول مرة وأخذ يشكو من الوزارة ويتململ لأنها نقلتـه فـي عام واحد خمس مرات، وقال إنه أتى وحده وترك أسرته في القاهرة خشية أن تنقله الوزارة للمرة السادسة، فطيبت خاطره وقلت: إنه من المنظور ألا تنقل وإني أنا شخصـيا سـررت بنقلك وإني سأعمل كل ما يرضيك. قال نحن في الوديان، أي في بقعة نائية بعيدة عن السوق، ولا أدري كيف أتدبر غدائي اليوم. قلت: لا بأس. يمكنك أن تدفع ثمـن الغـداء للمتعهـد وتصرفه لك المدرسة من اليوم. قال، ولكنك لـم تسـتأذني الوزارة في ذلك، وكان قانون المدارس يقضي بأن يسـتأذن الناظر الوزارة في السماح للمعلمين بالغـداء بالمدرسـة إذا طلبوا ذلك، على شرط أن يدفعوا الثمن. قلت: لا بأس فـإن الوزارة قد سمحت لزملائك بالأكل، ولا شك أنها ستسمح لك به، ولا غبار على عملنا إذا نحن صرفنا لك الأكل من اليوم إلى أن يأتينا تصريح الوزارة ما دمت أنت مضطرا إلى ذلك لبعد أسرتك عن المدينة فشكرني وخرج، ولكني لاحظت أنه

غير عادي، وأن عينيه حمراوان فتخوفت منه. وقد شاء سوء الحظ أو حسنه أن أنسى مسألة غدائه فلم أتكلم مع المتعهد في شأنها، ولم أتذكرها إلا بعد أن دق جرس الغداء وهنا خشيت إذا لم يرسل إليه غداؤه أن يثور وهو الحمد ثائر من نفسه، خشيت مغبة غضبه فلم أر أمامي إلا أن أصرف له الغداء من منزلي، فأمرت الخادم أن تحضر غداءه من منزلي الخاص، وما كادت تقدم الأكل إليه حتى ثار وتهيج، وقال: كيف استطعت واستطاعت ناظرتك سرقة هذا الأكل من المدرسة بدون إذن الوزارة، ثار على المرأة حتى كاد يضربها فهرعت إلي ملتاعة، وقصت على قصتها، فذهبت لأرى الخبر بنفسي فرأيته ثائرا متهيجا يسب ويشتم في مدرسة تسرق أكل الوزارة علانية، وما كاد يقع بصره علي حتى قال: لا بد من أن أقتادك إلى النيابة.

فقلت: في هدوء. ولم ذلك يا سيدي؟

قال: لأنك سرقت لي أكل الحكومة بدون إذنها، فضحكت وقلت له: وإذا كان هذا الأكل من منزلي أنا الخاص فماذا يكون موقفك؟ فقال: أقتادك إلى النيابة أيضا كي أرد شرفي لأنك اعتبرتني متسولاً، قلت: ولم تتصور هذا؟ ولم لا أكون

قد اعتبرتك ضيفًا كريما فأردت الاحتفاء بـك؟ قـال: إنـي لا أعرفك قلت: لقد تعارفنا اليوم يا سيدي وعملنا معا.

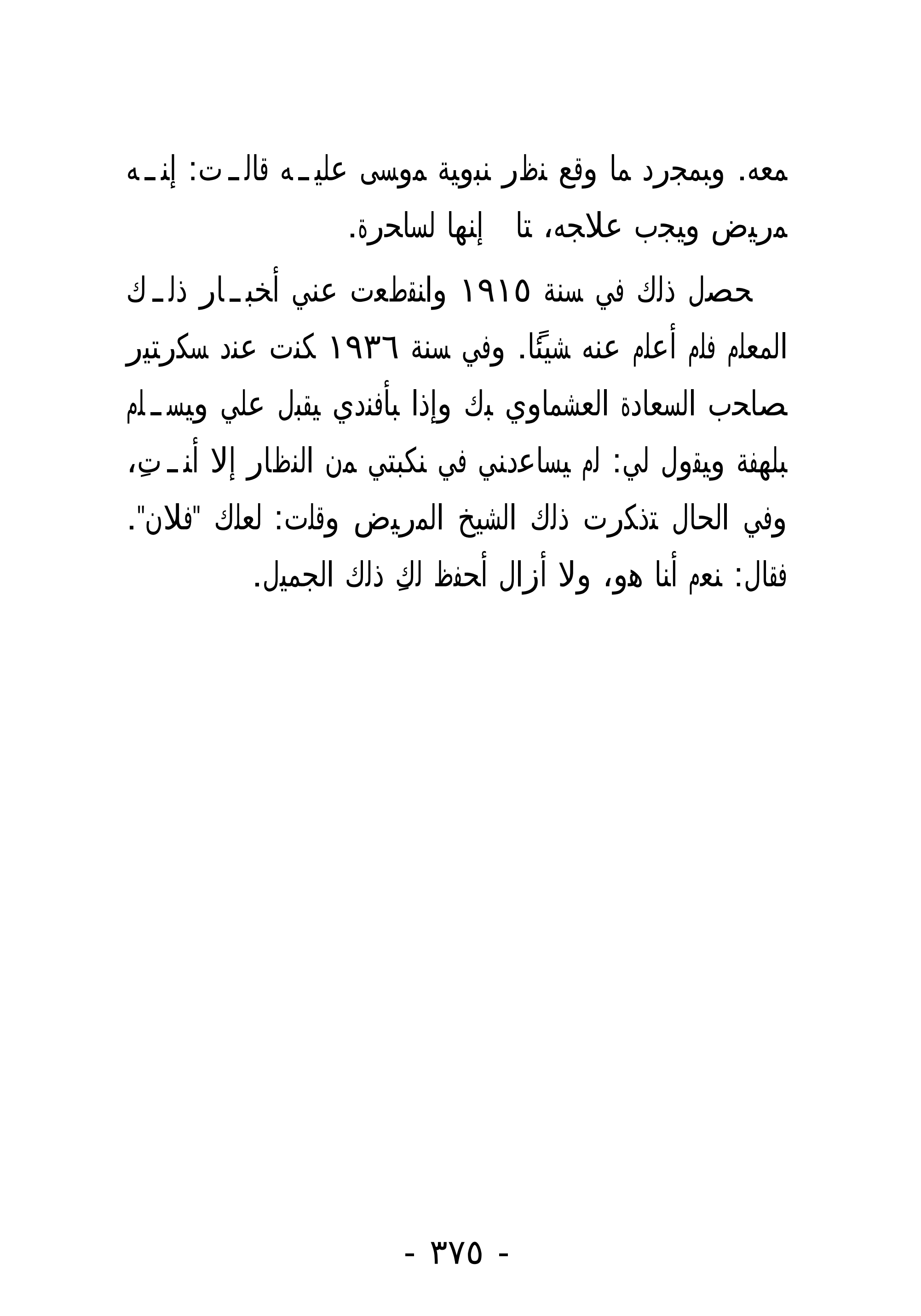
وهدأ الرجل قليلاً كأنه يفكر فيما يصنع. وأسـرعت أنـا وأشرت إلى الخادم بأخذ الطعام من أمامه وهو جسم الجريمة حسب اعتقاده، فهدأت ثائرته وكأنه نسي الموضوع، وعلمت من ذلك أنه غير عادي وراعتني شـدة احمـرار عيونـه، وتأكدت أنه إما أن يكون شاربا أو مريضا، وكان عندي معلم طيب السيرة من دار العلوم كنت أعتمد عليه لمتانة أخلاقـه، وكان اسمه "الشيخ حاتم" فاستدعيته وطلبـت منـه أن يشـم رائحة ذلك الزميل، وأن يخبرني إذا كان هو في حالة سكر، وعاد الشيخ حاتم فقال: إن الرجل غير سكران وأنا أعرفـه من قبل ذلك. قلت: إذن هو مريض. قال قد يكون ذلك فإنـه غير عادي في كلامه.

عرفت من تلك الظروف أن الوزارة أرادت أن تنقل إلـي رجلاً متهيجا ليناوئني فكتبت إلى ذلك العظيم في الحال أقول له: إن الرجل الذي نقلتموه إلى مدرستي مريض، وأرجو ألا تظن أني تشاجرت معه أو حصل بينـي وبينـه أي نـزاع، الرجل مريض وأنا طبعا أسامحه في كل ما يقول لمرضـه،

ولكني سأحماك تبعة كل ما يحصل من وجود رجـل مختـل الشعور في مدرسة بنات، وأنتظرك فإذا لم تنقله فـي بحـر أسبوع كان علي أن ألجأ إلى من هو أكبر منك.

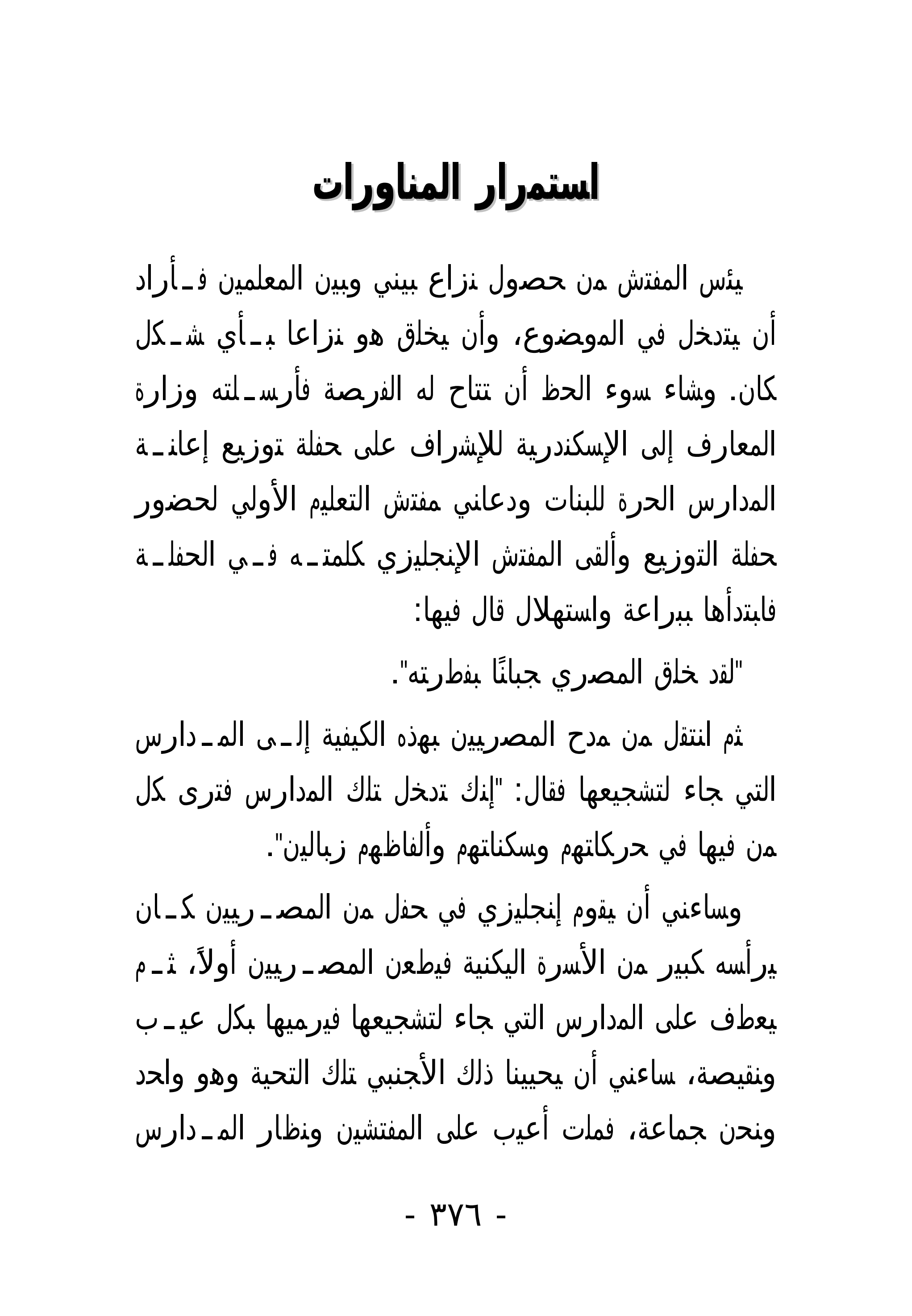
عجب العظيم من خطابي هذا وأشفعته بخطـاب آخـر، وكان للرجل في كل يوم حادثة أو حادثتان. مررت على باب فصله يوما فترك الفصل وخرج في إثري وقال: إنه لا يقبـل أن يكون في مدرسة لا أمانة فيها. قلت: وما هي الخيانة التي تبينتها حضرتكم. قال: عدم محافظتكم على مواعيد الحصص بالضبط فقد انتهى وقت الدرس، ولم يدق الجرس. قلـت: إذا شئت فاترك الفصل. قال: لا... لا أقبل ذلك ويجب أن يـدق الجرس الآن فتركته وسرت في طريقي. وفي اليـوم التـالي دخل مكتبي ثائرا متهيجا، يقول: إنكم مثال الخيانة في تلـك المدرسة. قلت: ولم ذلك يا سيدي؟ فـألقى أمـامي بكتـاب مطالعة كان لبنت تركت المدرسة بعد أن كتبت اسمها عليه. وقد أعطاه له الكاتب بدلاً من أن يصرف له كتابـا جديـدا. وقال هذا الكتاب لا تملك المدرسة حق استعماله واسم صاحبه مكتوب عليه. قلت: لقد تركت تلك الطالبة المدرسة وتركـت الكتاب، ولم تسأل عنه.

ولما كانت إدارة المدرسة لا تعرف الخيانة فهي تستعمله في صالح التعليم. قال: إن هذا العمل خيانة في نظري. قلت: وماذا تريد؟ قال: أريد أن يرسل هذا الكتاب لصاحبته. قلت: لا نعرف عنوانها. قال: يجب أن تبحثوا عنه، فرأيت أن مناقشته ضياع لوقتي فأظهرت شيئًا من الغضب، وقلت: اترك هذا الكتاب، ولا تدخل مكتبي مرة أخرى. قال: أغضبت حضرتك؟ وظهر عليه شيء من التعقل. وهكذا السكران أو المجنون إذا رأى شدة معقولة ارتدع. فقلت له: وا   لقد ضايقتني حضرتك وحضرة الوزارة وكل تلك التصرفات، ورجائي ألا تدخل مكتبي مرة أخرى. قال: سمعا وطاعة. وبعد يومين من هذا التاريخ نقل إلى مدرسة محرم بك الابتدائية بناء على إلحاحي وخطاباتي التي كانت تتوالى على ذلك الكبير، ولم يمكث في مدرسة محرم بك يومين حتى تشاجر مع ناظرها وضربه وأبلغ الخبر إلى الوزارة فأحالته على القومسيون الطبي فقرر أنه مريض مختل الشعور، وأخذ ذلك العظيم يقول في مكتبه: عرض ذلك المعلم على خمسة من نظارنا الرجال فلم يعرفوه وتشاجروا



معه. وبمجرد ما وقع نظر نبوية موسى عليه قالت: إنه مريض ويجب علاجه، تا إنها لساحرة.

حصل ذلك في سنة ١٩١٥ وانقطعت عني أخبار ذلك المعلم فلم أعلم عنه شيئًا. وفي سنة ١٩٣٦ كنت عند سكرتير صاحب السعادة العشماوي بك وإذا بأفندي يقبل علي ويسلم بلهفة ويقول لي: لم يساعدني في نكبتي من النظار إلا أنتِ، وفي الحال تذكرت ذلك الشيخ المريض وقلت: لعلك "فلان". فقال: نعم أنا هو، ولا أزال أحفظ لكِ ذلك الجميل.



استمرار المناورات

يئس المفتش من حصول نزاع بيني وبين المعلمين فـأراد أن يتدخل في الموضوع، وأن يخلق هو نزاعا بـأي شـكل كان. وشاء سوء الحظ أن تتاح له الفرصة فأرسـلته وزارة المعارف إلى الإسكندرية للإشراف على حفلة توزيع إعانـة المدارس الحرة للبنات ودعاني مفتش التعليم الأولي لحضور حفلة التوزيع وألقى المفتش الإنجليزي كلمتـه فـي الحفلـة فابتدأها ببراعة واستهلال قال فيها:

"لقد خلق المصري جبانًا بفطرته".

ثم انتقل من مدح المصريين بهذه الكيفية إلـى المـدارس التي جاء لتشجيعها فقال: "إنك تدخل تلك المدارس فترى كل من فيها في حركاتهم وسكناتهم وألفاظهم زبالين".

وساءني أن يقوم إنجليزي في حفل من المصـريين كـان يرأسه كبير من الأسرة اليكنية فيطعن المصـريين أولاً، ثـم يعطف على المدارس التي جاء لتشجيعها فيرميها بكل عيـب ونقيصة، ساءني أن يحيينا ذلك الأجنبي تلك التحية وهو واحد ونحن جماعة، فملت أعيب على المفتشين ونظار المـدارس

الثانوية سكوتهم على تلك الإهانة وضحك أحدهم وقـال: "إن الرجل كان يتكلم بلهجة أعجمية لم يفهمهـا أحـد إلا الـذين اعتادوا لهجة الإنجليز في اللغة العربية. قلت: ولكنكم أنتم من هؤلاء. قال: نعم! ولكن ما الذي يدعونا إلى إذاعة ما قال بين الملأ ما دام الناس أنفسهم لم يفهموه فكان عذرا ظريفًـا وإن كان لم يقنعني وقام المفتش الأول وقال كلمة في تعليم الفتـاة شاد فيها باسمي بصفتي أول فتاة مصرية تولـت المناصـب المختلفة بوزارة المعارف، وانتهت الحفلـة بعـد أن اختلـى المفتش الإنجليزي بمفتش التعليم الأولي وأفهمه أنه أخطأ في الإشارة بذكري لأني ضد وزارة المعـارف ولأنـي يجـب محاربتي. قال مفتش الأولي ذلك لبعض أصـدقائه وبلغنـي فأوجست منه خيفة لعلمي أن هؤلاء الناس يخدمون الإنجليز في كل ما يريدونه من رغبات ولو بالإشـارة وفيمـا قالـه المفتش الإنجليزي ما يكفي لتوجيه نظر المفتش الأولي إلـى العمل ضدي.

لم يطل انتظاري حتى بدا لي مجهود ذلك المفـتش فـي العمل ضدي فقد ابتدأ أحد مدرسي مدرسـتي يشـق عصـا الطاعة ويناوئني العدا بلا سبب، فكنت أقابل هذا بصبر وحلم

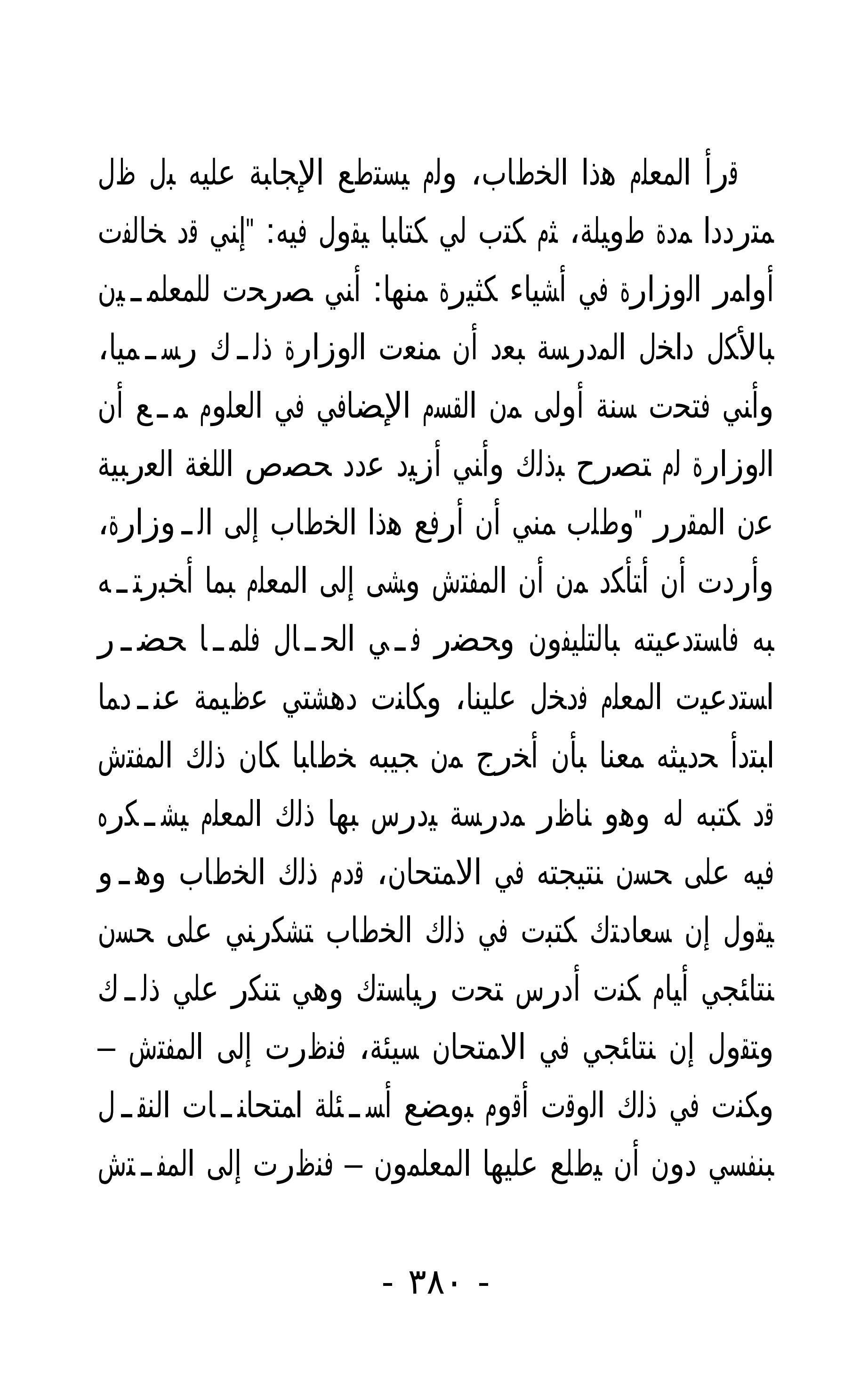
خشية أن يكون قد حرضه أحد على ذلك، وأخيـرا أردت أن أكتشف الحقيقة فخاطبت مفتش التعليم الأولي تليفونيـا فـي مساء أحد الأيام وقلت له فـي أثنـاء حـديثي: إن فلانًـا – وذكرت له اسم المدرس الذي تخيلت أنه يحرضه – إن فلانًا هذا مع ما يبدو عليه من نشاط وذكاء قد ظهر أن نتيجته في الامتحانات سيئة جدا، قلت ذلك لأعلم إذا كان بـين المفـتش والمدرس رابطة فينقل إليه ما قلت.

وفي صباح اليوم التالي كنت أحضر درس انتقاد كانـت تلقيه طالبة في مادة الخط وحضر جميع المعلمات والمعلمين، وكان على منصة التدريس كرسي وضعته الطالبـة لتشـرح للتلميذات طريقة الجلسة أثناء كتابة الخط.

ودخل ذلك المعلم متأخرا والغضب يبدو علـى وجهـه، وكنت في الأسبوع الذي قبله قد طلبـت مـن المعلمـين أن يجلسوا على أدراج طالبات كانت موجودة فـي جهـة مـن الفصل حتى لا يكونوا قريبا من المعلمـات، وقـد أعجـب المعلمون بذلك الاقتراح ووافقوا عليه وجلسنا جميعا ووقـف هو زائغ البصر فقلت له في هدوء وعطف "تفضل اجلس إلى جانبي". وكان بجواري مقعد خال. فقال: لا... ثم ذهب إلـى

منصة التدريس وأخذ الكرسي الذي أعدته الطالبة ووضـعه بشدة أمام المكان الذي كنت أجلس فيه، ثم جلس.

وهمست أنا إلى إحدى الطالبات فأحضرت كرسيا آخـر وضعته بدل الكرسي الذي أخذه المعلم وتابعت الطالبة السير في درسها وعند انتهاء الدرس سألت الطالبات ثم المعلمات، ثم المعلمين عن آرائهم فيه، ولم أشأ أن أتخطى ذلك المعلـم حتى لا يظن أني تضايقت منه، فقلت له: ما رأي حضـرتكم في هذا الدرس؟ قال: ليس لي رأي فيه لأني كنت متعبا فلـم أعمل شيئًا. قلت: أشكركم، وسرت فـي درسـي حتـى إذا ما انتهيت ذهبت إلى مكتبي وكتبت له خطابا قلت فيـه: إن بقاء المعلمين الرجال بين المعلمات وبين الطالبـات ضـرر لا بد منه ونحن نتحمل مخالطتهم بالمعلمات وجلوسهم معهن رغبة في الظفر بآرائهم فيما يتعلق بالدرس، وقد قلت: إنـك كنت مجهدا فلم تعمل فلم دخلت هذا الدرس بلا عمل؟ وأنـت تعلم أنك لو طلبت مني تصريحا بالتغيب عنه لما تأخرت في إجابة طلبك لأن بقاءك بلا عمل مثال سيء لباقي المعلمـات والمعلمين، إذ يكون هذا سابقة لبقائهم في الدرس بلا عمـل وصرفهم الوقت في اللهو والعبث.

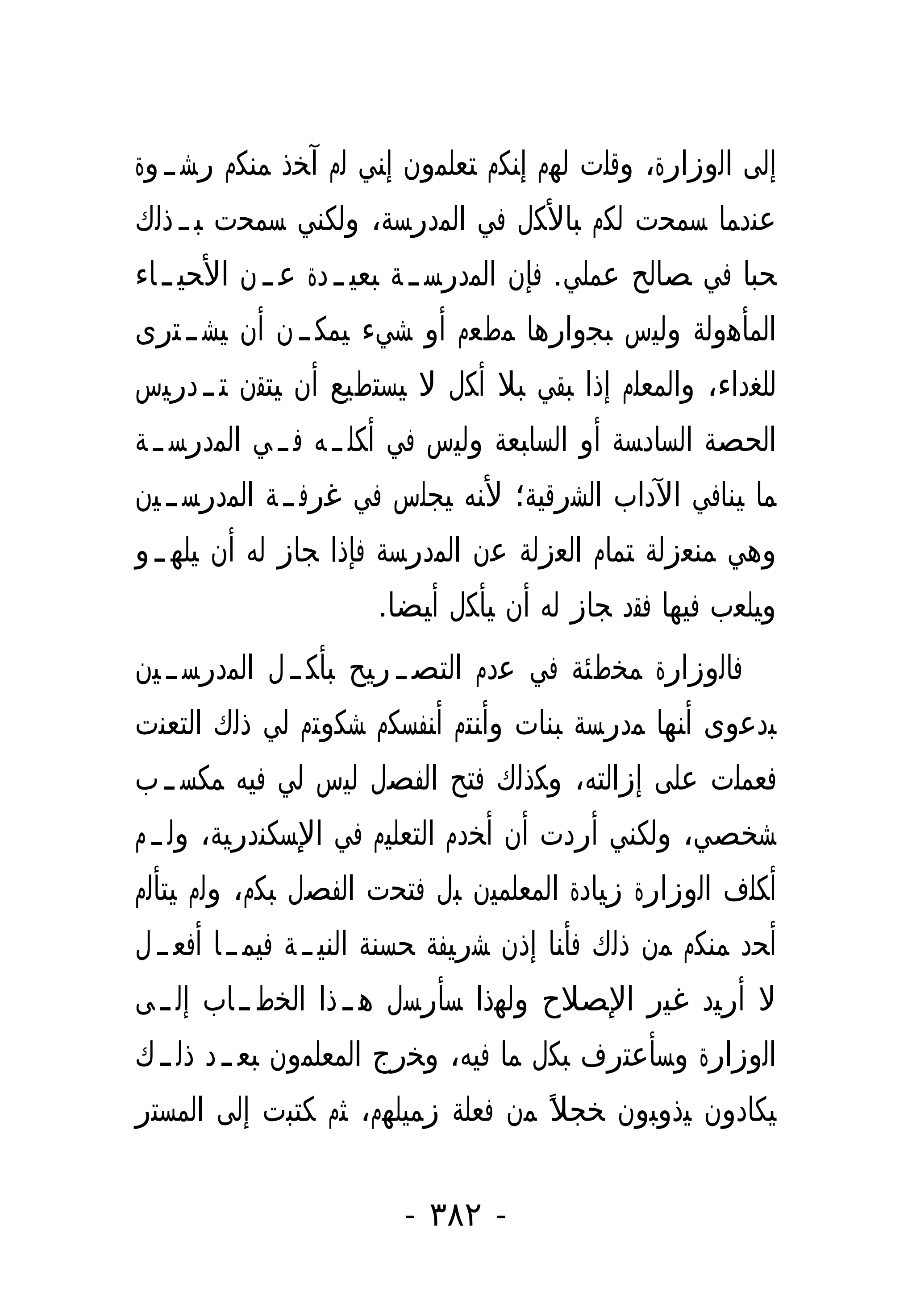


قرأ المعلم هذا الخطاب، ولم يستطع الإجابة عليه بل ظل مترددا مدة طويلة، ثم كتب لي كتابا يقول فيه: "إنني قد خالفت أوامر الوزارة في أشياء كثيرة منها: أني صرحت للمعلمـين بالأكل داخل المدرسة بعد أن منعت الوزارة ذلـك رسـميا، وأني فتحت سنة أولى من القسم الإضافي في العلوم مـع أن الوزارة لم تصرح بذلك وأني أزيد عدد حصص اللغة العربية عن المقرر "وطلب مني أن أرفع هذا الخطاب إلى الـوزارة، وأردت أن أتأكد من أن المفتش وشى إلى المعلم بما أخبرتـه به فاستدعيته بالتليفون وحضر فـي الحـال فلمـا حضـر استدعيت المعلم فدخل علينا، وكانت دهشتي عظيمة عنـدما ابتدأ حديثه معنا بأن أخرج من جيبه خطابا كان ذلك المفتش قد كتبه له وهو ناظر مدرسة يدرس بها ذلك المعلم يشـكره فيه على حسن نتيجته في الامتحان، قدم ذلك الخطاب وهـو يقول إن سعادتك كتبت في ذلك الخطاب تشكرني على حسن نتائجي أيام كنت أدرس تحت رياستك وهي تنكر علي ذلـك وتقول إن نتائجي في الامتحان سيئة، فنظرت إلى المفتش – وكنت في ذلك الوقت أقوم بوضع أسـئلة امتحانـات النقـل بنفسي دون أن يطلع عليها المعلمون – فنظرت إلى المفـتش

وقلت له: إنك تشكره في خطابك هذا على حسن نتيجته فـي الامتحان، فهل كنت أنت واضع الأسئلة أم هو؟ قال: بالطبع هو الذي كان يضع الأسئلة. قلت: إذن أن تشكره على خراب ذمته لأن المعلم إذا وضع هو أسئلة الامتحان في المادة التي يدرسها، وكان غير دقيق في عمله وغير مأمون عليه. أعـد التلاميذ له فنجحوا جميعا. وليس في ذلك ما يستوجب الشكر. بل فيه ما يستوجب الذم، أما أنا فإنني أضع أسئلة امتحانـات مدرستي فإذا قلت عن شخص: إنه مقصر أو إنه مجـد فـي تدريس مادته فأنا على حق فيما أقول. وإنني بعد هذا أسـألك سؤالاً واحدا: هل بينك وبين هذا المعلم اتصال لاسلكي حتى استطعت أن تخبره بما قلته لك أمس في نفس هذه الليلة؟!

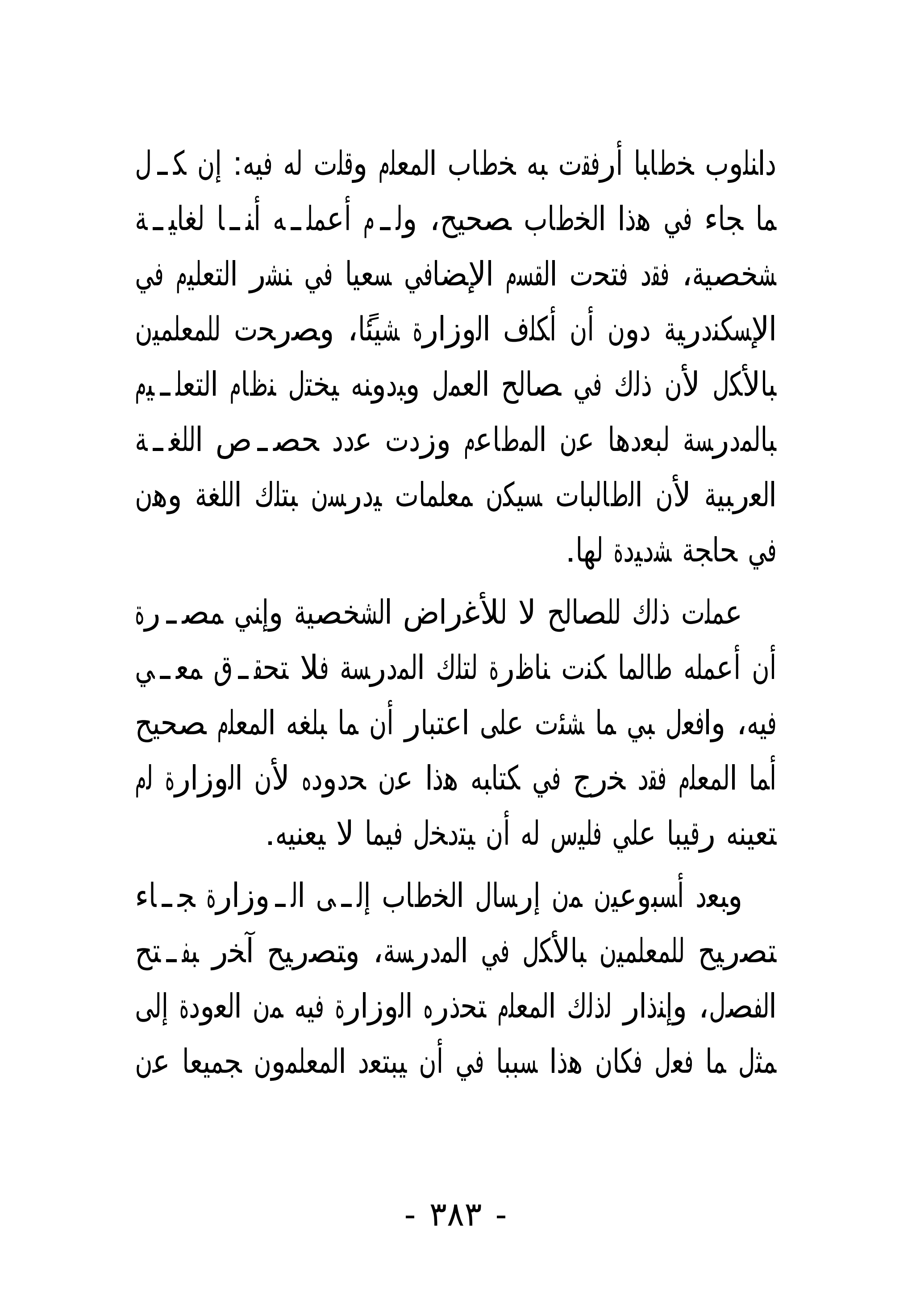
ليس في منزل الرجل تليفون فكيف اتصـلت بـه بهـذه السرعة؟ لا بد أنك كلفت نفسك كثيرا فأنت إذن ذو غاية سيئة ولهذا أطلب منك أن تترك هذا المكتب حالاً، وألا تعود إلـى المدرسة مرة أخرى، أما معلمي فسأعرف كيف أقوده إلـى الصواب.

وخرج المفتش دون أن يقول كلمـة واسـتدعيت بعـض المدرسين فقرأت عليهم خطاب المعلم الذي طلب مني تبليغه



إلى الوزارة، وقلت لهم إنكم تعلمون إني لم آخذ منكم رشـوة عندما سمحت لكم بالأكل في المدرسة، ولكني سمحت بـذلك حبا في صالح عملي. فإن المدرسـة بعيـدة عـن الأحيـاء المأهولة وليس بجوارها مطعم أو شيء يمكـن أن يشـترى للغداء، والمعلم إذا بقي بلا أكل لا يستطيع أن يتقن تـدريس الحصة السادسة أو السابعة وليس في أكلـه فـي المدرسـة ما ينافي الآداب الشرقية؛ لأنه يجلس في غرفـة المدرسـين وهي منعزلة تمام العزلة عن المدرسة فإذا جاز له أن يلهـو ويلعب فيها فقد جاز له أن يأكل أيضا.

فالوزارة مخطئة في عدم التصـريح بأكـل المدرسـين بدعوى أنها مدرسة بنات وأنتم أنفسكم شكوتم لي ذلك التعنت فعملت على إزالته، وكذلك فتح الفصل ليس لي فيه مكسـب شخصي، ولكني أردت أن أخدم التعليم في الإسكندرية، ولـم أكلف الوزارة زيادة المعلمين بل فتحت الفصل بكم، ولم يتألم أحد منكم من ذلك فأنا إذن شريفة حسنة النيـة فيمـا أفعـل لا أريد غير الإصلاح ولهذا سأرسل هـذا الخطـاب إلـى الوزارة وسأعترف بكل ما فيه، وخرج المعلمون بعـد ذلـك يكادون يذوبون خجلاً من فعلة زميلهم، ثم كتبت إلى المستر



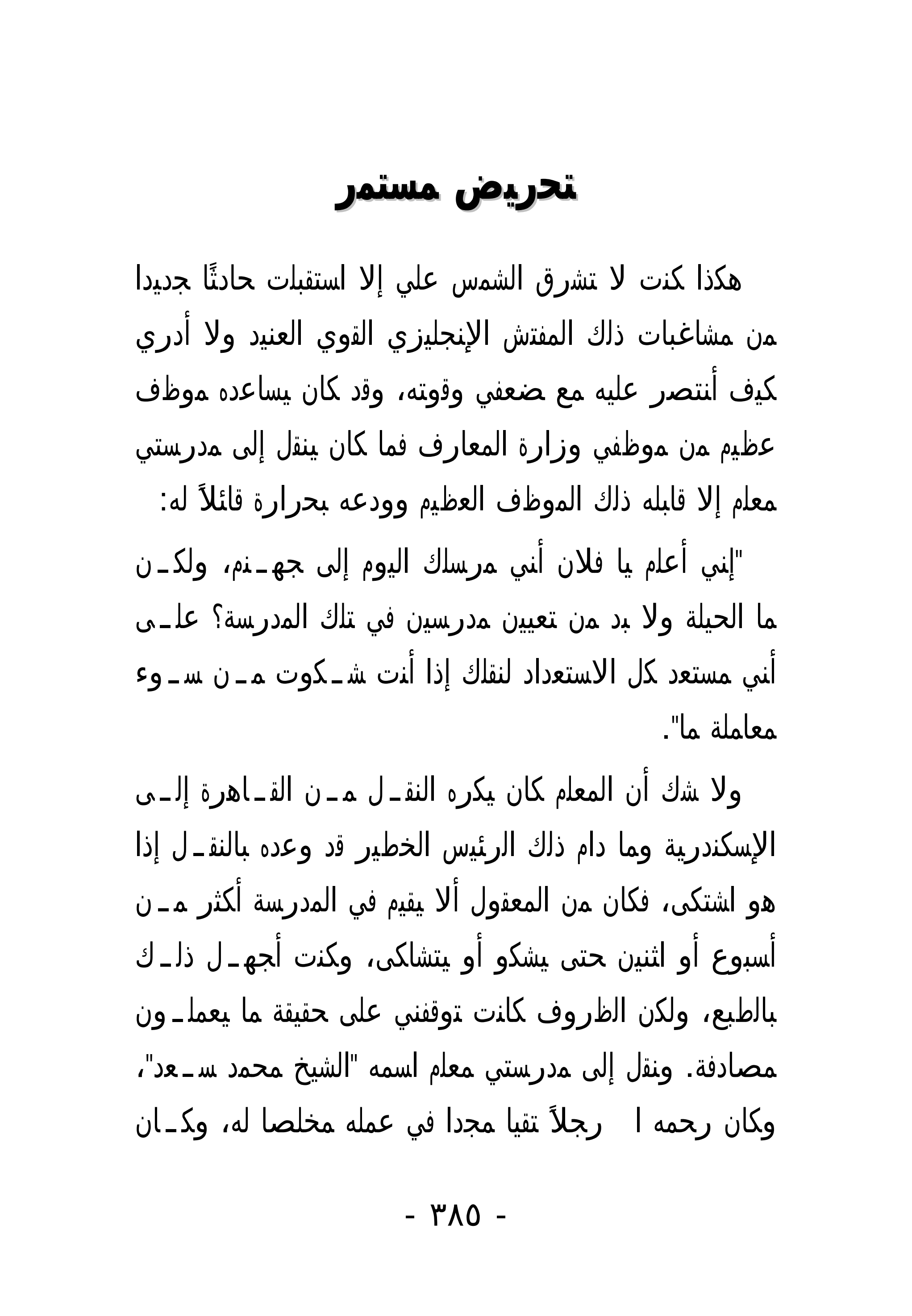
دانلوب خطابا أرفقت به خطاب المعلم وقلت له فيه: إن كل ما جاء في هذا الخطاب صحيح، ولم أعمله أنا لغاية شخصية، فقد فتحت القسم الإضافي سعيا في نشر التعليم في الإسكندرية دون أن أكلف الوزارة شيئًا، وصرحت للمعلمين بالأكل لأن ذلك في صالح العمل وبدونه يختل نظام التعليم بالمدرسة لبعدها عن المطاعم وزدت عدد حصص اللغة العربية لأن الطالبات سيكن معلمات يدرسن بتلك اللغة وهن في حاجة شديدة لها.

عملت ذلك للصالح لا للأغراض الشخصية وإني مصرة أن أعمله طالما كنت ناظرة لتلك المدرسة فلا تحقق معي فيه، وافعل بي ما شئت على اعتبار أن ما بلغه المعلم صحيح أما المعلم فقد خرج في كتابه هذا عن حدوده لأن الوزارة لم تعينه رقيبا علي فليس له أن يتدخل فيما لا يعنيه.

وبعد أسبوعين من إرسال الخطاب إلى الوزارة جاء تصريح للمعلمين بالأكل في المدرسة، وتصريح آخر بفتح الفصل، وإنذار لذلك المعلم تحذره الوزارة فيه من العودة إلى مثل ما فعل فكان هذا سببا في أن يبتعد المعلمون جميعا عن



المفتش الأولي الذي كان يمنى ذلك المعلم بالترقيـة فانتهـت أمانيه بالإنذار.



تحريض مستمر

هكذا كنت لا تشرق الشمس علي إلا استقبلت حادثًا جديدا من مشاغبات ذلك المفتش الإنجليزي القوي العنيد ولا أدري كيف أنتصر عليه مع ضعفي وقوته، وقد كان يساعده موظف عظيم من موظفي وزارة المعارف فما كان ينقل إلى مدرستي معلم إلا قابله ذلك الموظف العظيم وودعه بحرارة قائلاً له:

"إني أعلم يا فلان أني مرسلك اليوم إلى جهـنم، ولكـن ما الحيلة ولا بد من تعيين مدرسين في تلك المدرسة؟ علـى أني مستعد كل الاستعداد لنقلك إذا أنت شـكوت مـن سـوء معاملة ما".

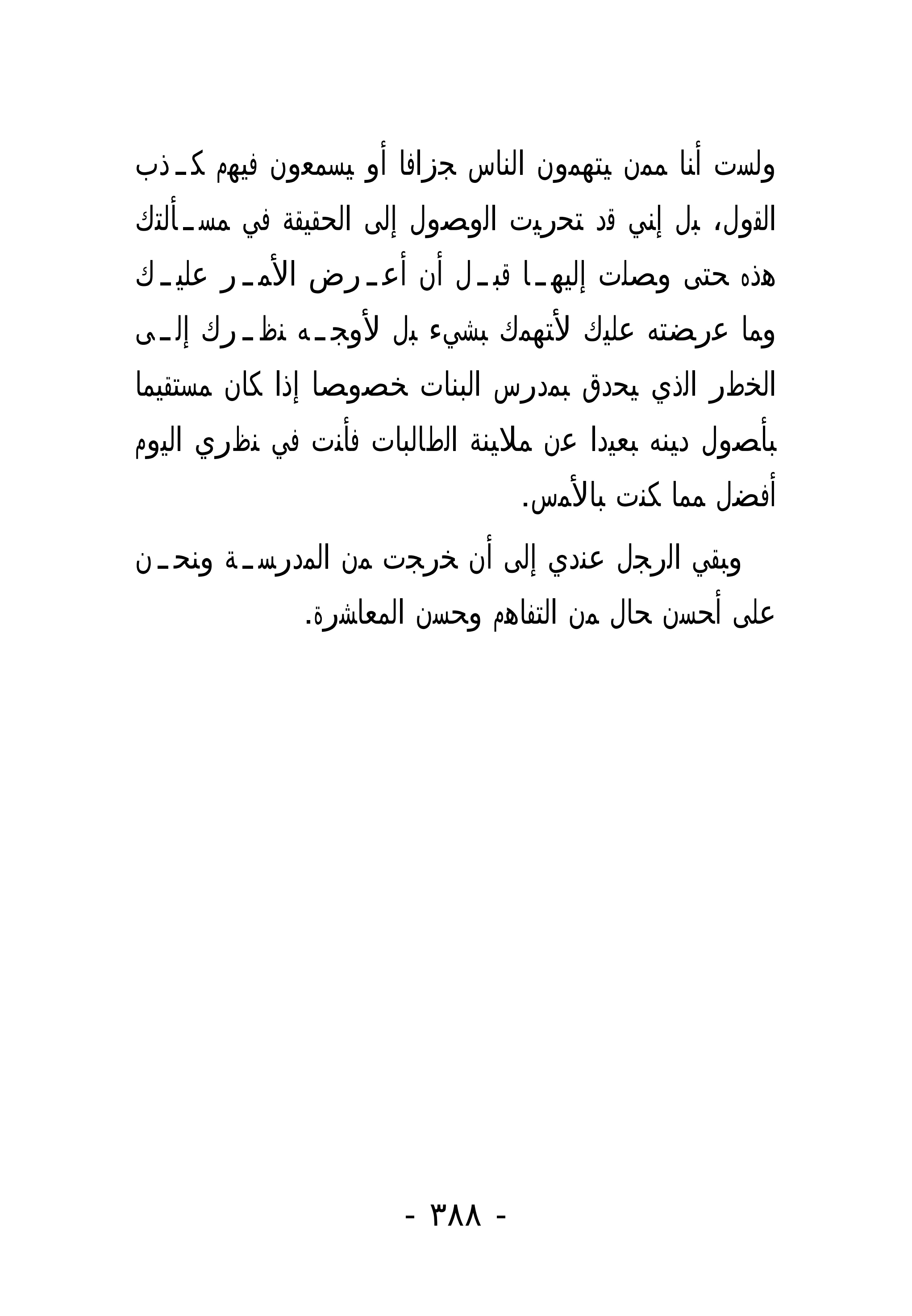
ولا شك أن المعلم كان يكره النقـل مـن القـاهرة إلـى الإسكندرية وما دام ذلك الرئيس الخطير قد وعده بالنقـل إذا هو اشتكى، فكان من المعقول ألا يقيم في المدرسة أكثر مـن أسبوع أو اثنين حتى يشكو أو يتشاكى، وكنت أجهـل ذلـك بالطبع، ولكن الظروف كانت توقفني على حقيقة ما يعملـون مصادفة. ونقل إلى مدرستي معلم اسمه "الشيخ محمد سـعد"، وكان رحمه ا رجلاً تقيا مجدا في عمله مخلصا له، وكـان

مستقيما في مسلكه إلى حد الخشونة، فكرهته الطالبات لـذلك التشدد وأردن أن يوقعن به، فأبلغنني أن الشيخ سعد قال لهن كلمة منبوذة لا يجوز لمعلم أن يقولها، ولما كنت أعرف في المرحوم من الكمال والصدق والاستقامة لم أستطع تصديق ما قيل لي، ولكني دهشت مع ذلك من إجماع البنات عليه، فكنت أسألهن واحدة واحدة وهن مصممات على ما قلن لي من أن الأستاذ قال لهن كلمة لا يليق به أن يقولها وأخيرا طلبت منهن أن يقلن لي تلك الكلمة وبعد إلحاح قلن إنه قال "فواحش" وسألت "في أي درس قالها" فقلن لي "في درس الدين". وهنا طلبت كراسة من كراساتهن في الدين فوجدت مكتوبا فيها تلك الآية الكريمة:

﴿ **الذِين يجتَنِبون كَبائِر الإِثْمِ والْفَواحِشَ إلا اللمم إِن ربك واسِع الْمغْفِرةِ** ﴾.

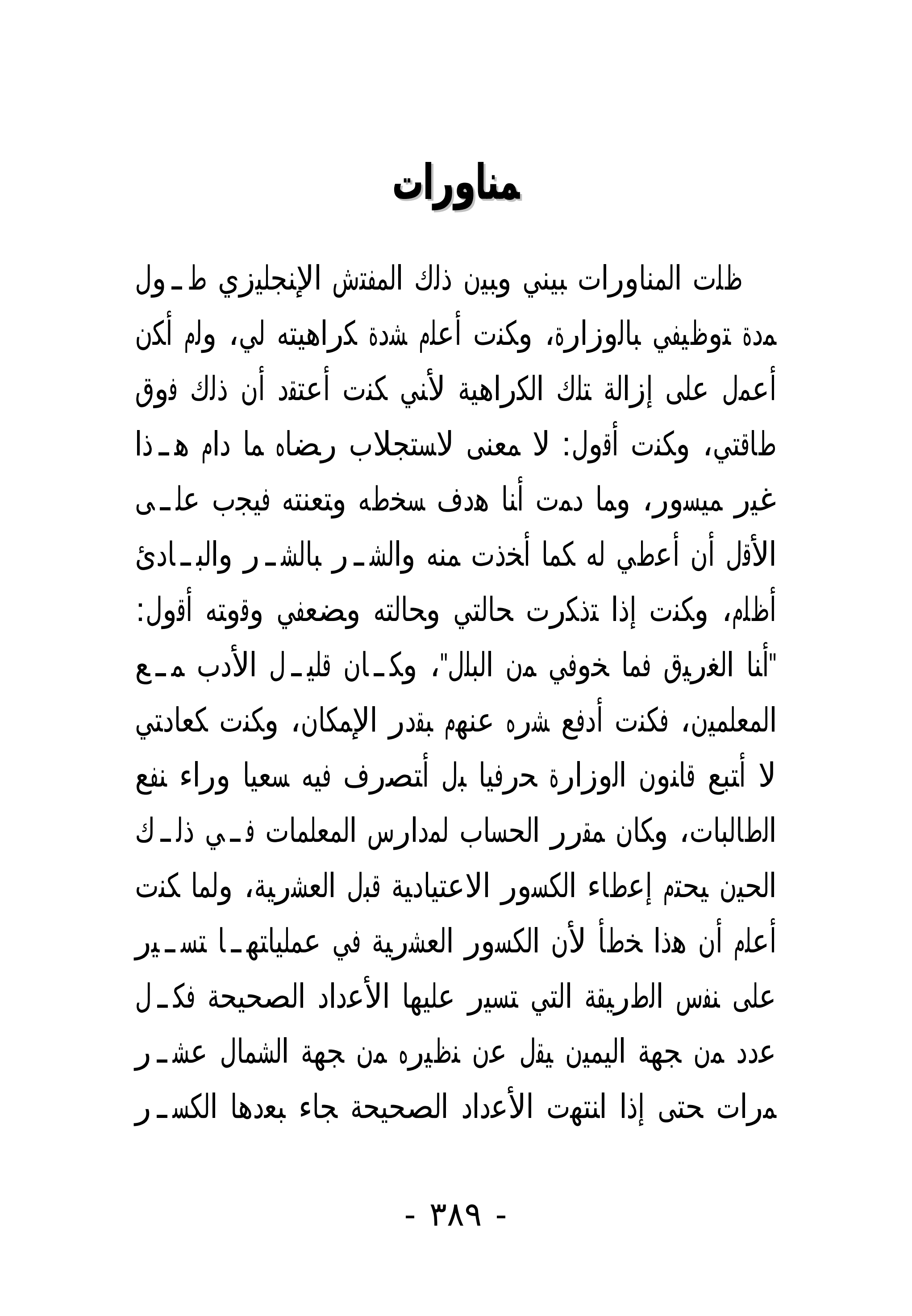
ولم يكن المسكين هو الذي يختار تلك الآيات بل كانت الوزارة هي التي تختارها وهنا أعدت السؤال على الطالبات فعلمت أن الكلمة التي قالت الطالبات إنه قالها هي المذكورة في الآية، أي أنه قرأ الآية.

أدهشني تفنن الطالبات في الاتهام إلى ذلك الحد وسررت جدا من أن فراستي لم تخب فـي ذلـك الأسـتاذ الفاضـل، فأرسلت إليه وقلت له "هل صحيح أن حضرتك قلـت: أمـام الطالبات كلمة فواحش؟" فثار الرجل وقال: "إني لم أصل إلى هذا الحد من الانحطاط، ولقد قال لي فلان باشا قبل نقلي إلى هنا إني مقدم على جهنم ولقد صدق، وأنا أطلب نقلي اليـوم" فضحكت في شيء من الهدوء وقلت له دعنا مما قاله فـلان وأرجوك أن تجيب على سؤالي فقط، هل قلت تلك الكلمـة أم لم تقل؟" قال "بالطبع لم أقلها ولن أبقى في مدرسة أسأل فيها عن ذلك" قلت: "إنك واهم يا سيدي فالمدرسة لم تظلمك، ولم تنكر عليك فضلك واسـتقامتك ومـا أردت بسـؤالي هـذا إلا لألفتك إلى الوسط الذي تعيش فيه لتحترس منه، أما الكلمة يا سيدي فإنك قد قلتها وكتبتها أيضا على السبورة وأمـرت الطالبات بحفظها وها هي كراسة الدين التي أمليتها أنت على الطالبات، وأظهرت له الكراسة فدهش الرجل وأسف لما بدر منه، قلت: لا بأس، إنك لم تسئ إلي بما قلت، بل أحسنت فقد عرفتني بماذا يوصون المعلم عند نقله إلي، وأظن يا أسـتاذ أني انتصرت عليهم في كل أدواري وسأنتصر إن شـاء ا ،



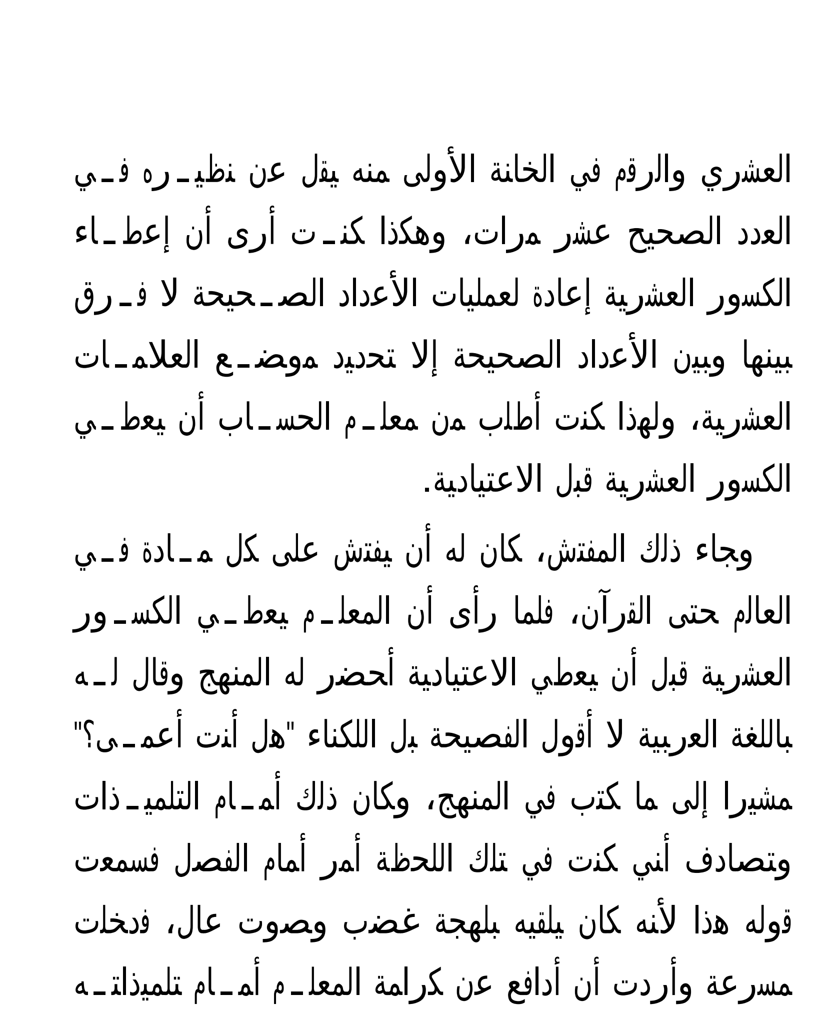
ولست أنا ممن يتهمون الناس جزافا أو يسمعون فيهم كـذب القول، بل إنني قد تحريت الوصول إلى الحقيقة في مسـألتك هذه حتى وصلت إليهـا قبـل أن أعـرض الأمـر عليـك وما عرضته عليك لأتهمك بشيء بل لأوجـه نظـرك إلـى الخطر الذي يحدق بمدرس البنات خصوصا إذا كان مستقيما بأصول دينه بعيدا عن ملاينة الطالبات فأنت في نظري اليوم أفضل مما كنت بالأمس.

وبقي الرجل عندي إلى أن خرجت من المدرسـة ونحـن على أحسن حال من التفاهم وحسن المعاشرة.



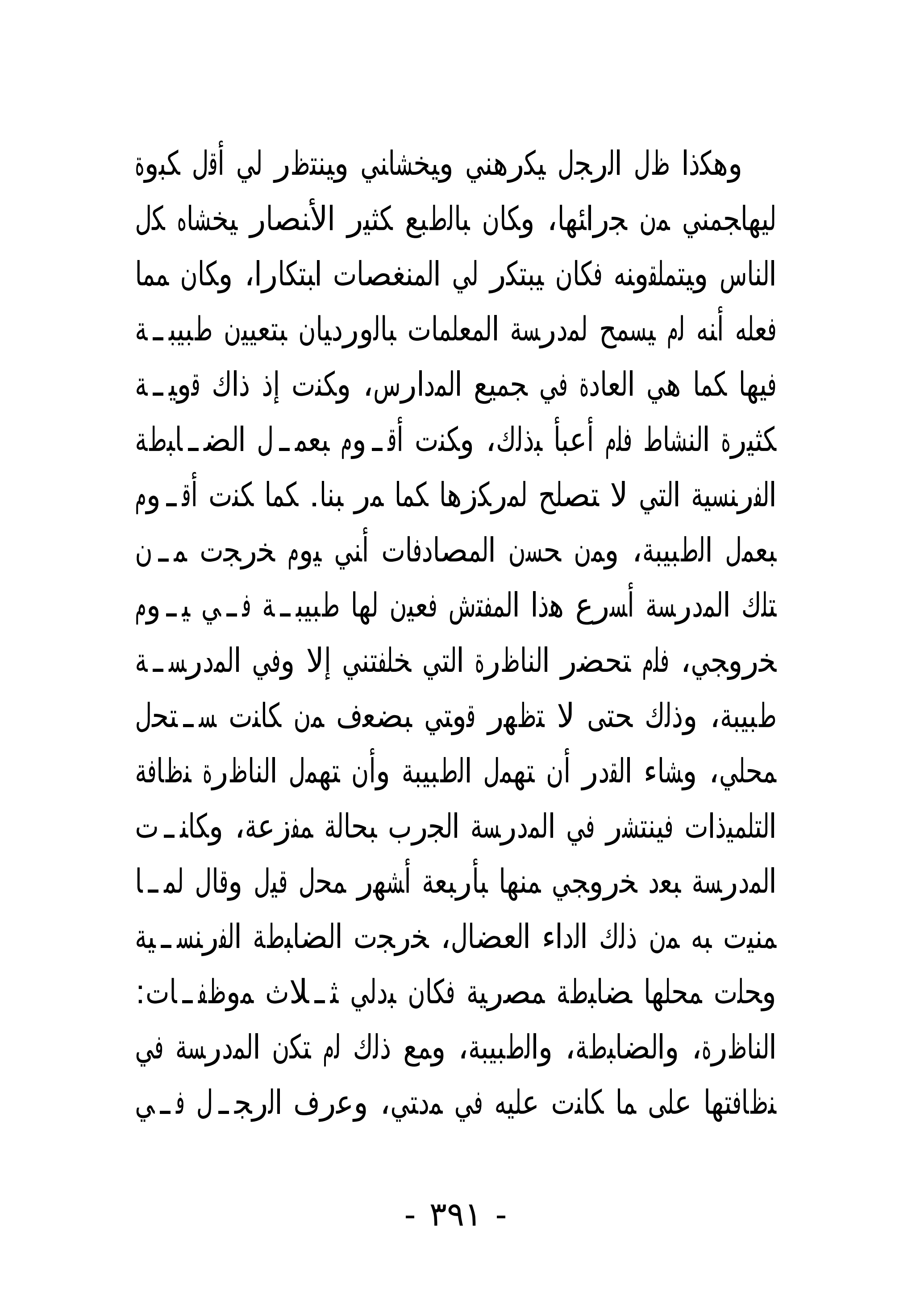
مناورات

ظلت المناورات بيني وبين ذلك المفتش الإنجليزي طـول مدة توظيفي بالوزارة، وكنت أعلم شدة كراهيته لي، ولم أكن أعمل على إزالة تلك الكراهية لأني كنت أعتقد أن ذلك فوق طاقتي، وكنت أقول: لا معنى لاستجلاب رضاه ما دام هـذا غير ميسور، وما دمت أنا هدف سخطه وتعنته فيجب علـى الأقل أن أعطي له كما أخذت منه والشـر بالشـر والبـادئ أظلم، وكنت إذا تذكرت حالتي وحالته وضعفي وقوته أقول: "أنا الغريق فما خوفي من البلل"، وكـان قليـل الأدب مـع المعلمين، فكنت أدفع شره عنهم بقدر الإمكان، وكنت كعادتي لا أتبع قانون الوزارة حرفيا بل أتصرف فيه سعيا وراء نفع الطالبات، وكان مقرر الحساب لمدارس المعلمات فـي ذلـك الحين يحتم إعطاء الكسور الاعتيادية قبل العشرية، ولما كنت أعلم أن هذا خطأ لأن الكسور العشرية في عملياتهـا تسـير على نفس الطريقة التي تسير عليها الأعداد الصحيحة فكـل عدد من جهة اليمين يقل عن نظيره من جهة الشمال عشـر مرات حتى إذا انتهت الأعداد الصحيحة جاء بعدها الكسـر



العشري والرقم في الخانة الأولى منه يقل عن نظيره في العدد الصحيح عشر مرات، وهكذا كنت أرى أن إعطاء الكسور العشرية إعادة لعمليات الأعداد الصحيحة لا فرق بينها وبين الأعداد الصحيحة إلا تحديد موضع العلامات العشرية، ولهذا كنت أطلب من معلم الحساب أن يعطي الكسور العشرية قبل الاعتيادية.

وجاء ذلك المفتش، كان له أن يفتش على كل مادة في العالم حتى القرآن، فلما رأى أن المعلم يعطي الكسور العشرية قبل أن يعطي الاعتيادية أحضر له المنهج وقال له باللغة العربية لا أقول الفصيحة بل اللكناء "هل أنت أعمى؟" مشيرا إلى ما كتب في المنهج، وكان ذلك أمام التلميذات وتصادف أني كنت في تلك اللحظة أمر أمام الفصل فسمعت قوله هذا لأنه كان يلقيه بلهجة غضب وصوت عال، فدخلت مسرعة وأردت أن أدافع عن كرامة المعلم أمام تلميذاته فقلت: للمفتش باللغة الإنجليزية "لا يا سيدي ليس هو بالأعمى، ولكني أنا العمياء لأني أنا التي أمرته بذلك" فخجل المفتش، وكان يخشى أن يتصادم معي فقال لي في لهجة وادعة: "لا بأس فإن هذا اختلاف في الآراء".



وهكذا ظل الرجل يكرهني ويخشاني وينتظر لي أقل كبوة ليهاجمني من جرائها، وكان بالطبع كثير الأنصار يخشاه كل الناس ويتملقونه فكان يبتكر لي المنغصات ابتكارا، وكان مما فعله أنه لم يسمح لمدرسة المعلمات بالورديان بتعيين طبيبة فيها كما هي العادة في جميع المدارس، وكنت إذ ذاك قوية كثيرة النشاط فلم أعبأ بذلك، وكنت أقوم بعمل الضابطة الفرنسية التي لا تصلح لمركزها كما مر بنا. كما كنت أقوم بعمل الطبيبة، ومن حسن المصادفات أني يوم خرجت من تلك المدرسة أسرع هذا المفتش فعين لها طبيبة في يوم خروجي، فلم تحضر الناظرة التي خلفتني إلا وفي المدرسة طبيبة، وذلك حتى لا تظهر قوتي بضعف من كانت ستحل محلي، وشاء القدر أن تهمل الطبيبة وأن تهمل الناظرة نظافة التلميذات فينتشر في المدرسة الجرب بحالة مفزعة، وكانت المدرسة بعد خروجي منها بأربعة أشهر محل قيل وقال لما منيت به من ذلك الداء العضال، خرجت الضابطة الفرنسية وحلت محلها ضابطة مصرية فكان بدلي ثلاث موظفات: الناظرة، والضابطة، والطبيبة، ومع ذلك لم تكن المدرسة في نظافتها على ما كانت عليه في مدتي، وعرف الرجل في

قرارة نفسه قيمة عملي فزادته تلك المعرفة حنقًا علي وسيأتي فيما بعد مجهوده العظيم المنتج في تعكير صفوي أينما كنت، وكان يقول في لهجته القاسية: "إنها – نبوية – قـ ـوة شـ ـديدة خطرة".

لقد خرجت بذلك عن الزمن الذي أكتب فيه وهـ ـو زمـ ـن وجودي بمدرسة الورديان. لهذا أعود فأكمله.

قامت الحركة الوطنية في سنة ١٩١٩، وكـ ـان صـ ـاحبي المفتش المذكور على استعداد تام للقضاء علـ ـي إذا قامـ ـت مدرستي بحركة مهما تفهت، وكنت محبوبة مـ ـن المعلمـ ـين والمعلمات والطالبات أيضا، وكنت نافذة الكلمة في الجميـ ـع فاجتمعت بالمعلمين والمعلمات وقلت لهم لست ممن يعتقدون أن الإضراب في المدارس مما يفيد البلاد بل أنـ ـا أعلـ ـم أن البلاد في حاجة شديدة إلى التعليم، وأن المعلمـ ـين يجـ ـب أن يكونوا بعيدين عن الحركة الوطنية لأنهم يقومون بعمل وطني مجيد يجب ألا ينصرفوا عنه إلى عمل آخر مهما جل وذلـ ـك العمل تثقيف أمة أمية قد انتشر فيها الجهل إلى أقصى حدوده فنحن في كفاحنا ذلك الجهل الشديد يجب أن نتفرغ لـ ـه، وألا ننظر إلى عمل غيره. هذا ويهمني ألا نكون قدوة سيئة للطلبة

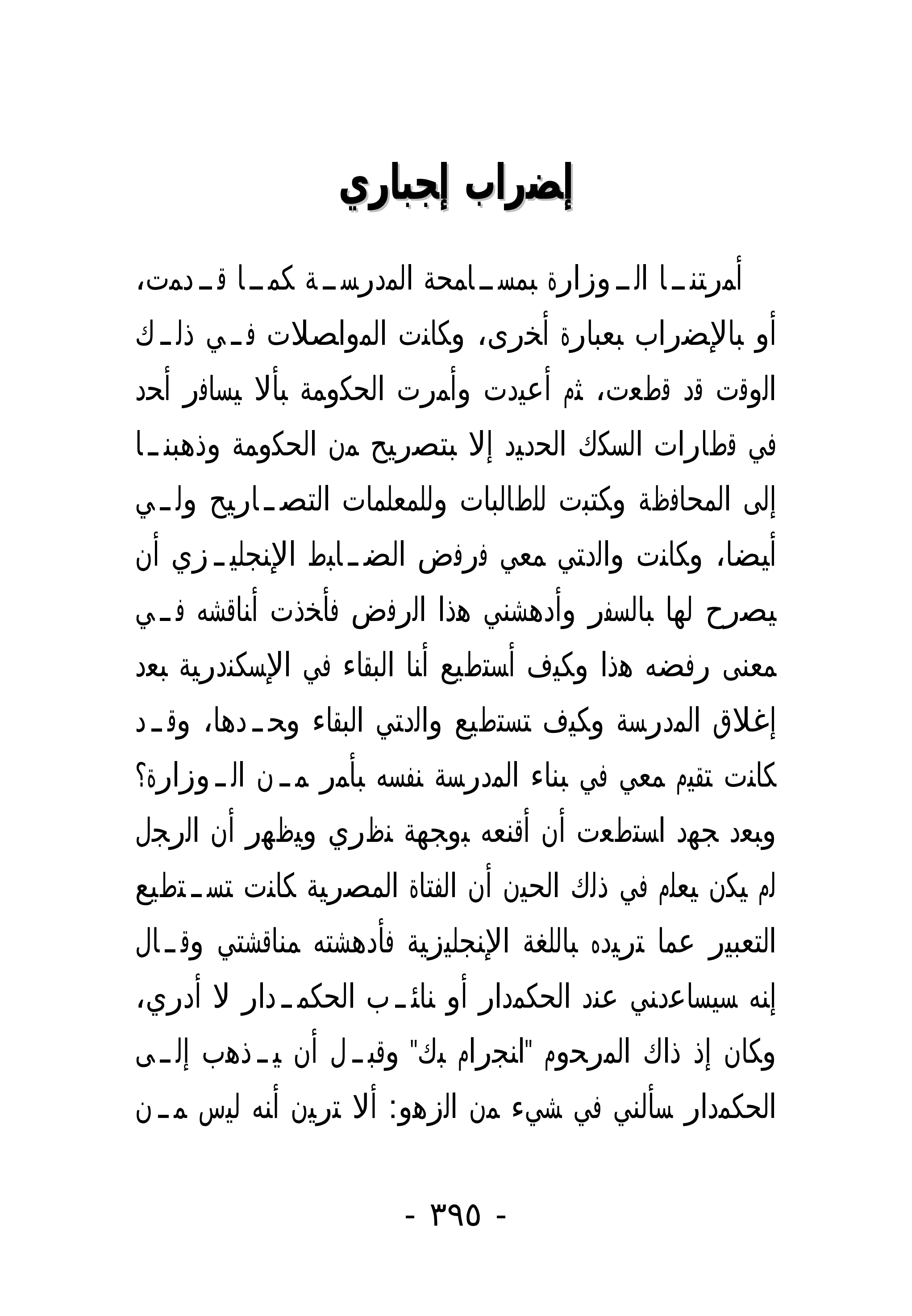
فنظهر أمام طالباتنا بمظهر الجبن والغش والكذب لأني أعلم أن المعلمين هم الذين يحرضون الطلبة، ثم يعاقـب الطلبـة وحدهم وهذا جبن من المعلم وكذب ورياء يجـب ألا يعلمـه عنه تلاميذه.

فأنتم الآن بين أمرين إما أن تقرروا أني على حـق فـي تجنبي الإضراب وتتبعوني عليه وإما أن تقرروا أني مخطئة، وأن نقرر الإضراب وفي تلك الحالة يجب أن نضرب نحن – أي الناظرة والمعلمين – علنًا دون خوف أو مواربة ولسـت أخرج عن إجماعكم الذي تجمعون عليه، فإذا اخترتم الأولى وهي العمل فيجب ألا تكونوا ضعفاء لأن المعلـم الضـعيف لا يصلح للتدريس ويجب أن تظهر قوتكم في قيادة طالبـاتكم فلا تمكنوهن من الإضراب بتاتًا، وسأضـطر إلـى إخبـار الوزارة عن كل ضعيف منكم، أي عن كل معلـم أضـربت طالباته في وجهه.

انفض الاجتماع وخرج كل معلم وهو أحرص ما يكـون على ألا تضرب طالباته. وهكذا أضربت جميـع المـدارس إلا مدرسة معلمات الورديان وضاعت من يد المفتش الوسيلة التي كان يريد أن يهاجمني بها فكان مغربي باشا رحمـه ا

يخاطب المدرسة تليفونيا كل يوم فيسألني هل أضربت الطالبات؟ فكلما كنت أجيبه بالسلب كان يضحك بملء فيه ويقول: إن عملك هذا قد فاق عمل السحرة والمشعوذين ولا أدري كيف تضرب جميع المدارس ولا تضرب مدرستك وأنتِ وطنية؟ فكنت أقول أن وطنيتي يا سيدي تقضي علي بعدم الإضراب لأني أريد أن أخرج أمتي من هذا الجهل المخيم على العقول.

وهكذا أضربت جميع المدارس وسافر طلابها، ولم يبق بالإسكندرية إلا مدرسة معلمات الورديان وقطعت المواصلات، ثم أعيدت، وتلقيت أمرا كتابيا من الوزارة بمسامحة الطالبات أو بالإضراب لا أدري، وهكذا اضطرت الوزارة أن تأمرني بالإضراب بعد أن أعياها احتمال إضراب تلك المدرسة.



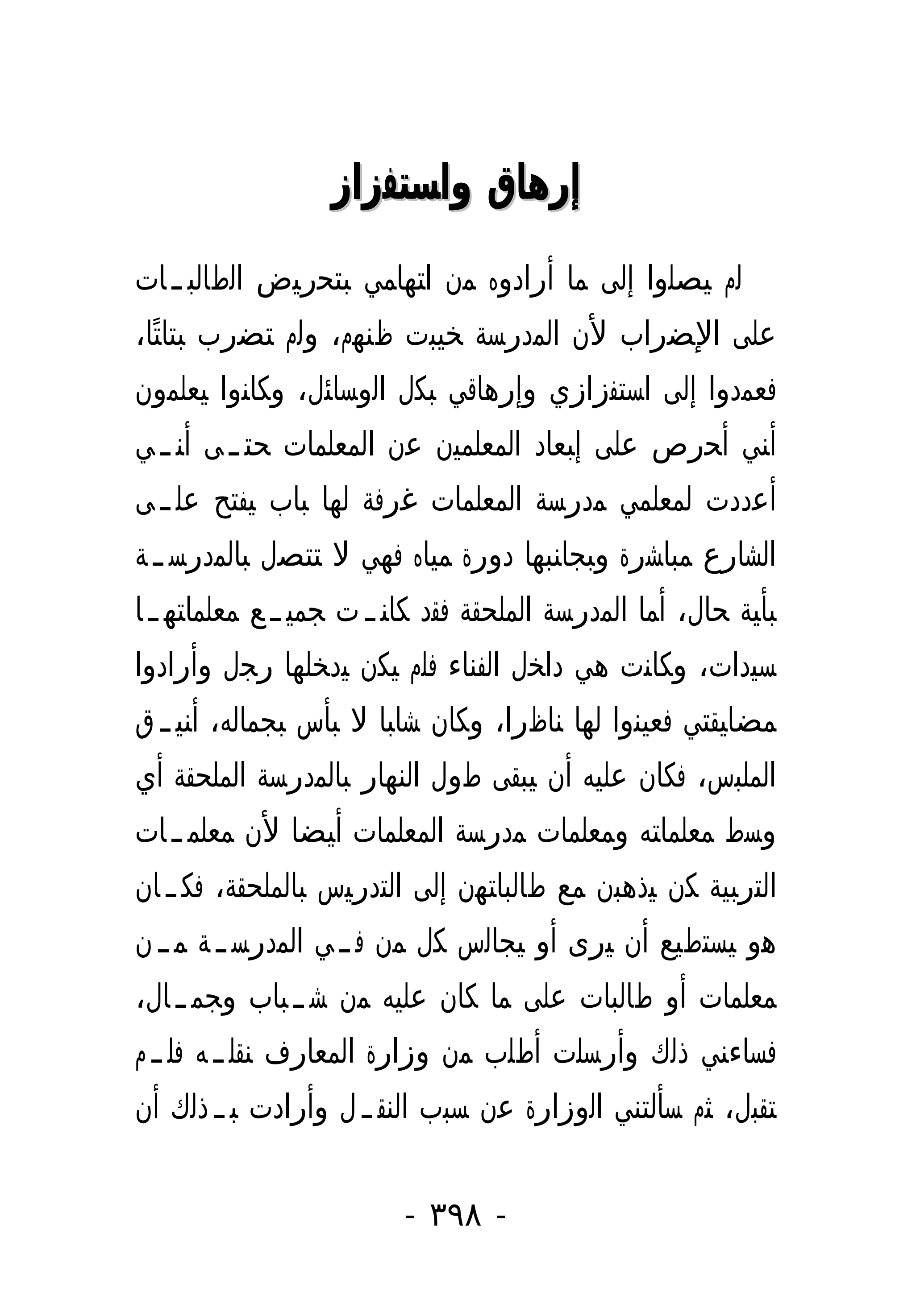
إضراب إجباري

أمرتنـا الـوزارة بمسـامحة المدرسـة كمـا قـدمت، أو بالإضراب بعبارة أخرى، وكانت المواصلات فـي ذلـك الوقت قد قطعت، ثم أعيدت وأمرت الحكومة بألا يسافر أحد في قطارات السكك الحديد إلا بتصريح من الحكومة وذهبنـا إلى المحافظة وكتبت للطالبات وللمعلمات التصـاريح ولـي أيضا، وكانت والدتي معي فرفض الضـابط الإنجليـزي أن يصرح لها بالسفر وأدهشني هذا الرفض فأخذت أناقشه فـي معنى رفضه هذا وكيف أستطيع أنا البقاء في الإسكندرية بعد إغلاق المدرسة وكيف تستطيع والدتي البقاء وحـدها، وقـد كانت تقيم معي في بناء المدرسة نفسه بأمر مـن الـوزارة؟ وبعد جهد استطعت أن أقنعه بوجهة نظري ويظهر أن الرجل لم يكن يعلم في ذلك الحين أن الفتاة المصرية كانت تسـتطيع التعبير عما تريده باللغة الإنجليزية فأدهشته مناقشتي وقـال إنه سيساعدني عند الحكمدار أو نائـب الحكمـدار لا أدري، وكان إذ ذاك المرحوم "انجرام بك" وقبـل أن يـذهب إلـى الحكمدار سألني في شيء من الزهو: ألا ترين أنه ليس مـن

صالح مصر أن تستقل، وأن من الخير لها أن تبقى تحت سيطرتنا؟ قلت: إنك يا سيدي تكلفني الإجابة على سؤال لو صدقت فيه لأسيء إليك، فأنتم المستعمرون بهذه الأسئلة تعلموننا الكذب والجبن وليس من المعقول أن يفضل أحد الاستعباد على الحرية.

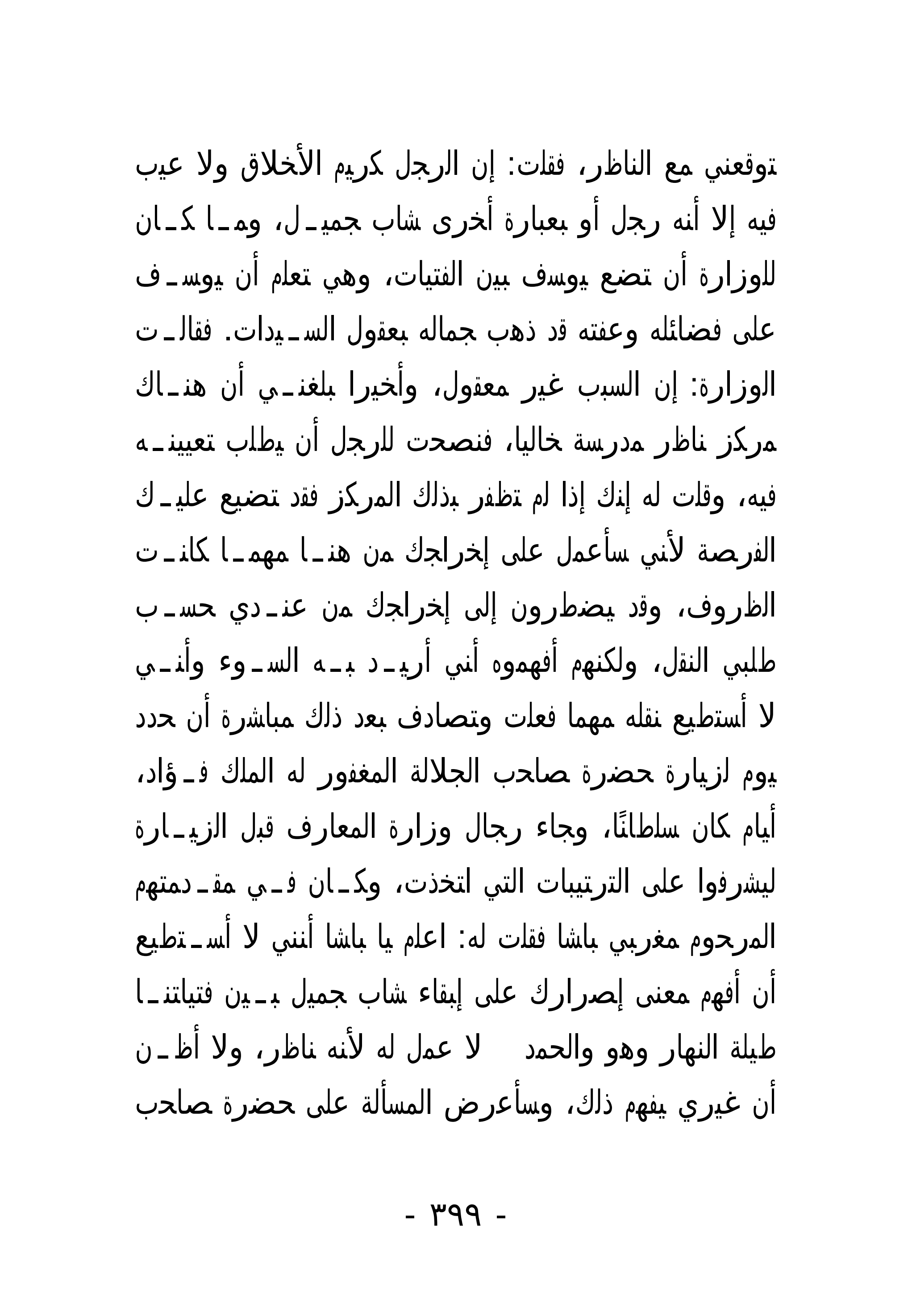
فالوحوش في الصحراء والطيور على الأشجار تفضل حريتها على أن تحبس في أقفاص من الذهب أو في حدائق غناء مهما عوملت بالحسنى، ونحن بشر مثلكم فكيف نرضى أن تقودونا وكيف نعترف بذلك؟ إنك لو سألتني التفضيل بين استعمار إنجلترا وفرنسا لما ترددت في الإجابة عليك بل كنت أؤكد أننا نفضل الإنجليز على كل من عداهم، أما أن تطلب مني المفاضلة بين حريتنا واستعبادنا فهذا هو الأمر المدهش، ويكفي أن يكون في سؤالك هذا ما يظهر خطر الاستعمار، فإنكم بمثل هذه الأسئلة تسلبوننا أخلاقنا وفضائلنا وتعلموننا الكذب والخداع وهما شر الصفات: قال: أو تظنين أن فيكم الكفاية لحكم أنفسكم بأنفسكم؟ قلت: ولم لا يكون ذلك، ألسنا بشرا مثلكم؟ إن فينا من الذكاء ما قد يعوزكم أنتم الإنجليز فمنا من يتكلم الإنجليزية أو الفرنسية كما يتكلمها

أهلها، أما أنتم فلم أر منكم من أتقن لغة أجنبية عـن بـلاده، قال: صدقت أنتِ على شيء من الحق في ذلك، ثـم تركنـي ودخل على المرحوم "انجرام بـك" ويظهـر أنـه روى لـه ما جرى بيني وبينه من المناقشة فأراد المرحوم أن يرانـي واستدعاني إلى مكتبه فلما دخلت عليه حياني، وكان لطيفًـا، ثم جلس ينظر إلي وأخيرا قال لي: لم طلبت مقابلتي؟ قلـت: أنا لم أطلب ذلك، بل ولم أكن أعرف أن في هـذه الغرفـة ضابطًا عظيما اسمه انجرام بك، ولكنهم قالوا لي إن انجـرام بك يريد مقابلتي، قال: ألم تطلبي ترحيل والدتك؟ قلت: نعـم طلبت هذا، قال: ولكني لا أستطيع ترحيلهـا لأنهـا ليسـت بمعلمة ولا طالبة، قلت: ولكنها امرأة تريد أن تصـل إلـى منزلها فالعطف عليها لا يقل عن العطـف عـن أي معلمـة أو طالبة. فابتسم وقال: ولكني لا أستطيع ذلك العطف. قلت: ولم طلبت مقابلتي إذن؟ قال: لأقول لكِ إنني لا أستطيع ترحيل والدتك، قلت: أما كان خيرا لي ولك أن ترسل إلي بذلك النبأ المحزن فلا تؤلمني بسماعه منك ولا تؤلم نفسك باحتجاجي؟ فضحك ضحكة عالية وقال: لا ألم.. فقد أمرت لها بالتصريح وهنا شكرت له ما صنع وخرجت.



إرهاق واستفزاز

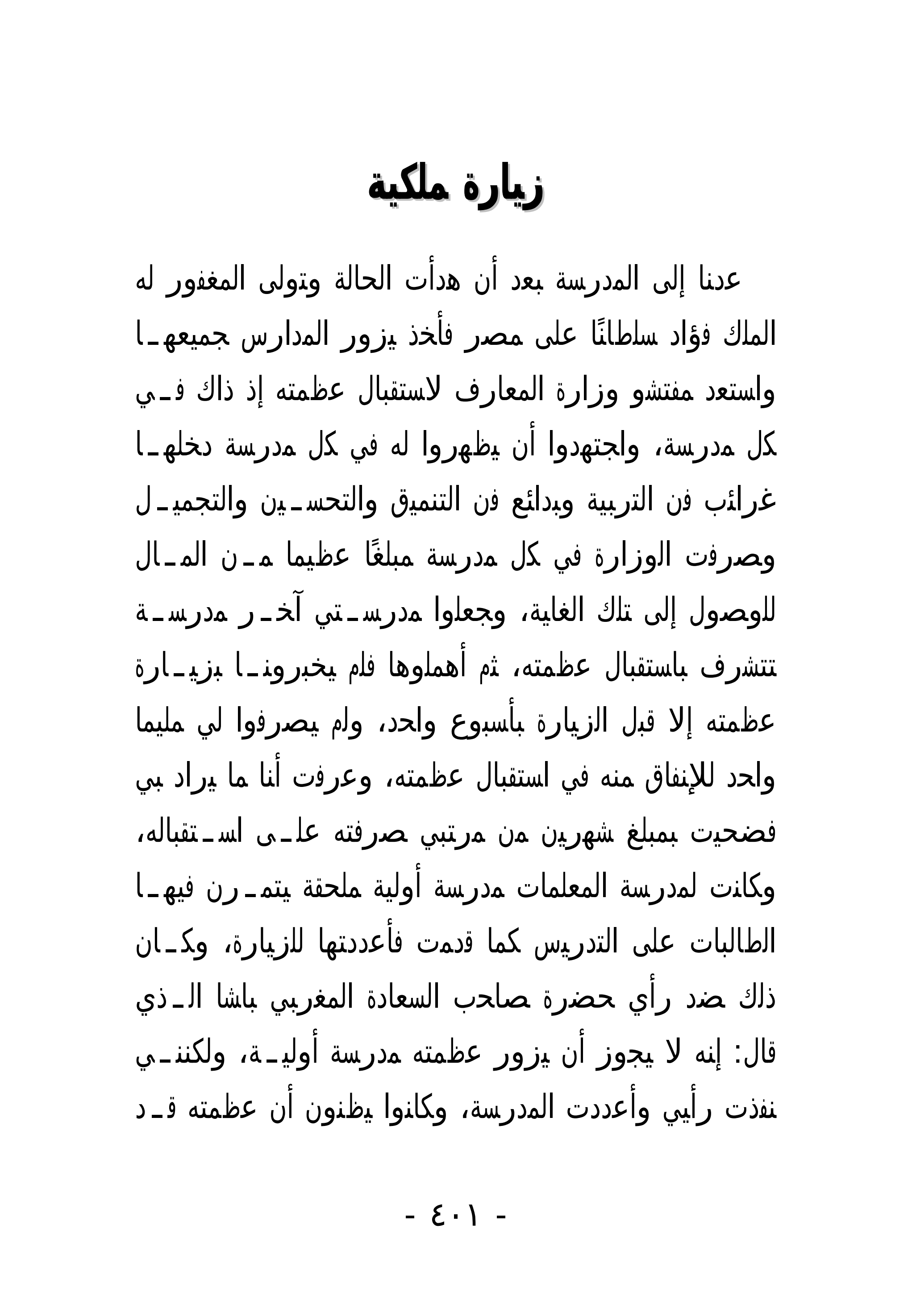
لم يصلوا إلى ما أرادوه من اتهامي بتحريض الطالبات على الإضراب لأن المدرسة خيبت ظنهم، ولم تضرب بتاتًا، فعمدوا إلى استفزازي وإرهاقي بكل الوسائل، وكانوا يعلمون أني أحرص على إبعاد المعلمين عن المعلمات حتى أني أعددت لمعلمي مدرسة المعلمات غرفة لها باب يفتح على الشارع مباشرة وبجانبها دورة مياه فهي لا تتصل بالمدرسة بأية حال، أما المدرسة الملحقة فقد كانت جميع معلماتها سيدات، وكانت هي داخل الفناء فلم يكن يدخلها رجل وأرادوا مضايقتي فعينوا لها ناظرا، وكان شابا لا بأس بجماله، أنيق الملبس، فكان عليه أن يبقى طول النهار بالمدرسة الملحقة أي وسط معلماته ومعلمات مدرسة المعلمات أيضا لأن معلمات التربية كن يذهبن مع طالباتهن إلى التدريس بالملحقة، فكان هو يستطيع أن يرى أو يجالس كل من في المدرسة من معلمات أو طالبات على ما كان عليه من شباب وجمال، فساءني ذلك وأرسلت أطلب من وزارة المعارف نقله فلم تقبل، ثم سألتني الوزارة عن سبب النقل وأرادت بذلك أن



توقعني مع الناظر، فقلت: إن الرجل كريم الأخلاق ولا عيب فيه إلا أنه رجل أو بعبارة أخرى شاب جميل، وما كان للوزارة أن تضع يوسف بين الفتيات، وهي تعلم أن يوسف على فضائله وعفته قد ذهب جماله بعقول السيدات. فقالت الوزارة: إن السبب غير معقول، وأخيرا بلغني أن هناك مركز ناظر مدرسة خاليا، فنصحت للرجل أن يطلب تعيينه فيه، وقلت له إنك إذا لم تظفر بذلك المركز فقد تضيع عليك الفرصة لأني سأعمل على إخراجك من هنا مهما كانت الظروف، وقد يضطرون إلى إخراجك من عندي حسب طلبي النقل، ولكنهم أفهموه أني أريد به السوء وأني لا أستطيع نقله مهما فعلت وتصادف بعد ذلك مباشرة أن حدد يوم لزيارة حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد، أيام كان سلطانًا، وجاء رجال وزارة المعارف قبل الزيارة ليشرفوا على الترتيبات التي اتخذت، وكان في مقدمتهم المرحوم مغربي باشا فقلت له: اعلم يا باشا أنني لا أستطيع أن أفهم معنى إصرارك على إبقاء شاب جميل بين فتياتنا طيلة النهار وهو والحمد لا عمل له لأنه ناظر، ولا أظن أن غيري يفهم ذلك، وسأعرض المسألة على حضرة صاحب

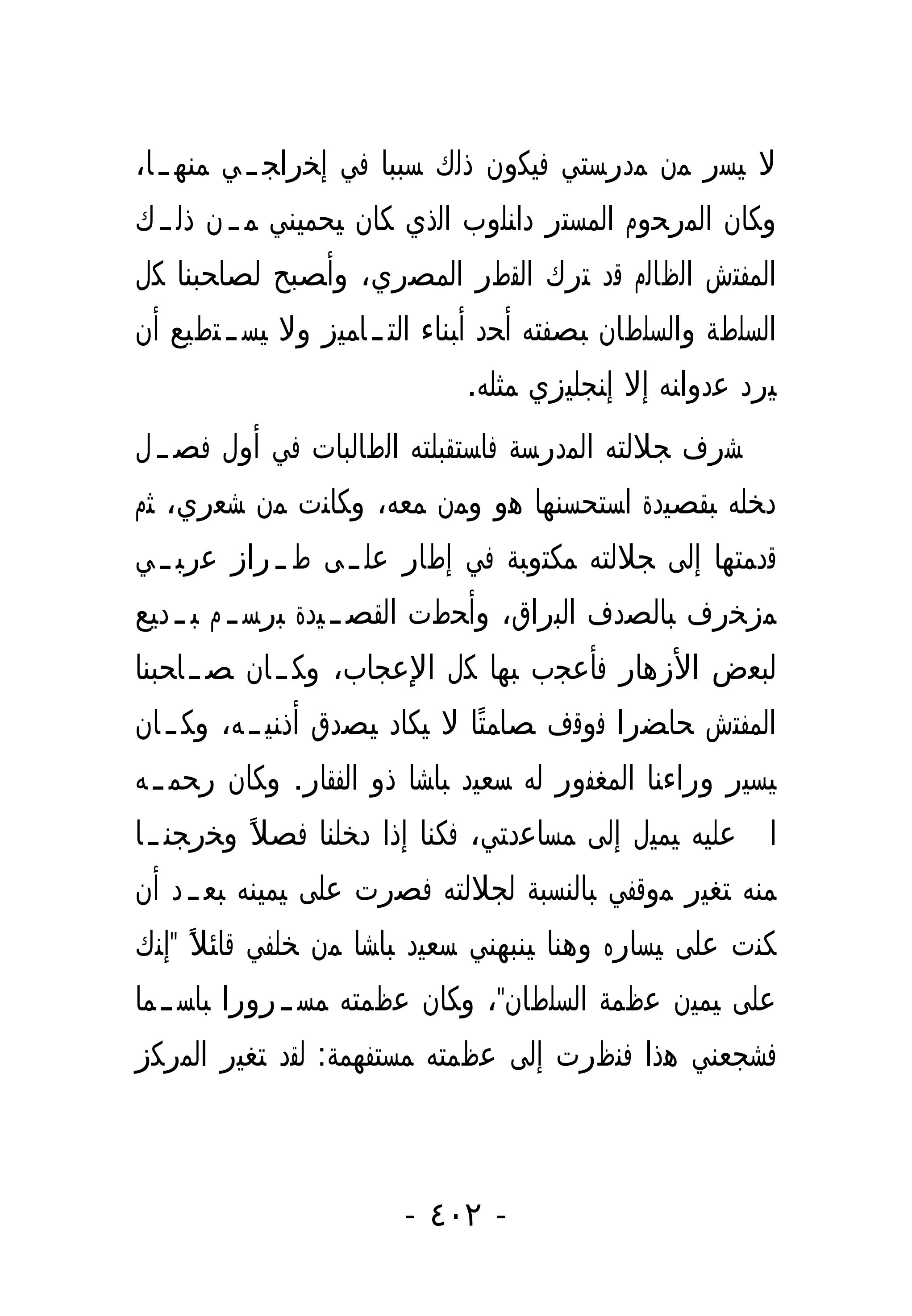
العظمة عند تشريفه المدرسة لأرى إذا كنت أنا علـى حـق أم الحق في جانبكم وسترى سـعادتك أن عظمـة السـلطان سيخرجه أمامك رغم كل اعتراض، ونظر مغربي باشا إلـى بعض من كانوا معه وقال: "إنها تفعل ذلـك وأكثـر منـه". فاستدعوا لي ذلك الناظر. ولما حضر وحيـاه قـال: اسـمع يا أستاذ إننا قد قررنا نقلك اليوم من هذه المدرسة. قال: إلى أين؟ قال مغربي باشا باسما: لقد قررنا نقلك من هنا أما إلى أين فهذا ما لا نعرفه الآن.

وخرج الرجل يتعثر في أذياله ويندب سوء حظه وينـدم على عدم إطاعتي فيما رجوته فيه، ثم عين معلما في مدرسة "إدكو" ومن غريب المصادفات أنه لم يتمتع بعـدها بوظيفـة ناظر، وكان يرجوني كثيرا أن أتوسط لـه، وكنـت أجيـب رجاءه وأفعل ما أستطيع دون جدوى، وهكذا ناله من الضرر أكثر مما نالني.



زيارة ملكية

عدنا إلى المدرسة بعد أن هدأت الحالة وتولى المغفور له الملك فؤاد سلطانًا على مصر فأخذ يزور المدارس جميعهـا واستعد مفتشو وزارة المعارف لاستقبال عظمته إذ ذاك فـي كل مدرسة، واجتهدوا أن يظهروا له في كل مدرسة دخلهـا غرائب فن التربية وبدائع فن التنميق والتحسـين والتجميـل وصرفت الوزارة في كل مدرسة مبلغًا عظيما مـن المـال للوصول إلى تلك الغاية، وجعلوا مدرسـتي آخـر مدرسـة تتشرف باستقبال عظمته، ثم أهملوها فلم يخبرونـا بزيـارة عظمته إلا قبل الزيارة بأسبوع واحد، ولم يصرفوا لي مليما واحد للإنفاق منه في استقبال عظمته، وعرفت أنا ما يراد بي فضحيت بمبلغ شهرين من مرتبي صرفته علـى اسـتقباله، وكانت لمدرسة المعلمات مدرسة أولية ملحقة يتمـرن فيهـا الطالبات على التدريس كما قدمت فأعددتها للزيارة، وكـان ذلك ضد رأي حضرة صاحب السعادة المغربي باشا الـذي قال: إنه لا يجوز أن يزور عظمته مدرسة أوليـة، ولكننـي نفذت رأيي وأعددت المدرسة، وكانوا يظنون أن عظمته قـد



لا يسر من مدرستي فيكون ذلك سببا في إخراجي منها، وكان المرحوم المستر دانلوب الذي كان يحميني من ذلك المفتش الظالم قد ترك القطر المصري، وأصبح لصاحبنا كل السلطة والسلطان بصفته أحد أبناء التاميز ولا يستطيع أن يرد عدوانه إلا إنجليزي مثله.

شرف جلالته المدرسة فاستقبلته الطالبات في أول فصل دخله بقصيدة استحسنها هو ومن معه، وكانت من شعري، ثم قدمتها إلى جلالته مكتوبة في إطار على طراز عربي مزخرف بالصدف البراق، وأحطت القصيدة برسم بديع لبعض الأزهار فأعجب بها كل الإعجاب، وكان صاحبنا المفتش حاضرا فوقف صامتًا لا يكاد يصدق أذنيه، وكان يسير وراءنا المغفور له سعيد باشا ذو الفقار. وكان رحمه ا عليه يميل إلى مساعدتي، فكنا إذا دخلنا فصلاً وخرجنا منه تغير موقفي بالنسبة لجلالته فصرت على يمينه بعد أن كنت على يساره وهنا ينبهني سعيد باشا من خلفي قائلاً "إنك على يمين عظمة السلطان"، وكان عظمته مسرورا باسما فشجعني هذا فنظرت إلى عظمته مستفهمة: لقد تغير المركز

دون أن أقصد، فهل ضايق هذا عظمتكم؟ فابتسم المغفور لـه وقال: لا.. أبدا.

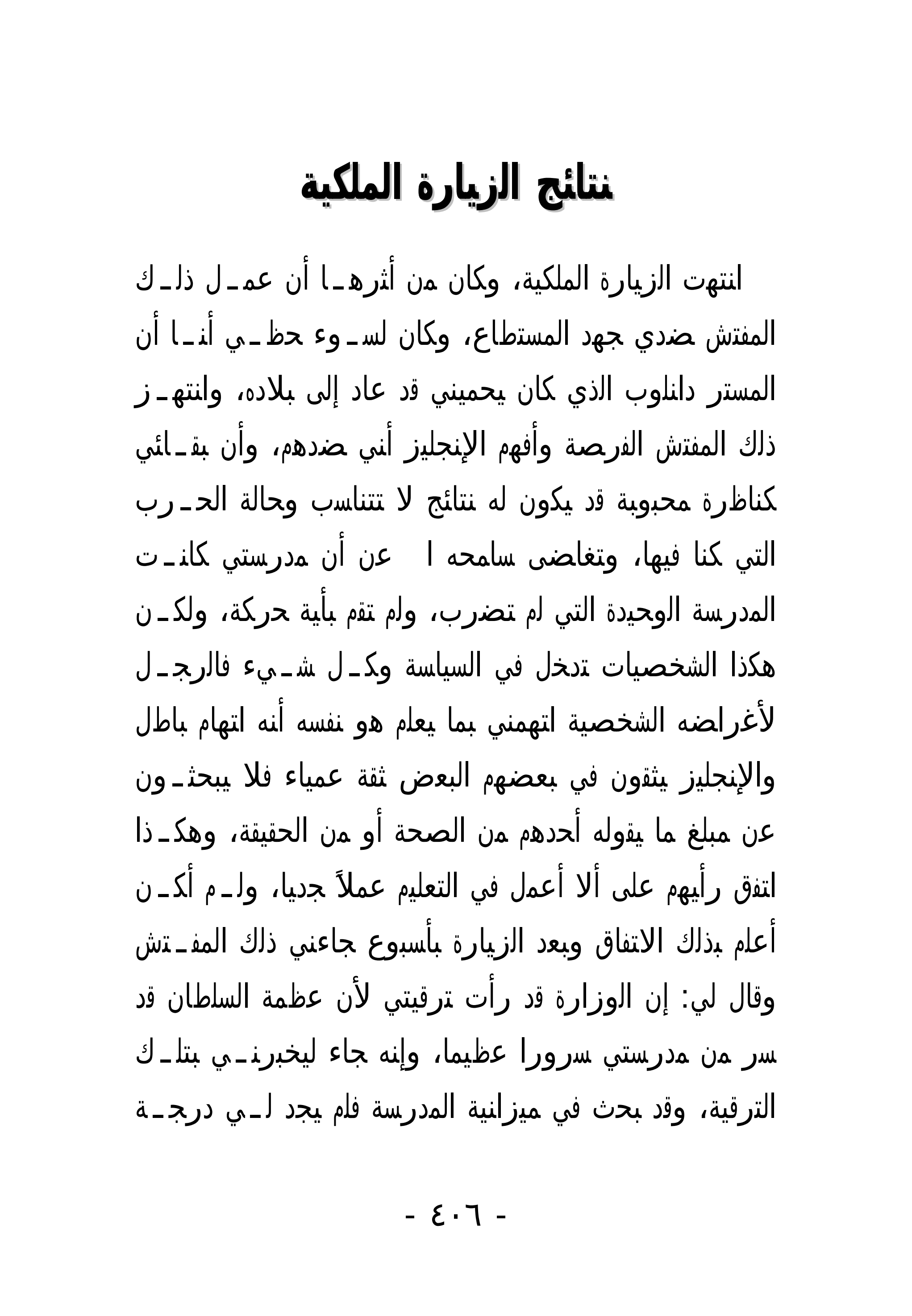
وكنا قد فرشنا لعظمته في الممرات بساطًا ضيقًا وفجـأة نظرت فإذا أنا أسير على البسـاط وجلالتـه يسـير علـى الأرض، فقلت: عفوا، إن هذا البساط قد وضع لعظمتكم أمـا أنا فأسير كل يوم من هذا الطريق علـى الأرض. فضـحك جلالته ثانية وقال: لا حرج عليكِ.

زرنا جميع الفصول، وقد ارتاح جلالته إلي وأخذ يصغي إلى حديثي كأنه يعرفني منذ زمن بعيد فلما انتهـت زيارتـه لفصول مدرسة المعلمات انتقلنا إلى الملعب، فشاهد عظمتـه فصلاً يلعب بعض تمرينات رياضية، وكنت أقف إلى جانبـه ومن ورائي حضرتا صاحب المعالي سعيد باشـا ذو الفقـار وعدلي يكن باشا وزير المعارف إذ ذاك وإلى جانب وزيـر المعارف المرحوم مغربي باشا، وقد مال عليه وأفهمه أنـي أريد أن يزور عظمة السـلطان المدرسـة الملحقـة وهـو ما لا يوافق عليه، واستعد المغفور له عدلي باشا لمنع تلـك الرغبة التي أريدها أنا، ولكني سبقته إلى تنفيـذها، فقلـت: لجلالته: إني قد أعددت لزيارة عظمتكم المدرسـة الملحقـة

وهي أظرف بكثير من مدرسة المعلمات لأن تلميذاتها طفلات صغيرات، ولكنهم يحاولون منعي من ذلك مع أنـي أنفقـت على زينة تلك المدرسة من جيبي الخاص، وكل حجتهم فـي ذلك المنع أننا سنسير خطوات تحت الشمس، وأنا مستعدة ردا على هذا الاعتراض أن أحضر لعظمتكم مظلة. قـال: أنـا عسكري يا سيدة، وسأذهب إليها رغم هذا وبدون مظلة.

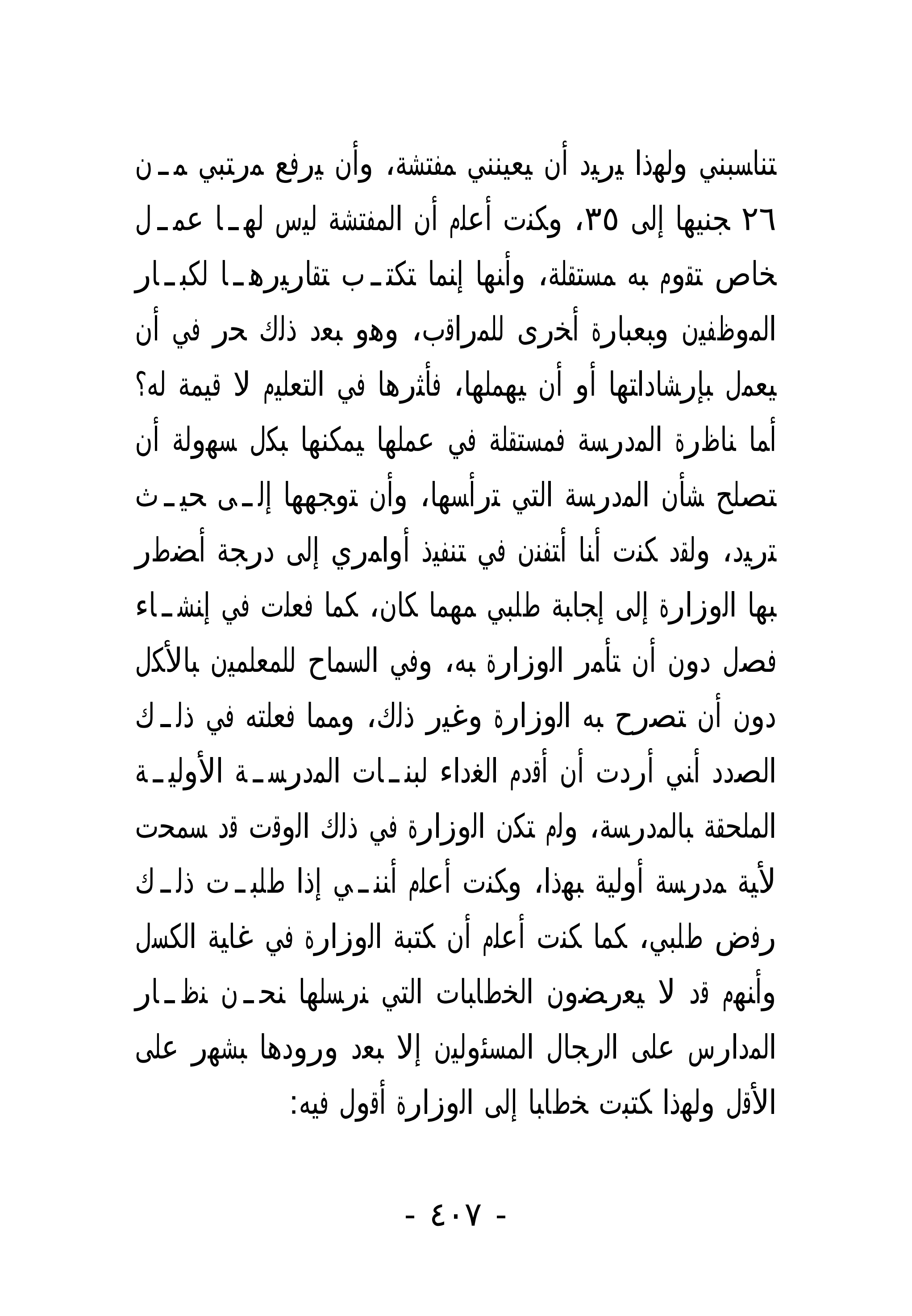
وانتهت ألعاب الطالبات وابتدأنا نسـير جهـة المدرسـة الملحقة وأسرع المغفور له عدلي يكن باشا ليمنع جلالته عن الذهاب، فقال له باللغة الفرنسية: لقد أعطيت وعدا بالذهاب، فسرنا وسار الجميع في أثرنا وهم يتهامسون حتى إذا وصلنا إلى المدرسة الملحقة، قال عظمته: حقًا إنهـا أفضـل مـن مدرسة المعلمات، وكانت المدرسة حديثة البناء تتكون مـن ثلاثة أضلاع، وكان العيب الوحيد الذي في البناء أنه لا توجد مظلات أمام أبواب الفصول. بل كانت تفتح جميعهـا علـى العراء، ولستر هذا العيب وضعت أمام الفصول قماشًا يحجب الشمس عنها فظهر بهاؤها ورونقها. فلما قال عظمته: إنهـا أحسن من مدرسة المعلمات. قلت: نعم هي أحسن الآن بعـد أن وضعنا لها هذا القماش، لأن هذا البناء يعيبه عدم وجـود

مظلات أمام أبوابه ولعلهم أرادوا، بعدم مجيء عظمتك إلـى هنا إخفاء ذلك العيب. فضحك جلالته ودفعني عدلي باشا يكن في ظهري بقبضة يده قائلاً: ألا تريـدين السـكوت؟ قلـت: لا، ويجب أن يعرف عظمته كل شـيء. فضـحك الجميـع وسرنا إلى غرفتي. وهناك شكرني حضرة صاحب الجلالـة المغفور له الملك فؤاد، وقال إنه لم يسر من مدرسـة مثـل سروره من مدرستي، ووقف المفتش الإنجليـزي مشـدوها لا يبدي حراكًا، حتى أنه لكثرة دهشته فتح فمه فلـم يغلقـه، وخرج عظمة السلطان ومن معه، ولم يبـق أمـامي غيـر حضرة المفتش، فقال: لا أدري ما الذي صنعت لـه حتـى أعجب بك كل الإعجاب؟ قلت: لقد سحرته يا مستر فلان كما سحرت جناب المستر دانلوب من قبل، ولكني لسوء حظي لم يفلح سحري فيـك أنـت فقـط، فتركنـي دون أن يجيبنـي وانصرف.

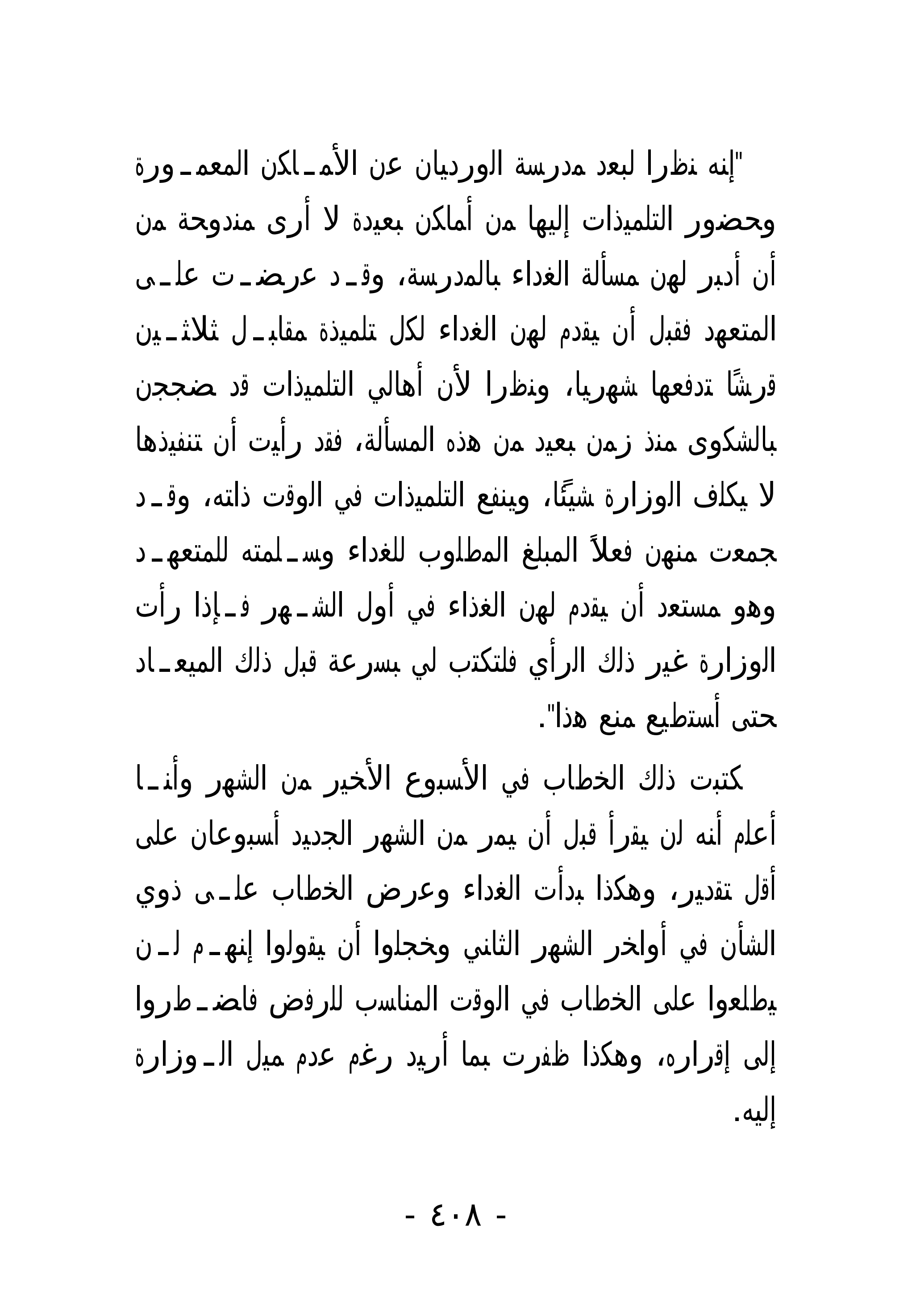


نتائج الزيارة الملكية

انتهت الزيارة الملكية، وكان من أثرها أن عمل ذلك المفتش ضدي جهد المستطاع، وكان لسوء حظي أننا أن المستر داناوب الذي كان يحميني قد عاد إلى بلاده، وانتهز ذلك المفتش الفرصة وأفهم الإنجليز أني ضدهم، وأن بقائي كناظرة محبوبة قد يكون له نتائج لا تتناسب وحالة الحرب التي كنا فيها، وتغاضى سامحه ا عن أن مدرستي كانت المدرسة الوحيدة التي لم تضرب، ولم تقم بأية حركة، ولكن هكذا الشخصيات تدخل في السياسة وكل شيء فالرجل لأغراضه الشخصية اتهمني بما يعلم هو نفسه أنه اتهام باطل والإنجليز يثقون في بعضهم البعض ثقة عمياء فلا يبحثون عن مبلغ ما يقوله أحدهم من الصحة أو من الحقيقة، وهكذا اتفق رأيهم على ألا أعمل في التعليم عملاً جديا، ولم أكن أعلم بذلك الاتفاق وبعد الزيارة بأسبوع جاءني ذلك المفتش وقال لي: إن الوزارة قد رأت ترقيتي لأن عظمة السلطان قد سر من مدرستي سرورا عظيما، وإنه جاء ليخبرني بتلك الترقية، وقد بحث في ميزانية المدرسة فلم يجد لي درجة



تناسبني ولهذا يريد أن يعينني مفتشة، وأن يرفع مرتبي مـن ٢٦ جنيها إلى ٣٥، وكنت أعلم أن المفتشة ليس لهـا عمـل خاص تقوم به مستقلة، وأنها إنما تكتـب تقاريرهـا لكبـار الموظفين وبعبارة أخرى للمراقب، وهو بعد ذلك حر في أن يعمل بإرشاداتها أو أن يهملها، فأثرها في التعليم لا قيمة له؟ أما ناظرة المدرسة فمستقلة في عملها يمكنها بكل سهولة أن تصلح شأن المدرسة التي ترأسها، وأن توجهها إلـى حيـث تريد، ولقد كنت أنا أتفنن في تنفيذ أوامري إلى درجة أضطر بها الوزارة إلى إجابة طلبي مهما كان، كما فعلت في إنشـاء فصل دون أن تأمر الوزارة به، وفي السماح للمعلمين بالأكل دون أن تصرح به الوزارة وغير ذلك، ومما فعلته في ذلـك الصدد أني أردت أن أقدم الغداء لبنـات المدرسـة الأوليـة الملحقة بالمدرسة، ولم تكن الوزارة في ذلك الوقت قد سمحت لأية مدرسة أولية بهذا، وكنت أعلم أننـي إذا طلبـت ذلـك رفض طلبي، كما كنت أعلم أن كتبة الوزارة في غاية الكسل وأنهم قد لا يعرضون الخطابات التي نرسلها نحـن نظـار المدارس على الرجال المسئولين إلا بعد ورودها بشهر على الأقل ولهذا كتبت خطابا إلى الوزارة أقول فيه:

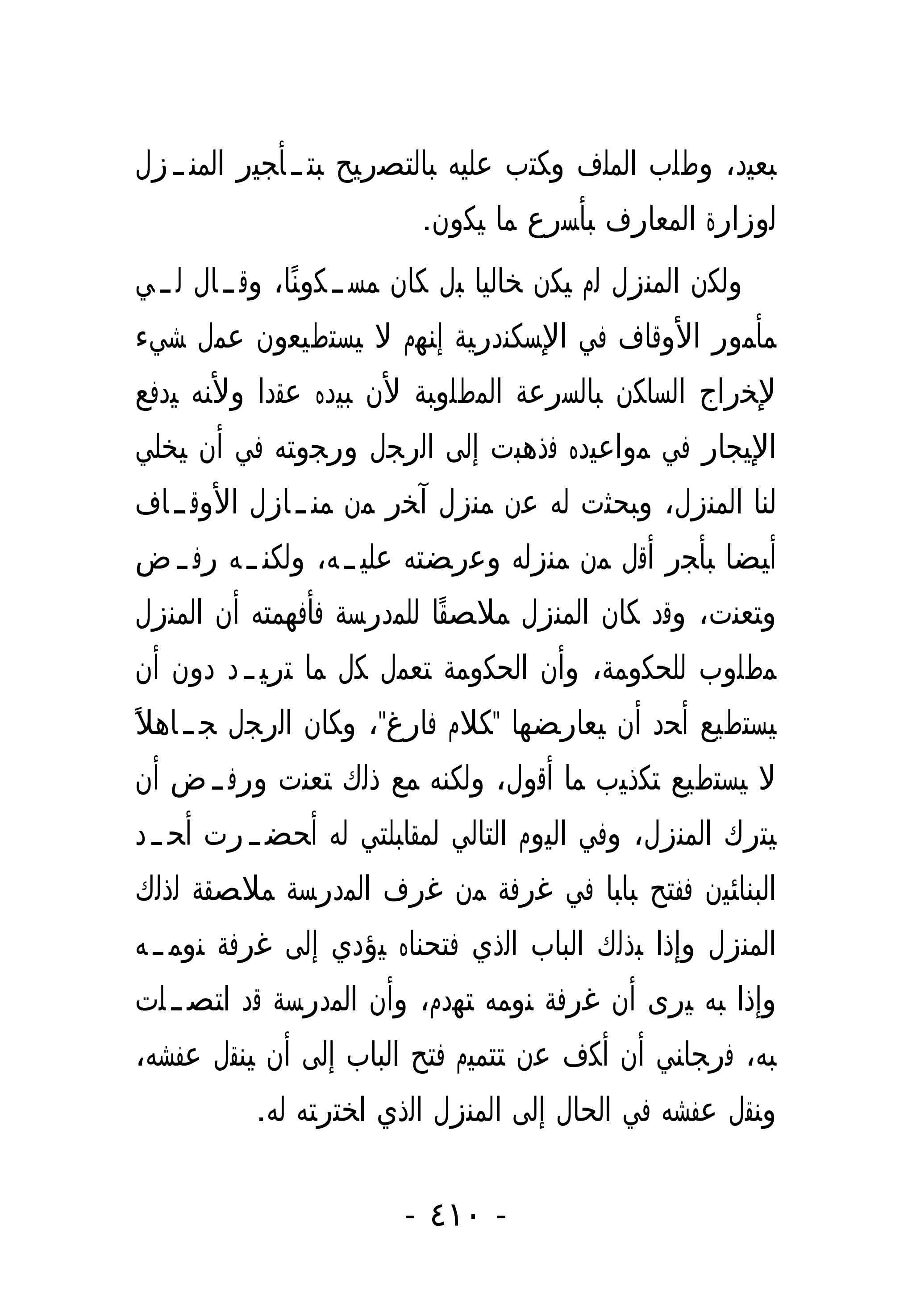


"إنه نظرا لبعد مدرسة الورديان عن الأماكن المعمورة وحضور التلميذات إليها من أماكن بعيدة لا أرى مندوحة من أن أدبر لهن مسألة الغداء بالمدرسة، وقد عرضت على المتعهد فقبل أن يقدم لهن الغداء لكل تلميذة مقابل ثلاثين قرشًا تدفعها شهريا، ونظرا لأن أهالي التلميذات قد ضججن بالشكوى منذ زمن بعيد من هذه المسألة، فقد رأيت أن تنفيذها لا يكلف الوزارة شيئًا، وينفع التلميذات في الوقت ذاته، وقد جمعت منهن فعلاً المبلغ المطلوب للغداء وسلمته للمتعهد وهو مستعد أن يقدم لهن الغذاء في أول الشهر فإذا رأت الوزارة غير ذلك الرأي فلتكتب لي بسرعة قبل ذلك الميعاد حتى أستطيع منع هذا".

كتبت ذلك الخطاب في الأسبوع الأخير من الشهر وأنا أعلم أنه لن يقرأ قبل أن يمر من الشهر الجديد أسبوعان على أقل تقدير، وهكذا بدأت الغداء وعرض الخطاب على ذوي الشأن في أواخر الشهر الثاني وخجلوا أن يقولوا إنهم لن يطلعوا على الخطاب في الوقت المناسب للرفض فاضطروا إلى إقراره، وهكذا ظفرت بما أريد رغم عدم ميل الوزارة إليه.

واحتجت في بعض الأحيان إلى غرف أزيدها على مباني المدرسة، وكانت المدرسة في بناء مستأجر تابع لوزارة الأوقاف، وكان يحيط بذلك البناء منازل أخرى تابعة لوزارة الأوقاف أيضا.

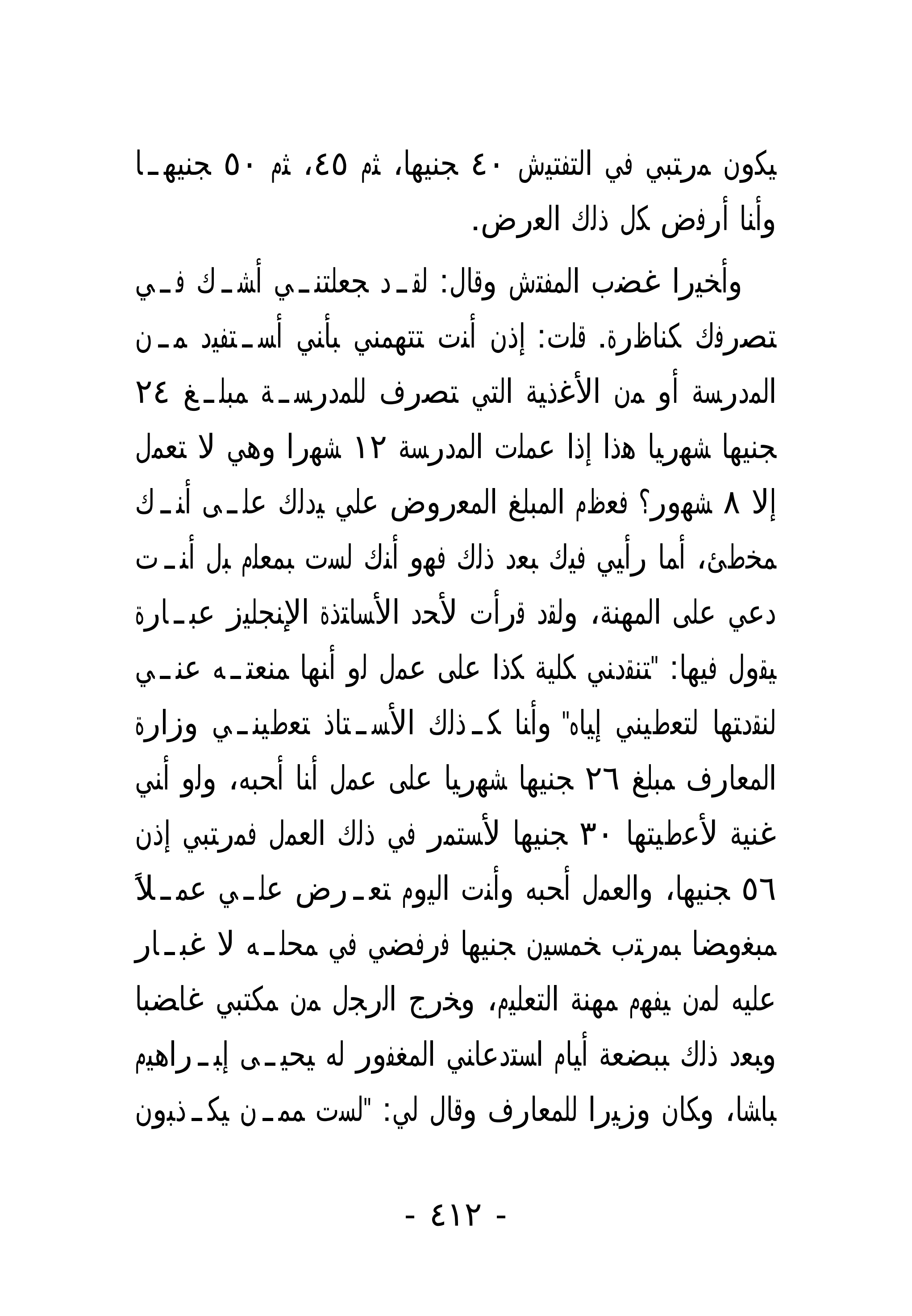
وكتبت إلى الوزارة لتخابر الأوقاف في أن تؤجر لنا منزلاً معينًا من تلك المنازل التي تحيط بنا، وتلكأت وزارة الأوقاف في إجابة الطلب، وعرضت الأوراق على المرحوم فتحي باشا، وكان مشهورا بتصرفاته المدهشة العجيبة ولما قرأ في خطاب وزارة المعارف أنها في أشد الحاجة إلى استئجار ذلك المنزل بأسرع ما يكون، كتب عليه وهو يبتسم كلمة: "طظ"، وهكذا كلما عرض عليه أمر استئجار ذلك المنزل كتب عليه تلك الكلمة المأثورة وأخيرا ذهبت إليه وقلت له: إنك تعلم يا معالي الوزير أني أنا الناظرة المصرية الوحيدة، فأنا افتتح الآن طريق المصريات ولو أن ملف تلك المدرسة عرض عليك وفيه إشارة من ناظرة إنجليزية لنفذت لها معاليك ما تريد. وخجل المرحوم بعض الشيء وقال: لو أني أعلم أن ناظرة تلك المدرسة مصرية لنفذت ذلك من زمن



بعيد، وطلب الملف وكتب عليه بالتصريح بتـأجير المنـزل لوزارة المعارف بأسرع ما يكون.

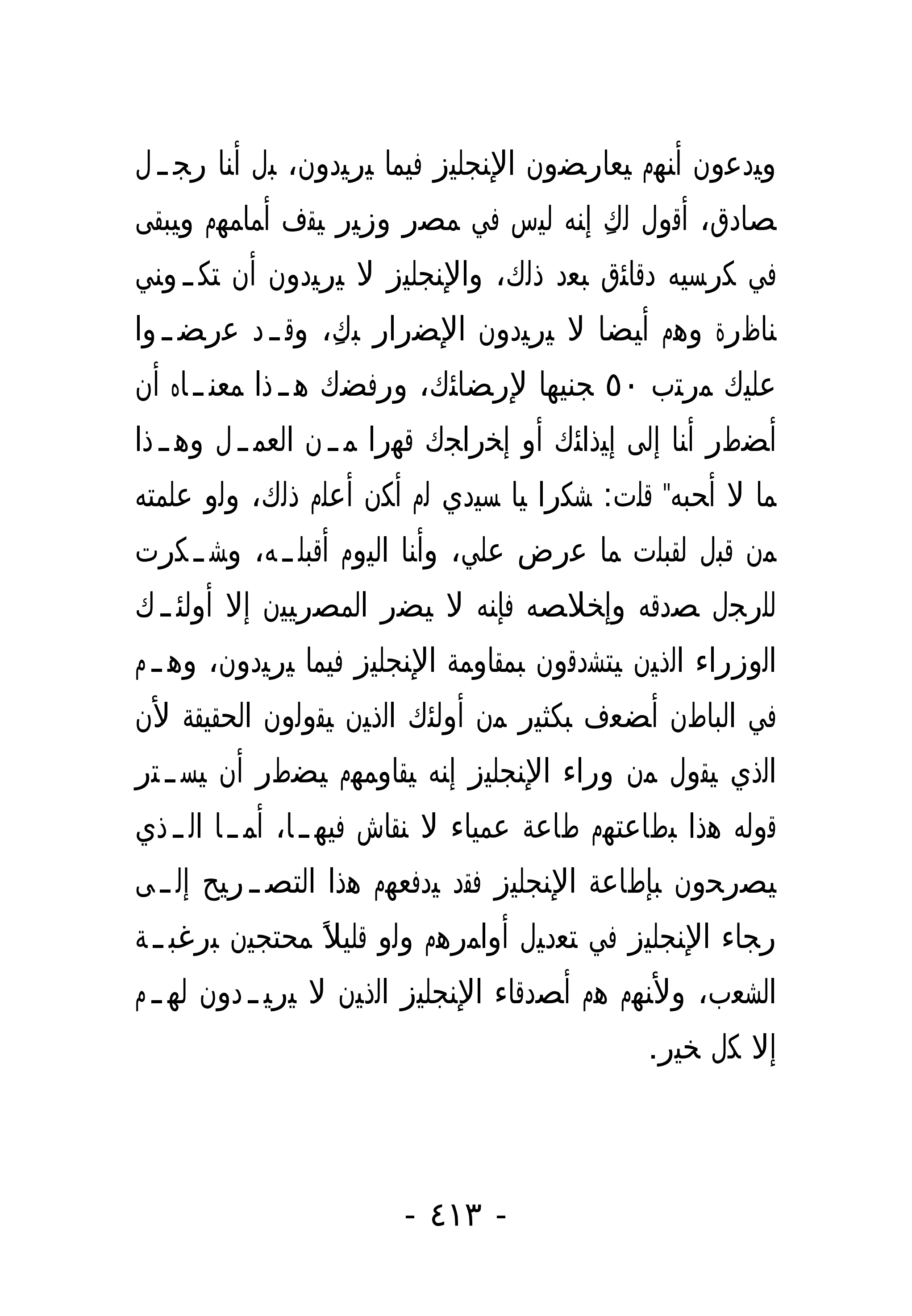
ولكن المنزل لم يكن خاليا بل كان مسـكونًا، وقـال لـي مأمور الأوقاف في الإسكندرية إنهم لا يستطيعون عمل شيء لإخراج الساكن بالسرعة المطلوبة لأن بيده عقدا ولأنه يدفع الإيجار في مواعيده فذهبت إلى الرجل ورجوته في أن يخلي لنا المنزل، وبحثت له عن منزل آخر من منـازل الأوقـاف أيضا بأجر أقل من منزله وعرضته عليـه، ولكنـه رفـض وتعنت، وقد كان المنزل ملاصقًا للمدرسة فأفهمته أن المنزل مطلوب للحكومة، وأن الحكومة تعمل كل ما تريـد دون أن يستطيع أحد أن يعارضها "كلام فارغ"، وكان الرجل جـاهلاً لا يستطيع تكذيب ما أقول، ولكنه مع ذلك تعنت ورفـض أن يترك المنزل، وفي اليوم التالي لمقابلتي له أحضـرت أحـد البنائين ففتح بابا في غرفة من غرف المدرسة ملاصقة لذلك المنزل وإذا بذلك الباب الذي فتحناه يؤدي إلى غرفة نومـه وإذا به يرى أن غرفة نومه تهدم، وأن المدرسة قد اتصـلت به، فرجاني أن أكف عن تتميم فتح الباب إلى أن ينقل عفشه، ونقل عفشه في الحال إلى المنزل الذي اخترته له.

وهكذا كنت أنفذ أوامري بكل طريقة ممكنة وغير ممكنة، فكنت كناظرة أقوم مستقلة بعملي أعمل لإصـلاح المدرسـة ما استطعت إلى ذلك سبيلا حتى كنت أعمل ما يراه غيـري غير ممكن. أما كمفتشة فليس لي التنفيذ ولا العمـل مسـتقلة وكل ما أستطيع عمله هو تقديم تقارير واقتراحات تتضخم بها دواليب وزارة المعارف دون أن يقرأها أحد، ولقـد عرفـت ذلك من تجارب كثيرة إذ كنت أرى تقرير المفـتش يـأتيني وعليه إشارة مراقب التعليم والوكيل بأمل اتباعه وبعد شـهر من تاريخ ذلك التقرير يأتيني تقرير آخر يناقضه وعليه نفس الإشارات مع العلم أني لا أستطيع تنفيذ التقريرين ويعارض كلاهما الآخر. إذن تقارير المفتشين كانت لا تتبع إذا تعقـل الناظر وأراد ألا يسير سيرا مضطربا متناقضا، أو تنفذ لمدة شهر إذا كان الناظر عديم التفكير، ثم يمحوها تقريـر آخـر ولهذا كنت أكره أن أعمل في التفتيش الذي لا أثر لـه فـي إصلاح التعليم، ولهذا كله رفضت الوظيفة التي عرضها علي ذلك المفتش ورفضت العلاوة أيضا ومقـدارها ٩ جنيهـات شهريا، وسافر المفتش ممتعضا، ثم عاد فعـرض علـي أن



يكون مرتبي في التفتيش ٤٠ جنيها، ثم ٤٥، ثم ٥٠ جنيهـا وأنا أرفض كل ذلك العرض.

وأخيرا غضب المفتش وقال: لقـد جعلتنـي أشـك فـي تصرفك كناظرة. قلت: إذن أنت تتهمني بأني أسـتفيد مـن المدرسة أو من الأغذية التي تصرف للمدرسـة مبلـغ ٢٤ جنيها شهريا هذا إذا عملت المدرسة ١٢ شهرا وهي لا تعمل إلا ٨ شهور؟ فعظم المبلغ المعروض علي يدلك علـى أنـك مخطئ، أما رأيي فيك بعد ذلك فهو أنك لست بمعلم بل أنـت دعي على المهنة، ولقد قرأت لأحد الأساتذة الإنجليز عبـارة يقول فيها: "تنقدني كلية كذا على عمل لو أنها منعتـه عنـي لنقدتها لتعطيني إياه" وأنا كـذلك الأسـتاذ تعطينـي وزارة المعارف مبلغ ٢٦ جنيها شهريا على عمل أنا أحبه، ولو أنني غنية لأعطيتها ٣٠ جنيها لأستمر في ذلك العمل فمرتبي إذن ٥٦ جنيها، والعمل أحبه وأنت اليوم تعـرض علـي عمـلاً مبغوضا بمرتب خمسين جنيها فرفضي في محلـه لا غبـار عليه لمن يفهم مهنة التعليم، وخرج الرجل من مكتبي غاضبا وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاني المغفور له يحيـى إبـراهيم باشا، وكان وزيرا للمعارف وقال لي: "لست ممـن يكـذبون



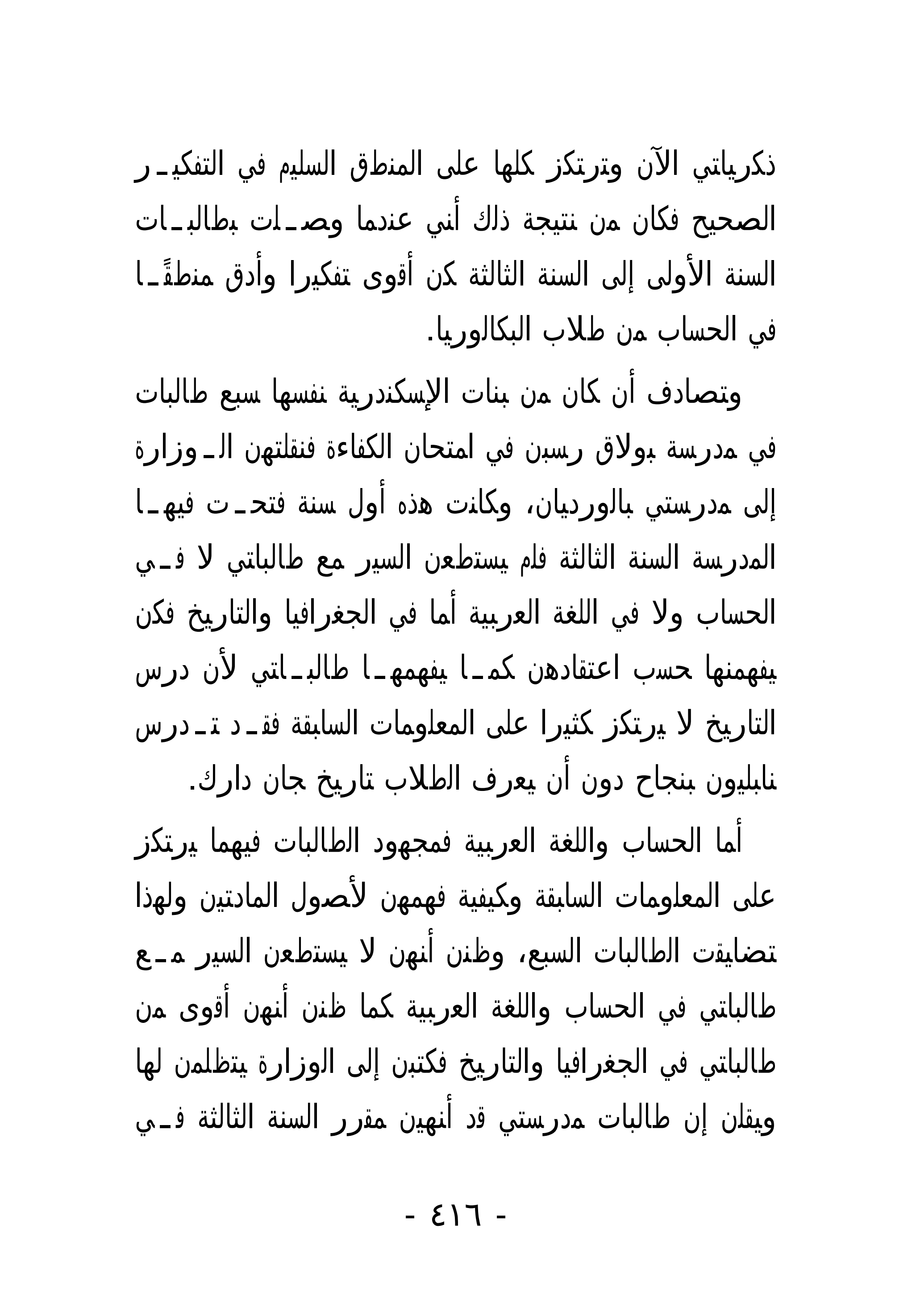
ويدعون أنهم يعارضون الإنجليز فيما يريدون، بل أنا رجـل صادق، أقول لكِ إنه ليس في مصر وزير يقف أمامهم ويبقى في كرسيه دقائق بعد ذلك، والإنجليز لا يريدون أن تكـوني ناظرة وهم أيضا لا يريدون الإضرار بكِ، وقـد عرضـوا عليك مرتب ٥٠ جنيها لإرضائك، ورفضك هـذا معنـاه أن أضطر أنا إلى إيذائك أو إخراجك قهرا مـن العمـل وهـذا ما لا أحبه" قلت: شكرا يا سيدي لم أكن أعلم ذلك، ولو علمته من قبل لقبلت ما عرض علي، وأنا اليوم أقبلـه، وشـكرت للرجل صدقه وإخلاصه فإنه لا يضر المصريين إلا أولئـك الوزراء الذين يتشدقون بمقاومة الإنجليز فيما يريدون، وهـم في الباطن أضعف بكثير من أولئك الذين يقولون الحقيقة لأن الذي يقول من وراء الإنجليز إنه يقاومهم يضطر أن يسـتر قوله هذا بطاعتهم طاعة عمياء لا نقاش فيهـا، أمـا الـذي يصرحون بإطاعة الإنجليز فقد يدفعهم هذا التصـريح إلـى رجاء الإنجليز في تعديل أوامرهم ولو قليلاً محتجين برغبـة الشعب، ولأنهم هم أصدقاء الإنجليز الذين لا يريـدون لهـم إلا كل خير.

وهكذا نفعني ذلك الرجل العظيم بتصريحه وعـدت إلـى الإسكندرية وزارني صاحبي المفتش في اليوم التالي وسألني عن رأيي في العرض الذي عرضه. قلت: لقد قبلت العرض مع الشكر قال إنك لم تقبليه حتى خاطبك الوزير. قلت: نعـم لأنه كلمني باللغة العربية "بالعربي" ففهمته، ولم يفهم الرجـل مضمون العبارة "العربية" التي أردت بها الصراحة. فقـال، ولكنك تحسنين اللغة الإنجليزية، قلت: نعم، ولكنـي أحسـن اللغة العربية أكثر من ذلك ولا أفهم الحقائق إلا بها. وهكـذا قلت ما أريد دون أن يفهمه الرجل ونقلت بقدرة مـا لا أدري إلى التفتيش.

كيف كانت خطتي في التدريس؟

أرى، وقد نقلت: إلى التفتيش أن أذكر للقـراء ذكريـاتي كيف كانت خطتي في التدريس قبل أن أعمل في التفتيش.

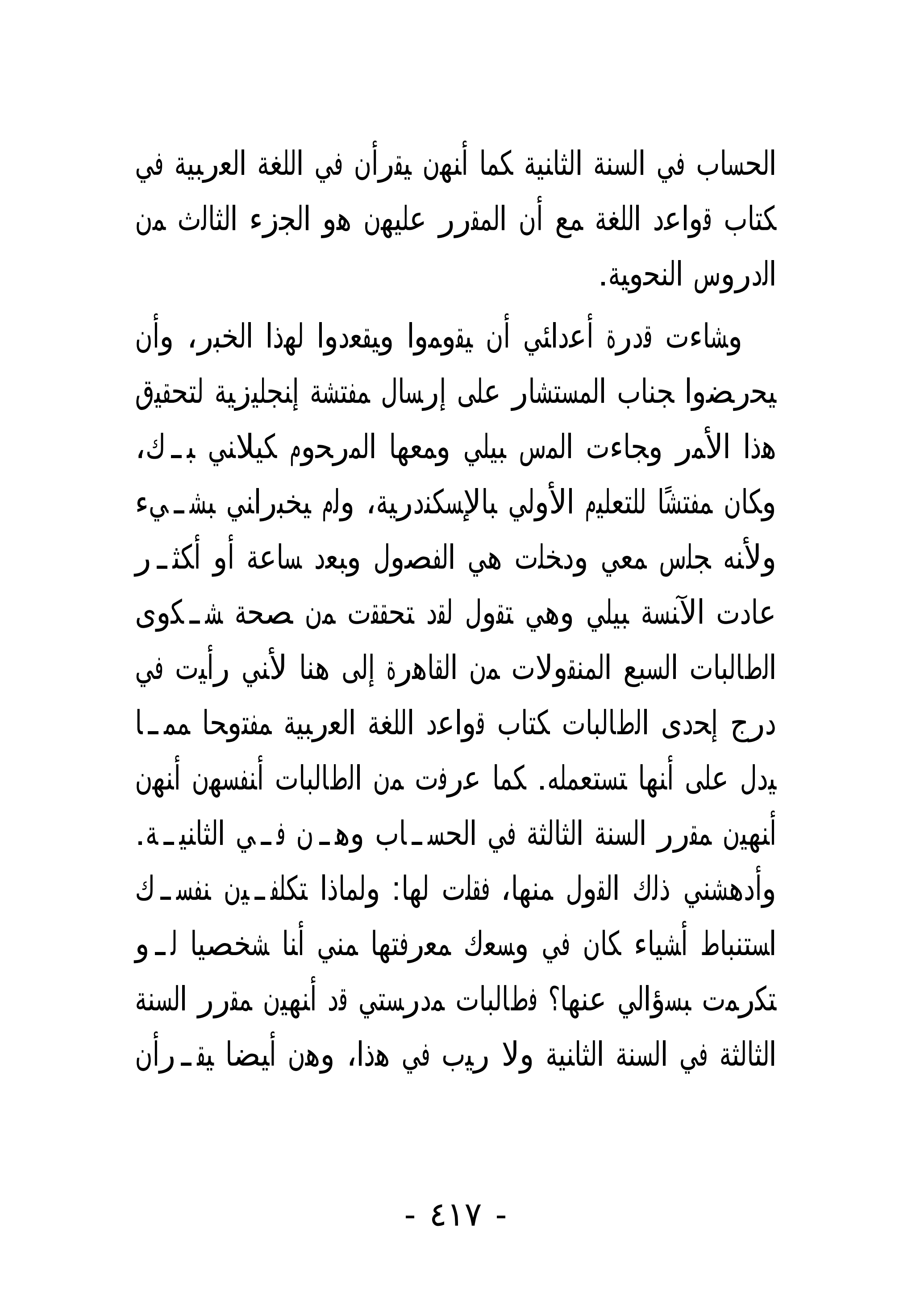
أردت أن أجرب تدريس الحساب بنفسـي لأرى نتيجـة الطالبات إذا اتبعت المعلمة معهن التفكير المنطقـي السـليم فدرست الحساب للسنة الأولى، وكنـت آخـذهن بـالمنطق لا بالقواعد فقلت لهن إن المعاملات في الدنيا لا تخرج عـن حالتين إما أن يضم الإنسان شيئًا إلى ما معه وهـذا يسـمى "جمعا" وإما أن يعطي غيره شيئا مما معـه وهـذا يسـمى (طرحا) وليس في الحساب إلا هاتان العمليتان أخذ وعطـاء، ولكننا نسمي جمع الأعداد المتشابهة ضربا وبـدلاً مـن أن أجمع ٥ على نفسها ست مرات أضرب ٥ × ٦، كما نسـمي طرح الأعداد المتشابهة من عدد قسمة فإذا قسمنا ٣٠٠ على ٢٥ فنحن نطرح ٢٥ من ٣٠٠ ونبحث عن كم مـرة يمكـن طرح ٢٥ منه، فخارج القسمة وهو ١٢ معناه أننا اسـتطعنا أن نطرح ٢٥ من ٣٠٠ اثنتي عشرة مرة، وهكذا سرت مـع الطالبات بطرق غيـر مسـتعملة لا أرى أن أشـرحها فـي



ذكرياتي الآن وترتكز كلها على المنطق السليم في التفكيـر الصحيح فكان من نتيجة ذلك أني عندما وصـلت بطالبـات السنة الأولى إلى السنة الثالثة كن أقوى تفكيرا وأدق منطقًـا في الحساب من طلاب البكالوريا.

وتصادف أن كان من بنات الإسكندرية نفسها سبع طالبات في مدرسة بولاق رسبن في امتحان الكفاءة فنقلتهن الـوزارة إلى مدرستي بالورديان، وكانت هذه أول سنة فتحـت فيهـا المدرسة السنة الثالثة فلم يستطعن السير مع طالباتي لا فـي الحساب ولا في اللغة العربية أما في الجغرافيا والتاريخ فكن يفهمنها حسب اعتقادهن كمـا يفهمهـا طالبـاتي لأن درس التاريخ لا يرتكز كثيرا على المعلومات السابقة فقـد تـدرس نابليون بنجاح دون أن يعرف الطلاب تاريخ جان دارك.

أما الحساب واللغة العربية فمجهود الطالبات فيهما يرتكز على المعلومات السابقة وكيفية فهمهن لأصول المادتين ولهذا تضايقت الطالبات السبع، وظنن أنهن لا يستطعن السير مـع طالباتي في الحساب واللغة العربية كما ظنن أنهن أقوى من طالباتي في الجغرافيا والتاريخ فكتبن إلى الوزارة يتظلمن لها ويقلن إن طالبات مدرستي قد أنهين مقرر السنة الثالثة فـي



الحساب في السنة الثانية كما أنهن يقرأن في اللغة العربية في كتاب قواعد اللغة مع أن المقرر عليهن هو الجزء الثالث من الدروس النحوية.

وشاعت قدرة أعدائي أن يقوموا ويقعدوا لهذا الخبر، وأن يحرضوا جناب المستشار على إرسال مفتشة إنجليزية لتحقيق هذا الأمر وجاءت المس بيلي ومعها المرحوم كيلاني بـك، وكان مفتشًا للتعليم الأولي بالإسكندرية، ولم يخبراني بشـيء ولأنه جلس معي ودخلت هي الفصول وبعد ساعة أو أكثـر عادت الآنسة بيلي وهي تقول لقد تحققت من صحة شـكوى الطالبات السبع المنقولات من القاهرة إلى هنا لأني رأيت في درج إحدى الطالبات كتاب قواعد اللغة العربية مفتوحا ممـا يدل على أنها تستعمله. كما عرفت من الطالبات أنفسهن أنهن أنهين مقرر السنة الثالثة في الحسـاب وهـن فـي الثانيـة. وأدهشني ذلك القول منها، فقلت لها: ولماذا تكلفـين نفسـك استنباط أشياء كان في وسعك معرفتها مني أنا شخصيا لـو تكرمت بسؤالي عنها؟ فطالبات مدرستي قد أنهين مقرر السنة الثالثة في السنة الثانية ولا ريب في هذا، وهن أيضا يقـرأن

في كتاب قواعد اللغة العربية ولو أنك شرفت المدرسة في الحصة الأولى لوجدت الكتاب في أيديهن.

قالت: ولم إذن تخالفين منهج التدريس؟

قلت: لم أخالفه يا سيدتي. لأن المنهج نص على تعليمهن الاشتغال والندبة وجموع التكسير وغير ذلك من الأبواب التي لا وجود لها في الكتاب الثالث الذي وزعته الوزارة عليهن، وقد رأيت بدلاً من ضياع الوقت في إملاء تلك الأبواب عليهن ونحن في عصر السرعة أن يشترين كتاب قواعد اللغة، والكتاب ليس من تأليفي ولا من تأليف والدي حتى يظن أن لي غرضا شخصيا من أن تشتريه الطالبات بل هو كتاب تبيعه وزارة المعارف فالربح عائد إليها وغرضي هو عدم ضياع أوقات الطالبات فيما لا يفيد، قالت: ولكنك خالفت المنهج. قلت: وكيف ذلك؟ قالت: لأن المنهج نص على أن تكون هذه الأبواب حسب ما في الكتاب الثالث، قلت: إن هذه الأبواب يا سيدتي غير موجودة في الكتاب الثالث، فكيف نعطيها حسب ما في الكتاب الثالث؟ إنه كلام لا قيمة له ولا معنى ولو أنك رجعت إلى مذكرات طالبات معلمات بولاق لوجدت أن المعلم قد أملى عليهن تلك الأبواب من

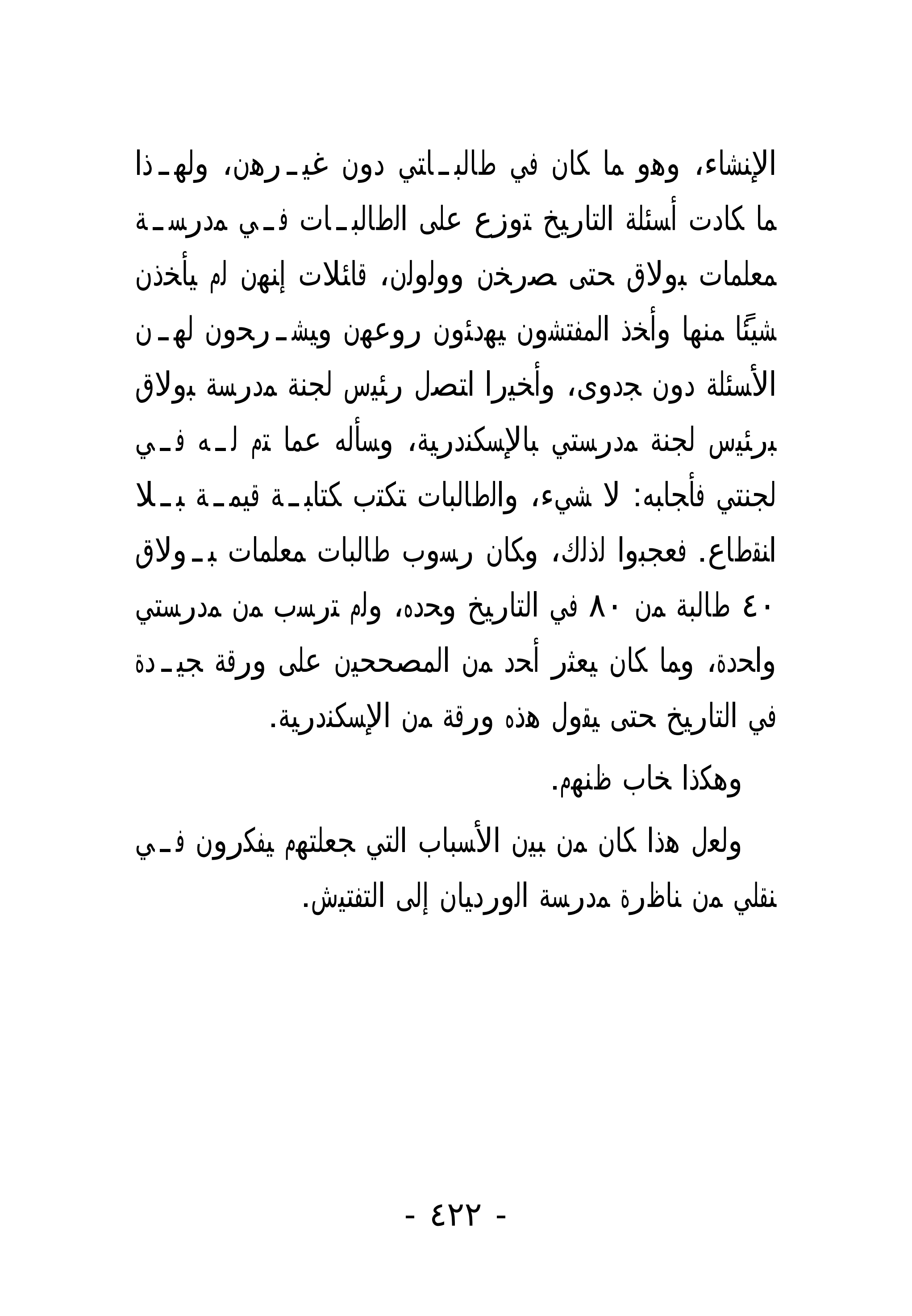
كتاب قواعد اللغة بالحرف الواحد. قالت: كلا.. إنه يبسـطها إلى حد الكتاب الثالث. قلت: إني قد علمتك اللغـة العربيـة يا سيدتي ومع ذلك فيظهر لي الآن أنك تعرفين فيها أكثر مما أعرفه أنا فهل لكِ أن تبسطي هذه الأبواب أو تأمري معلمـا بتبسيطها لأتعلم منك ما تريدين؟ قالـت: ومـا رأيـك فـي الحساب، وقد خالفت فيه المنهج صراحة؟ قلت: كلا لم أخالفه فإن المنهج قد ذكر أبوابا في السنة الأولى أو في السنة الثانية فعلمت كل ما ذكر وزدت عليه فأنا لم أخالف المنهج، ولكـن منهجكم ناقص، وكان الواجب أن يقول: "ومحظور إعطـاء غير ما ذكر"، ولكنه لم يفعل. قالت: ولكنك بإنهائـك مـنهج السنوات الثلاث في سنتين تخلين بطرق التربيـة الصـحيحة لأنك لم تسيري في تدريسك خطوة خطوة. قلت: لك الحق في ذلك يا سيدتي، فأنا على ما يظهر قد درست مقـرر السـنة الأولى في أربعة شهور بينما درستم أنتم في مدرسـة بـولاق على ما يظهر لي في ثلاث سنوات وإذا كان السير بالطالبات خطوة خطوة مفيد كما تظنين فأنا أطلب منك إجراء امتحـان لطالباتي وطالباتكم في مقرر السنة الأولى فقط فإن نجحـت طالباتكم وجب علي أن أغير خطتي، وإن نجحـت طالبـاتي

كان عليكم أنتم أن تغيروا خطتكم. قالت: ستنجح طالباتك لا مراء لأنك موهوبة في الحساب، ولكن المدارس الأخرى لو سارت على نهجك لفشلت؟ قلت: وهل طلبت منكم أن تسير المدارس الأخرى على نهجي؟ وما دمت أنا ناجحة في طريقتي فكيف تنتقدونني فيها؟ وطال بيني وبينها الجدال وأخيرا كلمت المستر داناوب تليفونيا فقلت له: إن جناب المس بيلي تحقق معي في تهم أنا معترفة بها ولا أرى مع هذا الاعتراف وجها للتحقيق فالمسألة أنني سرت في طريقي على كيت وكيت، والأمر بيدك إن شئت سمحت لي بالأمر فيما أفعل وإن شئت عاقبت بما تريد، ولست أنوي التحول عن رأيي فاسحب مفتشك واعمل ما تراه صالحا، قال: سأحملك في النهاية تبعة فشل هؤلاء الطالبات إذا لم تنجحي في طريقتك. قلت: وهو كذلك، وناولت سماعة التليفون للآنسة المفتشة فطلب منها أن تترك المدرسة.

وبعد أسبوع من ذلك التاريخ زار المدرسة مفتش إنجليزي لا أعرفه، وكانت مهمته امتحان السنة الثالثة ودهش لسرعة الطالبات في الإجابة مع صحة الجواب، بقي معهن ما يزيد على حصة كاملة، ثم انتقل إلى مكتبي، فقال: لقد تحققت أن

لكِ طريقة شاذة في تدريس الحساب لا تتبعها المدارس الأخرى، ولهذا أرجو أن تسيري على نهج المدارس الأخرى حتى تكون بينكم وحدة في التعليم، قلت: أرجو أن تخبرني عن رأيك في طالباتي وطالبات المدارس الأخرى أيهن أقوى تفكيرا وأكثر استعدادا؟ قال: إن طالباتك أقوى من المدارس الأخرى بلا جدال. قلت: إذن فاطلب من المدارس الأخرى أن تتبعني. قال: لقد استدرجتني إلى ما لا أريده. قلت: إنما استدرجتك الحقيقة التي لا مراء فيها.

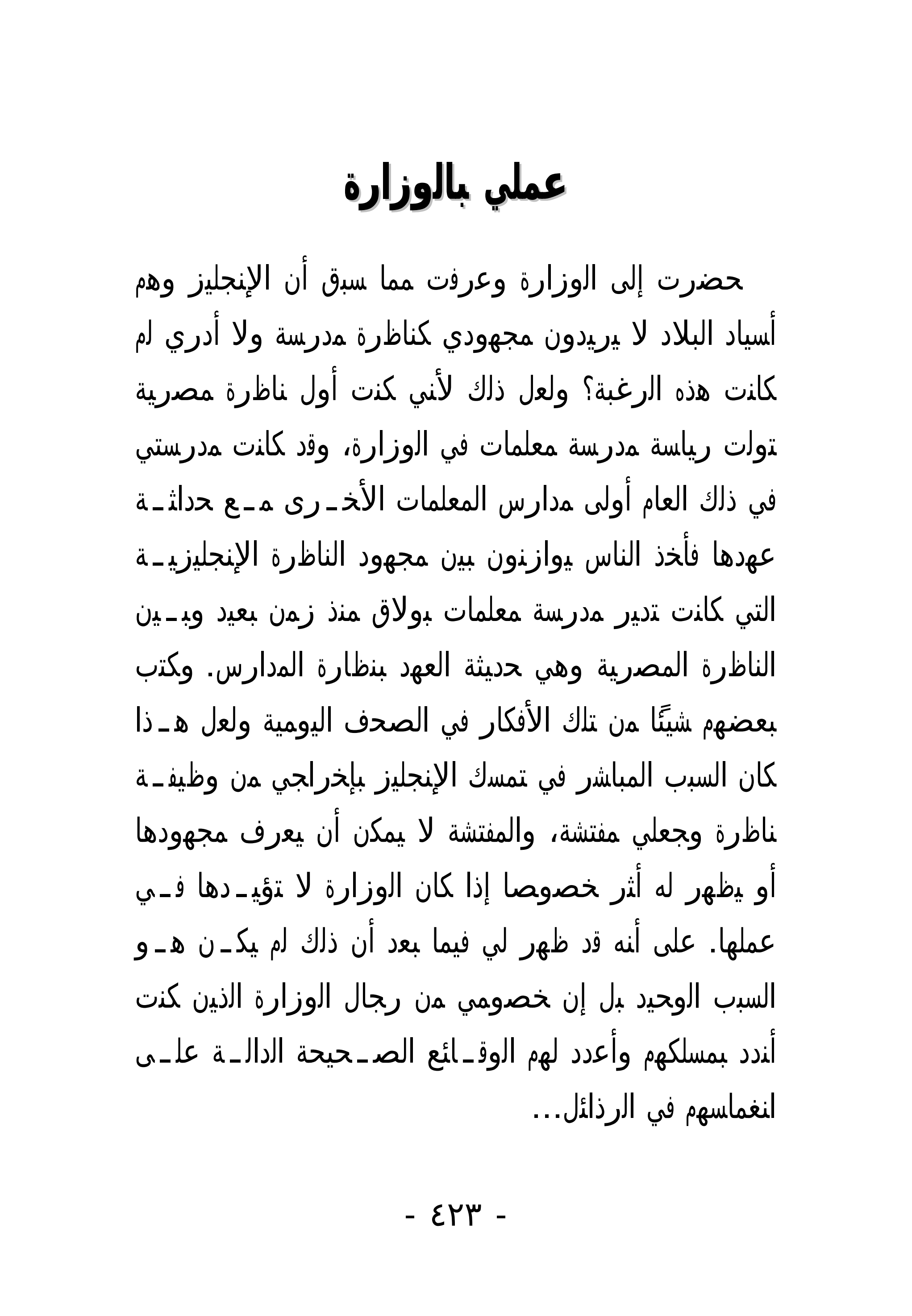
أخذت الوزارة تتكلم في مسألة قوة طالباتي في اللغة العربية والحساب وضعفهن في التاريخ والجغرافيا حسب ما كانوا يظنون وأجمعوا رأيهم على أن يكون امتحان الكفاءة سهلاً جدا في اللغة العربية والحساب وصعبا في التاريخ والجغرافيا إلى حد الإعجاز حتى ترسب جميع طالباتي وفات منطقهم الصحيح أن صعوبة أسئلة التاريخ تأتي من أن يختار واضع الأسئلة موضوعا عقليا لا وجود له في الكتب التي بأيدي التلاميذ، أقصد لا وجود له في صفحة واحدة لأنه يتطلب مقارنة أعمال الملك فلان بأعمال غيره من وجهة كذا وكذا، ومثل هذه الأسئلة تحتاج إلى فكر وإلى مقدرة في



الإنشاء، وهو ما كان في طالبـاتي دون غيـرهن، ولهـذا ما كادت أسئلة التاريخ توزع على الطالبـات فـي مدرسـة معلمات بولاق حتى صرخن وولولن، قائلات إنهن لم يأخذن شيئًا منها وأخذ المفتشون يهدئون روعهن ويشـرحون لهـن الأسئلة دون جدوى، وأخيرا اتصل رئيس لجنة مدرسة بولاق برئيس لجنة مدرستي بالإسكندرية، وسأله عما تم لـه فـي لجنتي فأجابه: لا شيء، والطالبات تكتب كتابـة قيمـة بـلا انقطاع. فعجبوا لذلك، وكان رسوب طالبات معلمات بـولاق ٤٠ طالبة من ٨٠ في التاريخ وحده، ولم ترسب من مدرستي واحدة، وما كان يعثر أحد من المصححين على ورقة جيـدة في التاريخ حتى يقول هذه ورقة من الإسكندرية.

وهكذا خاب ظنهم.

ولعل هذا كان من بين الأسباب التي جعلتهم يفكرون فـي نقلي من ناظرة مدرسة الورديان إلى التفتيش.



عملي بالوزارة

حضرت إلى الوزارة وعرفت مما سبق أن الإنجليز وهم أسياد البلاد لا يريدون مجهودي كناظرة مدرسة ولا أدري لم كانت هذه الرغبة؟ ولعل ذلك لأني كنت أول ناظرة مصرية تولت رياسة مدرسة معلمات في الوزارة، وقد كانت مدرستي في ذلك العام أولى مدارس المعلمات الأخـرى مـع حداثـة عهدها فأخذ الناس يوازنون بين مجهود الناظرة الإنجليزيـة التي كانت تدير مدرسة معلمات بولاق منذ زمن بعيد وبـين الناظرة المصرية وهي حديثة العهد بنظارة المدارس. وكتب بعضهم شيئًا من تلك الأفكار في الصحف اليومية ولعل هـذا كان السبب المباشر في تمسك الإنجليز بإخراجي من وظيفـة ناظرة وجعلي مفتشة، والمفتشة لا يمكن أن يعرف مجهودها أو يظهر له أثر خصوصا إذا كان الوزارة لا تؤيـدها فـي عملها. على أنه قد ظهر لي فيما بعد أن ذلك لم يكـن هـو السبب الوحيد بل إن خصومي من رجال الوزارة الذين كنت أندد بمسلكهم وأعدد لهم الوقـائع الصـحيحة الدالـة علـى انغماسهم في الرذائل...

أرادوا أن يظهروا للإنجليز براءتهم من تلك الرذائل وأني أقول عنهم – أي الإنجليز – كيت وكيت وأني أحرض الناس ضدهم، ليحملوا الإنجليز على كراهيتي وعدم تصديقي فيما أقول، وهكذا تم لهم ما أرادوا وأيد افتراءاتهم ذلك المفتش الإنجليزي بأكاذيبه.

علمت ذلك فعلمت أنه لا يراد بي خير، وأنهم وهم يخشون من نفوذي وقوتي في مدرسة واحدة لا يمكن أن يقووا ذلك النفوذ في جميع المدارس، بل لا بد أن أعارض في كل ما أريد. لهذا نويت ألا أعمل، وأن أنفذ لهم رغباتهم مهما كانت رغباتي وميول:

إذا لم يكن غير الأسنة مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

حضرت إلى الديوان فاستدعاني المغفور له المغربي باشا، وكان المعروف أنه يعرف من نوايا الإنجليز ما لا يعرفه غيره، وكان مستشار المعارف في ذلك الوقت المستر "باترسون" الذي كان بعد ذلك مستشارا للمالية فلما دخلت على المغربي باشا قال لي (إنه مسرور جدا من تعييني مفتشة لما يعلمه من انتقاداتي الدقيقة التي لا تترك من عيوب التعليم شاردة ولا واردة) علمت من ذلك الكلام أنهم يريدون

مني أن أنتقد المعلمين بشدة، وأن أدقق عليهم كـل التـدقيق حتى إذا زرت عددا عظيما مـن المـدارس اطلعـوا علـى تقاريري وعاقبوا كل من ذكرت عنه شيئًا من العيوب بخصم جزء من مرتبه، وذلك بناء على ما جاء في تقرير حضـرة السيدة نبوية موسى المفتشة بالوزارة.

ولا شك أن المعلمين إذا فوجئوا بذلك العقاب سيستغيثون بالوزارة من تلك المفتشة ويطلبون عدم تفتيشها عليهم، وهذا كل ما تريده الوزارة لأنها لا تريد مجهودي في أية ناحية من نواحي التعليم.

زرت بعد ذلك مائة مدرسة فلم أنتقد شيئًا في تقاريري عن معلمة أو معلم بل كنت أنصح المعلمين والمعلمات وأنتقـدهم شفويا ولا أدون شيئًا عن هذا في تقاريري. وعنـدما قمـت بتفتيش ذلك العدد من المدارس خاطبني المرحوم مغربي باشا تليفونيا، وقال لي ما هذه التقارير التي كتبتها؟ قلـت: وهـل قرأتها سعادتك؟ قال: نعم. قلت: ذلك ما ظننـت مـن قبـل كتابتها، وهل تقرأ سعادتك كل تقارير المفتشين والمفتشـات؟ قال: لا! ولكني أقرأ المهم، فقد كنت أظن أن تقاريرك مهمة أما الآن فتقارير كهذه من شأنها أن تجعل المعلم يضع قدمـه

فوق رءوسنا، قلت: لعل هذا يا سعادة الباشا كل ما أردته أنا، قال: ولكني بعد هذه التقارير قد غيرت فكري فـي جهـودك وذكائك. قلت: لا يجوز لك هذا. وا   لولا ذكائي ما كتبتهـا على تلك الصورة لأني إنما كتبتها لـك لا للمعلمـين حتـى لا أعطيك فرصة عقابهم ودفعهم بذلك العقاب إلى الشـكوى مني. وضحك المرحوم ضحكة عالية وقال "ا   يجازيك هـو أنَتِ بتسحري"، ثم استمر يقول: ولكنك على كل حـال قـد ضيعت اعتقاد الناس فيك بهذه التقارير. قلت: سـأرد ذلـك الاعتقاد إلى ما كان عليه بكتابة تقرير إجمالي أشـرح فيـه عيوب تدريس المواد المختلفة بمدارسكم دون أن تسـتطيعوا عقاب أحد، وكتبت تقريرا مطولا عن تدريس جميع المـواد بالمدارس أظهر فيه أن الرقابة على تدريس تلك المواد غير موجودة، وأن التدريس غير مجد، وأن ذلك كله يرجع إلـى تصرفات غريبة من ولاة الأمور أنفسهم، وأطلعوا المستشار على ذلك التقرير بعد أن ترجموه له، وكان كما أظن لا يريد أن أفتش أنا على المدارس، فأراد أن يتخذ من ذلك التقريـر وسيلة إلى بلوغ ما يريد من إبعادي إبعادا كليا عن التعلـيم، فاستدعاني وقال لي في شيء من الشدة: إن هـذا التقريـر

لا يتفق وآراء المس بيلي. قلت: أتعلم جنابك أني أنـا التـي علمت المس بيلي اللغة العربية؟ قال: لا. قلت: سلها، فهـي لا تنكر ذلك. قال: وما أهمية ذلك في الموضوع؟ قلـت: إن الدروس التي انتقدها هي اللغة العربية، ومـا يـدرس بهـا، وعلى مس بيلي أن تتبعني فيها لا أن أتبعها أنا. قال: ولكنها المفتشة الأولى. قلت: وماذا تريد مني جنابك؟ قال: أريـد أن تنتقدي الدروس حسب آرائها لا حسب أرائك أنـت. قلـت: وكيف يتسنى لي ذلك؟ أمعنى هذا أني أفتش المدرسـة، ثـم أعود فأخبر المس بيلي عن كل ما رأيته فيها لتملـي علـي انتقاداتها هي عما رأيته أنا؟ ولو أني فعلت ذلك لكان عمـل المفتشين هو عمل مفتشة واحدة. كما أنه يصبح عملاً معقـدا لا قيمة له، وإني بناء على ما تقول أظن أن جنابك لا تريـد أن أعمل في التفتيش. قال: أو تقبلين ذلك؟ قلت: ولم لا أقبله ما دامت هذه إرادتك أنت وما دمت تعطيني مرتبي كـاملاً. قال: نعم، سأعطيك المرتب كاملاً وسأمتعك أيضا بالعلاوات دون أن تعملي. قلت: لك مني ألف شكر على هـذا ، وسـر الرجل من الاتفاق الذي تم بينـا وشـكرني جزيـل الشـكر

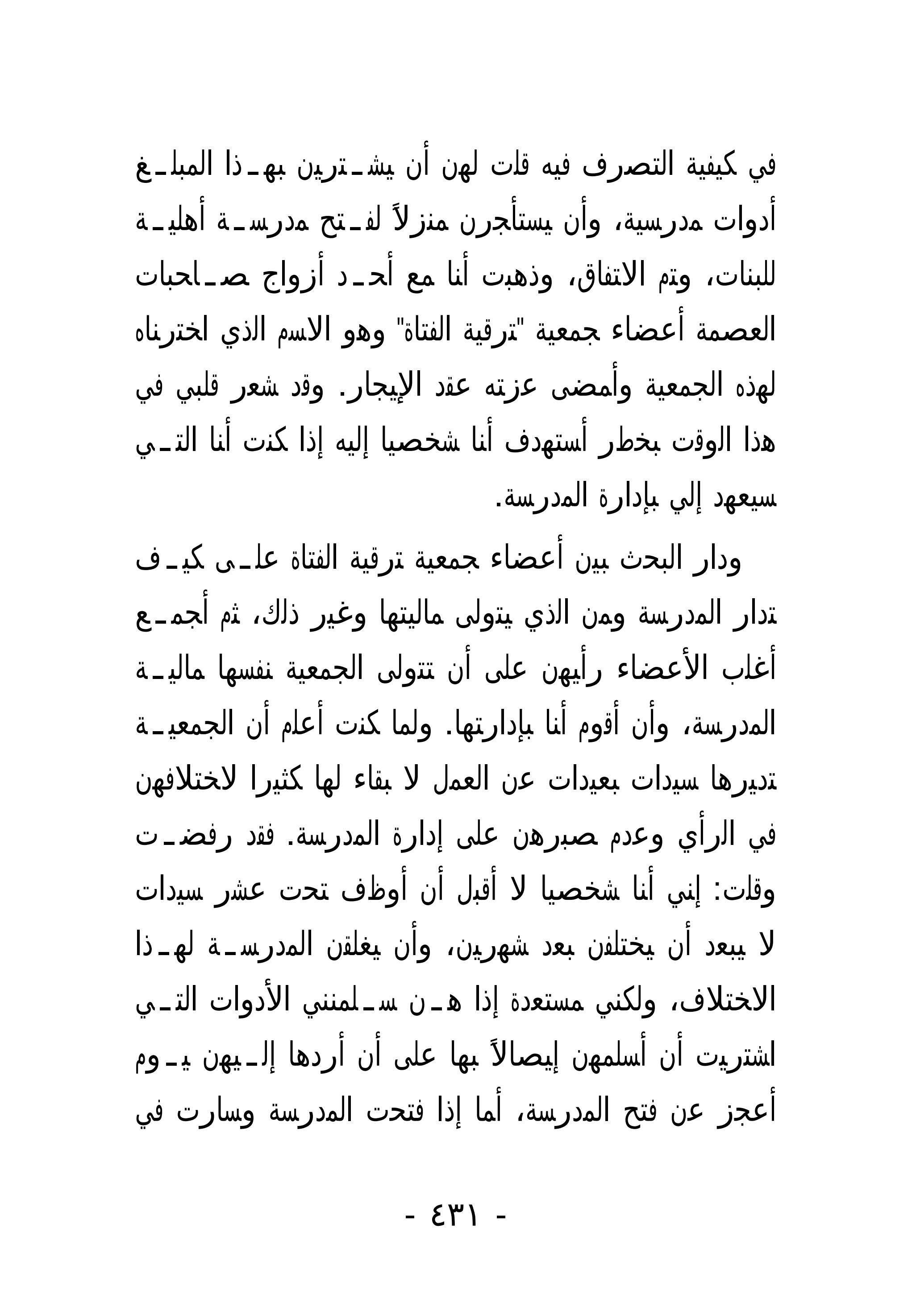
وأوصلني إلى خارج باب غرفته وهو يضـغط علـى يـدي ويقول: أشكرك.

وكانت الوزارة قد أعدت لي مكتبا خاصا وساعيا خاصـا فبقيت في ذلك المكتب ٦ شهور لا أعمـل شـيئًا للـوزارة، ولكني كنت أكتب في الأهرام مقالات أنتقد فيها نظم التعلـيم في وزارة المعارف وأمهرها بإمضـاء (ضـمير) وأخيـرا استدلوا على كاتبة المقالات، وأخبروا المستشار بذلك وقدموا له مقالة منها منشورة في الأهرام فاستدعاني وقدم لي المقال بعد أن لفت نظري إلى الإمضاء، وقال من كاتب هذا المقال؟ وكان جنابه يظن أني سأتنصل منه ولهذا أعد الإجابة علـى جوابي شيئًا من السب والاحتقار كقوله (إنكم أنتم المصريين كذابون جبناء) وكم كانت دهشته شديدة عندما أجبتـه بعـدم اكتراث أني أنا كاتبة ذلك المقال. وقد أخذته الدهشـة فبقـى بضع دقائق دون أن يقول شيئًا، ثم قال بعد أن خفت دهشته: وهل تبقين بعد هذا في وظيفتك؟ قلت: ولم لا يا سيدي وهذا مقالي يشهد أني لم أقل فيه من سـفيه الألفـاظ أو المعـاني ما يعيب شخصا أو يقلل من كماله، إنه نقد بـريء لطـرق التعليم يا سيدي، فإذا كان قد ترجم خطأ فاتركني أترجمه لك،

وأنت هنا مستشار التعليم تقول إنك ما جئـت إلا لإصـلاحه فهل يغضبك أني أرشدك إلى ذلك الإصلاح أو أمهـده لـك كشخص من أتباعك يهمه أن يمهد لك ما تريد؟ قال: ولكنـي لا أريد أن تكتبي في الصحف. قلت: ولكنك لم تخبرني بذلك حتى الآن. قال: لا بأس وأنا أمنعك من الآن مـن الكتابـة. قلت: ولكنك يا سيدي تطلب مني دائما المستحيل، إنك منعتني من العمل في التعليم الذي أعدتني ثقافتي له، وجعلتني أقـيم في غرفة كسجينة لا عمل لها وأنا أسلي نفسي بتلك المقالات وأعدها واجبا من واجبات التعليم التي يجب علي القيام بهـا ومن الصعب بل من المستحيل أن أبقى في غرفة بـالوزارة بلا عمل، فإذا كنت تريدني ألا أكتب فاسمح لي أن أخرج من تلك الغرفة، وأن أذهب إلى حيث أريد، وأن أعمل ما أريـد، وما دمت أنت في غنى عن مجهودي دون ذنب مني فيجـب يا سيدي أن تصرف لي مرتبي كاملاً دون أن أحضـر إلـى الوزارة بل ودون أن أرتبط بالبقاء في القاهرة. قال: لكِ هذا، اذهبي حيث تريدين واعملي ما تريدين، ومرتبك مضمون لكِ وحفظ الرجل وعده هذا فلم يخل به وخرجت من عنده علـى هذا الاتفاق وفي اليوم التالي تركت القاهرة إلى الإسكندرية.

إنشاء مدرسة "ترقية الفتاة"

كنت قد تعرفت إلى كثير من سيدات الإسكندرية في أثناء الحركة الوطنية، من أشهرهن صاحبات العصمة حرم سليمان بك يسري القاضي بمحكمة الاستئناف ومحمد بك درويش المستشار وعبد الرحمن بك سعد أحمد المستشار أيضا وغيرهن، وكن قد زرنني وأنا بمدرسة المعلمات وأظهرن لي رغبتهن في العمل لصالح مصر، وكان ذلك في سنة ١٩١٩ فشرحت لهن أن التظاهر والمسير في الطرقات لا يناسب كرامتنا كسيدات شرقيات، وأن في استطاعتنا أن ننفع بلادنا بطرق أخرى كالسعي الجدي في نشر التعليم بين الفتيات؛ لأن البلاد كانت في أشد الحاجة إليه ومع أن مثل هذا العمل كان عملاً سلميا لا يمكن أن يتعرض له أحد فهو عمل مجيد ينفع البلاد نفعا جزيلا ويبقى أثره بعد الحرب فلما اتفقت مع المستشار على مغادرة القاهرة عدت إليهن فوجدتهن على استعداد عظيم للعمل معي، وقد ساعدتهن الزعيمة المحترمة صاحبة العصمة هدى هانم شعراوي وقمن بعمل حفلة عظيمة جمعن بها مبلغًا من المال فلما أخذن رأيي

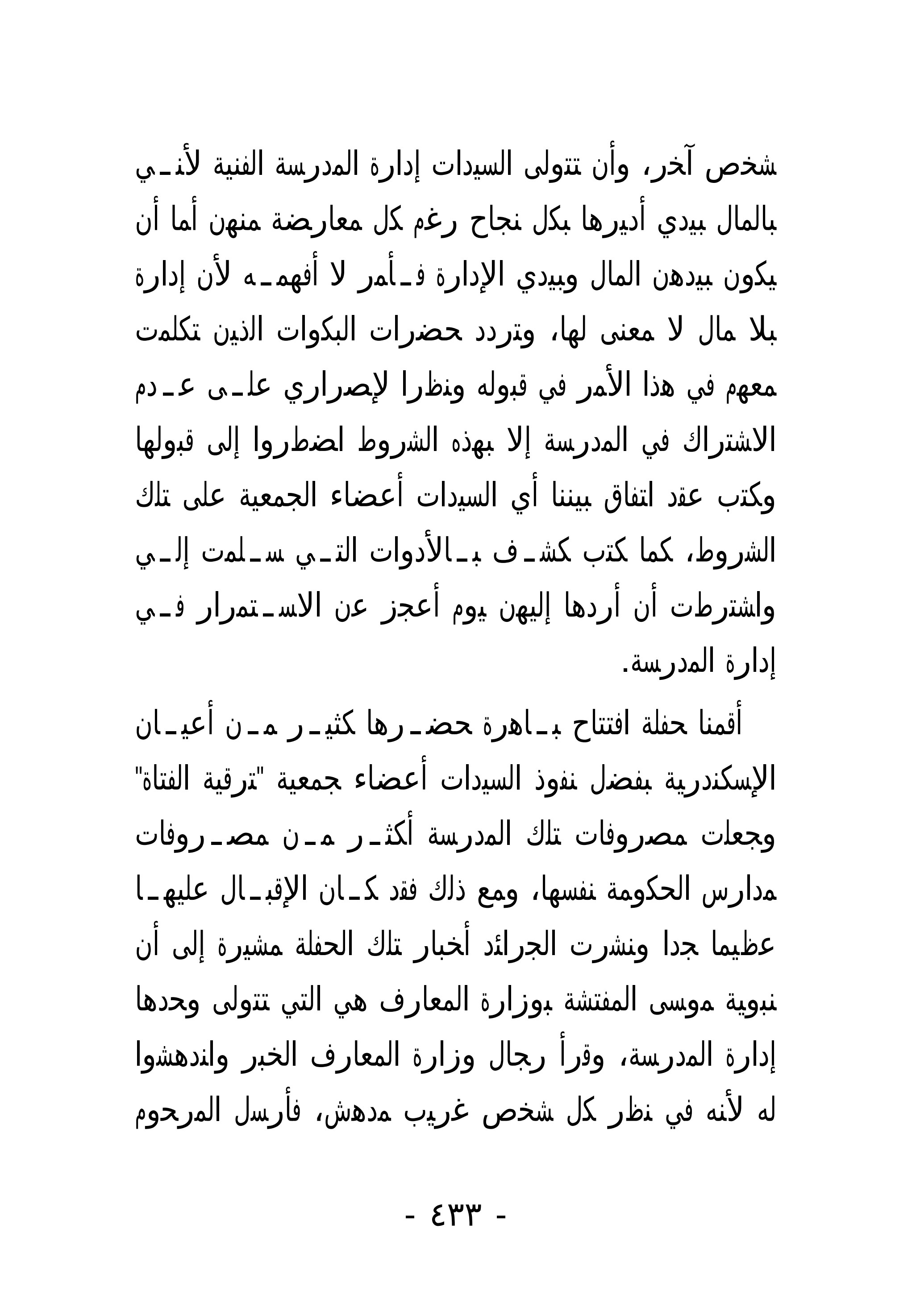


في كيفية التصرف فيه قلت لهن أن يشترين بهذا المبلغ أدوات مدرسية، وأن يستأجرن منزلاً لفتح مدرسة أهلية للبنات، وتم الاتفاق، وذهبت أنا مع أحد أزواج صاحبات العصمة أعضاء جمعية "ترقية الفتاة" وهو الاسم الذي اخترناه لهذه الجمعية وأمضى عزته عقد الإيجار. وقد شعر قلبي في هذا الوقت بخطر أستهدف أنا شخصيا إليه إذا كنت أنا التي سيعهد إلي بإدارة المدرسة.

ودار البحث بين أعضاء جمعية ترقية الفتاة على كيف تدار المدرسة ومن الذي يتولى ماليتها وغير ذلك، ثم أجمع أغلب الأعضاء رأيهن على أن تتولى الجمعية نفسها مالية المدرسة، وأن أقوم أنا بإدارتها. ولما كنت أعلم أن الجمعية تديرها سيدات بعيدات عن العمل لا بقاء لها كثيرا لاختلافهن في الرأي وعدم صبرهن على إدارة المدرسة. فقد رفضت وقلت: إنني أنا شخصيا لا أقبل أن أوظف تحت عشر سيدات لا يبعد أن يختلفن بعد شهرين، وأن يغلقن المدرسة لهذا الاختلاف، ولكني مستعدة إذا هن سلمنني الأدوات التي اشتريت أن أسلمهن إيصالاً بها على أن أردها إليهن يوم أعجز عن فتح المدرسة، أما إذا فتحت المدرسة وسارت في

طريقها فليس لهن أن يطالبنني بتلـك الأدوات مـا دامـت المدرسة مدرسة، وأن أقوم أنا بإدارة المدرسة دون أن آخـذ من الجمعية شيئًا، وأن أكون مسئولة عن ماليتها فعلي غرمها أو لي غنمها، وليس لهن حـق التـدخل فـي تلـك الإدارة، ورفضت معظم السيدات هذه الشروط كما رفضـت أنـا أن أشتغل معهن على غيرها.. وفي صباح ليلة هـذا الاجتمـاع جاءني جماعة من أزواجهن يناقشونني في الموضوع، فقلت لهم إن السيدات أعضاء الجمعية ليس لهن غرض مالي وإنما غرضهن هو إحياء تعليم الفتاة في الإسكندرية، وقد اشـترين هذه الأدوات البسيطة التي لا تكفي في الواقع لفتح مدرسـة، ولكنها تصح أن تكون نواة لفتح ذلك العمل العظيم.

وأنا لا أستطيع القيام بإدارة المدرسة ما لم يكن في يـدي وحدي ماليتها لأن الإدارة بلا مال لا يمكن أن تأتي بالنتيجة التي يرغبها المدير، وماذا يكـون مـوقفي إذا طلبـت مـن السيدات تعيين معلمة بمبلغ كذا من المال أو تعيين عدد كـذا من المعلمات فرفضن ذلك لقلة المال لديهن فهل أستطيع في تلك الحالة أن أدير المدرسة بنجاح؟ كلا أيها السـادة. إننـي أقبل أن أكون أنا من يتـولى إدارة الماليـة دون تـدخل أي



شخص آخر، وأن تتولى السيدات إدارة المدرسة الفنية لأنـي بالمال بيدي أديرها بكل نجاح رغم كل معارضة منهن أما أن يكون بيدهن المال وبيدي الإدارة فـأمر لا أفهمـه لأن إدارة بلا مال لا معنى لها، وتردد حضرات البكوات الذين تكلمت معهم في هذا الأمر في قبوله ونظرا لإصراري علـى عـدم الاشتراك في المدرسة إلا بهذه الشروط اضطروا إلى قبولها وكتب عقد اتفاق بيننا أي السيدات أعضاء الجمعية على تلك الشروط، كما كتب كشـف بـالأدوات التـي سـلمت إلـي واشترطت أن أردها إليهن يوم أعجز عن الاسـتمرار فـي إدارة المدرسة.

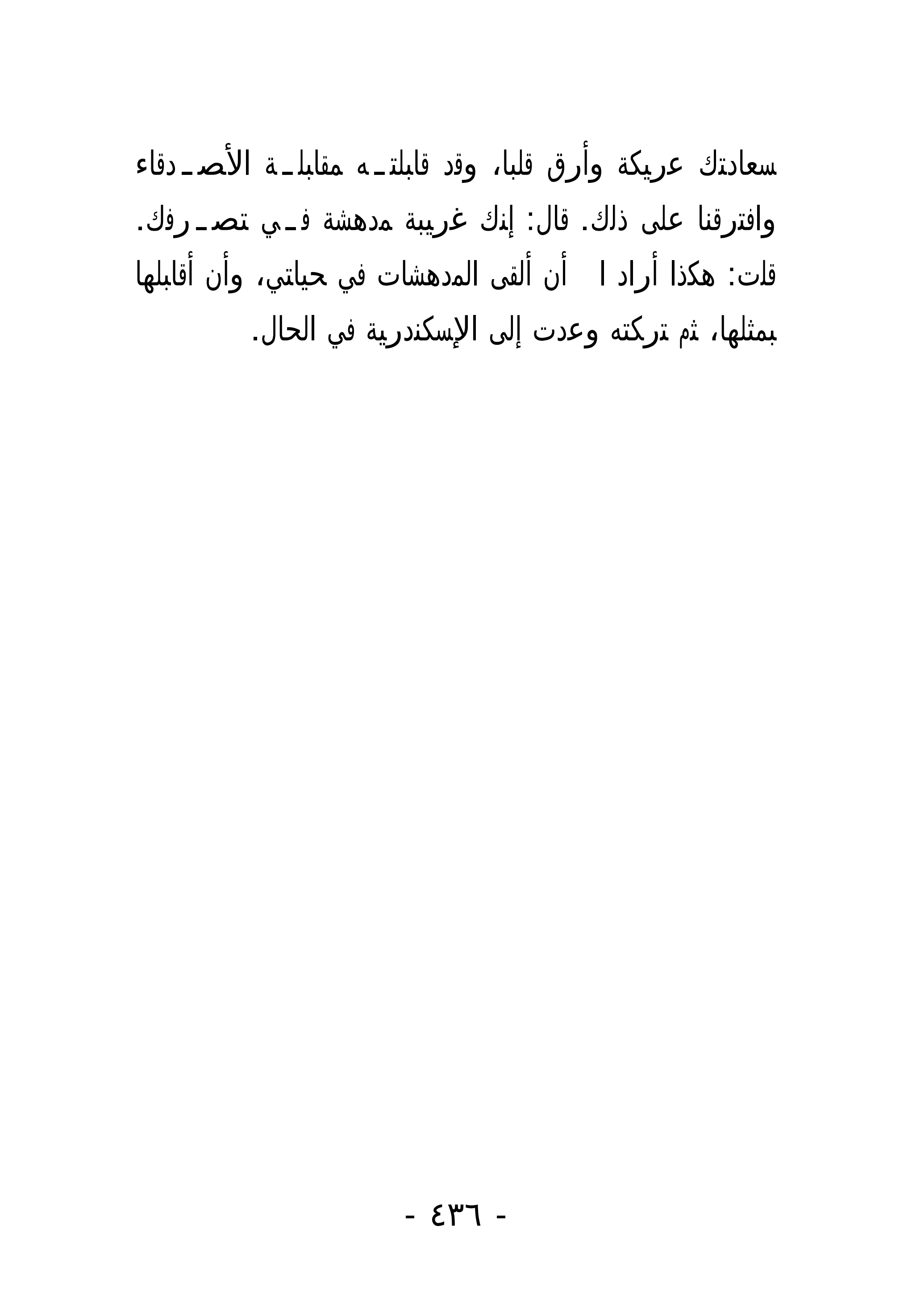
أقمنا حفلة افتتاح بـاهرة حضـرها كثيـر مـن أعيـان الإسكندرية بفضل نفوذ السيدات أعضاء جمعية "ترقية الفتاة" وجعلت مصروفات تلك المدرسة أكثـر مـن مصـروفات مدارس الحكومة نفسها، ومع ذلك فقد كـان الإقبـال عليهـا عظيما جدا ونشرت الجرائد أخبار تلك الحفلة مشيرة إلى أن نبوية موسى المفتشة بوزارة المعارف هي التي تتولى وحدها إدارة المدرسة، وقرأ رجال وزارة المعارف الخبر واندهشوا له لأنه في نظر كل شخص غريب مدهش، فأرسل المرحوم

المغربي باشا يستدعيني إليه ولما حضرت عنده عرض علي مجموعة من الصحف، وقال: ما هـذا الـذي تفعلينـه فـي الإسكندرية؟ قلت: أقوم هناك بما أعدتني له وزارة المعارف فقد علمتموني أن أكون معلمة فناظرة، وأنـا الآن أسـاعدكم على نشر التعليم ما دمتم أنتم في غنى عـن جهـودي فـي الوزارة وإني أشعر أني أؤدي خدمة للأمة نظيـر المرتـب العظيم الذي يصرف لي، أما قبل ذلك فكثيرا ما كان يؤنبني ضميري على أخذ مرتب من الحكومة وأنا لا أعمـل شـيئًا لصالح البلاد.

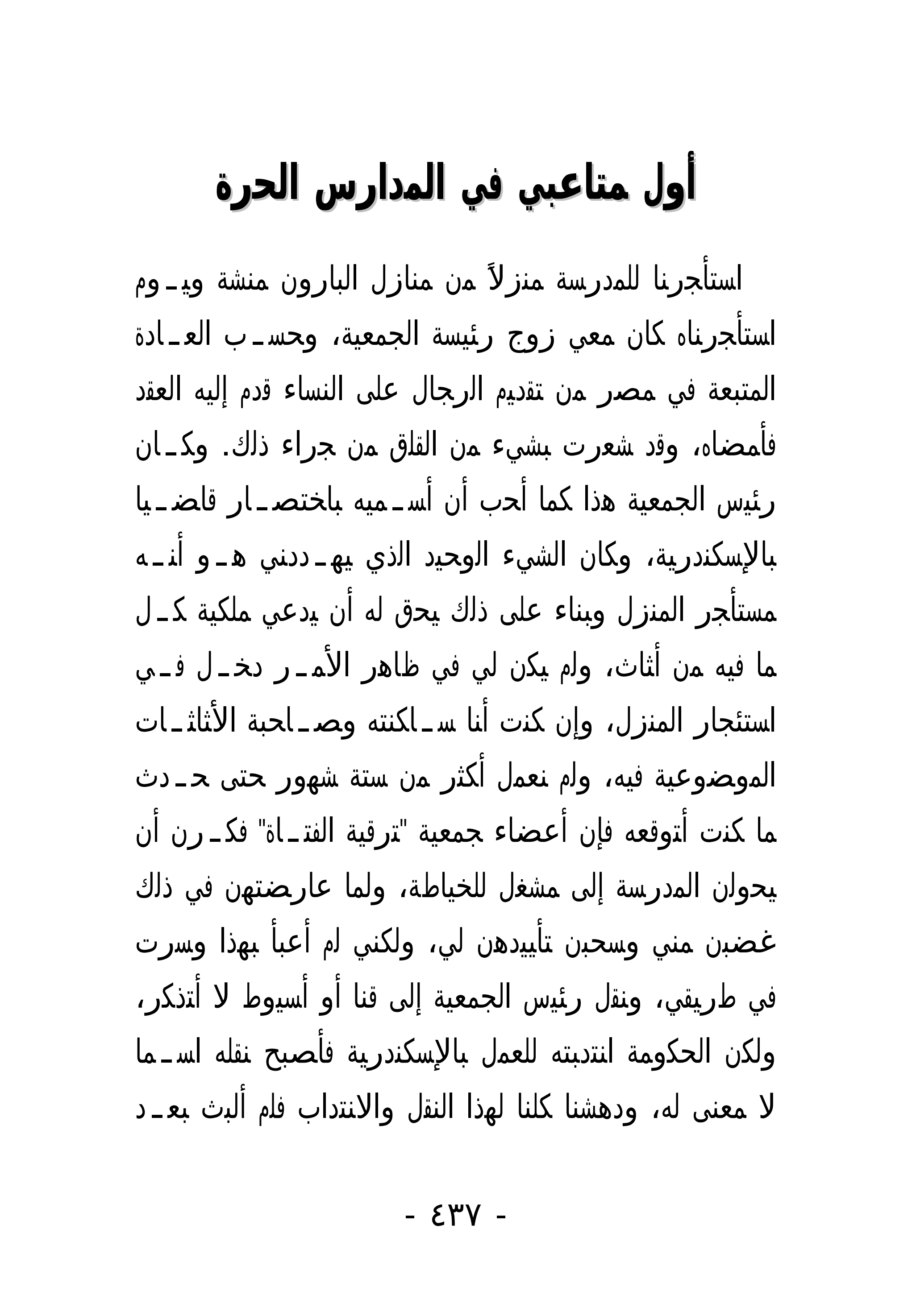
وها أنا اليوم قد أصلحت ذلك الخطأ فأنا آخذ مرتبي نظير عمل جليل أقوم به في تربية الناشئات. قال: إذن فادخلي إلى المستشار عسى أن تستطيعي مواجهته بهذا الكلام. قلت: إني أستطيع إقناعه أكثر مما أستطيع إقناعك أنت. قال: سـنرى. ودخلت على المستر باترسون في مكتبه فقال لـي قبـل أن يحييني: ما هذا الذي صنعت؟ قلت: ليس لك حق فـي هـذا السؤال إنما هذا السؤال يستطيع أن يقوله حضـرة صـاحب السعادة المغربي باشا؛ لأنه لا يعلم اتفاقي معك أما أنت فـلا حق لك فيه. أبعد هذا الاتفاق تسألني ماذا صنعت؟ صـنعت

يا سيدي ما اتفقنا عليه وهو أن أذهب أنـى شـئت وأفعـل ما شئت ما دمت لا أكتب بقلمي في الصحف، قال: ولكني لم أكن أعلم أنك ستفتحين مدرسة. قلت: وما الذي كنت تعلمـه حين قلت لك أني سأترك الوزارة لأعمل خارجها ما دمتم في غنى عن جهودي، فهل كنت تظن أني سأفتح منجما للفحم أم متجرا للخشب وأنا لا أعرف من هذا شيئًا؟

إني معلمة يا سيدي فإذا عملت فإنما أعمـل للتعلـيم وإذا كنت أنت قد جهلت ذلك فليس هذا من خطئي أنا بل الخطـأ راجع إليك. قال: وماذا نصنع الآن؟ قلت: لا شيء فإنني بناء على وعدك لي صرفت كل ما أملك من المال في فتح تلـك المدرسة ولا سبيل إلى إغلاقها. قال: أو تبرين أنت بوعـدك من عدم الكتابة في الصحف. قلت: نعم يا سيدي إذا حفظـت أنت وعدك معي على أن عملي في تلك المدرسة محـال أن يترك لي وقتًا للكتابة فاطمئن من تلك الجهة. قـال: فلـيكن ما أراده ا . ولم يكن المغفور له مغربي باشا يعلم شيئًا مما تم بيني وبين المستشار سابقًا، ولهذا ظن أنـي سـألقى مـن المستشار عنفًا، فلما عدت إليه قال: كيـف رأيـت جنـاب المستشار؟ قلت: على خير ما يرى الرجال إنـه ألـين مـن

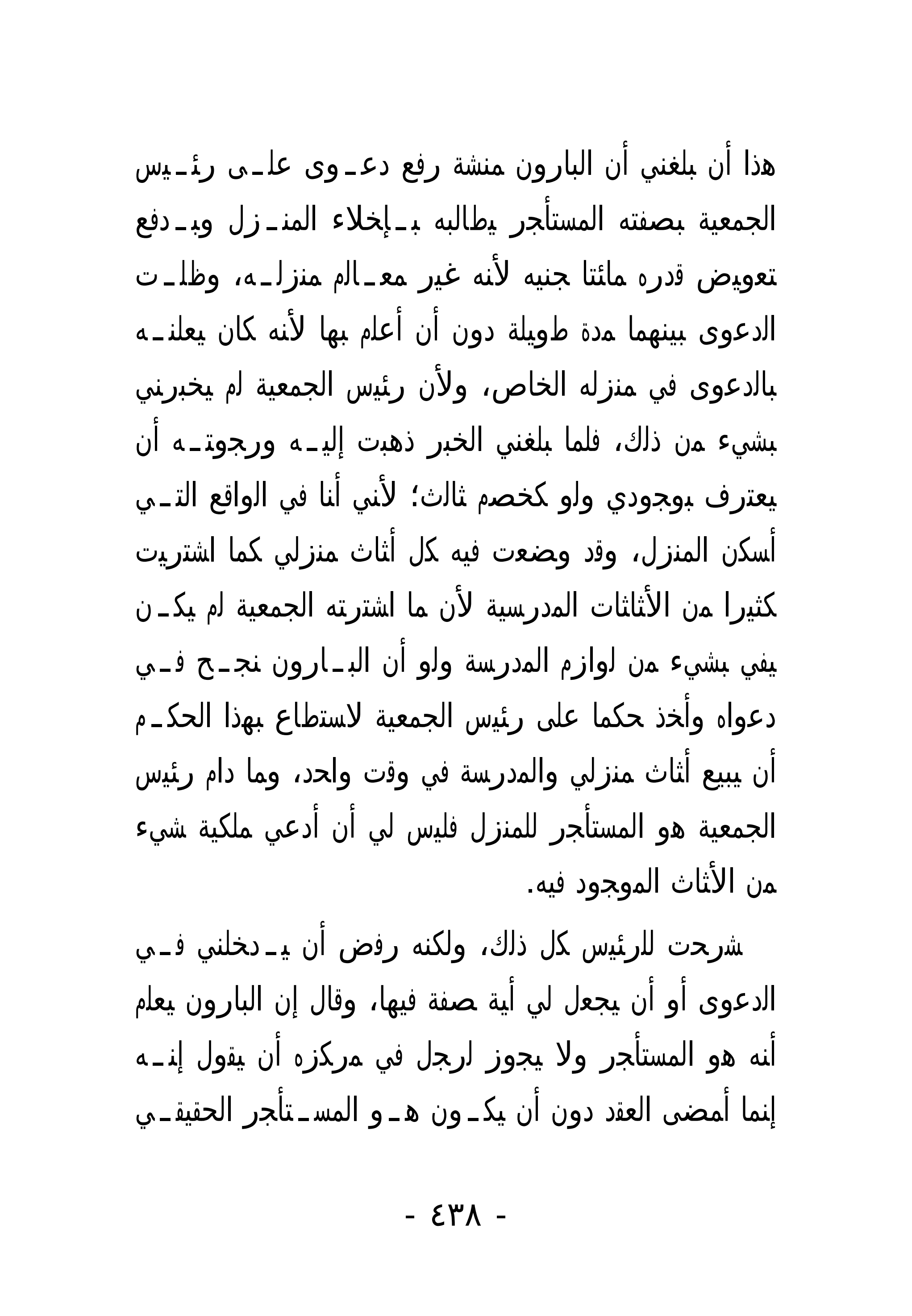


سعادتك عريكة وأرق قلبا، وقد قابلتـه مقابلـة الأصـدقاء وافترقنا على ذلك. قال: إنك غريبة مدهشة فـي تصـرفك. قلت: هكذا أراد ا   أن ألقى المدهشات في حياتي، وأن أقابلها بمثلها، ثم تركته وعدت إلى الإسكندرية في الحال.



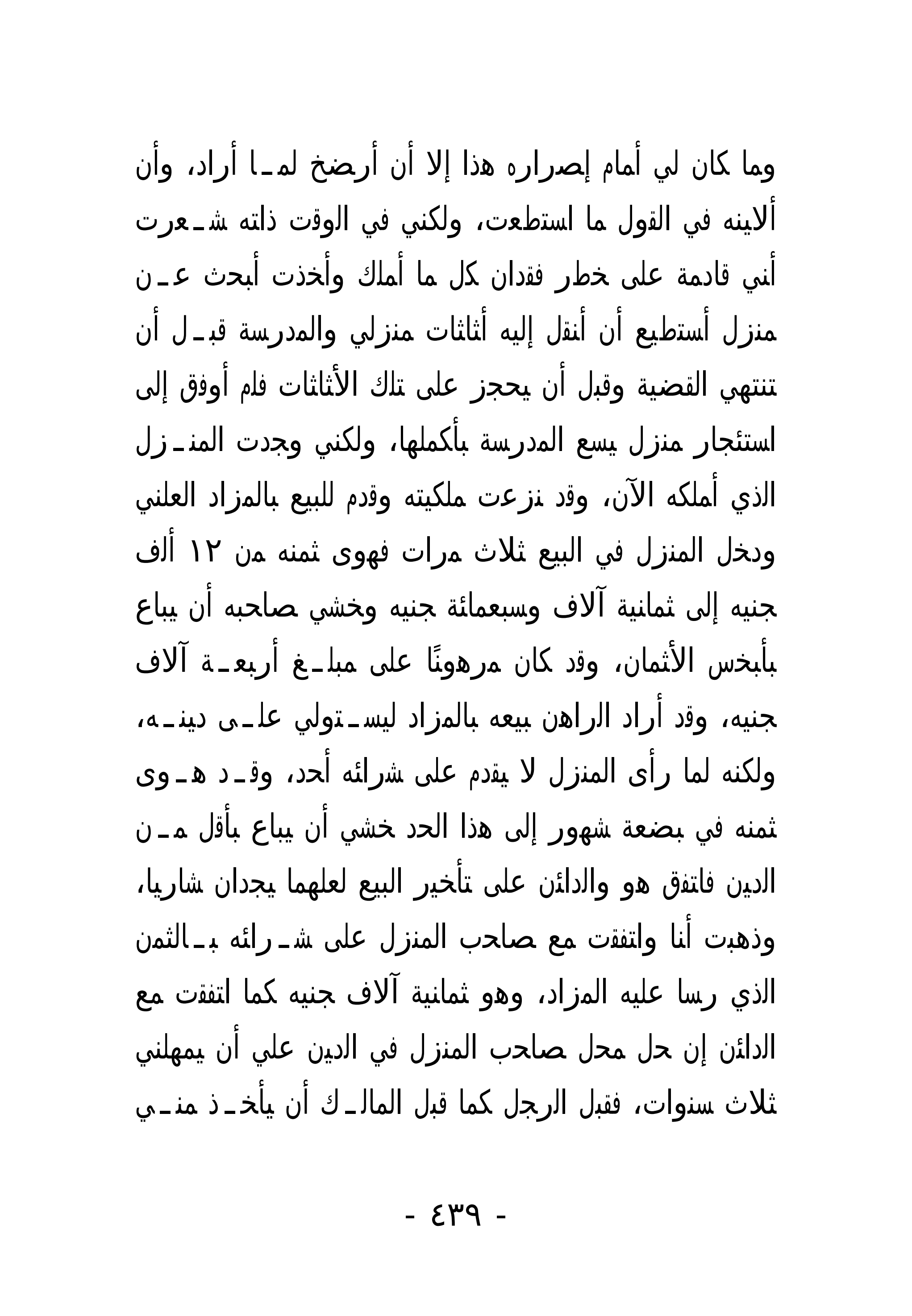
أول متاعبي في المدارس الحرة

استأجرنا للمدرسة منزلاً من منازل البارون منشة ويـوم استأجرناه كان معي زوج رئيسة الجمعية، وحسـب العـادة المتبعة في مصر من تقديم الرجال على النساء قدم إليه العقد فأمضاه، وقد شعرت بشيء من القلق من جراء ذلك. وكـان رئيس الجمعية هذا كما أحب أن أسـميه باختصـار قاضـيا بالإسكندرية، وكان الشيء الوحيد الذي يهـددني هـو أنـه مستأجر المنزل وبناء على ذلك يحق له أن يدعي ملكية كـل ما فيه من أثاث، ولم يكن لي في ظاهر الأمـر دخـل فـي استئجار المنزل، وإن كنت أنا سـاكنته وصـاحبة الأثاثـات الموضوعية فيه، ولم نعمل أكثر من ستة شهور حتى حـدث ما كنت أتوقعه فإن أعضاء جمعية "ترقية الفتـاة" فكـرن أن يحولن المدرسة إلى مشغل للخياطة، ولما عارضتهن في ذلك غضبن مني وسحبن تأييدهن لي، ولكني لم أعبأ بهذا وسرت في طريقي، ونقل رئيس الجمعية إلى قنا أو أسيوط لا أتذكر، ولكن الحكومة انتدبته للعمل بالإسكندرية فأصبح نقله اسـما لا معنى له، ودهشنا كلنا لهذا النقل والانتداب فلم ألبث بعـد



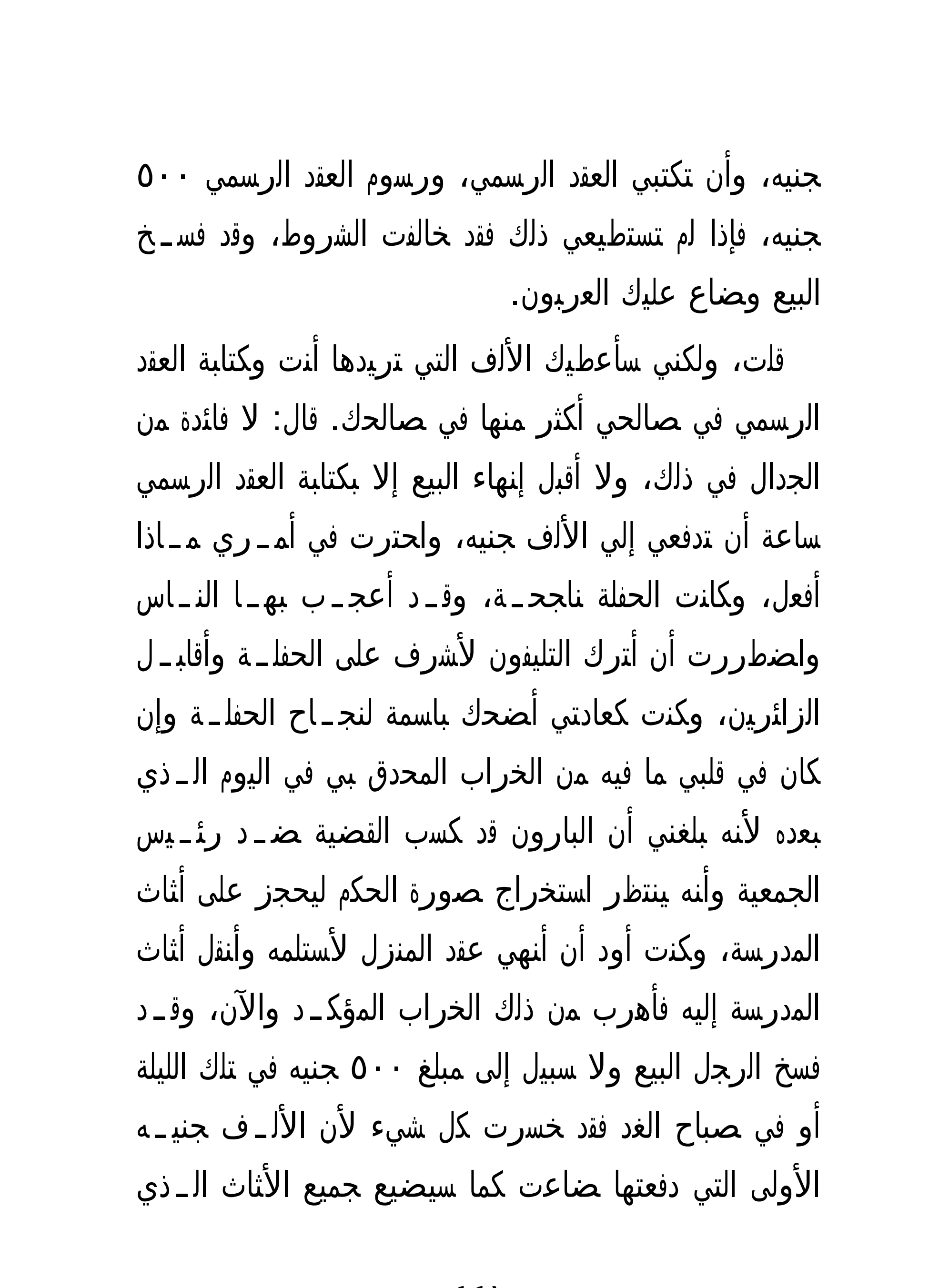
هذا أن بلغني أن البارون منشة رفع دعـوى علـى رئـيس الجمعية بصفته المستأجر يطالبه بـإخلاء المنـزل وبـدفع تعويض قدره مائتا جنيه لأنه غير معـالم منزلـه، وظلـت الدعوى بينهما مدة طويلة دون أن أعلم بها لأنه كان يعلنـه بالدعوى في منزله الخاص، ولأن رئيس الجمعية لم يخبرني بشيء من ذلك، فلما بلغني الخبر ذهبت إليـه ورجوتـه أن يعترف بوجودي ولو كخصم ثالث؛ لأنني أنا في الواقع التـي أسكن المنزل، وقد وضعت فيه كل أثاث منزلي كما اشتريت كثيرا من الأثاثات المدرسية لأن ما اشترته الجمعية لم يكـن يفي بشيء من لوازم المدرسة ولو أن البـارون نجـح فـي دعواه وأخذ حكما على رئيس الجمعية لاستطاع بهذا الحكـم أن يبيع أثاث منزلي والمدرسة في وقت واحد، وما دام رئيس الجمعية هو المستأجر للمنزل فليس لي أن أدعي ملكية شيء من الأثاث الموجود فيه.

شرحت للرئيس كل ذلك، ولكنه رفض أن يـدخلني فـي الدعوى أو أن يجعل لي أية صفة فيها، وقال إن البارون يعلم أنه هو المستأجر ولا يجوز لرجل في مركزه أن يقول إنـه إنما أمضى العقد دون أن يكـون هـو المسـتأجر الحقيقـي



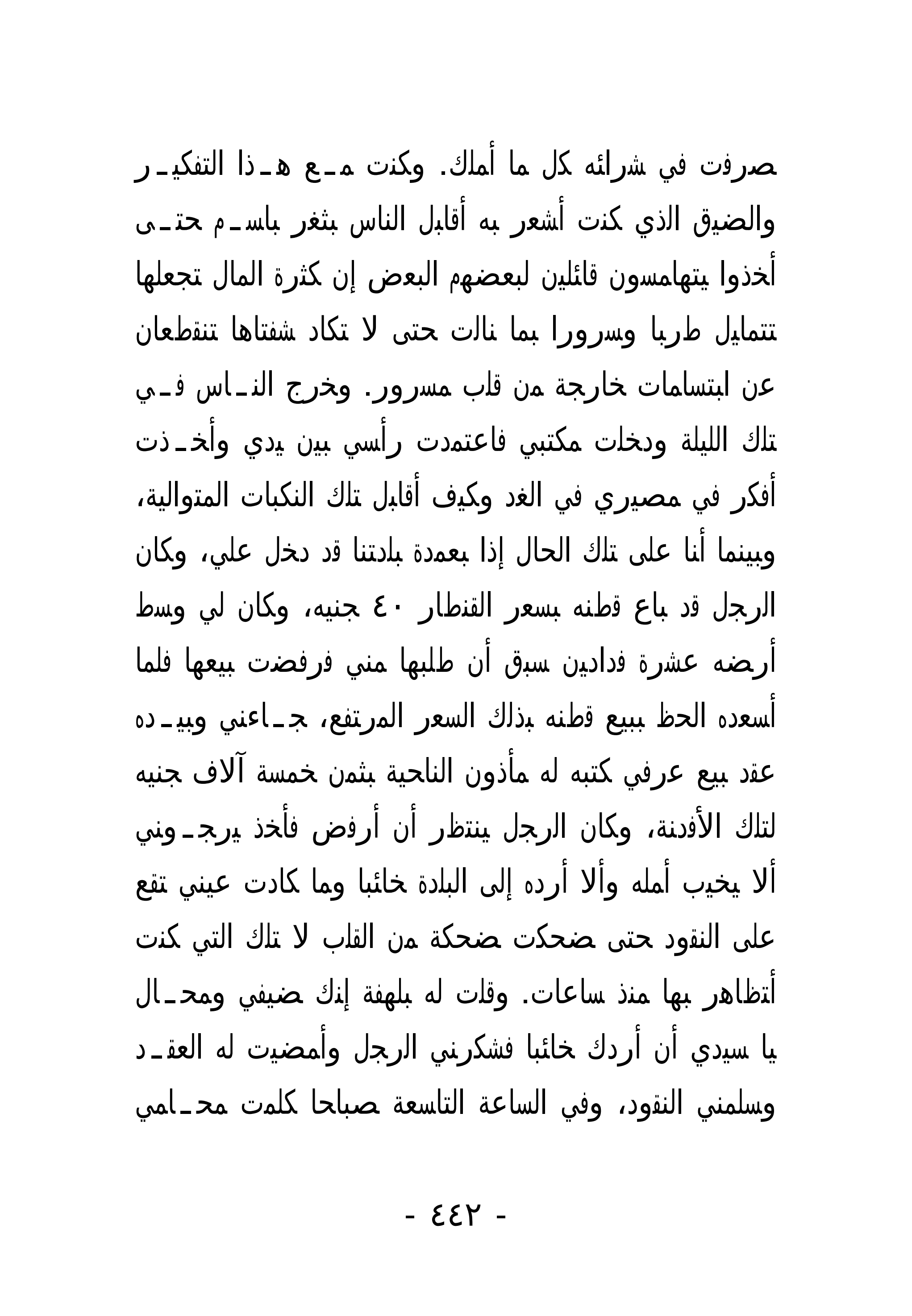
وما كان لي أمام إصراره هذا إلا أن أرضخ لمـا أراد، وأن ألاينه في القول ما استطعت، ولكني في الوقت ذاته شـعرت أني قادمة على خطر فقدان كل ما أملك وأخذت أبحث عـن منزل أستطيع أن أنقل إليه أثاثات منزلي والمدرسة قبـل أن تنتهي القضية وقبل أن يحجز على تلك الأثاثات فلم أوفق إلى استئجار منزل يسع المدرسة بأكملها، ولكني وجدت المنـزل الذي أملكه الآن، وقد نزعت ملكيته وقدم للبيع بالمزاد العلني ودخل المنزل في البيع ثلاث مرات فهوى ثمنه من ١٢ ألف جنيه إلى ثمانية آلاف وسبعمائة جنيه وخشي صاحبه أن يباع بأبخس الأثمان، وقد كان مرهونًا على مبلـغ أربعـة آلاف جنيه، وقد أراد الراهن بيعه بالمزاد ليسـتولي علـى دينـه، ولكنه لما رأى المنزل لا يقدم على شرائه أحد، وقـد هـوى ثمنه في بضعة شهور إلى هذا الحد خشي أن يباع بأقل مـن الدين فاتفق هو والدائن على تأخير البيع لعلهما يجدان شاريا، وذهبت أنا واتفقت مع صاحب المنزل على شـرائه بـالثمن الذي رسا عليه المزاد، وهو ثمانية آلاف جنيه كما اتفقت مع الدائن إن حل محل صاحب المنزل في الدين علي أن يمهلني ثلاث سنوات، فقبل الرجل كما قبل المالـك أن يأخـذ منـي

أربعة آلاف وسبعمائة جنيه، وأن يبيع لي المنزل تاركًا لـي دينه، وعاد الدائن فرفض هذا الاتفاق وقال إنه يريـد دينـه فورا، وهنا طلبت منه مهلة ستة شهور ريثما أستطيع رهـن المنزل في بنك من البنوك وساعدني حسن الحظ فاسـتطعت الاتفاق مع البنك العقاري، واتفقت مع البائع على أن أدفع له ألف جنيه عن كتابة العقد الابتدائي للبيع وبعد ٤٠ يوما أدفع له ألفا أخرى على شرط أني إذا لم أستطع دفع ذلك الألف في ذلك الميعاد أصبح البيع لاغيا وضاعت علي الألف الأولى... شرط قاس، ولكني تحملته لأن ظروفي كانت أقسـى منـه، وكان لي منزل بالزيتون فسعيت في بيعه حتـى اسـتطعت أخيرا أن أبيعه بألف جنيه، وكان ذلك قبـل حلـول الميعـاد بثلاثة أيام وتصادف أن أقمت حفلة المدرسة الثانوية في اليوم السابق لحلول ميعاد كتابة العقد الرسمي كما اتفقنا وكلمنـي محامي صاحب البيت بالتليفون ينبئني أن غدا ميعاد دفع مبلغ الألف جنيه وكتابة العقد الرسمي، قلت: إنني مسـتعدة لـدفع الألف جنيه صباح باكر، فقال وهل معك ٥٠٠ جنيـه لـدفع رسوم العقد؟ قلت: كلا ليس معي ذلك المبلغ، قال لقد ضاعت عليك الألف الأولى لأن اتفاقنا كان على أن تـدفعي الألـف



جنيه، وأن تكتبي العقد الرسمي، ورسوم العقد الرسمي ٥٠٠ جنيه، فإذا لم تستطيعي ذلك فقد خالفت الشروط، وقد فسـخ البيع وضاع عليك العربون.

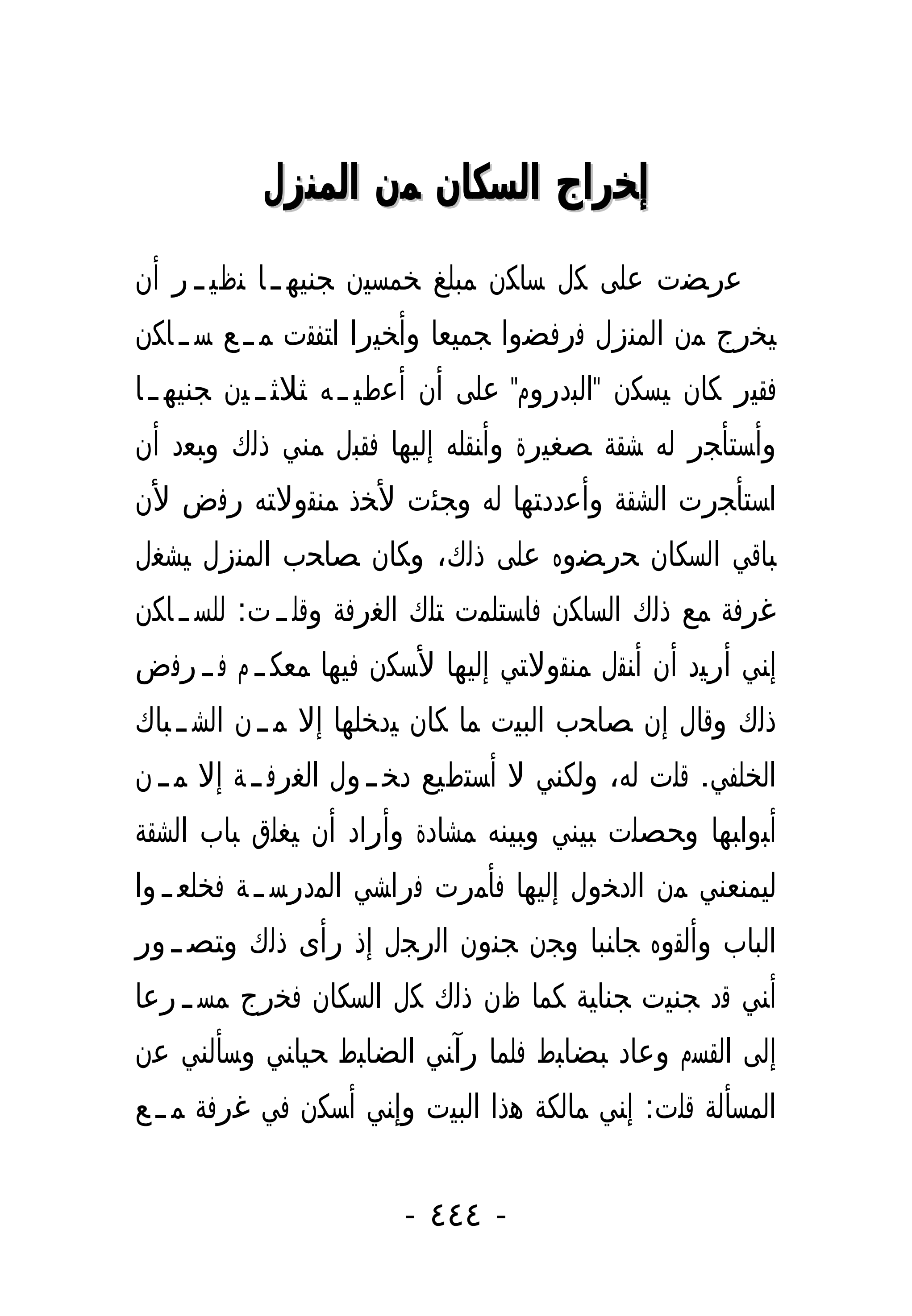
قلت، ولكني سأعطيك الألف التي تريدها أنت وكتابة العقد الرسمي في صالحي أكثر منها في صالحك. قال: لا فائدة من الجدال في ذلك، ولا أقبل إنهاء البيع إلا بكتابة العقد الرسمي ساعة أن تدفعي إلي الألف جنيه، واحترت في أمـري مـاذا أفعل، وكانت الحفلة ناجحـة، وقـد أعجـب بهـا النـاس واضطررت أن أترك التليفون لأشرف على الحفلـة وأقابـل الزائرين، وكنت كعادتي أضحك باسمة لنجـاح الحفلـة وإن كان في قلبي ما فيه من الخراب المحدق بي في اليوم الـذي بعده لأنه بلغني أن البارون قد كسب القضية ضـد رئـيس الجمعية وأنه ينتظر استخراج صورة الحكم ليحجز على أثاث المدرسة، وكنت أود أن أنهي عقد المنزل لأستلمه وأنقل أثاث المدرسة إليه فأهرب من ذلك الخراب المؤكـد والآن، وقـد فسخ الرجل البيع ولا سبيل إلى مبلغ ٥٠٠ جنيه في تلك الليلة أو في صباح الغد فقد خسرت كل شيء لأن الألـف جنيـه الأولى التي دفعتها ضاعت كما سيضيع جميع الأثاث الـذي



صرفت في شرائه كل ما أملك. وكنت مـع هـذا التفكيـر والضيق الذي كنت أشعر به أقابل الناس بثغر باسـم حتـى أخذوا يتهامسون قائلين لبعضهم البعض إن كثرة المال تجعلها تتمايل طربا وسرورا بما نالت حتى لا تكاد شفتاها تنقطعان عن ابتسامات خارجة من قلب مسرور. وخرج النـاس فـي تلك الليلة ودخلت مكتبي فاعتمدت رأسي بين يدي وأخـذت أفكر في مصيري في الغد وكيف أقابل تلك النكبات المتوالية، وبينما أنا على تلك الحال إذا بعمدة بلدتنا قد دخل علي، وكان الرجل قد باع قطنه بسعر القنطار ٤٠ جنيه، وكان لي وسط أرضه عشرة فدادين سبق أن طلبها مني فرفضت بيعها فلما أسعده الحظ ببيع قطنه بذلك السعر المرتفع، جـاءني وبيـده عقد بيع عرفي كتبه له مأذون الناحية بثمن خمسة آلاف جنيه لتلك الأفدنة، وكان الرجل ينتظر أن أرفض فأخذ يرجـوني ألا يخيب أمله وألا أرده إلى البلدة خائبا وما كادت عيني تقع على النقود حتى ضحكت ضحكة من القلب لا تلك التي كنت أتظاهر بها منذ ساعات. وقلت له بلهفة إنك ضيفي ومحـال يا سيدي أن أردك خائبا فشكرني الرجل وأمضيت له العقـد وسلمني النقود، وفي الساعة التاسعة صباحا كلمت محـامي

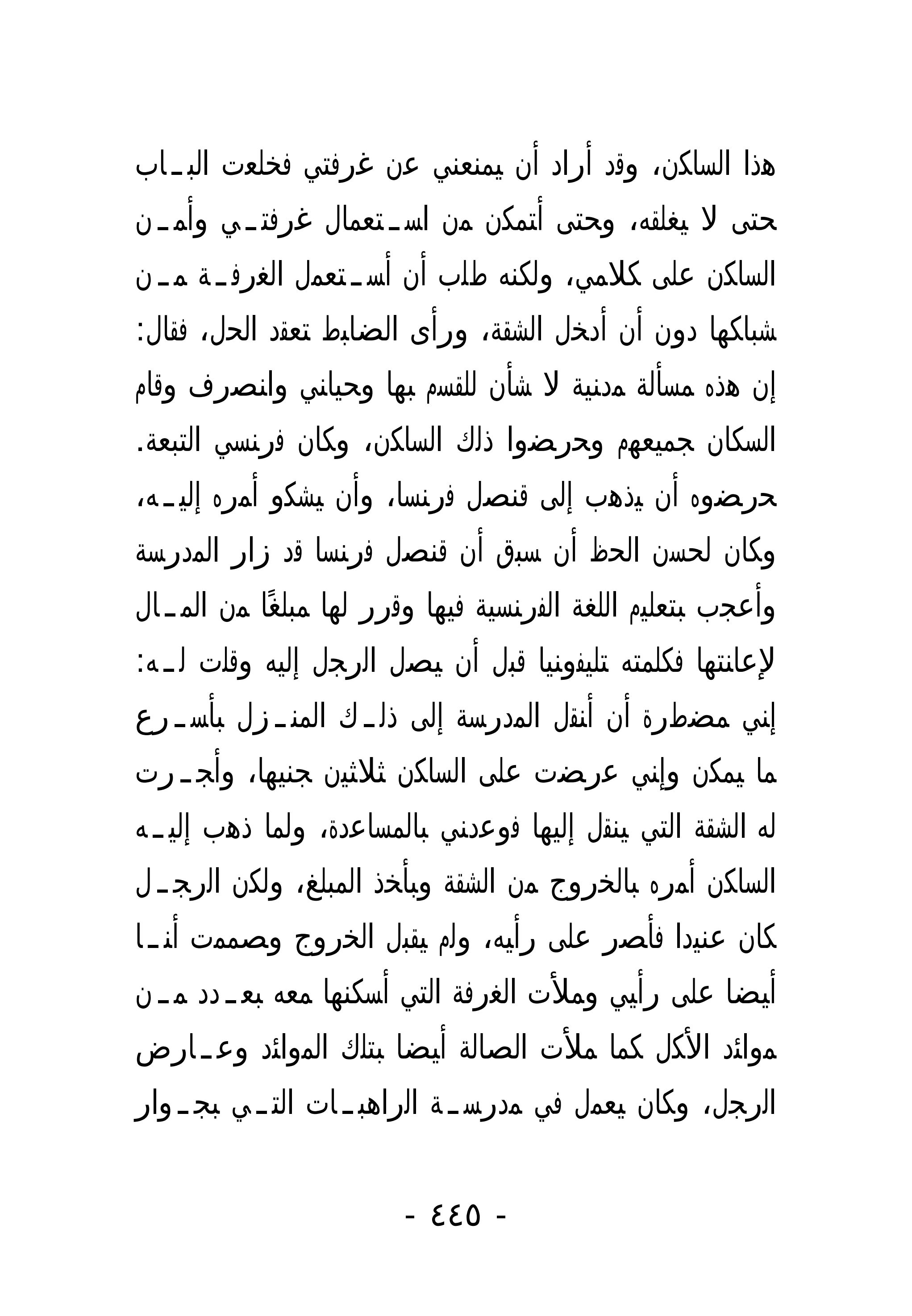
صاحب المنزل تليفونيا وما كاد يسمع صوتي حتى أجـابني بشدة قائلاً "لا فائدة من الكلام يا مدام إن لم يكن معك ألـف وخسمائة جنيه لدفعها اليوم".

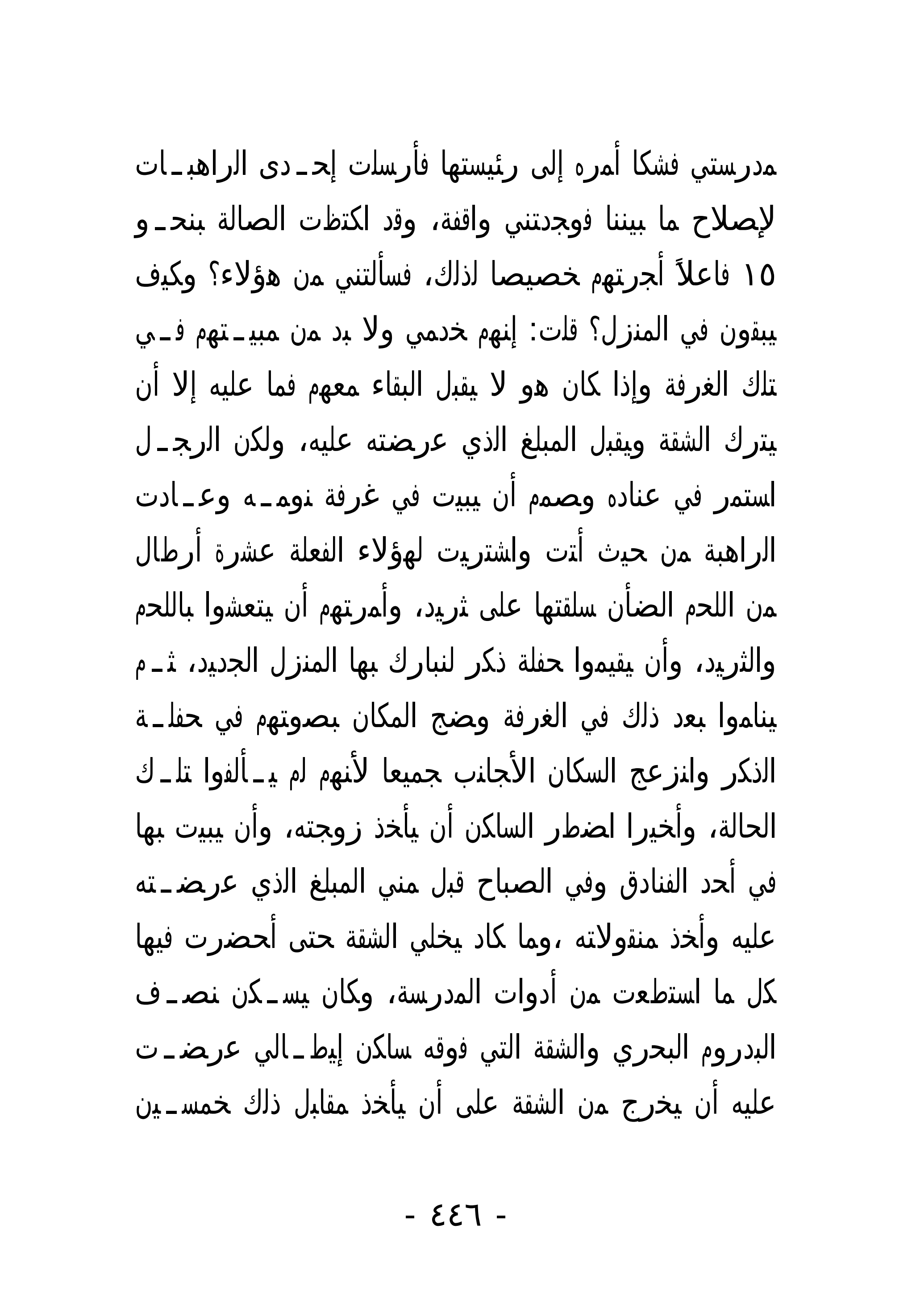
قلت: إني إنما أكلمك لتضرب لي موعدا لنذهب معا إلـى المحكمة لدفع ما تريد" قال "ومن أين أتتك الخمسمائة جنيـه، وقد أكدت بالأمس أنه لا يوجد معك إلا ألف فقـط؟" قلـت: "ليس ذلك من شأنك يا سيدي في شيء" وتم شرائي المنـزل في ذلك اليوم. وهنا صدمتني عقبة أخرى وهي: أن المنـزل كان يسكنه ست أسر كلها من الأجانب، وكان من الصعب أن أضطرهم إلى الخروج منه، وكان البارون على وشك الحجز على أثاث المدرسة إن لم أنقله منها فأخذت أعد العدة لإخراج هؤلاء السكان بأي ثمن كان.

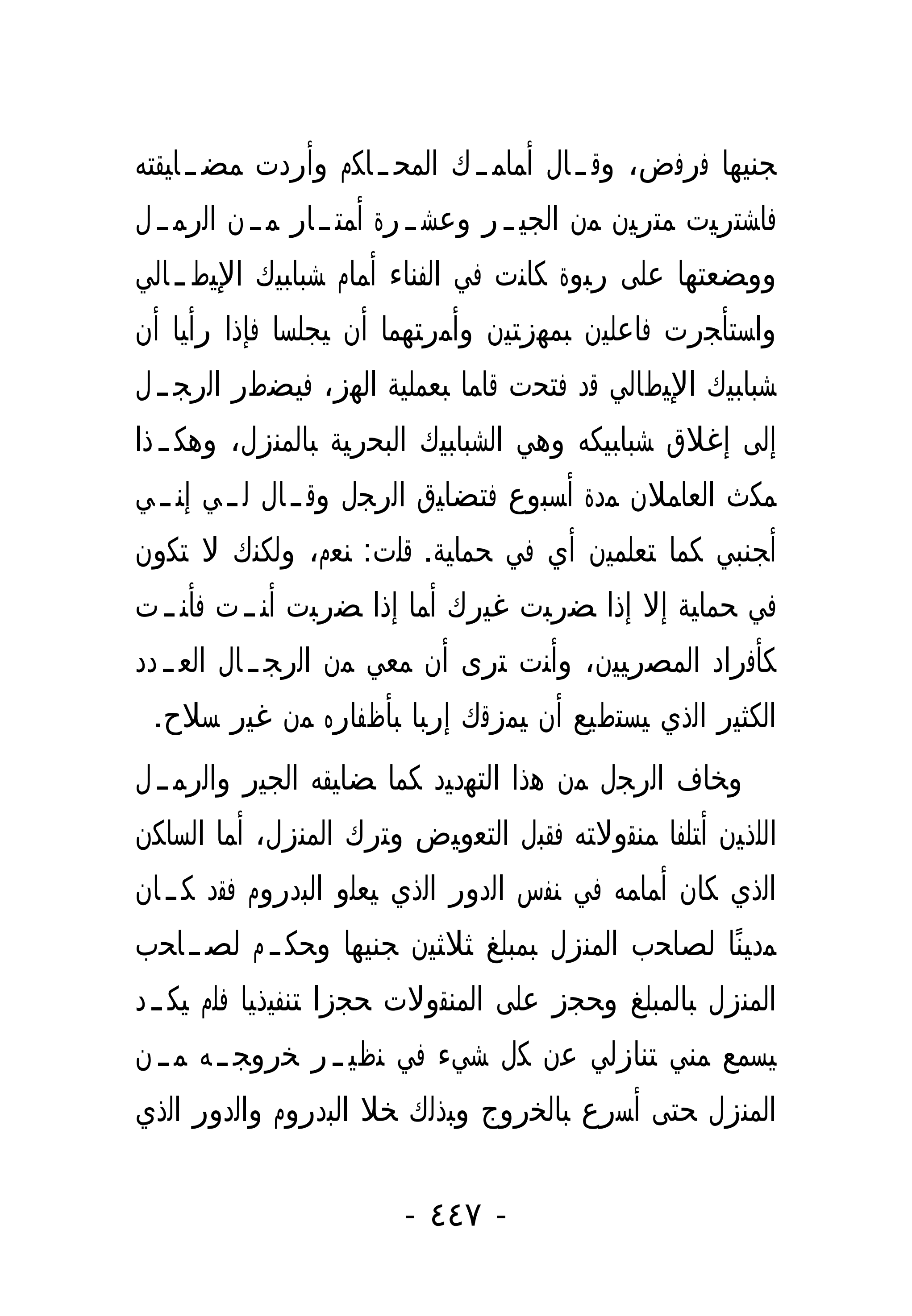


إخراج السكان من المنزل

عرضت على كل ساكن مبلغ خمسين جنيهـا نظيـر أن يخرج من المنزل فرفضوا جميعا وأخيرا اتفقت مـع سـاكن فقير كان يسكن "البدروم" على أن أعطيـه ثلاثـين جنيهـا وأستأجر له شقة صغيرة وأنقله إليها فقبل مني ذلك وبعد أن استأجرت الشقة وأعددتها له وجئت لأخذ منقولاته رفض لأن باقي السكان حرضوه على ذلك، وكان صاحب المنزل يشغل غرفة مع ذلك الساكن فاستلمت تلك الغرفة وقلـت: للسـاكن إني أريد أن أنقل منقولاتي إليها لأسكن فيها معكـم فـرفض ذلك وقال إن صاحب البيت ما كان يدخلها إلا مـن الشـباك الخلفي. قلت له، ولكني لا أستطيع دخـول الغرفـة إلا مـن أبوابها وحصلت بيني وبينه مشادة وأراد أن يغلق باب الشقة ليمنعني من الدخول إليها فأمرت فراشي المدرسـة فخلعـوا الباب وألقوه جانبا وجن جنون الرجل إذ رأى ذلك وتصـور أني قد جنيت جناية كما ظن ذلك كل السكان فخرج مسـرعا إلى القسم وعاد بضابط فلما رآني الضابط حياني وسألني عن المسألة قلت: إني مالكة هذا البيت وإني أسكن في غرفة مـع

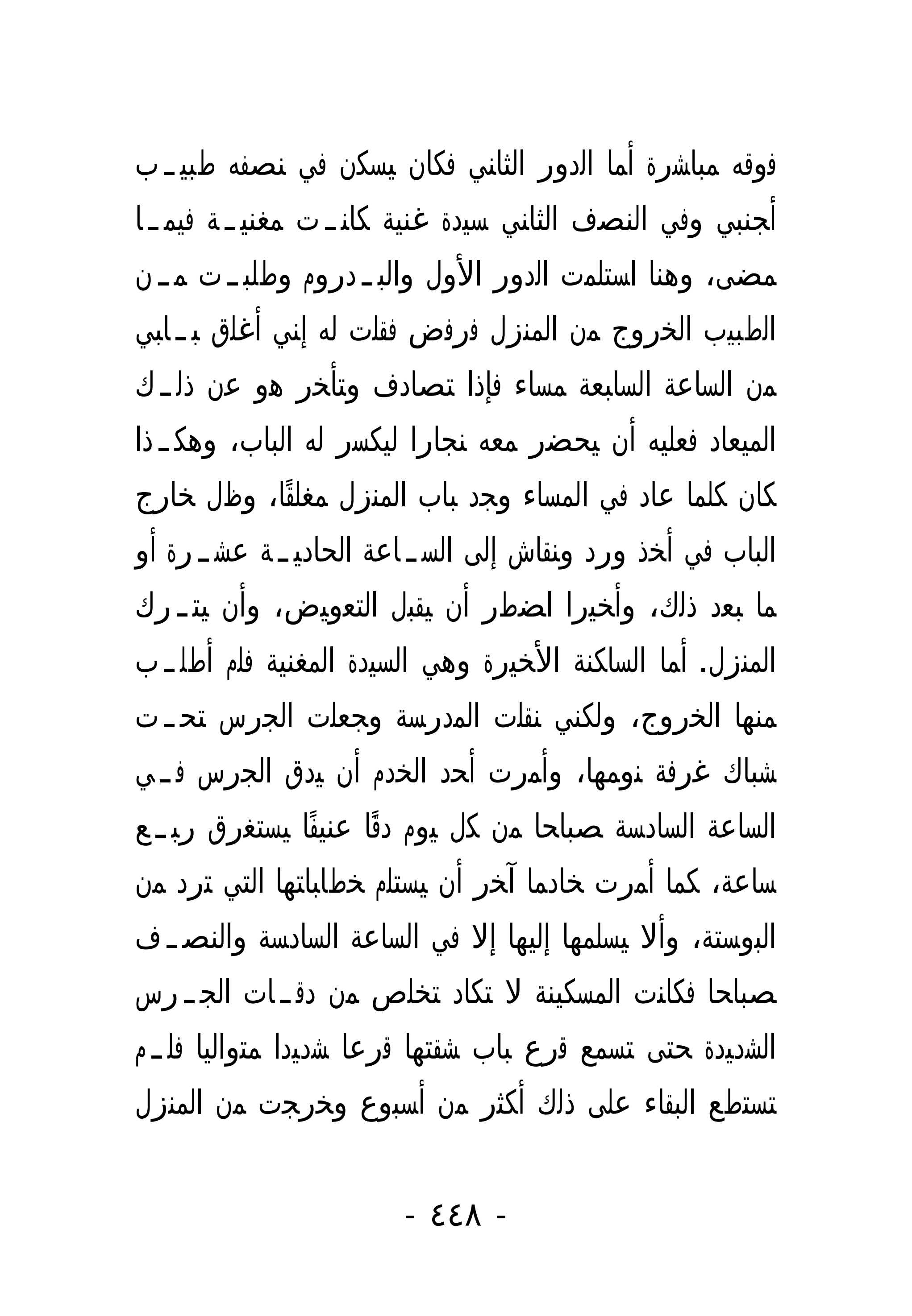

هذا الساكن، وقد أراد أن يمنعني عن غرفتي فخلعت الباب حتى لا يغلقه، وحتى أتمكن من استعمال غرفتي وأمن الساكن على كلامي، ولكنه طلب أن أستعمل الغرفة من شباكها دون أن أدخل الشقة، ورأى الضابط تعقد الحل، فقال: إن هذه مسألة مدنية لا شأن للقسم بها وحياني وانصرف وقام السكان جميعهم وحرضوا ذلك الساكن، وكان فرنسي التبعة. حرضوه أن يذهب إلى قنصل فرنسا، وأن يشكو أمره إليه، وكان لحسن الحظ أن سبق أن قنصل فرنسا قد زار المدرسة وأعجب بتعليم اللغة الفرنسية فيها وقرر لها مبلغًا من المال لإعانتها فكلمته تليفونيا قبل أن يصل الرجل إليه وقلت له: إنني مضطرة أن أنقل المدرسة إلى ذلك المنزل بأسرع ما يمكن وإنني عرضت على الساكن ثلاثين جنيها، وأجرت له الشقة التي ينتقل إليها فوعدني بالمساعدة، ولما ذهب إليه الساكن أمره بالخروج من الشقة وبأخذ المبلغ، ولكن الرجل كان عنيدا فأصر على رأيه، ولم يقبل الخروج وصممت أنا أيضا على رأيي وملأت الغرفة التي أسكنها معه بعدد من موائد الأكل كما ملأت الصالة أيضا بتلك الموائد وعارض الرجل، وكان يعمل في مدرسة الراهبات التي بجوار


مدرستي فشكا أمره إلى رئيستها فأرسلت إحـدى الراهبـات لإصلاح ما بيننا فوجدتني واقفة، وقد اكتظت الصالة بنحـو ١٥ فاعلاً أجرتهم خصيصا لذلك، فسألتني من هؤلاء؟ وكيف يبقون في المنزل؟ قلت: إنهم خدمي ولا بد من مبيـتهم فـي تلك الغرفة وإذا كان هو لا يقبل البقاء معهم فما عليه إلا أن يترك الشقة ويقبل المبلغ الذي عرضته عليه، ولكن الرجـل استمر في عناده وصمم أن يبيت في غرفة نومـه وعـادت الراهبة من حيث أتت واشتريت لهؤلاء الفعلة عشرة أرطال من اللحم الضأن سلقتها على ثريد، وأمرتهم أن يتعشوا باللحم والثريد، وأن يقيموا حفلة ذكر لنبارك بها المنزل الجديد، ثـم يناموا بعد ذلك في الغرفة وضج المكان بصوتهم في حفلـة الذكر وانزعج السكان الأجانب جميعا لأنهم لم يـألفوا تلـك الحالة، وأخيرا اضطر الساكن أن يأخذ زوجته، وأن يبيت بها في أحد الفنادق وفي الصباح قبل مني المبلغ الذي عرضـته عليه وأخذ منقولاته ،وما كاد يخلي الشقة حتى أحضرت فيها كل ما استطعت من أدوات المدرسة، وكان يسـكن نصـف البدروم البحري والشقة التي فوقه ساكن إيطـالي عرضـت عليه أن يخرج من الشقة على أن يأخذ مقابل ذلك خمسـين



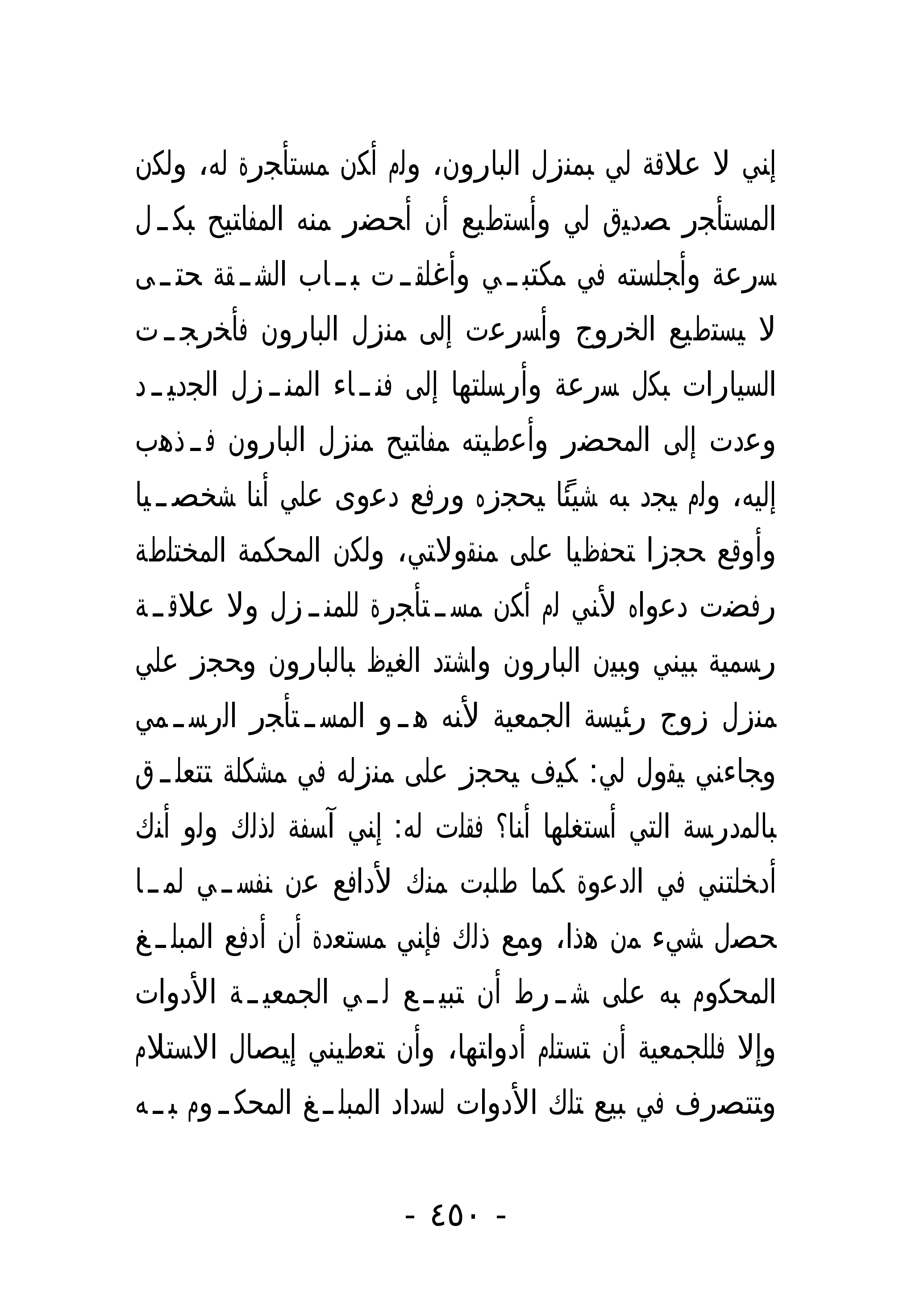
جنيها فرفض، وقـال أمامـك المحـاكم وأردت مضـايقته فاشتريت مترين من الجيـر وعشـرة أمتـار مـن الرمـل ووضعتها على ربوة كانت في الفناء أمام شبابيك الإيطـالي واستأجرت فاعلين بمهزتين وأمرتهما أن يجلسا فإذا رأيا أن شبابيك الإيطالي قد فتحت قاما بعملية الهز، فيضطر الرجـل إلى إغلاق شبابيكه وهي الشبابيك البحرية بالمنزل، وهكـذا مكث العاملان مدة أسبوع فتضايق الرجل وقـال لـي إنـي أجنبي كما تعلمين أي في حماية. قلت: نعم، ولكنك لا تكون في حماية إلا إذا ضربت غيرك أما إذا ضربت أنـت فأنـت كأفراد المصريين، وأنت ترى أن معي من الرجـال العـدد الكثير الذي يستطيع أن يمزقك إربا بأظفاره من غير سلاح.

وخاف الرجل من هذا التهديد كما ضايقه الجير والرمـل اللذين أتلفا منقولاته فقبل التعويض وترك المنزل، أما الساكن الذي كان أمامه في نفس الدور الذي يعلو البدروم فقد كـان مدينًا لصاحب المنزل بمبلغ ثلاثين جنيها وحكـم لصـاحب المنزل بالمبلغ وحجز على المنقولات حجزا تنفيذيا فلم يكـد يسمع مني تنازلي عن كل شيء في نظيـر خروجـه مـن المنزل حتى أسرع بالخروج وبذلك خلا البدروم والدور الذي


فوقه مباشرة أما الدور الثاني فكان يسكن في نصفه طبيـب أجنبي وفي النصف الثاني سيدة غنية كانـت مغنيـة فيمـا مضى، وهنا استلمت الدور الأول والبـدروم وطلبـت مـن الطبيب الخروج من المنزل فرفض فقلت له إنني أغلق بـابي من الساعة السابعة مساء فإذا تصادف وتأخر هو عن ذلـك الميعاد فعليه أن يحضر معه نجارا ليكسر له الباب، وهكـذا كان كلما عاد في المساء وجد باب المنزل مغلقًا، وظل خارج الباب في أخذ ورد ونقاش إلى السـاعة الحاديـة عشـرة أو ما بعد ذلك، وأخيرا اضطر أن يقبل التعويض، وأن يتـرك المنزل. أما الساكنة الأخيرة وهي السيدة المغنية فلم أطلـب منها الخروج، ولكني نقلت المدرسة وجعلت الجرس تحـت شباك غرفة نومها، وأمرت أحد الخدم أن يدق الجرس فـي الساعة السادسة صباحا من كل يوم دقًا عنيفًا يستغرق ربـع ساعة، كما أمرت خادما آخر أن يستلم خطاباتها التي ترد من البوستة، وألا يسلمها إليها إلا في الساعة السادسة والنصـف صباحا فكانت المسكينة لا تكاد تخلص من دقـات الجـرس الشديدة حتى تسمع قرع باب شقتها قرعا شديدا متواليا فلـم تستطع البقاء على ذلك أكثر من أسبوع وخرجت من المنزل

دون أن تأخذ شيئًا، أما الساكن الذي كان يشـغل الإسـطبل التابع للمدرسة، وكان هو أيضا أجنبي فلم أتعب في إخراجه بل خرج على أبسط صورة بعد أن تنازلت له عـن بعـض الإيجار الذي كان متأخرا عليه. وهكذا أخرجت سـتة مـن السكان في مدة شهر واحد، وابتـدأت فـي أن أنقـل بـاقي المدرسة لهذا المنزل، وكنت أعلم أن البـارون قـد كسـب القضية المرفوعة وأنه على وشك الحجز، فأخذت أنقل فـي السر دون أن أخبر التلميذات حتى إذا تم نقل كل شيء فـي الخميس والجمعة عادت التلميـذات يـوم السـبت فوجـدن المدرسة في بنائها الجديد وأسرعت العيون الموضوعة علي فأخبرت أولي الشأن بما جرى فاسـتعجلوا المحضـر يـوم السبت، ولكنه لم يستطع الحضور إلا في يـوم الاثنـين لأن الأحد عطلة رسمية للمحاكم المختلطة.

حضر المحضر يوم الاثنين في منزل البارون فوجد الباب مغلقًا وسأل من الجيران عن المكان الذي نقلت إليه المدرسة، فدلوه علي فجاءني في منزلي الجديد وهنا تذكرت فجـأة أن سيارات المدرسة الكبيرة كانت لا تزل في فناء منزل البارون وخشيت أن يفطن المحضر لذلك فأجلسته في مكتبي وقلت له



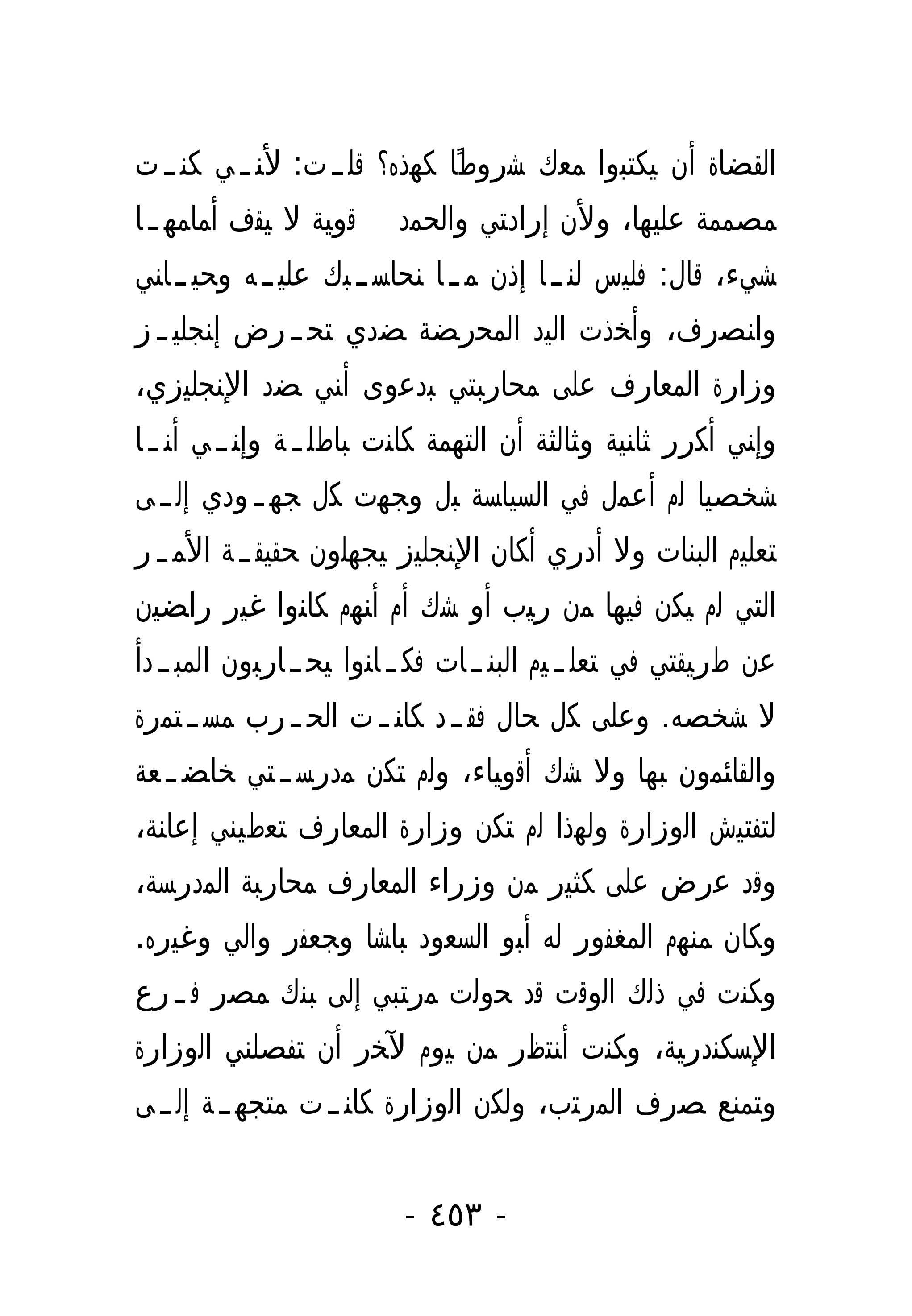
إنني لا علاقة لي بمنزل البارون، ولم أكن مستأجرة له، ولكن المستأجر صديق لي وأستطيع أن أحضر منه المفاتيح بكـل سرعة وأجلسته في مكتبـي وأغلقـت بـاب الشـقة حتـى لا يستطيع الخروج وأسرعت إلى منزل البارون فأخرجـت السيارات بكل سرعة وأرسلتها إلى فنـاء المنـزل الجديـد وعدت إلى المحضر وأعطيته مفاتيح منزل البارون فـذهب إليه، ولم يجد به شيئًا يحجزه ورفع دعوى علي أنا شخصـيا وأوقع حجزا تحفظيا على منقولاتي، ولكن المحكمة المختلطة رفضت دعواه لأنني لم أكن مسـتأجرة للمنـزل ولا علاقـة رسمية بيني وبين البارون واشتد الغيظ بالبارون وحجز علي منزل زوج رئيسة الجمعية لأنه هـو المسـتأجر الرسـمي وجاءني يقول لي: كيف يحجز على منزله في مشكلة تتعلـق بالمدرسة التي أستغلها أنا؟ فقلت له: إنني آسفة لذلك ولو أنك أدخلتني في الدعوة كما طلبت منك لأدافع عن نفسـي لمـا حصل شيء من هذا، ومع ذلك فإنني مستعدة أن أدفع المبلـغ المحكوم به على شـرط أن تبيـع لـي الجمعيـة الأدوات وإلا فللجمعية أن تستلم أدواتها، وأن تعطيني إيصال الاستلام وتتصرف في بيع تلك الأدوات لسداد المبلـغ المحكـوم بـه

أما هو فقد فضل أن يعطيني الإيصال الذي أخذ علي باستلام الأدوات، وأن يأخذ منـي المبلـغ المحكـوم بـه ومقـداره ٢٠٠ جنيه.

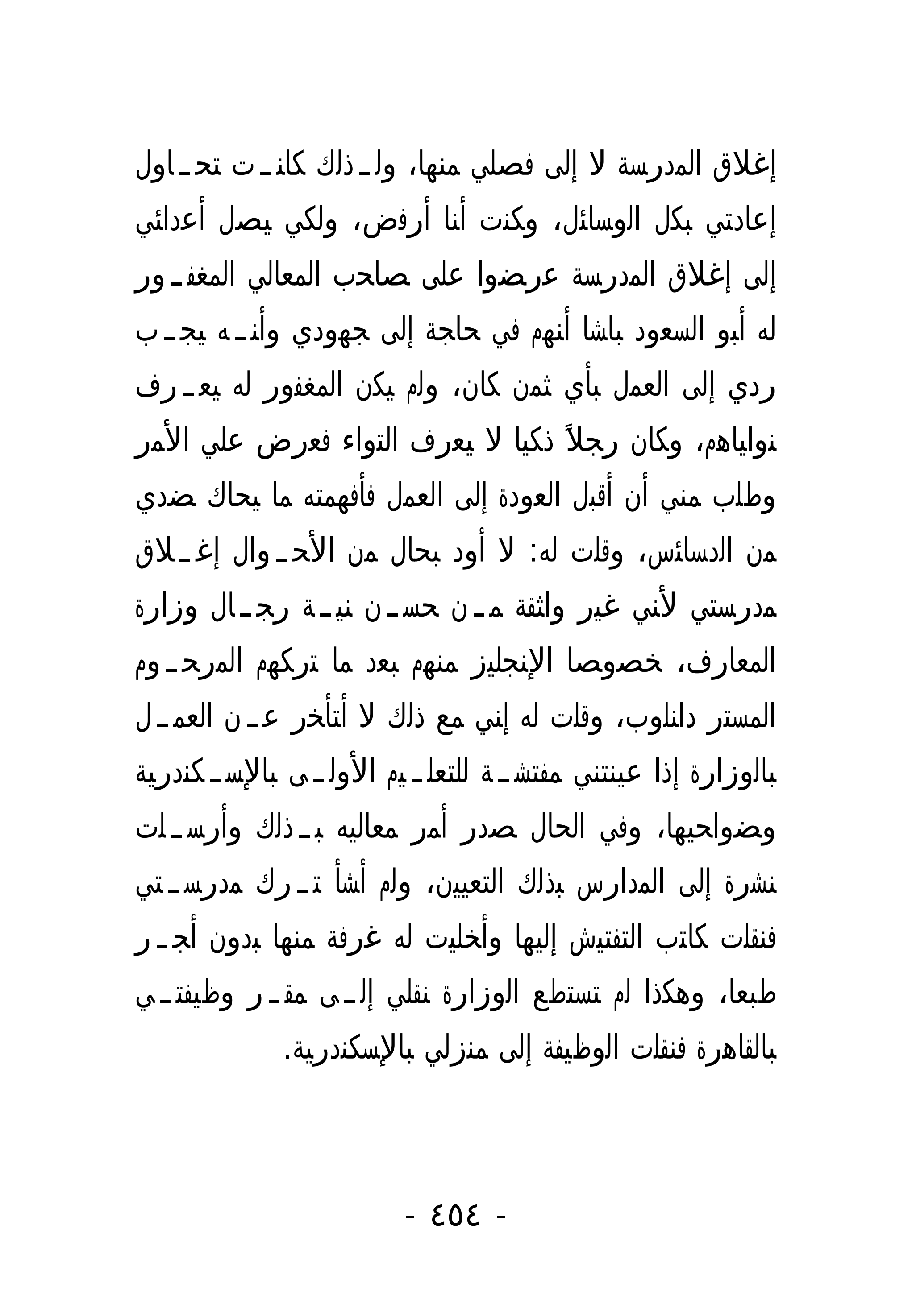
وهكذا انتهت تلك المشكلة.

مناورات

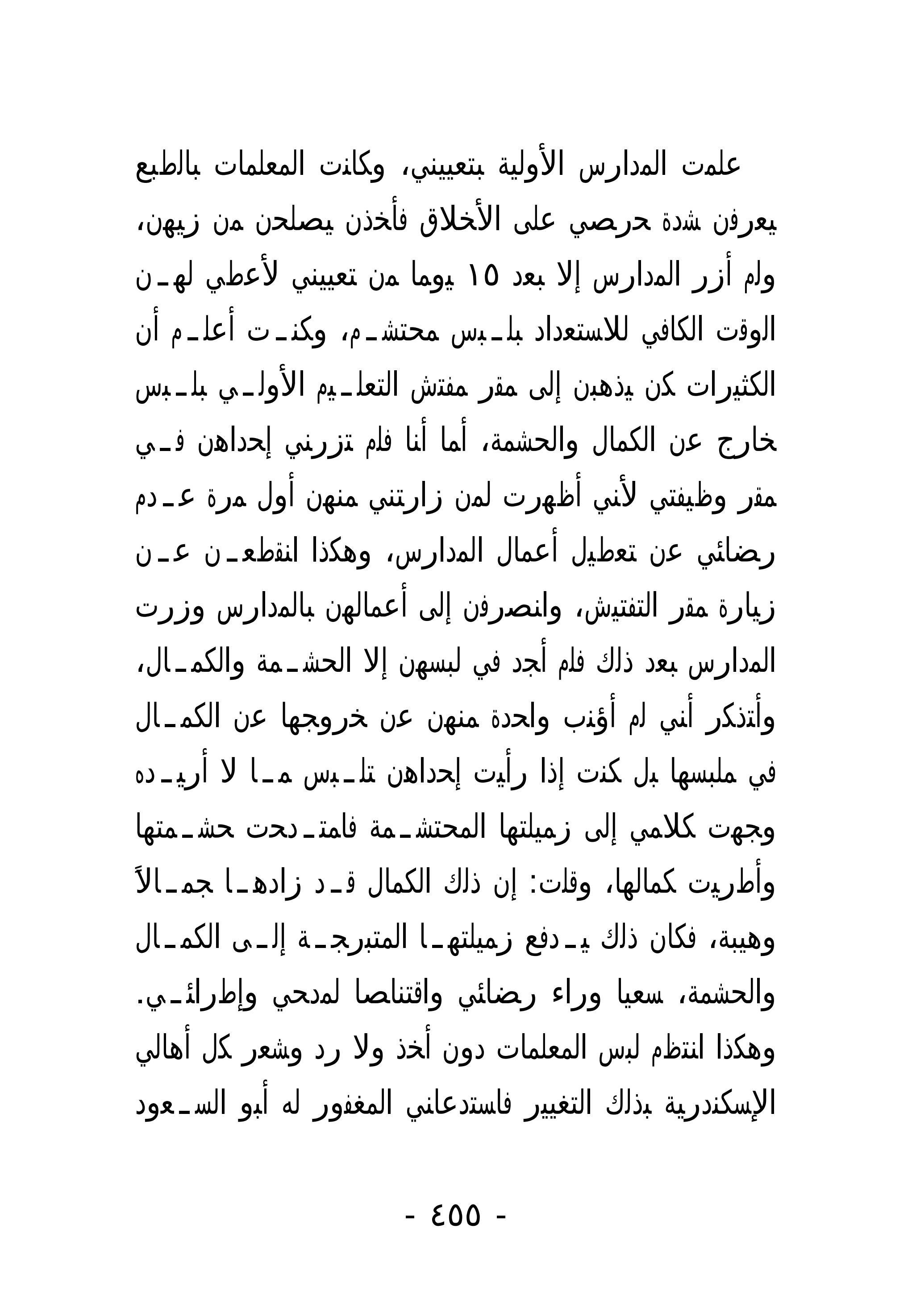
انتهت مشكلة المنزل وسكنت المدرسة في منزلي الخاص، وكنت لا أزال أعتقد أن البارون منشا وهو صاحب المنـزل القديم قد حرض على ما فعل، ولا زالت اليد المحرضة تعمل ضدي فإنني ما كدت أعمل في المنزل الجديد أربعة شـهور حتى زارني أحمد بك كامل، وكان في ذلك الوقـت مراقبـا مساعدا لتعليم البنات فرحبت به اعتقـادا منـي أنـه جـاء ليزورني، ولكن شد ما كان أسفي عندما أخبرني أنـه جـاء ليحاسبني عن مال جمعيـة ترقيـة الفتـاة فقلـت باسـمة: وما قرابتك يا سيدي لجمعية ترقية الفتـاة؟ قـال: إن وزارة المعارف مسئولة عن الأموال التي تجمع باسم التعليم فأبنـت له أن المدرسة لم تصرف من مال الجمعية شيئًا، ولم يصلها من الجمعية إلا أدوات مدرسية كانت قـد تركتهـا وديعـة وأخذت بها إيصالاً، ثم عادت فأخذت مني مبلغ ٢٠٠ جنيـه ثمنًا لتلك الأدوات، وردت لي الإيصال، أما شـروطي مـع الجمعية فقد كانت تمنع الجمعية منعا باتًا من التدخل في مال المدرسة. أظهرت له الشروط، قال: وكيف قبل عـدد مـن



القضاة أن يكتبوا معك شروطًا كهذه؟ قالت: لأنني كنت مصممة عليها، ولأن إرادتي والحمد قوية لا يقف أمامها شيء، قال: فليس لنا إذن ما نحاسبك عليه وحياني وانصرف، وأخذت اليد المحرضة ضدي تحرض إنجليز وزارة المعارف على محاربتي بدعوى أني ضد الإنجليزي، وإني أكرر ثانية وثالثة أن التهمة كانت باطلة وإني أنا شخصيا لم أعمل في السياسة بل وجهت كل جهودي إلى تعليم البنات ولا أدري أكان الإنجليز يجهلون حقيقة الأمر التي لم يكن فيها من ريب أو شك أم أنهم كانوا غير راضين عن طريقتي في تعليم البنات فكانوا يحاربون المبدأ لا شخصه. وعلى كل حال فقد كانت الحرب مستمرة والقائمون بها ولا شك أقوياء، ولم تكن مدرستي خاضعة لتفتيش الوزارة ولهذا لم تكن وزارة المعارف تعطيني إعانة، وقد عرض على كثير من وزراء المعارف محاربة المدرسة، وكان منهم المغفور له أبو السعود باشا وجعفر والي وغيره. وكنت في ذلك الوقت قد حولت مرتبي إلى بنك مصر فرع الإسكندرية، وكنت أنتظر من يوم لآخر أن تفصلني الوزارة وتمنع صرف المرتب، ولكن الوزارة كانت متجهة إلى



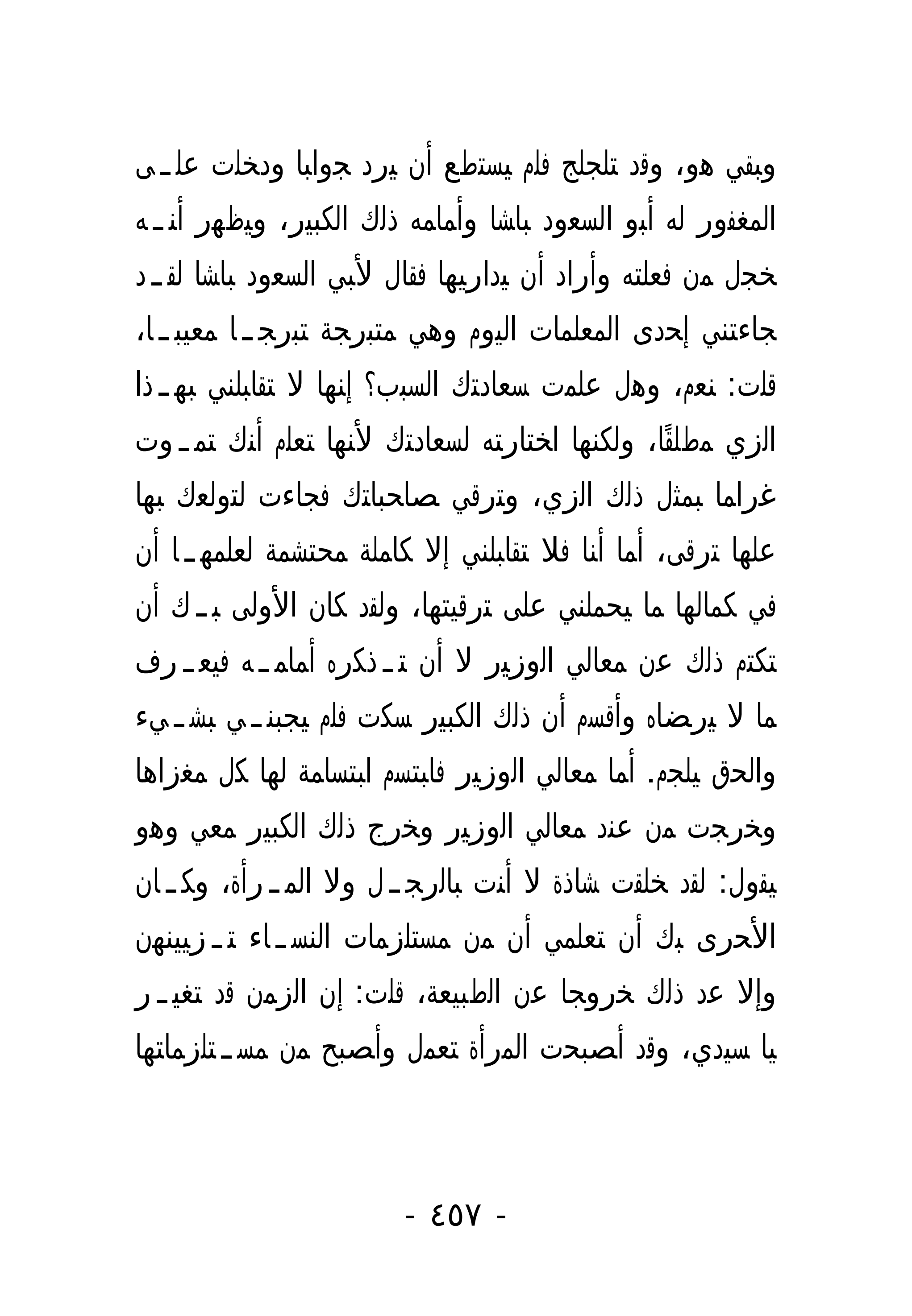
إغلاق المدرسة لا إلى فصلي منها، ولذلك كانت تحاول إعادتي بكل الوسائل، وكنت أنا أرفض، ولكي يصل أعدائي إلى إغلاق المدرسة عرضوا على صاحب المعالي المغفور له أبو السعود باشا أنهم في حاجة إلى جهودي وأنه يجب ردي إلى العمل بأي ثمن كان، ولم يكن المغفور له يعرف نواياهم، وكان رجلاً ذكيا لا يعرف التواء فعرض علي الأمر وطلب مني أن أقبل العودة إلى العمل فأفهمته ما يحاك ضدي من الدسائس، وقلت له: لا أود بحال من الأحوال إغلاق مدرستي لأني غير واثقة من حسن نية رجال وزارة المعارف، خصوصا الإنجليز منهم بعد ما تركهم المرحوم المستر دانلوب، وقلت له إني مع ذلك لا أتأخر عن العمل بالوزارة إذا عينتني مفتشة للتعليم الأولى بالإسكندرية وضواحيها، وفي الحال صدر أمر معاليه بذلك وأرسلت نشرة إلى المدارس بذلك التعيين، ولم أشأ ترك مدرستي فنقلت كاتب التفتيش إليها وأخليت له غرفة منها بدون أجر طبعا، وهكذا لم تستطع الوزارة نقلي إلى مقر وظيفتي بالقاهرة فنقلت الوظيفة إلى منزلي بالإسكندرية.



علمت المدارس الأولية بتعييني، وكانت المعلمات بالطبع يعرفن شدة حرصي على الأخلاق فأخذن يصلحن من زيهن، ولم أزر المدارس إلا بعد ١٥ يوما من تعييني لأعطي لهـن الوقت الكافي للاستعداد بلـبس محتشـم، وكنـت أعلـم أن الكثيرات كن يذهبن إلى مقر مفتش التعلـيم الأولـي بلـبس خارج عن الكمال والحشمة، أما أنا فلم تزرني إحداهن فـي مقر وظيفتي لأني أظهرت لمن زارتني منهن أول مرة عـدم رضائي عن تعطيل أعمال المدارس، وهكذا انقطعـن عـن زيارة مقر التفتيش، وانصرفن إلى أعمالهن بالمدارس وزرت المدارس بعد ذلك فلم أجد في لبسهن إلا الحشـمة والكمـال، وأتذكر أني لم أؤنب واحدة منهن عن خروجها عن الكمـال في ملبسها بل كنت إذا رأيت إحداهن تلـبس مـا لا أريـده وجهت كلامي إلى زميلتها المحتشـمة فامتـدحت حشـمتها وأطريت كمالها، وقلت: إن ذلك الكمال قـد زادهـا جمـالاً وهيبة، فكان ذلك يـدفع زميلتهـا المتبرجـة إلـى الكمـال والحشمة، سعيا وراء رضائي واقتناصا لمدحي وإطرائـي. وهكذا انتظم لبس المعلمات دون أخذ ولا رد وشعر كل أهالي الإسكندرية بذلك التغيير فاستدعاني المغفور له أبو السـعود

باشا وأثنى علي فيما وصلت إليه المعلمات من الكمـال فـي زيهن وضايق ذلك رؤسائي مـن رجـال وزارة المعـارف فاستمروا في محاربتي ليظفروا بما يريدون.

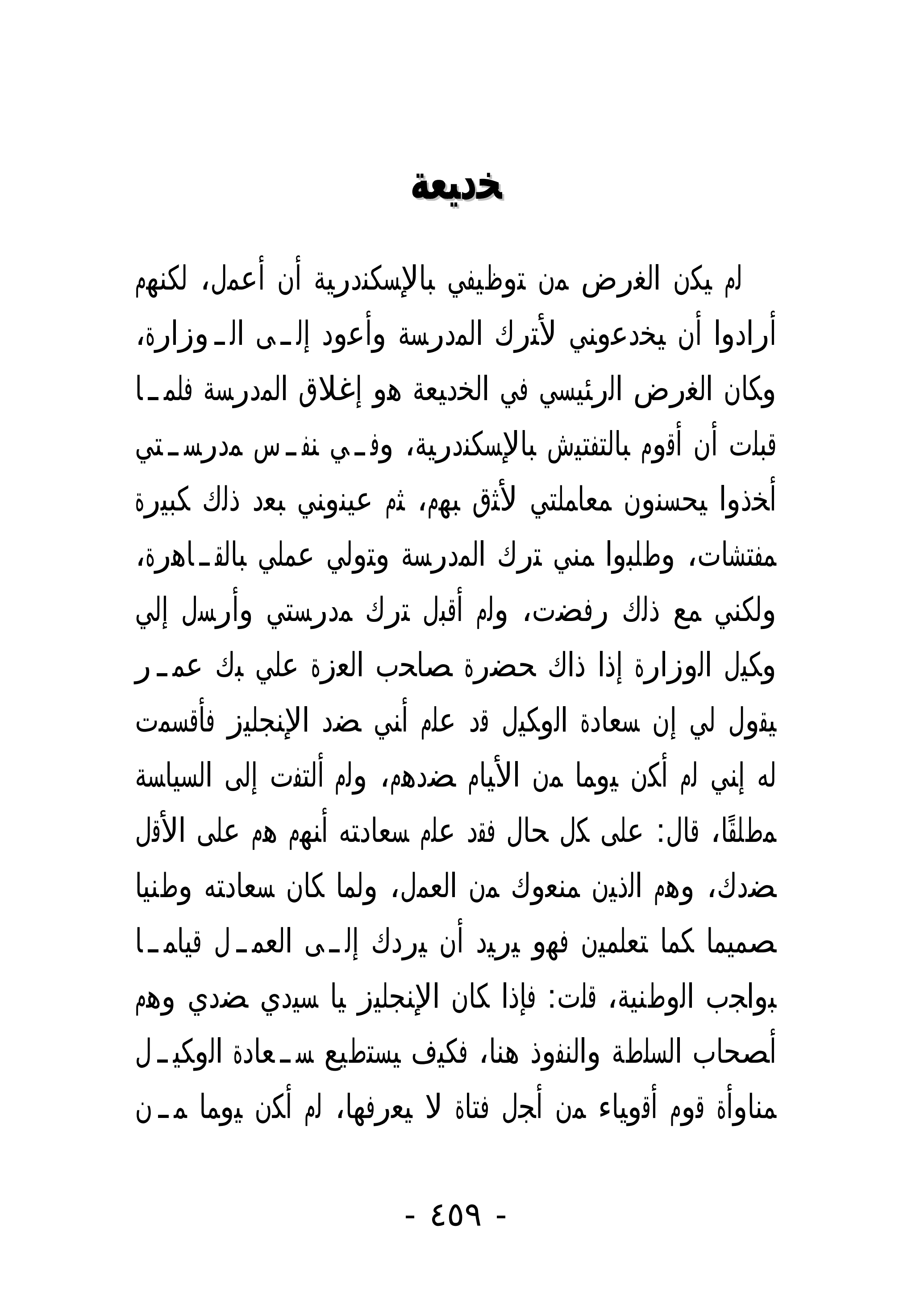
انتقلت الوزارة في صيف ذلك العام إلـى الإسـكندرية، وكان أحد كبراء الوزارة معروفًا لدى المعلمات بمسلكه وميله إلى المجون واللعب، فأخذ بعضهن يذهب إليـه خفيـة دون علمي وذهبت يوما فوجدت إحدى معلمات المدارس الأوليـة وهي جالسة أمام مكتبه، وقد تبرجت تبرجا معيبـا مزريـا وما إن دخلت الغرفة حتى ارتعدت الفتاة وارتعد ذلك الكبيـر أيضا وقام ليحييني فضغط على يدي وغمز بعينـه يريـد أن يلفتني إلى تبرج الفتاة وإلى أنه غير راض عن ذلك، فنظرت أنا إلى المعلمة وقلت لها إن سعادته يضغط على كفي مظهرا عدم رضائه عن زيك مع أنه كـان جالسـا يحـدثك فكأنـه يا ابنتي يغرر بك، وأنت أيها الرئيس لما تظهر عدم رضائك الآن بعد أن جلست معك مدة؟ أما كان الواجـب عليـك أن تظهر لها عدم الرضاء ساعة دخولها عليك لترشـدها إلـى السبيل السوي لا أن تلاينها وتمازحها وتدعي أمامي أنك غير راض عن تبرجها. وتركت الفتاة الغرفة مسرعة بـالخروج



وبقي هو، وقد تلجلج فلم يستطع أن يرد جوابا ودخلت على المغفور له أبو السعود باشا وأمامه ذلك الكبير، ويظهر أنه خجل من فعلته وأراد أن يداريها فقال لأبي السعود باشا لقد جاءتني إحدى المعلمات اليوم وهي متبرجة تبرجا معيبا، قلت: نعم، وهل علمت سعادتك السبب؟ إنها لا تقابلني بهذا الزي مطلقًا، ولكنها اختارته لسعادتك لأنها تعلم أنك تموت غراما بمثل ذلك الزي، وترقي صاحباتك فجاءت لتولعك بها علها ترقى، أما أنا فلا تقابلني إلا كاملة محتشمة لعلمها أن في كمالها ما يحملني على ترقيتها، ولقد كان الأولى بك أن تكتم ذلك عن معالي الوزير لا أن تذكره أمامه فيعرف ما لا يرضاه وأقسم أن ذلك الكبير سكت فلم يجبني بشيء والحق يلجم. أما معالي الوزير فابتسم ابتسامة لها كل مغزاها وخرجت من عند معالي الوزير وخرج ذلك الكبير معي وهو يقول: لقد خلقت شاذة لا أنت بالرجل ولا المرأة، وكان الأحرى بك أن تعلمي أن من مستلزمات النساء تزيينهن وإلا عد ذلك خروجا عن الطبيعة، قلت: إن الزمن قد تغير يا سيدي، وقد أصبحت المرأة تعمل وأصبح من مستلزماتها

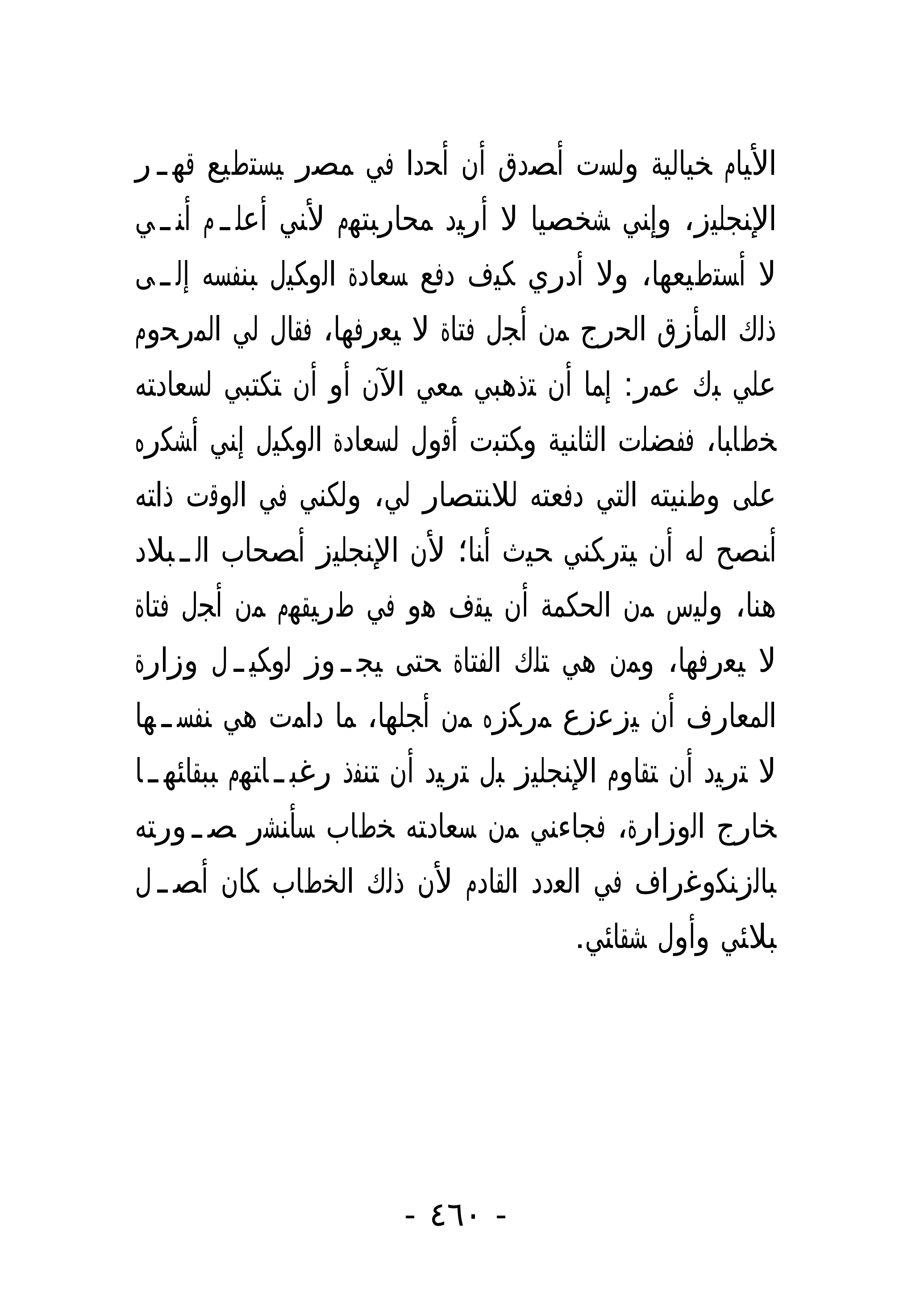
الجد والكمال لتستطيع إتقان عملها وإلا خسـرت الحكومـة كثيرا من توظف النساء.





خديعة

لم يكن الغرض من توظيفي بالإسكندرية أن أعمل، لكنهم أرادوا أن يخدعوني لأترك المدرسة وأعود إلى الوزارة، وكان الغرض الرئيسي في الخديعة هو إغلاق المدرسة فلما قبلت أن أقوم بالتفتيش بالإسكندرية، وفي نفس مدرستي أخذوا يحسنون معاملتي لأثق بهم، ثم عينوني بعد ذلك كبيرة مفتشات، وطلبوا مني ترك المدرسة وتولي عملي بالقاهرة، ولكني مع ذلك رفضت، ولم أقبل ترك مدرستي وأرسل إلي وكيل الوزارة إذا ذاك حضرة صاحب العزة علي بك عمر يقول لي إن سعادة الوكيل قد علم أني ضد الإنجليز فأقسمت له إني لم أكن يوما من الأيام ضدهم، ولم ألتفت إلى السياسة مطلقًا، قال: على كل حال فقد علم سعادته أنهم هم على الأقل ضدك، وهم الذين منعوك من العمل، ولما كان سعادته وطنيا صميما كما تعلمين فهو يريد أن يردك إلى العمل قياما بواجب الوطنية، قلت: فإذا كان الإنجليز يا سيدي ضدي وهم أصحاب السلطة والنفوذ هنا، فكيف يستطيع سعادة الوكيل مناوأة قوم أقوياء من أجل فتاة لا يعرفها، لم أكن يوما من



الأيام خيالية ولست أصدق أن أحدا في مصر يستطيع قهـر الإنجليز، وإني شخصيا لا أريد محاربتهم لأني أعلـم أنـي لا أستطيعها، ولا أدري كيف دفع سعادة الوكيل بنفسه إلـى ذلك المأزق الحرج من أجل فتاة لا يعرفها، فقال لي المرحوم علي بك عمر: إما أن تذهبي معي الآن أو أن تكتبي لسعادته خطابا، ففضلت الثانية وكتبت أقول لسعادة الوكيل إني أشكره على وطنيته التي دفعته للانتصار لي، ولكني في الوقت ذاته أنصح له أن يتركني حيث أنا؛ لأن الإنجليز أصحاب الـبلاد هنا، وليس من الحكمة أن يقف هو في طريقهم من أجل فتاة لا يعرفها، ومن هي تلك الفتاة حتى يجـوز لوكيـل وزارة المعارف أن يزعزع مركزه من أجلها، ما دامت هي نفسـها لا تريد أن تقاوم الإنجليز بل تريد أن تنفذ رغبـاتهم ببقائهـا خارج الوزارة، فجاءني من سعادته خطاب سأنشر صـورته بالزنكوغراف في العدد القادم لأن ذلك الخطاب كان أصـل بلائي وأول شقائي.